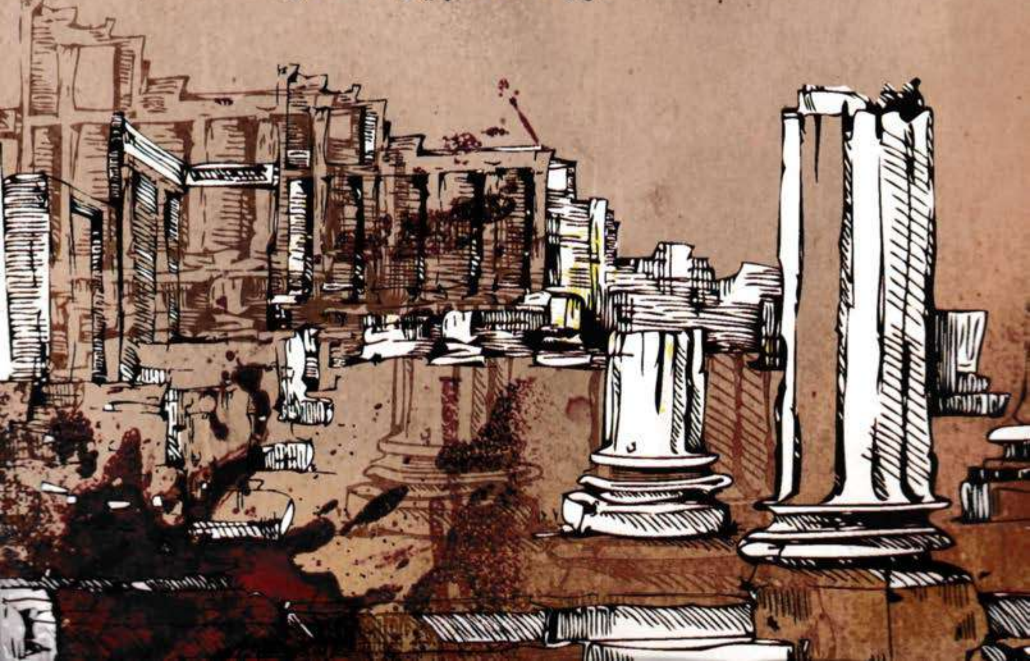
ماريا كورانت

قطنا

رواية تاريخية من عصر إخناتون

ترجمة: د. نبيل الحفار



قَطْنــا

رواية تاريخية من عصر إخناتون



ماريا كورانت

Maria Courant



قَطْنا

رواية تاريخية من عصر إخناتون

ترجمها عن الألمانية:

د. نبيل الحفار

قَـطْـنـا - رواية تاريخية من عصر إخناتون

تأليف: ماريا كورانت

ترجمها عن الألمانية: د. نبيل الحفار

الإخراج الفني: فايز علام

تصميم الغلاف: مناف عزام

الطبعة الأولى - 2017

ISBN: 978-9953-583-88-4

Originally published in German as: «*Qatna*»

الناشران:

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: 9838

هاتف-فاكس: 6133856 11 963+

جوال: 971557195187+

البريد الإلكتروني:

addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني:

addar.mamdouhadwan.net

أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي ش.م.م

الحمرا - الشارع الرئيسي - بناء رسامني

ص.ب: 6435 / 113 بيروت - لبنان

هاتف: 886423 3 961 +

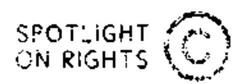
فاكس: 750053 1 961 +

البريد الإلكتروني:

atlasbooks@gmail.com



The translation of this work was supported by a grant from the Goethe-Institute, which is funded by the German Ministry of Foreign Affairs.



تم إصدار هذا الكتاب بمساعدة منحة تقدم بها برنامج
«أضواء على حقوق النشر» في أبو ظبي

This edition has been produced with a subsidy by the *Spotlight on Rights* program in Abu Dhabi

مشروع رواية «قَطْنا»

في عام 2002 اكتشف خبير الشرق الأدنى القديم البروفسور بيتر بفلتسنر Peter Pfälzner أثناء أعمال تنقيب في موقع مدينة قطنا (التي تعود إلى العصر البرونزي، وهي عاصمة مملكة ومركز تجاري واسع تقع على مسافة 10 كم شمال شرق مدينة حمص في سورية) المدفن الملكي السري تحت قصر المملكة التي تعود إلى 4000 سنة. وفي عام 2009 تم اكتشاف حجرة مدفن غير ملموسة هناك.

كان فريق التنقيب الأثري التابع لجامعة مدينة توبينْغن Tübingen الألمانية قد شارك منذ 1999 في حملة التنقيب هناك. وكانت لُقى المدفن حدثاً مثيراً وفريداً. فمن خلال التوابيت الحجرية ومرفقات الموتى وأغراض أخرى كثيرة، بات بالإمكان بناء تصوّر دقيق عن طقوس الدفن وعبادة الموتى في تلك الحضارة السورية القديمة. إضافة إلى ذلك عُثر على أرشيف واسع من الرُّقم الطينية بالكتابة المسمارية، يلقي الضوء على الأحداث السياسية والتبادل التجاري لتلك المرحلة (نحو 1400 ق. م).

بلغت مملكة قطنا ذروة اتساعها وازدهارها بين 1900-1600 ق. م، إذ كانت آنذاك أقوى الممالك السورية، لكنها وقعت بعد ذلك ضحية صراع القوى العظمى في ذلك الوقت (مصرالفرعونية، آشور وبابل وميتاني في ما بين النهرين، والحثّيون في آسيا الصغرى) إلى أن دمرها الحثّيون. وتدل اللُّقى العظمية التي عُثر عليها هناك على وجود الأفيال في سورية في ذلك العصر.

بسبب الحرب الدائرة في سورية منذ عام 2011 اضطر فريق التنقيب الألماني إلى قطع عمله في قطنا. وأما بروفسور بفلتسنر ومعاونوه فيشاركون حالياً في أعمال التنقيب في حصن آشوري جنوبي تركيا.

عند صدور رواية «قطنا - رواية تاريخية من عصر إخناتون» تساءل كثيرون عن

الشخصية الكامنة وراء الاسم المستعار «ماريا كورانت»، ولا سيما في مدينة توبينغن. فالدقة والتفاصيل التاريخية الواردة في الرواية تشير حتماً إلى شخص من محيط عمل البروفسور بفلتسنر. لكن أحداً لم يتوصل إلى الحقيقة، إلى أن قررت المؤلفة كشف السر لأسباب عملية إجرائية بمناسبة ترجمة روايتها إلى العربية في دمشق. إنها الدكتورة آنّه - ماريا فيتكِه Anne-Maria Wittke، عالمة الآثار وخبيرة العصور القديمة، مواليد توبينغن 1955. صحيح أنها لم تشارك شخصياً في تنقيبات قطنا، لكنها تعمل مع بفلتسنر في بحوث حضارات الأناضول وجيرانها.

لقد تحمسَت لموضوع قطنا عندما أخبرها بفلتسنر هاتفياً من سورية بالتفصيل عن الاكتشاف المذهل، فزارت الموقع عيانياً، وكانت بين يديها جميع المعلومات والأفلام والصور والرُّقم المتعلقة بقطنا، والتي استحوذت عليها بتطورها الحضاري، فبدأت مشروعها الأدبي الأول. وسبب لجوئها إلى اسم مستعار هو القاعدة السائدة في الأجواء الأكاديمية والتي تنصّ على الفصل بين العمل العلمي والخيال الأدبي. والاسم مركّب من اسمها واسم جدتها الأولى ذات الأصول الهوغِنتية.

مشهد تمهيديّ

دم، دم في كل مكان. يسيل مغطّياً تمثال الربة، سيدة المدينة. دم يتدفق منها، من حيث كان ينبثق ماءٌ عذب قراح. يفيضُ الآن عن حافة الجرن، يصبغ الأرض بالأحمر، متابعاً تدفّقه من دون توقّف. في قاعة الأعمدة الكبرى تركت آثارٌ حمراءٌ على جدرانها البيضاء علاماتٍ مرعبةً لأيدٍ يائسةٍ، في محاولتها الأخيرة للنهوض.

جثث، جثث في كل مكان. رؤوس مقطوعة، أعضاء مبتورة، أجساد مذبوحة. ومن هنا وهناك يتناهى أنينٌ أخير، وعويل، وصيحات آلام المحتضَرين وعذابات الموت.

وليس سوى ذلك إلا السكون.

لا شيء بعد المعمعة سوى الموت، في كل مكان. قاعات القصر الثلاث يغطّيها الموت. الدم يسيل بلا انقطاع، أحمر كأجمل أرجوان، بمختلف درجاته. عصارة الأجساد تسيل، مستمرّة في صبغ ما حولها إلى الأبد.

وقفتْ هناك جامدةً، عاجزةً عن فهم ما حدث.

ثم أرسلتْ بيليت إكاليم/ عشتار عطاياها، فتحرّكت الريح. ارتفعت نسمةٌ خفيفة، يكاد المرء لا يشعر بها، تسلّلت بهدوء عبر البوابات والقاعات ولامست الموتى بلطف، ثم أخذت تقوى متحوّلةً إلى ريح جبّارة سُمعت قادمة من البعيد، ثم تعالى عويلها وبات مثل الولاويل، إلى أن صارت عاصفة هوجاء، أخذت تسوط بوّابات القصر وتصفقها بشدّة. حملت الريحُ النارَ من مجمر الفحم الهائل في القاعة الكبرى مؤجّجة إياها، مندفعة كالأفاعي، مشعلةً كلّ شيء قابلٍ للاشتعال. انتشر اللهيب بسرعة مثل غزاةٍ جوعى، لاعقاً كلّ شيء في طريقه، ولاحساً حارقاً حتى الغبار في الزوايا المنسيّة. وسرعان ما تغطّى بساط الدم الأرجواني ببحرٍ من ألسنة لهيبٍ برتقاليٍّ مشوبٍ بالزُّرقة. تصاعدت الحرارة منتشرة في القصر، وغطّت سحبُ الدخان مجال الرؤية أمام عينَي الكاهنة الجامدتين.

أغمضت عينيها، وعندئذٍ فقط أدركت الروائح. سحابة قربانٍ مشويّ ذات حجم مذهل.. مأدبة احتفال بيليت إكاليم سيّدة المدينة، ولكن لأجل أيّ أرباب؟.. كانت تملأ الهواء، إضافة إلى رائحة شعرٍ وقرون تحترق. أجساد ميتة مغطّاة بدروعٍ جلديّة يتصاعد منها البخار، تحت قمصانِ الزردِ البرونزيّة المنصهرة، كانت تغلي في دمٍ أرجوانيّ. لحم بشريّ في كلّ مكان، مشويٌّ محترق محمَّر، كان يخنق حواسّها.

عندما كادت كيّا تفقد وعيها، أدركت بوضوحٍ عاجزٍ أن المدينة قد سقطت.

«ما بك يا سيّدتي الصغيرة؟ كيّا! اصْحي!».

بهدوء ورفق همسَ صوتٌ في أذنها. أحسّت كيّا بنفسها محمولة على ذراعين دافئتين تهدهدانها كطفلة صغيرة. لم تكن قادرة على فتح عينيها، فقد ملأها ذعرٌ لا حدود له.

«كيّا، حبيبتي. لقد حلمتِ، رأيتِ أمراً مروّعاً. أنت غارقة في عرقك. تعالي، اشربي شفةً!».

لكنها لم ترغب في أن تشرب، بل في أن تنسى، وسقطت في نوم عميق.

قامت تايا، المربّية المخلصة الملهوفة، بتجفيف وجه الفتاة، وفردت فوقها غطاء جديداً، ثم نثرت على وجهها رذاذ روائح عطرة، واستلقت إلى جانبها لتحرس نومها.

1

1355 ق. م

هيمن هدوء الأشباح على حتّوشا، عاصمة مملكة الحثّيين. بعد أن أفرغت العاصفة الثلجية غضبها بين المرتفعات الصخرية، أضاء قمرٌ شتائيّ شاحبٌ البهاءَ الأبيض الذي غطّى المدينة المتدرّجة على المرتفعات، وكذلك القلعة الملكية، على حدٍّ سواء، دونما تمييز. ولم تعد تُسمع حتى أصوات بنات آوى، فقد أوى البشر والحيوانات إلى بيوتهم هرباً من البرد.

لم يدرِ (شوبيلو ليوما) ما الذي أيقظه. ربما سكون الريح المفاجئ، وربما لمجرّد شعوره بأنه كان على زوجته أن تكون مستلقية إلى جانبه. لكنها لم تكن هنا، ولم تكن تسرِّح شعرها الحريريّ. إنها ليست في مخدع النوم، فنداؤه الخافت لها بقي دون جواب. رغم أن الجمر في مجمر الفحم لا يزال متوهّجاً، كان جوّ المخدع بارداً، ولم يشعر ثاني أبناء الملك توذهاليا برغبة في مغادرة سريره الدافئ وأغطيته الفرائية المريحة. كان قد تجاوز العشرين ببضع سنوات، لكنه قال في نفسه، إن من حقّ محارب متعَب أن ينعم براحة الشتاء. ومع ذلك أقلقه غياب زوجته هِنتي. لقد أثّر فيها تأثيراً بالغاً مرضُ الملك ثم موته. وتعلُّقُ هنتي بحميها إلى هذا الحدّ فاجأ شوبيلو. فمنذ أن قدِمت قبل سنوات إلى بلاط حتّوشا، من بلدها البعيد في الغرب، نشأت علاقة حميمة بينها وبين أمّه الملكة تادوهيبا، وبالدرجة الثانية مع أبيه تودهاليا، أو هكذا كان انطباعه على أية حال. ربما كانت ليالي سهرها الطويل إلى جانبه أثناء احتضاره قد أدّت إلى تقاربهما. وأخيراً عندما مات الملك وتحرّر من آلامه وصار ربّاً، حسبما اعتاد الناس في حتّوشا أن يقولوا بكل تبجيل، حزنت عليه هنتي وكأنه والدها. ولم تتراجع شدّة ألمها، رغم مرور مدة طويلة على دفن الملك وتنصيب الملك الجديد (لابازنا) على العرش.

هذا اللابارنا الجديد! كوَّر شوپيلو قبضته بغضب، إذ كيف يسمح الأرباب بذلك! طبعاً لأنه هو الأكبر، ولذلك طبعاً يحقّ له العرش الحديديّ. ولكن ألم يدنِّس هذا العرشَ حتى قبل أن يجلس عليه؟ ثم هذه العجرفة! كيف يلقّب نفسه بلقبِ عرشٍ والده نفسه، وكأنه يشبهه في شيء؟! هل انتصر في أية معركة؟ لا. أهو حاكمٌ حكيم؟ لا. إذاً ليس هناك ما يبرّر حمْلَه الصولجان سوى كونه البكر.

ولكن ما بال شوپيلو يعذّب نفسه بهذه الأفكار في منتصف الليل، فهو لن يستطيع أن يغيّر من الأمر شيئاً!

أين هنتي؟ هل ذهبت إلى المطبخ يا ترى لتحضر لنفسها شراباً منوّماً؟ هناك خدم لذلك. نادى مرة أخرى. لا جواب. إما أن الخدم قد ناموا، وإما أنهم قد تسلّلوا إلى خارج المخدع. غضب شوپيلو، فنهض وتلمّس معطفه ولبس حذاءه الفرائيّ. تناول سلخة خشب وأشعلها من فحم المجمر، وخرج إلى الدهليز الخالي والبارد.

على الأقل ما زالت المشاعل كلّها تنشر ضياءها، ما يعني أنه لم ينم طويلاً. قرّر البحث في جناح المطبخ، فلا بدّ أن يلتقي على الطريق بأحد الخدم. نزل الدرج الحجريّ العريض المؤدّي إلى ردهة مركزية في الطابق الأرضي، ومن هناك تمتدّ أدراج وممرّات أخرى، تؤدّي إلى قاعات وحجرات كثيرة تشغلها حاشية القصر، عدا الملكة الأم تادوهيبا والملك الجديد، اللذين يقيمان في البناء المجاور والأكبر. تبع شوپيلو حدسه وتوجّه نحو الحمّامات، فلربما أمرت هنتي بتحضير حمّام ساخن لها. لم يجد أحداً في الردهة، ففتح الباب المؤدّي إلى القبو، حيث توجد، إضافة إلى غرف المؤونة، الحمّامات الواسعة بأحواضها الفخّارية، التي يستخدمها جميع من في القصر.

توقّف شوپيلو في مكانه عندما سمع أصواتاً عالية. هنا إذاً تختبئ زوجته الحبيبة، بدل أن تنام إلى جواره بسلام. أسرع خطاه حتى وصل إلى أحد أبواب الحمامات، وتردّد لحظة، إذ لا يليق به أن يندفع داخلاً والنساء تستحمّ. لكنّه سمع صوت رجل يعرفه جيداً، ولا علاقة له بهذا البناء كله. لاحظ شوپيلو أنه ما إن يفكّر بأخيه حتى يعاوده الغضب. ماذا يفعل أخوه هنا في هذا الوقت؟

أليس هذا صياح هنتي؟ فتح الباب بشدّة وجمد في مكانه، ثم اندفع وهجم على تودهاليا مطلقاً صرخة عالية. شدّه عالياً، ثم رماه أرضاً واعتلاه ضاغطاً جسمه بساقيه كالملزمة، وأخذ يخنق أخاه بيديه بغضبٍ جنونيّ.

«سأقتلك يا حيوان، سأقتلك!». كرّر ذلك لاهثاً عدّة مرات. ولم يُبعد يديه عن رقبة أخيه إلا عندما تناهى إليه صياح هنتي، كما من بين الضباب. قال وهو ينهض عنه: «لا، لن أجعل الأمر يمرّ بمثل هذه البساطة، فهذا من شأن الأرباب، ليحاكموكَ أخيراً ويدينوك. إنك تُقرفني! قيّدوه!». أمر الحرسَ الذين هرعوا إلى المكان نتيجة الضجّة.

بينما كان شوپيلو يدثّر زوجته المرتجفة بالمعطف، أمسك الحرس بشيء من التردّد بملك بلاد الحثّيين الممشوح، الذي نهض بصعوبة ممسكاً برقبته. بكلمة أو إشارة منه كان الحرس على استعداد للسجود عند قدميه، بغضّ النظر عما رأوه أو سمعوه. لكن الملك بقي صامتاً. وقف هناك عارياً، سامحاً لهم من دون مقاومة ومن دون نأمة أن يقيّدوا يديه خلف ظهره.

«غطّوه بعباءته أو بأيّ شيء آخر، لنعفيَ أنفسنا من هذا المنظر!». قال شوپيلو لجنوده وكلماته تقطر احتقاراً.

عندئذ رفع الملك ناظريه، والتفت أولاً نحو هنتي التي التجأت إلى ذراع شوپيلو وهي تبكي على كتفه، ثم التفت نحو أخيه الواقف أمامه مثل إله الانتقام بنظراته الملتهبة. وببطء تحوّل وجه الملك إلى تكشيرة عريضة، ثم تدريجياً إلى تعبير انقباضٍ مشمئزّ، إلى أن انفلت يضحك كمن تسكنه الشياطين، فتركه الجنود مرتاعين. لم يتأثر شوپيلو بهذا المشهد، فقد كان مشغولاً بكبح جماح غضبه، ثم قال للحرس: «خذوه من دون ضجّة إلى المحرس الخلفي واحجزوه هناك! هيّا تحرّكوا! أم تريدون مشاركة هذا المجنون مصيره؟ أنتم المسؤولون عنه، وضمانته هي حياتكم البائسة. واحذروا أن يراه أو يسمعه أحد. وإذا أصدر أيّ صوت، فاحشوا فمه بمنديل! لا تنبسوا بكلمة لأيٍّ كان! فما رأيتم هنا يجب أن يبقى حبيس صدوركم إلى الأبد، وإلا، على غير عاداتنا، ستخسرون ألسنتكم وعيونكم، أعدكم بذلك! أقسِموا على ذلك هنا، والآن!».

نفّذ الرجال ما أُمروا به، فقد كان شوپيلو قائدهم العسكري، وهم يطيعونه طاعة عمياء، على الرغم من أن المسألة الآن تتعلق بالملك نفسه، الذي تحوّل ضحكه إلى قرقرة عجيبة. هل كان مخموراً؟

وإذا به يصيح فجأة: «كنتُ فحلاً، بل فحلاً جداً. ما رأيكنّ يا حماماتي الحلوات؟ أليس الأمر هكذا أفضل بكثير؟». مع من كان يتكلم؟ وفجأة أيضاً التفت نحو شوپيلو، وكان صوته طبيعياً تماماً، وإن شابته بحّةٌ خفيفة، وخاطبه قائلاً: «هل أنت راضٍ يا أخي؟

سأفسح لك في المجال، حسبما حلم دائماً أبونا العجوز الخرِف. وهذا كلّه بمنزلة هديّة وداع بسيطة، ألست معي في ذلك؟ وطبعاً ما كنتَ لتسمح لي بذلك قط. كنتَ تضنّ عليّ بكل شيء. كنت تريد كلّ شيء لنفسك، كلّ فوز وكل انتصار، ومحبّةَ الأب والأم والأرباب أيضاً. وها قد فزتَ بكلّ شيء، احتفظ بها وافعل بها ما تشاء. أنا لا أحتاج إلى أي شيء. يا جميلاتي، يا رفيقاتي الشبقات، انتظرنني، أنا قادم!». وأخذ يضحك من جديد.

بكلمات ترشح كراهيةً، أمر شوپيلو رجاله بإبعاد الملك التعس عن عينيه، ثم قال: «أرسلوا لي بسرعة خادمتين من خدم السيدة، وضعوا حارساً على الدرج إلى الطابق الأول. وأبلغوا الملكة الأم تاوانانّا بضرورة قدومها إليّ!». وعند ذلك فقط التفت شوپيلو إلى زوجته قائلاً بكل حبّ: «هنتي، هل تماسكتِ؟». هزّت رأسها موافقة وأجابت بصوت خافت: «يبدو الأمر أسوأ مما هو عليه حقاً. دعني هنا قليلاً، والخادمات سيرافقنني بعدئذ».

«أقادرة أنت على المشي؟». وعندما أومأت برأسها ثانية، وضع ذراعه حولها وقال: «سأنتظرك فوق في غرفة الجلوس الصغيرة ذات الشمعدان الكبير. حتى تصلي ستكون دافئة بصورة مريحة. وسيكون بانتظارك حساء لذيذ ساخن من المطبخ، فهذا سيكون مفيداً الآن، أليس كذلك؟». قبّلها على عينيها وفمها، ولم ينفصل عنها حتى ظهور الخادمتين مرعوبتين.

بعد حين، عندما ظهرت الأميرة هنتي في غرفة الجلوس، ملتفّة بمعطفها المبطّن بالفراء، كانت أكثر تماسكاً. لكن ما إن وقع نظرها على حماتها، تاوانانّا تادوهيپا، حتى انهمرت دموعها لا إرادياً. مشت تادوهيپا نحوها واحتضنتها وهي تهمس: «يا صغيرتي المسكينة، ما أشدّ أسفي!». ربّتت على شعرها بأمومة وقادتها إلى المقاعد المنجّدة حول مجمر الفحم، وقالت: «خذي، اشربي هذا، سيفيدك!».

بعد بضع رشفات قال لها شوپيلو: «هنتي، يا أميرتي! يجب أن تكوني قوية الآن، وأنا أعرف أنك كذلك. كنتِ صبية يافعة عندما اجتزتِ بنجاح الرحلة الطويلة والخطيرة من موطنك إليّ، وخلال سنوات قليلة أهديتني خمسة صبيان رائعين وربّيتهم. ما حدث اليوم سننساه سريعاً، ولكن يجب عليّ الآن أن أرجوكِ، احكِي لنا كلينا ما حدث، وبدقّة. أعِدُكِ بأن لا أحد سوانا سيطّلع على التفاصيل!».

هزّت هنتي رأسها موافقة.

برأسين منكّسين أنصت كل من تاوانانّا وشوپيلو إلى كلمات هنتي. ثم توجّها إليها بشكرهما: قبّلتها تاوانانّا على جبينها وباركتها، أما شوپيلو فقادها من يديها إلى الباب، حيث سلّمها إلى الخادمتين، وأمر بوقوف حارسين على مخدع النوم لحمايتها، ثم قال لها: «سألحق بك بأسرع ما يمكن يا حبيبتي. حاولي أن تنامي!».

بعد مغادرة هنتي قالت الملكة الأم بحزن: «يُحتمل أننا قد أخطأنا آنذاك يا بني»، تنهّدت وأردفت: «مضى على ذلك سبعة عشر عاماً تقريباً، ومع ذلك يبدو لي وكأنه حدث بالأمس». وغطّت رأسها من شدّة الألم. فقال شوپيلو: «ألم نأمل جميعنا بأن يصحو أخي تودهاليا من أسر غريزة شبابه التي فجّرها شربه الكثير من خمرة العسل والجعة!؟».

«لا، شوپيلو! تودهاليا كان في العشرين من عمره، ولم يكن فتى غرّاً. لا، لا يجوز أن تحاول حمايته. لقد ابتلاه الأرباب منذ تلك الحادثة، وكان علينا أن ندرك إشارة الأرباب. ولكن بغية عدم تعريض حكم سلالتنا للخطر، سكتنا عما رأيناه بأعيننا، عن أنه لم يعدْ من مخرجٍ أمام أختك سوى الانتحار. وقبِلنا بمأساة صديقتها كالي، بل ارتحنا عندما سمعنا بعدئذ بالأمر الرهيب الذي تعرّضتْ له مع أخيها هَنّوتي. ثم جاء زواجها في البلد البعيد كيزُواتنا بمثابة حلٍّ كالمعجزة، ليبعدنا عن التفكير بذنبنا، وبحيث لم يخطر ببال أحد حتى اليوم أنّ لوليّ العهد إصبعاً في ما جرى آنذاك». ضحكت تاوانانّا بمرارة وتابعت: «لا، شوپيلو، علينا اليوم أن نسدّد ثمن الخطأ الذي تعامينا عنه آنذاك، جميعنا. لا بدّ أن نوقفه عند حدِّه! لو أن أباك ما زال حيّاً وعرف!». ومن هول ما تصوّرتْ غطّت وجهها بكفّيها، ثم تساءلت بصوت خافت: «علامَ يعاقبنا الأرباب بمنحنا بكراً على هذه الشاكلة؟!». وكانت عيناها تحدّقان في لهيب النار بجمود.

في أثناء ذلك كان شوپيلو يمعن التفكير. أمّه على حقّ. أخوه قد ابتُلي، وابتلي برغبة يعاقب الأرباب على تلبيتها بمنتهى الشدّة، وهي الرغبة في أخته بالذات، والتي أبت إشباع شهوته. لكنّه أخذ منها عُنوةً ما رفضتْ محقّةً أن تقدّمه له. ولم يكتفِ بأخته، بل اغتصب صديقتها كالي أيضاً. امتلأ شوپيلو بالاشمئزاز وهو يتذكّر ما رآه آنذاك، عندما مرّ مصادفة بباب غرفة البنات. كان أخوه يعتلي كالي كالسكران. ويبدو أنه كان قد انتهى من أخته (زيپلانْتاوي)، فقد كانت متكوّرة على نفسها في زاوية الغرفة وهي تُنهنِه مثل حيوان مضروب. نعم، كان عليهم منذ تلك الواقعة الكارثية أن يقفوا في وجهه. لا يمكن للإنسان أن يخدع الأرباب، لقد رأوا كل شيء. فما العمل الآن؟

سمعت أذناه تادوهيبا تقول بهدوء وحزم: «علينا أن ندعو إلى اجتماعٍ لمجلس الشيوخ المصغّر فقط، إذ لا يجوز بأي حال من الأحوال أن يعلم أحد بما جرى الليلة من خارج هذه الحلقة الضيّقة. المجلس الموسّع سيحترم قرارنا. لقد راكَم تودهاليا على نفسه من الذنوب ما لا يُغتفر، فخيّب أمل الأرباب مراراً. لم يعد أمامنا أيُّ خيار: لا يجوز أن يستمرّ حياً!».

بينما كانت هنتي في أعماق الليل تتقلّب في فراشها في مخدع النوم، وهي تسمع عويل الرياح، خطر ببالها فجأة أن زوجها وحماتها لم يلمّحا قطّ إلى احتمال أن تكون هي المذنبة في واقعة الليل المريعة. يبدو أنه كان جلياً لكليهما أن الزاني هو الملك تودهاليا وحده. شعرت بالامتنان لعدم اضطرارها للدفاع عن نفسها، لكنها مع ذلك استغربت الأمر. فقد جرت العادة بأن تُتّهم المرأة باستخدام مفاتنها لاستدراج الرجل الذي يبقى بعيداً عن تحمّل المسؤولية.

ما الذي هيَّج أخا زوجها؟ إنها لم تحاول إغراءه قط، وهي لم تعد صبيّة، بل بلغت الثالثة والثلاثين بعد أن أنجبت عدّة بطون. لقد أراد أن يؤذي أخاه الذي يكرهه، هذا ما قاله. ولكن، أبهذه الطريقة؟ هل هما في حالة حرب؟ ربما. وانهمرت دموع هنتي.

عندما دخل شوپيلو أخيراً مخدع النوم، بعد تلك الواقعة المريعة، كانت هنتي في حالة نوم مضطرب، فأشار إلى الخادمتين بهدوء لتخرجا.

في اليوم التالي مباشرة انعقد مجلس الشيوخ المصغّر، مع صباح بارد مشرق، ومع روعة نقاء الثلج مقابل حلكة حدث الليلة الماضية ومرارته. يتألف هذا المجلس من صفوة أعيان حتّوشا، وهم قلّة: الملكة الأم، والمرشّح للعرش، وثلاثة من إخوته.

أصدروا حكمهم بأنّ ربّ الطقس في حتّوشا وربّة الشمس في أرينّا قد سحبا الثقة من الملك. فإخفاقه كملك في شؤونٍ متعدّدة، وآثامه تجاه المحرّمات بصورة مريعة، كانت من الخطورة بحيث استحقّ عقوبة الموت. منح المجلس المصغّر تودهاليا فرصة أخيرة، كي لا يورّط أحداً آخر في ذنبه، وأرسلوا إليه في سجنه خنجراً، لكنه رفض أن يقتل نفسه بنفسه.

مباشرة بعدَ دفن تودهاليا في عالم النسيان، اعتلى شوپيلو ليوما العرش. وقد استحسن الأرباب ومجلس الشيوخ قتل تودهاليا، وأعلنوا براءة المشاركين في العملية من أيّ ذنب، وأُسدل ستارٌ من الصمت على الأحداث.

وبذلك انطلقت مرحلةُ حكم خصبة وطويلة جعلت المملكة الحثيّة إحدى أقوى الممالك بين القوى العظمى: مصر، بابل، ميتاني، آشور. وكان الهدف المعلن للملك الجديد إعادة توسيع المملكة إلى حدودها القديمة، ولا سيّما في منطقة الهلال الخصيب حيث تقع مملكة ميتاني والدويلات السورية. ومباشرة بدأ الملك شوپيلوليوما مع كبار ضبّاطه بالعمل.

2

من الربيع إلى أواخر الصيف (1353 ق. م)

وقفت الأميرة كيا في مكانها وأنصتت. ألم يكن هذا الصوت الجهوري صوت الملك؟ مع من كان يتكلّم؟ كانت كيا في طريقها إلى جناح أمّها الأميرة إيسِت، محاولة تجنّب الالتقاء بالملكة، الزوجة الرئيسية لأبيها إيداندا ملك قطْنا. لذلك كانت تستطلع المكان بحذر، من الشرفة الداخلية المطلّة على باحة القصر. رأت هناك أباها والملكة بِلْتوم وأخاها البكر أكيزّي، وكان معهم غريبان، رجل أربعينيّ ذو هيئة مميّزة، وشابّ أصغر بكثير، أصغر من أخيها، لا شكّ. كانا يلبسان رداءين صوفيَّين طويلين فاتحَي اللون، بزنّارين، وبحواف مزيّنة بتعريقات غنيّة بالألوان. وكان أكبرهما يغطّي رأسه بطاقيّة مبرومة الحواف، غنيّة بالنقوش، وتبدو مختلفة تماماً عمّا ألف الناس ارتداءه هنا في قطنا. يُرجّح من ثيابهما أنهما قادمان من إحدى المناطق الشمالية.

يبدو لطيفاً. فكّرت كيا وهي تتملّى الشابّ الرشيق ذا الشعر الداكن. لم تستطع تبيّن تفاصيل شكله من هذه المسافة، ومع ذلك دهمها شعور مفاجئ بأنه ينظر باتجاهها تماماً، فارتدّت برأسها مرعوبة إلى خلف الجدار. وصل إليها صوت أبيها العالي يقول: «هذا لا يصدَّق، فقد وصل إلى علمنا أن بعض الاضطرابات وقعت في مدينة حتّوشا بعد وفاة الملك العجوز تودهاليا المؤسفة، وعقب ذلك مباشرة نُصّب ابنه البكر على العرش، أليس كذلك؟».

فأجاب الزائر: «نعم، هذا صحيح. ولكن بعد مدّة وجيزة، تبيّن أن بكر تودهاليا الذي اختار اسم أبيه أيضاً، أي تودهاليا، عند التنصيب، لم يكن صالحاً قطُّ للحكم، إذ إنه لم يمتلك قدرات أخيه الأصغر شوبيلو ليوما. اللابارنا الإلهي العجوز أدرك ذاك مبكراً،

ولذلك كان يفضّل ابنه الثاني، فقد اصطحبه معه منذ سنوات في جميع الحملات العسكرية لاسترداد المقاطعات التي فقدتها حتّوشا».

«إذاً، لماذا لم يجعل لابارنا العجوز شوبيلوليوما وليّاً للعهد من بعده، إذا كان قد أدرك أن بكره لا يصلح للحكم؟».

«في حتّوشا ليس الأمر بهذه البساطة، فهناك قانون قديم جداً ينصّ على أن بكر الملك والملكة الأم الشرعية، أي التواناتّا، هو الذي يخلف أباه على العرش الحديديّ. وليس في نطاق سلطة الملك أن يغيّر من الأمر شيئاً، فهذا من شأن الأرباب فحسب. والملك الحاكم سيحمّل نفسه والبلد كذلك ذنباً لا يغتفر، إذا قرّر أمراً يعارض إرادة الأرباب». وتبدّى من صوت الزائر استياؤه من سؤال الملك إيداندا المستهجَن، فاستدرك الملك قائلاً: «اعذرني لسؤالي غير اللائق، إلا أني لست على اطّلاع دقيق على قوانين وراثة العرش الحتّيّة. المألوف في كل مكان، على كل حال، أن البكر هو من يخلف أباه على العرش. فهل الطمع في السلطة هو ما دفع شوبيلوليوما للقيام ضد أخيه؟».

«لا، مطلقاً. كانت تقوده الضرورة فحسب إلى عدم المغامرة بخسارة ما استُعيد حتى الآن. وقد وافقه في سعيه معظم الأمراء والضبّاط وغالبية أعضاء مجلس الشيوخ الموسّع. ولكن بغضّ النظر عن فشل تودهاليا في شؤون الحكم، وفجاجة أسلوبه في التعامل مع مجلس الشيوخ، وتناسيه لواجباته، يتهامس الناس في الخفاء عن ذنبه في جريمة مهولة». سأله الملك: «وما هي هذه الجريمة؟!».

«لا أعرف، ولم أستطع التوصل إلى معرفة أيّ شيء بشأنها، فالصمت بصددها يسود في كل مكان. ولكن يبدو لي أن هذه الجريمة قد أدّت إلى أن يطفح الكيل بالجميع، فتآمروا على الملك وقتلوه».

انتفض الملك إيداندا قائلاً: «ومع ذلك فالأمر يدعو للاستنكار. أخبرني يا سيد إحِيّا الكريم، كيف لم يهبّ الناس في طول البلاد وعرضها لسماعهم بقتل الملك؟ أم أن النفوس في بلاد حتّوشا قد همدت إلى حدّ عدم المبالاة بتبدّل السلطة دموياً؟».

في أثناء هذا الحوار عبرت المجموعة الباحة ببطء وغادرتها، لأسف كيا الشديد، باتجاه قاعات القصر الكبرى.

ما معنى هذا كله؟ ومن هما هذان الرجلان اللذان استضافهما الملك حتى في الجناح العائليّ الخاصّ؟

رجعت كيا إلى مخدعها. كان عليها أن تمعن التفكير في ما سمعت، وكان ما فهمته هو أن ضيف الملك سيّد كريم على صلة، بطريقة ما، ببلاط البلد البعيد حتّوشا، فقد بدا مطّلعاً من كثب عمّا يجري هناك. لا يمكن أن يكون حِتّياً، فثيابه تدلّ بصورة واضحة على أنه ليس كذلك. ثم إنه لم يتحدث بالحتّية، وإلا لكان والدها قد حاوره بلغته. لا، لقد تحدّث باللغة الحورية، رغم أنه كان يلفظ وينبر بعض الكلمات بلكنة مختلفة، ورغم المفردات الغريبة الكثيرة التي استخدمها في حديثه. كما عرفت كيا أن اسمه إحِيّا، وهو اسم لا يبدو حتّياً صرفاً. لكن هذا لا يعني شيئاً، ففي كل مكان تسمّي العائلات الراقية أولادها بأسماء أجنبية، وليس محلية فقط. فأمّها مثلاً ما زالت تحمل اسمها المصري إيسِت حتى الآن. وهنا في قطنا يستخدم الناس الكثير من الأسماء الساميّة والحوريّة. وهي نفسها، وفي كل الظروف، ستحافظ على اسمها، حتى ولو تزوّجت.

الزواج أمر لا تريد أن تفكر فيه حالياً على الإطلاق، ولو أنها قد بلغت من العمر ما يسمح بخطبتها من قبل أي شخص في مقامها، أو قد تُزوَّج بمشيئة والدها وموافقة مجلس الأعيان. وصديقاتها لا حديث لهنّ إلا في هذا الموضوع، وأعزّ صديقاتها (إهلي - نيكالو) لا تُستثنى من ذلك. لكن كيا كانت تضيق غالباً بهذر الفتيات المستمرّ حول عشقهنّ لشباب من قطنا، وآمالهنّ أو خشيتهنّ من احتمالات لمَن ستُزوّجن. كانت هذه الأحاديث في الواقع تبثّ الخوف في نفس كيا، لكنها لم تكن لتعترف لصديقاتها بذلك طبعاً. إنها لا تريد، بأيّ حال من الأحوال، التخلّي عن الحريّات التي تتمتّع بها، بفضل ميل أبيها الكبير إليها. وكانت فكرةُ أن تكون متزوجة بعيداً عن بيتها وألا تسمح لأحد برؤيتها إلا محجّبة، بحدّ ذاتها، تشعرها بالضيق، على الرغم من علمها بأن للحجاب فوائد كثيرة. وتذكّرت كيّا بعض مغامراتها التي بقيت مستورة بفضل تنكّرها تحت الحجاب.

اعتدلت في جلستها وتمطّت. إن كان لا بدّ من الزواج، فلا يمكن أن ترتبط إلا برجل من مقام رفيع. هكذا قالت النبوءات التي رافقت ولادتها، وهذا ما سيحاول أبوها الحبيب تحقيقه. ولكن هل حان الوقت الآن؟ ألقت نظرة ناقدة على مرآتها. لم يكن الوجه الجادّ الذي رأته فيها وجه طفلة، بل وجه صبيّة. مدّت يدها شاردة إلى مكحلتها لترسم خطوط أجفانها، ثم أعادتها إلى مكانها دون أن تفتحها. هناك أمور أكثر أهمّية بمراحل من هذا.

ثمّة ملك قد قُتل. أليس في الأمر تحدٍّ للأرباب؟ فالملك ذو قدسية لا تُمَسّ. لم تستطع كيا أن تتخيّل، ما الذي أغضب الحتّيين إلى حدّ أن يقوموا بقتل ملكهم الممسوح المكرَّس. لماذا انفعل أبوها إلى هذا الحدّ بسبب ما جرى في أرض حتّوشا التي تبعد عن

قطنا مسافة أيام كثيرة من السفر؟ لديها تصوّر من دروسها عن الموقع التقريبي لهذا البلد، إذ قال لهم المعلم: «أن تعرفوا مواقع الممالك أمرٌ مهمّ لكم أيضاً، وليس للملك فحسب، إذ عليكم أن تقيموا معهم علاقات تجارية. عليكم أن تعرفوا أية بضائع تأتي من هذه المملكة أو تلك، لتتمكّنوا من تقدير قيمتها. عليكم أن تعرفوا ماذا تبيع هذه وماذا تشتري تلك لسدّ نواقصها». ثم تناول عصا ورسم على الرمل وهو يقول: «تصوّروا أن قطْنا تقع هنا في الوسط. إذا اتّجهتم شرقاً تصلون إلى البادية السورية، وبعدها إلى نهر الفرات. وإذا نزلتم من هناك مع مجرى النهر تصلون إلى أرض بابل المباركة، وبعكس التيار تصلون إلى مملكة ميتاني الجبلية. في اتجاه الغرب يقع بحر الغرب الكبير، وفي اتجاه الجنوب تنتصب جبال الأرز الهائلة، ومن ورائها نحو الجنوب تقع أرض كنعان، ومن ثم مصر. إذا اتجهنا مع نهر أرانتو (العاصي) شمالاً نصل إلى أراضي ألالاخ التي تسمّى موكيش أيضاً، ثم إلى كيزُواتنا ومن بعدها حتّوشا التي تبعد مسافة أيام كثيرة سفراً، كما هو حال مصر على الطرف الآخر».

كانت كيّا تبتلع كل المواد الدرسية بنهم. ومنذ وقت مبكر بدأت أمّها تحكي لها عن مصر، عن الحياة هناك، وعن العادات والتقاليد في بلاط فرعون. كما علّمتها اللغة المصريّة، حتّى باتت تتقنها الآن مثل لغتها الأم. وكانت كيا، بكل عناية ودأب، تتمرّن على كتابة الحروف الهيروغليفية الكثيرة على لوح المدرسة المستدير. كما تمكّنت من نيل موافقة أبيها على تعلّمها الكتابة والقراءة والحساب، بعد أن كانت تتسلّل خلسة إلى دروس إخوتها في طفولتها. وذات يوم ضبطوها في غرفة الدرس، وكانت حينذاك في الخامسة أو السادسة من عمرها. في البداية غضب الملك إيداندا غضباً شديداً، لكنه لان أخيراً وقبل، إذ كان يصعب عليه جداً رفض طلبٍ لابنته الحبيبة، وكانت تعرف ذلك. فجلست على ركبتيه وأخذت تتملّقه متوسّلة، ثم زعمت بحكمة الكبار أنه يَحْسُنُ بها كملكة مستقبلية أن تعرف كلّ شيء. ضحك الملك لذلك من كلّ قلبه وأوعز إلى معلّمي الأمراء بأن يعلّموا كيا أيضاً. أمّا زوجته بِلْتوم، التي تعتبر كيّا وأمّها إيبِت مثل شوكة في عينها، فكان رأيها أن لا ضرورة إطلاقاً لأن تتعلّم الفتاة الحساب والكتابة المسمارية، فالأهمّ هو أن تتقن الأعمال النسوية الضرورية، كتدوير المغزل وأشغال التطريز الفاخرة استعداداً لدورها المستقبلي زوجةً وأمّاً.

كانت تايا، مربّية كيا، واقفة عند الباب. هذه المرأة السمينة إلى حدٍّ ما، الطيّبة القلب، الحنون، ذات المزاج المبتهج، تتحدّر من عائلة صيّاغِ ذهبٍ في مدينة تِرْقا على الفرات،

وقد دخلت في خدمة بلاط قطنا، عبدةً، مذ كانت في الخامسة عشرة من عمرها، فقد اضطرّ أبواها إلى بيعها وبعض إخوتها كي يسدّدا الديون المتراكمة والمهدِّدِة بالعبودية. وفي البلاط لفتت تايا الأنظار إليها بأسلوبها الودود وشطارتها وأمانتها. وبما أنها قد أنجبت طفلاً مات في المهد، في الوقت نفسه الذي ولدت فيه كيا، فقد طلبتها إيست من الملك مرضعةً لكيا، كما توصّلت إلى أن يعتقها الملك ويربطها بالبلاط بعقد عمل: مرضعةً. وعندما فطمت كيا بعد سنتين، بقيت تايا في قطنا مربّيةً لكيا، إذ كانت تحبّها كابنتها.

«بسرعة يا سيّدتي الشابة، غيّري ملابسك وتزيّني. العائلة تجتمع في قاعة الطعام. هناك ضيوف سيشاركونكم على المائدة!».

سألتها كيا: «أيّ ضيوف؟».

«هناك تاجر من كيزُواتنا البعيدة مع ابنه، وقد قام اليوم بزيارةٍ تعارفٍ ودّية إلى الملك. سمعت أن السيد الابن شابٌّ وسيم. لا حديث لبنات المطبخ إلا هذا. الأرباب وحدهم يعرفون كيف تصل إليهن هذه الأخبار الجديدة أسرع من الريح. ولكن عجّلي الآن، فقد تأخّرنا. تعالي، سأساعدك! كيف يبدو هذا الثوب عليك؟ وشعرك مشعّث تماماً. أنت لا تتصرّفين قطّ كأميرة شابة!».

من كيزُواتنا إذاً، وتاجر كبير! فكّرت كيا. هذا يفسّر اطّلاعه الواسع، فالتجار يعيشون من كونهم مخزن معلومات دائماً، ولديهم في ما بينهم شبكة رائعة التنظيم، وقطنا جزء منها. إن محفوظات الشؤون الاقتصادية في القصر هنا تضمّ مئات الرُّقم، ثم هناك محفوظات قصر مركز المدينة الذي يسمّى اختصاراً دار البلد، حيث لكبار تجّار المدينة متاجرهم ومستودعاتهم إضافة إلى متاجر التجار الأجانب دائمي السفر. تحتوي هذه الرُّقم على معلومات مختلفة مهمّة حول خطوط القوافل والاتفاقات التجارية ورسوم الجمارك وأسعار البضائع، وأشياء كثيرة أخرى. والمدينة تكسب من هذه المعرفة كسباً جيداً.

غارقةً في أفكارها، اندسّت كيا في ثوب كالقميص من قماش صوفي فاخر، كانت ترفعه تايا بين يديها. ولكن ما إن برز رأسها من فتحته العليا حتى توثّبت مقاومتها، وقالت محتجّة: «إنه مريع! قماشه يسبب الحكّة. لا يمكن أن ألبسه!». ومدّت يدها إلى المرآة، وأردفت: «وما هذا المنظر؟ مثل الكيس!».

«ولكن يا كيا، إنه ثوب رائع، انظري إلى نسيجه الفاخر وإلى هذه الزخارف الجميلة!».

«العجائز فقط يرتدين أثواباً بمثل هذه الزخارف، ثم إني عاجزة عن الحركة فيه،

أترين؟! ها هو ذا ينزلق ويشدّ. لن أذهب إلى العشاء في هذا الثوب!». وخلعته بسرعة، فأجابتها تايا غاضبة: «أنت تبالغين، فالثوب صُنع خصيصاً لمثل هذه المناسبات!».

«هذا لا يهمّني. ثم مَن الذي أوصى بتصميمه؟ الملكة ربما، لتريني مدى كراهيتها لي».

«وهل يناسبك هذا أكثر؟ أرجوك، كيا، أسرعي، فأنت لا تريدين أن يغضب الملك منا!».

لا، كيا حتماً لا تريد ذلك. لقد مرّت فورة التمرّد بسلام. وبعد مثل هذه الفورات كانت دائماً تشعر بالخجل تجاه تايا. ومع ذلك فإن أيّ تضييق عليها، لا سيّما إن صدر عن الملكة، كان يستدعي مقاومتها. وكم حاولت أمها بكل صبر أن تشرح لها أنها لا تؤذي بهذا إلا نفسها. وبحركة تنمّ عن الاعتذار والرجاء تركت تايا تُلبسها الثوب الآخر، الأكثر بساطة، والذي تصل المشابك بين أطراف كتفيه، ثم وضعت حول خصرها حزاماً جميلاً أكّد رشاقة جسمها. وبالاستعانة بالأساور وقلادة العنق المتعدّدة الصفوف من الخرز الملون، تحولت كيا في لحظات إلى آية من الجمال. كحلت عينيها ببساطة وطلت جفنيها بلون أزرق يتناسب مع زينتها. وبسرعة تناولت تايا مشطاً عاجياً وسرّحت لها شعرها الأسود المتموّج، ثم قالت: «فلنذهب!». بينما كانت كيا تتملّى صورتها في المرآة، فأردفت برضا: «جمالك يسرّ الناظرين يا صغيرتي». كانت كيا تعرف مدى اعتزاز مربّيتها بها، إذ كانت تحيطها بحبّها ورعايتها مثل ملاك طيب، فعانقتها بحبّ، ثم غادرتا المخدع معاً وخرجتا إلى الشرفة الداخلية.

«أين المأدبة؟». سألت كيا مربّيتها.

«في جناح الغرف الملكية، في قاعة طعام العائلة».

«أهما صديقان مقرّبان؟ أنا لم أسمع بهما سابقاً، ولم أرهما إلا اليوم».

توقفت تايا وسألتها: «أين التقيت بهما؟».

احمرّ وجه كيا خجلاً وقالت راجية: «لن تشي بي، أليس كذلك؟ رأيتهما مصادفة من الشرفة قبل قليل وهما يعبران الباحة مع أبي».

هزت تايا رأسها ثم قالت: «لا أظن أنهما من الأصدقاء المقرّبين، على الأقل ليسا من عائلة ملكنا إيداندا المحبوب. لكنهما زارا قطنا عدّة مرات سابقاً. إنهما ضيفا الشريف تيرو. يبدو أن هناك أموراً مهمّة لا بدّ من مناقشتها، لذلك حضرا إلى الملك شخصياً لإطلاعه عليها. هذا ما قالته لي الملكة على الأقل».

وصلتا إلى الباحة الكبيرة المحاطة بغرف المعيشة الملكية، وعبرتاها لتبلغا قاعة

الطعام. كانت تهبّ مساء اليوم من الغرب نسمة خفيفة، وخاصة على الشرفة الأرضية لقاعة الطعام. وحتى خلال النهار كان المكان هنا منعشاً، لبعده عن أشعة الشمس المباشرة. والآن عند الغسق يمكن للناظر أن يرى دور عائلات الأشراف ودار البلد في السفح الممتد إلى مركز المدينة. وأن يرى هنا وهناك بعض المشاعل ونيران بعض المواقد أيضاً.

اجتمع حول طاولة الطعام عدد كبير من أفراد العائلة. وقد جلست الملكة بلتوم عند نهاية الطاولة الطويلة قبالة الملك، وهي امرأة في أواسط عمرها تشعر بنفسها قيِّمةً على الجميع. لكنها برأي كيا امرأة بشعة، ليس فقط بسبب عينيها المتقاربتين الجاحظتين وحاجبيها الكثّين وأذنيها الضخمتين وفمها الممسوح وشاربها النسوي الواضح فوق شفتها العليا، بل في المقام الأول بسبب سمنتها المكتنزة. وفوق ذلك كله كانت سطحية، صارمة، ظالمة، ويعوزها حسّ الدعابة إلا في ما يتعلق بأبنائها الذين تحبّهم حبّ العبادة وتدلّلهم بلا حدود. وإلى جانبها جلس عدد من قريباتها.

اقتربت كيا من أمها وحيّتها بعناق سريع. كانت إيست جالسة إلى جانب أخوات الملكة، فجلست كيا بعدها مباشرة. وغالباً ما كانت تشعر بوخزة خفيفة لكون أمها الجميلة والذكية مجرد زوجة ثانية للملك، ما يجعل مكانتها في المقام الثاني وراء بلتوم وعشيرتها. أما إخوة الملك وأخواته وعائلاتهم، التي كان قسم كبير منها يسكن في القصر أيضاً، فهم من حيث المقام ليسوا أعلى من أمها، لكنهم، حسبما لاحظت كيا، كانوا يتصرفون غالباً باعتبارهم أعلى منها. وأكثر ما كان يزعج كيا هو قبول أمها هذه الأمور ببساطة. أليست أمها أميرةً من عائلة تِيِه، الزوجة الملكية العظمى لأمينوفيس ملك مصر؟ فما الداعي لرضاها بهذا الأسلوب المتعالي عليها، من الملكة خاصة؟ زفرت كيا بصوت خافت. إنها لن تقبل بمثل هذا السلوك تجاهها، وقد أقسمت على ذلك.

انقطعت جميع الأحاديث حال دخول الملك إيداندا مع ضيفيه. أبقت كيّا رأسها محنياً كما يليق بها، لتظهر احترامها تجاه الملك وضيوفه.

قال الملك: «رحِّبوا معي بالشريف إحِيّا من مدينة تَرْشا في كيزُواتنا، الذي يشرفنا بزيارته مع ابنه تالْزوا».

صالب الحضور أذرعتهم على صدورهم وانحنوا باتجاه الضيفين الواقفين إلى جانب الملك عند رأس الطاولة حيث جلسا في أمكنة الشرف. وبعد أن جلس الملك والملكة جلس الجميع. في الخارج حلّت العتمة محل الغسق. التفت الملك إلى إحيّا قائلاً: «سوف

تستمتعون من هنا بإطلالة جميلة، أما بالنسبة لليوم فقد تأخر الوقت. لنبدأ بتناول الطعام». وخفض رأسه قليلاً، فنهضت شالا المحترمة، كبيرة كاهنات ربّة المدينة، وفردت ذراعيها للصلاة: «استمعي إلينا يا بيليت إكاليم يا سيدة مدينتنا وحامية بلدنا، استمعوا إلينا يا جميع الأرباب ويا أسلافنا المقدسين! اشملونا برحمتكم وباركوا في طعامكم وطعامنا». أخذت بيسراها قدح الماء الخزفي المزخرف اللماع، غمست يمناها فيه ورشّت بضع قطرات على الأرض، مقدّمةً بذلك قربان الشراب إلى الأرباب وإلى الأسلاف الملكيين. صبّ الخدم في الأقداح ماء ممزوجاً بنبتة النعناع المنعشة. نهض الجميع وقوفاً ليتشاركوا الشراب.

تلصّصت عينا كيا باتجاه رأس الطاولة، لترى الغريبين من كثب، بينما بدأ الملك بتقديم العائلة لضيفيه. ترك إحيّا في نفسها انطباعاً طيباً. كان واضحاً أنه أصغر سناً من أبيها، ممتلئ الجسم بعنق ثخين بعض الشيء، في أواسط عمره، بكرشٍ، وخدّين سمينَين في وجه عريض، وصوت رنّان ذي وقع حسن. وابنه في واقع الأمر لا يشبهه، إذ كان طويلاً ممشوق القدّ ومفتول العضلات. هل سيحفظان يا ترى الأسماء الكثيرة التي ذُكرت أمامهما بالتتالي؟ فمع أن الموجودين حول المائدة ينتمون إلى الحلقة العائليّة الأصغر، فقد كان عددهم كبيراً، حتى من دون صغار الأطفال. وكيا تُعدّ في أصغر الموجودين. بابتسامة ودٍّ واحترام حيّا الأب والابن جميع المذكورين.

بعد أن قدّم الملك إيداندا زوجته الأميرة إيبِت، مضيفاً بفخرٍ جليٍّ إلى اسمها، أنها تتحدّر من العائلة الملكية المصرية في طيبة، سكنت نظرته عند كيّا، وتلامح على وجهه تعبير بهجة، لم تلتقطه إلا خطفاً، لأنها أطرقت بعينيها. قال الملك: «هذه سابع أولادي وآخر العنقود وابنتي الوحيدة كيّا. وليكن في علمكما أنها ذات يوم ستصبح ملكة!». وضحك مضيفاً برضاً جليّ: «هكذا فُسِّرت الإشارات التي رافقت ولادتها!». وبكل ثقة بالنفس ردّت كيّا تحية إحيّا وتالزو.

في أثناء ذلك أعطى إيداندا إشارة للخادمات، فبدأن بتقديم الطعام. وضعن أمام كل ضيف صحناً خزفياً صفحاً فاتح اللون بتعريقات ملونة. وعندئذٍ فقط أحسّت كيا بجوعها الشديد، فتناولت من السلّة بعض الخبز الطازج الساخن وغمسته بشهية في هريس الحمّص اللذيذ، الذي تحبّه بشكل خاص. إلى جانبه كان هناك بصل مخلّل ذو نكهة حلوة وخيار مخلّل، وقلوب خوص بزيت الزيتون، وعدس صغير، وعجينة من الثوم المهروس والزيت، وجبن الماعز القاسي ذي المذاق الحرّيف.

ملأ الخدم أقداحاً مخرَّمةً بالنبيذ، بينما كانت كيا غارقة في الطعام. لكنها توقفت عند

سماعها صوت إحِيّا يرجوهم السماح له بالكلام، ثم نهض واقفاً وقال: «أيّها الملك الكريم إيداندا، أيّتها الملكة الكريمة بلتوم، أيّها السادة والسيدات. دعوني أعبّر عن شكري لكم لجود ضيافتكم في داركم. ليس فقط لاستقبالكم لنا بترحاب بالغ، بل ولدعوتنا لمشاركتكم في هذه المأدبة ولتناول هذه المأكولات الشهية معكم. وحسب التقاليد المتبعة، وكهديةٍ لقاء حفاوتكم بنا، جلبنا لكم معنا أفضل ما تقدّمه كيزُواتنا: خيولاً أصيلة من مراعي وطننا الخصبة. فليشمل أرباب قطنا وكيزواتنا داركم بحمايتهم الدائمة!».

رفع إحيّا قدحه ووجّه بضع قطرات منه إلى الأرباب المخاطَبين، ثم شرب جرعة كبيرة. ومع ذكره للخيول الثمينة سرى همس بين الحضور ملأ القاعة. فهذه الخيول كانت مشهورة في الشرق الأدنى كله، لكنها كانت باهظة الأثمان ويصعب الحصول عليها. فهذا الجنس المتين من الخيول كان بضاعة تجارية مرغوبة، ليس فقط بين شيوخ البدو، بل جنوباً إلى أرض كنعان ومصر.

ربت الملك بودّ على كتف إحيا وقال: «الآن صار واجب الشكر علينا يا إحيّا التَرشي!». وصفّق بيديه، فظهر فوراً خادمان، دعاهما ليقتربا منه، ثم أمر أحدهما بالتوجه إلى إحيا والثاني إلى تالزو، وتابع: «إليكما هديتنا لقاء الخيول. أردية لا تجدان مثيلاً لها إلا في قطْنا»، ناول الخادمان كلاً من الضيفين رداءَ مناسباتٍ احتفالية أبيض مطرّزاً بأقلامٍ أرجوانية، وأردف: «عربونَ ذكرى لهذا اللقاء ودليلاً على روابط الصداقة بيننا. وليشملكم الأرباب وأهل داركم جميعاً ببركاتهم!».

لاحظت كيا أن الضيفين قد تأثرا بهذه الهدية. فمثل خيول كيزُواتنا، كانت ملبوسات قطنا المزخرفة باللون الأرجواني تقدّر عالياً في طول البلاد وعرضها ووراء الحدود. إذ لا يوجد ما يشبهها في بابل أو أشور أو ميتاني، ولا في مصر. إنها حمرة من ضربٍ خاص، قاتم ومضيء في الوقت نفسه، يميل إلى الليلكي قليلاً، ولا يبهت مهما غسلته. ولا أحد يعرف من أين يُستخرج هذا اللون وكيف. كان هذا سرّ قطنا الثمين.

رفع إحيا نظره إلى الملك مدهوشاً، ثم انحنى له تعبيراً عن سروره، وقال: «زرت قطنا عدّة مرات، ولطالما أُعجبت بصناعة منسوجاتكم ومن صباغتها. أعرف من صديقي تيرو أن أشراف قطنا في الأعياد يلبسون أردية خاصة مزخرفة بهذا اللون الذي لا شبيه له. ما كنت لأحلم بأن أمتلك ذات يوم مثل هذا الرداء، ولا حتى ابني تالزو الذي يقيم لأول مرة بين أسوار المدينة. إننا نشعر بعظيم الشرف لتقديركم العالي لنا، فلكم الشكر!».

«لنتابع الاستمتاع بهذه المأكولات!». بهذه البساطة أجاب الملك وهو يصافح إحيا،

وأردف: «مدّا أيديكما!». فاستجاب الجميع لندائه بسرور. كان الطبق الثاني حساءً زكي الرائحة، محضَّراً وفقاً للموسم من منقوع البازلاء والكرّاث والبرغل، وقد نُثرت فوقه وريقات الكزبرة. إنها مأدبة حقيقية، فكّرت كيّا، ولاحظت أن أكيزي وتالزو يودّان أحدهما الآخر، وها هما قد رفعا قدحيهما وشربا نخباً. كان أخوها أكيزي يحب الضحك ومحبوباً بين أصدقائه، ومعشوقاً بين الفتيات والصبايا. وصديقتها إهلي نيكالو بعينيها البراقتين كانت تمتدح ميزاته ومظهره وقدراته وشجاعته. ولكن كانت له أحياناً لحظات فجائية يكون فيها جلفاً يستشيط غضباً. وعندها كانت كيّا تخافه.

على نقيض ذلك بدا لها تالزو أليفاً بطريقة ما. كانت ملامحه ناعمة وحازمة، وعيناه الزرقاوان تشعّان عندما يبتسم. ولون عينيه هذا كان لافتاً، بل استثنائياً، قد لا يكون أكبر منها سناً بكثير. عاودت النظر إلى الشابّين عند طرف الطاولة، ولاحظت أن تالزو ينظر نحوها. التقت عيونهما للحظة وابتسم لها، ثم أدار عينيه في محجريهما بهياج كمن جُنّ فجأة. بدا لها المنظر غريباً جداً ومسلياً، ما دفعها إلى الضحك. وعندئذٍ نظر أكيزي نحوها أيضاً. يبدو أنها كانت موضوع حديثهما. وقد أعجبها ذلك. كانت واثقة من أن جمالها استثنائيّ، الأمر الذي كانت تؤكده لها صديقاتها باستمرار، وتلفتن انتباهها إلى نظرات إعجاب الشبان بها، لكنها عادة لم تكن توليهم أي اهتمام. إنها تستحقّ أن تكون موضع إعجاب، فهي أولاً وأخيراً ابنة ملك، بل ابنته الوحيدة.

عندما غادر الضيفان، بعد تناول الفاكهة الطازجة الريّانة والحلويات وجرعة الخمر الأخيرة، كان الوقت قد تأخر، لكن أكيزي طلب من إخوته البقاء قليلاً، ثم قال: «دعوت تالزو لزيارة القصر غداً ليتفرّج على قاعاته. بوسعكم أن ترافقوه وترشدوه قليلاً. ليس كلّكم طبعاً، وإلا فإن المسكين سيتلخبط بينكم. ما رأيكَ أن تقوم أنت بذلك، كواري؟». هز كواري برأسه موافقاً، وهو أخو أكيزي الأصغر مباشرة. وقالت كيّا: «وأنا سأرافقهما بسرور». ضحك أكيزي وقال: «هذا ما توقعته. حسناً، كلاكما. يؤسفني ألا أكون معكما، لأني سأحضر الاجتماع الذي سيخبرنا فيه والد تالزو بأمور مهمّة. وسيدور الحديث أيضاً حول اتفاقية تجارية، وعند ذلك لا بدّ من حضورك أيضاً يا كواري، سنرى. أنا مطمئنٌّ الآن على كل حال لاهتمامكما بتالزو. إنه شابّ لطيف جداً، وأنا أودّه. لقد جرّه والده معه إلى جميع المفاوضات، حتى الآن. وهو لم يرَ شيئاً من المدينة بعد، غير دار عمّنا تيرو ودار البلد بتجّارها المملّين. سلّياه قليلاً، أنا أعتمد عليكما!».

**

نظر إحيا في وجه تالزو المتعب والمنفعل في الوقت نفسه، وسأله: «هل تسلّيت جيّداً يا بنيّ؟». فأجابه: «لم أكن لأتصوّر أن الجلوس لتناول العشاء مع عائلة ملكية يمكن أن يكون بهذه البساطة، من دون رسميات احتفاليّة مبالغ فيها. كانوا جميعهم في منتهى اللطف والودّ. شعرت وكأني في البيت، ربما بسبب أدوات الطعام أيضاً، فهم يستخدمون مثلنا صحونَ جزيرة ألاشيا (قبرص) وصحافَها الفاخرة».

«هذا ليس مستغرباً أبداً، فهناك علاقات جيدة بينهم وبين جزيرة النحاس. حتى أني رأيت بعض التجار من ألاشيا هنا».

هزَّ تالزو برأسه موافقاً. كان والده جالساً على أحد المقاعد المنجّدة تنجيداً سميكاً والموزّعة في الردهة الأمامية. تحرّك قليلاً وأضاف: «لكنّ المدهش هو كمُّ الأواني الفخارية المستوردة من أهيّاوا (حوض بحر إيجه). هذا يذكّرني باعتزازنا بأباريقنا القليلة المصنوعة من صلصال مخلوط. أما هنا فتجد جميع الفخاريّات الضروريّة للمائدة والمستوردة كلها من الغرب»، وهزّ برأسه مستغرباً. فعلّق تالزو قائلاً: «جزء بسيط منه فقط يأتي من هناك. لقد أخبرني وليّ العهد أن في ورشة الفخاريات الكبيرة التابعة للقصر يشتغل فَخّاريّ من ميكينوس. لوصوله إلى هنا قصّة حافلة بالمغامرات، كم أرغب في سماعها! رجوت أكيزي أن يعرّفني إليه. بالمناسبة يا أبي، أكيزي دعاني إلى القصر غداً. قال لي إن بعض إخوته سَيُرونني قاعات القصر، بينما تتابعون أنتم مناقشة الوضع السياسي، إن لم يكن لديك مانع..».

ما خشيه تالزو حدث، إذ فوراً ارتسم على سحنة إحيا تعبير عدم الرضا. ثم قال مزمجراً: «أليس واضحاً لك أن ما يأتي في المقام الأول بالنسبة لي هو أن تكمل تعليمك. وإقامتنا في قطنا بالنسبة إليك هي جزء من التعلّم. وأظنّ أننا غداً لن نتحاور حول أحداث الشمال فقط، بل حول اتفاقية تجارية أيضاً. وهذا هو الهدف الحقيقيّ لرحلتنا المجهدة. اتفاقية من هذا القبيل ستمكّننا من الوصول إلى بضائع، لا يتمكن من شرائها عادة إلا وكلاء القصور الكبيرة. فكِّر فقط بهدايا الشرف، بهذين الرداءين الفاخرين. إقامة علاقة ثقة خاصة أمرٌ بالغ الأهمّية بالنسبة إليّ. وعليك أن تسهم فيها بنصيب مماثل. فلمن أبني أنا كل هذا، إن لم يكن لك؟ عندما ستخلفني ستجد كل شيء مهيأً لك، ولكن حتى ذلك الحين، عليك التعرّف على كل أساليب تعاملنا التجارية، ولا سيّما عقد الروابط والصلات. وأن تملك القدرة دائماً على التكهّن بوضع الطرف الآخر، وبنبض الأحداث، وأن تكون على اطّلاع أوسع من الآخر دائماً، وأن تحيط علماً بكل جديد».

كان إحيًا مستثاراً وهو يتكلم، لكنه ما إن انتبه إلى تعبير الحزن البادي على وجه ابنه كدفاع صامت عن النفس، حتى مال إلى التراخي وقال: «حسناً. لقد أنجزتَ حتى الآن كل شيء بصورة مُرضية، وإنْ كنتُ أفتقد الحماسةَ الأصيلة في عملك. النجوم وحدها تعرف ما إذا كنا سنطرق موضوع الاتفاقية غداً، والأمر يبدو لي مبكراً، فهذا هو لقاؤنا الأول مع الملك ووليّ العهد، ومع الملكة طبعاً. فهنا لا يجوز أن تُستبعد النساء، إذ لهنّ هنا حقوق كثيرة تشبه ما لدينا وما لدى الحتّيين. لا تنسَ ذلك!». وتابع كلامه كمن يفكّر بصوت عالٍ: «ثم إن وجودك مع الأمراء قد يكون مفيداً جداً لك، فمَن يعرفُ بصورة مؤكّدة مَن الذي سيعتلي عرش قطنا مستقبلاً!؟ ولكن حتى شهادة حسن السلوك التي سيصدرها الأمراء بحقّك، كما آمل، ستكون مفيدة لك». ومال برأسه متأمّلاً في أفكاره، ثم أردف: «فلنهجَع إلى أسرّتنا الآن، فقد تأخّر الوقت». فقال له تالزو: «ليلاً هادئاً يا أبي، فليحرس الأرباب نومك!»، «ونومك أيضاً يا بنيّ!». أجاب إحيًا.

دخل تالزو مخدع نومه مكوّراً قبضتيه. لقد ضبط نفسه بشدة، كعادته كلما استاء والده وهاج. لا شكّ في أنه يُضمر له الخير، ولا شكّ في أنه يفكر بمستقبله. ولكن أيجوز أن يُقيِّم كل لقاء بآخرين من ناحية احتمال نفعه؟ كان شديد التعب ليتابع التفكير في هذه الأمور، فاستلقى وتغطّى بالشرشف الخفيف. ما الذي سيحمله الغد يا ترى؟ شعر ببوادر بهجة تنمو في داخله لتقشع في أثناء الليل تلبّد الجوّ بينه وبين والده.

**

قبل ظهر اليوم التالي أعلن أحد الخدم وصول تالزو إلى القصر. كان نهاراً مشمساً من أوائل الصيف. لم يكن الحرّ شديداً، ومع ذلك لوحظ أثر المسافة التي قطعها تالزو، ولا سيّما الجزء الأخير صعوداً إلى القصر من دار البلد في مركز المدينة. استقبل كواري وكيا ضيفهما، فابتدرهما قائلاً: «ياه، يا لكثرة درجات هذه الطريق الصاعدة إلى القصر!».

كان صوته عميقاً رخيماً ذا وقع مريح، وتشوب لغته لكنة أجنبية طريفة لفتت نظر كيا لدى والده بالأمس.

«تفضّل لتُنعِش نفسك أولاً!». قال كواري مرحّباً بضيفه، وقاده مع كيا إلى غرفة صغيرة قريبة من مدخل القصر المنيف الفخم. على طاولة صغيرة هناك رُتّبت عدّة صحون مملوءة بتمور طازجة وتين مجفّف وقلوب المكسّرات. صبّت له كيا ماءً في قدح، شربه تالزو

بجرعات سريعة، ومدّ يده بالقدح لتملأه له ثانية، وهو يقول: «هذا منعش حقاً!». مدّ يده إلى فواكه الضيافة وأردف: «ماؤكم عذب جداً. إنه منعش وبارد وكأنه من جبالنا!». فانتهزت كيا الفرصة وسألته: «أتسكنون في الجبال؟». كان أسلوب مخاطبتها الآخرين بهذه البداهة والمباشرة سمة مميزة لشخصيتها، وهو أمر غير مألوف لدى الفتيات والصبايا اللواتي يتحفّظن عادة أثناء تبادل الحديث.

«لا، ليس مباشرة. لدينا دار صيفيّة في الجبال، لكننا نقيم في تَرْشا، وهي تقع على نهر ينبع من أحد جبال سلسلة طوروس القريبة». فتدخّل كواري مقاطعاً إيّاه: «ظننتُ أن ترشا تقع على البحر».

«كلاهما صحيح. المدينة تقع على طرف سهل كيزُواتنا الخصيب المتشكّل من فيضانات عدّة أنهار. وشاطئنا ضحل، وغالباً مستنقعيّ. ولذلك فالمدينة ليست على البحر مباشرة، بل إلى داخل البرّ قليلاً، حيث التربة جافّة وصلبة للبناء. النهر يعبرها في منتصفها وضفّتاه تشكّلان سوراً من الموانئ والمتاجر والمراسي. قبل مصبّ النهر بقليل يشكّل البحر ما يشبه بحيرة شاطئية تتّسع لكثير من السفن. هذا يعني أننا على اتصال مباشر بالبحر، وفي مكان آمن في الوقت نفسه، فلا نخشى عواصف البحر المدمّرة ولا أمواج المدّ ولا هجوماً عسكرياً بحرياً. جَميع صفقات كيزواتنا التجارية البحرية تجري هنا. على مسافة قليلة إلى غرب المدينة يبدأ الساحل الصخري الشديد الانحدار الذي لا يسمح برسوّ أيّ سفينة، أما الشريط الرمليّ الضيّق فيسهّل الأمر على المراكب الصغيرة والقوارب. إضافة إلى ذلك فإن اقتراب الجبال من البحر على طول الشاطئ يجعل من الصعوبة بمكان إقامة تجمّعات سكنية، ولذلك فهي معدومة».

قطع تالزو محاضرته ليلتقط أنفاسه وليأكل حبّة فاكهة.

«وماذا عن موضوع الماء؟». تابعت كيا استفسارها.

«الماء يُنقل من الجبال، في المناسبات الخاصة، وتحديداً لأولئك القادرين على تمويل أجور نقله. سوى ذلك لدينا في المدينة آبار، كما أننا نستخدم ماء النهر».

«هل سافرتما برّاً أم بحراً؟».

«جئنا عن طريق البرّ، وهي رحلة تجاريّة من موقع تجاريّ إلى آخر».

«أمر مثير! احكِ لنا!». شجّعته كيّا، وأنصتت متوقّعة مزيداً من الإثارة. ضحك تالزو مرتبكاً، فقد أدهشه هذا الترقّب غير المألوف لما سيرويه، فقال: «أخشى أن تملّوا» وبعد

لحظات أردف: «سافرنا من تزشا إلى أدانيا، وهي عاصمة كيزُواتنا»، هز كواري وكيا رأسيهما، فتابع: «لوالدي هناك بعض أصدقاء العمل المساهمين في قافلتنا بالبضائع وبالطلبات كذلك. بعضهم حمّلنا رسائل، فسجلتُ لائحة بكلّ شيء، كي لا ننسى أين وماذا يجب إنجازه هنا وهناك. كما حصلنا من السلطات على وثائق السفر الضرورية، فالطريق إلى قطنا طويلة تستغرق كثيراً من أيام السفر، وتمرّ بعدة بلاد بينها ميتاني، والأحوال هذه الأيام مضطربة!».

لم تكن النزاعات الدائمة في المنطقة التي يسيطر فيها الميتانيّون، جديدة على كواري وكيا. فسألته كيا: «أهذه رحلتك الأولى؟». فهزّ رأسه موافقاً وتابع: «آخر محطة في كيزواتنا كانت لاوازَنتيا القريبة من خطّ الحدود. وزيارة الربة شاوشَغا في معبدها هناك واجب، إذ يحتاج المرء إلى بركاتها لعبور الجبال التي ترتفع بعد السهل مباشرة. لقد توقّفنا في مدن كثيرة، لدرجة أني ما عدت أتذكّر أسماءها. وفي كل مكان كان أبي يعرّفني بشركائه في العمل. إنه يريد أن أخلفه ذات يوم في الأعمال التجارية، وهي في كيزواتنا أقدم المهن وأكثرها احتراماً». وتنهد تالزو بصوت خافت، وقد كسا وجهه تعبير ضيّق. لذلك سأله كواري: «لكنّك لا ترغب في ذلك؟». فأجاب: «أهذا واضح على وجهي؟». فردّ كواري: «لا تبدو سعيداً جداً، على الأقل». فقال: «هذا صحيح. اعذرا صراحتي! لا أشعر بالفرح في أجواء التجارة. أحبُّ أن أقرأ وأن أكتب، ولكن لا اتفاقيات تجارية ولا قوائم البضائع. أجد الأمر مثيراً أن أطّلع على ما يصدِّره كل بلد، مثل الأحجار الزرقاء الثمينة التي نشتريها من عندكم هنا، والتي تأتي من أقصى الشرق البعيد. أما أن أشغُل بالي بما يقايض عليها وبأية أسعار، وإلى أين يجب أن تُصدَّر وماذا يُستورد لقاءها ومن أين، فهذه أمور لا تهمّني».

«ماذا تحبّ أن تعمل بدلاً من ذلك؟».

«أرغب في أن أصبح رسولاً، وأفضّل أن أكون سفيراً لملك حتّوشا، فهو حاكم عظيم، سيسمع العالم الكثير عنه! وقد حقّق الكثير حتى الآن في فترة حكمه القصيرة».

كان جليّاً مدى إعجاب تالزو بالملك شوبيلوليوما وحماسته له. وكان ردّ فعل كواري، الذي يكبر كيا بعدة سنوات، موضوعياً هادئاً ومتّزناً في سؤاله: «ما الذي يدفعك إلى هذه الخطط الجريئة؟».

«أعتقد أني أُحسن التوسّط بين طرفين متنازعين، أو أن أنقل رسالة إلى شخص ما، دون أن أجرح كرامته. إضافة إلى ذلك لديّ رغبة عارمة بالترحال للتعرّف على بلاد غريبة

والتعرّف على سكانها وتعلّم لغاتها للتفاهم معهم. من حسن حظّي أني لا أجد صعوبة في تعلّم اللغات، فإضافة إلى لغتي الأم أتكلّم الحثيّة واللوفيّة والأكّديّة».

فعلّقت كيّا بخبث: «الأكّديّة بديهيّ، أما الحثيّة فلا يتقنها سوى والدنا». وأضاف كواري بشيء من الفخر: «وكيّا تتقن المصرية عن طريق أمها». فسألها تالزو وهو ينظر إليها بإعجاب: «وهل تتقنين الكتابة والقراءة أيضاً؟». فأجابته: «طبعاً، والحساب أيضاً، تصوّر!».

التفت كواري إلى تالزو مخفّفاً من وقع المفاجأة عليه بقوله: «لدى كيّا نهمٌ للعلم منذ صغرها. وذات يوم جعلت الملك يأذن لها بحضور الدروس معنا، نحن إخوتها. هذه ميزة كونها الابنة الوحيدة ومدلّلة أبيها».

نظر كواري إلى أخته بحبّ، فقد كان الأقرب إليها بين جميع إخوتها. ربما لأنه كان يعاملها معاملة الندّ في الحديث رغم فارق السنّ الكبير بينهما: عشر سنوات كاملة.

علّق تالزو على ذلك قائلاً: «أجد هذا أمراً رائعاً. بادئ الأمر فقط أحسست به مفاجئاً ومستحيلاً. من ناحية أخرى يحدث في توشا أيضاً أن بعض الفتيات يتعلّمن. ضرورات الحياة في المدن تملي ذلك، لا سيّما في المدن التي تعيش من التجارة. فالأبناء الذكور والأصهار لا يتوفرون دائماً».

عقبت كيا بلهجة استفزازية: «وربما يتعلّق الأمر ببساطة بكوني أميرة، ولست ابنة أحد التجار». فنظر تالزو في عينَي كيا مضطرباً. وبما أن كواري يعرف أخته جيداً، ولم يكن راغباً في تركها تخوض في أحد جدالاتها التي تحبّ إثارتها بشغف كبير وإنْ من دون خبث، فقد أسرع بسؤال تالزو: «إذا لم تكن راغباً في أن تصير تاجراً، فلماذا لا تخبر أباك بالأمر؟ لا شكّ أنه سيرضى ويبارك دخولك في سلك البلاط».

«الأمر ليس بهذه البساطة، كما تفكّر. يحتمل وصولي إلى الملك نفسه، فأمي تنحدر من العشيرة الملكية في حتّوشا. لكنني الابن الوحيد، ومن دون أخوات أيضاً».

«تقصد من هذه الأم. أليس لأبيك زوجات أخريات؟ أم أن هذا غير مألوف في كيزواتنا؟».

«لا، بل مألوف. أمي هي زوجته الوحيدة وأنا ابنه الوحيد. غريب، أليس كذلك؟ وأمي امرأة تقية جداً، وغالباً حزينة. ربما لأنها لم تنجب أطفالاً آخرين، لا أدري. لم نتطرّق إلى هذا الأمر قطّ، وأنا أخجل من سؤالها أو سؤال أبي حول الموضوع».

نظرت كيا إلى تالزو مفكّرة. ما سمعته منه جعلها تأسف لحاله، لكنها استغربت الأمر. أبوها إيداندا ملك، والملوك يتزوّجون أميرات. إلا أن والد تالزو كان تاجراً فحسب. لا شك في ثرائه وكونه من عائلة عريقة في القدم، ولكن أن يتزوج امرأةً من الأسرة الملكية فهذا غير مألوف أبداً. لقد سمعت أن التقاليد السائدة في حتّوشا صارمة جداً، وثمة شروط كثيرة لا بدّ من الالتزام بها. أهناك يا ترى أمور أخرى وراء هذه الحكاية؟ هل كانت تصوّراتها عن وضع إحيّا في كيزُواتنا مغلوطة تماماً يا ترى؟ في قطنا كان التجار مستقلّين، يتاجرون لحسابهم الخاص في الأرباح والخسائر، وليس بتفويض من الملك ولحساب الملك. بل هم مَن كان يموِّل الملك، الذي يُعدُّ واحداً منهم، كي يقوم بواجباته تجاه المجتمع. وكان للعائلة الملكية لا شك استثماراتها الخاصة، التي يشرف عليها شقيق الملك الأصغر والذي سيخلفه كواري ذات يوم. واعتقدت كيا أن الوضع في كيزواتنا لا بدّ أن يكون مشابهاً. فتابعت استفساراتها: «ألديكم بلاط خاص بكم، أم أنكم تتبعون مملكة حتّوشا؟».

لكن كواري قاطعها قائلاً: «كفى أسئلة الآن، ولنذهب لمشاهدة القاعات!». فقال تالزو مع ابتسامة تشي بارتباكه: «لست منزعجاً».

فكّرت كيّا بأنه ندر ما تسمح له الفرصة للتعبير عن همومه، كابتةً بذلك شعوراً بالقلق أثاره تالزو في داخلها. ثم نهضوا تلبية لملاحظة كواري، فيما قال تالزو بلباقة: «بودّي طبعاً مشاهدة هذا القصر الذي تجاوزت شهرته الحدود، ولا سيّما قاعة الاستقبال. بالأمس عبرناها بسرعة، وتركت عندي فوراً انطباعاً بروعتها. كثير من البلدان والقصور لم أزرها بعد، لكن ما رأيته هنا لا مثيل له».

بغض النظر عن الجهة الذي يدخل منها المرء، تُخلّف قاعة الاستقبال في نفسه انطباعاً طاغياً، وقد انطبق هذا حتى على كيا وكواري اللذين يعبرانها يومياً. لكنها كانت تتبدّى في أبهى جمالها من الطرف الغربي. من البوابة المركزية حيث يقفون الآن رأوا قاعة مربّعة هائلة، زُيّن جدارها الصدريّ بلوحات ملوّنة. ومن بين الأعمدة التي تحمل السقف الواسع العالي يطلّ المرء على الممرّ المقابل البالغ الزينة والمؤدّي إلى القاعة التالية الواقعة على المحور نفسه. وفي الوسط بين الأعمدة الأربعة كان هناك حوض بازلتيّ هائل الحجم، يستخدم مدفأةً بالفحم أو موقداً للنار.

قال كواري: «هنا تُعقد اجتماعات أشراف قطنا. كلّ ضلع من أضلاعها يعادل طوله

خمسين متراً. في آسيا كلها لا يوجد أكبر من هذه القاعة الملكية، ولا حتى في ماري أو بابل أو ميتاني، ولا حتى في مصر»، وأردف باعتزاز جليّ: «أترى هذه الأعمدة في الوسط؟ قواعدها نحتت من حجر البازلت القاسي، أما الأعمدة نفسها فهي جذوع أرز قديمة جداً من الجبال المجاورة».

«في الجبال عندنا يوجد أرز أيضاً. لكنني لم أرَ سابقاً جذوع أرز بهذه الضخامة»، قال تالزو وهو يجول بناظريه ممتلئاً دهشة.

في أعلى الجدران الأربعة، تحت السقف الواسع العالي مباشرة، توجد فتحات نوافذ تزوّد القاعة بضياء النهار. وفي منتصف السقف فوق الحوض مباشرة يرتفع جدار دائريّ مليء بالفتحات لخروج الدخان ودخول النور في الوقت نفسه. تابع كواري شرحه قائلاً: «عند عقد الاجتماعات في فصل الشتاء البارد، تبدأ تدفئة القاعة في هذا الموقد قبل أيام».

أومأ تالزو برأسه وقال: «يبدو لي قطر الموقد أكثر من ثلاث أذرع، أمر لا يُصدّق!». ثم استدار نحو ممرّ آخر، وسأل: «إلى أين تؤدّي هذه البوابة؟».

«إلى خارج القصر، إلى بيت ربة المدينة وإلى البوابة الجنوبية لسور المدينة»، أجابته كيا. ثم داروا حول الموقد الكبير، وتابع تالزو يسأل: «وماذا يوجد هناك إلى جانب المدخل؟».

«هذا هو المحراب المقدس، مقرّ ربّتنا في القصر، ربّة الحب والردع، حامية القصر والملك، سيدة المدينة، بيليت إكالّيم»، أجابت كيا بخشوع يعبّر عن تقاها، وأضافت: «هنا نتعبّدها في أيام الاجتماعات. هنا نتلو صلواتنا ونقدّم لها المأكولات والمشروبات، هنا نشعل لها البخور».

صمتوا خشوعاً لحرمة المكان، ثم مدّ الفضول جسراً إلى المعرفة، فقال تالزو: «أودّ أن أرى المزيد، فقد مرّ كل شيء بسرعة بالأمس».

كان واقفاً في الركن العظيم الذي يحتلّ منتصف جدار القاعة، ومنه يعبر المرء إلى القاعة التالية. على جانبي الممرّ نفسه انتصب عمودان، أُسدلت بينهما ستارة رائعة مزينة بتطريزات متنوعة وغنية. رفع كواري طرفي الستارة قليلاً ليعبروا. كانت مساحة قاعة العرش تعادل نصف مساحة قاعة الاجتماعات. مقابل المدخل مباشرة عند الجدار يرى المرء العرش الذهبي المهيب منتصباً على قاعدة. مسند الظهر ومسندا الذراعين ومربّع الجلوس منجّدة كلّها بقماش أحمر. وقد نُحتت أرجل العرش كقوائم أسد. وعند منتصف

الجدار الأيمن كان هناك عرش ثانٍ مزيّن كالأول بالعاج المحفور والتعريقات الذهبية، لكن قاعدته كانت أقل ارتفاعاً من الأول.

«هناك على الجدار الجانبي للقاعة ترى عرش الملكة، وهذا المواجه لنا هو عرش الملك. الصناديق الكبيرة هناك تستخدم لوضع الهدايا أو الضرائب التي يأتي بها الزوار. هنا» وأشار كواري إلى لوحة جدارية إلى جانب عرش الملك «ترى سيدة المدينة وهي تقدّم للملك رموز السلطة: إكليل الرأس والصولجان».

«يا لروعة هذا الرداء الذي يرتديه الملك، بكل هذه الأهداب! وكل هؤلاء الأرباب وهاته الربات، والأشجار والحيوانات، النخيل والأرز والطيور والأسماك! أهذا من حيوانات الأرباب؟». وأشار إلى حيوان رماديّ ضخم بخرطوم طويل. فضحكت كيا وأجابت: «إنه الفيل. لكنه ليس من حيوانات الأرباب، بل حيوان حيّ يرزق، ضخم جداً له نابان طويلان خطران. يعيش في قطعان صغيرة ويلتهم جبالاً من الأعشاب». وأضاف كواري: «لم يعد يوجد الكثير منه في سوريا. أنيابه ثمينة جداً، ولا يحقّ لأحد أن يمتلكها سوى أمراء المناطق التي تعيش فيها الفيلة، ولا يجوز إلا لحرفيين اختصاصيّين معالجة هذه المادّة الثمينة، وهنا في القصر فقط».

تابع كواري ماشياً نحو بوّابة القاعة التالية التي يوجد مدخلها في آخر الجدار الطولاني، وهي بالحجم نفسه وجدرانها مزيّنة باللوحات، وقال: «هذه قاعة الاحتفالات، والمخرج في الطرف المقابل يؤدّي إلى المستودعات وغرف الخدمات، ومن هذا الجانب، كما تعرف، تصل إلى غرف معيشة العائلة الملكية. تعال سنريك الجانب الآخر أيضاً». وتقدمتهما كيا وهي مسرورة بالانطباع العميق الذي تولّد في نفس تالزو عمّا رآه وأدهشه، وباهتمامه بالتفاصيل الصغيرة، ما ينسجم مع مزاجها.

فعلّق تالزو: «لم أشاهد اللوحات الجدارية بصورة جيدة بعد، ولا البوابات المزخرفة». لكن كواري اعترض قائلاً: «لنمنح أنفسنا استراحة قصيرة أولاً! دعونا ننعش أنفسنا في الباحة ونتناول بعض الطعام، فحسب قرقرة معدتي صار الوقت عزّ الظهيرة».

في تلك اللحظة تقدّم منهم خادم، انحنى والتفت إلى كواري وقال: «سيّدي أكيزي أرسلني لأرافق الضيف إليه». وفي التوّ تلاشت فرحة كيا، فقد كانت مستمتعة برفقة تالزو، وكانت راغبة في أن تطرح عليه كثيراً من الأسئلة، فالحوار معه مريح. غير أنه كان قد اعتذر بقوله: «شكراً لكما، كانت جولة رائعة. يمكن أن نلتقي ثانية قريباً، ولربما بعدالاجتماع

مباشرة. والدي وأنا سنبقى هنا نحو شهر أو شهرين، وستسنح فرص كثيرة للقاء ثانية».
وبدا عليه بوضوح صدق أسفه لتركهما. تابعاه بنظرهما وهو يسير وراء الخادم باتجاه قاعة الاستقبال. امتلأت كيا غضباً، فلا يحتاج أكيزي إلا لإصدار الأوامر حتى ينفّذ الجميع مشيئته.

«إنه إنسان لطيف جداً!». قال كواري بعفويّة، وأردف: «وأعتقد أننا سنصبح أصدقاء». فقالت كيا: «هذا صحيح» وتركت العنان لخيبة أملها مردفة: «لكنه في نهاية المطاف ليس إلا ابن تاجر». فردّ كواري: «هذه الملاحظة لا تتناسب مع شخصيتك تماماً، يا أختي الصغيرة!». عضّت كيا على شفتيها. لماذا لا تسيطر على نفسها بصورة حازمة؟ وأحسّت الدموع تغرغر في عينيها، فاستدارت من دون أية كلمة ولجأت إلى مخدعها.

**

تناول تالزو مع وليّ العهد أكيزي وجبة غداء لذيذة، تبعها بعد الظهر جلسة حوار مستفيض، ثم ودّعه واتجه إلى مركز المدينة مبتهجاً. بدأ النهار يأفل واضطرّه انحدار الطريق إلى المسير في قوس واسع. نزل كثيراً من الدرجات، ثم سار بموازاة المنحدر الشديد الذي يتوّجُه القصر الملكي.

صحيح أنه يعيش في ترشا في منزل واسع أعلى المدينة، تتبعه مستودعات فسيحة ومتجر خاص في أفضل بقعة على الميناء، حيث لا ينقصه شيء، ولكن مهما عاد بذاكرته إلى الوراء كان جوّ المنزل غالباً هادئاً. حتى الخدم والعبيد كانوا يخفضون من أصواتهم حالما يقتربون من جناح مسكن العائلة. كان بعض الضيوف طبعاً يزورونهم بين الآونة والأخرى، وهم غالباً من التجار الأصدقاء. لكنه لم يسمع في منزله سابقاً هرجَ أصوات مرحةٍ كالذي سمعه أثناء المأدبة في قصر الملك إيداندا.

عندما كان صبياً صغيراً أمضى معظم أوقاته مع نساء: أمه، مربّيته، عمّاته العانسات وأخريات من الأقارب، وكنّ كلهنّ يدلّلنه جداً. وقلّما كان يلتقي بوالده. إذ لم يكن مألوفاً أن يبقى الوالد في غرف النساء. كان أحياناً يصطحبه معه إلى الميناء، فيُريه السفن والقوارب ويخبره عن الأماكن التي أتت منها وعن حمولتها. كان دائماً يستمع إلى والده مندهشاً، ومن ثمة عندما يعود إلى النساء، يشرد حالماً بالسفر على إحدى تلك السفن حتى مصر النائية.

لم تكن أمه تحبّذ المشاوير مع الوالد، بل كانت تمضي جلّ وقتها مع الأرباب، سواء الذين تعرفهم من موطنها حتّوشا، أو أرباب موطنها الجديد في كيزواتنا أيضاً. ما كان ينقضي يوم من دون أن تصلّي لأحدهم أو لعدد منهم، في الغرفة المجاورة لمخدع نومها، حيث تقدّم لهم الأضاحي وتتلو صلواتها. وكانت تصطحب معها عادةً تالزو الصغير ليشاركها الصلوات ولحضور كثير من الشعائر المقدسة، حتى باتت أمراً مألوفاً بالنسبة إليه. وكانت تأمل بكل جوارحها أن يلتحق بخدمة المعبد ذات يوم، وكان يعرف ذلك، ولكن ليس بما يتعارض مع إرادة إحِيّا، التي لها المنزلة الأولى.

ما زال تالزو حتى الآن يتذكّر اليوم الذي سُمح له فيه بالانتقال إلى غرفة خاصة به. وقد ارتبط ذلك ببدء تلقّيه الدروس، فحضر إلى المنزل معلّمون مختلفون علّموه القراءة والكتابة والحساب. كما علّموه اللغة الأكدية، لغة التجارة عامة، والضرورية لعقد الصلات في الجنوب، إضافة إلى تدريبه على كتابة الحروف المسمارية المستخدمة في كتابة اللغة الحتّيّة أيضاً التي كانت أمه تكلّمه بها كلّما كان ذلك متاحاً، حتى أتقنها كاللغة الحورية. وهذا كله أدخل البهجة إلى حياته إضافة إلى التغيير. وكان يتحمّس خاصة للاطّلاع على البلدان الأجنبية.

توقّف تالزو عن متابعة المشي، لشعوره فجأة بالوحدة. صحيح أنه كان يفضّل البقاء وحيداً، ولكن غالباً ما كان يغمره التوق إلى رفاق لعب وإلى إخوة وأخوات. إنه لم يحتكّ بفتيان في عمره، وغالباً من المتدرّبين والمساعدين، إلا عندما صار والده يُكثر من اصطحابه معه إلى المتجر ليعرّفه منذ الصغر على واجباته القادمة. لكنهم كانوا يعاملونه بخجل لكونه ابن السيد.

في أثناء ذلك وصل تالزو إلى البئر في مركز المدينة، وكانت الشمس قد اختفت وراء الأسوار العالية المحيطة بالمدينة، وامتدّ الغسق بين الأبنية، وسرعان ما سيتبعه الظلام. التفت إلى الوراء ورفع نظره نحو القصر، وتهيّأ له أنه يرى نوراً على الشرفة. مع الحركة نفسها وقع نظره على الزقاق المقابل وقد خرج منه للتوّ مضيفه تيرو، فتعرّفه فوراً رغم أنه كان لا يزال في الظل. وأراد التوجّه نحوه عندما لاحظ أنه لم يكن وحده. كان يسير إلى جانبه شخص يلبس عباءة طويلة داكنة اللون ويغطّي رأسه بعمامة. دخل تالزو زقاقاً جانبياً ليفسح لهما في المجال كي يمرّا، فالتقط بمحض المصادفة حواراً قصيراً بينهما، إذ إنهما لم يتابعا طريقهما، بل توقّفا عند البئر. سمع صوت الشخص يقول: «يجب أن نشدّد رقابتنا عليه. أخبرني يا سيدي بكل تحرّكاته كلّما سنحت لك فرصة لذلك!».

فأجابه تيرو: «اعتمد عليّ في ذلك، سأخبرك باستمرار».

«أرسل إليَّ رسولك، وعليه كإشارة أن..». في تلك اللحظة اقتربت من البئر بعض النسوة ضاحكات، فلم يفهم تالزو بقية الجملة، وسرعان ما ستر الشخص وجهه بشالٍ كتفيه. حثّ تالزو خطاه في الزقاق الجانبيّ كي لا يلتقي تيرو الذي استدار في اتجاهه بسبب النسوة. وكان السكان قد أوقدوا المشاعل على أبواب دورهم لإضاءة الدروب.

كان تيرو قد أنزل شريكه التجاري وصديقه إحيًا في جناح الضيوف في داره، ليقيم فيه مع تالزو طوال مدّة وجودهما في قطنا. فالعلاقة بين العائلتين تعود إلى عدّة أجيال، أي إلى أيام قطنا الذهبية، حسب معلومات تالزو، حينما كانت قطنا مهيمنة سياسياً على سوريا حتى أرض كنعان، وحينما كانت كيزواتنا بلداً مستقلاً يمسك بخطوط التجارة بين ممالك منطقة الأناضول. وغالباً ما كان تجّار كيزواتنا يتجشّمون مشقّات الرحلة إلى قطنا، فيما يتجه تجار قطنا شرقاً وجنوباً. وحتى اليوم ما زال الوضع على حاله، ولكن الظروف اختلفت: فقد باتت قطنا واحدة من ممالك المدن الصغيرة، مثل أُغاريت الغنية على الساحل الغربي، ووقفت نشاطها على التجارة، تاركة الصراعات العسكرية والدبلوماسية للقوى الكبرى. كيزواتنا كذلك وجدت لنفسها دوراً في لعبة الأمم، فناورت طويلاً بحذق كي لا تضيع بين ميتاني وحتّوشا. ومؤخراً أدّى اكتشاف معادن غامضة إلى إيقاظ جشع القوى المجاورة، فكان لا بدّ لكيزواتنا من أن تحسم أمرها. انحاز الملك والأعيان إلى جانب حتّوشا الصاعدة، فكانت النتيجة تحالفاً يربط البلدين أحدهما بالآخر. وفي الخريف القادم سيُحتفل في أدانيا بتنصيب نائب الملك المعظم شوپيلوليوما حاكماً. مع هذه الفكرة كان تالزو قد بلغ دار تيرو حيث ينتظره والده إحيا الذي بادره بقوله: «لقد أطلتَ الغياب»، فظهرت على وجه نجله نظرة تساؤل، ثم قال: «نعم يا أبي. الأمير كواري والأميرة كيّا أرياني قاعات القصر، وأمضيت بقية بعد الظهر مع الأمير أكيزي. مداولاتكم انتهت عند الظهر، أليس كذلك؟». أومأ إحيا برأسه موافقاً. فأردف تالزو: «الأمير أكيزي يا أبي سألني عما إذا كنت أرغب في مشاركة شباب قطنا في تدريبات القتال». فابتسم إحيا ابتسامة رضا وقال: «أرى أنهم يريدون ضمّك إلى نخبة المستقبل من شباب أعيان قطنا. وبماذا أجبت؟».

تردّد تالزو بالكلام قليلاً ثم قال: «قلت له إني في ترشا كنت مشغولاً بأمور أخرى، ولا خبرة لي بهذه التدريبات، لكنه كان من الكرم أن عرض عليّ تخصيص مدرّبٍ ليهتمّ بي حتى أبلغ مستوى الآخرين. يمكنني قبول هذا العرض، أليس كذلك يا أبي؟».

أجاب إحيا بإيماءة موافقاً وقال: «طبعاً. هذا شرف كبير، وسيفيدك عندما لا تكون منشغلاً بالجلوس والكتابة. ومن المهم لك أن تقيس نفسك بالنسبة إلى الآخرين». رنى تالزو نظره إلى والده مدهوشاً، إذ أحسّ به اليوم رؤوفاً على غير عادته. هل تحقّقت الاتفاقية التجارية يا ترى؟ وإلا فما هو تفسير هذا التحول في مزاجه؟ لكن إحيا أردف قائلاً: «لكني أعترف بأني كنت أفضّل وجودك معنا عند إبرام جميع الصفقات كما تعلم. ففي نهاية المطاف قد يصيبني مكروه أثناء رحلة العودة إلى البلد، لا قدَّر الأرباب»، وأشار بيده إشارة تبعد عنه الشرور، وأضاف: «لكن غداً يوم آخر. أما الآن فانعش نفسك والبس رداءً نظيفاً. فنحن مدعوّان إلى العشاء. يمكنك لاحقاً أن تخبرني عن تجاربك».

في أثناء تناول طعام العشاء ناقش تيرو ووالده تفاصيل أعمالهما التجارية، فيما استمتع تالزو بأن يُترك لشأنه، متابعاً أفكاره، مستعيداً أحداث اليوم الغني، سارحاً في جمال كيّا ذات العينين الحيويتين البراقتين وهي تطرح عليه أسئلتها الجادة.

أما ما مرّ به على طريق عودته إلى الدار، فقد غاب عن ذهنه.

**

«يا إخوتي ويا أعيان قطْنا! لقد أرسلت في طلبكم لحضور هذا الاجتماع، لأحيطكم علماً بأحداث وقعت، وقد يكون لها بالغ الأهمّية في ما يتعلق بأعمالنا التجارية».

تلفّتت كيّا حولها. كانت القاعة الكبرى مليئة، وفي كل مكان رُتّبت كراسٍ وطاولات صغيرة. لا شك أن الاجتماع سيطول. جلس الملك فوق منصة عالية نوعاً ما، على كرسي بذراعين، تحت مظلة إلى جانب مدخل قاعة العرش، والملكة إلى جانبه. وقد تجمّع حوله كبار التجار من ذوي النفوذ والأعضاء في مجلس الأعيان. أما بقية أعيان المدينة رجالاً ونساءً فقد توزّعوا في أنحاء القاعة وفق الانتماء العائليّ مثل أعضاء العائلة المالكة.

عندما اقترب الملك إيداندا وكبيرة الكاهنات شالا من محراب بيليت إكالّيم، نهضوا جميعهم وحجبوا وجوههم. سحب الملك والكاهنة طرفي الستارة التي تحجب عادةً التمثال المقدّس عن أعين الجميع. كان تمثال الربة العارية الذهبي اللمّاع منتصباً على قاعدة، والربة تحمل بيديها أمام بطنها إناء يتدفق منه، بصورة عجيبة أثناء الاحتفالات، ماء رقراق ينسكب على صحفة. وعلى جانبيها يوجد تمثالان حجريان لملكين جالسين من أسلاف ملوك قطنا، يبدوان كحارسين، وقد كُسيا بشكل احتفالي برداءين أرجوانيّين

فاخرين مزيّنين على الحواف بشريط عريض من الأهداب مع ترك الذراع اليمنى لكل منهما حرة، تحمل بيدها صحفة لتلقّي الأضاحي. بدا وجها الملكين وكأنهما حيَّين، ولا سيّما العينان الملوّنتان، أما الشعر الأجعد المتموّج والكثيف فقد ثُبِّت بطوق ذهبيٍّ رفيع كالذي يضعه الملك اليوم.

كانت سيدة المدينة بينهم، لقد شعرت كيّا بذلك، ولم تجرؤ على رفع عينيها أثناء وضع إيداندا وشالا قرابين الطعام والشراب على صحفتَي التمثالين. فاحت من القرابين روائح اللحم والخبز والجعة الطازجة، تكريماً للأرباب وتوسُّلاً لدعمهم المدينة. امتلأت القاعة بأصوات الغناء وعزف القيثارات، فارتعشت كيا وقد داعب أنفها عبق خشب الأرز والزيوت الفاخرة الطيبة الرائحة.

أخذت كيا شهيقاً عميقاً وأغمضت عينيها، وقد شعرت بنفسها خفيفة، ليس لأول مرة، بل إنها كلما حضرت هُنا أثناء الطقوس المقدسة المترافقة مع إشعال البخور، كان يتنابها إحساس بأنها تسبح في الهواء، وكأن ثمة ما حملها وأخذها بعيداً. فكانت ترى تحتها المدينة بأسوارها العالية وبواباتها المتينة، ثم تأتي الحقول الملأى بالمزروعات وبساتين النخيل ثم المراعي. وكانت تسمع حفيف السنابل وهي تتمايل مع الريح، ثم خرير نهر أرانتو المزبد، ثم ترى الجبال المتلألئة في أشعة الشمس وهي تسبح عبرها حتى البحر. ولكن سرعان ما اكفهرّت السماء ولمع البرق وقصف الرعد، وارتفع ماء البحر متسلّقاً الفضاء هادراً حتى التصق بالسماء كجدار ينذر بالخطر. ثم هجم عليها كموجة ملتفّة هائلة جاهزة للانقضاض عليها والتكسّر فوقها. أرادت أن تصرخ، لكن صوتها خذلها من الفزع.

بالسرعة نفسها التي تواردت فيها الصور إلى مخيّلتها، عادت وتلاشت. عندما فتحت كيا عينيها وجدت نفسها جالسة في مكانها محميّة بذراع أمها، فنظرت كيا إليها مرتبكة مضطربة. كانت ستائر المحراب قد أسدلت ثانية واختفت القرابين وتلاشت الأصوات.

همست إيست في أذنها: «ماذا رأيت يا صغيرتي؟». وأردفت: «يمكنك إخباري فيما بعد»، كي لا تلفت انتباه الحضور إليها وإلى ابنتها. ناولت إيست ابنتها طاسة ماء، بخّتها منها برذاذ خفيف لتباركها حسب العادة المصرية. شربت كيا قليلاً وتوقفت، فقالت إيست بإلحاح: «كُلي شيئاً أيضاً» وكسرت لها قطعة خبز. لم ينتبه إليهما أحد، بل كان الجميع ملتفتاً نحو الملك الذي تابع قائلاً: «أيها الأشراف، ثمة مستجدات بلغتنا أخبارها، تؤكد ما وصلنا في تقارير مخبرينا حتى الآن وتضيف إليها كثيراً من التفاصيل. اسمحوا لي بدايةً أن ألخّص لكم الوضع القائم:

لقد نجحت مدينتنا حتى اليوم في الحفاظ على استقلالها. وعلى نقيض معظم المناطق السورية والكنعانية التي يتبع أمراؤها إما مصر أو ميتاني، نستفيد نحن من حماية مصر من دون أن نخضع لها. صحيح أننا قد خسرنا موقع السيطرة على سوريا، لكننا ما زلنا قادرين كالسابق على تحقيق أعمالنا التجارية من دون عوائق. وبمفاوضات حاذقة تمكّنّا من النأي بأنفسنا عن نزاعات ملوك القوى العظمى في بابل وميتاني ومصر. بفضل موقعنا عند تقاطع طرق التجارة الدولية المهمّة بين الشمال والجنوب والشرق والغرب، ولا سيّما لوقوعنا في نهاية الطريق الخطرة من ترْقا على الفرات وعبر الصحراء حتى الجبال الغربية، تتمتع قطنا بأهمّية خاصة بالنسبة إلى جميع الأطراف، ليس فقط بسبب المواد الخام والبضائع التي بِتنا مركزاً لتسويقها، بل أيضاً بسببِ إنتاجنا الفريد في نوعه، والذي تمكّنّا من الحفاظ على سرّ صناعته».

توقّف إيداندا برهة عن الكلام وارتشف قليلاً من نبيذٍ حلوٍ مخفّف، ثم تابع: «وإنه لمن مصلحتنا الحفاظ على الأقل على هذه السيطرة التجارية في سوريا، ولكن أيضاً على العلاقات الجيدة القائمة مع ميتاني وجيراننا السوريين ومع مصر كذلك».

وهنا قاطعه أوبّيا الناطق باسم مجلس الأعيان سائلاً: «إيداندا الفاضل، أين تكمن مخاوفك التي يُحتمل أن تعكّر حالة الانسجام التي وصفتَها؟ من أي جهة يمكن أن يهددنا الخطر؟ الحاكم القوي في أرض النيل حريص على دوام علاقات السلام مع جيرانه»، وتابع متوجهاً نحو إيست بانحناءةٍ تحية: «أليست إيست الفاضلة برهاناً ناصعاً على ذلك؟ وملك بابل أرسل أخته، بل وإحدى بناته، حسبما سمعنا، إلى مصر عربون صداقة. بين ميتاني وبابل يسود السلام، وكذلك بين ميتاني ومصر، علماً بأن هذا الحال ليس دائماً. هناك عدّة أميرات ميتانيات في حريم طيبة. وألم نسمع من مخبرينا أن تمثال الربة شاوشغا (عشتار) الشافية قد نقل للمرة الثانية من نينوى الميتانية إلى النيل للمساعدة في شفاء فرعون المريض؟».

«أنت محقّ في قولك، لا شك في أن الحال حتى الآن كما وصفت»، أجابه الملك إيداندا وتابع: «ولكن بعض الأمور قد تتغيّر، وسبب خشيتي هو ما وصلني من مصادر موثوقة جداً»، أخذ شهيقاً عميقاً وقال: «بعد موت تودهاليا العظيم ملك حتّوشا، ضعف الحثيون كما تعرفون. وخلَفُه على العرش مات أيضاً». فسرى الهمس في القاعة. رفع الملك يده فعاد الهدوء.

«من الواضح أن قصور الملك في إدارة شؤون البلاد لم يكن السبب الوحيد، بل يبدو أنه قد اقترف إثماً عظيماً. فأصدر أرباب ذلك البلد حكمهم على فعلة المتآمرين الذين يرئسهم الملك الحالي وأقرّوها، وبالتالي فإن حكم الملك شوبيلوليوما مبارك لا لبس فيه».

أجال الملك نظره في الحضور ثم قال: «قبل أن أخبركم بما وصل إلى علمي، سأقترح عليكم ما يلي: في دار الشريف تيرو يقيم منذ مدّة ضيفاً، التاجرُ إحِيّا من ترشا، وهو المفوّض التجاري لبلده كيزواتنا. إنه على معرفة دقيقة بمجريات الأمور في حتّوشا، لا بسبب علاقاته التجارية الوثيقة معها فحسب، وإنما لأنه يرتبط بصلة قرابة مع العائلة المالكة هناك. ليس الأمر من مألوف عاداتنا، ولكن يبدو لي من المناسب اليوم في هذا الاجتماع الموسّع أن نستمع إليه».

لاقى الاقتراح قبولاً عاماً، فاستُدعي إحيا إلى قاعة الاجتماع، حيث خاطبه الملك قائلاً: «السيد إحيا الترشي المحترم، نتوجّه إليك بالشكر لاستعدادك لمخاطبتنا، ونرجوك أن تخبرنا بواقع الأحوال في الشمال!».

«يا أشراف قطنا، سأحاول أن أحيطكم علماً بأهم الأحداث، من وجهة نظري، منذ إمساك الملك شوبيلوليوما بزمام الحكم. كان أول ما بدأ شوبيلوليوما حكمَهُ به هو استعادة المناطق المفقودة، التي كان قد شارك أباه في غزوها سابقاً. كانت حملته الأولى على أرض أرْزاوا التي تقع إلى غرب حتّوشا وتمتد حتى بحر أهيّاوا (إيجه). إذ قويت مملكة أرزاوا نتيجة الحلف الذي أبرمه ملكها (تَرهونتَرادو) مع الفرعون أمينوفيس لمواجهة حتّوشا. فتمكّن بذلك من توسيع سلطته حتى كيزّواتنا. لكن شوبيلوليوما تمكن، بسرعة من إعادة فرض سيطرته على تُوانُوا، مجبراً أرزاوا على التقهقر إلى حدودها الأصلية، فأعاد بذلك فتح الطرق نحو الجنوب والجنوب الغربي والغرب. بلدي كيزواتنا أبرم معاهدة مع الملك شوبيلوليوما، فحصل بذلك على حمايتها، وعلى كلّ امتيازات حتّوشا، ومنها أن قُبِل أربابنا في مجلس أرباب مملكة حتّوشا وصاروا موضع احترام وتبجيل في المملكة بأسرها».

بذلت كيّا جهدها، لكنها لم تستوعب كل ما جاء في حديث إحيّا، وأدركت أنها لا تملك تصوراً دقيقاً عن أوضاع البلدان والمدن التي وردت في الحديث أو عن الجبال والبحار، مثلما كانت تعتقد.

«بعد هذا النجاح، كانت خطوة شوبيلوليوما الثانية هي مهاجمة جاره في الجنوب الشرقي، وهو ألدّ أعداء حتّوشا، أي ميتاني»، وهنا تدخل إيداندا معلقاً: «نحن حصلنا على

نسخة من كتاب توشراتّا ملك ميتاني إلى فرعون، فعرفنا منه أن الهجوم الحتي قد صُدَّ بنجاح. وأن جزءاً من الغنائم قد أرسلها توشراتا بفخر إلى مصر هديةً، ومنها عربات قتال وخيول وعبيد. نحن ننطلق طبعاً من أن العلاقات الحدودية بين الحاكمَين، بهذه المعركة، قد توضّحت».

«حالياً، قد يكون انطباعك صحيحاً، لا سيّما أن الجيش الحتي في هذه السنة قد تحرك نحو الحدود الشمالية لمواجهة القبائل الكشكية». فتدخل أوبّيبا متسائلاً: «عذراً لجهلي، نحن لا نعرف شيئاً بعدُ عن هذه القبائل الكشكية، فما أهميتها؟».

«هم في واقع الأمر رعاة رُحَّل، لكنهم يُغِيرون غالباً وبنجاح على الحدود الحتيّة الشمالية، فيشكلون تهديداً دائماً. وكان العار الأكبر عندما وصلوا حتى إلى العاصمة حتّوشا ونهبوها. الأمر الذي لا يمكن استيعابه، لو كنتم تعرفون تحصيناتها». فعلّق أوبيبا ثانية قائلاً: «لا بدّ من وجود مواضع ضعيفة في هذه التحصينات، وإلا كيف نجح الهجوم؟ لكن ما لا أفهمه هو ما الخطر الذي يشكله هؤلاء الرعاة الرحل؟ وما يستغلق عليّ فهمه هو اهتمام شوبيلوليوما بهم، فهناك ما يكفي من المراعي في مملكة حتّوشا، أليس كذلك؟».

«لا بدّ من أن تعرف أنهم يعيشون في مناطق جبلية مغطّاة بغابات كثيفة، فهم بالتالي لا يملكون مراعي خصبة كافية. ثمة نطاق جبلي طويل يمتد على الحدود الشمالية ويفصل حتّوشا عن البحر الأسود الذي يسمى البحر العُلوي أيضاً. والمنفذ الوحيد نحو الشاطئ هو حيث يخترق نهر مَرَسانْتا الأحمر الجبل ويصب في البحر عند مدينة زالپا. وعلى نهر مرسانتا تقع مدينة نِريكا أيضاً، وكلا المدينتين مقدس من قبل الحتّيّين، وكلتاهما مهدد تماماً بغزوات الكشكيين، هذا إن لم تبقيا في حوزتهم. لكن هذا ليس السبب الوحيد لضرورة لجم الكشكيين، بل هناك الثروة الغابيّة الغنية والمعدن: فهدية السماء – كما يقال – موجودة في أراضيهم».

وشاءت المصادفة أن تلتفت كيا في تلك اللحظة نحو أبيها، فانتبهت إلى الإشارة التي أرسلها إلى أوبيبا بعينيه، وأجابه ذاك بإيماءةٍ برأسه. ما معنى ذلك؟ وتابع إخِيّا كلامه: «لا شك في أنكم قد سمعتم بدرجة إتقان صنّاع المعادن في حتّوشا، فهم يتمتعون بسمعة فائقة. وبعضهم لا شك من بلاد كَشْكا. لقد رأيت هناك أسلحة وأدوات ومعدات ما كنت أتخيل أن الإنسان قادر على صنعها. ولا حاجة على هذا الصعيد أن نُغفل كيزْواتنا، فجبالنا أيضاً خصبة وثرية، وصنّاع المعادن عندنا يتقنون حرفتهم بحق».

لاحظت كيا أن إخوتها أيضاً قد قرّبوا رؤوسهم فيما بينهم وتهامسوا. لكنها لم تستغرب الأمر، فالحديث يدور حول السلاح، وهو موضوع مثير لاهتمامهم دائماً. إلا أن حماسة إحيّا أثارت اهتمام المستمعين جميعاً. فكثيراً ما كانت تدور إشاعات حول أسلحة ومعدات قتالية جديدة، ولكن الصعوبة كانت تكمن في الوصول إلى معلومات موثوقة ومهمّة حياتياً.

«هذه المرة تمكنت حتّوشا من السيطرة على الكشكيين، بعمليات عسكرية قصيرة الأمد. ومن ثم وبسرعة توجه الملك وجيشه نحو مشرق الشمس، وتمكّن من الهيمنة على عدّة بلدان وربطها باتفاقيات تبعية. ولكن لنعد إلى ميتاني. على طريقنا أنا وابني إلى هنا، مررنا بمنطقة حدودية تجاور ميتاني. ومعظم معلوماتنا حصلنا عليها من الملك في مدينة آلالاخ. أستغرب أنكم لم تسمعوا حتى الآن، كما يبدو، بأن مكانة الملك توشراتا لم تعد متينة كالسابق». ونظر متسائلاً نحو الملك إيداندا، الذي لم يظهر على وجهه أي تعبير، بل قال له فحسب: «تابع!».

«حسبما قيل لي، ثمة نزاع على السلطة بين توشْراتا وأرْتاتّما الذي يتحدّر من فرع آخر في العائلة المالكة. وهذا حتماً يضعف البلد، لذلك لن أستغرب أن يستغل شوپيلوليوما هذا الوضع لمصلحته بطريقة أو بأخرى. وهذه التكهّنات المهموسة لا يسمعها المرء في آلالاخ فقط». وبذلك، كما بدا، أنهى إحيا حديثه، إذ انحنى محيياً وجلس على كرسيه.

«والآن أيها الأشراف!». خاطب إيداندا المجتمعين وتابع: «أظنكم تشاركونني قلقي أن ثمة خطراً يهدد جميع الممالك السورية. ها قد عادت حتّوشا للتدخل بقوة في الأحداث السياسية، ويبدو لي أن الملك شوپيلوليوما لن يهدأ، قبل أن يحقق حلم الحتّيّين القديم بالسيطرة، ليس فقط على آسيا الصغرى، بل على سوريا أيضاً، وأبعد إن أمكنه ذلك. وفي هذا الإطار يهمّه أن تكون مملكة ميتاني ضعيفة. وواضح أنه قد أخضع معظم أعدائه في الغرب والشمال والشرق. لكن السؤال الكبير يبقى: كيف سيكون موقف مصر؟ واقع الأمر هو أنه على الفرعون أمينوفيس الإسراع في مساندة حليفه توشراتا. وميتاني حتى الآن كانت توفّر لنا نوعاً من الحماية، لا سيّما أن علاقتنا بأرض النيل وثيقة جداً. أما الآن فإننا نتعرض لخطر أن نُطحَن في صراع القوى العظمى».

حلّت برهة صمت. نهض الملك إيداندا، اقترب من إحيّا وقال له: «نشكرك أيها الشريف إحيّا جزيل الشكر لتقريرك الشامل. فليشملك أربابك وأربابنا بحمايتهم ولتُحِط

رعايتهم بك وبذويك. كل بيت من بيوت قطنا يرحب بكم!». واستدعى الملك بإشارة من يده بعض كبار الموظفين وقال لهم: «رافقوا الشريف إحيا بما يليق به من حفاوة!».

بعد أن عاد الهدوء إلى القاعة، بادر تيرو إلى الكلام فقال: «يبدو لي أيها الشريف إيداندا أن السماء تتلبّد حقاً بغيوم محمّلة بالشر».

هزّ إيداندا برأسه موافقاً وقال: «لم أرغب بالكلام في الموضوع بحضور الشريف إحيا. ولكن لا يسعني إلا أن أؤكد لكم أن ثمة ما يحتدم ويشكل خطراً كبيراً علينا. نقل إلينا مخبرونا أن شوپيلوليوما قد وعد أرْتاتَما بتمكينه من عرش ميتاني، لقاء إزاحة توشراتا. يا لهذه الغطرسة! فشمس شوپيلوليوما ترى من البداهة أن الحتّيّين هم مَن يقرّر أمور العروش. هذا من طرف، ومن طرف آخر، أرى أنه لا بدّ أن نأخذ في الحسبان حاكم آشور الجديد. فحسب تقارير مراسلينا يبدو أنه مصرّ على زعزعة السلطة العليا في ميتاني وتوسيع آشور على حسابها. لقد أطلق على نفسه منذ الآن لقب ملك أرض آشور، وهذا له دلالة كبيرة. ثم إنه قد اتصل بشوپيلوليوما»، وبدا وجه إيداندا طافحاً بالهموم.

«وما العمل؟». سأله أوپيپا «ماذا تقترح؟».

«ليس من السهولة الإجابة عن ذلك. وما زال هناك متسع من الوقت في هذه السنة ليقول السلاح كلمته بعد. يحتمل أن تحدث أمور كثيرة. على أية حال لا بدّ من أن نكثّف استطلاعنا لنبقى مواكبين للأحداث ما أمكن. وأعتقد أنه من الضروري تبليغ الأمراء والمشايخ المجاورين لنا، عن طريق رسل وليس رسائل، وذلك لتجنّب مخاطر أية اضطرابات دبلوماسية».

التفت الملك إلى أقرب المدوِّنين إليه وأعطاه بعض التعليمات. ساد القاعة لغط وجلبة. وعندما انتبه إيداندا إلى أن تيرو يريد الكلام، أمر الحضور بالصمت.

«أيها الأشراف، ألا يجدر بنا التفكير بضرورة أن تنتهز الإمارات السورية الفرصة أخيراً لتعاود الاتحاد وتشكّل قوة مرهوبة؟ المعارك ستشغل حتّوشا وميتاني لسنوات. ونحن على علاقة جيدة مع المصريين، الذين لا يهتمون بأمورنا إنْ لم تمسّهم مباشرة، أي عندما نتأخر عن مواعيد توريد الخشب والبضائع الضرورية الأخرى لهم في وقتها. ونحن نقوم بهذا، وفي المواعيد الدقيقة». جال تيرو ببصره على الحضور، فارتفعت من البعض أصوات مؤيدة. فقال أحد التجار: «صحيح، ما الداعي لأن نكون دائماً تابعين لجهة ما؟». وقال آخر: «ألا ندفع الكثير الكثير ثمناً للحماية، وبطوعِنا دائماً؟». وهتف ثالث: «بمواردنا وصلاتنا ومنتوجاتنا لا حاجة بنا لأن نختبئ. ما هذا الخنوع الدائم! فلنُرِهم من نحن!».

تعالت الجلبة وبات جلياً أن قسماً كبيراً من الحضور لا يدعم سياسة الوقوف على الحياد التي يحبّذها إيداندا وانتهجها حتى الآن مع أنصاره.

«ألأجل أن نُطحَن بين خمس جبهات في أسوأ الأحوال؟». اعترض أوبيبا بصوته الجهوري. صمت الجميع، فأردف: «تعرفون أن النجاح مستحيل من دون معركة. فبأي أسلحة وبأي رجال تريدون القتال؟ حتى ولو ركبتم بأنفسكم العربات القتالية، سيكون الأمر مهزلة في مواجهة القوى المحيطة بنا. ألم يبنِ المصريون قواعدهم عند بوابات دورنا؟ وكذلك الأمر بالنسبة لمملكة ميتاني، سواء ضعفت مكانة توشراتا أم لا؟ واليوم سمعنا ما يكفي عن طموحات شوبيلوليوما التوسعية. وهناك احتمال أن تدخل آشور إلى الميدان، وعلينا ألا ننسى بابل طبعاً. لا، أيها السادة، إن موقعنا المتوسط في رأيي لا يحبّذ حتى التفكير في الأمر. ذلك أننا لن نفقد فقط استقلالنا الذي ما زلنا نتمتع به حتى الآن، فتذهب بذهابه ثرواتنا، بل إن مدننا ستتعرض لخطر أن تُحرق وتُباد. وعند ذلك سنكون في أفضل الأحوال تابعين لجهة ما وعلينا دفع ضريبة التبعية. أتريدون ذلك؟». والتفت باتجاه تيرو وسأله مستفزّاً: «ثم هلّا أخبرتنا كيف يمكن تحقيق الاتحاد بين الدويلات السورية؟ مَن مِن كل هؤلاء الحكام مستعدّ للانحناء احتراماً لملك سوري أعلى منه، متنازلاً عن هيبته الخاصة؟ مَن؟ هل على قطنا مثلاً أن تخضع لدويلة أمورو؟». وجلس منفعلاً على كرسيه، أما المخاطَب تيرو فلم يبدِ أي ردة فعل.

نهض إيداندا وتوجه نحو تيرو وقال له: «أنا أشاطر الشريف أوبيبا رأيه يا تيرو بن نابْليمّا. قطنا ستكون بخير إنْ التزمت بخطها السياسي الحذر تجاه جميع الأطراف، التي تعاملنا معها حتى الآن بصورة ناجحة. وحتى أنت يا ابن حميي، أليست تجارتك اليوم أفضل من أي وقت مضى؟».

**

غادرت كيا مع أمها اجتماع مجلس الأعيان، وقد لاحظت أن القلق بادٍ على وجهها. كان تعبير وجهها، الذي تتحكّم به عادة، أكثر جديّة الآن، ما خلّف في وجهها الجميل بعض التشنّج. شدّت إيست كيا إليها ونظرت عميقاً في عينيها ثم قالت: «لقد ارتميتِ فجأة بين ذراعي، هل دختِ؟ هل أنت مريضة؟».

كادت كيا تنسى الرعب الذي دهمها صباحاً. وسمعت أثناء الاجتماع عن أشياء كثيرة

جداً، عن أحداث وأسماء كثيرة، ورأت وجوه المجتمعين العابسة. لقد أحسّت أكثر مما فهمت مدى خطورة أيّ قرار يُتّخذ بشأن قطنا، وأهمّيّته، لأنه سيكون مصيرياً حتماً. ولهذا أصابتها بالدهشة أسئلة أمها الملحة، لكنها أفرحتها. شعرت على غير عادتها بدفقة محبة غامرة تجاه أمها التي غالباً ما كانت تجد فيها ما تفتقده. وفي الوقت نفسه جعلها قلق أمها الجليّ تضطرب، فأجابت محاولة أن تبدو طبيعية:

«تأتيني هذه الحالة أحياناً، عندما أشمّ بخور القربان أو خشب الأرز وهو يحترق. لكنها غالباً ما تمرّ سريعاً. ينتابني إحساس بالخفة، فأسبح في الهواء وكأنني طائر بجناحين، وأحلم وأنا أفكر بأني يقظة. أرى أشياء جميلة، ولكن اليوم..». وانحبس الكلام في فمها.

«ماذا حدث اليوم؟ ألن تخبريني؟ رأيت شيئاً أخافك، أليس كذلك؟».

«كيف عرفت؟».

«قرأت ذلك في وجهك. أخبريني بما رأيت!».

تغرغرت الدموع في عيني كيا. نظرت إيست في وجهها مشغولة البال، فسألتها كيا: «ماذا أصابني؟». فأجابتها أمها: «لست واثقة بعد، لكنه على أية حال لا يستدعي خوفك. سأحاول أن أشرحه لك. كيا، يا ابنتي، لقد بلغتِ من العمر ما يؤهّلك في أي يوم للتحول من فتاة إلى امرأة». فهزّت كيا رأسها بفتور. منذ مدة شرحت لها أمها أسرار المرأة. سنوياً في فصل الخريف كان على جميع الفتيات اللواتي حِضْن لأول مرة خلال هذه السنة أن يجتمعن في معبد بيليت إكالّيم لأداء الشعائر السرّية، في إطار عيد الحصاد. وأردفت إيست: «وأظن أن مشاركتك في الطقس ستكون في هذا الخريف. الانتقال إلى عالم الكبار يجلب معه تغيّرات كثيرة، ومنها ما يتعلق بجسدك»، وابتسمت بحنان مضيفةً: «لقد صرتِ صبيّة جميلة يا بجعتي. ثدياك يتكوران. وأنا أرى كيف ينظر إليك شباب قطنا بإعجاب. لكن الأمر لا يتعلق بجسدك فقط، بل روحك أيضاً تتغير، إذ عليها مثل جسدك أن تنمو إلى المرحلة الجديدة من حياتك. في هذه الفترة الانتقالية قد يحدث لفتاة مثلك، موهوبة بسعة الخيال والاهتمام والنهم إلى المعرفة، أن تذهل عن الدنيا لبرهة. أتفهمين ما أقصد؟».

أومأت كيا برأسها موافقة ثم هزّته نافية، وقالت: «نعم... لا... لا أعرف. إذاً، هذا يعني أني بخير، أليس كذلك؟». ونظرت إلى أمها بترقّب.

«لا أستطيع أن أعطيك الجواب الشافي. إذ يحتمل وجود سبب آخر لأحلام يقظتك، والأصح أن أقول لحالات ذهولك عن الدنيا، وهو في تقديري الأكثر احتمالاً. أخبرتني

مربّيتك أنك كثيراً ما تحلمين بحيوية. وأنك أحياناً، وليس دائماً، ترين في الحلم أشياء مريعة. وعندما توقظك، تكونين مأخوذة، فلا تتكلمين معها، بل تعودين إلى النوم بسرعة ولا تلاحظين حتى أنها تجفّف عرقك وتبدل لك ثيابك. سألتك عدّة مرات في الصباح التالي عمّا جرى في الليل، لكنك لم تتذكّري شيئاً. أتعرفين عمّ أتكلم؟».

«نعم، أظن ذلك. في بعض الصباحات أشعر بنفسي متعبة، وينتابني إحساس بأني خضت في أمرٍ أجهدني، لكنني لا أستطيع تذكّر ما رأيت، ولا يتبقّى منه سوى شعور سيّئ».

«سوف تتعلّمين ذلك»، غمغمت إيست، وأردفت: «لكنك تتذكّرين ما ترينه عندما تشمّين بخور القربان، ومنذ سنوات لحسن الحظ، كما تقولين. لذلك أعتقد أنك تملكين هبة البصيرة التي يهبها الرب خونس، رب القمر في مصر، لبعض المصطفين».

نظرت كيا إلى أمها مرتاعة وسألتها: «ما معنى هذا الكلام يا أمي؟».

«يعني أن الأرباب يجعلونك ترين أموراً وأحداثاً، لا يستطيع الناس الآخرون رؤيتها».

«حتى إذا كانت مريعة ومرعبة؟». وأخذت كيا تبكي، ومن بين الدموع حكت لأمها: «رأيت مدينتنا، الحقول والمراعي، نهر أوراتو والبحر الكبير. كان المشهد رائعاً، لكن فجأة ارتفع الماء عالياً وهائلاً، وأخذ ينحدر ملتوياً نحوي. أردت أن أصرخ... لا أذكر أكثر من ذلك». ومنهكةً تركت رأسها يسقط على كتف إيست وعانقتها بذراعيها، وأخذت تشنّجات البكاء تهزّ الجسد الرقيق.

حاولت إيست تهدئة ابنتها وقالت: «نهار اليوم كان طويلاً، حمل معه الكثير من المستجدات المثيرة. دعينا يا صغيرتي نتابع الكلام غداً، وسترين أن الأمور لن تكون بهذا السوء. المهم هو أن تدركي أهمّية ما وُهِبتِ. قد تصبح بصيرتك بالغة الأهمّية ذات يوم لنا جميعاً ولمدينتنا. الأرباب يحبونك يا كيا، ويفضلونك على غيرك. أنت مَن اصطفوك هنا في قطنا. ليكن الأمر مباركاً لنا جميعاً».

**

«أترغب في الذهاب معي؟ أبلغنا رسولٌ قبل قليل أن القافلة المتوقعة من تدمر قد شوهدت عند البوابة الشرقية». ربت أكيزي على كتف تالزو الذي انحنى فوق كومة من السجاد الفاخر مع إحيا وتيرو ولوايا رئيس دار البلد ونقيب التجار في قطنا. صالب أكيزي ذراعيه على صدره، وقال: «تحياتي أيها السادة. أود أن أختطف من بينكم هذا الشاب الذي

بحثت عنه طويلاً في هذا البناء الواسع. القافلة القادمة من تدمر قد تثير اهتمامه، فهذا أمر لن يراه كل يوم». وابتسم ابتسامته المشرقة المنشرحة.

فصاح لوايا: «الشكر للأرباب، أخيراً وصلتْ، فالرسول الذي أعلن اقتراب وصولها موجود هنا منذ عدّة أيام. لقد بدأنا نقلق، لأن موعدها فات».

«انشغال بالك في محله» علّق أكيزي، وتابع: «التقيت ساعياً قبل المدخل الرئيسي بقليل، كان يسأل عن مكان وجودك يا سيد لوايا. لو علمتُ بمكان وجودك لأحضرته معي إلى هنا، لكنني أرشدته إلى متجرك حيث ينتظرك الآن».

«اعذروني إذاً، سأهتم بالأمر فوراً»، قال لوايا والتفت ذاهباً.

التفت أكيزي إلى تالزو وسأله: «والآن، أننطلق؟». هز إحيا برأسه موافقاً، فقال تالزو: «بكل سرورا».

مشيا عبر عدد كبير من القاعات المتداخلة في الطابق الأرضي من دار البلد، التي كانت متخمة بكل أنواع البضائع، ثم عبرا القاعة المركزية ليصلا إلى الممر الطويل المؤدي إلى المخرج الشرقي. ثم مشيا بسرعة عبر شرقي المدينة، حيث يقطن مختلف الحرفيين في دورٍ متواضعة موزعة حسب الحرف، على جوانب أزقة ضيقة وكثيرة المنعطفات، بحيث ما كان تالزو ليجرؤ على العودة دون مساعدة أكيزي.

«هذا أقصر الدروب»، قال أكيزي، وأضاف: «لأني أريد وبأقصى سرعة أن أعرف ما حدث. لم يرغب الساعي إخباري بأي شيء. عادة يُحتفل في المدينة بوصول القافلة بتطبيلٍ وتزمير صاخب. والحُداة يزينون حميرهم بأشرطة ملونة أو بورود عند بوابة المدينة، ثم يدخلونها في موكب إلى دار البلد. بعض حداة الحمير وهم من قطنا أصلاً، يكونون في غاية الفرح لعودتهم بعد الغياب الطويل».

في أثناء ذلك كانا قد بلغا البوابة الشرقية المشكلة من بناء حجري هائل الحجم بشكل مستطيل ضلعه العلوي مقنطر، وقد انتصب على جانبيها برجان عاليان. عندما تعرّف الحرس وليّ العهد، قدّم السلاح بالحراب، وتقدم منهما رئيس الحرس قائلاً: «أميري، الشريف أكيزي!». وصالب ذراعيه محيياً.

«سمعت أن القافلة القادمة من تدمر قد وصلت؟!». قال أكيزي.

«صحيح، إنها تخيّم خارج البوابة، فمندوب دار البلد ما زال يتفحص الأختام».

«هل سمعت بأمر مخالف للنظام؟».

«قبل حين ظهر ساع في البوابة حاملاً خبراً عاجلاً للشريف لوايا. ثمة همس بأن القافلة قد تعرضت لكمين تسبب في عدّة أضرار».

«على أرض قطنا؟».

«لا أعرف يا أميري».

«مَن مِن الشيوخ يرافق القافلة؟».

«حسب المعلومات التي وصلتنا من دار البلد لا بدّ أن يكون الشيخ إيدريمي».

«أي أنكم لم تروه شخصياً؟».

«لا، حتى الآن لم يدخل المدينة من القافلة سوى الساعي».

«شكراً لك».

التفت أكيزي إلى تالزو، الذي تابع الاستجواب باهتمام، وقال مطمْئناً: «ليس مستغرباً أن تبقى القافلة مخيمةً خارج السور، فالطريق عبر الصحراء مجهد ومعفِّر. وحرارة الطقس تتبدّل تبدّلاً قاسياً، فقد تكون ملتهبة نهاراً. والمرحلة الأخيرة تحديداً تتطلب جهداً إضافياً ومهارة في الهبوط من مناطق مرتفعة إلى وادي أرانتو. وعندما يصلون أخيراً إلى هدفهم، سيحاولون الدخول إلى المدينة بهيئة لائقة. لذلك تراهم يستريحون ثانية ويسقون الحمير وينتظرون إنهاء معاملات الدخول. لكنني أستغرب غياب الشيخ إيدريمي. كنت أتوقع أن يرسل ساعياً إلى الملك لإعلامه بوصوله والتماس مقابلته كالعادة. أثناء وجودي في القصر لم يصل أي ساع. يحتمل أن يكون الساعي قد انطلق في الوقت نفسه مع الساعي الآخر الذي التقيته عند بوابة دار البلد، أي أنني ما كنت لألتقيه. لنعتبر الأمر فأل خيرا فالأخبار السيئة على أية حال تنتشر بأسرع من الريح».

دخلا بناء البوابة العميق المؤلف من حجرتين، لكل منهما ثلاث بوابات من ذات المصراعين تُغلق بالتتالي. ومن الجهة الخارجية انتصب على الجانبين برجا حراسة آخران، حيث رمى السور ظلاله المديدة، ولم يبق مضاءً بأشعة الشمس سوى القسم العلوي منه. خطر ببال تالزو أن الإنسان يبدو ضئيلاً وعاجزاً أمام هذه التحصينات الشامخة. وهذا الشعور تحديداً، كان أحد أهداف شموخ التحصينات. مَن كانوا بُناتها يا ترى؟ وكم احتاجوا من الوقت لركمِ الطوب والحجارة والحصى والطين لبلوغ هذا الارتفاع؟ لا شك في أنهم كانوا عدداً لا يحصى من عمال البناء يشتغلون كالنمل، لينجزوا في نهاية المطاف طبقة التلييس القاسية والملساء للسور الشديد الانحدار. منصّات الحصار وأكباش الاقتحام

والروافع المدولبة وكل اختراعات الهجوم الذكية لا فعالية لها في مواجهة هذا السور المنيع، الذي يستحيل اقتحامه. ولا شك في أن البوابات ذات الأبواب الثلاثية المتتالية ستصمد في وجه أيّ كبش اقتحام، إنها مدينة غير قابلة للغزو. هذا ما كان تالزو متأكداً منه.

تقدَّم أكيزي عبر البوابة بخطوات واسعة، فانتزع تالزو نفسه من تأملاته ولحق به. على مسافة غير بعيدة كان هناك ما يشبه معسكراً صغيراً، تجمّع حوله عدد من الفضوليين. إنها خيمة بدو واسعة، وإلى جانبها وقف بصبر عدد كبير من الحمير المثقلة بالأحمال وبغال الركوب. مع الاقتراب منها يتبين للإنسان وجود مخلاة معلقة بعنق كل حيوان يعلفُ منها بلذّة، فيما يجري فحص حمولته.

من دون تردّد خطا أكيزي نحو الخيمة التي وقف على مدخلها حارسان يرتديان جلبابين طويلين جداً يخفيانهما من الرأس إلى القدمين مع وجود لفاعتين حول الوجهين. عندما رآهما تالزو تذكر أنه قد رأى مثل هذا المشهد سابقاً، من دون أن يستطيع تحديد المكان والزمان. وكان كل منهما يتسلح بقوس وكنانة سهام، وبسيف قصير مقوّس في حزامه، وبرمح في يده، سدّ به المدخل مع زميله عند اقتراب أكيزي وتالزو.

أسرع إليهما مندوب دار البلد ليقوم بواجبه قائلاً: «لكما التحية يا أميري ويا سيدي!».

«ولك أيضاً»، أجابه أكيزي، فأردف المندوب قائلاً: «لا بدّ أن الربة قد ألهمتك الحضور إلى هنا يا أميري. الشيخ إيدريمي موجود في الخيمة، وقد أوعز بألا يدخل عليه أحد سوى أحد أفراد العائلة المالكة، كما منع إرسال ساعٍ إلى القصر. أنا شخصياً لا تفسير عندي للأمر، ولا فائدة من الكلام مع الحرس المحجَّبين المصرّين على الصمت. من الواضح أن الكلام محظور على الجميع هنا». وحنى رأسه محيياً وانسحب عائداً إلى الحمير.

سُمع هذا الحوار داخل الخيمة، وبناء على أمرٍ بكلمةٍ من الداخل سمح الحرس لأكيزي وتالزو بالدخول. تناهى إليهما صوت خافت يقول: «يا أميري!». وفي دغشة إضاءة الخيمة الخافتة، تبيّنا فراشاً على الأرض في وسط الخيمة، وقد استلقى عليه شخص يبذل جهده للقعود، فأسرع أكيزي إلى الفراش قائلاً: «لا تنهض يا شيخ إيدريمي، ابقَ مستلقياً! ولكن أخبرني بما حدث، إن كنت قادراً!». عاود الشيخ الاستلقاء بين وسائده.

كانت نظرة منه كافية، إذ سرعان ما أُحضرت للضيفين وسائد للجلوس وقُدّم لهما شراب من الحليب منكّه بتوابل حارة. وبنظرة أخرى دخل الخيمة شابّ بشاربين لافتين للنظر وحاجبين كثّين أسودين. انحنى محيّياً وجلس على إحدى الوسائد، ثم قال:

«أيها الأمير، أيها السيد! سيتكلم أبي إليكما بلساني، فهو جريح ويحتاج إلى الراحة».

«جريح؟». هتف أكيزي وأردف: «أليس من الأفضل نقله فوراً إلى دار الشفاء ليتلقى العناية الضرورية؟».

صدرت عن الشيخ إيدريمي إشارة واهية تنبئ بأنه لا يقيم وزناً لهذا الاقتراح، فقال أكيزي: «ليأتِ الشُفاة إلى هنا إذاً. أخبرني بنوع الجرح، ودعني أرسل ساعياً فوراً». فارتمى الأمير البدوي الشاب عند قدمي أكيزي قائلاً: «عار علينا أيها الشريف أكيزي، يا أمير قطنا!». فأجابه هذا ملحّاً: «انهض يا رجل وأخبرني بما حدث!». فقال ابن البادية:

«استمعا إذاً إلى سبب قنوطنا. في منطقتنا ورغم وجود قوة منا للحماية، تعرّضت القافلة في المرحلة ما قبل الأخيرة، بعد انبلاج الفجر بقليل لكمين. لقد اختبأ الأشقياء وراء الصخور في موضع تصعب رؤيته من بعيد، وتركوا القسم الأكبر من الحمير يمرّ، ثم حاصروا الحمير الثلاثة الأخيرة مع حُداتها والحرس المسلحين الذين كان الشيخ بينهم لحماية مؤخرة القافلة. حدث كل شيء بسرعة فائقة. ضُرب الحُداة حتى سقطوا مغشياً عليهم، وقاد ثلاثة أشقياء الحمير الثلاثة نحو الصخور، بينما قام بقية الأشقياء بمهاجمة الحرس. قاتل الشيخ ورجاله كالأسود، لكن مفعول المفاجأة كان كبيراً، ففقدوا أسلحتهم، وأحدهم أصيب بطعنة. الشيخ أصيب بعدة جروح في ذراعيه وساقيه، وأصيب في النهاية بضربة هراوة على رأسه رمته أرضاً مغشياً عليه، وهو الشيخ! أما عصابة الأشقياء فقد اختفت بمثل سرعة ظهورها. وإلى أن انتبهنا نحن في المقدمة إلى غيابهم كان الوقت قد تأخر جداً، كما استغرقنا وقتاً طويلاً حتى توصلنا إلى معرفة ما حصل. أولينا اهتمامنا أولاً للجرحى، ثم جمعنا الحيوانات التي تركتها العصابة، وأكرمنا الميت بدفنه».

نهض أكيزي واقفاً وقال: «يا شيخ إيدريمي، دعني أرَ مدى خطورة جراحك، وأعطني ساعياً لتتمكن من طلب المساعدة، فموتك لن يفيد أحداً. مثل هذا الهجوم الصارخ على أرض مملكة قطنا، لا يجوز السكوت عنه!». جمع الشيخ قواه وهمس لأكيزي: «معك حق. لا بدّ من كشف اللصوص والانتقام منهم. امنحني وقتاً لبعض الراحة كي أستعيد شيئاً من عزمي. بهذه الحال لن أستطيع المثول أمام الملك. رجالي يعتنون بي بصورة جيدة. اسمح لنا بأن نبقى مخيّمين هنا، ولتدخل بقية القافلة المدينة. إذا رغب سيدي الملك فسأمثل غداً أمامه». وعاد فسقط على الفراش وقد أنهكه الكلام.

«حسناً، لن أجبرك على المجيء معي الآن إلى المدينة، فأنا واثق من ولائك لقطنا.

ولكن قبل أن نُعلم الملك ورئيس دار البلد، أود أن أعرف إن كان لديكم فكرة عن شخصية من نفذ الهجوم، و يبدو لي أنه قد خطط له بذكاء؟».

نفى إيدريمي وابنه ذلك، وقال الشاب: «أبي الشيخ يقول إن الأوغاد لم ينطقوا أي كلمة، حتى عندما كان أحدهم يُصاب بضربة، وأن ثيابهم كانت مثل ثيابنا، لكن ما لفت النظر هو أن جلابيبهم لم تكن متدلية الأطراف حتى الأقدام مثلنا، بل مشمّرة عن الساقين، ما سمح لهم بسرعة الحركة».

استدار أكيزي ليخرج من الخيمة، وإذا بتالزو يقول: «أيسمح لي بطرح سؤال آخر؟».

«بالتأكيد. ماذا تريد أن تعرف؟».

«ماذا كانت حمولة الحمير الثلاثة التي ساقها اللصوص معهم؟».

أغمض الشيخ إيدريمي عينيه مستاءً، وأجاب ابنه بصوت متهدج: «استلمنا قيادة القافلة ومرافقتها المسلحة قبل وصولنا إلى هنا بأربعة أيام سفر، أي عند حدود منطقتنا، وذلك بعد أن وصل الساعي من تدمر وأخبرنا بموعد وصولها المحدد. خيّمنا معاً، وتشاورنا مساءً مع المسؤول عن شحنة البضائع حول تسلسل ترتيب الحيوانات، فتبيّن أن بعض الحمير يحمل في أخراجه نفائس ثمينة. لكننا لم نعرف ما هي بدقة. وهذه الحمير كانت تحمل على ظهورها صرراً خفيفة فحسب». فقاطعه تالزو قائلاً: «دعني أخمّن أن هذه الحمير هي الناقصة الآن».

أومأ ابن الشيخ برأسه موافقاً وترك رأسه الأبيّ محنياً بانكسار.

«أين مسؤول شحنة البضائع الآن؟».

«ينتظر مع الحُداة ومعلم الحزم للدخول إلى المدينة، ليخبر لوايا وجميع المساهمين في القافلة بما حدث. كنا قد اتفقنا على إبقاء الأمر سراً حتى الوصول إلى دار البلد، كي لا نسبب أي اضطراب في المدينة».

«لقد تصرفت بحكمة يا صديقي. يبدو حسبما أرى أن القافلة جاهزة لعبور البوابة. أنتم ابقوا هنا كما اتفقنا، واحضروا غداً إلى القصر. وسنرسل محفةً من أجل الشيخ إيدريمي».

«لك الشكر يا أميري!». وحاول الشيخ إيدريمي الجلوس لوداعهما، فيما غادر أكيزي وتالزو الخيمة.

«الحكاية منكرة وبالغة الغموض أيضاً»، قال أكيزي، فسأله تالزو: «والعمل الآن؟».

«لا أحد سوانا حتى الآن يعرف بدقة ما حدث. لا شك أنهم قلقون في دار البلد على

الرغم من الساعي. الخسارة أصابت التجار في المقام الأول. ولكن بما أن الهجوم قد وقع على أراضينا، فتأذى بسببه بعض الناس إضافة إلى تجار أجانب، فالمسألة خاضعة الآن للقضاء الملكي. لا بدّ من استقصاء الواقعة، بكل تأكيد. سآخذ أقصر الطرق لأعود إلى القصر ولأحيط الملك إيداندا علماً بما جرى. ويفضّل أن نرسل ساعياً من البوابة إلى دار البلد، لكي يأتي لوايا ويشارك في المشاورة. تالزو، يؤسفني أن ينتهي مشوارنا بهذه الطريقة المزعجة. والأفضل هو أن ترافق الساعي إلى دار البلد لتعود إلى أبيك. أرجو منك التكتم على كل شيء، إلى أن تتوضح الأمور».

**

كانت كيا مع النساء في باحة الجناح الملكي الكبيرة، حيث الجو اللطيف مع شرب مزيج مبرّد بالثلج من عصير التفاح والماء المحلى بالعسل، أما الثلج فقد جاء من أعماق القصر. قرب البئر المركزية وعلى عمقٍ سحيق تحت القصر نُحت في الصخر قبو للثلج، وذلك قبل أجيال أثناء إنشاء مقر الملك. لم تعرف كيا الرجال الشجعان الذين كانوا كل شتاء يجلبون الثلج على الزحافات من قمم الجبال المجاورة ليخزنوه في القبو، لكنها كانت ممنونة لجهودهم.

كانت غالبية النساء مرتاحات على مضاجع وثيرة، والأخريات منهمكات بأشغال يدوية، كنسج الشرائط ذات الألوان المبهجة لتزيين أطراف الأثواب، أو التطريز. وكانت كيا بصحبة صديقتها إهلي نيكالو التي تعشق أكيزي في ما يشبه السر المعلن. ولا يوجد ما يحول دون ارتباطهما أحدهما بالآخر، إذ إنها ابنة أوبيبا بن أكّالو، الناطق باسم مجلس الأعيان، أي أنها من خيرة عائلات الأشراف. أما من طرف أكيزي فإن مدى علوّ مكانتها لديه لم يكن واضحاً. كان يستمتع بكونه محطّ إعجاب الصبايا، فيمازحهن جميعهن، من دون أن يفضّل إحداهن على الأخريات، رغم أنه قد تجاوز سن الزواج المعتاد بعدة سنوات.

سألت إهلي نيكالو كيا: «أتفضلين الزواج والعيش بعيداً عن قطنا؟ أين هو المكان الأفضل من هنا؟».

فأجابتها تايا مربّية كيا: «لا أستغرب سماع ذلك منك إهلي نيكالو. فعصافير الدوري تزقزق مؤكدة أن ليس ثمة ما يزحزحك من قطنا، وطيور السنونو تنشر الخبر في الدنيا

كلها!». وضحكت، فخلعت إهلي نيكالو فردة صندلها وتظاهرت مازحة برمي تايا بها لسخريتها منها، غير منتبهة إلى وجه كيا الجامد.

«لا، بجدّ. خذوا مصر مثلاً. كم من بنات عائلات الملوك والأمراء زُوِّجن للفراعنة. هل سمع أحد عنهن شيئاً ثانية؟ خذوا مثلاً أخت حاكم بابل السابق. خمس عربات فقط جاءت من مصر لتنقل الأميرة. ومن بعد، لم يرها أي من سفراء بابل في بلاط فرعون ثانية. وهذا له تفسير واحد فقط، هو أن فرعون قد أبعدها إلى الحريم». وفجأة بدأت إهلي نيكالو تدرك أنها على وشك ارتكاب خطأ ما. رمت نظرة خاطفة نحو إيست، لكن هذه كانت إما نائمة وإما قد أغمضت عينيها، من دون أن يُلاحَظ على وجهها أي تعبير. فتابعت إهلي نيكالو حديثها المفضّل وبصوت خافت الآن: «أوَليس مما لا يصدَّق أن فرعون قد طلب من الملك نفسه إحدى بناته للزواج أيضاً؟ لقاء ماذا، أتساءل؟ على كل حال، يقول أبي إن فرعون قد أرسل لقاءها إلى ملك بابل كثيراً من الذهب ليساعده في تنفيذ مشاريعه المعمارية الطموحة. ولكن أليس ملكا مصر وبابل بالمرتبة نفسها؟ فتصوروا أن البابلي عندما خطب لنفسه أميرة مصرية، جاءته من فرعون رسالة توبيخ قاسية، قال له فيها: «الأميرة المصرية لا تتزوج أياً كان». وبدا الغيظ جلياً على وجه إهلي نيكالو، إذ أردفت: «هذه إهانة صريحة. وفي الوقت نفسه تعدّ أمك يا كيا أفضل برهان على أن الأميرات المصريات يمكن أن يُقدَّمن لحكّامٍ أجانب بكل أريحيّة».

لم تُبد كيا اهتماماً بهذا الهذر، الذي كان في واقع الأمر يخيفها أكثر مما يسلّيها. ففي نهاية المطاف قد يأتي يوم تكون هي فيه المعنية، وهذا ما لم توضحه صديقتها في حديثها، لاسترسالها في أفكارها الخاصة. وها هي ذي تتابع لغوها: «ثم هؤلاء الميتانيون، إنهم رعاة وفلاحون لا أكثر، مع أن الأقداح التي يصنعونها بالغة الجمال بتزييناتها من عصافير ونباتات وأزهار وخطوط حلزونية. ومع ذلك فإن اختلفوا في ما بينهم الآن وتنازعوا سيصبح الحال خطيراً جداً. وإذا التفتنا نحو حتّوشا في هذا الصقيع..». وسكتت بغتة لدخول أكيزي إلى الفناء.

«أيتها السيدات الكريمات، تحياتي. عذراً لاقتحامي المكان عليكن بهذه الصورة، لكنني كنت آمل العثور بينكنّ على الملك الذي أحتاج إليه لأمر ملحّ».

«ماذا حدث؟». سألته كيا مستيقظة من شرودها.

«الأمر يتعلق بالقافلة القادمة من تدمر، التي وصلت أخيراً اليوم».

«وما الجديد بشأن هذه القافلة؟ فقد وصلت سابقاً عشرات المرات».

«لا يجوز إعلان الأمر بعد، لذلك أطالبكن بالصمت المطبق، لكنها تعرضت لهجوم، وعلى أرض قطنا». بقوله هذا لفت أكيزي انتباه جميع النسوة إليه، فقالت كيا: «أنا سأُحضِر أبانا» ونهضت فوراً عن مضجعها. وبعد فترة قصيرة عادت إلى الفناء بصحبة الملك.

«أتحمل أخباراً سيئة يا بني؟».

«نعم يا أبي، القافلة القادمة من تدمر وقعت ضحية كمين، ما أدى إلى تضرّر عدد من المشاركين فيها، ومات أحد الحرس، وسُرقت ثلاثة حمير محمّلة بنفائس ثمينة».

«الشيخ إيدريمي كان المسؤول عن حماية القافلة، وحتى الآن لم أسمع منه شيئاً».

«يسرّني أن أخبرك بما توصّلت أنا إلى معرفته. ولكن ألا ننتظر وصول لوايا إلى هنا؟ فقد أرسلت فوراً في طلبه، لنتشاور معاً بما يجب علينا عمله».

«نعم، هذا عمل صائب. فلنذهب إلى مكتب العمل للقائه. علينا إخبار كبيرة الكاهنات لتشاركنا الرأي!». وغادر الرجلان الفناء فيما أرسل أكيزي إلى إهلي نيكالو ابتسامة مشرقة، استقبلتها بالاحمرار خجلاً.

أثناء انشغال النسوة من حولها بتبادل التكهنات حول ما حدث، مثل سرب من طيور السنونو المزقزقة، كانت كيا تفكر بطريقة لاستراق السمع إلى المشاورات من دون أن ينتبه إليها أحد. ومن دون مقدمات قالت: «إهلي نيكالو، أنا جاهزة لمرافقتك إلى داركم، إن شئت».

«أتريدين التخلص مني؟ ما بك؟ أنت شاردة تماماً. هل سمعت ما كنت أقوله؟».

شعرت كيا بالأسف، لكنها كانت الإمكانية الوحيدة لمغادرة الفناء مع صديقتها، دون أن تقدم تبريراً لذلك، أما ما يلي ذلك فستحله في حينه. وكان القدر في عونها. فبعد أن جمعت إهلي نيكالو حاجياتها وودعت الأخريات وانصرفت معها، سمعتا عند مدخل مكتب العمل أصوات رجال. كان لوايا قد وصل، بصورة لا تخطئها الأذن. اقترحت كيّا على إهلي نيكالو المرتبكة أن تدخلا إلى مكتب العمل كي تنصتا سراً، لكنها لم تفكر بأكيزي. ولسبب ما دخل أكيزي المكتب فجأة ليجد نفسه وجهاً لوجه مع الآنستين. وكما هو متوقع انفجر في ضحك مجلجل وأمسك بيدي الآنستين وساقهما معه إلى الردهة الخارجية، وقال لأبيه هناك: «يا ملكي، ما أظنك قادراً على منع أميرة قطنا من الحصول من النبع على أخبار المدينة ومحيطها وما يجري في العالم الواسع!».

نظر الملك إلى ابنته متفكّراً. إنها لفتاة غير عادية. ترى ماذا كتب الأرباب في قدرها؟ ثم قال أخيراً: «إن لم يكن لدى كبيرة الكاهنات اعتراض أو لدى الشريف لوايا، فلتبقيا، ولكن بصمت».

**

بمرور بضعة أيام هدأ الاضطراب الذي سبّبه الهجوم على القافلة. وفي دار البلد تابع الناس أعمالهم الضرورية. في أثناء ذلك استُلمت جميع البضائع وحُسبت جمارك الاستيراد ودُفعت لقاء إيصالات بذلك مختومة على الرُّقُم. كما سُددت طلبيات تجارٍ من قطنا، فوصلتهم بضائعهم من بابل البعيدة أو من طرقا أو من تدمر، وبناءً على ذلك كُسر كثيرٌ من رُقم الطلبيات بعد أن قدم الوكلاء التجاريون لوائح حساباتهم وقبضوا أتعابهم. أما البضائع التي سيُتابع شحنها، فقد جُمعت حسب وجهاتها ووزعت على القوافل المناسبة. وكان لا بدّ من تزويدها بأختام تجّارها قبل حزمها جيداً على ظهور حمير سوداء قوية وبغال متينة. ولم يكن الهدف من هذه الأختام التعريف بنوع البضاعة والمرسل والمستلم فحسب، بل أيضاً ضمان عدم وقوع مخالفات على طرق القوافل، كاختلاس بضائع معينة وتبديل أخرى أقل قيمة بها، أو إضافة بضائع مهرّبة.

وقام إحِيّا بمعيّة تالزو، شبه الدائمة، بمقايضة كثير من البضائع التي ستتابع طريقها من ثم من كيزواتنا إلى طالبيها في الشمال، ولا سيّما زيت الزيتون الذي اشتراه بناءً على طلب بلاط حتّوشا، إضافة إلى مختلف المنكّهات والخلاصات العطرية لصنع المراهم الثمينة والعطور. كما اشترى أخشاباً عطرية وعصائر تينٍ مكثفة فاخرة وفواكه مجففة مرغوبة في كل مكان، إضافة إلى أقمشة صوفية وكتانية، وقطع ثياب جاهزة وحرامات وسجاداً وجلوداً، وبعض الأحجار الكريمة للزينة وصدفاً من العاج لتزيين قطع الأثاث، وأشياء كثيرة أخرى. كانت كل البضائع التي اشتراها إما من منتجات قطنا مباشرة أو مستوردة إلى أسواقها.

لم يعد أمامه سوى انتظار وصول قافلة مصر. أما إنْ كان انتظارها سيطول فسيتوقف ثانية في أوغاريت على طريق العودة، ليشتري من هناك ما ينقصه من منتجات ومواد خام، فهناك حركة تبادل تجاري قوية بين أوغاريت ومصر، كما بين جبيل ومصر. كانت السفن المصرية ترسو بانتظام في هذين الميناءين لتفريغ البضائع وتحميلها، ولا سيّما لتحميل

أخشاب الساحل السوري التي لا تنمو في مصر والمهمّة جداً هناك لبناء السفن والدور الكبيرة، كخشب الأرز العملاق ذي الرائحة الزكية وخشب الزان المتين وخشب الصنوبر الحلبي والتنوب والعرعر.

كانت هذه ساعات عمل شاقة بالنسبة إلى تالزو، إذ كان عليه أن يوثّق كلّ أعمالهما بدقة. وقد وصلهما من الوطن بعض الرسائل يرجو فيها أصحابها تلبية هذه الخدمة أو تلك. وكان إحيا يسحب تالزو معه من متجر إلى آخر ليطلعه على أساليب الشراء وإبرام الصفقات. صحيح أن دار البلد لم تكن باتساع القصر الملكي وملحقاته، لكنها كانت بناءً ضخماً يضم قاعات وأفنية وعدداً لا يحصى من الغرف التي تستخدم مراكز بيع وشراء لتجار قطنا، كما يضم مستودعات آمنة وجافة للبضائع التي تحتاج إلى تخزين جاف. أما في الأقبية الباردة فتخزن البضائع القابلة للتعفن والتلف، فقد أُنزِلت في أرضيتها أواني تخزين ضخمة للنبيذ والزيت. هنا كان يجري كل ما يرتبط بالتجارة: تسجيل الطلبيات والمواعيد والمُدد الزمنية والأسعار والقروض والودائع ذات الفائدة، والاتفاقيات والمراسلات وتنظيم كل قافلة على حدة بالحمّالين والحزّامين والحداة والمرافقين لكل محطة من محطات الطريق، إضافة إلى تحديد المدد الزمنية لكل مرحلة وخاصة عند عبور الحدود بين الدول. وكلما دخل تالزو إلى دار البلد كان يعاوده الشعور بأنه في خلية نحل أو في جبل نمل، فهكذا كان النشاط هناك بلا هوادة.

أقام إحيا وتالزو علاقات مع عدد من العائلات التي صارت تدعوهما لتناول الطعام في دورها. وبفضل التجهيز الكريم لمكان إقامتهما من قبل الشريف تيرو، كان بوسعهما هما أيضاً توجيه الدعوات. حتى الآن لم تُبرم الاتفاقية التجارية مع القصر الملكي، التي تختصر لهما كثيراً من الإجراءات الفرعية وتسمح لهما بالوصول إلى بضائع خاضعة للاحتكار. لكن إحيا كان راضياً عن الشبكة، التي كان يعمل على توسيعها نقلةً فنقلة ويوماً فيوماً، وهذا يتطلب حذقاً وتعاملاً ودوداً ومعارف واسعة وفضائل، كان تالزو يتمتع بها، ومع ذلك كان يلاحظ في كل يوم يمضيه في دار البلد مدى الجهد المطلوب منه. إذ كان عليه دائماً أن ينتبه لنفسه كي لا يتجاوز قواعد اللياقة وأن يتظاهر بالاهتمام.

لم يرغب بأي حال من الأحوال أن يخيّب آمال والده فيه، لكنه لم يستطع أن يخفي عنه ابتهاجه، كلما شارك شباب قطنا في تمارين المبارزة بالسيف، أو عندما يدعوه أكيزي إلى مرافقته في جولة بالعربة القتالية. وكان يشعر بنفسه على أفضل حال عندما يدعى إلى القصر الملكي للمشاركة في الاجتماعات للتشاور في الغزوة التي تعرضت لها قافلة تدمر.

كان يبتهج بحضورها تلبيةً لرغبة أكيزي في المقام الأول، وذلك بصفته صديقاً وشاهداً، حسبما أكّد له أكيزي، إضافة إلى اهتمام المجتمعين بأفكاره الرصينة.

كانت كيّا الشخص الوحيد الذي يعلّق أحياناً على آرائه باستهتار، ولم يتوصل قط إلى معرفة طبيعة موقفها منه. كانت فتاة استثنائية، وقد تبيّن ذلك بمرور الوقت. وكانت رائعة الجمال. وجهها متناسق ببشرة تشوبها سمرة خفيفة مغايرة لبشرة صبايا قطنا، وبأنف أهيف وعينين خضراوين فريدتين تشبهان عيني أمها بنظرات ساخرة أحياناً، وقد تبرقان عندما تغضب. جبهتها عالية وخدّاها جميلا التكوين مع شفتين ممتلئتين حمراوين. وكان وجهها محاطاً بشعر متموج كثيفٍ أسود مسبل يغطي أعلى ظهرها. وكانت ذات قامة ممشوقة طويلة، ما يجعلها تبدو نحيلة من جهة ورقيقة هشّة من جهة أخرى، إلا أن تالزو كان يعرف مدى رشاقتها وليونتها وجَلدِها، ولم يكن جمالها فحسب ما جذبه إليها. لقد خاضوا في نقاشات حامية حول مختلف احتمالات هوية المخطط للغزوة. كان عقلها يقظاً وذهنها وثّاباً، وكان سرورها جلياً بالمشاورات المشتركة، وفي أثنائها لم تتوقف عن ممازحته بأنه سيصبح ذات يوم قاضياً حكيماً، ولا ينقصه لذلك سوى اللحية الطويلة. كانوا يضحكون كثيراً. لكنها في بعض الأيام كانت تبدو متعجرفة باردة ونفورة من دون سبب واضح، وعند ذلك كان يحسّ بشيء من الإهانة، لكنه ما كان ليحمل عليها قط بسبب ذلك السلوك، الأمر الذي كان يثير دهشته. فعندما كان يفكر فيها تكون الأفكار دائماً ودودة ولطيفة تجاهها، مُحِبة لها ومعجبة بها. وقد تحدث مع أكيزي حول تقلبات مزاجها، فأطلق أكيزي ضحكته المجلجلة وحذره قائلاً: «إياك والوقوع في حب أختي، لأنك سترى العجب. إنها هكذا مزاجية، وأحياناً عنزة مغرورة، مدللة جداً ولا تعرف ما تريد، لأنها ما زالت صغيرة. أنا شخصياً أفضّل عليها إهلي نيكالو الحلوة بألف مرة، لأنها تشرق في وجهي دائماً، وتجد كل ما أفعله رائعاً بلا نقاش. أرأيتها كيف تذوب عندما تراني؟».

كان تالزو يضحك لهذه الملاحظات بطيبة، ويخمّن سبباً أعمق لسلوك كيّا، قد يتعلق به، إلا أنه لم يشارك أكيزي رأيه، بل أحس أن كيا مثيرة للاهتمام، ذكية، واثقة بنفسها وتعرف ما تريد تماماً.

أُعجب تالزو بأكيزي لأسلوبه اللامبالي المرح. كان الأول بلا منازع بين الشباب في ما يتعلق بالمهارات الجسدية والجَلَد، وبالشجاعة إلى حد التهوّر أحياناً. وحتى عندما يتجاوز حدود اللياقة في كلامه، كان الضاحكون دائماً إلى صفّه. لم يكن يأبه بتحذيرات أبيه لضرورة أن يكون قدوة تُحتذى، في حين يسرّه جداً اعتزاز الملكة السافر ببكرها.

والسمة المحببة فيه كانت جودة تفاهمه مع معظم الناس، وكان هذا أمراً مهماً بالنسبة لولي عهد قطنا. لكن تالزو لاحظ أيضاً أن أكيزي سرعان ما ينفعل ويغضب إلى حد أن يخرج عن طوره أحياناً، غير أن تالزو حتى الآن لم يكن السبب في أحد تلك الانفجارات. وفي كل مرة كان الغضب سرعان ما يتلاشى كالدخان ويُنسى.

أما أخوه كواري الذي يليه سناً، فقد كان ذا شخصية مختلفة. صحيح أنه كان أيضاً مرحاً وودوداً، لكنه كان أبعد ما يكون عن التهور والمجازفة. حتى على صعيد البنية الجسدية كان الأخوان مختلفين. فأكيزي قوي العضلات، رياضيّ مرن وقد لوّحته الشمس، في حين كان كواري أميل إلى النحف مع ليونة وخفّة. وبما أن قطنا تتبع مبدأ الفصل ما بين مسائل الحكم ومسائل الاقتصاد فإن المرجح أن كواري ذات يوم هو الذي سيدير الفعاليات التجارية للعائلة المالكة، التي يديرها الآن أكالّينا شقيق الملك. وعلى نقيض تالزو يبدو أن كواري يقوم بواجباته بسرور أثناء وجوده إلى جانب عمه في دار البلد، حيث غالباً ما كان الشابان يلتقيان. وكان تالزو يشعر تجاهه بنوع من الحسد لكونه قد وجد مكانه في هذه الحياة.

أبدى كواري مهارة فائقة في الحساب، أبهرت تالزو، لأنه غالباً ما كان يعاني صعوبات في حسابات تحويل العملات، وفكر بأن كواري هو الابن المناسب الذي كان سيسعد أباه. وتذكر أنه وأباه قد التقيا كواري مرةً في متجر العائلة، وكان منحنياً فوق لوح رملي، وهناك إلى جانبه مِعْدادٌ، وهو يدقق بمساعدة حصوات المعداد إذا ما كانت حساباته الخطية على الرمل صحيحة. فسأله إحيّا:

«وهل لديك جميع جداول الضرب الضرورية لعملك؟».

كانت كلها لديه، إضافة إلى لوائح بالمكاييل والأوزان والمساحات والأطوال، مدونةً بعناية بخط مسماري نظيف على رُقم طينية، ثم أضاف: «معظم العمليات الحسابية أستطيع أن أجريها في ذهني»، وكانت لهجته تنم عن بساطة لا ادعاء فيها، وأردف: «ولكن في الحالات الأصعب، عندما أريد أن أستخرج معدلاً وسطياً مثلاً، عندئذٍ ألجأ إلى اللوائح». فعلّق عمه قائلاً: «لن يحتاج دائماً إلى أن يقوم بالعمليات الحسابية بنفسه، ولكن في المستقبل عليه أن يكون قادراً على تدقيق ما يقدّمه إليه المدونون من سجلات، سواء حسابات أجور العمال المتنوعة أو حسابات الجمارك والرسوم».

هز إحيا رأسه مُستحسناً وربّت على كتف الأمير قائلاً: «أنت شاب كفء!».

نَقَزَ تالزو عندما سمع أحدهم ينادي اسمه. ترى هل غفا حقاً في مثل هذا اليوم وفي فترة ما قبل الظهر، أم أنه كان سارحاً مع أفكاره؟ رتّب هندامه بسرعة وشد الحزام حول خصره واتجه نحو ردهة المدخل. كان إحيا وتيرو بانتظاره. رماه والده بنظرة معاتبة.

«أين أنت؟ أم تراك نسيت أنهم ينتظروننا في القصر. بناءً على اقتراح الشريف تيرو سنستخدم المحفّات اليوم. لا أرغب في أن أظهر أمام الملك لاهثاً».

كان الجميع قد حضروا في قاعة العرش. وبمناسبة هذا اللقاء الرسمي جلس الملك إيداندا وزوجته بلتوم على كرسي العرش، بعد أن أدّيا طقوس التطهّر، ولبسا ثياب المحكمة، وقدّما القرابين للأرباب. والملك المسؤول عن حماية العدالة وإحقاق الحق، كان مزوداً بشارات السلطة القضائية: صولجانٌ وخاتمُ ختم. وقد اختير للشيخ إيدريمي كرسي متميز. كما جلس أمين القصر، وأهم موظف لدى الملك، ومجموعة شهودٍ من المشاركين في القافلة، إضافة إلى لوايا وأكيزي وتالزو إلى جانب الشيخ. وبمقتضى العُرف دعي بعض الأعيان أيضاً إلى الجلسة ليشكلوا في أذهانهم صورة غير مُنحازة عن الواقعة، بما أنهم لا يعرفون عنها شيئاً مسبقاً، وليقدموا للملك بعد ذلك المشورة في الأمر. وكان على شخصيات أخرى ضبط مسار العملية كلها، ومنهم تيرو وأكالينا. أما إحيا فقد دُعي لكون ابنه تالزو مشاركاً.

كان هناك عدد من الكتّاب لتسجيل وقائع المحاكمة، وكانوا خلال المدة الماضية منذ وقوع الهجوم قد دوّنوا على عدد كبير من الرُّقم إفادات الشيخ إيدريمي ورجاله وأكيزي وتالزو وبعض الآخرين. إذ كان الملك إيداندا فور علمه بالهجوم الجسور قد شكل لجنة تحقيق، مهمتها تتبع الآثار، ومقارنة أقوال الشهود ببعضها، وإجراء كل ما يلزم لإلقاء ضوء على المسألة، ليتمكن الملك من ثم من إعادة الأمور إلى نصابها ورفع الخلل الذي حاق بالأمن. وكانت لجنة التحقيق برئاسة أمين القصر، المسؤول في الوقت نفسه عن السُّعاة المشاة والمراسلين الراكبين.

كانت الوقائع إلى حدٍّ ما واضحة: سرقة مُلكية الغَير (حمير وما في خروجها)، قتل فرد من حراس القافلة وإيذاء جسدي لبعض مرافقي القافلة (من رعايا قطنا وأجانب)، واحتمال الاعتداء على أرض الغير (منطقة قبيلة إيدريمي البدوية التي تتبع لأراضي قطنا) إذا تبيّن أن المجرمين ليسوا من سكان قطنا. التهمة موجهة حتى الآن إلى مجهولين، إلا في حال ثبوت الفعلة على إيدريمي. ولكن ليس هناك من يشكّك في ولائه، ولا سيّما أنه

وقبيلته تربطهما أوثق العلاقات مع قطنا منذ زمن بعيد، حين لجأت القبيلة إلى حماية قطنا. ثم إن علاقة الطرفين أحدهما بالآخر تنظِّمها اتفاقية.

من يكمن إذاً وراء العملية كلها؟

افتتح الملك جلسة المحاكمة بتجديد التماس مساعدة الربة القديرة والأسلاف الملكيين، ثم طلب من كبير موظفي القصر التقدم قائلاً له: «أخبرنا، ما هي نتائج تحرّياتك؟».

بدأ رئيس اللجنة كلامه بوصف تفصيلي لمجريات الغارة، ثم قال: «نستنتج من ذلك كله أن اللصوص كانوا يمتلكون مسبقاً معلومات دقيقة. كانوا يعرفون المكان الأكثر ملاءمة لتنفيذ الهجوم على القافلة في المسافة بين تدمر وقطنا. وكانوا يعرفون موعد ظهور القافلة لعبور مضيق الأفاعي. وكانوا يعرفون كيفية توزيع حمولة القافلة ومرافقيها. لقد كانوا جاهزين للهجوم تجهيزاً جيداً من جميع الجوانب، وكانوا يعرفون طريق هروب يوصلهم مع الغنيمة إلى السلامة بسرعة. من كل هذا لا يسعني سوى أن أستنتج وجود خائن في القافلة نفسها يعرف كل شيء ويتعاون مع اللصوص».

سرى في القاعة لغط استهجان. طلب رئيس اللجنة الهدوء وأردف: «لم أنتهِ بعد. ثمة نقص في بعض التفاصيل المهمّة. أحدها لم نذكره بعد، رغم أنه الموضوع الرئيسي لهذه الجلسة، وهو الغنيمة. فليمثل مسؤول الشحنة أمام الملك!».

أُحضِر مسؤول الشحنة مرتعد الفرائص، وارتمى على الأرض أمام الملك. فأمره رئيس اللجنة قائلاً: «انهض واقفاً! ما نريد أن نعرفه منك هو: ما هي حمولة الحمير المسروقة ومن هو صاحب البضاعة المسروقة؟». فأجاب الرجل:

«شُكِّلت القافلة في طرْقا على نهر بوراتو، من قبل تجار قطنا في مركزهم هناك. وقد تلقيتُ منهم إرشادات دقيقة تتعلق بالأخراج المختومة والصناديق والرزم المزودة بالأختام، والتي عليّ مع الحزّام تحميلها على الحيوانات في ترتيب وتسلسل محددين. وتقيّدنا بهذه الإرشادات بدقة طوال الطريق. وقد أُمرتُ بإيلاء حماية خاصة للحمير الأخيرة، فأكدتُ الأمرَ للمرافقة المسلحة من طرقا إلى تدمر، ثم من تدمر إلى قطنا عدّة مرات. ما أريد أن أقوله يا سيدي هو أني لا أعرف بدقة مضمون الحمولات المختلفة. ولكن بالاعتماد على خبرتي أستطيع أن أخمن فقط ماذا ننقل. أما التفاصيل الدقيقة فهي موجودة في لائحة الشحنة التي سلمتها بيدي للشريف لوايا. والوكلاء التجاريون لأصحاب الطلبيات المسافرون معنا في القافلة ربما كانوا يعرفون المحتويات».

قال رئيس اللجنة: «فلندع الرجل الطيب يذهب بسلام. كان مرادي أن أوضح فقط مدى الاحتياطات الشاملة المتخذة عند خروج قافلة من القوافل إلى طريق السفر. لقد استجوبت طبعاً الوكلاء التجاريين والشريف لوايا. وكي لا أبالغ في تشويقكم أقول: الحمولة المسروقة تخصّ القصر الملكي الذي يمثّله الشريف أكالّينا».

ارتاع غير المطلعين، لكن رئيس اللجنة تابع من دون تأثر: «حمولة الأخراج كانت ما يعادل ثمن أردية قطنا الثمينة وأخشاب الأرز والزان وزيت الزيتون والعاج المرسلة العام الفائت إلى القصر الملكي في بابل، الذي أرسل لقاءها أحجار لازورد وأحجار زينة ثمينة أخرى ولآلئ من دلمون وفضة وذهباً، ومجمل وزن الحمولة يعادل ما بين 200 - 240 طالين[1]، أي أنها غنيمة دسمة، بل دسمة جداً، لذلك أستبعد أن يكون مَن خطّط للعملية ونفذها أحد الوكلاء التجاريين مع بعض البدو. إذ كيف سيتداول هؤلاء بهذه الأحجار الثمينة بين الناس من دون أن يلفتوا النظر إليهم؟».

«استنتاجاتك الذكية تستحق الثناء»، قال إيداندا وأردف: «فاكشف لنا الآن النتيجة كاملةً. من هو الفاعل وأين هي الغنيمة؟».

«السؤالان أيها الشريف إيداندا، لا أستطيع الإجابة عنهما، رغم الاستجوابات المستمرة وتقارير (عيوننا) الذين أرسلتهم إلى طرقا، ورغم كل الجهود التي بذلناها حتى الآن. ولا يسعني سوى إبراز حالة اشتباه لا غير، إذْ لا يمكن استنتاج غيرها: محرك العملية كلها لا بدّ أن يكون شخصية بارزة جداً في قطنا، وقد يكون عدّة أشخاص».

أصيب الحضور برعب شلّ حركتهم، ثم سمعوا الملك يقول: «هذه تهمة ثقيلة. راجع ضميرك جيداً. وليكن الأرباب في عونك، إن كنتَ مخطئاً!». لكن أمين القصر عاد فأكّد:

«ومع ذلك تبدو الأدلة دامغة يا سيدي. مثل هذه العملية لا يمكن أن يخطط لها وينفذها إلا مَن له اطّلاع على الوثائق في دار البلد، ويشتغل في التجارة البعيدة، ويعرف مراحل طريق القافلة حق المعرفة. أي القادر على إرسال السعاة واستقبالهم من دون أن يلفت النظر، والقادر على استئجار البدو كأعوان ويعرف أنهم لا يجوز أن يكونوا من قبيلة الشيخ إيدريمي. وبهذا أستبعد من الاتهام جميع الوكلاء التجاريين والتجار الأجانب الذين كانوا وفق تحرياتي هذه المرة مشاركين في القافلة بنسبة الثلث».

«فهمت قصدك. ولكن قل لي: من هو جاسوس محرك العملية؟ كيف عرف أن الحمير

(1) طالين: وحدة وزن قديمة تقارب كغ.

التي تحمل الشحنة المزمع سرقتها سيكون موقعها في آخر القافلة، وكيف عرف الموعد الدقيق لعبور القافلة من مضيق الأفاعي؟ فهو ليس منجماً».

أجاب أمين القصر عن أسئلة الملك قائلاً: «الجاسوس لا بدّ أن يكون الساعي، الذي وصل إلى قطنا قبل وصول القافلة الفعلي بعدة أيام، وأخبر الشريف لوايا بذلك».

«إذاً، إلينا بالساعي!». أمر إيداندا.

«هذا مستحيل يا سيدي، فقد اختفى من دون أن يترك أثراً. الواضح أنه غادر قطنا، عقب حديثه مع الشريف لوايا في دار البلد».

فسأل إيداندا: «أكان الساعي واحداً من رجالك يا شيخ إيدريمي؟». هزّ هذا برأسه نفياً. فتابع رئيس اللجنة: «كان مرسلاً من مركزنا التجاري في طرقا، وهو ليس من سكان قطنا. كان مكلفاً بمرافقة القافلة حتى تغادر تدمر، وفق الإجراءات الطبيعية. لكنه بقي مع القافلة حتى صارت بقية الرحلة متوقعة. وأسرع إلى قطنا، حيث لم يخبر لوايا فقط، بل قابل الذي كلّفه من قطنا وأخبره بترتيب حيوانات الشحنة، ثم غادر المدينة، إما ليختفي عن الأنظار، وإما لتنفيذ المهمّة مع البدو المستأجرين في الوقت المناسب، أو لاستلام الغنيمة منهم، لست أدري..». لوحظ أن الأسئلة المتتالية قد أرهقت كبير موظفي القصر. وكان أسوأ ما في الأمر هو أن استنتاجاته وتصويره للكيفية التي نُفذت بها عملية السرقة، يصعب دحضها.

أشار الملك لرئيس اللجنة كي يقترب منه، ثم سأله: «مَن مِن تجار قطنا عدا أسرتي كان مشاركاً في القافلة؟».

«هناك أوبيبا بن أكّولا، وكوا بن يَلاغّا».

«كلاهما لا يطولهما أيّ شك»، أجاب إيداندا، وأردف بصوت يائس: «أيٌّ من أشراف قطنا يحتاج إلى أن يُثري بهذه الطريقة؟ قل لي!».

«لا أتصور أحداً منهم»، أجاب أمين القصر، وأضاف: «ربما لم يكن هذا هو هدف السرقة ولا الغرض منها، أقصد الإثراء بزيادة الثروة الخاصة. ثمة ما أريد أن أضيفه هنا: حتى الآن لم يظهر أي شيء من الشحنة في قطنا. قد لا يعني هذا شيئاً بالضرورة، إذ يحتمل أن تكون المسروقات مخبأة هنا في مكان ما، وسارقها ينتظر بصبر حتى تهدأ الأمور حول الحادثة. لقد استجوبت مع رجالي جميع حراس بوابات قطنا الخمس وراجعت سجلاتهم لمعرفة مَن أدخل بضاعة تجارية إلى المدينة في الفترة الزمنية المحددة. لم نتوصل إلى أي

نتيجة. وهذا أيضاً لا يعني شيئاً، إذ يمكن أن تُهرّب المسروقات إلى المدينة مع أية حمولة من مواد غذائية، الأمر الذي لا يستدعي معاقبة حراس البوابات. لذلك لا يسعني سوى الاعتماد على شعوري بأن الغنيمة ليست في قطنا».

صمت أمين القصر، وكذلك جميع الحضور، ثم انحنى للملك وتابع كلامه: «إضافة إلى أسئلة مفتوحة خلّفتها تحرياتي، ولا أملك للأسف الشديد أجوبة لها، أوصلتني التحريات نفسها إلى نتائج لا شك فيها أبداً، وهي أن الشيخ إيدريمي المحترم وجميع أفراد مرافقة القافلة أبرياء من أي ذنب. لقد اتخذوا الإجراءات الأمنية المعتادة وقاتلوا مخاطرين بحياتهم وفقدوا واحداً من قبيلتهم، كما بذلوا جهدهم لاحقاً للمساعدة في كشف هذه القضية. كما أرى أن مسؤول الشحنة المكلف بتنفيذ عملية الشحن لم يقصّر في القيام بواجبه ولا يجوز اتهامه بالإهمال. كذلك لا بدّ من استبعاد شبهة أن يكون هو أو الشيخ إيدريمي أو كلاهما معاً قد خططا لعملية السرقة ونفذاها بالتعاون مع اللصوص».

**

تحاور تالزو عدة مرات حول الدوافع المحتملة للهجوم على القافلة، ليس مع أكيزي وحده، بل مع كواري وكيا أيضاً. خلال هذه المدة توصل أكيزي إلى قناعة بأن سرقة الحمير كانت مجرد مصادفة، إذْ رأى أنه ما كان باستطاعة اللصوص أخذ جميع الحيوانات، ولذلك اكتفوا بالأخيرة منها فقط. ورجّح أن يكونوا عند فتح الأخراج، قد دُهشوا وامتلؤوا سعادة بالغنيمة، وأنهم سرعان ما سيفضحون أنفسهم بسبب الإفراط في التبذير، بل وقبل ذلك بسبب التباهي وهم سكارى، ما سيسهل ضبطهم. إنه احتمال وارد نوعاً ما، لكن أفكار أمين القصر بدت لتالزو مقنعة ومنطقية تماماً، وأمعن التفكير في مَن يكمن وراء السرقة وما الغرض منها، لكنه لم يتوصل إلى شيء. مَن المستفيد من العملية؟ تداعت في ذاكرته أمور، خيّل إليه أنها على صلة ما بحادثة الهجوم، أمور سمعها أو رآها. ولكن متى وأين؟ هذا ما لم يستطع تذكّره مهما بذل من جهد.

**

نشر الصيف قيظه اللاهب على الأرض، وما حضنته التربة منذ الربيع بات معظمه جاهزاً الآن للحصاد. بمرور هذه الأسابيع أحس تالزو بنفسه وكأنه في بلده، إذ قام إما

وحده أو بصحبة أكيزي أو كواري أو كيا، ممن ارتبط بأواصر الصداقة معهم، بالتجوال في جميع أنحاء المدينة.

وقد تسلى كثيراً مع كيا بزيارة دونيو الميسيني[1] في ورشة صناعة الفخار التابعة للقصر، حيث يشرف على مجموعة من العبيد تصنع الأواني الفخارية الرقيقة على القرص الحجري الدوّار، ثم يقوم مع بعض مساعديه بتزيينها بعناية، بخطوط حلزونية أو متعرجة مع زهور صغيرة أو أشجار نخيل وليلك وحشائش ملونة. وقد كان بارعاً في تشكيلاته البحرية المكونة من القواقع والحبّار والدلافين المتقافزة في عالم مائي مليء بشعاب المرجان والأعشاب البحرية. كان الصلصال متوفراً بكثرة في حوضي النهر الرئيسي في شمال المدينة وغربها، وكان دونيو يمتلك سر خلطة المواد الأولية ومعالجتها، لينتج منها أفخر المزهريات والصواني والصحاف والصحون والأباريق والأقداح، بمختلف الأشكال، المطلوبة جداً في كل مكان. حتى أبسط أدوات المطبخ كانت تتحول بين يديه إلى قطع فنية ثمينة، علماً بأن الانطباع الأول عنه لا يوحي بأن دونيو يمتلك هذه المهارة الفنية، فهو قصير القامة ممتلئ الجسم متين الأطراف. ويداه المكتنزتان تلفتان النظر جداً، ويكاد رأسه المستدير يخلو من الشعر فوق لحيةٍ كثة ووجه يطفح بالطيبة، بجبين غائر، وأنف مفلطح، وفم عريض، وأذنين كبيرتين نافرتين.

كانت أكيا قد التقطت من كلامٍ تالزو أنه (يُلطِّش) باللغة الآخية أيضاً، ودهشت عندما عرفت أنه قد تعلمها من تجارٍ آخيين في ترشا. حيّا تالزو دونيو قائلاً: «خايري!» (مرحبا)، فَسُرَّ دونيو ورحب به بحفاوة ودعاه لتكرار الزيارة، فلبى تالزو الدعوة مراراً، ما أتاح له الفرصة لتطوير معرفته باللغة الآخية، كما عرف منه قصة المغامرة التي أوصلته إلى قطْنا، والتي أخبر كيا بها:

«تعلم دونيو المهنة في قصر ميسينا حتى صار معلماً في ورشته. كان متزوجاً وعنده أولاد. ولأسباب لم أفهمها تماماً اختلف مع أسياده. قد تكون زوجته هي السبب أو أنه كان ملزماً بالالتحاق بالجيش، لا أعرف تماماً، لأني ما زلت لا أفهم كثيراً من المفردات. على كل حال، اضطرّ مع عائلته إلى مغادرة المدينة، لا، بل إلى مغادرة المملكة كلها، فبحثوا عن سفينة مبحرة باتجاه الشاطئ الشرقي، وقبل وصولهم بقليل هاجم القراصنة السفينة. هذا ما استطعت استخلاصه من حديثه. ومنذ ذلك الحين لم ير زوجته وأولاده. ولولا قوته

---

(1) نسبة إلى مدينة ميكناي (ميسينا) اليونانية القديمة قرب أثينا.

الجسدية ومهارته لما بقي على قيد الحياة. باعوه في جزيرة كريت، لكنه تمكن من الفرار واشتغل في سفينة. إلا أن هذه السفينة لم تأخذه إلى القاعدة الآخية الشرقية ميلاواندا، حسبما أمل، بل إلى جزيرة النحاس كوپيريو (قبرص) التي نسميها ألاشيا. وهناك بيع ثانية في سوق النخاسة لتاجر باعه من جديد لمالك منجم نحاس حيث كان العمل شاقاً جداً. مَن يموت من العمال يرمى بعيداً ويستبدل به غيره. لا تسأليني كيف، لكنه تمكن من الهرب ثانية واشتغل مجدّفاً في سفينة تجارية عبرت به البحر الغربي الكبير. لم يهتم صاحب السفينة بكونه عامل منجم فارّ، حتى أنه في أوغاريت تركه يذهب وشأنه. ومن هناك انضم إلى أول قافلة وجاء إلى قطنا حيث عرض خدماته بصفته فواخيري».

فسألته كيا: «وماذا عن عائلته؟». هز تالزو كتفيه وقال: «قدره كقدر كثير من الناس الذين انتُزِعوا من حياتهم الطبيعية. لا أدري مدى الحق في هذا، ولكن ما السبيل إلى تغييره؟ العبيد يُستخدمون في كل مكان. لكنه هنا بمنزلة رجل حر، أليس كذلك؟».

«لا أتصور أن أبي قد يسمح له بالذهاب ثانية. أتعرف مدى غلاء البضائع الفخارية الآخية؟ خلال سنواته القليلة هنا علَّم عدداً كبيراً من المتدربين على صناعة الفخار ورسمِه حتى وصلت قطنا إلى حد الاكتفاء. لكن أبي يقول إن دونيو لا يكشف سر معالجته للصلصال وطريقة عجنه وكميات مواد الخلطة حتى تبلغ هذه الدرجة من النعومة. كما أنه لم يكشف حتى الآن سر المادة التي يطلي بها الأواني لتصبح لماعة أو مطفأة، ولا تنكسر أثناء تنظيفها. وفي هذا ضمانة كبيرة له. إنه يعيش هنا بصورة جيدة جداً، لديه خدم، ويتمتع بمكانة عالية. أتعتقد أنه يرغب في الهرب؟ هل قال لك شيئاً؟». نفى تالزو ذلك.

قام الأصدقاء بمشاوير إلى الضواحي القريبة، طافوا بالحقول الخصبة المنحدرة نحو نهر أرانتو في الوادي الجانبي المنخفض، حيث تصب عدّة روافد قادمة من الجنوب نحو الشمال. أكبرها، الذي يلامس المدينة من جهة الشمال، يمتلئ صيفاً بما يكفي من الماء ليخوض فيه الأطفال ويلعبوا، وليغتسل فيه عامة الناس. وهناك تُنجز أعمال كثيرة إضافة إلى صيد السمك وغسل الثياب. كان الماء ضرورياً لتصنيع الطوب الذي تحتاجه المدينة باستمرار، كضرورته لتحضير الصلصال لمختلف ورشات فخار المدينة. لكن ضرورته تأتي في المقام الأول لدباغة جلود الخراف والماعز والبقر ولصناعة النسيج، التي تعد أحد أهم موارد قطنا الرابحة. تصنع الأقمشة والألبسة من الصوف، ومصدره غالباً أغنام البدو الذين يرعون قطعانهم في البادية الشرقية. كما يمتلك بعض سكان المدينة قطعاناً كبيرة لا يسمح لها بالرعي في الحقول حول المدينة إلا في الموسم. وإلى جانب الصوف

هناك الكتان الذي سيحصد هذا الصيف. بعد معالجات مجهدة وطويلة الأمد، يصنع من الكتان أقمشة مختلفة، خشنة وناعمة، وحبال وخيوط. وفي متاجر دار البلد يرى الإنسان الكثير من مختلف أنواع الأقمشة، ما يدعو لدهشة لا محدودة، وأكثرها إثارة طبعاً هي الأردية الأرجوانية المميزة لقطنا. ولا يسمح إلا للملك بإنتاج هذا اللون. ورغم أسئلة تالزو المتكررة عن مصدر المادة اللونية هذه وعن كيفية الصباغة بها، فإنه لم يحصل من أصدقائه على أي جواب، إلى أن قالت له كيا إن الحديث في هذا الموضوع ممنوع، تحت طائلة عقوبة الموت، وإن طريقة استخلاص اللون تعد سراً مصوناً بحرص، لا يعرفه سوى قلائل، ربما عمال الإنتاج وبعض أفراد العائلة المالكة. وقد خمّن تالزو ذلك كله من ملاحظته ذلك الحي جنوب شرقي المدينة، المحظور الدخول إليه والمحروس جيداً، والذي تصدر منه رائحة كريهة فظيعة. وإلا فماذا يصنعون هناك؟ وأقصى ما خطر ببال تالزو هو ورشات صناعة الأسلحة.

زار الأصدقاء مقالع الحجارة القريبة بين الوديان المحلية في الغرب والجنوب والشرق، حيث يُستخرج الحجر الكلسي الضروري للبناء، ويرسل إلى الحجّارين لمعالجته. كما قاموا بزيارة الشيخ إيدريمي ثانية في البادية، بعد أن تعافى من جروحه. لكن أجمل تجربتين عاشهما تالزو كانتا الرحلة إلى جبال غابات الأرز العملاقة، واللقاء على ضفة النهر، حتى وإن لم تخلُ التجربتان من المزعجات.

**

اقترح أكيزي على تالزو أن يرافقه في رحلة إلى الجبال الممتدة شمال غربي مملكة قطنا، وخلف مملكة أوغاريت، حيث عليه مراقبة أعمال قطع الأشجار الملكية. كانت تجارة الأخشاب أحد موارد قطنا المهمّة، فحاجة بلدان الجنوب الفقيرة بالغابات، ولا سيّما مصر، كانت لا تنتهي. ورسائل الطلبيات تصل باستمرار: «أرسلوا إلي بأسرع ما يمكن جذوعاً تصلح لبناء السفن وخشباً لقوارب الآلهة». كان المصريون يدفعون جيداً، ومنذ أن صار لفرعون ممثلون مقيمون في جبيل وأوغاريت بات إبرام الصفقات يتم من دون معوقات، ولا سيّما أن عمليات الشحن الشاقة والمكلفة عبر البحر الكبير إلى مصر لم تعد من شأن قطنا. ولم يعد يُطلب منها سوى قطع الجذوع العملاقة الثقيلة وإنزالها من المرتفعات إلى السهل، وهو عمل مجهد وخطر، راح ضحيته كثير من الرجال ومن حيوانات الجرّ.

في الصباح الباكر صعد أكيزي وتالزو الجبل على الممرات التي خلّفها وراءه جر الأشجار الضخمة. بعد نحو ساعتين من المسير الحثيث وصلا إلى ساحة تجميع الجذوع، حيث كان المشرف ينسق الأعمال ويضبط السجلات بصورة منتظمة. كان نهاراً صحواً رائعاً وحالة نادرة في الجو العام القائظ والرطب المهيمن على البلد كلها. بعد استراحة قصيرة قرر الشابان متابعة الصعود لمشاهدة منظر جبال لبنان البديع في الجنوب. كانت تغطّيهم ذرا الأشجار المعمّرة الجليلة من أرز وصنوبر وسنديان، ومن فوقها سماء داكنة الزرقة.

«أليس المنظر جميلاً كالجنة؟».

أومأ تالزو برأسه مأخوذاً وقال: «في حياتي كلها لن أنسى ما عشته في قطنا».

«لقد أحببناك جميعنا، تالزو. فلنتعاهد على صداقة أبدية ولنقسم حفاظاً عليها. سأكون دائماً إلى جانبك إنْ احتجت إلى مساعدة، وأرجوك أن تتخذ الموقف نفسه تجاهي!». وتعانقا وقبّل كلّ منهما الآخر على الخدين، ثم بقيا جالسين صامتين في هذه الغابة الرائعة، وكل منهما سارح وراء أفكاره.

على طريق العودة وبعد أن قطعا شوطاً كبيراً، توقّفا لالتقاط أنفاسهما، وفجأة اخترق الهواء سهم أخطأ إصابة أكيزي بفارق شعرة. تجمّدا في مكانهما. وأول ما خطر ببال أكيزي هو أنهما يتعرّضان لهجوم، وأراد الانبطاح فوراً ساحباً معه تالزو، عندما ظهر من الدغل صيّادان ارتاعا من جانبهما لرؤية شابّين، أحدهما فوق ذلك هو وليّ عهد قطنا، بدلاً من الطريدة المأمولة. لحسن الحظ استعاد أكيزي بشاشته بسرعة، مرتاحاً لعدم ارتباط الحادث بخطر محيق. ولكن في قطنا، عندما علم الملك بالحادثة، وبّخ ابنه توبيخاً شديداً.

في ما بعد، ولدهشة تالزو اعترف أكيزي قائلاً: «إنه محقّ تماماً. كان من المحتمل أن أصاب. كنت متهوّراً جداً، فأنا وليّ العهد وأحمل مسؤولية أُبعدها عن كاهلي باستخفاف»، وأضاف مع ضحكة تشي بالمرارة: «أما الآن فقد ألبسني النير. لقد حدَّد لي مهلة لاختيار عروس، فهل ستكون شاهد زواجي يا صديقي؟».

رغم هذا الأمر الجديد المثير، لم يعفِ تالزو نفسه من تأنيب النفس. أما والده إحيّا فاستشاط غضباً: «ماذا جرى لك؟ ألا يكفيك أن أرجوك أنا مراراً وتكراراً لمتابعة أشغالنا! ثم تغيبان عدّة أيام وأنتما تعبثان! ماذا لو أصيب وليّ العهد بأذى، أو لو قُتل؟ ما أسهل توريطك في المسألة! من كان سيصدق أنك لست من دبّر العملية؟ رغم كل كرم الضيافة، أنت أجنبيّ في قطنا. لا تنسَ هذا! ولا سيّما الآن، الأحوال متوترة، ولا أحد يعرف مَن وراء

الهجوم على القافلة. ألم تفكّر بذلك؟ ولو أن السهم أصابك أنت.. كل ما بذلته من جهود كان سيضيع هباء في لحظة. وماذا كنت سأقول لأمك المسكينة؟؟».

**

بعد مرور مدة على حادثة الجبل ازداد شعور تالزو بأن إقامته في قطنا توشك على نهايتها. فالصفقات قد أبرمت، وبضائع قافلة مصر قد وصلت أخيراً، فاطمأن والده، ولم يتبقَّ سوى أمله الأخير بتوقيع الاتفاقية التجارية التي ستتوّج استثماراته في قطنا. وفي حال حدوث ذلك سيكون إحيا الوحيد من تجار كيزواتنا الحائز على هذا الامتياز، الذي سيدعم مركزه التجاري بصورة كبيرة.

لم تشغل هذه الأمور سوى حيّز صغير من تفكير تالزو، إذ كان جلّ اهتمامه منصباً على مستقبله. شعر بأواصر متينة تربطه بقطنا، ولا سيّما أن وليّ العهد، ملك قطنا القادم، صديقه. كم كان بوده لو يبقى هنا! لكن سبب هذه الرغبة الشديدة لم يكن أكيزي وحده. وفي أعماق قلبه كان يعرف السبب الحقيقي.. إنها كيا! وازداد يقينه من أنها السبب، كلما اقترب موعد مغادرته قطنا مع إحيا. من يوم إلى يوم أخذ حاله يسوء، ويتعمق بعد كل لقاء. أهو الحب ما يشعر به نحوها، وهو ما لا يجوز بأي حال من الأحوال؟ ما الذي سيستهويها فيه؟ فهو حتى الآن لم يثبت نفسه، بل ما زال مرتبطاً بإرادة أبيه وكرمه، ولم يبلغ من الرجولة بعد ما يؤهله ليحقق مشاريعه الخاصة في الحياة. ولكن ما كل هذا هو ما كان يعذبه فحسب. فقد كان له من الذكاء ما يجعله يدرك أن أمله فيها بلا جدوى منذ البداية، فهي ابنة ملك، وبالتالي أعلى منه مرتبة بكثير. لا بدّ له وبأسرع ما يمكن أن يخرجها من رأسه وأن ينساها بلا إبطاء. لكنه كلما بذل جهداً في سبيل ذلك، وجد نفسه أكثر انغماساً في شوقه إليها.

في القصر بات كل شيء فجأة مشغولاً بعرس أكيزي، الذي لبّى رغبة الملك والملكة وحسم أمره خلال المدة المحدودة، واختار إهلي نيكالو، ابنة الشريف أوبيبا. وبهذه المناسبة وحسب العادة القديمة مسّح إيداندا رأس العروس بزيتٍ عَطِر، وقدّم لوالد العروس هدايا ثمينة: أقمشة وأحجاراً كريمة ومنحوتات عاجية، تلقّاها أوبيبا بحفاوة. وبهذا بات أكيزي وإهلي نيكالو الآن مخطوبين أحدهما للآخر رسمياً، وعند بزوغ الهلال الجديد سيقام العرس.

لم تدرِ كيا ما إذا كان عليها أن تفرح أم تحزن، فقد كانت إهلي نيكالو أعز صديقاتها، على الرغم من الاختلاف الكبير في شخصيتيهما. الآن سيصبح حلم إهلي حقيقة، ستصير زوجة أكيزي وأم أولاده، وملكة قطنا لاحقاً. ولكن هل ستبقى صديقة كيا؟ وأثناء وجودها في دار البلد لداعٍ رسمي التقت هناك مصادفة بتالزو.

«تبدين عابسة، كيا، هل أنت قلقة أم أنك مريضة؟».

نظرت إليه كيا مندهشة، فقد كان في الآونة الأخيرة أول من يسألها باهتمام عن حالها. ولكن مع وجود هذا العدد الكبير من الناس حولهما، لم تستطع أن تجيبه. وكان هناك احتمال لأن تبكي. ثم همست له: «تعال اليوم قبل المغيب بساعة إلى البوابة الغربية، ولكن بحيث لا يتعرّفك أحد!». واختفت في الزحام.

إن الأمل في لقياها، وبهذه الطريقة السرية غير المألوفة، جعل قلب تالزو يخفق بشدّة. عاد إلى دار تيرو، فحتى موعد اللقاء بقي وقت كثير، بل أكثر من اللازم. هدّأ نفسه قليلاً وفكر في طريقه لجعل نفسه مجهولاً، لكنه وجد فكرة التنكّر بالثياب حمقاء، فليس هناك مَن يمنعه من التوجه نحو البوابة الغربية، كما أنه لا تصور لديه عن خطط كيا. وأخيراً قرّر ارتداء كساءٍ كتاني قاتم يستطيع لبسه من دون مساعدة، وأخذ معه لفاعةً كبيرة وغادر الدار.

لم يسلك الطريق القصيرة عبر المدينة إلى البوابة الغربية، بل تمشّى نحو البوابة الشمالية، التي دخل منها مع والده إلى قطنا قبل أسابيع. ويا لكثرة ما جرى منذئذ! ماذا جرى له تحديداً؟ إنه يشعر بثقة أكبر بالنفس وبمزيد من النضج. وفجأة غمره يقين بأنه سيشقّ طريقه الخاص، ولو ضد إرادة والديه. إن الحياة رائعة. لف اللفاعة كما البدو حول رأسه، بحيث تغطي عنقه وتمكّنه من حجب وجهه. كان الوقت عصراً، فقرر أن يجول حول المدينة. مرّ بالبوابة الشمالية حيث الطريق المؤدية إلى إيمار والفرات الشمالي، وتابع حتى وصل إلى البوابة الشرقية. وفي هذه المرة لم يكن هناك قافلة قادمة ولا خيمة منصوبة، ولكن ثمة حركة وازدحام في الفسحة أمام البوابة وبين الأكواخ البائسة التي استوطنت المكان وامتدت منه حول المدينة كلها خارج السور. من موقعه هناك كان تالزو يرى بوضوح سلسلة الجبال الممتدة من الشمال نحو الجنوب والتي تفصل وادي نهر أرانتو عن الهضبة الشرقية. وقد شغلت المصاطب حيزاً عالياً من السفح، وكانت كلها مؤهلة زراعياً بصورة جيدة. لقد ألف هذه المناظر وبات يعرفها من قرب. وفي اتجاه الجنوب امتدت بيارات واسعة مزروعة بالنخيل وأشجار الفاكهة المختلفة والكرمة، وقد استطالت في ما بينها حقول لزراعة الحبوب والخضار، يفصل فيما بينها عدد من الدور الفلاحية

البسيطة. أما ما تبقى فيستخدم مراعي للبقر والخيل والبغال والحمير. قطف تالزو بعض ثمار التين وأكلها مستطيباً طعمها. عندما وصل إلى البوابة الغربية كان الوقت قد تجاوز العصر، وباتت أشعة الشمس ذهبية على جدران المدينة.

هنا، عند أهم بوابات المدينة ساد نشاط كثيف أكثر من المعابر الأخرى، لأن الطريق القادمة من البحر الكبير في الغرب، ومن نهر أرانتو، ومن مخاضة قطنا، كلها تنتهي هنا. أعداد لا حصر لها من العربات المحملة بالخضار والعلف والصوف والجلود المدبوغة، إضافة إلى البشر، كانت تندفع إلى داخل المدينة، في حين تبغي أخرى الخروج، وبينها كثير من المشاة وراكبي الحمير والبغال. تبع تالزو التيار المتحرك داخلاً المدينة وبقي واقفاً قرب البوابة. تلفّت حوله مضطرباً جاهلاً من عليه أن يتوقع من خادمات القصر أو خدمه وإلى أين سيُقاد. لم يعرف أحداً من الواقفين من حوله. انتقل إلى جانب البوابة الآخر، استند إلى السور وانتظر.

«اتبعني!». فحّ إلى جانبه فجأة صوت أجشّ. وظهرت أمامه امرأة محجّبة كلياً. وقبل أن يتمكن من إجابتها تحركت مغادرة المدينة لدهشته، منحدرة باتجاه النهر، متبعة درباً ضيقاً يمتد من المخاضة باتجاه الجنوب إلى دغل صغير على الضفة مباشرة، يوجد في وسطه تعريشة من القصب مخفية عن الأنظار.

ومن تحت الحجاب ظهرت كيا، مسرورة على ما يبدو من عملها، وحيّته بنشاط قائلة: «هل أدهشتك؟ إخوتي الصغار وأنا كنا نلعب هنا في طفولتنا. لطالما أحببت هذا المكان، لذلك أتردد عليه بين الحين والآخر، عندما أرغب في أن أكون وحدي تماماً. أتفهم ما أعنيه؟ أعرف أن هذا لا يليق بي، لكني أجد نفسي مُحرَّرة، لمجرد التصور بأني قادرة على التحرك بحرية مثل الآخرين». نظرت إليه بحزم وأردفت: «ستتقاسم سراً آخر، أنت وأنا الآن، لكنك لن تشي بي؟».

«أعدك بذلك كيا، مطلقاً!». أجاب تالزو باحتفاء وتابع: «والآن، أخبريني، ما الأمر؟». ثم جلس على المنحدر، فحذت كيا حذوه: «ما الذي يضايقك؟ أليس من الصواب أن يتزوج أكيزي؟».

«طبعاً، بالتأكيد. بل قبل أن يفوت الأوان، حسبما تقول أمه. إلا أن أموراً كثيرة ستتغير بزواجه، لا أعرف كيف، وهذا يخيفني. أكيزي وإهلي نيكالو سيشغلان بعض الحجرات في الطابق العلوي من الجناح الملكي، هذه الحجرات قيد التأثيث الآن. لا أستطيع أن

أتصور كيف ستكون إهلي نيكالو في المستقبل. سوف ترتدي حجاب المتزوجات خارج القصر، وستنجب أطفالاً، وسيكون عليها القيام بواجبات معينة بصفتها زوجة وليّ العهد».

أخذ صوت كيا يخفت تدريجياً، إلى أن قالت: «لكنها حتماً لن تستطيع أن تبقى صديقتي، كما هو الأمر حتى الآن، إذ أستطيع أن أحادثها في كل الأمور. حسناً، صحيح أنها لا تستمتع بالتعلم ولا ترغب إلا بالضروري منه، وأنها تهتم بأمور كالملابس والزينة، التي لا تهمني كثيراً. لكننا كنا نتسلى كثيراً معاً، نتندّر بالآخرين، نتحدث حول الفتيان والشباب أو حول بعض الخالات والأعمام غريبي الأطوار. كانت كلّ منا تعتمد على الأخرى وتثق كل منا بالأخرى. كنا نتشارك في همومنا. فهي مثلاً لا تنسجم كثيراً مع أبيها الذي غالباً ما ينتقدها متبرماً. وأنا، غالباً ما كنت أشكو لها أكيزي عندما يستخفّ بي أو عندما يصاب بإحدى فورات غضبه. وكنت أشكو لها الملكة وأنا أبكي، لتعاملها السيّئ مع أمي أو معي أنا. والآن ها هي ستصبح زوجته وكنّتها، وهي ملزمة بطاعتها في المستقبل، أتفهم ما أعني؟ لا يمكن أن تبقى الأمور كما كانت عليه».

«ربما آن الأوان لتقفي على قدميك وحدك. أستطيع أن أتصور أنكما بعد الاعتياد على الأوضاع الجديدة كلها ستستعيدان صداقتكما، حتى وإن تغيرت عما هي عليه حتى الآن».

«أُف، إنك تتكلم مثل مربّيتي. أحب الأمور إلى قلبها أن تراني قد زُوِّجت. عندئذ سأستطيع أن أجلس مع إهلي نيكالو وأطرز وأنتظر إلى أن يناديني زوجي. وأنا لا رغبة لي في ذلك، ثم إني لا أعرف أحداً في قطنا يمكن أن يكون زوجي».

«إذاً صارحيني، ماذا تنوين أن تفعلي؟ كيف تتصورين أن تبدو حياتك؟».

«لا أعرف»، أجابت بحدّة وأضافت: «ولكن حتماً ليس بهذه الصورة».

«كيا، اهدئي! بودّي أن أساعدك، لكنني لا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل».

«أنا لا أريد أن أهدأ، وأنت لست مطالباً بأن تساعدني».

نظرت كيا إليه بغضب وكانت عيناها تقدحان شرراً وقالت: «هل لديك أية فكرة عن احتمالات مستقبلي بصفتي أميرة قطنا؟ الأكثر احتمالاً هو أن أُدفَع إلى حريم ملك من الملوك ضمانةً لاتفاقية ما أو معاهدة حماية أو أي شيء آخر، على الرغم من أن أبي يحبني. وقد يكون هذا الآن أفضل الحلول، إذا عرفت الملكة من إهلي نيكالو رأيي بها».

صمت تالزو وأبعد نظره عن وجه كيا إلى ماء النهر المتدفق. كم كان بوده في تلك اللحظة أن يحضنها ويواسيها، وقد بدت رائعة في غضبها. لكن اللحظة تلاشت.

ضغطت كيا شفتيها إحداهما على الأخرى بعضهما. وضع تالزو يده على كتفها وقال بلطف: «كيا، أنت خائفة جداً من المستقبل، وأنا أيضاً. كل شيء مثير ومرعب في الوقت نفسه، لأن دروبنا تبدو محددة مسبقاً. أنت ستصيرين زوجة (ملك ما)، كما قلتِ، وأنا سأستلم تجارة راسخة مملّة وأنكبّ على لوح الحساب. ولكن هل من المحتم أن يكون الأمر كذلك؟ أنت وأنا تعلمنا كثيراً ونستطيع أن نتعلم أكثر فأكثر. وما تعلمناه كفيل برفعنا فوق معظم أبناء جيلنا. ترى ألا نستطيع استثمار هذه المعرفة؟ أنا من جهتي مصمّم، بعد عودتي إلى كيزواتنا، على ترك دار أهلي، وسأعرض على ملك حتّوشا خدماتي مترجماً ورسولاً مفاوضاً. ألا يمكنكِ أنت أيضاً أن تفعلي شيئاً بمواهبك المتعددة؟ أنت ذكية وجميلة وجريئة ومثقفة..». وكان على وشك أن يضيف: «وأي ملك من الملوك سيفخر بالحصول عليك زوجةً». لكنه عضّ على شفتيه وقال في نفسه: لا يجوز لأي ملك أن يعانقها، هذه لا! ومع هذه الأفكار أحس بحرارة تجتاحه، فسحب يده بسرعة وعاد ليحدق في الماء الجاري. كانت الشمس قد شارفت على المغيب واقترب وقت الغسق.

اعتدلت كيا في جلستها وقالت: «أنت طبعاً، فأنت رجل. والرجال قادرون على رسم خطواتهم، وعلى أن يأخذوا من الحياة ما يريدون. أما نحن فعلى النقيض، إذ يُحدد لنا ما علينا فعله، وعلينا أن نرضخ، بل لا يجوز لنا أن نشكو. ما أسهل الكلام بالنسبة إليك. خذ أمي مثالاً..». فقاطعها تالزو: «إنها لا تبدو لي ممرورة أبداً، بل متوازنة تماماً، على النقيض من أمي».

«هذه هي المسألة، فهي تخضع ببساطة وتقنع نفسها بأنها راضية بذلك».

«هل أنت واثقة إلى هذا الحد؟».

«لم أرها ولو مرة واحدة تحتجّ بقوة في وجه الملكة».

«ربما كانت على درجة من الذكاء، بحيث أدركت أن الملكة تغار منها».

«كيف خطر هذا في بالك؟».

«ما انطبع في نفسي هو أن أباك لا يحبك أنت فحسب محبة فائقة، بل وأمك أيضاً. منذ تناولي العشاء معكم أول مرة، بعد وصولنا إلى قطنا بفترة قصيرة، لفتت انتباهي النظرات الشغوفة التي يخصها بها، والتي لا يوجه مثلها أبداً إلى الملكة بلتوم».

«حتى إن كان الأمر كذلك، هذا لا يفيدني شيئاً».

«ورثاء الذات لا يفيد أيضاً، حسبما تبيّن لي. إنه يشل الذات لا أكثر».

«يا لك من ناصح حكيم! أيجب علي الآن أن أنحني لك؟». قالت ذلك وهي تنهض وأردفت: «إن لم يكن لديك أفضل من هذه الحكَم، فشكراً، بوسعي الاستغناء عنها!».

أرادت أن تجرحه ونجحت في ذلك. نهض تالزو أيضاً. لقد تلاشت ألفة البداية. استدارت بحركة عنيفة فتعثرت وكبت. كان رد فعل تالزو سريعاً فأم. ـك بها، وللحظة عابرة لامست شفتاه عنقها، ثم وقفت بثبات فأفلتها. وبسرعة أسدلت حجابها والتفتت مغادرة.

تركها تالزو تذهب وتابعها بنظره إلى أن اختفت في الغسق. ما الخطأ في ما قاله؟ ما الذي أغضبها بهذه الصورة؟ أليست هي مَن طلب الالتقاء به سراً، أليست هي من اقترح الأمر؟ إذاً، هو لم يكن منفّراً إلى هذه الدرجة. أم أنه لا ينفع إلا للتنفيس عن غضبها؟ هل تحتقره لأنه ابن تاجر؟ سيُريها. سيُري الجميع كيف سيمسك بزمام حياته بيديه. إنه يرى طريقه واضحاً. حيثما توفرت له الإمكانية سيلعب دور الوسيط، سيزرع السلْم ويوفق بين الخصوم. أما كيف سيعيد علاقة الصداقة بينه وبين كيا إلى ما كانت عليه، فبقي أحجية.

كان الوقت ليلاً عندما عاد إلى دار تيرو، فقد انهمك طوال الطريق في التفكير بخطط مستقبله. ولكن مهما أخذته الأفكار بعيداً، كان دائماً يعود إلى كيا. لقد كانت زاخرة بالحيوية وحب الحياة ومليئة بأفكار عميقة. تذكر حوارهما حول الآلهة، حين كان ذهنها مشغولاً بصورة لافتة بوجود كثير من الأرباب، غير تلك المألوفة في قطنا، حيث بيليت إكاليم سيدة المدينة وحامية العائلة المالكة إضافة إلى الأجداد من الملوك المؤلهين.

«أتعرف، بإمكاني تفهُّم أن كل رب من الأرباب يجسد شيئاً خاصاً، وأن لكل رب مجال سلطته الخاص، كأرباب المدن والبلدان، وإله الشمس وإله القمر وإله الطقس، وأرباب الشفاء وكل الآخرين. بعض الآلهة سلطتها واسعة، وبعضها أقل. وواجبنا الأسمى يكمن في أن نزوّد الأرباب بما يليق بهم، فنقدم لهم الأضاحي بسخاء ونرتل لهم الأناشيد ونصلي لهم ونقيم احتفالاتهم في مواعيدها كي لا يغضبوا علينا ويعاقبونا. إذا سارت الأمور كلها حسبما يرضيهم فسيوحون إلى الكاهنات والكهنة، وبطرق مختلفة دائماً: في الحلم، في قراءة القربان أو في تأويل إشارات محددة. أليس الحال عندكم في كيزواتنا مماثلاً؟».

هز تالزو رأسه موافقاً.

«وقد يوحون إلى كل فرد منا أيضاً؟». نظرت كيا إلى تالزو نظرة تساؤل وتابعت فوراً: «يبدو لي أنه كلما كبرت البلد، كثر الأرباب فيها».

هز تالزو رأسه ثانية وقال: «هذا مؤكد بالنسبة إلى حتّوشا. وما يجب أن لا ينساه أحد هو أن هذا يجلب الخطوب للملك والمملكة».

«الخطر إذاً ليس كبيراً لحسن الحظ بالنسبة إلى قطنا، حيث لا نعبد جميع الأرباب فيها - حفظتنا آلهتنا منهم! ولكن، ما رأيك تالزو، ألا يتبادر إلى ذهنك أحياناً أن الأسماء فقط هي التي تختلف، في حين أن الآلهة هي نفسها في كل مكان؟ عندكم مثلاً عندما تقدمون الأضاحي إلى ربة الحب، يدخل الناس هنا إلى معبد بيليت إكاليم، التي هي عشتار أيضاً، أليس كذلك؟».

وافقها تالزو. وهذا في رأيه إحدى خصائص الدبلوماسي الجيد أيضاً، أن يعرف هذه الأمور الدينية كلها، الأرباب وطقوسها الضرورية وخصوصية كل بلد بصورة جيدة، كي لا يهين أحداً. وما زال أمامه الكثير ليتعلمه.

نظرت كيا إليه بجدية ومسحة تآمرية وقالت: «والآن سأكشف لك سراً، لا يجوز لك أن تأتي على سيرته مع أي كان. عدني بذلك! في عائلة أمي يعبدون أيضاً كثيراً من الأرباب، لكن لأحدهم مكانة خاصة»، ارتعشت وأردفت بخشوع: «إنه إله الشمس آمون رع. هو الذي خلق الأرباب الآخرين كلهم. إنه الإله المتعالي المهيمن على كل شيء والمحيط بكل شيء، والذي لا شبيه له».

أحسّ تالزو أنها متأثرة عميقاً بهذا التصور. أما هو فكان عليه أن يفكر فيه.

آه كيا، إلام ستؤول الأمور كلها؟ إن فكرة أنه لا بدّ له الآن من التحدث إلى شخص ما، دفعته إلى التفكير بالبوح إلى الأرباب، عسى أن يجد لديهم نصيحة. سيصلّي لهم كلهم. لا شك في أنهم سيعذرونه، لأنه لم يتوضأ بالشكل الضروري اللائق. وهكذا دخل مباشرة إلى حرَم الأرباب في قصر تيرو. وفيما هو مستغرق في أفكاره وتأملاته نسي الوقت. ثم، بمظهره المضحك، وصل إلى غرفته، ولم يكد يخبئ اللفاعة حتى دخل والده، فوقفا صامتين واحدهما تجاه الآخر. وبعد برهة سأل إحيا وهو على وشك الانفجار: «ما هو عذرك؟». فأجاب تالزو بتحدٍّ: «كان لا بدّ من أن أفكر»، إذ إنه لم يرغب في الانصياع دون مقاومة.

«آها، كان على السيد المحترم أن يفكر! وطوال ساعات. وطبعاً دون أن يعرف أحد، أين؟ والمواعيد؟ سيّان، فليقم العجوز بالعمل، أليس كذلك؟ ما علاقتي أنا بالأمر كله؟ هكذا تفكر. لكنك هذه المرة يا صديقي شددت القوس أكثر من اللازم. لماذا تضعني في

مواقف محرجة؟ بماذا أجيب عن سؤال: أين اختفى السيد ابنكم؟ ولدى سماعي ملاحظة: أين تعلّم ابنكم لفّ العمائم بهذه الطريقة الغريبة، أمن أصدقائه البدو الجدد؟ أرخي كتفي وأطبق شفتي. وعن سؤال: لماذا لم يأت ابنكم إلى الموعد مع كواري وعمّه تيرو، أهو متوعّك؟ - وهي ليست المرة الأولى طبعاً - أرتجل متأتئاً، نعم، إنك متوعك، فيتبادلان النظرات. الشريف تيرو يجدد دعوته لنا على العشاء، لكني لست قادراً على التكهن بموعد ظهورك. كلها مواقف محرجة، محرجة جداً. أطفل أنت لتركض وراء نزواتك ولا تسيطر على نفسك؟ كيف ستأخذ المسؤولية على عاتقك في المستقبل؟ ألم نتفق قبل مدة قريبة، بعد الحادث المشؤوم لوليّ العهد في الجبال، على أن تتمالك نفسك في آخر أيام إقامتنا في قطنا؟ ألم تعدني بذلك وتؤكد وعدك؟ الآن ودون مواربة أريد أن أعرف منك، لماذا غادرت دار البلد من دون أن تترك خبراً، وأين كنت؟ أجبني هيا!».

ثبّت تالزو نظره في عيني أبيه وقال: «كما قلت لك. ذهبت إلى خارج المدينة، كان لا بدّ من أن أفكر بنفسي وبحياتي. لا أظنك ستعترض على ذلك، فهذا من حقي». وكان رافعاً رأسه بثقة وفخر مواجهاً نظرة والده الغاضبة.

«إنك تخيّب أملي فيك بصورة مريرة، ومن جميع النواحي، أنت ابني الوحيد». هز إحيا رأسه بانكسار وتابع: «لقد تركت لك الحبل على غاربه دائماً. ويبدو أنني قد أخطأت في إحضارك معي إلى هنا. الدخول والخروج مع أفراد العائلة الملكية قد فتل رأسك كلياً، فبدأت تظن نفسك واحداً منهم، وأنك صرت أفضل من تاجر شريف من ترشا».

اعتدل الوالد في وقفته وتابع: «هذا كله في المستقبل سيتغير. لقد اكتفيت من نزواتك. حالما نصل إلى ترشا، سنضع حداً للتكاسل. ستداوم في المتجر بصورة منتظمة وستقوم بجميع الأعمال التي ستكلّف بها. وسأتكلّم مع أمك بشأن اختيار الفتاة المناسبة لك. آن أوان أن تسلك أخيراً كرجل، وليس كفتى مرعوب من دخول معترك الحياة وتحمل المسؤولية. هل فهمتني؟». وغادر الغرفة دون انتظار جواب تالزو، مخلّفاً ابنه وراءه مثل صبي غبي.

رائع، فكّر تالزو. ها أنا قد توصلت في أقصر وقت إلى الخلاف مع كيا ووالدي. يا لها من بداية مشجّعة لمهنتي كديبلوماسي! لكن الأمر سيّان بالنسبة إلي الآن. أنا حتماً لن أصبح تاجراً، سواء قبل والدي بذلك أم لا. - ترى ماذا تفعل كيا الآن؟

**

غادرت كيا مسرعة، تضجّ غضباً وخيبة أمل.

كان يجب أن أتوقع أنه لن يفهمني، مثله مثل الآخرين. كلهم جاهزون بالنصائح الماكرة لتوجيه سلوكي، أما همومي ومشاعري فلا يأبه لها أحد. انهمرت دموعها على خديها، لكنها خشيت أن ترفع الحجاب، ما قد يؤدي إلى تعرّفها، لا سيّما أنها في غربي المدينة. وفقط عندما اقتربت من المعبد، رفعت الحجاب عن رأسها كله ولفّته على بعضه. وعندما وصلت إلى مدخل القصر سمعت نداء اسمها، وفجأة ظهرت مربّيتها تايا أمامها.

«كيا، حبيبتي، بحق الآلهة أين كنت؟». سألتها قلقة، وتابعت: «إني أنتظرك منذ ساعات. بحثت عنك في جميع الأماكن التي تحبّينها، بلا جدوى».

«ما الطارئ المهم؟». سألتها كيا.

«لقد اختفيتِ من دار البلد في اللحظة التي طلبك فيها الملك. أرسلوني وراءك لأحضرك، لكنك اختفيت. أبوك غاضب جداً، لا سيّما أن الملكة قد اتهمته بعدئذ بأنه يدلّلك أكثر من اللازم، وبأنك تستغلّين صبره بوقاحة. فحضّري نفسك للعتاب يا سيدتي الشابة. لم يكن أمامي أية إمكانية لحمايتك، ولم أجد عذراً أو مخرجاً مقبولاً لغيابك، وأنا آسفة جداً لذلك. لكني أردت أن أحذرك، على أية حال، ولهذا كنت أركض بين مداخل القصر منذ مدة خيفة أن تفوتيني».

«لا تقلقي، أنت لا ذنب لك. لم أظن أنهم قد يفتقدوني. لماذا طلب الملك البحث عني؟».

«كان هناك بعض الوفود من بلدان مجاورة في دار البلد. وموفد ملك أمورّو طلب رؤيتك».

«لم أعرف شيئاً عن الأمر، أفّ. ماذا علي أن أفعل الآن؟ بماذا تنصحينني؟».

«لا أستطيع نصحك بشيء يا حبيبتي، فمهمّتي واضحة: حال ظهورك عليك المثول أمام الملك، حتى قبل أن تدخلي إلى غرفتك أو إلى الحمامات».

تجاوزتا الحرس وأسرعتا عبر القاعات إلى جناح المعيشة الملكي. عندما عبرتا الفناء ضغطت كيا الحجاب بسرعة في يد مربّيتها هامسة: «رجاء، احفظي لي هذا معك!».

أومأت تايا برأسها وأجابتها معنّفة: «سأبتهل لبيليت إكاليم من أجلك. لا شك أنك ستنجحين في تهدئة خاطر أبيك».

وصلتا إلى الرواق ذي الأعمدة. توقف عزف القيثارة فجأة وسكت الكلام، وتوجهت

جميع العيون نحو كيا التي وقفت في المدخل مرفوعة الرأس. تفحّصتها الملكة بلتوم من فوق إلى تحت باستخفاف، ما جعل كيا تحمرّ خجلاً، لإدراكها ما هي عليه الآن، صندلها مغبرّ وقدماها متّسختان، ثوبها غير مرتّب وشعرها منكوش.

التفت الملك نحوها، نهض عن كرسيه وأشار إليها أن تتبعه. ورغم أنه قد أجبرها بذلك على المرور إلى جانب جميع الحضور، إلا أنها ارتاحت لرغبته في التحدث معها على انفراد، دون الملكة ودون أمها، التي رمتها بنظرة خاطفة ووجدتها مسترخية كالعادة. تبعت أباها عبر قاعة الطعام إلى غرفة الجلوس المجاورة، التي تجتمع فيها العائلة شتاءً. ومنها يصل المرء إلى غرفتين منعزلتين مخصصتين للملك فحسب، ملاذه الخاص حيث يعمل ويقرأ، وينام أحياناً. كانتا مريحتين ووثيرتي المفروشات، ولكل منهما إطلالة بديعة على الجانب الشمالي من مركز المدينة. في الغرفة الأخيرة كان هناك أيضاً زاوية صغيرة تضم تماثيل صغيرة للأسلاف، حيث يناجي الملك مستشاريه الإلهيين الخاصين به. نادراً ما كان الملك يسمح لأحد بدخول هذا المكان. عندما كانت كيا طفلة سمح لها بضع مرات بالبقاء هنا لفترات قصيرة، وقد تذكرت الآن في لحظة دخولها كيف كانت تجلس على ركبتيه وهي تهلل فرحاً، ولكن دون أن تجد الآن ما يدعوها للتهليل فرحاً.

«اجلسي!». أمرها الملك، فيما جلس هو على كرسي منجّد ناعم قبالتها، فقد جلست حسب إشارته على كرسي ثلاثي الأرجل، وهي معتدلة الجسم منكّسة الرأس بانتظار التوبيخ. إلا أنها أخطأت الظن. أمسك أبوها بيديها وقال: «كيا، انظري في وجهي!».

بعد برهة صمت نظرا في أثنائها كلٌّ في عيني الآخر، قال إيداندا: «أتعرفين كيا، أنك الأقرب إلى قلبي من بين جميع أبنائي. ها أنت الآن امرأة ناضجة تقريباً، وسأحاول على الرغم من سلوكك، ليس اليوم فقط، بل مرات متكررة، أن أعاملك على هذا الأساس. سأفتح معك حديثاً في غاية الجدية، يتعلق بك وبمستقبلك، وذلك قبل أن نحكي عن نزوتك اليوم».

نظرت إليه كيا غير مصدقة. لقد توقّعت كل شيء: أسئلة قاسية، اتهامات، تهديدات بالتأديب أو أي عقوبات أخرى، واستعدّت نفسياً لذلك. أحسّت بحافز يدفعها للركوع وتقبيل يدي أبيها، لكنه على ما بدا قد حسب حساباً لردة الفعل هذه، فأبقاها جالسة في مكانها وقال لها: «سنبدأ الآن! استمعي لما لدي!». ترك يديها واتخذ وضعية مريحة على كرسيه وقال لها: «بصفتك ابنتي الوحيدة فأنت أميرة قطنا. وإذا كانت الإشارات التي رافقت ولادتك قد فُسّرت بصورة صحيحة، فمن المفيد حقاً لملكة مستقبلية أن تكون

واسعة الاطّلاع وتجيد عمليات الحساب. فالعلم سلْطة، يا بنتي! أما كيف سيكون مسار حياتك، فهذا أمر لا نتحكم فيه وحدنا، بل الأرباب في المقام الأول. فعلينا أن نصغي إلى رسائلهم وإشاراتهم. أنت صبية جميلة كيا، وقد بلغت السن التي تؤهلك للزواج. هناك كثير من الرجال سيحلمون بك ويرغبون جداً في خطبتك، لكن منبتهم الاجتماعي لا يسمح لهم حتى بالتفكير في الأمر. لذلك ستتبيّنين بينك وبين نفسك أنك لن تتمكني في حال زواجك، من البقاء في قطنا، أليس كذلك؟ إذ لا يمكن أن يتقدم لخطبتك إلا من ينتمي إلى صفوة النخبة من ملوك أو أمراء».

أومأت كيا برأسها، فتابع أبوها كلامه: «أنت شاركت في اجتماع مجلس الأعيان الأخير، وحصلتِ بطرقك الخاصة الغريبة على معلومات إضافية، أي أنك تمتلكين حالياً تصوراً عن الوضع العام القائم. أذكر هذا لسببٍ محدد، وهو أننا، وإن كان البعض في قطنا يخالفنا الرأي، يجب أن نحسب حساب الضغط المتنامي علينا من القوى العظمى. ورغم طموحنا لتحقيق التوازن في القريب العاجل، إلا أنني لا أستبعد وقوع نزاعات حربية، فليحفظنا الأرباب منها!». ورفع إيداندا ذراعيه مبتهلاً. ثم أردف: «ولكن في هذه الحال ستتطور الأمور في وقت ما، إلى حد أن نُجبَر، نحن والممالك السورية الأخرى، على اتخاذ موقف وحسم أمرنا بصورة نهائية، إلى جانب إحدى القوى العظمى، هذا إن تبقّت لنا حرية الاختيار قبل أن يقع احتلالنا ببساطة. من ستكون هذه القوة العظمى؟ مصر؟ ميتاني؟ حتّوشا؟ أم آشور كاحتمال لا يحسب أحد حسابه؟ وهل ستبقى بابل مراقبة ما يحدث بصمت؟ لا نعرف، حتى الآن على الأقل. أتفهمين ما أريد قوله، كيا؟».

«أعتقد ذلك»، أجابت، وتابعت: «حالياً لا شيء مؤكد. ولكن في وقت من الأوقات قد نُضطر إلى إبرام معاهدة، وعندئذ لا بدّ من توفر ضمانة لها لتذييلها بختمَي الطرفين حسب العادة. وهذه الضمانة ستكون أنا. تماماً مثلما أتت أمي إلياك».

«يُسعدني إدراكك الأمر. لا شك في أن الوقت ما زال مبكراً جداً لذلك، فأنت، حتى الآن لم تمرّي بعْدُ بطقس تأهيل العذراوات. ومع ذلك، من المهم أن تكوني مستعدة. سأعتبر نفسي مخطئاً جداً في فهمك، لولا يقيني من أنك تفضلين أن تقرري مستقبل حياتك بنفسك. لكن الأمر ليس بمستطاعك ولا بمستطاع أي أحد منا. لا أدري، إنْ كنتِ قد فكّرت سابقاً بهذا الموضوع! لا يسعنا في حدود إمكاناتنا سوى أن نجهز أنفسنا جيداً لاستقبال أقدارنا، كي لا نُداس ونضيع على نحو مزرٍ. لا مهرب من القدر. حتى الآن كنتِ حرة مثل عصفور. وأنا أعرف جيداً أنك غالباً ما كنتِ تتلاعبين بي بسهولة، وكنتُ أدعك

تفعلين. أقول ذلك دون لهجة اتهام، لأني كنتُ أُسرّ بذلك. أما الآن فلم تعودي طفلة صغيرة، كيا، حتى ولو أنك ما زلت كذلك بمعنى من المعاني». ورغم الحزم كانت نظرات إيداندا مفعمة بالحب وهو يقول: «بل بالعكس، أمك ترى أن الأرباب قد وهبوك بصيرة الكهانة. خطر ببالي هذا الأمر سابقاً. ما رأيك أنت؟».

«أمي قالت لي هذا، بعد أن حكيت لها ما حلمت به في يوم المجلس. لكن هذه المنّة قد تُؤخذ مني ثانية بعد طقس تأهيل العذراوات».

«لا يستطيع البت في هذا الأمر سوى شالا كاهنة الربة. إذا صحّ ظنّنا بالاستقصاء عن إرادة الربة، فيحتمل أن يكون قدرك هو خدمة الربة، هنا في قطنا. تدريب الكاهنات شاقّ ومليء بالوحدة غالباً. هناك الكثير مما يجب تعلّمه، سوى ما يتعلق بخدمات الربة وتفسير رسائلها، فالمعبد هو في الوقت نفسه دار الشفاء كما تعرفين. والكاهنات ذوات المراتب العليا يُستشرن في اتخاذ القرارات السياسية والعسكرية، أو الاقتصادية المهمّة.

طيب. بعد أيام قليلة سيتزوج أكيزي أخيراً. أنا وأمه تركنا له كثيراً من الوقت لذلك. المرأة الفتية ستملأ غرف القصر بحياة جديدة، وإن شاء الأرباب وشملوا بيتنا بحمايتهم، فلا بدّ من ضمان السلالة الملكية في قطنا. هذا يعني أنه قد آن أوانك لتختاري طريقك. عليك أن تسائلي نفسك حتى يتضح لك طريق واجباتك وكيف تريدين القيام بها.

أتدركين مدى الاستثناء الذي أعرضه عليك، كيا، على الأقل كنوع من حرية الاختيار؟ هذا يصدر عن حبي الكبير لك، يا بنتي. وأنا لن ألبّي رغبات الملكة. إنها تطالب بعقوبة قاسية لك لسلوكك غير المسؤول اليوم وغير اللائق بأميرة - وهذا ما لا أريد الخوض فيه معك - وقد تكون محقة في طلبها. إني أبتهل إلى الأرباب كي لا يعاقبوك ذات يوم، ويعاقبوني أنا أيضاً، إذا تبيّن لي أني كنت مخطئاً كلياً في نظرتي إليك وأنك لم تقدّري عاطفتي تجاهك حق قدرها».

صمت الملك برهة قبل أن يكمل قائلاً: «أتوقع منك في المستقبل أن تتعاملي مع الملكة بكل احترام، حتى وإن صعب الأمر عليك أحياناً. لا تعطيها الإمكانية لتقديم شكايات محقّة تجاهك! خذي أمك كمثال واحتذيه. إنها مقرّبة إلى قلبي، مثلك، منذ أن جاءت إلى قطنا وصارت زوجتي. إنها امرأة ذكية وأنا أقدّر مشورتها خير تقدير. لقد أدركتُ منذ ذلك الوقت وبسرعة، رغم شبابها الغضّ، أنه ليس مفيداً أن تجعل من الملكة عدوة لها. بما أن المرأتين لم تتمكنا من أن تصبحا صديقتين، حرصت إيست دائماً على

ألا تُخدش كرامة بلتوم. اكتفت بمعزّتها عندي واستغنت عن موقعٍ متميز في القصر، رغم أنها من السلالة الملكية في مصر. بل كانت بعيدة النظر، إذ جعلتني بعد ولادتك أمتنع عن إنجاب أولاد آخرين منها، كي لا يحدث أي نزاع على العرش، ولئلا يقتتل الإخوة. لذلك، ولكي تعيش في سلام داخلياً وخارجياً، تأقلمت مع الأوضاع القائمة هنا وأتقنت لغتنا، كما علّمتنا فن الحياة الراقية المصري، ولكن دائماً من دون إلحاح. لهذا السبب تُعامل هنا باحترام، وتُترك لشأنها بسلام، في ما يتعلق بديانتها أيضاً. عليكِ أن تسلّمي بذلك! ولها عليك أفضال كثيرة. لقد علّمتك ما يتعلق بمصر ولغتها وكتابتها. وحدّثتك عن آلهتها، أعرف ذلك. لكنها لم تحاول أبداً أن تجعلك فتاة مصرية، بل كانت تدرك دائماً أنك أميرة من قطنا، بل أميرة قطنا». ترك إيداندا لكيا بعض الوقت، ثم تابع: «إضافة إلى ذلك، أتوقع منك منذ اليوم أن تتصرفي حسبما يليق بحسَبِك ومنزلتك. يفضّل أن تراجعي عقلك مرتين قبل أن تُقدمي مستقبلاً على أية أفعال عفوية. وأنا متأكد من أنك ستمالكين نفسك. أنا موقن، كيا، من أنك ستكونين مبعث شرف لقطنا، ولن تخيّبي ظني!». ثم نهض وعانق ابنته وقال لها: «اذهبي الآن واغتسلي. ابقي مساء اليوم في غرفتك. مربّيتك ستكون بانتظارك. سنعود إلى حديثنا نحن الاثنين بعد حفل العرس. حفظك الأرباب، يا بنتي!».

**

لم تر كيا تالزو ثانية إلا في حفل العرس. فبعد كلام أبيها الرصين، بعيد الغور، جاء الحديث مع أمها في اليوم التالي، وكان له تأثير مشابه للقائها مع الملك. ما أدهشها ذاتياً، أنها لم تكن معاندة كعادتها، بل بدأت تراجع التفكير بعمق في الأمور كلها، وكانت جادة وهادئة. وفي نهاية الحديث طلبت الإذن لمقابلة كبيرة الكاهنات في معبد الربة، فسُمح لها.

استقبلتها شالا في جناحها الخاص وكرّست وقتها لها. تحدثت كيا، فتدفقت من دواخلها جميع الأفكار والهموم والتجارب والتصورات المتراكمة، إلى أن اسْتُنفِدت وتعبت. قادتها شالا إلى حجرة صغيرة بسيطة الأثاث وطلبت منها أن تستلقي. ناولتها شراباً لذيذاً عطراً، شربته كيا في رشفات صغيرة. كان مذاقه يدل على وجود توابل متنوعة فيه، ومع كل رشفة كانت تشعر بقلبها أكثر خفة، في حين صار رأسها أكثر ثقلاً. أشعلت شالا مصابيح الزيت التي نشرت نوراً وروائح طيبة، عرفت كيا منها روائح خشب الأرز وزهر الليلك، وسمعت صوت شالا يتناهى إليها من بعيد: «احلمي كيا وحاولي ألّا تنسي الحلم!». غرقت كيا في نوم عميق، فيما صمتت الربة.

أحست بألم واخزٍ أسفل جسمها، أيقظها، فاعتدلت ضامّة ذراعيها إلى جسمها. كانت الحجرة معتمة. تنفست كيا بعمق وانتظام كي تخفف من الألم. وفجأة ارتخى التشنج وصار ما بين فخذيها ساخناً. نظرت مرعوبة، ورأت بقعة دم تتسع على الفراش، وفي الوقت نفسه انهمرت دموعها. عادت وتكورت في الفراش وهي تدس رداءها بين فخذيها ما أمكن وتبكي، إلى أن غفت ثانية، وهذه المرة أيضاً بقيت الربة صامتة.

استيقظت على أصوات خافتة، وسمعت من الغرفة المجاورة صوت شالا يهمس لامرأة أخرى. اختفى الألم. تقدمت المرأتان منها عندما سمعاها تعتدل في الفراش. أشارت كيا إلى بقعة الدم.

«أهلاً بك أيتها المرأة الشابة!». قالت شالا مبتسمة وانحنت نحو كيا وضمتها إليها. ثم أشارت إلى مرافقتها قائلة: «هذه أمّينايةِ، ستذهب معك إلى الحمّامات، وتجري معك شعائر التطهير. إذا أردتِ، بوسعك البقاء في بيت الربة، إلا أنهم بحاجة ماسة إليك في القصر، فالعرس على الأبواب!». وحنت رأسها لكيا بحب وغادرت الحجرة.

بعد بضعة أيام عادت كيا إلى القصر، وأخذت تنجز الأعمال التي تناط بها، من دون اعتراض. وبالتعاون مع بعض بنات العمومة والخادمات جهزت كيا حجرة العروس في القصر الملكي وزيّنتها.

دعي إحيا وتالزو أيضاً إلى حفل العرس. في اليوم السابق التقى المدعوون جميعهم في دار أوبيّا. وقامت شالا مع عدد من الكاهنات والكهان بطقوس تقديم القربان للربة وللأجداد الملكيين ولبعض الأرباب الآخرين المهمين، لتطهير العروسين من أي دنس. إهلي نيكالو نذرت للربة بعض ألعاب طفولتها وأشياء أخرى من مرحلة مراهقتها، وأحد أثوابها وخصلة من شعرها، امتناناً لها لسنوات عمرها الماضية ولتكسب رضاها عن مرحلة عمرها القادمة. بعد ذلك تطهرت العروس في اغتسال طقسي بصحبة رفيقاتها. وفي الوقت نفسه أدى العريس طقوس الاغتسال التطهري.

في صبيحة اليوم التالي بدأ اليوم العظيم، والتقى الجميع ثانية في قصر أوبيّا، وبدت قطنا كلها منهمكة بالحدث. بعد أن فحصت شالا كبد نعجة حديثة الذبح لا عيب فيها، بحثاً عن إشارات مناسبة، وبعد تجديد القرابين للأرباب، تقدمت إهلي نيكالو، فبدت رائعة في ثوب الزفاف المنسوج من قماش كتاني فاخر والمزيّن بزخارف جميلة بالغة النعومة. وابتكرت النساء من شعرها الأسود الطويل تسريحة فنية، ضفرن فيها مختلف

الأزهار. اقترب منها أكيزي بخطوات رزينة وتوقف لصقها. ناولته شالا حجاباً من نسيج ناعم فاخر تفوح منه رائحة عطرة، فجلّل به عروسه أمام جميع الشهود، ورفعها بذلك إلى مرتبة زوجته. تلقّت إهلي نيكالو من يدي شالا إكليلاً مجدولاً من السنابل ومزيناً بالفواكه والأزهار، فتوجت به رأس أكيزي. ضجت القاعة بهتافات الفرح والتهليل وتوجه المدعوون إلى مأدبة العرس، فقد جُهزت القاعة الكبرى في قصر أوبيّا لتستوعب جميع المدعوين. اقتيد العروسان إلى مكان الشرف على المائدة، وبعد أن جلسا رفع أكيزي حجاب زوجته، وبذلك صار بإمكان المدعوين البدء بتناول الطعام. كانت المائدة متخمة بأفخر المأكولات وألذّها، وقام عازفون وعازفات بتسلية الضيوف، فيما نال الراقصون والراقصات إعجاب المشاهدين. وساد الاحتفال جوٌّ من الفرح والمرح.

كثيراً ما كانت كيا تخطف نظرها نحو إهلي نيكالو، التي بدت سعيدة، خداها متوردان ووجهها مشرق. عندما لاحظت نظرات كيا، لوّحت لها بفرح وأرسلت لها بيدها قبلة.

مساءً رافق المحتفلون العروس صاعدين إلى القصر الملكي. أركبوها في محفة رائعة ومزينة بكثير من الورود، وتقدّمها حملة المشاعل والموسيقيون. كانت بلتوم مع إيداندا بانتظار المحتفلين عند بوابة القصر الجنوبية ليرحبوا بكنّتِهم، فقدموا لها تمراً ورمانة رمزاً للخصوبة، كما وزع أكيزي على الضيوف كعكاً بالسمسم والعسل. دخل الجميع القصر وانتظروا في قاعة الاستقبال الكبرى إلى أن طافت إهلي نيكالو حول المجمر الهائل في وسطها، فصارت بذلك فرداً في العائلة المالكة. انتهزت كيا الفرصة وعانقت إهلي نيكالو بحب، هامسة لها في أذنها: «أهلاً بأختي!».

مر العريسان على طريقهما إلى الجناح الملكي بين صفوف من المدعوين الذين نثروا عليهما بمرح وروداً ولُباباً وتيناً مجففاً، وزودوهما بأمنيات الخلفة الغنية السعيدة. ثم حُطمت وراءهما الجرار لطرد العفاريت الذين قد ينوون بهما شراً. انتهى الموكب عند غرفة العرس. هناك رفع أكيزي حجاب زوجته الأبيض وناوله لأمه، ثم غطاها بحجاب آخر أرجواني اللون، إشارة إلى الاتحاد المنتظر للعذراء بزوجها أول مرة، ورمزاً في الوقت نفسه لثراء قطنا. ووسط هتافات الفرح والزغاريد انسحب العريسان إلى غرفتهما.

في خضم هذا الهرج والمرج لم تسنح الفرصة لكيا وتالزو لتبادل الكلام. لكن كيا، على كل حال، كانت قد رحبت بتالزو بودّ، عند لقائهما الأول في أول أيام العرس. كان امتعاضها منه قد تلاشى. إضافة إلى أنها قد أدركت أثناء بقائها لدى شالا، أنه محق تماماً

باتهامه إياها بالاستسلام لرثاء الذات. لذلك انتهزت دقيقة هدوء أثناء الاحتفال لتعتذر منه عن سلوكها المتجهم.

في اليوم التالي بعد العرس فُتحت أبواب القصر على مصراعيها لكل مَن شاء. فزواج ولي عهد قطنا يجب أن يكون مناسبة فرح وبهجة لجميع الرعية. جاءت وفود عديدة من جميع المناطق التابعة لمملكة قطنا، إضافة إلى بعض شيوخ البدو، وفي مقدمتهم إيدريمي المخلص. كما جاء حكام أو ممثلوهم من الإمارات المجاورة فاستُقبلوا بحفاوة ومُدّت لهم الموائد في قاعة الطعام. كان بينهم مجدداً نائب عبدي عشيرتا، ملك أمورّو. وفي هذه المرة لم يكن بوسع كيا إلا أن تظهر أمامه تلبية لرغبته وبحضور أبيها. رازها الرجل مدققاً، وإلى حدٍّ يكاد يخرج عن اللياقة. شعرت بنفسها مثل دابة معروضة لفحص صلاحيتها. وفي أثناء ذلك كان الملك يحادثه باحترام ويسأله عن حال ملك أمورو وعائلته، غير مصغ إلى الأجوبة المتذللة. كان عبدي عشيرتا يبحث عن زوجة، ومن المجدي أن يبحث أولاً في الإمارات والممالك المجاورة، عن مرشحات محتملات لهذه المكانة. أيمكن أن يكون هذا حلاً لها؟ فأمورو ليست بعيدة عن قطنا، لكن عبدي عشيرتا عجوز، أو على الأقل في عمر أبيها. اقشعرت كيا، وشعرت بالسرور عندما سُمح لها بالخروج.

وقف تالزو مستغرقاً في أفكاره قرب المدخل الجنوبي للقاعة الكبرى في خضم الزحام، ممتصّاً في نفسه كل ما يجري حوله. وكان مدعاة لسروره أن يرى كواري وكيا قادمين نحوه.

«هيا تعال، كفاك حزناً!». قال كواري، عارفاً بتبرّم صديقه من اقتراب موعد الرحيل، الذي لم يؤجله إحيا إلا بسبب العرس، وأردف: «اليوم سنبتهج ونحتفل! لنذهب لمشاهدة السحرة ولاعبي الخفة قليلاً، ثم نعود لتناول الطعام! ما رأيك؟».

سحبا معهما تالزو إلى خارج القصر، وكان مسروراً بذلك. بدت له كيا اليوم كما كانت عليه قبل لقائهما عند النهر. دار الحديث بينهم بانسياب، وكانت كيا فضولية كعادتها، فسألته عن تقاليد العرس في كيزواتنا. وفي أثناء ذلك كانت تصفق بحماسة لإعجابها بالألعاب البهلوانية وعروض الحيوانات. وكانت هناك فرقة من خادمات الحب تغني أناشيد إباحية مرافقة بحركات داعرة:

«كشجرة التفاح بين الشجر،
هكذا أرى حبيبي بين البشر.

كم أحب أن أجلس في ظله،
ليلتذ فمي بحلاوة ثمرته!».

صفق الجمهور المحتشد وطالب بالمزيد، وكانت سيدات الفرقة جاهزات لتلبية الرغبة، فغنّين:

«ساقية الخمرة حلوة،
وفرجها حلو مثل خمرتها،
وخمرتها حلوة مثلها!
وفرجها حلو مثل كلامها،
وكلامها حلو مثل فرجها.
وفرجها حلو مثل خمرتها!
خمرتها حلوةٌ الساقية!».

تطايرت التعليقات المازحة هنا وهناك في جو من الصفاء والتسلية والمرح.

وتدريجياً أخذ تالزو يتأثر بالجو الطيب السائد ونسي لبعض الوقت ألم الوداع. وانضم إليهم بعض الشباب ممن عرفهم تالزو في حلبة التمرين والمبارزات، وبعض صديقات كيا؛ فساد جو من التنكيت والمزاح والضحك، سيفتقده تالزو جداً في ترشا، فحزّ ذلك في قلبه. وعندما وقف مصادفة مع كيا جانباً، مد يده إلى جيب ردائه وأخرج منه بسرعة سلسلة ذهبية تحمل قلادة لها شكل عين حورُس، وقال لها بصوت خافت: «لا أدري إن كانت ستسنح لنا فرصة ثانية لنتحدث معاً بهدوء. وفي الواقع لم يعد هناك ما يقال. لكنني أريدك أن تعرفي أني دائماً سأفكر بك وبأكيزي وكواري وبجميع الآخرين في قطنا. أريد أن أقدم لك هذه التميمة، عساها تحميك من كل سوء. إذا واجهتِ أية شدة ورأيت أني قادر على إخراجك منها، أرسليها إلي، فسآتيك على جناحي نسرٍ حيثما كنت. هل ستفكرين بذلك؟».

«لا تبالغ تالزو. ماذا يمكن أن يحصل لي؟». قالت بلهجة رادعة وتابعت: «لكنني سعيدة جداً بهديتك. ستذكّرني بك دائماً، وعندئذ سأبكي حسرةً لافتقادي مَن أستطيع أن أتباهى أمامه بحكمتي وأتخاصم معه!». وضحكت، ثم وضعت يدها على ساعده وقالت: «حقاً سنفتقدك تالزو. شكراً لهديتك وآمل ألا أضطرّ أبداً إلى إرسالها إليك. بل أفضّل أن أكاتبك... بالمصرية!».

ها هي ذي شيطنتها التي يحبها. واختفت كيا في الزحام، إلى حد أن ظن تالزو أنها قد غادرت المكان، لكنها عادت فظهرت مجدداً وهي تشير إليه بحركة تآمرية أن يقترب منها. «أعطني يدك!». ووضعت في راحته شيئاً أحسّ أنه كالقماش، ثم أطبقت أصابعه عليه وهمست: «خبّئه فوراً، ولا تُره لأحد!». وأمسكت يده الأخرى وجذبته منها باتجاه حلقة الأصدقاء. ثم عاد الجميع معاً إلى القصر ليشاركوا العروسين في مأدبة الاحتفال.

3

من أواخر صيف 1353 إلى ربيع 1352 ق. م

اقترب موعد الاعتدال الخريفي، والشمس على وشك تجاوز خط الاستواء من الشمال نحو الجنوب. حان موعد إخراج البذار الجديد، وكذلك موسم الأمطار. لقد انتهى حصاد كل شيء تقريباً، ولم يبقَ سوى قطاف العنب، ومعه عيد الخريف الذي يبدأ في أول يوم من شهر (النبيذ الأول). كلّ مَن في المدينة وفي القصر أيضاً كان يجهز نفسه لعيد القطاف، ليشكر الأرباب على الأعطيات السخية التي قدمتها الأرض، وليقدموا لهم حصتهم من المحصول قرباناً.

كان الناس بانتظار البدر الذي تُفتتح به الاحتفالات الدينية. في هذه السنة بدا القمر أكبر وأقرب مما كان في السنوات السابقة. أكان ذلك فألاً؟ بشارة خير أم نذير سوء؟ كان الكهنة يراقبون السماء بعناية. في عشية ليلة البدر صعد إيداندا إلى سطح القصر، فيما صعدت كبيرة الكاهنات إلى سطح معبد الربة. ضحّى كلاهما لأعلى أرباب قطنا مقاماً، وتوسّلوا بركاتهم. وعلى جميع سطوح المنازل أقيمت من الأغصان بيوت للأرباب (عرزال)، ليقيموا فيها حيثما شاؤوا، كي يُكرموا المدينة أثناء أيام العيد.

وفي الكروم عند بدء القطاف، أقيمت كذلك مثل تلك البيوت من الأغصان، ولكن ليقيم فيها الملّاكون ومساعدوهم أثناء مدة القطاف، ليحموا عناقيد العنب من الطيور الجشعة. وفي منتصف الشهر يبدأ الاحتفال بـ (الترحاب) وتوزيع نبيذ (أول قطفة). والدورُ مزدانة كلها بأغصان الكرمة والورود. وفي المطابخ كان العمل على أشدّه.

كان عيد الخريف حالة فريدة في البذخ والترف، فطوال يوم بكامله يسود بذخ لا يوصف. في كل مكان تفوح روائح لحوم الغنم والبقر والسمك المشوية، إلى جانب كثير

من الخضار الطازجة والمسلوقة والمشوية، وأنواع الجبن والمعجنات والحلويات. وقد توزعت في كل مكان في المدينة سلال مملوءة بالفواكه الطازجة. وأنواع الجعة المختلفة لم تخمَّر من أجل الأرباب فحسب، بل لتُدخل السرور إلى قلوب الناس أيضاً. وإضافة إلى ذلك كانت هناك أنواع النبيذ الحلو والأقل حلاوة إلى جانب أنواع عصائر الفواكه وشرابات الحليب. ففي هذا اليوم تُفرد مِنَّة الأرباب كلها ليستمتع بها الجميع، في جو ممزوج بالموسيقا والرقص والضحك. وكل ذلك ليبعد عن الأذهان أن الموعد السنوي قد أزف لتسليم القصر حصّته من المحاصيل.

بالنسبة إلى كيا كان عيد القطاف هذه السنة ذا أهمّية خاصة. فهي تقيم منذ بضعة أيام في معبد الربة، مع بعض بنات الأعيان ممن جاءهن الحيض أول مرة خلال هذه السنة، لتحضير أنفسهن من أجل الطقوس التي تؤهلهن للقبول في مرتبة المرأة. وكان على البنات أداء خدمات مختلفة في معبد الربة. كان عليهن القيام يومياً بأفعال تطهرية، من اغتسال وصوم وتمارين ذهنية، ترشدهن فيها كاهنات المعبد. إضافة إلى تدريبات في دار الشفاء على أهم المساعدات في حالات الأمراض النسائية والحمل والولادة. وكانت هناك أوقات كذلك لأحاديث البنات وضحكهن معاً، بموافقة الكاهنات.

ثم جاء المساء المهم. فبينما كانت الاستعدادات الأخيرة لعيد القطاف تجري في المدينة على قدم وساق، اجتمعت البنات، بعد صيام يوم كامل. تلقّفتهن الكاهنات بغسل تطهيري جديد. في الأيام السابقة كان الاغتسال التطهيري عملية ممتعة. فالأحواض الكبيرة الموجودة في قاعة الحمام، المجهزة لهذا الغرض معمارياً، والمزينة برسومات رائعة، كانت تستقبل البنات ليتراشقن بالماء الفاتر الممزوج بزيوت عطرية ويسكبنه كلٌّ على مَن أمامها. أما مساء اليوم فقد كُتم الضحك وصمتت جميع البنات ليتركن عملية الغسل التطهيري تجري عليهن بجدية كاملة.

حصلت كيا على رداء أبيض بسيط، لتمثُل به من دون أي زينة أمام الربة، وقد رافقتها الكاهنة أمينابة عبر ممرات المعبد المنارة بسُرُج زيت صغيرة حتى بوابةٍ في الطابق الأول، ثم قالت لها: «هنا عليَّ أن أتركك وحدك، كيا. عليك أن تعبري الطريق بالاعتماد على نفسك الآن، كما في أمور كثيرة في مستقبل حياتك. ولكن كوني واثقة من أن الربة مسرورة بك، فلا تخشي شيئاً!».

بقلب خافق نزلت كيا الدرج الضيق والرطب. وتحت، تلاشت الإضاءة وكأن نسمة ريح قد أطفأت السرج. أهو قبر؟ في الظلمة تلمّست كيا خطواتها عبر دهليز ضيق. تناهت

إلى أذنيها أصوات غريبة وشمّت رائحة فريدة. أهي رائحة ليلك؟ أم رائحة عفن ونتَن؟ بعد قليل اتسع الدهليز إلى حجرة ذات إضاءة كابية غريبة. توقفت كيا وتيقّظت جميع حواسّها. هناك وكما من العدم انتصبت أمامها الربة، مثلما تعرفها كيا من تمثالها الأحمر المذّهب، وسط حُجُب من دخان البخور الكثيف. ارتمت كيا أمامها أرضاً وسترت وجهها بيدين مرتجفتين. وبقيت على هذه الحال. وتمدد في داخلها خواء هائل.

بدا لها أن ساعات قد مرت قبل أن تسمع صوتاً رهيفاً يأمرها: «انهضي كيا، يا ابنة قطنا! اشربي من هذا الدم رمزاً للربة». نهضت كيا بمشقة. كان تجلّي الربة قد اختفى، وبدلاً منه وقفت أمامها امرأة محجّبة مادة يدها إليها بقدح مملوء بسائل يتصاعد منه البخار. اجتاح كيا شعور بالغثيان لتصوّر أنها ستشرب دماً ساخناً، فترددت في أخذ القدح بيديها.

«اشربي!». أمرها الصوت. أكان هذا صوت الربة؟ أطاعت كيا ووضعت القدح بين شفتيها وارتشفت جرعة، فانتشر في جسمها دفء مريح، وعندئذٍ لاحظت كم كانت تشعر بالبرد. نشر الشراب حول رأسها عبقاً كثيفاً وكان طعمه لذيذاً. وبخشوع أفرغت القدح جرعة فجرعة، فيما تعتمل في داخلها أفكار وتصورات غريبة: صور أطفال، أحياء وأموات. صور نساء تضحكن وتبكين وتعولن. رأت نفسها مضطجعة على ديوان فاخر ببطن متنفخ وهي تعاني آلاماً واخزة.

«تعالي، اتبعيني إلى نور الحياة!». فتحت المحجّبة باباً وتقدمتها عبر دهليز مُنارٍ بمشاعل كثيرة. آلمت الإضاءة الشديدة عيني كيا، لكنها شاكرةً، تبعتْ دليلتها عبر أدراج ودهاليز حتى ردهة قاعة الطعام في المعبد. هناك رأت في انتظارها كبيرة الكاهنات وأمينابة وكاهنات أخريات مشاركات في الطقس، عانقنها مرحّبات وأحطن كتفيها بوشاحات صوفية تبعث الدفء. وفي قاعة الطعام كانت المائدة مزدانة بزهور خريفية. جلس الجميع وأمسكت كلٌّ منهنّ بيدَيْ مَن حولها، وأنشدن نشيد الربة، الذي تدرّبن عليه تمجيداً لها. رشّت شالا النساء اليافعات اللواتي أنجزن طقس قبولهن في عداد النساء، بماء مقدسٍ، ثم قُطعت أرغفة الخبز الطازج الفواح ليفطرن به مع حساءِ خضارٍ لذيذ وبعض الجبن. بعد ذلك أوصلتهن الكاهنات إلى حجرات النوم. كان بوسعهن غداً مغادرة معبد الربة للمشاركة في هرج عيد القطاف الكبير ومرجه، شكراً للأرباب. أما الليلة فسيمضينها مباركاتٍ تحت سقف بيليت إكاليم. وكن يعرفن ضرورة ألا يبُحْنَ بسرّ طقس قبولهن أبداً.

**

كان تالزو مستلقياً في سريره وعيناه تثقبان الهواء من شدة التحديق. مضت أيام قليلة منذ عودته إلى ترشا، فباتت تفصله عن قطنا أيام سفر طويلة عبر عوالم متعددة. كان يضم بين يديه الميدالية التي كانت تحيط بعنقه عادة، وحيث يجب أن تبقى طوال حياته، فهي أغلى ما يملك. سرحت أفكاره إلى ذلك اليوم الذي قدّم فيه أكيزي وإهلي نيكالو نفسيهما لأهالي قطنا عريسين جديدين، واحتُفل بهما في جميع أنحاء المدينة. كان يوم وداعه من كيا، اليوم الأشد إيلاماً وإسعاداً في الوقت نفسه، إذ إنهما لم يفترقا كصديقين فحسب؛ بل لقد دسّت له هدية خفيّة. وبالمقارنة معها بهتت القلادة التي أهداها إياها لتحميها. فهديتها كانت جزءاً منها، خصلة شعر، سيحفظها الآن بحوزته بصورة دائمة. كم كانت قريبة إليه. وكل تلك الأفكار المتعقلة بأن كيا يستحيل أن تكون له، وأن عليه أن ينساها بسرعة، ها هي ذي قد تطايرت كفقاعات. إنه مصرّ على أن يقوم بكل شيء من أجلها، فعسى أن يُثبت ذات يوم أنه لائق بها. لا شك في أنها تميل إليه نوعاً ما، وإلا فلماذا هذه الهدية: شعرها؟

لحسن الحظ وصلت القافلة الثمينة إلى كيزواتنا من دون مشاكل أو خسائر. والبضائع التي أحضروها معهم ستجلب ربحاً جيداً، هنا وفي حتّوشا أيضاً، إلى حيث سيشحن معظم البضائع. كان والده سعيداً بالعودة إلى الديار، بدا الأمر واضحاً عليه. وبهمة عالية أنجز جميع الأعمال المتروكة وراءه. فما كاد في حفل الاستقبال أن يحيي زوجته كالي وأفراد عائلته وأصدقاءه وشركاءه في التجارة، حتى التقى بمدير متجره للتداول في الأمور الملحة، وذلك قبل أن يغادر إلى أدانيا ليرفع تقاريره المنتظرة في القصر هناك.

بعد الوصول مباشرة تحدث الزوجان بشأن تالزو. وبعد استقبال أمه الحنون له أحاطته علماً بموافقتها على جميع ما خطّطه له والده، ثم انسحبت لتضحّي للأرباب امتناناً لعودة أحبائها سالمين. أما تالزو فكان مصمماً على ألا يكون تاجراً، وفي الوقت نفسه لم يرَ الحل في رفض المهمات التي كلفه بها والده. لا بدّ إذاً من إيجاد طريقة لجعل والديه يتفهمانه، فيحررانه من هذا العبء، ويزودانه ببركاتهما على طريق مستقبله.

منذ مدة طويلة، وخاصة منذ إقامته في قطنا، استغرب تالزو أنه لم يسلك درب التعليم والتأهيل المناسب لمكانته الاجتماعية. فأمه أولاً وآخراً تنتمي إلى السلالة الحتّية المالكة. فكان المنطقي أن يُرسلَ إلى البلاط في حتّوشا، كالعادة في ما يتعلق بأبناء العائلة المالكة الأقربين والأبعدين أيضاً منذ سن معينة، ولا سيّما أن كيزواتنا متحالفة مع مملكة حتّوشا منذ مدة طويلة.

بعد أسابيع قليلة ستقام احتفالات كبرى بمناسبة رسم تِليبينو، الابن الثاني للملك

شوبيلوليوما كاهناً أكبر في كيزواتنا، ونائباً له في أدانيا في الوقت نفسه. ولكن من الواضح أن أمه لا ترغب في اختلاطه بأسرتها، ولا والده كذلك، فهو لم يأخذه معه ولا مرة واحدة نحو الشمال، رغم كثرة رحلاته التجارية إلى تلك المنطقة. لقد حكت له أمه كثيراً على مدى سنوات عمره عن حتّوشا، كما ذكرت بعض الأمور المتعلقة بأسرتها. لكن ما يلفت النظر هو أنها لم يأتها أي زوار من وطنها؛ بل مجرد رسائل وأخبار عن طريق المراسلين، علماً بأنها تشعر بشوق كبير إلى أهلها ويحنين إلى حتّوشا، بيد أن هذا الحزن كانت تكتمه في حناياها وتبثّه لأربابها.

لا شك في أن أشهر أفراد أسرتها هو أخوها الأكبر هَنّوتي الذي رُفِّع في عهد الملك شوبيلوليوما، إلى مرتبة القائد العام للجيوش الحثيّة. وتعبيراً عن تقديره العالي له، عيّنه الملك حاكماً على أرض الجنوب الواسعة جنوبي بحيرة تاتّا المالحة، مع امتدادٍ شرقي وغربي كبيرٍ، حدوده الجنوبية المشتركة مع كيزواتنا هي جبال طوروس، والشمالية تلاصق مركز المملكة الحثيّة. تتمتع أرض الجنوب بالنسبة إلى مملكة حتّوشا بمكانة خاصة، لا سيّما أن العرش الحديديّ للملوك الحثّيين قد خرج من عاصمتها پورّوشْخندا، وكذلك الصولجان رمز سلطة الملك. لقد حُكي الكثير حول الحديد. فالشائعات عن مواصفاته التي لا تضاهى تسري في كل مكان. وتالزو يعرف أن بعض المواد الخام الضرورية لصنع هذا المعدن موجودة في جبال كيزواتنا أيضاً. وقد أتقن الحدادون الحثيون صناعة سلاح منه أقسى من الأدوات القتالية البرونزية المعتادة. وفي الخارج كان الناس يسمّونه: السلاح الحثيّ العجيب. أما طريقة صنعه فهي سر المملكة المصون. ومن يخون السر، عقابه الموت.

أعاد تالزو تعليق الميدالية حول رقبته وأخفاها تحت ردائه. نهض وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. ماذا عليه أن يفعل الآن؟ كانت أفكاره تدور في حلقة مفرغة. ثمة ما هو غير صحيح، ثمة ما أخفي عنه، ولكن ما هو؟ لم تسعفه الأسئلة في الاقتراب من حل. لا شك في أنهم في قطنا أيضاً سيحتفلون قريباً بعيد الخريف. وبصورة عفوية ذهبت أفكاره إلى كيا ثانية. كيف كانت ستتصرف؟ لقد نصحته بحزم بأن يصارح والديه ببساطة بعدم اهتمامه بالتجاره وما يرتبط بها. لكنها تدرك من وضعها الخاص أن على المرء واجبات، وأن السلوك الفردي غير ممكن. لماذا الأمور كلها على هذه الدرجة من الصعوبة؟ يحتمل أن يكسب أمه قليلاً إلى صفه بشأن خططه. ولا شك في أن والده سيصغي إلى رأيها، فهو

يعاملها بفائق الاحترام ويلبي كل طلباتها، على قلّتها. فكر باللحظة المناسبة لمفاتحتها، ثم قرر أن يزورها فوراً في مخدعها. كان الوقت قد تجاوز العصر، ووقت القيلولة قد انتهى.

يقع جناح أمه في الطابق العلوي من الدار الواسعة، وقد امتدت أمامه على السطيحة حديقة بديعة مملوءة بمختلف النباتات، تمنح الناظر إطلالة نصف دائرية من السهل في الشرق إلى البحر في الجنوب فإلى الجبال في الغرب، وغالباً ما كانت تتخللها نسائم منعشة.

فاجأت زيارة تالزو أمه وأدهشتها. دعته إلى مجلسها على السطيحة، حيث كانت تقوم بأشغال يدوية. كانت كعادتها تجلس هناك وحدها، مفضّلة ذلك على صحبة السلائف والصديقات والخادمات المقربات. صبّت له كأساً من عصير الرمان ومزجته بماء بارد وجلست على مضجعها بشكل مريح، ثم سألته: «ما الذي يحزنك يا بني؟».

وكعادته في حضرتها غمره شعور بتأنيب الضمير. ألا يأتي إليها إلا عندما يحتاجها في أمر ما؟ لا، حتماً لا، هدّأ من روعه فوراً.

ابتسمت كالي لابنها وهي تقول: «أقرأ في محياك أنك تريد إخباري بأمر ما. هل فكّرت بالاقتراحات بخصوص زواجك؟». وعندما لاحظت رد فعله الصادّ، أردفت بسرعة: «لا داعي للتسرع في أيٍّ من الأمور!».

«أماه، لا يمكنني أن أتزوج قبل أن أقف على قدميّ مستقلاً بذاتي!».

«لكنك على الطريق إلى ذلك. ما إن تصبح على بيّنة من أمرك في خيارك، حتى يزودك والدك طبعاً بكل ما هو ضروري، سيزودك بمكان إقامتك مع عائلتك المستقبلية، وسينظم أعمال المتجر بينكما، بحيث توفر لأسرتك الدخل اللازم. لا تشغل بالك بهذه الأمور!».

«ولكن ألا تدركين أني أريد أن أحقق شيئاً بنفسي؟».

نظرت إليه أمه بذهول وسألته: «ماذا تقصد بذلك؟ من الطبيعي جداً أن يحذو الابن حذو أبيه. ووالدك أيضاً لم ينشئ المتجر بنفسه، ولا حتى والده. منذ أجيال كثيرة ينضج الأبناء شيئاً فشيئاً بإنجازهم مختلف الأعمال التي يكلفون بها، إلى أن، ذات يوم بعيد - أبعده الله ما أمكن عن والدك - يستلمون شؤون المتجر بأنفسهم».

«أماه، أنا لا أشعر بنفسي مناسباً لإدارة متجر!».

«لكنك لست بحاجة إلى ذلك الآن. أنت ما زلت تتعلم!».

«أنا ببساطة لا أستمتع بالشراء والبيع!».

«وما أدراك منذ الآن؟».

«لقد أمضيت عدّة سنوات أشتغل إلى جانب والدي، وأظن أنه صار بإمكاني أن أحكم، ما إذا كنت أقوم بهذا العمل بحماسة أم لا!».

«وهل هذا هو المهم؟ أسرة والدك تُعدّ هنا في ترشا، بل في كيزواتنا كلها، وحتى فيما وراءها، من أعرق العائلات المرموقة. من ذا الذي يسأل عما إذا كان الشغل ممتعاً؟ إنه واجبك. وأنت الابن الوحيد! هذا سيكسر قلب أبيك، فهو في جميع أعماله لا يفكر إلا بك وبمستقبلك. تالزو، أناشدك ألا تخيّب أمل أبيك! احترم رغباته! لا تجعلني تعيسة ولا تتعس نفسك! كم كنت أرغب في أن تلتحق بسلك الكهنوت. ولكن منذ البداية كان جلياً أن الأمر مستحيل، فأذعنت ورضيت. سترى بنفسك، عندما يصير عندك زوجة وأولاد، ستدرك لمن تشقى. لا تختبر صبر الأرباب الذين أنعموا عليك حتى الآن وباركوك. ما الذي جرى لعقلك؟ إني لا أفهمك أبداً!».

بذلت كالي جهداً لتقاوم دموعها. كان صدرها يصعد ويهبط، وجسمها الرقيق كله يرتجف. كم أسف تالزو لحالها، وبصورة عفوية أمسك يديها بيديه وقال: «أرجوك يا أمي، اهدئي. سترين أن الأمور كلها ستسير بخير. سامحيني لإزعاجك بهذا الشكل. لم يكن قصدي أن أربكك. اعذريني!».

نهض وانحنى لها وغادر. لا، إنها لن تسانده. إنها ليست قوية كفاية لخوض معركة مع والده لمصلحته، كما أنها لم تتفهّم دوافعه. لم تسأله أي سؤال عن دوافعه، حتى أنها لم تفكر بسؤاله عما يريد أن يعمل بدلاً من التجارة. كانت تصارع من أجل سكينة نفسها، فكل ما يهدد هذه السكينة يصيبها بخوف مريع. تألم تالزو لإدراكه ذلك، وشعر بأسف عميق لعجزه عن مساعدتها. وعلى الرغم من ذلك، كان أشد ثقة من أي وقت مضى، بأن عليه أن يعيش حياته، أن يجد طريقه ويسير فيه بنفسه، وإن كان ذلك سيؤلمه ويؤلم والديه. وعلى طريقه إلى غرفته خطرت في باله فجأة فكرة الخلاص، التي ستقرّبه على نحو جلي من أهدافه.

**

بمناسبة عيد نونتارياشا (عيد السرعة) الذي يدوم ثمانية وثلاثين يوماً، سيقوم الملك شوبيلوليوما مع زوجته هِنْتي بزيارة كيزواتنا لأول مرة. ففي كل خريف على الزوجين

الملكيين أن يتجشما عبء الترحال طوال ما ينوف عن شهر، للاحتفال مع المملكة بأسْرها ببداية فصل الخريف وعيد الشكر، بعد جمع المحاصيل، متنقلين دون هوادة من مدينة إلى أخرى للقيام بواجبهما هنا وهناك بصفتيهما كبيري كهنة الأرباب المتعددين في المملكة. والتنفيذ الدقيق الصحيح لتعاليم العيد هو ما كان يضمن حماية الأرباب للبلد كلها وللعائلة الملكية، ويضمن خصوبة الأرض والحيوانات وانتصار الجيوش الحتيّة ورفاه الجميع.

كيزواتنا هي المحطة الأخيرة في الرحلة الملكية التعبدية. وفي أثناء عيد الخريف، بحضور الزوجين الملكيين وولي عهد أرنواندا وعدد كبير من أصحاب النفوذ والوجهاء، سيُحتفل في أدانيا باستلام تلييينو منصبه الجديد، ممثلاً لملك حتّوشا. كانت كيزواتنا في حالة تأهب كبرى، وكذلك الحال في دار إحيّا، توقعاً لقدوم ابن حميه وصديقه هنّوتي للمشاركة في الاحتفالات. وبهذا فإن كالي سترى أخاها بعد سنوات طويلة، وسيتعرف تالزو على أحد أخواله.

كان لا بدّ من التحضير لثلاثة احتفالات في الوقت نفسه، فالاحتفال بعيد الحصاد والشكر لأرباب كيزواتنا، الذين باتوا أعضاء في مجلس الأرباب الحتي، لا يجوز أن يُهمل في موطنهم بأي حال من الأحوال. فخُطّط له كخاتمة للاحتفالات بعد أن يغادر أدانيا ضيوفُها.

قبل أي أمر آخر، وبعناية فائقة دُرست التعاليم الحتيّة الكثيرة، والمجهولة في كيزواتنا حتى الآن. فعند تقديم القرابين لا يجوز أن يقع أي خطأ، لذلك لا بدّ من ترتيب كل خطوة على حدة، حتى وصول العربة الملكية. لكن هموم ملك كيزواتنا وطاقمه التنظيمي كانت غير مبررة، ففي أدانيا كان قصر المعبد قد أُخلي، بحيث تم توفير أماكن إقامة العائلة الملكية والموظفين والوجهاء، وطاقم خدمات العبادة كاملاً، من كهنة وسُقاة وطُهاة ونُدُل وموسيقيين ومغنين وراقصين، على خير ما يرام. وعند وصول الموكب إلى المدينة، تجمهر السكان القادمون من جميع أنحاء البلد، على نواصي الشوارع المزدانة بالورود مُهيّئين له استقبال المنتصر.

كانت أبرز مراحل عيد الحصاد، تقديم القرابين للأرباب، الذين نصبت تماثيلهم في الباحة الداخلية للمعبد الرئيسي. وما كان يجوز دخول هذه الباحة إلا لعدد من المختارين، الذين خضعوا قبل ذلك لغسل تطهيري صارم. وكان إحيا واحداً من عائلات قليلة في كيزواتنا حازت هذا الشرف. كانت مذابح المعبد مغطاة بالمأكولات المُعَدّة قرابين: لحوم

حيوانات داجنة وطرائد برية، أنواع لا تحصى من الخبز والفواكه والخضار والأجبان والعسل. وكان السُّقاة الراكعون أمام المذابح والتماثيل يصبّون النبيذ والجعة في أباريق نحيلة يوزعونها على مقدّمي القرابين.

ارتدى الملك شوبيلوليوما والملكة هنتي رداءيهما الرسميين الباهرين والخاصين بهذا الاحتفال، ومدّا أيديهما فوق جميع الأضاحي، ليُريا الأرباب مَن الذي أعدّ لهم هذه المائدة العامرة، ثم أجريا معاً مراسم الشراب التي يحظيان بها على جوهر الأرباب الخارق، الذي يرتدّ خيراً على البلاد. كانت الموسيقا مع الغناء مرافقين صادحين طوال الطقوس المقدسة، قيثارات وأعواد، وطبول وصنوج وخشاخيش، وأبواق ومزامير خلفية للتراتيل ولصلوات الملك والملكة. اختتمت الطقوس بمأدبة ترمز لاتحاد الأرباب بالبشر، دعي إليها كل من كالي وإحيا وتالزو أيضاً، أعقبتها رقصة جماعية قادها راقصو الاحتفال.

عاش تالزو ذلك كله كما في حلم، وقد تركت فيه الطقوس أثراً عميقاً. أكانوا فعلاً بشراً، أولئك الذين أدّوها؟ لقد غطى وجهه أكثر من مرة خشوعاً وتهيباً، واستقرت الموسيقا والتراتيل في قلبه. ليت كيا كانت إلى جانبه، ليعيشا معاً هذا العيد. على الرغم من روايات أمه وأحاديث أبيه، لم يكن لديه أي تصور عن البهاء الذي يحيط بملك حتّوشا دائماً وحيثما حلّ. في سياق الاحتفال بدّل الملك والملكة ملابسهما عدّة مرات، وبضمن ذلك الأحذية، ليتبدّيا في ألوان زاهية مختلفة. لقد تمكن بسهولة من متابعة التراتيل باللغتين الحتّيّة والحورية، بيد أن كثيراً من الأدعية والأناشيد أُدّيت بلغات لا يفهمها. يا له من دودة صغيرة! ومع ذلك كانت رغبته جامحة للالتحاق بخدمات هذا الملك.

لم يفصل بين الاحتفال وتسلُّم تليبينو منصبه سوى أيام قليلة، كانت الأكثر أهمّية في حياة تالزو حتى الآن. وفي أثناء التحضيرات الرسمية انتهز الملك والملكة الفرصة لتبادل الحديث بصورة منفردة مع عائلات أعيان كيزواتنا. وكان من أول مَن استُقبل عائلة كالي وإحيّا ومن يتبعهما، بسبب صلة القرابة مع العائلة الملكية الحتّيّة.

قبل ذلك قام قائد الجيوش بزيارة أخته وصهره في دارهما في أدانيا. بدا لتالزو مثل بطل متألق، عندما وصل مع رجال مرافقته وقفز مترجّلاً من عربته مليئاً بالتوثب والقوة، وخطا نحوهم بخطوات نشيطة واسعة. كان طويل القامة رشيقها، إلا أن دلائل التدريب العسكري كانت بادية على عضلاته المشدودة، أما وجهه الحليق المعرّض لعوامل الطقس

بصورة دائمة فقد بدا رغم ذلك لطيفاً، مع شيء من الخبث، حسبما تدل التجاعيد المحيطة بجانبي عينيه وفمه. وكان شعره بنياً داكناً ذا تموج خفيف، منضبطاً بعصابةٍ تؤكد عرض جبهته. كان يزيّن أذنه اليسرى بقرط ذهبيّ، ومعصميه بسوارين عريضين. كان يرتدي تنورة المحاربين القصيرة، ومن دون أي رتبة عسكرية، ولا يحمل سوى سيف في غمد حزامه.

لم يبالِ بالرسميات بل عانق أخته كالي بحب وحنان، في حين كان لقاؤه بصهره رسمياً إلى حدٍ ما، ولكن بكثير من الود والصداقة.

«وها هو ذا ابن أختك تالزو!».

التفت هنوتي إلى تالزو، الذي حيّا القائد والخال بكل التبجيل والاحترام الواجبين. شكره هنوتي بهزة رأس قصيرة والتفت فوراً إلى أفراد العائلة الآخرين.

في باحة الدار قُدمت مشروبات منعشة، فيما وقف تالزو جانباً يراقب المشهد. تابعت أمه باهتمام حديث الرجلين عن حملات الصيف الماضي. وخلاله وصف هنوتي مصاعب وعورة الشمال الجبلي، وفصّل في وصف أسلوب قتال الكشكيين الأعداء، الذين غالباً ما كانوا يزعجون المملكة بغزواتهم، وكيف تمكن الجيش الحتي هذه المرة من كسر شوكتهم.

«ماذا فعلتم بهم؟ هل سحقتموهم؟». سأله إحيّا.

كان تالزو ينصت مأخوذاً. فهذه حياة مختلفة تماماً عن الحياة في المتجر، علماً بأن حياة الجندي لا تثيره، فقتل البشر كان يُشعره بالاشمئزاز. لكن خاله أكد بوضوح أن ملك حتّوشا يفضل استخدام أساليب تفاهم مختلفة مع الآخرين، غير اللجوء إلى الحرب. وكيزواتنا مثال ساطع على ما يمكن التوصل إليه بالمعاهدات.

عندما نهض الجميع انتبه تالزو من شروده. أيريد هنوتي الذهاب؟ لا، بل انسحب الرجلان لحديث خاص. اقتربت كالي من ابنها وسألته: «هل أعجبك هنوتي؟ لا حاجة لطرح السؤال أساساً، فقد رأيت عينيك المليئتين إعجاباً. هذا مفهوم جداً، فهو إنسان يستحق الإعجاب! سنتناول العشاء معاً!». والتفتت مغادرة.

تُرك تالزو لشأنه، وكان ضمنياً مسروراً بذلك. ذهب إلى غرفته وأرتج الباب وراءه. لقد غادر ترشا حاسماً أمره، وهو يعتزم الآن تنفيذ هذا القرار. تخوّف في البداية من الصعوبات المحتملة الظهور، أما الآن فيبدو كل شيء ممهّداً. ففي أثناء الاحتفالات التقى تالزو عدّة مرات بضابط صفٍّ من الكتيبة الملكية، وفي عمره تقريباً، يدعى مورسيلي، وهو شاب

بالغ اللطف، وجد فيه تالزو جليساً جيداً. ومورسيلي هذا من سكان مدينة حتّوشا نفسها وسليل عائلة من الكتبة. لكنه شخصياً أكثر ميلاً إلى الخشونة العسكرية. وحكى لتالزو أنه تدرب في حتّوشا تدريباً قاسياً، الأمر الذي لا يثير اهتمام تالزو، مثلما تثيره أمور الحياة في المدينة، ولا سيّما في البلاط، وهو ما أكثر من السؤال عنه، إلى حد أن استغرب مورسيلي إلحاحه، فسأله: «لماذا تريد معرفة كل شيء بدقة؟ يكاد يعتقد المرء أنك جاسوس!».

ضحك تالزو وسأله بدوره: «كيف خطرت ببالك هذه الفكرة؟ لماذا ولصالح من سأتجسّس؟».

«وما أدراني؟ لم أفكر بالأمر. ثم إنك تبدو إنساناً شريفاً!».

«سأخبرك بالسبب الحقيقي، إذا وعدتني بألا تشي بي!».

«ما هذا التشويق! سأغلق فمي، أعدك بذلك».

وبناء على ذلك حكى تالزو لصديقه الجديد عن خطته. فأطلق مورسيلي صفيراً عبر أسنانه وقال: «تبدو عظامك قوية يا رجل. من وجهة نظري يبدو الأمر مجازفة خطيرة، ومجهدة جداً. ولكن إذا كنت حقاً مصمّماً، سأساعدك بكل ما بوسعي».

وبكل عفوية عانق تالزو مورسيلي تعبيراً عن شكره العميق. واتفقا على أن يغادر تالزو أدانيا إلى جانب مورسيلي في إحدى عربات المتاع الحثيّة. وكان تالزو قد أخذ معه من ترشا، إضافة إلى ثيابه الضرورية للاحتفال بعض الأشياء العزيزة على قلبه، وهرّبها في صناديق القافلة إلى أدانيا مع كيس متين، وضع فيه حاجاته الشتوية والأحذية. كان قد سلّم بعضها لمورسيلي، أما ما تبقى فقد حزمه الآن في صرة لتكون جاهزة عندما تتحرك عربات المتاع، لتغادر أدانيا عقب تنصيب تليبينو. وفجأة قُرع باب غرفته وسمع صوت إحيا يناديه:

«تالزو، لماذا تُرتج باب الغرفة؟ ما هذا السلوك الأخرق! افتح!».

بسرعة مدّ تالزو غطاء على حاجاته. سحب المزلاج وفتح الباب ليرى لدهشته هنوتي مع والده.

«كنت سأرسل في طلبك، لكن خالك أصرّ على زيارتك في غرفتك».

انحنى تالزو احتراماً للضيف الكبير، الذي يريد الانفراد به، حسبما ألمح إحيّا. وقفا متقابلين صامتين وراز كلٌّ منهما الآخر.

«لفت انتباهي أنك لم تكن راضياً عن لقائي بك. أردتُ أن أراقبك قليلاً، فهذا على أية حال هو أول لقاء بيننا منذ طفولتك!».

جلس هنوتي على كرسي واطئ وسحب آخر لتالزو وهو يقول:

«سيكون هذا لقاءنا الخاص الوحيد في أدانيا، وأردت أن أستغلّه لأشكّل لنفسي انطباعاً عن ابن أختي. وما أراه على ما يبدو ينال استحساني!». وابتسم ابتسامة رضا.

في البداية شعر تالزو بأن خاله آتٍ لينتقده، بيد أن كلماته الأخيرة ملأته فرحاً.

«حدّثني عن نفسك!». قال له القائد مشجعاً، فحكى تالزو باختصار عن حياته وعن المعيشة في ترشا وعن الرحلة إلى قطنا. تركه هنوتي يسترسل، وكان بين الحين والآخر يهز رأسه.

«وما هي خططك؟».

تردد تالزو. هل يخبر خاله بخططه الحقيقية؟ وبينما هو يبحث عن الكلمات، أردف هنوتي: «أعرف المتجر في ترشا جيداً، وأعرف أهمّية أن تكون قريباً من أمك. لا شك في أنك ستكون سنداً عظيماً لإحيا!».

«بالتأكيد!».

إذاً، من طرف الخال أيضاً لا مجال للمساعدة. ويبدو أن هنوتي لم يتنبه لتبدّل مزاج ابن أخته، فتابع: «حدّثني عن أمك. كيف أحوالها؟ كيف تعيش؟ أهي سعيدة؟».

الواضح أن هنوتي لا فكرة لديه عن أخته، فكّر تالزو وقد امتلأ فجأة بنوع من العقوق الغريب عنه، أو أنه لم يعد يأبه للأمر. بماذا يجيب؟ وأخيراً قال: «إنها في رعاية الأرباب!».

«يا له من جواب لبق!».

أشابَ الملاحظةَ شيء من السخرية يا ترى؟ لم يكن تالزو متأكداً من موقف خاله، الذي نهض: «لنكتفِ بذلك الآن. سنلتقي على مائدة العشاء!».

هل اكتفى القائد الكبير من الحديث مع ابن أخته الصغير؟ هل تصرّف تالزو بصورة خاطئة؟ هل قال ما لا يجب؟ ربما لم يجد فيه ببساطة ما يثير اهتمامه كفاية. إذاً، لنكتفِ حقاً بذلك – فهو على أية حال لن يكون عائقاً في طريقي.

كان الجميع منهمكاً باحتفال تنصيب تليبينو، الذي أقيم في القصر بفخامة. كان الملك شوبيلوليوما والملكة هنتي يرتديان حلّتين بهيّتين، وتليبينو كذلك. على جانبيهما وقف كبار الشخصيات القادمة مع الموكب الملكي، وإلى جانب الملك مباشرة وقف القائد العام لجيوشه وقائد عرباته القتالية هنوتي. سلّم ملك حتّوشا العظيم ابنه شارات السلطة

الحثيّة لمنصب حاكم مدينة، ونبّهه أمام حشد الشهود إلى واجباته، وجعله يقسم مراراً على التقيد بها وتنفيذها.

ومع تليپينو عُيّن طاقم مساعديه في أداء واجباته.

بعد المراسم الاحتفالية أتيحت لأعيان كيزواتنا الفرصة للتعبير عن سعادتهم ومباركتهم للحاكم، وعن ولائهم وتبجيلهم للعائلة المالكة الحثيّة. فتقدم معهم أيضاً إحيّا وكالي وتالزو وأفراد آخرون من الأسرة. عندئذٍ، وخلافاً للتقاليد الرسمية، التفت الملك إلى هنّوتي المدهوش. ظن تالزو أن الأمر يتعلق بصلة القرابة بين هنوتي وكالي، فقد أشار لها الملك كي تقترب منه، وطلب إليها رفع الحجاب عن وجهها، دقّق النظر فيه ملياً ووجّه إليها عدّة كلمات. بدا إحيا مرتبكاً، ولكن من دون أن يطرأ على وجهه أي تغيير. لو لم يكن تالزو شبه شارد لانتبه إلى أن الملك قد دقق النظر في وجهه أيضاً. أما وهو في هذه الحال فإنه لم يولِ الأمر كبير اهتمام. لقد كان مشغولاً بأمور أخرى.

أحس بنفسه ممزقاً داخلياً. عربات المتاع الملكي جاهزة خارج بوابات المدينة للانطلاق غداً باكراً إلى حتّوشا، ومعها مورسيلي وتانُوّا.

تانوا هو الاسم الذي اختاره تالزو لنفسه في حياته الجديدة. في أثناء المأدبة الاحتفالية لن ينتبه أحد إلى غيابه. ولقد نقل رزمة حاجاته في ستر الليل إلى إحدى العربات، ومن ثم سيغادر المدينة مع مورسيلي ليمضي بقية الليل حتى الفجر في خيمته. يمكن للمغامرة أن تبدأ. أما نصفه الآخر فإنه مليء بالحزن. فإذا كان في نرشا قد ودّع أحباءه بشيء من السرية، فعليه هنا في أدانيا أن يفترق عن والديه، أن يتركهما خفيةً، وينسلّ من دون بركاتهما. لم يعد أمامه سوى الاعتماد على الأرباب، فإن كانوا ينوون له الخير فستكون كل الأمور الأخرى على ما يرام. ضمّ بكفيه ميدالية الشَّعر وفكّر: كيا، لا رجعة عن القرار!

**

بينما كان الناس في جميع أطراف كيزواتنا يجهزون أنفسهم للاحتفال بعيد الحصاد المحلي، تمجيداً للربتين إشهارا وإشتار، ولربّي القمر والشمس، والأرباب هَلْما وشَنْغَرا وتوهيترا، كان ضيوف الاحتفال الرسمي الحثيون قد رفعوا خيام معسكرهم. فحُمّلت دواب النقل وتحركت عربات المتاع مغادرة أدانيا على الطريق إلى الجبال الشمالية بمحاذاة الضفة اليسرى لنهر سَمْرا، لتنعطف من ثم نحو الشمال الغربي لتعبر وادي نهر

آخر. حتى الحاشية الملكية وعلى رأسها الملك والملكة كانوا على وشك مغادرة أدانيا عائدين إلى موطنهم في حتّوشا. كان هنوتي يوجه تعليماته الأخيرة إلى جماعته، عندما أخبره رسول بأن ثمة من يريد مقابلته الآن في باحة المعبد الأولى. ولدهشته أشارت له امرأة في حجاب كامل، تبدو من عائلات الأعيان، حسبما لاحظ من ثيابها، وكانت واقفة في زاوية الباحة.

عندما ردّت المرأة الحجاب عن وجهها، أصيب هنوتي بالدهشة ثم قال: «كالي! لماذا بهذه السرية؟». ثم انتبه إلى أنها تبكي، فأردف: «ما الذي جرى، كالي؟».

«تالزو اختفى، هنوتي!».

«وما الغريب في ذلك؟ إنه شاب حر، وله بالتأكيد مشاويره الخاصة بين الحين والآخر!».

«هذا أمر طبيعي. لكنه عادة يخبرني أو يرسل إليّ مَن يخبرني. هذه المرة الأمر مختلف. أنا متأكدة!».

«وما الذي يدفعه إلى ذلك؟».

«أظن أن لدي ما يفسّر ذلك نوعاً ما. انظر، تالزو وإحيّا لم يتقاربا إلا بصعوبة، وهذا منذ البداية. إنهما من طبيعتين مختلفتين تماماً. إحيا بذل جهده في رعاية الصبي وهيأ له تعليماً جيداً، ثم أدخله في أعماله التجارية. لكن تالزو لا يهتم بالتجارة. صحيح أنه يبذل جهده، لكنه لن يحقق تصورات إحيا عن شريكه وخليفته أبداً، وكثيراً ما كان إحيا ينتقد سلوكه، وأحياناً من دون مبرر. وبين الحين والآخر قد تصل الأمور بينهما إلى حد الشجار، وهنا لا بدّ من أن أعترف بأن تالزو كان يتراجع من أجل خاطري فقط، ويقبل الاتهامات الموجهة إليه بصمت. لكن هذا تغير بعد عودته من قطنا، فقد صار إحيا بالغ الصرامة تجاهه. لا بدّ أن ثمة ما حدث إما في قطنا نفسها وإما على طريق العودة. كما كلفني إحيا بالتفكير والبحث عن صبية مناسبة للزواج بتالزو. وتالزو من جهته لم يعد يتراجع عن موقفه إذا حدث نزاع بينه وبين إحيا. بدا لي بعد الرحلة وكأنه قد تغير إلى حد كبير، نضج من ناحية، لكنه بات كثير الشرود من ناحية أخرى، وكأنه في مكان آخر في أفكاره وليس هنا!».

«لا شك في أنه قد خاض تجارب كثيرة. ثم إنها أول رحلة طويلة بالنسبة إليه، والطبيعي هو أن يتغير. أم أنك ترين سبباً آخر لذلك؟».

«إحيا يقول، إن البلاط في قطنا، حيث استُقبل تالزو بودّ كبير، ليس من قبل وليّ العهد

وحده، بل من إخوته وأخواته أيضاً ومن أبناء الأشراف والأعيان كذلك، قد فتل رأسه كلياً، ولم يعد يريد أن يصبح تاجراً. كما أن لابنة الملك دوراً في القصة أيضاً!».

«آها، من هناك تأتي الريح إذاً. ولكن بصراحة كالي، أتعتقدين أنه يتصرف مثل فحل الإوز العاشق، وأنه الآن على طريقه إلى قطنا؟».

هزت كالي رأسها نفياً: «لا، معك حق، لا أعتقد ذلك. ثمة شيء آخر، أود أن أخبرك به. تالزو جاءني قبل فترة قصيرة، وصارحني بأنه لا يريد استلام المتجر بأي حال من الأحوال».

«وإنما؟». قاطعها هنوتي.

«كلامه أرعبني جداً، فخشيت أن يتحطم كل ما بنته العائلة بجهد حثيث، لدرجة أني لم أسأله عندما طلب مني مساندته في مواجهة والده. لكنني أعرف ولعه باللغات الأجنبية وأنه يتعلمها بسهولة مدهشة، وأنه مغرم بالأعمال الكتابية. إنه سريع البديهة في ربط الأمور بعضها واستنتاج العلاقات في ما بينها، وهو ذو طبيعة متوازنة. أراد بأسلوبه الحذر أن يعرف مني سبب عدم إرساله إلى البلاط في حتّوشا ليتلقى تعليمه، ولماذا لم يتعرف على عائلتنا حتى الآن، واستغرب ألا يزورنا أحد قط من الشمال. إنه يتساءل كثيراً، هنوتي، أتفهم؟».

أخذت كالي تذرف الدموع من جديد وهي تقول: «القلق يقتلني خوفاً من أن يكون قد أصابه مكروه، هنوتي. إنه وحيدي وكل شيء في حياتي. ولا حاجة بي أبداً لأن أذكّرك بأنه طفل خاص جداً. أرفض أن أصدق أنه ملعون، ما دام الأرباب قد زوّدوه بهذه المواهب. لقد خبِرتَه أنت الآن. هو قوي البنية ولطيف المعشر جداً..!».

«لا أظن أن مكروهاً قد أصابه، إلا إذا كنت تشتبهين بشيء ما. أهناك من يريد أن يؤذيه أو أن يؤذيكم؟».

هزت كالي رأسها نفياً.

«إذاً فكّري كالي. هل قال شيئاً آخر يمكن أن يساعدنا؟».

«هل لاحظت كيف كان ينظر إليك وكله إعجاب بك؟ وهو معجب أيضاً بالقصر في حتّوشا، وغالباً ما عبّر عن تطلعه إليه. إنه يتقن اللغتين الحثيّة واللويّة. ينتابني إحساس بأنه معكم على الطريق إلى حتّوشا. لست أدري كيف دبّر الأمر. ولكن لم يخطر ببالي أي حل آخر».

هز هنوتي رأسه وهو يقول: «هذا محتمل. فهو لن يلفت النظر ضمن هذه المجموعة الكبيرة».

«عدني بأنك ستبحث عنه، وأرسل إلي فوراً مَن يخبرني عندما تجده. اقسم لي بترهونا على ذلك! أما إذا ظهر ثانية هنا، أو سمعتُ عنه أي شيء فسأرسل لك خبراً بذلك».

«لنفترض أني سأجده، ماذا أفعل به؟ هل أعيده إليك؟».

نظرت كالي طويلاً في عيني أخيها ثم قالت: «خذه معك واعتن به. إذا كان حقاً في قافلتكم، فهي مشيئة الأرباب التي سأسلّم بها. أرجو أن يجد السعادة التي يبحث عنها. بالسلامة هنوتي، رحلة موفقة، في حفظ الأرباب. ولا تنسني!».

وقبل أن يتمكن من الإجابة بشيء، كانت قد طبعت على خده قبلة سريعة وأنزلت حجابها، وغادرت الباحة بخطوات عجلى. وسرعان ما اختفت في الزحام.

**

القطعة الرئيسية من القافلة التي يتبع لها مورسيلي ومعه تالزو كانت تتقدم بصورة جيدة. وكلما ازدادت تقدماً قلّ التفات تالزو إلى الوراء، وخفت شعوره بخطر أن يُكتشف بعد أن لاحظ عدم اهتمام أحد بسؤاله: من أين وإلى أين؟ وباعتباره رفيق مورسيلي فقد تُرك لشأنه. زوّده مورسيلي بحذاء وثياب ملائمة للرحلة، واهتم مع تالزو بالمتاع الذي كلفا برعايته. وكان بين أفراد مجموعته يعرِّف بتالزو ببساطة قائلاً: «هذا هو تانوا»، فيكتفون بذلك. بدأ تالزو/ تانوا يستمتع بمغامرته، ولا سيّما عندما علم بأن الملك وهنوتي والحاشية المقربة مع الحرس الشخصي سيستخدمون الطريق الأبعد، صعوداً، لكنه أقل وعورة على ما يبدو.

القسم الأول من الطريق بعد مغادرة أدانيا كان مألوفاً لتالزو. كان نهاراً خريفياً صحواً، والأشجار والأجمات بدأت تغيّر ألوانها، كما أخذت سلسلة الجبال الهائلة تقترب منهم. بعد العصر بقليل انعطفوا من ضفة النهر إلى وادٍ باتجاه الشمال الغربي. توثب قلب تانوا: إنه حقاً على الطريق إلى حتّوشا. وببطء أخذت الأرض تزداد صعوداً. عندما بلغوا بقعة مناسبة للمبيت كان المساء قد حل، فنصبوا بعض الخيام وجهزوا وجبة عشاء بسيطة. وبعد توزيع نوبات الحراسة، لف كلٌّ من تانوا ومورسيلي نفسه بغطاء. وكان تانوا على درجة من الإجهاد، فما أن قبّل ميداليته حتى انطبق جفناه وغرق في نوم عميق.

استغرقت القافلة يومين آخرين على دروب تزداد ضيقاً وصعوداً، حتى اقتربت من المعبر الجبلي. كان قائد القافلة يحثّهم على التقدم بلا هوادة. كان يخشى هطول الثلج مبكراً، ما يحوّل المعبر المختصر إلى مصيدة لعينة. تعرّف تانوا على بعض الزملاء الآخرين من المجموعة. كانوا غالباً قليلي الكلام، لا بسبب جهد التسلق فحسب. كان رأي مورسيلي أنهم يعرفون كونه من عليّة القوم، وهذا يربكهم في التعامل معه.

بعد الحماسة الأولى أخذ تالزو يكثر من التفكير بما لم يخطر في باله قط، وبما لم يأخذه في حسبانه عندما قرر سلك طريق الهروب هذا. وبمرور الوقت تبيّن له أنه لولا مساعدة مورسيلي الصدوقة له، لوقع في مشكلات كبيرة. لكن الأمور حتى الآن سارت على ما يرام، وكان واثقاً من إيجاد حلولٍ لوضعه ما إن يصل إلى حتّوشا.

بيد أن الأمور اتخذت مساراً آخر. بفضل الجهود الحثيثة لقائد قافلة المتاع، وصلوا إلى البقعة المتفق عليها على الطريق الرئيسية، قبل العائلة المالكة ومرافقتها. وهذه الطريق الرئيسية تؤدي عبر معبر، يُسمى بوابة كيزواتنا، إلى منطقة تُوانوا ومن ثم إلى أرض الجنوب، المقاطعة الحثيّة التي يحكمها هنوتي. لكن القافلة بأسرها، بشراً ودوابّ، كانت على آخر رمق، وبحاجة ماسة إلى استراحة. ما زالت أرض المعسكر بعيدة أعلى الجبل، وسيمتد الطريق على هذا الارتفاع مسافة طويلة. وما زال أمامهم عبور الجبل العالي، هناك حيث الذرا البيضاء فوق حدود المنطقة الشجرية.

لاحظ تالزو شعوراً بالقلق يجتاحه مع اقتراب موعد وصول الملك. لم يبقَ ذلك خافياً على رفيق دربه مورسيلي، الذي سأله: «ماذا ستفعل إذا اكتشفك هنا؟». وتالزو الذي أدرك باطن التلميح، اعترف قائلاً: «لا أعرف. أحب ما عندي هو أن أبقى نكرة، وسأتابع تحمل مشاقّ الطريق، بمعرفتك طبعاً. ثم سيكون عليَّ في حتّوشا أن أجد طريقة للوصول إلى الملك. لا يمكنني طبعاً أن أصعد إلى القصر، هكذا ببساطة، لأمثُل بين يديه. أما إذا عاكستني الظروف فاكتشفني هنوتي هنا، فلن يكون أمامي سوى أن أركع أمامه. لا أظنه قادراً على إرجاعي من هنا، ما رأيك أنت؟».

«لا، لا أظن. فظروف الطقس لا تسمح بعناءٍ إضافي من أجل شخص واحد. ثم إنه قد يتفهم وضعك». أجابه مورسيلي محاولاً تخفيف مخاوفه.

لم يحتاجوا إلى الانتظار طويلاً، فسرعان ما ظهرت طليعةٌ أخبرتهم باقتراب القافلة الملكية. وكانوا قد جهزوا أنفسهم على خير ما يرام لاستقبالها، فنُصبت الخيام للملك

والملكة وكبار مرافقيهما من أعيان المملكة وجُهزت بالضروري من الأثاث، وأوقدت المجامر لنشر الدفء، كما نصب المطبخ. وفي عدّة أماكن من المخيم أشعلت النار لكتيبة المرافقة ورُفعت فوقها قدور الحساء الدسم أو أسياخ شيّ اللحوم. فُرز تالزو للخدمة في خيمة المطبخ، حيث كان عليه إنجاز كثير من الأعمال التي لم يألفها سابقاً، لكنه تحمّل كل شيء بشجاعة، متجاهلاً بإصرار النظرات المسترقة التي تروزه طوال الوقت.

جال هنوتي بصورة غير رسمية في أنحاء المخيم، ولم يكتشف وجود تالزو. ولام نفسه لاحقاً لأنه لم يصغ لابن أخته جيداً، وتكوّن لديه انطباع غامض بأن تالزو أثناء حوارهما في أدانيا كان يريد أن يبلغه شيئاً ما، ولكن ما هو؟ كان سلوكه إجمالاً حيال تالزو مرتبكاً. كيف سيفكر بخاله يا ترى؟ طلب إليه قائد قافلة المتاع وسأله عن مجريات رحلته، وعن أية طوارئ على الطريق وعن نفسية الرجال. وعلى نحو موارب ما أمكن سأله عن تالزو. نفى قائد القافلة وجود شخص في القافلة باسم تالزو، لكنه لاحظ وجهاً جديداً منذ أدانيا، وهو ليس متأكداً، إذ يحتمل وجوده مع القافلة قبل ذلك. سمعت من الرجال أنه برفقة صف الضابط مورسيلي، واسمه تانوا!».

«ليس الأمر مهماً»، قال هنوتي وأردف مشيراً له بالانصراف: «لقد أديتَ عملك جيداً!».

بعد برهة قصيرة طلب مقابلة الملك الذي استقبله فوراً:

«ما الأمر؟».

انحنى له هنوتي باحترام قائلاً: «يا شمسي!».

«دع الرسميات الآن يا صديقي وأخبرني بما تريد!».

«ابن أختي كالي المقيمة في ترشا اختفى ويحتمل أن يكون قد انضم إلى قافلتنا!».

«ما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟».

«كالي أخبرتني أنه يتحرّق للالتحاق بخدمتك وخدمة المملكة، لكن والده لم يوافق على ذلك!».

نظر الملك إلى هنوتي مفكراً. يا لهذه الواقعة الغريبة! هل سينقلب الظن إلى حقيقة؟ دفع شوبيلو عن نفسه هذه الأفكار. المهم الآن هو الجانب العملي. إذا كان ابن أخت هنوتي مع القافلة من دون علم والديه، فهذا سيؤدي إلى إرباكات. ومن ناحية أخرى يمكن اعتبار الأمر مسألة عائلية.

«وماذا تنتظر مني؟».

«إذا كان حقاً مع القافلة، فأود أن آخذه معي إلى پوروشخَنْدا لأُخضعه لتدريب تأسيسي، ولأعرف تماماً المكان المناسب له معنا، أو إعادته إلى المتجر في ترشا!».

«إنه قريبك هنوتي. أترك لك حرية التصرف!».

شكره هنوتي وخرج، فيما بقي الملك يفكر في الأمر.

في صباح اليوم التالي بعد أن فُكت الخيام وباتت القافلة جاهزة للانطلاق، أمر هنوتي بجمع الصف كله. لم يجد مورسيلي الأمر مستغرباً، فتفقد جماعته وأخذ مكانه، في حين خشي تالزو انكشاف أمره والفضيحة. تفقد هنوتي الرجال إلى أن وصل إلى ابن أخته الذي نكّس رأسه. تخمين كالي كان صحيحاً إذاً. وبصورة ما، راق الشاب لهنوتي، إذ كان موقناً من نضج تفكير تالزو بخطوته، وأنها لم تكن اعتباطية. ومن دون أن يبدي تعرّفه عليه مجدداً، وجه هنوتي تعليماته باقتضاب:

«سنعيد هنا تشكيل المجموعات. القسم الأكبر سيرافق الملك إلى حتّوشا. أنت ومجموعتك يا رقيب مورسيلي ستلتحق بي وتتبعني إلى پوروشخَنْدا. لكن القافلة لن تنقسم إلا بعد مسافة باتجاه شمال توانوا: مجموعتنا الآن ستقود القافلة. تحركوا!».

«يا لهذا التجديد الغريب!». قال مورسيلي بدهشة واضحة، وأردف: «هذا يعني أني لن أعود إلى داري لمدة طويلة، وصرت فجأة أتبع رئيساً جديداً. لم يسبق لي قط أن كنت في پوروشخَنْدا، وأنْ تخدم تحت إمرة القائد العام هنوتي ليس أمراً سهلاً، الكل يعرف ذلك. أعتقد أن الفضل في ذلك يعود إليك، أم تظنه لم يتعرفك؟».

«لا أستطيع إجابتك عن هذا السؤال، لأني ببساطة لم أستطع رفع نظري إلى وجهه».

«وهو لم يرفّ له جفن طوال متابعتي للوضع. ولو أنك لم تخبرني سابقاً أنكما تعرفان أحدكما الآخر، لما خطر ببالي الآن أبداً أنه قد انتقاني أنا بالذات. لا تقلب وجهك الآن!». ربّت مورسيلي على كتف تالزو مشجعاً وأردف: «أليس مثيراً أن يتعرف المرء على أماكن جديدة. سيأتي الوقت ويخاطبك مباشرة، فلا بدّ له من أن يكتشفك ضمن هذه الجماعة الصغيرة. أو تبادره أنت بالكلام، وهذا يكون أشد مكراً. ما رأيك؟».

«يحتمل أن تكون محقاً». وضحك تالزو مجدداً، دافِعاً عن نفسه الشعور بالهزيمة.

بعد يومين آخرين وصل الجميع إلى توانوا، حيث استراحوا. منذ أن أعادت حتّوشا

احتلال نقطة التقاطع هذه، ذات الأهمّية الاستراتيجية عند الطرف الشمالي من الجبال العالية، ومنذ إبرام المعاهدة مع كيزواتنا، باتت مقاطعة أرض الجنوب تعيش في سلام في منطقتها الشرقية. كان الوضع مختلفاً على الحدود الغربية، حيث كان لا بدّ من درء الغزوات المستمرة من جهة أرزاوا، ما يثقل كاهل حاكم المقاطعة بمسؤولية خاصة تجاه المملكة. وكان الملك ومجلس الأعيان يعرفان أنها في أيدي هنوتي القادرة على حمل العبء.

بعد مسيرة يوم آخر انقسمت القافلة، وفجراً ودّع هنوتي الملك والملكة اللذين سيتوقفان أولاً في نيسّا، العاصمة الحتّيّة القديمة الواقعة في منتصف الطريق إلى حتّوشا.

«ستأكل خبزاً وتشرب ماءً!». بهذه الأمنية المعتادة افترق شطرا القافلة. كان الملك قبل ذلك قد انفرد بقائد جيوشه لفترة قصيرة، ذُكر خلالها تالزو للمرة الثانية.

«أنت أعرف بما ستفعل، هنوتي»، قال الملك وأضاف: «لكني أعترف بأن ما أدهشني هو استدعاؤك الصف كله، بدلاً من أن تطلب ابن أختك ببساطة!».

«لهذا سببان يا شمسي، أولهما أنه قد غيّر اسمه إلى تانوا، أي أن بحثي عن تالزو لن يؤدي إلى نتيجة. وثانيهما أني لم أبغ فضحه أمام الآخرين بأي حال من الأحوال. أريد أن أعرف أسبابه قبل أن أحكم على فعلته».

«معدنك النقي هو الذي يتكلم كالعادة يا عزيزي. هل أرسلت خبراً إلى كالي؟».

«أرسلت ساعياً إلى ترشا، ولا بدّ أنه قد وصل الآن إلى هناك».

«هذا جيد. يمكنك الذهاب الآن. أرجو من الأرباب أن تنهي واجباتك بسرعة في پوروشخَنْدا، وأن تلتحق بي في حتّوشا من ثم، دون أن تعيقك رداءة الطقس عن ذلك. سأكون بانتظارك بفارغ الصبر».

وتعانقا.

مع الشروق ترك هنوتي ومرافقوه الطريق الرئيسية وانعطفوا باتجاه الشمال الغربي، وذلك، حسبما فكر تالزو، للالتفاف حول الكتلة الجبلية الهائلة السامقة إلى يساره. تغيرت طبيعة الأرض إلى سلسلة جبال جيرية ذات تشكيلات غريبة. وأخبرهم مورسيلي عن وجود كثير من المغاور باتجاه الشمال، بل مدن من مغاور بعدة طوابق فوق بعضها، محفورة عميقاً في الحجر الجيري، وتستخدم غالباً مساكن أو مخابئ.

عند الظهيرة جاء أمر بالتوقف، ولكن ليس للاستراحة، بل لتفكيك العربات الصغيرة

وتوزيع الأحمال مجدداً. ثم انعطفوا بحدّة إلى درب عريض باتجاه الغرب متوجهين مباشرة نحو ذروة مهيبة.

«هذا أحد مساكن إله النار، لكنه لحسن الحظ نائم!». قال لتالزو أحد مرافقي هنوتي من لوايا.

«وهل له أكثر من مسكن؟». سأله تالزو.

«طبعاً، أحد أعلاها ستراه قريباً. سنمر به على طريقنا إلى پوروشخَنْدا. مسكنه الرئيسي قريب جداً من مدينة نيسّا. هل تعرف هديته؟». كان يهمس خشوعاً وتبجيلاً، ثم أخرج من كيسه سكيناً. كانت قطعة واحدة، ملساء، داكنة ولماعة. وأردف قائلاً: «تانوا، كن حذراً، فالنصل حاد جداً». اختبر تانوا النصل برأس أصبعه وسأله: «ما هذا؟ زجاج؟».

«أظنه حجراً. عندما يغضب إله النار فإنه يقذف ناراً هائلة مليئة بكسور حجارة يخرج منها دخان ورائحة كريهة. ثم تشتد الحرارة إلى درجة أن يذوب الجبل نفسه ويسيل نحو الوادي. عندما تتجمد هذه المادة ثانية، يتبقى ما نسميه أُبسيديان».

«هذا لا يصدق! لا تقل لي إنك قد مررت بهذه التجربة. أنا كنتُ متّ منَ الخوف!».

«لا، لحسن حظي أني سمعت عنه قصصاً، لا أكثر».

«لماذا يعيش الناس هنا ولا يهربون؟».

«يا لك من ساذج! نحن نعبد إله النار، ونحمد أفضاله الكثيرة علينا! ليس للأبسيديان فقط. أكثر من يعبده في المملكة هم صائغو المعادن. قد تكون سمعت..». وتلفّت حوله بنظرات خاطفة بحذر، ثم قال: «على كل حال لا يجوز الخوض في هذا الحديث، انسَه. ولكن على أية حال، موطن هذا الحجر عندنا هنا، هذا مؤكد. حول مساكن إله النار تكون الأرض خصبة. انظر إلى هذا الوادي مثلاً. ولكن يجب على البشر ألا يستثيروا غضبه».

كان عليهم أن يتوقفوا ثانية ويتجمعوا عند جدار صخريٍ نُحتت فيه في الأزمان الغابرة درجتان عاليتان. وعند هذا المذبح قدموا قرابينهم من الخبز والفواكه. وفي تجويف صغير سكب هنوتي نبيذاً من إبريق ذي مِصب، ثم تلا صلاة، وبعد ذلك سمح بنصب الخيام.

لم يجد تالزو حتى الآن أية فرصة للتقدم من خاله، الذي لم تبدر عنه أية إشارة تدل على أنه قد تعرف تالزو ويريد محادثته. إلا أن طرقهما لم تلتق أو تتقاطع أثناء الطريق. أما الآن فقد تشجع وتوجه إلى خيمته. أمره الحارس بالانتظار.

بعد برهة ارتفع غطاء المدخل وأشار له هنوتي بالدخول، فدخل وركع أمامه على الأرض.

«انهض تالزو، أم يُفضَّل أن أقول تانوا؟».

أشابَ السؤالَ مسحةُ سخرية ثانية؟ نهض تالزو واقفاً.

«أهكذا تخيف أمك المسكينة وترعبها؟». قال هنوتي ثم ذهب إليه وعانقه مردفاً: «أهلا بك يا ابن أختي. لقد أخذتَ ما يكفي من الوقت لتكشف عن نفسك، لكنك قادر لا شك على تقديم تبرير مقنع. تعال، اجلس!».

قدم له هنوتي كرسياً محفوراً قابلاً للطيّ، وجلس على مثله.

«ماذا أفعل بك الآن؟». سأله هنوتي بعد أن أصغى إليه صامتاً.

«لا يسعني إلا أن أرجو دعمك لمشاريعي. إذ إني لن أعود إلى ترشا بأي حال».

«طيب. إذا كنت واثقاً من نفسك إلى هذا الحد، فستخدم عندي».

كاد تالزو يقفز فرحاً، لولا إشارة من يد هنوتي أرجعته إلى مكانه. ثم قال له:

«لا تستعجل الفرح. لن تكون لك أية امتيازات لمجرد أننا أقرباء، وليكن ذلك واضحاً في ذهنك، مثلك مثل الآخرين لا فرق. من يعرف أننا أقرباء؟».

تردد تالزو. لم يرغب في أن يكذب، ولم يرغب في الوقت نفسه أن يورط مورسيلي أيضاً.

«واضح أن أحد جماعة القافلة قد ساعدك لا بد. أهو مورسيلي؟».

هز تالزو رأسه موافقاً.

«وقد أخبرتَه مَن تكون؟».

هز تالزو رأسه ثانية.

«هل يُعتمد عليه؟».

«حتى الآن برهن على أنه خير صديق. لا أريد أن أتسبب له في مشاكل، رجاء!».

«طيب، تانوا. أنت ومورسيلي سأضمّكما إلى حرسي، وستبقيان قربي بقية الطريق. في بوروشخَنْدا سنقرر من ثم الخطوة التالية».

«اعذرني، ولكن ثمة رجاء آخر، يتعلق بأمي. بودي أن أبلغها أنني بخير، وأنني على الطريق معك إلى بوروشخَنْدا و..».

فقاطعه هنوتي: «لقد تم ذلك. اذهب الآن وبلّغ مورسيلي. سننطلق عند الفجر. ثم بلّغا رئيس الحرس!».

استغرق الطريق حتى نينِسّا أربعة أيام، كانت معنويات تالزو في أثنائها مرتفعة، وأخذ يكرر على سمع مورسيلي أنه يكاد لا يصدق مدى سعادته.

تبعوا في البداية الدرب الجبلي باتجاه الغرب، والذي اشتد ارتفاعه على امتداد جبل الآلهة باتجاه الشمال. وفي السهل الذي عبروه من ثم، بدوا لأنفسهم ضئيلي الحجوم وبالغي الهشاشة. وهنا أيضاً لم يكن أمامهم سوى درب وعر، غالباً ما يتقاطع مع المسيلات. أما المخاضات فقد عبروها على ظهور الدواب ما أمكن، وعلى جذوع الأشجار الساقطة، أو على الحجارة الكبيرة الكثيرة هناك، أو حفاة. كان الماء شديد البرودة. وفي مكان ما ضاق الدرب أكثر فأكثر متحولاً إلى شعَب. لقد شق النهر طريقه في منعطفات حادة عبر الصخور البركانية. كانت الجدران الصخرية الحادة الانحدار نحو الوادي من جنبيه، محيطة بغابة صغيرة من أشجار الحور والصفصاف والسرو. كانت الكتل الصخرية منتشرة في كل مكان من الوادي. وبين الحين والآخر كان تالزو يكتشف في الجدران الصخرية درجات منحوتة، لافتاً إليها نظر مورسيلي الذي كان يهز كتفيه ويقول:

«يحتمل أنها تؤدي إلى مخابئ في المغاور».

كان تالزو يكثر الالتفات يميناً ويساراً، فقد بهره الجمال الوحشي لهذا الشّعب. كيف كان البشر يعيشون في هذه المغاور؟ ما الذي اضطرّهم إلى ذلك؟

وفجأة سمع هزيماً خافتاً. الخطر غير المرئي بعد، كان قادماً من الأعلى. صرخته التحذيرية أوقفت القافلة في مكانها فوراً.

«على الجدار الصخري»، صاح رئيس الحرس.

شدوا الدواب وجروا أنفسهم جميعاً إلى ساتر يحميهم، وخلال لحظات تهاوت فوقهم كتلة صخرية هائلة محطمة في طريقها الأشجار، إلى أن استقرت في قعر الشعب، نصفها على الدرب ونصفها الثاني في النهر، وتناثر الماء في جميع الاتجاهات. ولم يبدُ أن شيئاً آخر قد حدث، ومع ذلك شلّ الرعب تالزو الذي تمسك بشدة بميداليته، بتعويذته، برابطه بكيا.

«أنقذتنا يا رجل!».

اعتراف رئيس الحرس بفضله أيقظه من جموده. تقاطعت نظرته مع نظرة هنوتي

المستند إلى الجدار الصخري قربه. أتخدعه عيناه، أم أن هنوتي قد غمزه بصورة غير ملحوظة؟

«تابعوا، تقدموا، يجب أن نخرج من الشعب قبل هبوط الظلام!».

«كنا على وشك...».

اكتشف تالزو حبيبات عرق على جبين مورسيلي، فهو أيضاً قد شلّه الرعب. نظّموا رتلهم مجدداً وتجاوزوا الكتلة الصخرية التي انتصبت هناك بكل براءة، وتابعوا مسيرتهم صامتين ولكن بخطوات متمرسة. أما تالزو فقد امتلأ بهجة، فالأرباب راضون عنه لا شك. ماذا كان سيحدث لو لم يحذرهم من الخطر قبل وقوعه؟ لا شك في أنه قد أنقذ حياة بعضهم، بل حتى حياة خاله!!

«ما سبب استخدام هذا الدرب الخطر والوعر؟ ألا يوجد غيره؟». سأل تالزو زميله في الحرس.

«طبعاً. لكن هذا هو الأقصر، ولا يعرفه سوى السكان المحليين».

«وماذا بشأن الكتل الصخرية المتساقطة؟».

«هذه أول مرة أختبر فيها ذلك، رغم مروري عدّة مرات من هنا سابقاً».

قطّب تالزو جبينه. لأول مرة؟ أكانت هذه إذاً محض مصادفة، أم ثمة أيادٍ بشرية وراء ما حدث؟ إذا كان الأمر كذلك، فمن الذي يريد شراً بهنوتي ورجاله؟ وكيف عرفَ بأنه سيعبر هذا الدرب الآن؟ وفجأة خطرت ببال تالزو أحداث قطنا، الهجوم على القافلة، تسلّل بدو ملثمين إلى المدينة، هذا إذا كانوا من البدو حقاً، ولقاءاتهم السرية مع أعيانٍ من المدينة. هذا ما كان يدور في رأسه طوال الوقت. لقد شهد لقاءً بين الشريف تيرو ورجلاً ملثماً بكامله في مركز المدينة في قطنا، وسمع ما دار بينهما. الشريف تيرو أخو الملكة. أيحتمل أنه كان متورطاً في الهجوم على القافلة؟ كان مضطراً إلى تبليغ الرجل الآخر أمراً ما. ما هو هذا الأمر يا ترى؟ ربما كان من واجب تالزو إبلاغ أكيزي، أو ربما كان من الأفضل أن يبلغ كيا؟

على مسافة غير بعيدة من الشِّعب، الذي خرجوا منه بعد العصر سالمين ولكن مرهقين، وجدوا نبع مياه حارة يتدفق. ويا له من بلسم للأرجل المجرحة، وإنعاشٍ للأجسام كلها، فتراشقوا ولعبوا بالماء الساخن كالأولاد.

كانت المنطقة من حولهم تتسم بتكوينات عجيبة من الصخور الجيرية، أرض أبدعها

إله النار. وهي ممتدة على هذا النحو حتى نينسّا، التي وصلوا إليها في اليوم التالي، كما أنها تشكل نوعاً من الحدود الطبيعية بين سهل إكُوانيا الحجري الرتيب، والجبال الصخرية التي يمتد عند سفوحها وادي النهر الطويل، الذي تبعوا مجراه طوال مسيرتهم تقريباً. تبدّت نينسّا أمامهم مثل واحة واعدة. أشجار الصنوبر والسرو وبساتين الفواكه ذكّرت تالزو بمحيط قطنا. ومن نينسّا حتى پوروشخَنْدا، مقر حكم هنوتي، لم يبق سوى مسيرة يوم باتجاه الغرب بمحاذاة النهر، ليصلوا أخيراً إلى هدفهم.

إن لأهمّية پوروشخَنْدا بالنسبة إلى مملكة حتّوشا جوانب متعددة. فهي ذات موقع مركزي وتقوم بدور حصن منيع في مواجهة الغزوات من جهة الغرب. وهي فوق ذلك مركز انطلاق الحملات الحتيّة باتجاه الغرب أيضاً. كما كان لها أهمّية في تأسيس المملكة، إذْ تقول الروايات إن أنيتّا، مؤسس المملكة الأسطوري، قد حصل على عرشٍ وصولجان من الحديد كرمز وإتاوة، لإخضاعه حاكم پوروشخَنْدا. ويروى أيضاً إن عرش تَوانانّا الحديديّ أصله من هناك كذلك. بيد أن تالزو لم يفلح حتى الآن في معرفة ميزة هذا الحديد وخاصيته. تذكّر تهامس الناس في قطنا عن سلاح حتّيٍّ عجيب، وأن كلمة حديد وردت في سياق الهمس. فما هو؟ معدن؟ ما الذي يميزه عن البرونز المعروف، الذي تصنع منه أسلحتهم؟ أوَلَم يسمع بالأمس تلميحاً من زميله اللووي قد يكون على علاقة بهذا الشأن؟ ربما باستخراج المادة الخام؟ لا بدّ أن تكون هذه المادة موجودة هنا في الجوار، ومنذ القديم.

تقوم المدينة في سهل على الطرف الجنوبي الشرقي لبحيرة كبيرة، رأى تالزو مياهها تتلألأ من الجبال.

«نعم، نعم، هذا بحر، وإنْ كان مغلقاً وهادئاً ومختلفاً تماماً عن البحر الذي تعرفه»، أوضح له زميل لووي آخر، اسمه ميتا وأضاف: «الماء هنا ليس عميقاً، وطعمه مالح. في الصيف عندما يشتد الحر تجف أطرافه ويصغُر تدريجياً، مخلفاً وراءه كنزاً أبيض: الملح».

قرب ترشا كانت هناك حقول ملح صغيرة أيضاً. كان الملح بضاعة تجارية ثمينة، تخزن بعناية خاصة كي لا تصيبها الرطوبة.

«لا أحد يعرف مصدر هذا الملح في بحرنا الذي نسميه بحر تاتّا. لكنه يعود في كل سنة ويجمع في أواخر الصيف، وهو عمل كريه. أنا سعيد بقبولي في الحرس الذي يبعدني عنه!».

«ألديك فكرة عن مساحة بحر تاتّا؟ في هذا النور لا أرى سوى ساحة هائلة متوهجة!».

«أعتقد نحو مسيرة يومين عرضاً، وأربعة أيام كحد أدنى طولاً، هذا في الصيف. عندما تمطر في الخريف يكبر أكثر فأكثر. سوار الحلفاء حوله يبيّن إلى أي مدى تصل المياه. يوجد هنا كثير من الإوز والطيور التي كنا نصطادها في صغرنا».

«معنى هذا أنك قد ولدت هنا؟».

«طبعاً».

«ستلتقي بعائلتك إذاً. كم أحسدك!».

«لن تطول هذه الفرحة. لكنني سعيد بذلك جداً». قال ميتا.

«لماذا لن تطول؟ ألن نبقى هنا؟».

«سنبقى، ولكن يجب علينا دائماً أن نبقى قرب القائد العام. سننام في مهاجع جماعية، لا أحد منا يسكن عند عائلته، ألم تعرف ذلك؟».

ابتلع تالزو لعابه. ما الذي سينتظره؟

بعد الظهر بقليل اقتربوا من المدينة. كانت السماء في أثناء الليل قد تلبدت بغيوم كثيفة وداكنة تنذر بالمطر مع هبوب الريح من الشمال.

«ها هي ذي أمامنا هناك!». قال ميتا بفرح.

نظر تالزو في الاتجاه الذي أشار نحوه ميتا. سور المدينة المبني بالحجارة والقرميد الطيني يذوب في هذا الفصل من السنة في محيطه، بحيث تصعب رؤيته رغم المساحة المفتوحة أمام عيني الناظر. عبروا السور من البوابة الجنوبية، إلى القسم القديم من المدينة ذي البيوت المتراصة بعضها إلى جانب بعض، والشوارع الضيقة المبلطة بالحجارة بشكل منتظم، تاركين وراء ظهورهم القمة المميزة لجبل النار، لتحرس المرتفعات الجرداء ذات التربة البنية في الغرب، التي لا يمكن بلوغها، كما يبدو، إلا على طريق القوافل المتجهة نحو إكروانيا. وهذا الذي أمامنا هو مقر نائب الملك؟ لكز تالزو مورسيلي في جنبه مومئاً نحو الأمام، فما كان من مورسيلي إلا أن رفع جفنيه، وأردف بعد برهة:

«المهم. هنا يوجد ما يكفي من بيوت الحب! ما رأيك ميتا، هل من نصيحة خاصة؟». في محاولة منه للتخفيف من توتر الجو، وإذا بغالبية مَن حوله يصهصلون سروراً. لكن مزحته لم تصل إلى تالزو، الذي كان منشغلاً بمشاهدة ما حوله.

تجمع حشد من البشر لاستقبال القادمين ورافقوهم إلى القسم الأعلى من المدينة

حتى القصر. توقف تالزو عند بوابة القلعة تماماً ونظر إلى المساحة الواسعة أمامهم، ثم سأل: «ما الذي جرى هنا؟ معظم الأبنية تبدو منهارة تماماً». فأجاب ميتا وقد استفزته ملاحظة تالزو: «ماذا كنت تتوقع؟ جنةً ذات سرادق للتسالي؟ القصران والأبنية الأخرى عتيقة جداً، وقد تعرضت مراراً للتدمير. في المرة الأخيرة من قبل الماروديين في أرزاوا، وهذا ليس من زمن بعيد. جزء من هذه الأبنية أُصلح ليصبح قابلاً للسكن. لكن الوضع سيتغير سريعاً، سترى!».

في هذه اللحظة سكبت السماء دلاءها، فغرقت پوروشخَنْدا في جو رمادي شمل تالزو ومورسيلي.

**

كان القصر في حالة اضطراب، فقد وصل سعاةٌ بنبأ قدوم أمونحوتب، ولي عهد مصر. الملك إيداندا وأكيزي ومجلس الأعيان كانوا يتدارسون الأسباب المحتملة لهذا الحدث الاستثنائي. وأبسط سبب هو أن الوقت قد تأخر للعودة إلى مصر بحراً، فانتهز أمونحوتب الفرصة لاستطلاع شمالي سوريا. فمن المنطق إذاً أن يزور قطنا أيضاً، لا سيّما أنها متحالفة مع مصر منذ وقت طويل، كما كانت، باعتبارها مركز وساطة تجارية، موالية دائماً لمملكة النيل. وفي مقابل ذلك كان المصريون يضمنون لقطنا مساعدة عسكرية في مواجهة أعداء محتملين، سواء من الإمارات المجاورة أو الحوريين أو الحثّيين.

ولكن ما سبب وجوده في سوريا أصلاً؟ فحتى الآن لم يأتِ الفراعنة أو خلفاؤهم إلى منطقة شرق المتوسط، إلا في حالة النزاعات العسكرية. وكانوا ينتهزون الفرصة عندئذٍ لصيد الفيلة في وادي أرانتو، الأمر الذي يشكل حدثاً رائعاً، يُذكَر من ثم في وطنهم، بالكتابات والتصاوير المرسومة والمحفورة. من الناحية الرسمية أُعلن عن رحلة أمونحوبت كزيارة تفتيشية إلى الأراضي التابعة لمصر في كنعان وسوريا. وقد فُهم من ذلك بوضوح أنه ذات يوم سيعتلي عرش فرعون، ولا سيّما أن أخاه الأكبر تحوتمُس قد مات، على نحو غير متوقع أبداً، في منفيس، حيث كان يؤدي الخدمة العسكرية مثل جميع ولاة العهد قبله. فصار لزاماً الآن وبأقصى سرعة تهيئة أمونحوتب للمنصب الجديد. كان قد تلقى طبعاً، مع أخيه، التعليم الخاص بالأمراء، فتعلم القراءة والكتابة ومارس الرياضة، كما أطلعه الكهنة على الأسرار العميقة للدين، وتدرّب على القيام بواجباته التمثيلية الرسمية. أما التدريب

العسكري في ممفيس والالتزامات المرتبطة به لتأهيله كاهناً أكبر في معبد بتاح هناك، فقد كانت حكراً على تحوتمس بصفته وليّ العهد.

منذ موت تحوتمس بات أمونحوتب الذي قارب العشرين من عمره، منهمكاً بصورة دائمة، ولكن من دون رغبة حقيقية، بتعلّم كل ما هو ضروري لاستلام زمام الحكم لاحقاً. لذلك، من وجهة نظر القطنيين، ستكون لفتة ذكية منه أن يلقي نظرة على البلدان التابعة لمصر في الشمال، وعلى الإمارات الصديقة. فحتى الآن لم تبدِ مصر أي اهتمام حقيقي بمناطقها، عدا المركز. في ظل الفرعون أمينوفيس الثالث بلغ الرخاء والرفاه ذروتهما، ولا سيّما عبر الذهب الدائم التدفق من أرض النوبة جنوبي شلالات النيل الأولى. وكان الفرعون يتابع الأحداث العالمية بترقب، بيد أنه لم يبد ميلاً لمغادرة أرض مصر، وتدريجياً تُركت كنعان وسوريا لشأنهما. فلماذا ظهر ابنه الآن؟ أتخفي زيارته مخططات توسعية سرية؟ أهناك شكاوى على العملاء وعدم ثقة بهم؟ أتريد مصر أن تستطلع مواقف قطنا والممالك السورية الشمالية الأخرى، في حال صدام عسكري بين ميتاني وحتّوشا الصاعدة، والذي سينتصر فيه شوبيليوليوما؟ فمصر وميتاني كانتا في كل الأحوال حليفتين، ولذلك لا بدّ من إعادة النظر في ولاءات منطقة تلقّي الصدمة، ومستوى تسليحها.

رأى الملك إيداندا أن توقعاته قد صدقت بأن زمن التعايش في سلام قد شارف على نهايته. وأكثر ما كان يخشاه، حسبما أسرّ لكبيرة الكاهنات شالا، هو أخبار عملائه في قطنا نفسها، بأن هناك غلياناً بين الأعيان، ولكن دون معرفة أسماء محددة، وما الذي يخططون له. كان الملك يعرف أن صهره تيرو لا يتفق معه في أمور كثيرة، لكنه لم يشكّك قط في ولائه، بما أنه شقيق الملكة. لا بدّ إذاً من جمع معلومات أخرى. ولكن ألا يحتمل أن يؤدي التجسس على الزملاء الأعيان إلى إفساد جو المدينة؟.. على الرغم من الشرف الذي سيصيب قطنا من زيارة الضيف الكبير، إلا أن إيداندا لم يكن مرتاحاً لها. طلب إلى شالا عدّة مرات أن تسأل الأرباب عن أية إزعاجات قد تُعرّض إقامة أمونحوتب للخطر. لكن الإشارات كافة كانت عادية.

بغية استقبال الضيف بما يليق بمكانته، جُهّز جناح الضيوف في القصر بأبّهة كبيرة، وبمناسبة وصوله ستقام مأدبة كبيرة على شرفه.

لم تكن الهموم السياسية وحدها ما يؤرق إيداندا. فمنذ ظهور السعاة المصريين ازداد توتر الأجواء بين زوجتيه بصورة واضحة. كانت الملكة بلتوم تمطره باتهاماتها لإيِست، ضرّتها، بأنها تعمل على إزاحتها، في حين تؤكد له إيست أنها لم تقدم على أي فعل قد

يؤدي إلى استياء الملكة. وصدّقها إيداندا، لأنه يعرف بلتوم حق المعرفة. لقد شرح لها بكل صبر أهمّية هذه الزيارة لقطنا، وحاول تخفيف اتهاماتها لإيست، قريبة ولي عهد مصر، الأمر الذي قد يعود على قطنا بخير وفير. وأخيراً استجابت بلتوم ووعدت باتباع اللياقة في سلوكها. ولحسن الحظ أن كيا مقيمة في بيت الربة، وإلا لأشعلت غضب الملكة حقاً وأجّجت ناره. أما الملك إيداندا فكان يمضي ساعات طويلة في مناجاة أسلافه الملكيين.

استيقظت كيا ونظرت إلى أميناية النائمة إلى جانبها بهدوء، وقد لاحت في الخارج أوائل تباشير النهار. ما زال الوقت مبكراً للبدء بخدمات المعبد.

إنه الحلم.. الحلم هو ما أيقظها. الحلم نفسه الذي طالما كان يربكها ويولد الاضطراب في نفسها. كانت تقف في مكانها المفضل على ضفة النهر، منصتةً إلى خرير الماء، الذي تشقّه بقوائمها بعض البطّات الطائرة خوفاً. السكون مهيمن حولها، إلا من أصوات صراصير الحقول وغمغمة الموج الدائمة. الجوّ مسائي، والشمس قد غربت، والدفء لطيف. شعرت بخطوات تقترب منها. لم تلتفت ولم تتحرك. أحاطت بها ذراعان من الخلف وأحسّت بنفَسٍ مضطربٍ وبخدٍّ يتمرغ في شعرها. سمعت صوتاً دافئاً يهمس في أذنها بكلمات غزل. تسلّلت يد تحت ردائها الخفيف، تتلمّسها ثم تداعب نهديها المبرعمين. ظنت كيا أنها ستفقد وعيها، لكنها كانت في كامل اليقظة، منساقة ومتوترة في الوقت نفسه. خطفت الملامسات أنفاسها، وكانت (اللحْمَسَة) الراغبة فيها تنسكب عليها كالموج المتتالي. استرخت من جمودها، استندت إلى الجسد النابض وراءها وتركت نفسها تسقط. وفيما أغمضت عينيها أخذت تلهث مع الرغبة المتنامية. دفعت رأسها إلى الوراء. شفتان طريتان أخذتا تقبلان جيدها. أحست أن جميع قواها ستفارقها عندما مزق دويٌّ الهواء. الذراعان اللتان كانتا تضمّانها انزلقتا عنها، وثمة جسد هوى أرضاً. فتحت كيا عينيها، لكنها لم تكن قادرة على الالتفات. كانت تعرف مَن كان معها في مكانها المفضل على النهر: وليّ عهد مصر.

لم تحاول كيا النوم ثانية. أخذت تتقلّب في مضجعها مقطوعة الأنفاس من أثر حلمها، ونهايته تعذبها. تُرى هل أرسلت إليها الربة تحذيراً؟ أكان الحلم نبوءة؟ نهضت أخيراً ونزلت إلى الحمامات. غسلت وجهها بماء بارد. التفّت بعباءتها الدافئة وهي ترتجف برداً. لقد قطع الخريف شوطاً، والشتاء بأمطاره والمشاقّ المرتبطة به لم يعد بعيداً. عبرت شاردةً

الفناء الداخلي الكبير إلى بوابة مدخل المعبد. تجاوزت البوابة إلى الخارج ووقفت، لا يفصلها سوى رمية حجر عن هدأة الصباح في القصر.

نظرت نحو القصر.

الجناح الغربي بأكمله في الطابق الثاني جُهِّز للوفد المصري، فابن فرعون العظيم من زوجته الملكة تِيّه لا يجوز أن ينقصه شيء. بدا الزمن لكيّا أزلياً منذ وصوله إلى قطنا، فأمور كثيرة برأيها قد تغيرت، رغم أنه لم يمض على دخوله مع حاشيته من البوابة الغربية سوى عشرة أيام.

بدا بهياً. كان واقفاً برشاقة واستقامة في عربته الأنيقة ذات العجلتين، التي تجرها خيول أصيلة مزينة بفخامة. على رؤوسها كانت ترفرف شرائط وباقات من الريش، وأغطية ظهورها مليئة بتزيينات ملونة. حتى ذيولها كانت مضفورة بخيوط حمراء ذهبية. كان أمونحوتب يضع على رأسه باروكة شعر قصير متدرج القصة ومزينة بالشرائط، ويرتدي التنورة المثنّاة والمبكّلة بما يسمى عقدة إيزيس، وقميصاً رقيقاً جداً مع حمالات ضيقة. وعلى كلا عضديه كان يلمع سواران عريضان من لآلئ ذهبية مشغولة مع خرز لازوردي وعقيقي وفيروزي. أما الأبدع فكانت زينة صدره: عقد عريض مثل قَبّة من لآلئ القيشاني الأزرق بمختلف الأشكال لإبراز مظهره الملكي.

راقبت كيا دخول الموكب وهي واقفة على سطح بيت الربة برفقة الكاهنات الأصيلات والجديدات. كانت مأخوذة بالمشهد مثلها مثل بقية النساء معها، واعترفت لنفسها بذلك سراً. ومساءً ذهبت مع شالا إلى المأدبة الكبيرة. لم تستطع أن تنفي شعورها العميق بالرضا لرؤيتها الملكة بلتوم جالسة في مكانها المعتاد في نهاية الطاولة. وفي رأس الطاولة جلس الضيف أمونحوتب، وإلى يساره الملك إيداندا، وإلى يمينه إيبيت خالته أخت أمه. كانت أمها تلبس حسب التقاليد المصرية، ثوباً ضيقاً أبيض بحمالتين عند الكتفين يبرز حفاظها على رشاقة قوامها. وبديلاً عن حلية الصدر، طوقت جيدها بعقد من الفراشات الذهبية الصغيرة تفصل بينها لآلئ من العقيق، مع قرطين مناسبين له. وكانت تضع في وسطى يمناها خاتم اللوتس الثمين من حجر الكهرمان، الذي أهدته لها أمها عند وداعها. كما وضعت على رأسها الباروكة المألوفة في بلاط طيبة أو ممفيس، والمصنوعة من شعر أسود أصلي، بحيث كانت كتلة الشعر مرتبة في خصل تنتهي في ضفائر. وأحاطت وجهها المرهف بإكليل يصل حتى جبينها من لآلئ خزفية ملونة. وأولت عناية خاصة لعينيها،

فأطّرت جفنيها بالكحل، مع استطالة موازية للرموش عند زاويتي العينين. لم يسبق لكيا أن رأت أمها مصرية خالصة بهذه الصورة. يا له من تحوّل! أكانت هذه هي المرأة نفسها التي تعرفها، الدائمة التحفظ إلى حد البساطة تقريباً؟ لا عجب أن أباها قد أغرم بها، فهي حقاً ذات حسن ملوكي.

وعلى نقيض ذلك تماماً، تمثل تأثير كيّا في بساطة ثوبها وجمال شبابها وحسب. لقد أصرت على المشاركة في المأدبة حسبما ينسجم مع وضعها الجديد في المعبد. فسمت بطريقة كادت تكون استفزازية على جميع النساء الأخريات، مثل صديقتها إهلي نيكالو زوجة وليّ العهد التي تبدت على المائدة في بهرجة لافتة.

كان الجميع أثناء المأدبة متكلفاً، بذلوا جهدهم للتقيد بآداب المناسبة الرسمية في وجود ضيف بمثل هذه الرفعة، سوى إيست التي انشغلت في الحديث على سجيتها مع فرعون المستقبل، أحد أهم ثلاثة أو أربعة من كبار ملوك المعمورة. في حين كان سلوك معظم الآخرين متحفظاً وخجولاً.

بما أنه لم يوجد على المأدبة من يتكلم المصرية بطلاقة سوى إيست وكيا، فقد أدير الحديث باللغة الأكدية. كان المتكلمان بصورة أساسية هما أمونحوتب وإيداندا، وعلى نحو متقطع أيضاً. حتى أكيزي غرق في الصمت. في هذا الجو كان لا بدّ لكيّا من أن تتذكر مأدبة استقبال إحيا وتالزو في قاعة الطعام العائليّة. حينذاك كان يصعب على المرء سماع صوته في دوامة الأحاديث المتبادلة الحيوية والمزاح والضحك. أما الآن فقد كان الجميع شاكرين فضل الموسيقيين والمغنين الذين رافقوا تتالي الوجبات بمقطوعاتهم. أما مطبخ القصر فقد تفوق على نفسه اليوم، فحتى في احتفالات عرس أكيزي وإهلي نيكالو لم يقدم مثل هذه الأطعمة المغرية، التي كانت كيا تتلذذ بها لقمة لقمة، وبتمهل وتأمل وإكبار لكل تفصيل صغير من الصحون المقدمة.

عندما أحست كيا بنظرات أمونحوتب موجهة نحوها، خامرها شعور بأنها قد مرت بهذه اللحظات سابقاً، ومع ذلك كان الحال الآن مغايراً تماماً لتجربتها قبل أسابيع مضت. يا لهاتين العينين! حالكتين كظلمة الليل. هل تنظران بجدّية، برزانة؟ لا، بل بكآبة، وربما بتوق وقلق. لقد أثارتا أعصاب كيا، لكنها لم تستطع أن تحيد بنظراتها عنهما. أخذت تتأمل ملامح هذا الوجه النحيل الطويل، الذي تهيمن فيه العينان اللوزيتان بجفنيهما المتدانيين وحاجبيهما المقوسين بانسياب متناظر، ليلتقيا عند رأس أنفه الطويل الرشيق. نظرت

إلى خدّيه المحدودبين قليلاً وذقنه المستديرة وشفتيه الغليظتين الشهوانيتين، جاهدة ألا تتجاوز حدود اللياقة.

انتزعت كيا نفسها من ذكرياتها، وكانت الشمس قد أشرقت. شدّت رداءها حول جسمها وعادت إلى الداخل لتبدأ أعمالها اليومية. كان عليها اليوم تلميع أدوات خدمة الربة. لم تستطع التركيز على عملها، إذ كانت أفكارها طوال الوقت تعود إلى أمونحوتب. إذا كانت تعدُّ الإقامةَ في بيت الربة وتأهيلها لتصير كاهنة، أسمى أهداف حياتها، فقد باتت تبحث الآن دائماً عن أسباب لتبرير وجودها في القصر.. من أجله. ثمة ما هو سحريّ فيه يجذبها إليه. أهو عيناه؟ نظراته الملغزة التي يبدو أنها تريد إخبارها بالكثير الكثير؟ ألم ينادِها؟ تذكّرت حديثهما الأول. اختلقت عذراً لتطلب إذناً لزيارة أمها، فحصلت عليه دون تأخير. وحسبما كانت تأمل سراً، وجدتها بصحبة أمونحوتب، غارقة في الاستفسار عن مستجدات أفراد العائلة في مصر.

«أهلاً كيا، يا لها من مفاجأة! تعالي، اجلسي معنا!». وعانقت إيست ابنتها وهي تقول: «كنا نتسلى بأفضل شائعات البلاط»، وضحكت مضيفة: «يبدو أنه ما زالت هناك عائلات في طيبة لا تعترف بالزواج عن حب. أمر لا يعقل بعد كل هذه السنين!».

عمَّ كانت تتكلم أمها؟

أخذ أمونحوتب بطرف الحديث وقال: «الموضوع وما فيه، أن أبي في رأي هؤلاء الناس، لم يتزوج زواجاً لائقاً بطبقته، مخالفاً بذلك أوامر الأرباب. فهو لم يرتبط بأميرة ذات دم ملكي ويرفعها إلى مرتبة زوجة الملك العظيم، بل اختار امرأة من فئة كبار الموظفين. وهذا ما لا سابقة له إطلاقاً! لكنني أنا سأسلك مثله، إنْ وجدتُ المرأة التي يمكنني أن أضع قلبي عند قدميها!».

أحست كيا بأن صوته الناعم الشجي الذي يشوبه بعض الأنوثة يجعلها تتورّد، فنهضت واتجهت إلى النافذة. ولكن ثمة ما جذبها للعودة إلى مكانها. أرادت أن تكون بقربه. لقد أحست به وكأنهما على وشك أن يتلامسا، رغم بعد المسافة بينهما.

ومع ذلك توثبت روحها المعارضة، فقالت:

«إنكما تتكلمان عن زواج الحب، ومع ذلك فإن فرعون– أطال الأرباب عمره وحفظوه سليماً معافى– لديه في حريمه عدد كبير من النساء الإضافيات، لا عمل لهن سوى إمتاعه. فكيف ينسجم هذا مع الحب الكبير؟».

«لقد حكت لي والدتك عن تعليمك الممتاز، ولذلك لا شك في أنك تعرفين أن معظم الحكام، وفي المقام الأول حكام الممالك المهمّة، ولأسباب سياسية بحتة، لا محيد لهم عن عقد زيجات معينة. مصر ليست مضطرة إلى ذلك طبعاً. تكاد الأميرات تُفرضن على فرعون فرضاً. فهل عليه برأيك أن يكون فظاً تجاه الحكام بأن يردّ إليهم بناتهم؟».

احمرّت كيا خجلاً، ثم قالت: «لم أبغِ استفزازك».

«يعجبني أن تكون لكِ أفكاركِ الخاصة، وأن تعبّري عنها أيضاً. معظم النساء لا يفعلن ذلك، حتى في مصر. ولا سيّما عندما يتحدثون مع فرد من العائلة المالكة».

عندما وعت كيا، مع مَن تتكلم بهذه الصراحة، أحسّت بدلو ماء حار ينسكب عليها. فالجالس قبالتها يعد حالياً واحداً من أكثر الرجال سلطة في العالم، وأبوه، حسبما عرفت من أمها، يُعبد بصفته رباً حياً. كادت للحظة قصيرة ترمي نفسها أرضاً أمامه، لكن عزّة نفسها تغلبت ومنعتها. فهي في نهاية المطاف ابنة خالته وأميرة قطنا. نهضت معتذرة: «عليّ العودة إلى بيت الربة». فنهض أمونحوتب أيضاً، قبل أن تتمكن من منعه. أمسك بيديها وسألها: «متى أراك ثانية؟».

«لا أعرف».

«آمل قريباً!». همس أمونحوتب. ومع ذلك صدحت هاتان الكلمتان في أذنيها. سحبت يديها من قبضتيه وأسرعت نحو الباب، من دون أن تودع أمها.

«لقد تصرفتُ مثل إوزة غبية، كطفل صغير»، قالت كيا لأمينابة مساءً، عندما أخبرتها عن اللقاء.

«لكنه على كل حال يبدو مهتماً بك، وإلا لما طلب رؤيتك ثانية!».

«لربما كان يشعر بالملل، أو أنه يجاملني».

«وماذا عن كل تلك الهدايا؟».

«أمينابة، أنت تعرفين مثلي أنها جميلة وثمينة، لكنها لا تشير إلى شيء محدد. تبادل الهدايا أمر مألوف وعادي».

«لكن بعضها قدمه لك مباشرة مثل حنجور المرهم هذا»، وأشارت إلى حنجور زجاجي صغير يزيّن رفاً خشبياً في الحجرة الفقيرة بالأثاث، وأردفت: «يبدو مثل حبة عنب زرقاء في الكف. ثم صندوق اللعِب الذي يستخدم على الوجهين. أرأيت سابقاً مثل هذا

الشغل البديع؟ لا شك في أنه من خشب الأبنوس. ولوح القيشاني المزجج هذا والرقيق كنسمة! مثل هذا الشغل المصدّف لا مثيل له في قطنا كلها. أي لعبة سنلعب الآن (عشرون حقلاً) أم (زينيت)؟».

كانت هذه ألعابَ رقعة مصرية علّمتها كيّا لصديقتها. لكنها أشارت بيدها رافضة الآن.

بمرور الأسابيع وأثناء الجلسات التي كان الملك إيداندا وممثلون عن مجلس الأعيان يعقدونها مع أمونحوتب، بات يستعان بإيست وكيّا للاستماع إلى الحوار وترجمته. من المفروغ منه أن حاشية أمونحوتب تتضمن مترجمين أيضاً. ولكن كان من المهم للملك أن يتابَعَ الحوارُ من قبل جماعته، فقد كان يرى أن تقدير الوضع العام لقطنا ومستقبلها بصورة صحيحة، لا يسمح بحدوث أي سوء فهم ناتج عن قصور لغوي.

أمونحوتب نفسه لم يبدِ كبير اهتمام بالمباحثات السياسية. فعلاقة مصر مع ميتاني ممتازة، وموثقة برابط زواج ملكي. ثم إن حتّوشا مراقبة جيداً، ولا سيّما بعد النجاح في ضم أرزاوا على بحر أهيياوا إلى الحلف المضاد للحثيين وتوثيقه أيضاً بإرسال أميرة مصرية زوجة لملك أرزاوا. لكن إيداندا اعترض معتمداً على مصادر موثوقة، بأن أولى حملات شوبيليوليوما إثر استلامه العرش قد شكمت أرزاوا ووضعتها عند حدّها. وعندما استهان وليّ العهد المصري بهذا الاعتراض، شعر أعضاء المجلس بالقلق. فهل كانت معلومات المصريين قاصرة، أم أن ما يجري في الشمال حقاً لا يهمهم؟

وأتى الملك إيداندا طبعاً على ذكر اعتلاء ملكٍ جديد عرش آشور وزواجه من ابنة ملك بابل، كما ذكر المباحثات السرية بين حتّوشا وآشور. ألا ينبئ هذا عن تشكل محاور جديدة قد تلحق الضرر بمصر أيضاً؟ ماذا سيحدث إنْ لم تتمكن ميتاني من مقاومة الضغط الحتي؟ أو إنْ وقعت بين فكّي الكمّاشة: آشور من الشرق وحتّوشا من الغرب؟ فجاء رد أمونحوتب عليه بأن توشراتا ملك ميتاني قد كتب إلى والده أمينوفيس الثالث بالتفصيل عن فشل الهجوم الحتي على ميتاني، وأرسل مع الرسالة جزءاً كبيراً من غنيمة النصر: عربات قتالية وخيول جيدة التدريب وكمية كبيرة من العبيد، ثم أشار بيده دلالة على أن هذا الموضوع يتعبه. خامرت الملكَ إيداندا الشكوك في ما إذا كان أمونحوتب، رغم شبابه، مخططاً سياسياً بارعاً، أم أن مصر انطلاقاً من قوتها وسلطتها قد أصيبت بغرور يعميها عن رؤية السحب الداكنة، التي تدْلَهِمُّ في الأفق الشمالي. وقد شارك في أفكاره هذه كلاً من أكيزي وأكيلينا وأوربيا وإيست وكيا.

كان جلياً أن وليّ العهد المصري يولي كيا اهتماماً أكبر بكثير من اهتمامه بالسياسة والمباحثات الاقتصادية. ولم يفت إيداندا ملاحظة أسلوب أمونحوتب في متابعة كيا بنظراته في أية مناسبة كانت. ومن الواضح أن طريقتها الصريحة والاستفزازية قد أثرت فيه، مع أنها قد تبدو في نظر كثيرين صادمة، لكون كيا صبية يافعة.

كما لاحظ إيداندا مدى استعداد كيا لحضور جميع الاجتماعات في القصر ورغبتها في ذلك. لا شك في أن إقامتها في بيت الربة لم تُفقِدها فضولها، بل بالعكس؛ إذ عليها حسب تصور أبيها أن تحتل ذات يوم مكان شالا، لتصبح كاهنة قطنا الكبرى. ولتتبوأ هذه المكانة لا تكفي الإحاطة بالمقدسات والشعائر والطقوس، وفحص القربان وتأويل الإشارات، وممارسة الطب وتفسير الأحلام؛ بل لا بدّ من معرفة راسخة بكل ما يرتبط بشؤون المدينة والقصر. بيد أن إيداندا كان يخمِّن أنه إضافة إلى اهتمامها بالحوارات مع الضيف الكبير، وشعورها بالرضا عن إظهار معرفتها باللغة المصرية، كانت ترتاح لوجودها برفقة أمونحوتب. وقد أكدت إيست ملاحظاته، فقال لها:

«لنفترض، على سبيل إعمال الذهن، أن الاثنين صارا زوجين، الأمر غير المحتمل إطلاقاً، فما معنى ذلك بالنسبة لقطنا؟».

«معناه أن موقفنا إلى جانب مصر سيكون أشد وضوحاً، فنصبح بالتالي هدفاً مؤكداً لهجوم حتّوشا، في حال غزوها مجدداً لميتاني وإخضاعها لها».

«هذا صحيح. ومن الناحية الثانية ستُلزَم مصر بتقديم المساعدة العسكرية، لأنها حليفة ميتاني. ولكن هل سيرسل فرعون حقاً قوات عسكرية؟ اعذريني يا أعزّ الناس، إذ أشكّك في ذلك. ففي الآونة الأخيرة ازداد تركيز فرعون جداً على مصر نفسها، أم أن لك رأياً آخر؟».

هزت إيست رأسها مفكرة. من جهتها، لا أحبَّ إلى نفسها من أن تكون قطنا تابعة لمصر. فمنذ إقامة أمونحوتب وحاشيته في قطنا أحسّت بمدى افتقادها لمصر والعائلة. وفي ما يخصّ العبادة وخاصة عبادة حبيبها آمون رع، تشعر بنفسها هنا وحيدة. صحيح أنها قد أطلعت كيا على الديانة المصرية، لكنها لم تحاول قط أن تفرض عليها عبادة الأرباب المصريين وحدهم. بل على النقيض من ذلك، فقد نشأت كيا على التقاليد الدينية السائدة في قطنا. وإلا لما كانت الآن في بيت الربة. بيد أن إيست تعرف أن الاختلافات بين الديانتين قد شغلت كيا كثيراً وخلّفت في نفسها أسئلة عديدة. وكانت إيست معجبة بذكاء

الملك وتقدّر أسلوب تفكيره الراجح بالأوضاع السياسية واحتمالاتها، وبسلوكه المتأنّي. لقد بدا لها الحاكمَ المثالي لقطنا. لكنها كانت تعترف لنفسها سراً بأنها ستكون سعيدة إذا ما عاشت كيا إلى جانب أمونحوتب. ثم ألم تدلّ الإشارات كافة على أنها ستصير ملكة؟

جاء مع حاشية أمونحوتب إلى قطنا الرسام مينوس، وهو في الأصل من جزيرة كِفْتو (كريت) البعيدة. وكان في قصر أواريس في مصر السفلى قد رسم لوحات جدارية بديعة. وها هو الآن يعرض خدماته على الملك إيداندا. كان معه بين متاعه بعض النماذج التجريبية لمهاراته الفنية على ألواح صغيرة من الجص، نالت إعجاب أهل القصر. وكان سبب خصوصيتها يكمن في أن مينوس لم يكن يرسم على ملاط كلسي رطب، مضطراً للإسراع وفق سرعةِ جفاف الملاط، بل كان في حوزته ألوان تمكّنه من الرسم على الجدار الجاف مباشرة. راقت النماذج للملكة بلتوم، عندما عرضها عليها مينوس بتوجيه من إيداندا. وبغية إرضائها كُلِّف بتزيين جدران قاعة الطعام في جناح المعيشة الملكي وجدران غرفة المكتب. وقد خُصص له مشغل واسع قابل للتدفئة مع زاوية للنوم في الجناح الشرقي من القصر.

وقدوم مينوس ولّد حماسة حقيقية لدى دونيو خزّاف ميسّينا. رغم أن لهجتيهما مختلفتان بوضوح، لكن أصداء الوطن كانت تتردد فيهما، وقد تفاهما بصورة جيدة. ورغم فارق السن بينهما صارا بسرعة صديقين متلازمين. ذات يوم التقت كيا كليهما معاً مصادفة فحيّتهما عفوياً بكلمة «خايريه/ مرحباً» التي تعلمتها من دونيو، فأحست بشيء من الأسف لغربتهما واستغربت ذلك. تداعت إلى ذاكرتها الزيارات التي قامت بها برفقة تالزو إلى ورشة دونيو. تُرى كيف حال الصديق البعيد؟ بعد مغادرته قطنا مع أبيه بعدة أسابيع، وصلت منهما رسالة قصيرة تطمئنهم على وصولهما بخير، ختمها إحيّا بكلمات شكر وأرفقها ببعض الهدايا، كان بينها عقد لكيا، التي خمّنت أنه من تالزو. لكن الرسالة لم تسعفها ولو بكلمة عن حاله.

كانت كيا تنتهز زياراتها للقصر لتتابع باستمرار، تطورات العمل في الغرف الغربية من الطابق الأرضي. وما أثار إعجابها بصورة خاصة، كان تصويراً يكاد يماثل الحقيقة، لصخرة يقارب لونها البياض سمّاها مينوس (مرمراً)، وقال إن هذا النوع من الصخور بألوانه الأبيض والأصفر والأحمر والأخضر موجود في وطنه وفي كثير من جزر بحر أهيّاوا (إيجة) وفي أهيّاوا (اليونان) نفسها. وأنه يستخدم في بناء القصور وتزيينها ولنحت التماثيل وبعض

الأواني. هذا ما استطاعت فهمه من كلام مينوس، الذي كان يسحرُ بفراشيه ومِلْوقِه وهمَ صخورٍ صلدة بتعريقات مميزة. إنه لم يرسم هذه التشكيلات على الجدران فحسب، بل على مساحات معينة من الأرضية أيضاً، ما أسبغ على الغرف جواً خيالياً إيهامياً. وقد شمل ذلك غرفة المكتب والحمّام الكبير برسومات مشابهة. لم يسبق أن رأت كيا الملكة بلتوم منشرحة على هذا النحو إلا نادراً. لقد انفتح قلبها للشاب مينوس وأعجبت بأعماله. كانت تأتي مرة على الأقل يومياً إلى مكان عمله لتتابع خطوات تقدمه. وذات يوم دعت شالا لزيارتها، فاصطحبت هذه كيّا معها لتلبية الدعوة. ومع ذلك لم يتعكر مزاج بلتوم الرائق. وبحضور الملك عرضت الملكة على شالا اقتراح أن يرسم مينوس الغرفتين المخصصتين للعبادة في القصر أيضاً، وشرحت تصورها الدقيق لمضمون اللوحات. لم تكن كيا وحدها مَن اندهش.

ترى بلتوم أن اللوحة، في معبد بيليت إكالّيم في القصر، يجب أن تمثل منظر بريّة تتخللها صخور وأعشاب ويجري عبرها نهر، وأن يكون المنظر محاطاً بنقوشٍ لزهور متكررة بشكل هندسي.

«أتفهمون قصدي؟ يجب أن يبدو كأن الماء، الذي تمنحه الربة لنا، يأتينا من النهر مباشرة. أليست فكرة رائعة؟». ونظرت الملكة إلى زوجها، فابتسم لها موافقاً.

«ولغرفة الأسلاف الملكيين، فكّرت بالتالي: على الجدارين الجنوبي والغربي تصورتُ منظر نهرٍ أو بحر مليء بالأسماك وبقواقعنا الحمراء، والشاطئ بستاناً. وفي هذا البستان يمكن أن نرى مثلاً حيوانات وطيوراً ونخيلاً وكل هذا ملون، تحيط به كذلك نقوش غنية كالتي أنجزها مينوس في الغرف الأخرى».

حماسة بلتوم أصابت الجميع بعدواها. شالا وإيدانذا وافقا بسرور على دخول مينوس إلى الغرفتين المقدستين.

على طريق العودة إلى بيت الربة سألت كيا شالا: «كيف ستخبره الملكة بما عليه أن يرسم؟». «من هذه الناحية أنا مطمئنة. ستستخدم يديها ورجليها، وقد ترسم بنفسها بعض الخطاطات». وهزت شالا برأسها وأردفت: «لم أر الملكة قط في مثل هذه الحال، طوال هذه السنوات. كانت في واقع الأمر أميل إلى الشراسة وسوء المزاج، إلا عندما يكون صغارها حولها، ولا سيّما أكيزي. في تلك المرحلة التي كنتُ فيها كاهنة شابة، كنت في كثير من الأحيان هدف سخريتها وغيرتها. وقد ذرفتُ كثيراً من الدمع بسبب ذلك، إلى أن

تعلمت فهمها. أما اليوم فقد توضح لي ما كنت دائماً أخمّنه: أن يشغل الإنسان نفسه بأمر يحبه، أنجع غالباً من أن يجرع عصائر الأعشاب ويتوسل نصرة الأرباب، على الأقل لفترة معلومة».

ارتعبت كيا من كلمات شالا الأخيرة وأحست بنفسها قد ضُبطت متلبسة. تُرى أتعرف شالا أنها قد طلبت عدّة مرات شراب الخشخاش، لعدم قدرتها على النوم، نتيجة تلذّذها وتألُّمها الشديد، في الوقت نفسه، من تكرار الحلم؟ استرقت كيا نظرة إلى جسمها فوجدت نفسها أكثر نحولاً. ونظرتها الصباحية في المرآة الصغيرة كانت تُريها الهالات الداكنة تحت عينيها. لكن شالا تابعت مشيها غير مبالية.

كان سبب مجيء إهلي نيكالو إلى بيت الربة، هو توقف حيضها الشهري ومعاناتُها هجماتِ غثيان مضنية. أمرت لها شالا بشراب مسكنٍ من حبوب الشمرة البرية، ثم سألتها وفحصتها وأخبرتها بالنبأ السعيد، فسالت دموعُ إهلي نيكالو. لذلك طلبت شالا حضور كيا لتواسي صديقتها وزوجة أخيها، ولترافقها من ثم إلى القصر.

«ألستِ فرحة بقدوم الطفل؟». سألت كيا صديقتها الباكية وهي تسندها بذراعها.

«أكيد، طبعاً. أتعرفين، إني أبكي ببساطة نتيجة شعوري بالارتياح».

لم تفهم كيا قصدها، فنظرت إليها متسائلة، ثم سألتها:

«ألا تريدين إخباري بما يثقل عليك؟ أهي الملكة؟».

«لا. بلتوم طيبة تجاهي. لكنها نبهتني منذ البداية طبعاً إلى أهمّية أن أكون ولودة. ويا له من تعبير! وأعرف أيضاً أنه لا يجوز لي أن أشكو إليها أموراً معينة. ولكن بالنظر إلى علاقاتها أرى أنها تعاملني بلطف كبير».

«ماذا تقصدين بأنه لا يجوز لك أن تشكي لها أموراً معينة؟ أي نوع من الأمور؟».

نظرت إليها إهلي نيكالو بحزن، ثم لم تستطع كبت ما بداخلها، فانفجرت قائلة: «آخ يا كيا، لا يمكنك تصور الوضع. كنت أتصور الأمر بشكل مختلف تماماً. صحيح أني كنت أخمن أن أكيزي ليس متعلقاً بي جداً، لكني كنت أنا مغرمة به جداً، وأنت تعرفين ذلك. أسعد ما كنت أتخيله هو أن أكون زوجته. وأنا في واقع الأمر سعيدة. غير أن الليالي غالباً ما تكون مريعة. لكن الأمر انتهى الآن». مسحت دموعها بكمّها، نظرت إلى كيا بطيبة وأردفت: «فأنا الآن حامل! سأنجب صبياً، مترين، والجميع سيرضون عني».

استعادةُ الحامل هدوءها، أفرح كيا، فأفكارها كانت تحوم حول أمور أخرى:

المتطلبات في بيت الربة، الموضوعات الكثيرة والمختلفة هناك، والتي كانت تحفز رغبتها في المعرفة أكثر مما تشبعها. أسرار الربة ما زالت إلى حد كبير تكمن وراء حجاب، والطريق إليها طويل، وفي بعض الأيام كانت كيا موقنة بأنها على الطريق الصحيح. لكنها من حيث لا تدري تجد أن أفكارها تسرح عائدة إلى أمونحوتب. وقد أرعبها إدراكها أنه أول وآخر من يخطر في بالها يومياً. كل توقها كان يخصّه، إنه يحتل تفكيرها، والأسوأ من ذلك هو أنه قد غرس شكوكاً في داخلها. ما قاله عن ربه، الذي تعرف أنه رب أمها أيضاً، كان يحرك أعماقها. وبناء على قوله، تولّد لدى كيا تصور أنه لا أرباب سواه. بيد أن هذا لا يمكن أن يكون صائباً. إذ كيف يكون رع، حافظَ الدنيا الذي يعبر السماء في محفته نهاراً والعالم السفلي ليلاً، ويكون في الوقت نفسه ربَ الخلق آمونِ الذي كوَّن جميعَ الأرباب. هل يعقل ألا يوجد سوى رب واحدٍ، عليٍّ وقادرٍ على كل شيء هو رب الشمس؟ وماذا عن أربابها ورباتها؟ إنهم حتماً موجودون! ألم تتجلَّ بيليت إكالّيم لها بالذات في أحلامها مراراً؟ أكان هذا كله خطأ كبيراً، حسبما قال أمونحوتب؟ بدت لها عبادة رب واحد أمراً رائعاً، من ناحية، ولكن من ناحية أخرى، هل يقدر رب واحد حقاً على القيام بمهامّ، كانت موزعة على كواهل أرباب عدة؟ إلا أن أكثر ما كان يجعل قلب كيا يخفق هو فكرة كانت تلح عليها باستمرار، وتستجلب العقاب لا شك: هل بمستطاع البشر حسم موضوع وجود الأرباب؟ سجدت كيا عند قدمي الربة وتوسلت إليها الإجابة. لم تجد في نفسها الشجاعة للبوح لشالا، فبقيت وحدها مع شكوكها وخوفها. حتى أنها لم تتحدث في الموضوع مع أمونحوتب نفسه، خشية أن يسيء فهمها، أو أن يجرحه كلامها. بدا لها متشرباً بموضوعه كلياً، وهو عندما يتحدث عن ربه تضيء عيناه، وكأن ربه ماثل أمامه بكامل جسده، فتأخذها حماسته معه.

«ألا تدركين ما يعني هذا لمصر؟ أخ، ماذا أقول، أقصد للعالم المسكون كله؟». ضحك، ضمّها بين ذراعيه ودار بها حوله مثل طفلة صغيرة. وبعد أن أوقفها على الأرض ثانية، لم يفلتها، بل بقي ضامّاً إياها وهو ينظر في عينيها وأضاف: «ألا تستطيعين مرافقتي على دربي؟ ما أجملك يا صغيرتي، مثل زهرة! وتفهمين ما أقول وما أفكر. قلبي يقول لي إنك تكنّين لرع حباً خاصاً!».

كانت كيا على وشك أن تقول له من كل قلبها: «نعم!». عندما دخلت مربّيتها الغرفة. بقيت الكلمة حبيسة قلبها وهي تغادر القصر مسرعة.

تنهدت كيا وسألت إهلي نيكالو: «كيف الحياة في القصر مع المصريين؟».

«ألا تعلمين أنهم قد غادروا قطنا؟».

نظرت كيا إلى زوجة أخيها بحيرة واضطراب وهي تقول: «لكن الوقت غير مناسب للسفر! وهكذا، من دون وداع؟».

«ما بك كيا؟ وجهك شاحب جداً. لا تغتمّي، فأكيزي يقول إن أمونحوتب سيعود، بعد أن يزور جبيل وربما أوغاريت. أي أنه لن يغيب سوى بضعة أسابيع».

حبست كيا دموعها. كيف يمكن لأمونحوتب بعد كل ما كان بينهما أن يختفي هكذا ببساطة مثل لص؟ أم أن الجميع قد أخفوا عنها موعد الرحيل؟ حاولت أن تتماسك وركزت على مهمتها.

«لا شك في أنك تعتبرينني بلا قلب، يا عزيزتي، اعذريني. جئتِ إلى بيت الربة مهمومة مكروبة، وأنا لا أعتني بكِ كما يجب. إذا كنتِ تشعرين بتحسّن حالك، فسأرافقك إلى القصر. أشربت كأس منقوع الشمرة؟ سيفيدك».

«كيا، أنا مسرورة بمساعدتك لي. أتعرفين، كم أشتاق إلى لقاءاتنا المعهودة!». واستندت إهلي نيكالو على كيا ومشت قائلة: «في فترة قصيرة تغير كل شيء. الآن بدأت أدرك، كم كنا سعداء، بلا هموم ولا مسؤولية». توقفت في منتصف الطريق وقالت لكيا: «هل أخبرتك بأن عليك زيارة أمك. لديها شيء لك».

بعد أن أوصلت كيا صديقتها إلى مخدعها واطمأنت إلى استلقائها بارتياح، مرت بحجرة والدتها. رفعت إيست عينيها عمّا كانت تطرزه، أمرت الخدم بالخروج وأشارت لكيا كي تقترب منها، ثم قالت:

«لقد تركتِ انطباعاً ممتازاً في نفس وليّ العهد!».

«لماذا لم يخبرني أحد بأنه مسافر؟».

«كانت تلك رغبة أمونحوتب. أراد أن يمنحك وربما نفسه أيضاً الوقت للتفكير في كل شيء، هذا انطباعي أنا. كيا، أعتقد أنه من المحتمل جداً أن تلعبي دوراً مهماً في حياته. أليس هذا رائعاً؟».

أحست كيا وكأنها بحاجة إلى هواء لتلتقط أنفاسها. ما الذي تقوله أمها؟ فحتى في أشد أحلامها جرأة لم يبدُ الأمر محتملاً. لقد أظهر لها أمونحوتب طبعاً أنها تعجبه، ولكن هل

كان الأمر جاداً. إنهما يكادان لا يعرفان أحدهما الآخر. ولكن قد لا يكون هذا ضرورياً. ربما ساقهما الأرباب أحدهما إلى الآخر، أو: الرب؟

«ما رأي أبي بالأمر؟».

«سيكون فخوراً وسعيداً. تصوّري، أميرة من قطنا تصبح ملكة مصر. كل ما عدا ذلك يجب أن يبقى في المرتبة الخلفية. كيا، يجب أن يكون هذا هدفك الكبير. إنسي تأهيلك، اتركي بيت الربة، إني أناشدك ذلك. يجب أن تمسكي بالأمير. سيكون ذلك نعمة للجميع، سترين!».

«ليتم ذلك، لا بدّ أن يكون هو هنا!». أجابت كيا وقلبها يخفق من الانفعال. ثم أضافت: «عذراً أمي، إني أفهم ما ترمين إليه. سأفكر في الأمر!».

«أتمزحين؟ ليس ثمة ما يحتاج إلى تفكير. في حال خطبك الأمير، لن تترددي. في المقام الأول أبوكِ لن يتردد. ظننت أنك تميلين إلى أمونحوتب، أليس كذلك؟ لا أظنك تفكرين بذلك الشاب من كيزْواتنا؟».

نظرت كيا إلى أمها نظرة كلها دهشة. تالزو؟ كيف خطر في بالها؟

«أمي، يجب أن أذهب»، وأخذت تشبك أصابعها وتفصلها في قلق.

«أعرف أنك تكرهين أن يتدخل أحد في شأنك، لكن هذا هو نصيبنا يا صغيرتي الحبيبة. فكّري بهدوء في كل شيء. سنتابع حديثنا مرة أخرى. انتظري لحظة. عليّ أن أعطيك شيئاً!».

نهضت إيست، غادرت الحجرة وعادت بعد لحظات. سلّمت كيا لفافة من ورق البردي، باركتها مودّعة وتركتها تذهب. خبّأت كيا اللفافة في ردائها. ما معنى هذا؟ وممَّن؟ أهي رسالة؟ أسرعت في العودة إلى بيت الربة، آملة أن لا يزعجها أحد في حجرتها. لكنها ما إن دسّت اللفافة تحت غطاء سريرها، حتى وقفت أمينابة في الباب.

«كيا، السيدة تنتظرك منذ مدة. اذهبي إليها فوراً. إنها في مخدعها!».

«ماذا حدث؟».

«لا أستطيع إخبارك بأكثر من هذا. أسرعي. إنها لا تحب الانتظار».

هل سمعت ما يشي بعتاب؟ أسرعت كيا إلى جناح شالا شاعرة بالذنب. ماذا ستقول لشالا؟ لقد صمتت طويلاً حتى الآن، فهل عليها أن تفتح لها قلبها الآن؟

وجدت شالا مستلقية في مضجعها. لدى دخولها اعتدلت الكاهنة الكبرى في جلستها.

«خذي أدوات الكتابة في يدك!». قالت شالا دون كلمة تحية وبدت مجهدة. لم يسبق لكيا أن رأتها كذلك. ناولتها خادمة شراباً، أنعشها. جلست كيا متربعة على وسادة سميكة عند أسفل المضجع. وضعت لوحاً خشبياً على فخذيها، وضعت عليه لوحاً طينياً طرياً ونظرت إلى شالا بتشوّق.

«إلى سيدي تقول شالا ما يلي: منذ سقوط مُلك أبيك لم أر قطّ حلماً من هذا القبيل. رأيت الإشارتين كما يلي: في حلمي دخلت إلى معبد الربة بيليت إكالّيم، وإذا بالربة ليست في مكانها! والتماثيل الصغيرة التي تقف عادة أمامها، غير موجودة أيضاً. رأيت ذلك وبكيت دون توقف. حلمي هذا رأيته خلال ساعة الحراسة الليلية الأولى. إشارتي الثانية: أُخبرتُ عن امرأة في معبد سيدة القصر، عشتار المحاربة، نهضتْ في حالة غشية وقالت: (أيها الملك، لا تقدْ حملةً، ابقَ في قطنا!) وأنا بالذات أقولُ من دون توقف: يا سيدي، لا تُهملْ، انتبه إلى حماية نفسك!».

انتظرت شالا إلى أن انتهت كيا من الكتابة ثم قالت: «أضيفي المعتاد، ولا تنسي إنجاز نسخة لمحفوظاتنا!». وسقطت في وسائدها منهكة من تأثير النبوءتين اللتين أملتهما تواً. كانت كيا مستغرقة في الكتابة كلياً، بحيث لم تدرك فحوى ما كتبت إلا الآن. نظرت إلى شالا مرعوبة وسألت: «سيدتي، ما معنى هذا؟».

«ما رأيك أنت، كيا؟ إذا شاءت الأقدار أن تبقي في المعبد، فسيكون أحد واجباتك ذات يوم أن تفسري النبوءات والأحلام والرؤى، سواء الخاصة بك أو بآخرين. إذاً، ما رأيك؟».

نظرت كيا في النص الذي كتبته لتوها ثم قالت: «الواضح تماماً أن الملك لا ينبغي له أن يغادر قطنا، كي لا يوقع نفسه في مخاطر خارجها. أو قد يكون المقصود، لتجنّب حرب؟ ولكن ضد مَن ومتى؟ ولماذا غادرتنا الربة؟».

«إذا كان تفسيري للحلم صائباً، فقطنا مهددة بالخراب، لربما في الساعات الأولى من الليل. هذا ما يدل عليه الفراغ: خلوّ المعبد من تماثيله المسروقة. لقد غالبتُ نفسي طويلاً لأصدق هذا الحلم، فأحلام الرؤى ليست الربةُ من يرسلها إلينا دائماً. بعض الرؤى قد تؤدي إلى تضليلنا أحياناً. لذلك يصعب البت في ما هو صحيح وما هو مضلل. ثم تذكرت رؤياك التي جاءتك أثناء الاجتماع، والتي ستتعرض فيها قطنا لتهديد موجة بحرية

هائلة. أمك حكت لي الرؤيا، عندما تعلق الأمر بقبولك في بيت الربة. كما وصلني في وقتِ حلمي نفسه تقريباً أن هناك إشارة أخرى تدل على حرب أو غدر. لذلك أعتقد أن الإشارات تتكاثف وقد آن الأوان لتحذير الملك. أنت يا بنتي ستسلّمين هذا اللوح إلى الملك. وأطلب منك الصمت المطلق عن كل ما تحدثنا فيه، تحت طائلة العقاب الشديد!».

صوت شالا الذي كان حتى الآن خافتاً ومتعباً، تضخم مع الكلمات الأخيرة، فاعتقدت كيا أن الربة تكلمها عبرها.

«والآن، دعيني وحدي!». تابعت شالا بصوتها المعتاد «سأصوم وأبتهل إلى الربة أن توحي إليّ بمخرج. عندما ترجعين من القصر، تشاوري مع أمينابة حول التحضيرات لعيد الهلال الجديد. يجب أن تأخذ جميع الأمور مسارها المعتاد!».

بعد أن انتهت كيا من جميع مهماتها كان المساء قد حلّ. كانت متعبة ومشتاقة إلى سريرها. تلمست طريقها في عتمة حجرتها، وعندما اندسّت تحت الغطاء، اصطدمت يدها باللفافة التي خبأتها هناك. غداً ستطّلع على مضمونها ومغزاها، أما الآن فليس في رأسها سوى فكرة واحدة: النوم.

عندما استيقظت بعد ليلة من دون أحلام، كان النهار مشرقاً من أيام أواخر الخريف، وكان الوقت بعد الشروق بقليل. شعرت بنفسها منتعشة ومحررة من أهوال الأمس. أمينابة ما زالت نائمة. حاولت بهدوء فرد لفافة البردي. وجدتها مسطورة بكثافة وبحبر أسود، وتوضّح لها فوراً مَن أرسل إليها هذه السطور. أخذت تقرأ بكل انتباه:

«جميلة تبدين
أيتها الشمس الحيّة، يا ربةّ الزمن اللا متناهي.
إنك متوهّجة، جميلة وقويّة،
حبّي لك عظيم وعارم،
شعاعكِ يلامس كل وجه،
وجلدُكِ المشعّ يحيي القلوب،
لقد ملأتِ البلدَين حباً بك.
أيها الإله العليّ الذي شكّل نفسه بنفسه،
وخلقَ البلاد كلها وما فيها
من بشر وقطعان وحيوانات برية،

وجميع الأشجار النامية من الأرض،
كلها تحيا عندما تشرق من أجلها.
أنت الأم والأب لكل ما خلقت؛
عندما تشرق يرون من خلالك.
أشعتك أنارت الأرض كلها،
وكلّ القلوب تطرب لمرآك،
فلقد سطعت بصفتك سيدهم.
عندما تغيب في الجانب المضيء من السماء غرباً،
تنام مخلوقاتك، كما في حالة الموت؛
رؤوسها مغطّاة وأنوفها مسدودة،
إلى لحظة بزوغك في الجانب المضيء من السماء شرقاً.
كل النباتات الحية التي تنبت من الأرض،
تنمو بشروقك،
سكرى بمرآك.
وجميع الحيوانات البرية ترقص على قوائمها،
والطيور الهاجعة في أعشاشها تطير فرحاً،
والأجنحة المضمومة تنفرد ممجّدة إيّاك
تمجيداً للشمس الحيّة، تمجيداً لخالقها!».

كانت كيا مستغرقة في قراءتها، إلى حدّ أنها لم تنتبه معه إلى أن أمينابة كانت تراقبها.

«ماذا تقرئين؟».

«أمونحوتب كتبها. أنشودة تمجيد لإله الشمس. لم يسبق لي قط أن سمعت أو قرأت ما يقارن بها. إنها مؤثرة. اعذريني، لستُ مهيّأة الآن لقراءتها لك»، واغرورقت عيناها بالدمع.

«أيرسل إليك مثل هذه؟». سألت أمينابة صديقتها مضطربة، وأردفت: «لا شك في أنه يحبك حتماً ويثق بك بلا حدود، كي يبثّك أكثر أفكاره خصوصية!».

«لن تخبري أحداً بذلك؟ أتوسل إليك!». طوّقت كيا بذراعيها كتفي أمينابة ونظرت في عينيها عميقاً.

«كوني واثقة من أني سأصمت!». وعدتها وقبّلت خدّيها بنعومة، ثم سألتها: «كيف سيكون قرارك يا صغيرتي؟ هل ستبقين في المعبد أم ستذهبين معه؟».

«أخ، أمينابة، هل الخيار لي أنا؟ وربما من الأفضل ألا أحتاج إلى التفكير في الأمر. أمونحوتب إنسان رائع وجيد. لديه خطط كثيرة للمستقبل، ويريدني إلى جانبه في تنفيذها. كيف لي أن أتمنّع. يريد أن يحقق لجميع الناس السلام والحب وأن يرشدهم إلى إله الشمس مانح الحياة، الذي يراه أهم الأرباب قاطبة. أتعرفين، كم أنا متشوقة لعودته إلى قطنا!».

اختفت الدموع من عينيها. وأخذت ضاحكة تدور بأمينابة راقصة في الحجرة الصغيرة، إلى أن سقطتا معاً على أحد الأسرّة.

لكن أمونحوتب لم يعد إلا بعد عيد هلال الشتاء.

**

بالنسبة إلى تالزو كانت الأيام والأسابيع في پوروشخَنْدا مدرسةً قاسية. وتحذير هنوتي لم يكن مجانياً. فعلى الرغم من توازن شخصيته وإرادته المصممة على تنفيذ كل شيء بما يرضي هنوتي، كان عدّة مرات على وشك الاستسلام، لولا زميلاه مورسيلي وميتا وبقية المجموعة. آخر الخريف ومطلع الشتاء جلبا معهما أمطاراً وعواصف وبرداً رطباً مزعجاً، لم يختبر تالزو مثيلاً له في أسوأ شتاءات ترشا.

«اصبر عليه، تانوا. الطقس سيتحسن بعد هلال الشتاء. صحيح أن البرد سيصير قارساً، لكن الشمس ستسطع وسيغطي الثلج كل شيء!». انثنى ميتا على نفسه من شدة الضحك، عندما نظر إليه تالزو غير مصدق وهو يرتعد رعباً.

الثكنة التي عسكروا فيها كانت غالباً باردة كالصقيع، ما يجعل النوم عسيراً. لكن تالزو مساءً كان دائماً منهكاً إلى درجة أن يسقط في سريره كجذع شجرة؛ فالتمرينات كانت تستمر طوال النهار في العراء من أجل اكتساب الدُّربة والخشونة. ومع ذلك فإنه لم ينسَ أبداً أن يقبّل ميداليته قبل النوم، فهذه اللحظة من اليوم كله كانت تخصّ كيا.

لم يتغيب هنوتي عن المشاركة في التمرينات القتالية. لم يركن قط إلى إراحة نفسه، وذلك ليكون قدوة حسنة لرجاله. ولهذا السبب كانوا يحبونه وعلى استعداد لخوض النار والجليد من أجله. وكانت كلمة مديح من فمه تلهب الرجال إلى أقصى درجات

الإنجاز. وكان بصفته قائداً ينتهز هذه الفرص ليراقب كفاءات كل منهم. كان يعرف كل أفراد مجموعة الحرس وأغلب أفراد الفرقة بأسمائهم، ويعرف نقاط قوتهم وضعفهم. وقد عامل تالزو كسائر الآخرين، وأحياناً بحزم أشد قليلاً. بيد أنه كان يتابع تطوره باعتزاز كبير. ولا شك في أن الشاب كان يشق طريقه بشجاعة. لقد برزت عضلات جسمه وكان يقاتل بتعقّل وتدبّر، كي لا يهدر طاقته، سواء بالقوس أو بالسيف أو بالرمح. وكان لا بدّ من الانتظار لمعرفة ما إذا كان تدريبه كافياً لمعركة حقيقية. حاول أن يتناسى حالة الطقس التي لم يكن معتاداً عليها قط، علماً بأن هنوتي قد لاحظ مرات أن البرد الرطب يؤثر فيه أكثر من غيره. لم يعد يصعب عليه فكّ العربة القتالية وتركيبها، بعد أن استوعب طريقة بنائها. أما قيادتها بنجاح، فمسألة تحتاج إلى وقت. وأكثر ما أفرح هنوتي هي قدرة تالزو – مثله – على التعامل مع الجياد بجودة لافتة، رغم أنه لم يسبق أن خدم قطّ في اصطبل. وإذا ما داهمته الهموم والحنين إلى الوطن، كان بارعاً في إخفاء الأمر. وكان زملاؤه يقدّرونه ويحترمونه. وأثناء حديث عمل بين هنوتي والنقيب المسؤول عنه، أشاد النقيب بقدرة تانوا على حل الخلافات والنزاعات، وأشار إلى إنصات زملائه لما يقوله. وبهذا بات هنوتي راضياً عن ربيبه من الجهات كافة؛ فلا شك في أنه سيشرّف القصر. فقرر أن يصحبه معه حتماً إلى حتّوشا، ولم يعد راغباً في أن يفترق عنه. وإنه لأمر غريب أن يختار الفتى لنفسه تحديداً اسم تانوا. أهو حدس؟ أهو وحي؟ لم يرغب هنوتي أن يشغل ذهنه بالأمر.

تساءل تالزو في نفسه عما إذا كان خاله راضياً عنه. أحياناً كان يتراءى له أن نظرة خاله تستقر عليه لبرهة أطول من نظراته إلى الآخرين. غير أن هذا قد يكون وليد الخيال أو الرغبة الذهنية. كان المديح أو التقريع يشمله كالآخرين من دون تفريق. وقد توقف عن ذكر الموضوع أمام مورسيلي، كي لا يثقل على صديقه.

بعد الحديث الشخصي بينه وبين هنّوتي في الخيمة، لم يلتقِ به على انفراد ثانية. وكان راغباً في معرفة رد فعل والديه على اختفائه، لكنه كان يرجّح أن هنوتي سيخبره في حال وصول رسالة منهما مع الساعي. ولم يكن بمقدوره طرح أسئلة شخصية عن الظروف المعيشية لخاله، وخمّن بعدم وجود أحد في بوروشخَندا من عائلة هنوتي، وبالتالي من عائلة أمه. بدا أن لا زوجة له ولا أولاد، إذ لم يأتِ ذكر الأمر على لسان أحد، رغم كثرة ما تتطرق إليه الألسن. ولم يكن بوسعه كذلك سؤاله عما يخططه لمستقبله، وهذا الأمر تحديداً كان شاغله الأول. إنه لا يريد الانخراط في السلك العسكري، فهل عليه أن

يخوض مرحلة التأهيل كاملة؟ ولكن هكذا بدا الأمر حالياً. تُرى أليس بمستطاعه تقرير أمره بنفسه أبداً، لأنه قد سلّم أمره لخاله؟ عندئذ سيكون كمن انتقل من تحت الدلف إلى تحت المزراب، من دون فرصة لتقرير مصيره بنفسه، ولأن يمارس ما هو قادر عليه ويحبه. لربما كان أكبر حالم في الدنيا. لكنه لن يستسلم دون كفاح، ولن يترك وسيلة إلا ويجربها، كي يقترب من هدفه ما أمكن. وأقسم على أن يفعل كل شيء، كي لا يترك لهنوتي مجالاً لانتقاده من أية ناحية، على أمل أن يحصل على كامل رضاه. ومن ثم فإنه سينتهز الفرصة القادمة حتماً ليعرض موضوعه عليه.

وقد جاءت هذه الفرصة على نحو مفاجئ جداً.

كان تالزو قد تعلّم بعض أمور أنظمة القتال الحتيّة، وهو موضوع له المكانة الأولى في مملكةٍ قيد البناء، لن تكتفي بعقد اتفاقيات ذكية فحسب، بل عليها أن تكون قادرة على إخضاع العدو في ساحة القتال أيضاً. وهنا يأتي في المقام الأول العربة القتالية السريعة والخفيفة الوزن، بحيث يستطيع جندي واحد حملها مفككة، حسبما رأى تالزو على الطريق إلى يوروشخندا. هذه العربة يجرّها حصانان ويركبها إما جنديان أو ثلاثة: سائق يحمل ترساً يحمي به نفسه ورامي السهام، أو سائق ورامي سهام وحامل الترس الذي يستخدم حربةً في القتال القريب. وراء العربات يتقدم جنود المشاة بكامل أسلحتهم ورماة السهام. وكان بدهياً أن النخبة يشكلها مقاتلو العربات الذهبيون - هكذا يُلقب سائقو العربات - لا بسبب الأكلاف وحدها طبعاً، فكل سائق عربة يربّي حصانَيه بنفسه. وهذا أمر مكلف وطويل الأمد. كانت الخيول الضرورية تُجلب من كيزُواتنا ومناطق أخرى في المملكة، وتخضع لتربية خاصة، ثم بناءً على خطة محددة، تُدرّب الخيول إما لتجرّ عربة قتالية وإما للمركوب من قبل سعاة البريد، وليس في ساحة القتال.

أحبّ تالزو وجوده في الاصطبلات، إذ كانت الخيول الأصيلة تبهجه. إضافة طبعاً إلى دفء الاصطبلات. وحتى ذلك الحين لم تكن له علاقة مباشرة مع الخيول إلا لماماً، لكنه اهتم بها جداً من الناحية النظرية. هذا ما حكاه ذات يوم لمورسيلي وميتا في أثناء خدمتهم في الاصطبلات. كان يَحُسّ بالفرشاة القاسية حصانه المفضل المدرّب للركوب، والذي تعلّق به إلى حد كبير، لدرجة أن صار يصهل مرحّباً به كلما دخل الاصطبل.

«يبدو أن الحصان قد عشقك فعلاً». قال ميتا وبدأ شغله.

«لأني أعرف ما يحتاجه وأجيد التعامل معه. وهذا يسري أيضاً على خيول جر العربات».

«ما هذه الحكاية الجديدة تانوا؟ ألم تحاول إقناعنا بأنك لم تتعامل مع الخيل قط سابقاً! فما الصحيح الآن؟».

«كلاهما صح يا صديقي، كلاهما».

«هات إذاً، احكِ! لا أظنك تتصوّر، كم هي مكلفة تربية الخيول!».

«اسمع إذاً! المهم أن يكون عندك جياد وأفراس جيدة للتدريب، وأن تعرف من أين تحصل على مثلها – من موطني مثلاً – لأنها الوحيدة التي تصلح لجر عربة قتالية. ويجب أن تكون قادراً على دفع ثمنها. عندما يصبح عمرها أربع سنوات، يبدأ التدريب، ولا يجوز قبل ذلك أبداً. خيول الجرّ تُدرّب من ثم لمدة سنة على السير بالحبل، ولسنتين بعد ذلك على جر العربة. يجب على الخيول أن تكون قادرة على التأقلم مع حالة الجر، سواء في الحرب أو الصيد أو الاستعراض أو المواكب و..».

كان ميتا يستمع إليه فاتحاً فمه دهشة، ثم اقترب منه مورسيلي قائلاً:

«توقف عندك! كفاك تعالماً علينا أيها المدعي. أريد الآن وفوراً أن أعرف، من أين حصلت على هذه المعلومات؟».

«وأنا كذلك؟!». كان ذلك صوت هنّوتي.

نَقَز الثلاثة معاً. لم ينتبهوا إلى وجود أحد سواهم في الاصطبل، فما بالك بالقائد العام نفسه. تقدم هنوتي منهم، التفت إلى تالزو وقال: «أريد أن أراك بعد أن تنهي عملك!». وغادر.

أكان ذلك جيداً أم سيئاً؟ من صوته وسلوكه لم يكن من الممكن استنتاج ما إذا كان غاضباً أم مسروراً أم حيادياً وحسب.

تابعوا عملهم صامتين ولكن بانتباه. بعد مدة كان مورسيلي مَن كسر الصمتَ بقوله:

«اللوم الوحيد الذي يمكنه توجيهه إليك وإلينا أيضاً، هو أننا كنا نثرثر، أليس كذلك؟ وأنت لم تقل أشياء سخيفة، بل بالعكس».

«قل لنا الآن، من أين عرفت كل هذه الأمور؟ وإلا سأنفقع من الفضول!».

«الأمر في الواقع بسيط جداً. عند أمي، بين كتبها في بيتنا، نسخة من كتاب حثّيٍّ قديم، يتحدث بالتفصيل عن تربية الخيول وترويضها وتغذيتها وتدريبها، ولا سيّما خيول الجر. مؤلّفه معلّم في سياسة الخيل، وأنا قرأته، لا أكثر».

«قرأته؟ يا رجل! يا رجل! أيها الأرباب ارحموني!». علّق ميتا، ثم تنهد وقال: «لا تقل إنك تعرف الكتابة أيضاً؟».

«أعرف طبعاً!».

قرر تالزو تلبية طلب هنوتي بأسرع ما يمكن، ففي هذا تحقيق للقاء المنشود وجهاً لوجه منذ مدة طويلة. هكذا أمِل على الأقل.

كان هنوتي يقيم في جناح خاص من القصر الغربي. وهو أحد القصرين اللذين جُهّزا للإقامة مؤخراً، ولم يسبق لتالزو أن دخله. الواجهة الملساء الكتيمة التي سار على طولها، تخللتها ردهة معمَّدة متقدمة، يوجد المدخل الرئيسي فيها. أبلغ تالزو الحرس بمراده، فرافقوه إلى حجرة صغيرة، كان يجلس فيها عدد من الرجال، تعرّف تالزو على اثنين منهم خلال الرحلة، وكانوا يتسلّون بإحدى ألعاب الرقعة. قال له أحد الحراس: «انتظر هنا!». وغاب. عاد بعد قليل وقال له: «اتبعني الآن، سأقودك إلى القائد العام!».

تلفّت تالزو حوله. في الطابق الأرضي تتالت واحدة بعد واحدة غرفٌ مربعة الشكل. بعضها للشؤون الإدارية، ثم غرف عمل الخدم وإقامتهم، ثم غرف مؤونة ومستودعات جناح المطبخ، ثم قاعة اجتماعات واسعة تُذكِّر بقاعة عرش، ومن بعدها تكرر المشهد السابق. كانت الوحدات المعمارية ترتبط في ما بينها بدهاليز، وكانت هناك عدّة فسحات داخلية صغيرة كمصدر لإضاءة الغرف التي تحدّها. ثمة رجال يتابعون أعمالاً ما، يتحركون هنا وهناك، وجنود وضباط وخدم وموظفون. ترى هل يوجد هنا نساء أيضاً؟

قاده الحارس عبر أحد الأدراج الضيقة إلى الطابق الثاني، حيث توجد غرف معيشة هنوتي. هذه لفتة مهمّة، فهنوتي سيستقبله في الجناح الخاص وليس في أحد المكاتب. أخذ تالزو شهيقاً عميقاً. وأخيراً توقّفا أمام باب عالٍ، وقال له الحارس: «ادخل، إنه بانتظارك!».

شكره تالزو وفتح الباب. دخل غرفة واسعة نسبياً، فقيرة الأثاث، لكن دفء مجمر الفحم الضخم بناره التي تئز جعل جوّها محمولاً. شدّ معطفه حول جسمه بشدة وانتظر، إذ لم يكن في الغرفة أحد.

«اقترب من النار!». قال هنوتي داخلاً من مخدع جانبي صغير، وأردف: «اجلس. أتريد أن تأكل شيئاً؟ أنتم الشباب جائعون دائماً!». صفق بيديه عالياً وأعطى تعليماته للخادمة

التي دخلت، ثم قال لتالزو ضاحكاً عندما لاحظ نظراته المتنبّهة: «إنها جميلة، أليس كذلك؟ خذ!». وناوله قدحاً مملوءاً بشراب ساخن ذي رائحة طيبة. أخذه تالزو وارتشف نبيذاً مبهّراً وممزوجاً بالعسل. أغمض عينيه. لقد ذاقه في البيت مرات، دون أن يبالي به. أما الآن فقد بدا له أن الأرباب أنفسهم لن يحصلوا على أفضل منه. كان وزملاؤه يحصلون مع الوجبات على جعة لا بأس بها، لكنها لا تقارن بجعة زِسَّر الممتازة القوية بكحولها، والتي لم يجربها سوى مرة واحدة أثناء المأدبة الملكية في أدانيا. وهذا يعود إلى غابر الأزمان.

أخذ هنوتي يراقب ابن أخته. لا شك في أن تانوا منذ هروبه من البيت قد تخلّى عن كثير من رفاهيات العيش التي ألفها. لكن هذا حتماً لم يُلحق به أي أذى. أليست المتعة الآن أشد تأثيراً؟

أحضرت الخادمة أرغفة خبز طازج ساخن وصحوناً مملوءة بالزيتون والحمّص المهروس (المسبَّحة) والجبن والفواكه المجففة.

«أليست كنزاً؟». وغمز هنوتي باتجاه الخادمة، التي لم يخطر في بالها أن تستجيب، ثم قال لها بحيوية: «عودي لاحقاً يا حمامتي الصغيرة!». ثم ملأ صحنه من كل الأنواع وأشار لتالزو كي يحذو حذوه، فلم يتمنّع أبداً. وأثناء تناول الطعام بدأ هنوتي الحديث.

«الملك، كبير قادة العربات القتالية، سيفرح بك فرحاً شديداً. فأنت لا تُحسن التعامل مع الخيل بصورة ممتازة وحسب، بل وعندك القدرة الضرورية على تفهّمها. كما أنك كما يبدو تمتلك معرفة جيدة حول تربيتها وترويضها، لأنك نشأت في كيزواتنا»، وقال الجملة الأخيرة بسرعة ليستبق إشارة تالزو إلى أهم بضاعة للتصدير من وطنه ثم تابع: «احكِ لي، كيف حصل هذا؟ حتى الآن كنت أتصور أنه ليس ثمة ما يشغل بال العجوز إحيًا سوى مخزن البضائع!».

ارتبك تالزو. ما هذه الطريقة التي حكى بها هنوتي عن أبيه؟ ثم تذكر أنهما أصدقاء منذ الطفولة، فاسترخى قليلاً، لكنه بقي متنبهاً. لم يكن لديه أي تصور عن المسار الذي سيأخذه الحديث، فحتى الآن كان خاله تجاهه غير واضحٍ من حيث الموقف، أما بصفته رئيساً فقد كان واضحاً تماماً.

«منذ الصغر كنتُ أحب أن أتعلم وأن أعرف، وأمي دعمت ميلي هذا. كانت تتكلم معي بالحثّيّة ولقّنتني بدايات القراءة والكتابة، وكانت في السنوات اللاحقة ترشدني دائماً إلى نصوص معينة من مكتبتها -معظمها نصوص دينية- وذات يوم وأنا أفتش الرفوف عثرتُ على رُقُم مدرّب الخيل. هكذا كان الأمر».

استعاد هنوتي في ذاكرته جيداً، أنه كلما سُئلت أخته عما ترغب في إرساله إليها من حتّوشا، لم يكن لديها سوى رغبة واحدة: كتب من كل الأنواع. وكان هذا مفهوماً إلى حد بعيد، فمنذ يفاعتها كان مخططاً لها أن تلتحق بخدمة المعبد، وهذا يشترط إتقان القراءة والكتابة، لكنها من ثم صارت زوجة وأماً. وحتى إحيّا نفسه كان يجلب من زياراته لبلد زوجته، كتباً دائماً، ويُظن أنه كان يرشو بعض الكتبة لينسخوا له كتباً معينة. وهذا يعني أن ولع كالي بالكتب جاء لمصلحة ابنها تالزو.

التقط هنوتي الخيط ثانية بقوله: «أي أن موهبتك قد تزاوجت مع أساسٍ نظري متين. عليك التفكير بتأهيلك لتصير محارباً على عربة قتالية. من يدري، فقد تترفع بمساعدتي لتصبح بسرعة واحداً من مقاتلي العربات الذهبيين. وعند ذلك لن تكون فقط مسؤولاً عن مجموعة كبيرة من المحاربين وتدخل المعركة إلى جانبي، بل تصير عضواً في مجلس الأعيان ومجلس الشيوخ، ويصير عملك لصيقاً بالملك. وهذا هو ما تتمناه لنفسك!».

«هذا صحيح. كنت دائماً أتصور أنه سيكون رائعاً أن أكون في خدمة الملك، ولكن ليس كمحارب!». كان صوت تانوا ثابتاً وهو يقول ذلك.

«لكنك تتقدم بصورة ممتازة. راقبتك مرات عديدة، أكثر مما تتوقع، وسألت النقيب عنك. وقد شهد لك بالقدرة الكبيرة والإقدام في جميع أنواع التدريب، وأكد استعدادك الدائم لتحمل الصعوبات. ففي حين كان بعض الآخرين يتخاذلون ويتكاسلون أو يتمارضون أو يجنحون إلى الراحة، كنت أنت دائماً تتحمل بصلابة. وأنا راضٍ عنك للغاية!».

أخذ تانوا يسخن ويبرد. ها هو ذا المديح الذي تاق إلى سماعه. وليس هذا فحسب، فلقد عرض عليه خاله حمايته الكاملة، وعلى نحوٍ كان يستبعده حتى الآن قطعياً. وللحظة خطر بباله أن خاله يختبره فحسْبُ بهذا الكلام، إلا أنه لم يصدّق الفكرة، لأن هنوتي كان يبدو فعلياً فخوراً إلى حدٍّ ما بأن يكون هذا الشاب ابن أخته. ثمة احتمال كبير إذاً لبلوغ مكانة رفيعة، بشرط أن يكون أداؤه في المعارك مثله في التمرينات. ولا شك في أن هذا سيساعده على الصلح مع أسرته، ولا سيّما مع والده. ولكن هل يبغي تعلّم مهنة تجلب الموت للآخرين؟ لا، ثم لا. بل يريد أن يبذل كل ما في وسعه لجعل القتل فائضاً عن الحاجة. فهل يجرؤ ويخبر رئيسه وقريبه بالحقيقة؟

صمت هنوتي مدة طويلة، تاركاً المشاعر المتناقضة في نفس تانوا تنهي معركتها، كما يبدو جلياً على وجهه. نظر تانوا في وجه هنوتي نظرة صريحة وقال: «لست مثل..»،

وانحبست الكلمات، ثم استعد مجدداً وقال: «إني لا أحب القتال أبداً، وأمارسه ضد قناعتي!».

لم يصدق هنوتي أذنيه. ماذا يتخيل هذا الفتى؟ أنا ذراع الملك اليمنى الضاربة سنة وراء سنة في المعارك من أجل المملكة، أنا الذي أضحي بنفسي يومياً في سبيلها، ويعارضني! حاول جهده أن يبدو مسترخياً، مع شعوره بفوران الغضب في داخله.

«أهَا، عجبي، عجبي. المقاتل المتمرس يتكرم علينا من حكمته. ما معنى هذا؟ أيحتاج القتال إلى رغبة وقناعة؟ إنه بكل بساطة ضرورة وحسب. وإلا فكيف ستسكِت خصومك وأعداءك؟ نوِّرني!».

«مع كل الاحترام يا خالي، أنا أعتقد أن هناك وسائل وطرقاً أخرى. فلماذا لا تكون هذه الإمكانيات الأخرى مفيدة أيضاً للمملكة؟ ألم تُبرم اتفاقات كثيرة مع ملوك آخرين من دون أية مواجهات عسكرية؟».

«طبعاً لا بدّ من تجنّب سفك الدماء إن أمكن ذلك. ولكن ليست هذه هي المشكلة. ما الحاجة إلى هدر قوى عاملة ثمينة، إن لم يكن ذلك ضرورياً. ولكن غالباً لا يوجد سوى هذا الحلّ! فكّر بمملكة ميتاني! فكّر بالكشكيين! وبوسعي أن أضيف كذا بلداً وكذا شعباً. نحن بحاجة إلى الأرض لكي تزدهر المملكة. نحتاج إلى حدودٍ آمنة، لنتمكن من العيش في سلام. وهذا لا يأتي من الهواء، هكذا ببساطة. مشكلتك أنك لا تعرف شيئاً في هذه المسائل!».

«لست واثقاً من ضرورة قتلي لإنسانٍ ما، كي أعرف لاحقاً أن الأمر لم يكن صائباً!».

«حتى الأرباب يخوضون معارك، فكّر بربّتكم شاوشَغا!». وازداد هنوتي غضباً.

«إنها ربة حرب من المقام الثاني، لكننا نعبدها بصفتها في المقام الأول ربة الحب!».

إنه ببساطة لا يُحتمل. هذا الفرخ لا يكف عن النقاش، لم يفقس من البيضة بعدُ ويعرف كل شيء أفضل منك. لم يمر على هنوتي شيء من هذا القبيل سابقاً. كان لا بدّ من أن يتمالك نفسه، كي لا ينفجر. لكنه لن يستسلم لعملية التعرية هذه بأي حال من الأحوال، وهو الذي يعدّ واحداً من أهم رجال المملكة! ضبط نفسه وهدّأها، شرب جرعة نبيذ وقال:

«ورغم ذلك يدعم الأرباب الحرب، ويسبقون الجيش دائماً إلى أرض المعركة! وإذا كانت المملكة في شدّة فإنهم ينخرطون في المعركة مباشرة، بأن يثيروا العواصف ويرسلوا البروق، أو بأن يبتلوا الملك الخصم بالأمراض. أليس هذا تعبيراً عن إرادتهم؟».

«وكم من المعارك تُخسَر؟ فعلامَ يدلّ ذلك عندها؟».

«تانوا! إني أحذرك!». صار صوت هنوتي هادئاً إلى حد الخطر، وتعكر مزاجه بصورة قصوى، وبان ذلك في ملامحه وصوته: «لا تتمادَ! لا تأثم في حق الأرباب! يُحتمل أنك أجبن من أن تواجه العدو رجلاً لرجل!». وبذلك انتهى النقاش.

في تلك الليلة نام هنوتي بصورة سيئة. وضجيعته التي ظهرت حسب أمره بعد مغادرة تانوا، طردها، مع شعوره بالأسف لخيبة أملها الجلية. رغم طبيعتها الجافة كانت تحبه بإخلاص، وقد أثبتت ذلك لهنوتي مرات عديدة. وكان من عادته أن يتقبل عاطفتها شاكراً. أما اليوم فقد أراد البقاء وحيداً ليفكر.

لماذا لا يجد المدخل الصحيح إلى تانوا؟ كلما التقيا، بدا الأمر واعداً جداً، لينتهي من ثم بغضب الطرفين. لماذا يتعنت الفتى بهذه الصورة؟ لقد قدم له عروضه، فرفضها، بصورة تكاد تكون وقحة.

في صباح اليوم التالي كان غضب هنوتي قد خفّ، لكنه لم يخمد بعد. وبدلاً من أن يلتفت بتركيز إلى المهام المتوجب عليه القيام بها، أخذ يذرع القاعة جيئة وذهاباً بقلق وسوء مزاج وحيرة في ما عليه عمله. حرّكه حافز ما، فتمنطق بسيفه وغادر القصر، محاطاً بنظرات مرؤوسيه المندهشة، الذين كانوا بانتظار تعليماته. هواء الشتاء النقي البارد سيفيده لا شك. كان نهاراً مشرقاً. في البعيد انتصب جبل النار بفوهته المستديرة مغطى بالثلج.

وجّه هنوتي خطواته نحو ساحة التدريب، حيث بدأت التدريبات منذ مطلع النهار. بناء على إشارة من النقيب المشرف توقف الجميع وأنزلوا أسلحتهم تحيةً لقائدهم العام. كان هنوتي في العادة يمازحهم أو يشجعهم ببعض الكلمات، يعطي ملاحظاته، يصحح، يوبخ أو يمدح. أما اليوم فإن وجهه العابس لم ينبئ بخير.

«تابعوا!». قال ذلك بصيغة الأمر. وقف جانباً في مكان مرتفع قليلاً، واستعرض بنظره جمع المتدربين الذين عرقل وجوده حرية حركاتهم، فصمتوا وتابعوا الاشتباك بأسلحة التدريب. وبعد برهة قصيرة زمجر غاضباً: «إلى أين سيوصلنا هذا برأيكم؟ أهذا كل ما تقدرون عليه؟ لا شك في أن عدوكم سيسر بمواجهتكم، لأنه سيجندِلكم كعيدان القش. أعطوني انتباهكم الآن وانظروا كيف يجب أن يكون القتال!».

تقدم هنوتي إلى وسط الحلقة التي شكلها المتدربون بسرعة فائقة، فالكل كان يعرف

أنه لا مزاح بتاتاً مع حاكم البلاد السفلى والقائد العام للقوات المسلحة الحثيّة، ولا سيّما في مزاجه هذا.

«تقدم أنت!». قال آمراً مشيراً نحو تانوا.

«أعطِه سيفاً حقيقياً!»، أمر النقيبَ بحزمٍ واستلّ سيفَه من غمده.

هيمن السكون على الحلقة الآن، بحيث بات يُسمع صوت ريشة ساقطة. حبس الجميع أنفاسهم. ميتا ومورسيلي شحبا وصارا بلون الكلس. من جميع الموجودين لم يقع خيار القائد إلا على تانوا ليطبّق عليه ملاحظاته. أيها الأرباب، ساعدونا!

وقف هنوتي وتانوا متقابلين. أخفضا سلاحيهما كتحية متبادلة، مثلما يليق بالسادة الأشراف. كان هنوتي يتمسك بالقواعد جميعها بشدة، ولم يتراخَ بأي منها بسبب تانوا، الذي كانت ضرباته الجيدة مدعاة للدهشة. وتدريجياً نسي زملاؤه مَن يبارز مَن، وصاروا يشجعون تانوا بصيحات عالية، ولكن بمرور الوقت لم يفده التشجيع شيئاً. لم يكن بمقدوره التجلد طويلاً في مواجهة هذا البطل المجرب. أخذت مقاومة ساقيه تتراجع شيئاً فشيئاً، كلما ازداد بذلاً للطاقة. ولم تعد مناوراته تكفي لتفادي الجروح التي أخذت تتكاثر الواحد تلو الآخر. صحيح أنها لم تكن خطيرة، لكنها مؤلمة. وأخيراً تعثر وهوى أرضاً. وفي التو واللحظة ارتدّ هنوتي عنه وأعاد سيفه إلى غمده. تبادلا نظرة طويلة.. الشاب ملقىً على أرض الشتاء الباردة وهو يتنفس بصعوبة، والمنتصر فوقه من دون دلالة واضحة على الجهد الذي بذله.

وأخيراً التفت هنوتي عنه ورفع نظره إلى الآخرين الساكتين وقال: «هكذا يكون القتال! اعتبروا زميلكم مثالاً، أيها الخَرِعون».

كان موضوع الحديث أثناء تناول طعام الغداء المبارزة الإيضاحية بين الاثنين، رغم غياب الشخص الرئيسي تانوا. لقد ساعده كل من ميتا ومورسيلي، إذْ لم يكن قادراً على النهوض وحده، فحمله الصديقان إلى سريره في المهجع، ووافاه ميتا بحساء ساخن من المطبخ، لكنه لم يرتشف إلا القليل منه. كل ما أراده هو أن ينام.

في الليل أصابته قشعريرة. استيقظ مورسيلي على أنين صديقه الذي كانت أسنانه تصطك بشدة. فردَ فوقه معطفه الدافئ؛ دونما فائدة. كانت جبهته حارة مثل النار، ونتيجة شعور مورسيللي بالعجز استلقى إلى جانب تانوا كي يبث فيه الدفء، منتظراً برعب انبلاج

الفجر. ساءت حالة تانوا، فقرر مورسيلي إعلام النقيب المشرف. الجروح السطحية التي أصابت تانوا بقيت من دون تطهير، وهي بالتأكيد مؤلمة. لكن معرفة ذلك لم تكن ممكنة، لأن تانوا كان عاجزاً عن التعبير عن نفسه.

هز النقيب المشرف كتفيه مستخفاً بالأمر كله، بعد سماعه تقرير مورسيلي، وقال: «على تانوا الطيب أن يتحمل. لا يمكن لهذه الجروح السطحية المعدودة أن تكون بهذه الخطورة. سيشفى بسرعة. دبِّر له مشروبات ساخنة!».

احتار مورسيلي في أمره. كان واضحاً له أن تانوا لا يعاني فقط نتائج المبارزة. فهذه الحمى الشديدة لا تتأتى فقط عن المبارزة بالسيف. لربما كان الانتظار هو الحل. حاول مورسيللي أن يسقي تانوا جعة ساخنة، ثم دبَّر حجراً ساخناً وألصقه بقدمي تانوا المتجمدتين برداً. لم يكن باستطاعته أن يفعل الآن أكثر من ذلك، إذ عليه أن يبدأ خدمته. لكن قلقه على صديقه لم يفارقه. فماذا إنْ تدهورت حالته؟ هو الوحيد في الكتيبة الذي يعرف أصل تانوا وصلة القربى بينه وبين هنوتي. أفلا يجب عليه إطلاع القائد العام على وضع ابن أخته؟ قبل حلول المساء تمكّن مورسيلي أن ينسلّ قليلاً من الخدمة. وجد تانوا مستلقياً بهدوء، ولكن بدل الحرارة العالية كان جسمه كله بارداً. هزّه مورسيلي وناداه باسمه، لكن تانوا لم يتحرك ولم ينبس ببنت شفة. وضع أذنه على صدر تانوا، فسمع قلبه ينبض ولكن بضعف.

«كيف حاله؟»: سأل ميتا الذي دخل لتوه.

«إنه فاقد الوعي، لكنه حيّ. ابقَ إلى جانبه ميتا ودفّئه بقدر ما تستطيع. سأعود حالاً!».

بعناد وعبوس مر مورسيلي على حواجز القصر كلها. لا بدّ من أن يكلم القائد العام وجهاً لوجه، وهو لا يريد أن يذكر السبب للحرس. سخر الحرس منه وطردوه، لكنه بقي في مكانه، مبتهلاً إلى الأرباب حفظ حياة تانوا، وأن يتفهم أحد الحرس حاله ويسمح له بالمرور. أخيراً كوفئ صبره وإصراره. أخذه أحد الخدم معه إلى الطابق الثاني. وهناك نجح في إقناع خادمة، تقدم وجبة المساء لهنوتي، بأن ترجوه الإصغاء إليه قبل فوات الأوان. أخيراً فتح له الباب، فاندفع داخلاً الغرفة التي تناول فيها هنوتي الطعام البارحة مع ابن أخته. ومن دون أن ينتظر سؤال هنوتي له، ركع أمامه وشرح له وضع تانوا.

«ما اسمك؟». أراد هنوتي أن يعرف، وعندما سمع اسم هذا المندفع من أجل تانوا، قال: «من المطمئن أن أعرف أن لتانوا صديقاً مخلصاً يُعتمد عليه. اذهب الآن، سأهتم أنا بكل ما هو ضروري!».

هز مرضُ تانوا هنوتي أكثر مما كان يتوقع. تلاشى غضبه بصورة كاملة. شعر بقلق شديد بشأن علاقته بالفتى الذي بات في وصايته. هل ستحسن الأمور حقاً، حسبما وعد مورسيلي؟ ماذا إنْ كان الأرباب... ومنع نفسه من متابعة الفكرة.

لقد تبارزا بالكلمات وتقاتلا بالسيوف. أما حان الوقت للوئام؟ عندئذ لا بدّ لتانوا من أن يتنازل ويدرك أنه كان يفكر في مصلحته. ولكن ألم تكن رغبة هنوتي الذاتية التي أراد فرضها، هي أن يصير تانوا مقاتلاً، مثله؟ كي تتحدث الأجيال القادمة عن سلالة المحاربين الشهيرة. أكان الوعد برعايته نابعاً فقط من غروره بنفسه، رغم أن هذا يتعارض مع مبادئه تماماً؟ لا ضرورة للرعاية، عندما يثبت المرء نفسه دفاعاً عن موقفه. طبعاً ما كان لهنوتي أن يغض النظر ويسكت عن الطريقة التي وصف بها تانوا حرفة الحرب، فهم ليسوا قتلة! إنهم يمارسون عملهم في سبيل الأرباب الذين يدعمونهم. ولكن أما كان عليه، على الأقل، أن يحترم موقف تانوا؟ فهو حقاً ليس جباناً. لقد أدرك هنوتي أن اتهامه لم يكن مبرراً، وأن رد فعله كان عنيفاً. لقد أخرجه الفتى عن طوره بسهولة، كما كان يحدث أيام شبابه؛ فقد كان حاد المزاج سريع الغضب. لكن الطبع الحامي شرط لا بدّ منه لمن يريد أن يكون مقاتلاً متميزاً. إنه يدور في حلقة مفرغة. متى كان الأغرار يقررون بأنفسهم مستقبلهم؟ أليس على الغرّ أن يحذو حذو أبيه؟ – هراء، قال هنوتي لنفسه. على الإنسان أن يجلس في المكان الأنسب لمؤهلاته. هل أخذ هو مهنته عن أبيه؟ لا، وهذا السؤال لم يطرح في حينه من الأساس: والد الملك الحالي كان بحاجة إلى كل رجل للدفاع عن مملكته المستباحة المغزوة. منذ اليوم الأول الذي قدر فيه على حمل السلاح، دخل هنوتي المعركة وراء الملك تودهاليا إلى جانب شوبيليوليوما الذي يماثله سناً. بعد ذلك قادا حملات أخرى وحدهما، لأن الحرب كانت مفتوحة على عدّة جبهات ضرورية على حدود المملكة.

تابع هنوتي محاولة تنظيم أفكاره. ألا يحتمل أنه ببساطة يريد الاحتفاظ بتانوا قربه؟ وعند ذلك يستطيع أن يوليه عناية أكبر وأن يراقبه، وهذا سيرضي أخته. أفلم توصِه به؟ ولكن ربما كان هناك سبب مختلف تماماً لعدم رغبته في الانفصال عنه. أيحبه يا ترى؟ صعب على هنوتي الإقرار بهذه الفكرة، فهو محارب خشن، قدوة تُحتذى لأتباعه، ودعامة الملك الرئيسية. لهذه الأسباب معاً كان يتجنّب دائماً إبداء مشاعره، أو أن يرتبط بأحد، بأي أحد إطلاقاً. ولكن لا بدّ الآن من أن يعترف لنفسه بأن تانوا قد احتل مكاناً في قلبه. إنه معجب به وفخور به ولسوف يساعده. لقد حسم أمره واتخذ القرار بأن يوصل تانوا بكل الوسائل إلى المكان الذي يجد نفسه فيه سعيداً ومفيداً. حتى ولو كان في ذلك خطر أن

ينفصلا أحدهما عن الآخر. ولو تعلق الأمر بهنوتي وحده، لما انفصلا ثانية أبداً. وأقسم على ذلك بالربة تَرهونا. لا بدّ للأرباب من أن ينقذوا حياة هذا الفتى البريء وسيحاول استعطافهم بأضحياته.

حالما يستعيد تانوا قواه سينطلق هنوتي نحو حتّوشا، كي لا يطيل انتظار الملك له. وسيستشيره في أمر تانوا. أنسب مكان له من وجهة نظر هنوتي، لدى كبير الكتّاب الذي يمسك بالشؤون الإدارية للمملكة ويشرف على المراسلات الدبلوماسية والعلاقات الخارجية كلها. وهو يفضّل أن يتلقى تانوا تعليمه هناك، ثم ينتقل للعمل في خدمة الملك، وخدمته مراسلاً حربياً ومترجماً أو مرافقاً للبعثات الدبلوماسية والحملات العسكرية. فيتعرف بذلك على المملكة كلها وحدودها، ويكوِّن لنفسه فكرة عن البلدان التابعة لها، وعن الأعداء على نحو خاص. ممتاز! لم يبقَ سوى أن يشفى تانوا بسرعة.

**

عند انبلاج الصباح غادر هنوتي پوروشخندا القارسة مع بعض ضباطه وتانوا ومورسيلي وكتيبة المرافقة ومجموعة الحرس الخاص. لم يبقَ الكثير حتى هلال بداية الشتاء، وكان هدف هنوتي الوصول إلى حتّوشا في الموعد المحدد للمشاركة في العيد. ناقشوا مطولاً أي مسار للرحلة سيطرقون. المسار الذي يوفر لهم سقفاً آمناً كل ليلة ويمر عبر نيناسّا، نيسا، معبر مراسَنتا، كوسّورا وتاوينيا إلى حتّوشا، والمعروف من قبل الجميع عدا تانوا، والذي يحتاج إلى أيام كثيرة، قد تتجاوز موعد العيد.

«وما المسار البديل؟». سأل تانوا هنوتي.

«هناك بديلان آخران، وكلاهما أقصر. أولهما السير تقريباً بمحاذاة الشاطئ الشرقي لبحيرة تاتّا حتى نهايتها شمالاً، ثم نعبر نهر مَراسَنْتا قرب تيپوا على الضفة الشرقية، حيث يمكننا التزود بمؤونة طازجة. ومن هنا إما أن نأخذ طريقاً مباشراً نحو حتّوشا يؤدي إلى الطريق الرئيسي عند تاوينيا، أو نتبع نهر مراسّانتا باتجاه الشمال حتى تقاطع الطريق الشرقي الغربي وننعطف عنده نحو الشرق. هذا الأخير أطول قليلاً، لكنه مريح أكثر. لكنني لا أريد أن أخفي عنكم أن لكلا البديلين مساوئ كثيرة»، ونظر هنوتي في أعين رجاله بجدية.

«مثل ماذا؟».

«المسلكان ليسا معبّدين. علينا أن نمتطي دوابنا، لكننا لا نستطيع ذلك طوال الطريق.

هناك مسارب تجبرنا على جرّ الدواب وراءنا من أرسُنها. ولا فكرة لدي عن حال الثلوج هناك. لكن هذا كله قد يكون الجانب الأقل سوءاً».

«والأكثر سوءاً؟».

تيقّظ الجميع. أخذ هنوتي نفساً عميقاً ثم قال: «في الصيف الماضي، في منطقة تابيكّا في الشمال ألحقنا هزيمة كبيرة بالكشكيين اللصوص الأشقياء، واسترجعنا من قبضتهم مناطق كانوا قد اغتصبوها عنوة. لكن المعركة كانت مع قبيلة واحدة من قبائل الكشكيين. وبعد ذلك أبرمت معها معاهدة، لكن بقية القبائل من الأنذال، لم تولِها أي اهتمام. رجال استطلاعنا أخبرونا مؤخراً أن كثيراً من هذه القبائل بعد الهزيمة قد عادت إلى مضاربها».

«إلى مضاربها؟ إلى أين؟».

«بحثوا لأنفسهم عن مراع ومضارب جديدة، في الشرق وفي الغرب، بالتحديد، علم ذلك عند الأرباب. مقاطعاتنا الشمالية الغربية: تومانّا ويِلا وكَلاسْما صارت بأيديهم. سيكون أمامنا في السنوات القادمة عبء كبير لحصرهم داخل حدودهم، لا تنسوا هذا! ويبدو أن بعض العشائر قد دخلت تورميتّا واحتلتها بنيّة استيطانها بقبائل كشكية. وبهذا يكونون قد ضربوا إسفيناً طويلاً في جسم المملكة من شمال پوروشخندا مباشرة. وأخمّن أنهم قد توسعوا على الجانب الشرقي من نهر مَراسّنْتا، فالنهر ليس عائقاً إذا تجنّب الإنسان مواسم الفيضان ومنحدرات النهر الجارفة. ويشاع أنهم قد احتلوا الطرف الشمالي من بحيرة تاتّا، حيث تتاح للمرء أفضل إطلالة على البحيرة كلها، بل ولأبعد منها حسب صفاء الجو. فإذا بالغنا قليلاً يمكن أن نقول إن الكشكيين يقفون عند باب دارنا!».

ساد لغط غرفة الاجتماع إلى أن قال أحد الضباط: «إذا قرأنا الوضع بوضوح: نحن نجهل ما إذا كان جزء من الطرق غير سالك، بسبب الكشكيين الهائجين الذين يعتبرون الحتّيين عدوهم اللدود. صحيح؟».

بعد نقاش طويل وكثير من الأخذ والرد، اتفقوا أخيراً على أقصر الطرق، آملين ألا يلتقوا وجهاً لوجه بالكشكيين، وأن يتمكنوا من تذليل مخاطر أسوأ البدائل. وقد استحسن تانوا عدم اتخاذ هنوتي القرار وحده ببساطة، بل إشراكَ جميع الآخرين في حسم الخيار. وهذا بحد ذاته ينم عن ذكاء، فقد توزعت المسؤولية الآن على الجميع بالتساوي، علماً بأن بعض كبار الضباط كان يُحتمل أن يسلكوا على نحو مغاير. وموقف هنوتي هذا عمّق قناعة تانوا بسبب تبجيل الجنود قائدهم على الرغم من صرامته. ففي مواقف الشدة يكون دائماً وببساطة واحداً منهم، يدعمهم مثلما يدعمونه.

أعاد تانوا التفكير مرة أخرى بمجريات الأيام الفائتة، بالأزمة التي اصطخبت داخله. أكان مجرد كرة لعبٍ بالنسبة للأرباب والبشر؟ أهو ملزم بتنفيذ إرادتهم؟ هل كانت تصوراته خاطئة؟ وأخيراً أنقذه هنوتي، أطباؤه عالجوه، وهو نفسه لازمه طوال الوقت، أمسك بيده وجفّف جبينه ورطّب شفتيه. واعترف قائلاً: «أنا كنت مخطئاً - لا، لا تقل شيئاً الآن، سنوضح الأمور كلها ونناقشها عندما تتحسن حالتك. أما الآن فما علينا سوى الصلاة لأربابنا الذين بأيديهم مصائرنا، ويحيطون بكل شيء علماً، وعندئذ ستنام بهدوء لتشفى بسرعة».

أطلعه هنوتي على خطته لأن يصحبه معه إلى حتّوشا وليحادث الملك بشأنه، كي يلحقه بالإدارة الملكية ليتلقى التعليم الضروري، ولا سيّما أنه يمتلك معارف تأسيسية ويتقن عدّة لغات، ولا شك في أن الأمور ستسير بسرعة وسهولة. كما أنه سيتعرف على العائلة. لم يعد الأمر سراً: في پورو‌شخندا بات الجميع يعرف أنه ابن أخت هنوتي، ومنها سينتشر الخبر في الدنيا كلها. وبذلك تحول تالزو نهائياً إلى تانوا.

في هذا اليوم كان تقدمهم ممتازاً. وقبل أن يخلدوا إلى النوم قال هنوتي: «إذا تقدمنا غداً مسافةً تماثل التي قطعناها اليوم، فسنكون قريبين من نقطة مخاضة مراسَتنا. وعلى الجانب الآخر من سلسلة الجبال سنكون في مأمن من الكشكيين».

انطلقوا ثانية مع الفجر، ولم يطل بهم المسير حتى بزغت الشمس إلى يمينهم مثل كرة حمراء فوق الجبال المغطاة بالثلج، ثم تسارع ارتفاعها حتى سطعت بكامل بهائها. اتجه بهم الدرب شمالاً، وكلما تقدموا ازداد توترهم، حتى وإن لم يأتِ أحد منهم على ذكر الموضوع بكلمة. كان المهم بالنسبة إلى هنوتي ألا يتفرقوا. «من ناحية تحمل الدواب خيامنا وكافة المعدات الأخرى اللازمة للمبيت، ومن ناحية أخرى لا أريد أن أخاطر. فإذا صادف أن التقينا بكشكيين هنا، فمن المهم أن نكون كلنا معاً!».

«ما سبب كل هذا الاهتمام بالكشكيين؟ لا أظن مملكة بقوة حتّوشا قاصرة عن الانتهاء منهم كمشكلة متكررة. إنهم كما قلت، رعاة رُحّل، يتنقلون صيفاً طلباً للكلأ ويقضون بقية الوقت في مضارب كالقرى الصغيرة. يبدو أنهم مسلّحون جيداً ومنظّمون!».

«ليس كل الكشكيين سواء». اكتفى هنوتي بهذه الملاحظة وأصدر أوامره: «سنغيّر ترتيب القافلة. أنتم!». وأشار إلى ميتا وجنديين آخرين: «ستتولّون معي الطليعة. أحدكم

يؤمّن الارتباط، في حال تخلفت المؤخرة. قم أنت بذلك! وأنتما تحرسان مؤخرة القافلة كي لا نفقد أحداً»، وأشار إلى تانوا ومورسيلي.

«هيا إذاً!». والتفت إلى تانوا قائلاً: «سنكمل حديثنا عن الكشكيين في وقت لاحق، ثمة ما يجب أن تعرفه، ولكن ليس في حديث عابر على الطريق. هيا انطلقوا!».

سارت الأمور كلها من دون معوقات، رغم أن الجزء الأخير من الدرب كان خطراً. وحتى وصلت دواب الحمل وتانوا ومورسيلي إلى مكان المبيت قرب سفح الجبل، كان قد حل الظلام. على ضوء المشاعل جُمع الحطب وأوقدت النار ونصب معسكر بسيط. وسرعان ما حصل كل منهم على حساءٍ ساخن مشبع.

لاحظ تانوا أثناء الطريق بعض الجنود يجمعون حَطباً. أما أغصان البلوط الرفيعة وسلخات الخَشب الجافة لإيقاد النار، فكانت تؤخذ عادة من نقطة الانطلاق وتُحفظ ككنز. أما كيف يتم إشعالها فكان لتانوا لغزاً، لذلك طلب من الوقّاد أن يفسّر له العملية.

«انظر، في هذا الصندوق الصغير الخاص، الذي يجب ألا يرشح إليه الماء أبداً، أحفظ المادة السريعة الاشتعال، ويفضَّل أن تكون من الصوفان المجفف أو من أي مادة مشابهة أخرى كالخشب الميت وعيش الغراب. تُجهَّز هذه المادة أمامك ثم تأخذ حجر صوان قاس وتقدحه على حجر بوريطِس بهذه الطريقة. هل رأيت؟ الحجر الثاني يولّد شرارة تشعل المادة. بسرعة الآن أضع على اللهب سلخات مشربة بالراتنج وبعض الغصون الصغيرة، فتشتعل النار». وأضاف مورسيلي: «عند الضرورة يمكنك استخدام عصوين أو حجرين، وسيمشي الحال، لكن النار لن تبدو احترافية كهذه!».

الصباح التالي كان مشرقاً ومنعشاً. لكنّ هطَلَ الثلج لم يكن مستبعداً. تبعوا فرعاً صغيراً من مراسانتا وتركوا المنطقة الجبلية بأسرع ما أمكنهم. وفي الوادي بدا كل شيء هادئاً ومسالماً. لم يمروا في طريقهم بأي مستوطنة. عندما وصلوا ثانية إلى مراسَنتا الذي كان إلى يمينهم، غزير المياه وعريض المجرى، انعطفوا نحو الشمال وساروا بموازاته مع التيار.

«لم تعد نقطة المخاضة بعيدة!».

«مياه النهر غزيرة جداً».

«لأن الأمطار كانت غزيرة».

«أتساءل كيف سنعبر إلى الضفة الأخرى».

«سباحة!».

مل الرجال. والثرثرة استمرت على المنوال نفسه. فجأة دوّت صفرة حادة كأنها صوت طائر جارح. وفوراً أشار هنوتي بالتوقف. تانوا ومورسيلي اللذان شكّلا الطليعة اليوم رمَحا عائدين وتوقفا عند هنوتي.

«المخاضة هناك».

«رائع. فلنسرع إذاً ولنعبر إلى الضفة الأخرى!».

«لكنها ليست حرة!».

«ماذا تقصد؟».

«حسبما رأيناه، هناك على الضفتين ناس وقطعان ماشية».

«حتيون؟ لوفيون؟».

«لا هذا ولا ذاك، حسب الخيام والملابس. لست متأكداً تماماً، لكني أعتقد أنهم كشكيون». أجاب مورسيلي.

«هل رأوكما؟».

«لا أظن!».

«إذاً، لا تعرفان. حسناً»، والتفت هنوتي إلى الرجال وأمر: «خذوا التشكيل فوراً!». وبكل انتظام اتخذ الجنود شكل إسفين، تمركزت دواب الحمل في وسط مؤخرته العريضة محروسة من قبل جنديين وراءها. بقوا هكذا فترة، دون أن يتحرك شيء أمامهم، وحتى المنعطف التالي كان حوض النهر مرئياً جيداً.

«ورطة. لم أتوقع وجودهم على الضفتين معاً. توقعت وجودهم أبعد شمالاً. يحتمل أنهم مرتبكون لوجودنا كارتباكنا لوجودهم. ويحتمل أن تكون تيپّوا في أيديهم، رغم أني لا أتصور ذلك. فهي محصّنة جيداً. ولكن مع رعاة خنازير كهؤلاء، على المرء أن يحتاط لكل شيء. فعلى كل حال، قبل وقت غير بعيد غزوا حتّوشا نفسها ونهبوها».

لم يسبق لتانوا أن سمع بذلك. أيّ نوع من البشر هؤلاء يا ترى؟

«علينا أن نفكر جيداً»، تابع هنوتي: «فكرة أن نهاجمهم، لا أحبذها، رغم أني لم أكوِّن لنفسي صورة عن الوضع بعد. لكن وجود خيام وقطعان في حظائر يعني أنهم يبحثون عن مراع للشتاء حتى على الضفة الأخرى، حيث توفر غابات البلوط وأشجار الأحراج كلأً

معقولاً. الأمر الآخر هو وجود رجالهم كلهم. حتى إذا كان عنصر المفاجأة لمصلحتنا، فلا يمكننا التغلب عليهم إلا على هذه الضفة. أي أننا لن نستفيد شيئاً».

«علينا التوجه جنوباً إذاً».

«لا! لن أتراجع بهذه السهولة. الالتفاف سيكلفنا عدّة أيام».

«وهنا قد نخسر حياتنا!».

رمى هنوتي المتكلم بنظرة غاضبة أسكتته. فعلّق آخر:

«نحتاج إلى قارب أو إلى طوف، أليس كذلك؟ عندئذ نتمكن من تجنّبهم من دون أن نضطر للالتفاف جنوباً».

«بماذا تهرف يا رجل؟ من أين لنا في هذه الضائقة بقوارب أو ظروف منفوخة للعبور. وحتى لو وجدناها، علينا البحث عن مخاضة ملائمة للعبور».

«لماذا لا نكلّمهم ببساطة؟».

بعد سؤال تانوا هذا صمت الجميع، لكن كل واحد منهم أخذ يفكر وحده: نكلمهم؟ هؤلاء المجرمين؟ كيف سنكلمهم؟ هل بيننا هنا من يتكلم الكشكية؟

نظر هنوتي إلى ابن أخته مفكراً. لطالما أدهشه هذا الفتى. كان واضحاً أنه لا يمزح. ففي نهاية المطاف وحسب رغبته، هذا ما سيحدد مستقبله: أن يتحدث إلى الناس، يتفاوض معهم، يقنعهم.

استمر الوضع أمامهم ساكناً على حاله. ليس ثمة ما يُرى أو يُسمع. حدق الجميع في هنوتي منتظرين قراره.

«جرّب! إذا فشلت جميع المحاولات، سنضطر لتخليصك بالقوة والهروب جنوباً».

رفع تانوا يده محيياً قائده واستدار بجواده، فإذا بمورسيلي يقول: «قف. ألا يمكن أن أرافقه؟».

«طبعاً، رافقه أنت وميتا. سنراقب من هنا ما يجري عند المخاضة. إذا نجحتم أعطونا إشارة. إذا تورطتم في مشاكل، تكفي صفرة كالسابقة التي أعجبتني! إذا لم تعودوا حتى المغيب، سنهجم. رافقكم الأرباب!».

لم يضطر الرجال إلى الانتظار طويلاً، فقبل العصر أخبرهم الحارس أن مورسيلي عائد على جواده نحوهم. وكانوا قد راقبوا قبل ذلك وصول الثلاثة إلى المخيم على هذه الضفة

وترجلهم ودخولهم إحدى الخيام، ثم سمعوا فجأة صفيراً ونداءات من الضفتين، ثم عاد وحل السكون حتى ظهور مورسيلي.

«يبدو تانوا قادراً على السحر أو ما شابه ذلك»، قال لاهثاً، وأردف: «يمكننا العبور، اتبعوني».

«وإذا كان هذا فخّاً؟».

«لا، ليس فخاً».

«وما أدراك؟».

«لأن تانوا وكبير العشيرة تحالفا أو تآخيا أو ما شابه ذلك. لم أستوعب الأمر تماماً. لكن تانوا يقول على كل حال إنه يضمن سلامتنا!».

تدخل هنوتي وقال: «ليس أمامنا خيار آخر. أخفضوا الحراب وحاولوا إخفاء السيوف، ولتكن خناجركم جاهزة، من دون إظهارها. لن نقاتل إلا بناء على أمري».

انحدروا بانتظام وصمت باتجاه المخاضة. وبالصمت نفسه وقف الناس على ضفتي النهر. بين الحين والآخر كان يُسمع ثغاء النعاج ومأمأة العنز. بدا وكأن الجميع يحبسون أنفاسهم. لم يكن مستوى ارتفاع ماء النهر عالياً، لكن التيار بدا خطيراً.

«عليكم التمسك بالحبل جيداً»، سمعوا صوت تانوا المألوف يخاطبهم، خارجاً مع ميتا من أكبر خيمة، بصحبة رجل عجوز، وقور الهيئة، سفعت الشمس بشرته. انحنيا له باحترام وامتطيا جواديهما وانضمّا إليهم.

«لقد جدلوا حبلاً من خيوط نباتية، لم أفهم ذلك تماماً. ولكن علينا التمسك به جيداً كي نقاوم التيار».

عبروا المخاضة من دون مشاكل، الفرسان والبغال التي جروها وراءهم. كان تانوا آخرهم، وعند وصوله إلى الضفة الأخرى استدار ولوح بيده عبر النهر. على هذه الضفة شكل الناس بأجسامهم زقاقاً عبره هنوتي ورجاله. وبعد فترة قصيرة انعطفوا نحو الدرب المؤدي إلى تيبوا بمحاذاة فرع صغير من مراسَتْنا باتجاه الشمال الشرقي، ولم يلتقوا بقية الطريق بأي كشكيين. مع أواخر الغسق بلغوا بوابة المدينة، حيث اكتفى حرسها باسم هنوتي وحده ليفتحوا لهم بسرعة، ولاستقبالهم خير استقبال.

مساء اندفع الزملاء إلى مورسيلي وميتا طالبين منهما إخبارهم بتفاصيل الحادثة، غير

راغبين بالانتظار حتى عودة تانوا من مقابلته مع هنوتي. بدأ مورسيلي الحديث مبتهجاً بالوجوه المتشوقة: «تعرفون ربّتنا شاوشَغا، مرة ترسلنا إلى الحرب ومرة تسبقنا إلى الحب. لا، لنترك المزاح جانباً. أعتقد أننا كنا تحت حمايتها، لأننا عندما اقتربنا من المضارب، التي يصعب منها فعلاً اكتشاف مجموعتنا، من تعتقدون أننا صادفنا أولاً؟».

«وما أدرانا. بمن؟».

«بثلاث صبايا جميلات، كن ينتظرننا نحن الشباب الثلاثة الوسيمين!».

«وكيف عرفتَ أنهن جميلات؟». اعترض ميتا: «لقد غطّين وجوههن بالمناديل فوراً!».

«على كل حال، لم يهربن زاعقات، أليس كذلك؟ بل قابلننا بودّ ورضا». وأخذ مورسيلي يذرع الغرفة جيئة وذهاباً كالطاووس، ثم تابع: «قام تانوا بعدة حركات بيديه، لا تسألوني عن معناها. بدا أن الفتيات فهمن مراده، فأشرن لنا كي نتبعهن بعد أن عقلْنا جيادنا. أثناء ذلك انتبه إلى وجودنا عددٌ آخر من العشيرة، لكنهم لم يقتربوا منا. أوصلتنا الفتيات إلى أكبر خيمة في المضارب، ودُعينا من ثم لدخولها. طلب منا تانوا أن نترك له أمر التفاهم، فتقيّدنا طبعاً بتعليماته وبسرور». فحصد موجة من الضحك. فتابع ميتا الحديث: «في الخيمة كان يجلس رجل عجوز - رأيتموه - على كرسي مغطى بفراءِ خراف رائعة. كان واضحاً أنه كبير العشيرة. وكان في الخيمة أيضاً شابان، ربما كانا ابنيه أو حارسيه الشخصيين. تانوا صلَّب ذراعيه على صدره»،

«ونحن أيضاً»، علق مورسيلي،

«وانحنى أمامه عدّة مرات»،

«ونحن أيضاً»،

«وأخيراً ارتمى على الأرض أمام العجوز».

«نحن لا». اصطخب ضحك الرجال حولهما وهم يضربون أفخاذهم بأيديهم. تابع ميتا قائلاً: «أشار العجوز لتانوا كي ينهض». فسأله أحد الجنود.

«لماذا ارتمى أمامه على الأرض؟ أمام كشكي؟».

«يبدو أنه قد احتك سابقاً بمشايخ بدو، في مكان ما من سوريا، ورأى كيف يحيّون هناك كبير العشيرة، فقال لنفسه إنْ لم تنفع هنا فإنها لن تضر، وهي فعلاً لم تضر!».

صدرت عن المجموعة همهمات إعجاب.

«وبعد ذلك؟».

«فتح تانوا كيسه، أخرج منه قطعة من خبزنا المجفف وبعض قطع الملح الجميلة مثل الكريستال، وناولها للعجوز. فصفق هذا بيديه، وإذا بإحدى الصبايا تدخل حاملة صفيحة معدنية ثمينة – أرأيتها، ميتا؟– وضيّفتنا كؤوساً مملوءة بحليب ماعز فاتر».

هز مورسيلي جسمه وهو يقول: «لا أستسيغ طعمه!». ثم تابع: «حتى الآن لم ينطق أحد بكلمة. وتانوا لم يتكلم، بل انتظر إلى أن خاطبه كبير العشيرة، برطانة عجيبة كلها عجن وطقطقة وعلك!».

«تانوا أجاب بالحثيّة ثم بالحورية وأخيراً باللوفية. يبدو أن أحد الشايبين فهم نوعاً ما، أما أن يتكلم!». ورسم مورسيلي على وجهه تعبيراً يغني عن أي كلام «لكنه كرر تحية ترحيب عدّة مرات، فقط لا غير».

«إذاً كيف أفهمتم العجوز ما تريدون؟».

«لن يخطر ببالك. أنا على كل حال ذهلت. تانوا هذا يا أخي فلتة، حفظه الأرباب من عين الحسود! أخرج من جعبته صفحة بَردي وقطعة فحم، ثم رسم أولاً مجموعتنا: ثلاث شحطات وأشار إلينا ثلاثتنا، ثم شحطات كثيرة أخرى وأشار إلى مكان انتظاركم. هز العجوز برأسه على أنه قد فهم. ثم رسم تانوا النهر بخطوط متماوجة وأشار بيده إلى الضفة الأخرى فصار كل شيء واضحاً. قال العجوز شيئاً، فغادر أحد الشايبين الخيمة. ثم سمعنا صيحات عالية جداً وصفيراً، وأخيراً نهض العجوز وأشار بيده، فالتفت تانوا إليّ وطلب مني أن أطير إليكم لأحضركم. البقية تعرفونها. نجحنا أليس كذلك؟». علّق ميتا بقناعة تامة: «أعتقد أن تانوا سيصبح شخصية مهمّة جداً!».

لقد أثبت تانوا أنه واحد منهم، غير أنه كان واضحاً للجميع أن مستقبله سيكون مختلفاً.

لم يمنّ عليهم هنوتي باستراحة طويلة في تيبووا، رغم رغبتهم في ذلك، فداخل جدران السور يشعر الإنسان بطمأنينة. كثير من بيوت المدينة كان مبنياً من الخشب والطوب معاً، فاستخدام الخشب في بناء الدور كان منتشراً في المنطقة، وكان للدور الجيدة التدفئة باحات داخلية، وقد التذّ الجنود بهذا الدفء. في أثناء ذلك ناقش هنوتي وضباطه الوضع مع آمر المدينة، الذي أخبرهم بأن الطريق إلى تاوينيا سالك، لكنه لا ينصح بمتابعة السفر في هذا الفصل، نظراً لخلوّ الطريق تقريباً من محطة كبيرة وكافية ليستريحوا فيها، وسيحتاجون من خمسة إلى ستة أيام.

«خمسة إلى ستة أيام! كان بوسعنا أن نأخذ الطريق الطويل والمريح إذاً!». قال هنوتي عندما غادروا تيبوا المضيافة من بوابتها الشمالية الشرقية، وأضاف: «لا بدّ من قطع المسافة بأسرع من ذلك. القمر يصغر بسرعة، ولم يبق الكثير على بزوغ الهلال الجديد. يجب أن نصل قبل بدء العيد!».

قطعوا فعلاً مسافة جيدة. صحيح أن الهضبة السهلية كانت مغطاة بالثلج، لكنه كان ثلجاً جافاً ومتماسكاً ينسحق تحت الحوافر. حاباهم الطقس الجيد طوال يومين، ورأى هنوتي والآخرون الذين سبق أن طرقوا هذا الدرب في فصول أخرى من السنة، أنهم قد اجتازوا ثلثي المسافة حتى تاوينيا. في صباح اليوم الثالث كانت السماء مدلهمة، وارتفعت درجة الحرارة في الليل، وامتلأ الجو برائحة الثلج. تمكنوا حتى الظهيرة من الحفاظ على توجههم. كان أمامهم جبل وحيد منعزل، نقطة علام واضحة، لا بدّ من اجتيازها شرقاً للوصول إلى الدرب المؤدي إلى مخاضة أخرى، في نهر كبير آخر، عليهم عبورها. عند الظهيرة لم تعد قمة الجبل مرئية وانخفضت السحب. قال أحد الرجال ممن يعرفون المنطقة: «الثلج على وشك أن يهطل. يجب، بسرعة، أن نجد مخبأ يحمينا. لا يوجد أية قرية قريبة يمكن أن نلتجئ إليها. في الجبل نفسه يوجد بروز يشكل ما يشبه مغارة مكشوفة، يمكننا أن نحتمي فيها نوعاً ما».

«استلم القيادة حتى هناك إذاً، اتبعونا جميعكم!».

تساقطت أولى ندف الثلج، وسرعان ما ازداد غزارة، بحيث لم يعد المرء يرى كفّه أمام عينيه، وهبّت ريح شرقية.

«أما زالت المغارة بعيدة؟».

«اقتربنا جداً. ابقوا متقاربين!».

اشتد الهطل بكثافة، لم يعد الركوب معها ممكناً. فأخذ كل منهم يجرّ بالرسن جواده وأحد البغال، محاولاً جهده ألا يفقد أثر من يتقدمه. اندفع هنوتي إلى المقدمة مستطلعاً مع الدليل مكان الساتر أو المغارة. فإنْ لم يصلوا إليها، كان عليهم التوقف وتشكيل حلقة لحماية أنفسهم ما أمكن، والانتظار، وإلا فإنهم سيفقدون أثر بعضهم، بلا أمل. ولكن كم مضى من الوقت فعلياً؟ هل اقتربوا من المغارة أم تجاوزوها، أم باتت وراءهم؟

حملت الريح الثلجية معها ندفاً بلورياً يخز الجلد كالإبر، فغطى الرجال رؤوسهم ووجوههم، وحرنت الدواب في مكانها، ما اضطرّ ساستها لبذل أقصى طاقتهم لجرّها

وراءهم، وكادت أن تتجمد أصابعهم غير المحمية إلا ببعض الخرق والمزق. بدا وكأن ساعات قد انقضت إلى أن سمعوا صيحة الخلاص: «ها هي أمامنا!».

كان الأمر إما معجزة أو أن حدس الدليل الباهر، هو ما قادهم نحو التجويف الجبلي مباشرة، الذي كان عريضاً كفاية ليتسع للجميع مع الجياد وبغال الحمل. لكن التفكير بإشعال نار هنا كان مستحيلاً، لاسيما أن التجويف كان مفتوحاً على اتجاه الريح، التي كانت تعصف بلا هوادة، ما دفعهم إلى فكرة تحويل الشدة إلى مزية، فأخذوا يصنعون من الثلج مكعبات كبيرة يرفعونها فوق بعضها كجدار. الحركة والانهماك في تنفيذ المهمّة، شغلهم وأبقى على حرارة أجسامهم رغم أنهم فقدوا الإحساس بأيديهم، لكن الجدار زاد في حمايتهم. وأخذت أجسام الدواب تشعّ دفئاً، بحيث بدأت الوجوه والأيدي المعذبة تستعيد ليونتها، ثم أخذت تتوهج.

بعد العصر وقبل هبوط الظلام توقفت العاصفة الثلجية، فمدوا رؤوسهم من وراء الجدار. سكنت ولولة الريح، ولم يعد يُسمع بين الحين والآخر سوى شخير الدواب. رأوا أمامهم امتداداً لعالم عجائبي أبيض، لكن فكرة متابعة المسير لم تكن واردة أبداً.

«لماذا لا نوسّع جدار الثلج»، قال تانوا «لنشكّل ما يشبه الحظيرة للدواب لتبات فيها؟ علينا أن نُنزل عنها جميع المتاع والأغطية، تحسّباً لهطول الثلج مجدداً. فائدة ذلك أننا ستتمكن من النوم على أكياس السفر بعد أن نضع تحتها أغطية اللباد السميكة!».

دبّت الحياة مجدداً في المجموعة وبدأ العمل بسرعة لتنفيذ المقترحات.

«يجب على أحدنا بالتناوب أن يبقى يقظاً. من يدري أي نوع من الحيوانات يعيش في هذه المنطقة: ذئاب، نمور، أبناء آوى، فهود، وربما دببة!».

«أنا أفضّل الخنازير البرية!». قال ذلك مورسيلي الذي أُفلت زمام مزاحه. تبادلوا الطعام من أكياس مؤونتهم، وعلّقوا للدواب مَخالي العلف على أعناقها. رتل هنوتي صلاةً وشكر ترهونا إله الطقس، ورب الجبل الذي يؤويهم، على حمايتهما لهم، وتوسّل إليهما ليلة هادئة. اقتربوا من بعضهم حتى تلاصقوا وناموا جميعهم بعمق. وككل مساء قبْل تانوا ميداليته وودع كيا حتى الغد. وكان قد تطوع لمناوبة الحراسة الأخيرة قبيل الفجر.

على الطريق حتى حتّوشا لم يمر بهم ما يستحق الذكر، رغم ازدياد الغابات والجبال، فقد كانوا يعرفون الطريق جيداً، فوجدوا دائماً دربهم الصحيح في خضمّ الوديان والأنهار

والجداول والسهول المتشابهة. كما أن إله الطقس قد أرسل إليهم طقساً مشمساً وثابتاً غير متقلّب، وإن كان بارداً. كانوا يقطعون يومياً المسافة كاملة بين قريتين، إذ كلما اقترب المرء من العاصمة، كثرت القرى والبلدات. وكانوا كل مساء يجدون مكاناً ملائماً لمبيتهم. وعلى الرغم من ذلك وصلوا إلى حتّوشا متأخرين يوماً واحداً عن بداية عيد قمر الشتاء.

دخولهم المدينة كان أشبه بموكب نصر، ترحيباً بهنوتي البطل! احتشدت الجماهير على الطريق قبل المدينة بمسافة، لتحية كبير المحاربين وجماعته من الشجعان، ولمرافقتهم إلى البوابة الجنوبية الغربية، بوابة الأسود، المبنيّة في السور الحصين الهائل المحيط بأعلى المدينة، التي يحرسها أسدان حجريان عملاقان. تسبق البوابة على الجانبين تحصينات وأبراج عالية كالصروح، تمنحها منظراً بالغ الأثر. وللبوابة معبران، زُوِّد كل منهما بباب خشبي ثقيل بأقفال، تُغلق وتُختَم كل مساء، وتُفحص أختام أقفالها كل صباح قبل فتحها.

لم يسبق لتانوا أن رأى مثل هذه المنشأة. حتى بوابات قطنا بدت له في ذاكرته أصغر. أما الأبنية الفخمة الأخرى في أعلى المدينة، والمنتشرة على يسار طريقهم إلى أسفل المدينة وإلى الحصن الملكي، فلم يولها تانوا كبير اهتمام، إذ كان يتلفّت باحثاً عن الحصن. والحصن كان مبنياً على مرتفع صخري يطل على أسفل المدينة ومنطقة المعابد الواسعة، وعلى أعلى المدينة المبنية على منحدر الجبل، وكان محاطاً بسور متين. مر الطريق بمعبر بين قمّتين ثم على جسر متين وعريض فوق فتحة وادٍ جنوب غربي الهضبة الصخرية، التي تحمل الحصن. وهكذا وصلوا إلى جنوب الحصن حيث تداخلت الأسوار القديمة مع أسوار الحصن المنيعة. سرحت عينا تانوا حوله: يا لها من مدينة ضخمة! لا شك أن فيها الكثير مما يجب اكتشافه. وصلوا إلى البوابة الرئيسية الخارجية، المحروسة أيضاً بأسدين. كيف لمثل هذه المدينة أن يغزوها الكشكيون الهمج وينهبوها؟

توقع تانوا أن يستقبلهم الملك العظيم عند البوابة، غير أنه أخطأ الظن، فمن استقبل هنوتي وجماعته كان أحد كبار خدم القصر، بالتحية المعهودة: «سآكل خبزاً وتشرب ماء!». وناولهم شراب الترحيب، فشربوه شاكرين في صحة الملك والملكة، طبعاً بعد أن نثروا رذاذاً منه تقدمةً للأرباب. فقد قطعوا المسافة بين بوروشخندا وحتّوشا في مدة قياسية، رغم المعوقات الشتائية ووصلوا بالسلامة. رفعوا أنخاب بعضهم ولا سيّما نخب هنوتي.

استلم منهم صبيان الاصطبلات جيادهم ودوابّ حمولتهم، أما هم فمشوا على بلاط أحمر عريض، أزيل عنه الثلج، من بوابة الحصن عبر الفناء الأول ليصلوا إلى فناء الحصن الثاني.

«هنا يوجد مهاجع للحرس واصطبلات وأحد مستودعات الأسلحة»، همس هنوتي وأشار نحو الخلف إلى بناء القاعات، وأضاف: «هناك فناءان آخران أحدهما وراء الآخر، وجميع الفناءات أو الباحات متشابهة معمارياً، على ضلعيها الطويلين توجد أروقة معمَّدة كالتي تراها هنا»، فأشار مورسيلي إلى اليمين واليسار، ثم تابع قائلاً: «أو جدران تربط ما بين الأبنية. وعند الضلعين القصيرين توجد مباني البوابات كفواصل، مما يولّد هذا الانطباع الرائع». يا له من دليل ممتاز! «معظم الغرف مخصصة هنا للإدارة وتدبير شؤون القصر. هناك يساراً يوجد مبنى بوابة أخرى خاصة بمن يستخدم الدرب الصاعد إلى الحصن من أسفل المدينة. إلى جانبها مباشرة ترى قاعة اجتماعات تستخدم بديلاً عن قاعة الاستقبال الملكية الكبرى. من هنا وإلى الأمام توجد مقرات أعلى موظفي البلاط، وخالك أحدهم. سيكون لدينا متسع من الوقت لاستكشاف كل شيء. أما اليوم فسنصلّي شكراً للأرباب ونستحمّ ونأكل ونحتفل وننام، ولا شيء سوى ذلك!».

**

في حتّوشا كان كل شيء مختلفاً عن المدن والقصور التي زارها تانوا حتى الآن، فهي تقع في أعلى الجبل. إذا جاءها المرء من الجنوب فسيرى أمامه في الوقت نفسه النقطة الأعلى والأبرز جنوباً، حيث تنتصب البوابة المزدانةَ الجانبين بالأسدين المجنّحين، وهي إحدى تقنيات الدفاع المبتكرة في السور المحيط بالمدينة. ومن هذه الذروة يطل المرء شمالاً على فوضى من الشعاب المنحدرة بين كتل صخرية هائلة ونتوءات ضخمة كالقباب. والحصن مشيَّد على أكبر هذه الكتل، وعلى الأصغر منها هناك معابد ومبانٍ إدارية. وبين أبرز كتلتين وأشدّهما انحداراً يوجد شعب عميق شاقولي تقريباً. وفي الجهتين الشرقية والغربية، تحدّ هذه الشعاب الجبلَ، الذي توزعت المدينة فوقه، وهذا ما يمنحها صفتها الرادعة، التي يرسّخها السور المحيط بها. جهة الشمال هي الوحيدة التي ينفتح فيها الأفق، فتطل العين على سهل شاسع، يمتد من ثم باتجاه الغرب، تتخلّله جداول وأحد فروع مراسَنتا. وهذه المنطقة هي مصدر تموين المدينة الخصب، لكنه مكسوّ الآن بطبقة من الثلج. المدينة تهيمن على الطبيعة التي تقوم في الوقت نفسه بحمايتها. إضافة إلى ذلك تنتشر الينابيع الفوّارة في كل مكان، بما يكفي لأراضي الرعي والصيد والغابات الكثيفة التي تختلط فيها أشجار السنديان والعرعر والصنوبر في الأماكن المرتفعة، والصنوبر الإبري والدردار والحور والقيقب وأشجار الفاكهة في الأماكن السفلى، ما يوفر الخشب

اللازم للبناء وكذلك للتدفئة التي تولّد البهجة، لا سيّما في هذا البرد، مع الرياح الصافرة التي تهبّ غالباً مساء.

ثمة طرقات من جميع الاتجاهات تؤدي إلى المدينة، وإلى داخلها عبر البوابات الفخمة: من مراسَتنا والغرب عبر البوابة الغربية، من الشمال وبحر الشمال الأسود من مدينتي زالپا ونِريكا - المهمتين دينياً واللتين سقطتا في أيدي الكشكيين - عبر البوابة الشرقية التي يحرسها ربٌّ منحوت في الصخر. ومن هنا وعبر درج حجري طويل يمكن للإنسان النزول مباشرة إلى الحصن. أما من الجنوب فيستخدم القادمون بوابة الأسود، وهذه هي أهم بوابات السور.

كان لاتساع المدينة وكبرها أثره في نفس تانوا، لكن الأعمق تأثيراً كان الحصن الملكي المشيد على عدّة مساحات من الهضبة الصخرية، في منتصف الجهة الشرقية تقريباً. هنا كانت النقطة الأعلى في الشمال، وهنا توجد باحة الحصن العليا والمقر الخاص لإقامة الملك. وفي اليوم الثالث سُمح لتانوا لأول مرة بالدخول إليه بعد الاستقبال الرسمي في قاعة الاستقبال الملكية، التي تقع على الجانب الغربي لباحة الحصن الوسطى.

حتى الآن لم يحظ تانوا برؤية الملك والملكة إلا خارج عاصمتهما. وحسب انطباعه كانت الاحتفالات في أدانيا قد نُفِّذت بمنتهى الدقة والصرامة. لكن ذاك لم يكن شيئاً مقارنة بالحفل الذي أقيم في القاعة الملكية للترحيب بهنوتي ورجاله. في حتّوشا بدا الملك والملكة وكأنهما ليسا من البشر، بل من الأرباب. كان ممنوعاً بصورة قطعية الاقتراب منهما دون خوض تطهّرٍ معقّد، غير أن تانوا كان مسروراً جداً بالاغتسال بالماء الحار مراراً، وفي صباح الحفل تلقّى ثياباً مطهرة حديثاً وفق الشروط، وتفوح منها روائح رائعة، فشعر بنفسه كالمولود مجدداً. وقد سرى ذلك على جميع الآخرين أيضاً. مشت المجموعة محاطة بأفراد من الحرس الملكي بكل جلال، من مقرّ إقامتها، عبر البوابة الجانبية إلى الباحة الوسطى، وصعدوا إلى قاعة الاستقبال. عند باب القاعة استقبلهم آمر الحفل وأعطاهم تعليماته وتبعوه عبر ردهات. بقي تانوا وميتا على مقربة من مورسيلي، مقلّدين إياه ما وسعهما ذلك. وصلوا أخيراً إلى ردهة الدرج وصعدوا إلى قاعة الحفل الواسعة، التي يدعم سقفها صفّان من الأعمدة الخشبية. ولكن من حيث الاتساع والفخامة وبهاء الأثاث لا تقارن هذه القاعة بقاعة استقبال قصر قطنا. هكذا فكر تانوا. وفجأة استعاد في ذاكرته صورة تلك القاعة ذات الدعامات الأربع الهائلة والمجمر الضخم واللوحات الرائعة. رأى نفسه يتجول في أنحائها مع كواري وحبيبته كيا، فانقبض قلبه وحشةً.

لكن سرعان ما تلاشى هذا العارض عند رؤية الملك والملكة على العرش في صدر القاعة. كانا يرتديان زياً رائعاً من الجلد الأبيض وقد جمّلا وجهيهما بالمساحيق والخطوط، فبات يصعب التعرف فيهما على شخصيّ شوپيليوليوما وهنتي، بل صارا ممثّلين لأعلى الأرباب: رب الطقس في حتّوشا وربة الشمس في أرينّا. لم يجرؤ تانوا على رفع نظره، لكنه كان مصرّاً على رؤية العرشين الشهيرين، اللذين أرسلهما ذات يوم حاكم پوروشخندا للابارنا (الملك الأعظم) تعبيراً عن خضوعه. يقال إنهما من مادة سماوية، أثمن من أي مادة أخرى في الدنيا. وبالمقارنة معهما تبدو عروش الملوك العظام الآخرين، الفضية والذهبية تافهة القيمة تقريباً. غير أن ما رآه خيّب توقعه جداً: أهذه المادة الرمادية كالفضة الكابية ثمينة إلى هذا الحد؟ نهض الملك ممسكاً بصولجانه المعقوف. خرّ الجميع أرضاً. وبصوت من خارج هذا العالم تقريباً رتل الملك صلاة الصباح، فتردّد صداها في القاعة:

«يا رب شمس السماء،
يا سيدي،
يا راعي البشر،
من البحر تصعد،
يا رب شمس السماء،
وفي السماوات تسير».

في أثناء عودة الملك للجلوس، سُمح للحاشية المحتشدة بالنهوض. وفي الوقت نفسه دخل القاعة مجموعة من الكهنة بقيادة وليّ العهد أرنُواندا. بدأ عزف الموسيقا، فاقشعرّ بدن تانوا، فهذه الألحان المتناغمة وجدت طريقها إلى روحه منذ أدانيا. لم يستطع أن يجد لنفسه تفسيراً لوصْمِ الجنوبيين للحثيين بالخشونة. فهذا غير صحيح أبداً. خطا أرنواندا نحو المذبح وتناول الأضاحي من الكهنة، ووضعها شيئاً فشيئاً على المذبح. وفي الختام دار حول طاولة القرابين وصبّ نبيذاً من إبريق مقدس، ثم توقف عند وسطها ومدّ ذراعيه فوق الأضاحي، وبهذه الحركة يكون قد ناولها للأرباب، تعبيراً عن الشكر لنجاح رحلة خَدَمِهم من الأراضي السفلى.

«أنتِ يا ربة شمس أرينّا، يا ذات الوجاهة،
اسمك وجيه بين الأسماء،
تمارسين سلطتك الملكية برحمة
في السماء والأرض.

أنت يا ربة شمس أريناً تمنحين التائب العفو والمغفرة.
أنتِ الأب والأم لكلِ بلد من البلدان».

بعد هذا الطقس نهض الملك والملكة واصطفّ إلى جانبيهما أفراد العائلة الملكية. تقدم الواصلون الجدد، الواحد تلو الآخر، فأبدوا تبجيلهم وتلقوا كلمات الترحيب بهم. كان تانوا بالغ الانفعال، لدرجة أنه عندما خاطبته الملكة هنتي بودّ واستفسرت منه عن أحواله، كاد لا يجرؤ على الإجابة. بدا له كل شيء وكأنه من خارج هذا العالم، وكان مسروراً بانتهاء الاستقبال وبمغادرة البناء.

أدرك تانوا بسرعة أن الاحتفالات الطقسية هي فقط أحد الجوانب التي يظهر الملك والملكة في أثنائها بصفتهما ممثلين لسلطة الأرباب في حتّوشا. أما الجانب الآخر فيظهِرُ الملك شوپيلوليوما وزوجته هنتي وأبناءهما كبشر عاديين ذوي احتياجات عادية، بأيام سعيدة وأخرى تعيسة. وقد اتضح هذا، عندما تبع الاستقبالَ الرسمي لهنوتي ورجاله لقاءٌ خاصّ دعي إليه تانوا وآخرون في مقر الإقامة الخاص بالعائلة الملكية. في البناءين الرئيسين المؤلف كل منهما من طابقين - القصر الفعلي - وفي البناء الثاني الذي يتقدمهما ويضم المكتبة الخاصة بالملك أيضاً، تعيش العائلة الملكية إضافة إلى توانانّا، أي أرملة الملك المتوفى تودهاليا وأم شوپيلوليوما. فهي تحافظ على مكانتها طوال حياتها، وبعد وفاتها فقط، يجوز لهنتي حمل هذا اللقب. كان هذا جديداً على تانوا.

جرى اللقاء في غرفة واسعة في الطابق الأول من القصر، مُدّت أرضها بعدد كبير من السجاد وتوزعت في أرجائها كراسيّ للجلوس، وقد زيّنت الجدران برسومات ذات أشكال هندسية وبمشاهد صيد. إنها غرفة تبعث الراحة في النفس، وقد عبقت فيها روائح أطايب الأطعمة الممدودة على طاولات طويلة مغطاة بأقمشة ملونة ومطرزة. ظهر الجميع في ثياب عادية، وإن كانت فاخرة. عند الباب استقبل شوپيلوليوما هنوتي ورحب به وعانقه وربت على كتفه باستحسان.

«لم أتصور أنه سيمكنك القيام بهذه الرحلة. وهذا يدعوني إلى شكر الأرباب أكثر، لجسارتك ووصولك بالسلامة. أنت تعرف كم أحتاج إليك هنا. سمعت أن طريقكم كان شاقاً مجهداً!».

«ليس إلى هذا الحد»، أجاب هنوتي وأردف: «لكنك تعرفني، كلما ازدادت المشقة ازداد الإغراء. كان يُحتمل لطريقنا أن يكون أشد عسراً، على نحو ما. ما أزعجني هو فقط أننا لم نصل في موعد بدء العيد. في المرة القادمة ستكون الأمور أفضل!». وضحك.

«في المرة القادمة سيكون ربيبك وابن أختك أكثر معرفة بالطريق وبالظروف. يبدو أن جزءاً من الفضل يعود إليه في عدم تأخركم مزيداً من الوقت. أين هذا البطل الصاعد؟ آه، إنه يتودّد إلى الملكة، وهذا عين الصواب!». وسحب شوبيلوليوما هنوتي معه عبر الغرفة إلى زوجته وتانوا.

«عذراً يا حبيبتي إذ أُبعد عنك هذا المعجب الشاب!». ركع تانوا على ركبته، لكن الملك أمره بالنهوض، وأضاف: «سمعت بكفاءاتك يا بن إحيّا وكالي ومُخضِع الكشكيين! يبدو أن مهاراتك لا تقف عند هذا الحد. طيّب، يسرّنا أن تدخل في سلك خدمتنا، ولكن ثمة ما يجب تسويته أولاً، ألا تعتقد ذلك؟

أومأ تانوا برأسه موافقاً ومنقبض القلب، إذ أدرك ما يلمّح الملك إليه. كان راغباً من صميم قلبه في التصالح مع والديه، لكنه لم يدرِ كيف له أن يحقّق ذلك.

وكأن الملك قد قرأ أفكاره، فقال له: «ما رأيك برسالة؟ نحن على كل حال سنرسل ساعياً إلى الجنوب. يمكنك أن تطلب المغفرة من والديك، وأن تشرح لهم مجدداً باختصار موقفك، وتُعْلمهم بأنك الآن في السلك الملكي، وستدخل الخدمة حالما تنهي تأهيلك لدى كبير الكتّاب!». وأخذ الملك والملكة يتملّيان وجه تانوا المملوء دهشة وسعادة. استرق تانوا نظرة شكر إلى خاله، وأمسك أثناء ركوعه يد الملك ليلثمها، لكن هذا سحب يده وأردف: «سرعان ما ستجد أيها الشاب أن الخدمة هنا ليست أقل مشقّة مما هي عند خالك. ونحن نتوقع منك الكثير! ولهذا السبب سنزود الساعي بملاحظة موجّهة إلى صديقنا إحيّا وزوجته، وبملاحظة أخرى من خالك أيضاً. فمن خلال توصيتنا المشتركة قد ننجح في الحصول على مغفرتهما لهروبك وتمرّدك، وعلى مباركة الأسلاف لطريق مستقبلك عندما يصل إلى علمهم كم تعلّمت وأنجزت. لا شك عندي في ذلك!».

حتى ذلك الحين لم ينطق تانوا كلمة واحدة. لكن رأسه كان منهمكاً بالتفكير. كان بوده أن يتقدم برجاء. ولكن كيف يفعل ذلك؟ جاءته النجدة من خاله الذي ضحك وقال: «عندما ينظر تانوا بهذه الطريقة، فثمة أمر ما. أنا أعرف هذا التعبير على وجهه، ولن يتغير أو يزول إلا عندما يقول ما في قلبه. هذا الفتى يمكن أن يكون ملحاحاً جداً!».

«هيا إذاً، قل ما تريد. سيكون من دواعي سرورنا تلبيته، إذا كان الأمر بمقدورنا!».

«أيها الملك العظيم المنّان!». بدأ تانوا كلامه جاداً، دون أن يلاحظ محاولات الآخرين لكبت ضحكتهم «نعم، لدي رجاء. لقد ذكرتَ أن ساعياً سيُرسل نحو الجنوب. إضافة إلى الرسالة إلى والدي. هناك شيء ضروري بودّي لو يأخذه معه، إلى قطنا!».

لحسن الحظ أن ما في قلبه قد خرج.

«قطْنا؟ آه، تقصد كتّانا!». ونظر شوبيلوليوما نحو هنوتي متسائلاً. فأوضح هذا: «في العام الماضي أمضى تانوا هناك عدّة أسابيع بصحبة أبيه، وعقدَ هناك صلات عدة».

هذا أمر مهم جداً. فيحتمل أن يكون الفتى أكثر فائدة لنا مما يتوقع. وهذا لا بدّ من التشاور بشأنه مع هنوتي بهدوء. لذلك صرف الملك تانوا مشدّداً على تهيئة جميع الرسائل، فبإمكان الساعي توصيلها حتى أوغاريت على الأقل. وعندما غادر الجميع أشار الملك لهنوتي كي يبقى. فهناك الكثير للتشاور بعد.

انسحب الرجلان إلى غرفة صغيرة. وبدأ شوبيلوليوما الحديث قائلاً:

«هنوتي، يا صديقي وشريكي المخلص في القتال. دون مقدمات طويلة. حدثت عدّة أمور منذ أن افترقنا في الجبال. مع ذلك لم أرسل لك ساعياً بالأخبار، لأملي بأنك ستأتي حسبما اتفقنا. هناك الكثير مما يجب أخذه الآن في الحسبان عند التخطيط والتحضير. هذه الأسابيع القليلة المتبقية حتى اقتراب الربيع، ومعه العمليات الحربية الخشنة، ستكون، صدقني، بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة!». شرب الملك بضع جرعات من نبيذ العسل الساخن، ثم قال: «ثمة قلاقل جديدة في ميتاني!».

«أي نوع من القلاقل؟».

«بين الملك توشراتا والمدعوم من طرفنا أرتاتّما. حسب علمنا، غالبية رعية توشراتا غير راضية عن حكمه. وكلاهما على كل حال يتنافسان على العرش في واشوكاني. وهذا طبعاً لمصلحتنا، فكلما تزعزعت أوضاع البلد داخلياً، صار التلاعب بها بأيدينا أسهل، فنهزمها في المعركة ونجعلها تحت سيطرتنا!».

«وقد يكون من الأفضل، ألا نضطر للدخول معها في معركة. إني قلق جداً بشأن السنة القادمة. إنْ ساءت الأحوال، فقد نكون مشغولين على عدّة جبهات في الغرب والشمال والشرق والجنوب الشرقي، وهذا يتجاوز قدراتنا!».

«لننطلق من أنّ أرزاوا ستحافظ على هدوئها، وأننا ستتمكن من صدّ الكشكيين، علينا عندئذٍ أن نملي على الأمير أزّي هياسا، مراقبة الحدود الشمالية لميتاني، فنتفرغ نحن بهذا لميتاني نفسها!». رسم قائد الجيوش خطة موسعة ومقنعة. لكن يبدو أن الملك لم يكن مرتاحاً لها تماماً، وقال: «إذا حافظتْ على هدوئها، إذا راقبَ الحدود. ثمة كثير من إذا يا عزيزي!».

«ألديك خطة أخرى؟».

هز الملك رأسه موافقاً، وقال: «سأنطلق من أن الفرعون أمينوفيس الثالث سيقف رسمياً إلى جانب الملك توشراتا، لأنهما حليفان أساساً. لذلك وللمرة الثانية أرسلتُ ساعياً موثوقاً إلى أرْتاتّما، مؤكداً له دعمنا الكامل له في صراعه من أجل عرش ميتاني، إذا ما نجح أخيراً في إزاحة توشراتا أو طرده أو التخلص منه، سمِّها ما شئت!».

«ولكن ما الذي يضمن لنا أن أرتاتما بعد اعتلائه العرش، لن يحذو حذو سلفه. ماذا سيكون موقعنا إذا عادانا مثله؟».

«هو أولاً ملتزم تجاه حتّوشا، إذْ كان عليه أن يقسم يمين الولاء. ثم إني أنطلق من أنه في البداية سيكون منشغلاً بتثبيت دعائم حكمه داخل أرضه ولدى الإمارات التابعة له. لكن قلقك مبرر تماماً. إذْ إنها لن تكون المرة الأولى التي تتغير فيها الجبهات. وما يدعو للتساؤل أيضاً هو: كيف ستتصرف مصر في حال اعتلاء أرتاتما العرش؟ لكنني لم أهمل الأمر».

«لا أشك في ذلك أبداً، يا مليكي! إنك تثير فضولي. ماذا فعلت؟».

«لعبتُ دور الأرباب. ويُحتمل أن يصادفَ شيئان بعضهما بصورة ناجحة. وأظن أني قد أفلحتُ في استمالة الفرعون إلى جهتنا بشكل واضح!».

«هذا أمر لا يصدق. كيف حققت ذلك؟».

«وجهتُ إلى أخي المصري رسالة تحية، أكدت له فيها أننا لا نطمح أبداً إلى بسط نفوذنا في جنوبي سوريا ولا في المحميات المصرية شمالي سوريا. بل على النقيض من ذلك، نحن لا نقبل فحسب، بل نضمن المصالح التجارية المصرية، التي تنحصر فعلياً في أخشاب البناء الضرورية جداً لمصر. وإضافة إلى ذلك سرّبت بعض التلميحات بشأن مواد خام معينة، وأكثرت من عبارات الود والمجاملة. وأرفقت كل هذا بالهدايا المعتادة، ومن بينها خنجر جميل الصنعة من معدننا السماوي!». وغمز الملك هنوتي غمزة بليغة المعنى، وأردف: «وأرسلتَ الكل مع الساعي!».

«وهل حصلتَ على جواب؟».

«قبل وصولك عاد الساعي. وهذا وحده يُعدّ انتصاراً. لكنه جلب معه أيضاً جواباً ودّياً إلى حدٍّ لم أحلم به في أكثر أحلامي جسارة. تفضل، اقرأ! إنْ لم يكن في الأمر حيلة مضمرة، نكون قد نجحنا في تمرير مقلب مهمّ. بمرور الوقت يترسخ انطباعي بأن ما يهم

المصريين حقاً هو مصر فقط. وسوى ذلك لا يأبهون لشيء ما دامت شحنات الخشب مستمرة دون عراقيل. لقد أسقطوا من حسابهم على كل حال مملكة أرزاوا، بعد أن خيَّب ملكها توقعاتهم بعدم احتلاله حتّوشا أو تدمير جيشها على الأقل، علماً بأنه متزوج من أميرة مصرية. المسكينة ستموت كمداً الآن في العاصمة أبَسا. لم ينتقد الفرعون هجومنا المعاكس، بل أهمل ذكره كلياً!».

«هذه أخبار جديدة سارة تملأ البطون والرؤوس، هذا رائع! وعلى الرغم من تعبيره البالغ التنميق لم يتمكن سيد النيل من إخفاء شهيته لهديتنا السماوية!».

«بمرور الوقت سيبدي الجميع اهتمامهم بها، هنوتي. إنها أقوى أسلحتنا! علينا أن نزرع الخوف منها في كل مكان وننشره، ولا بدّ لنا من حمايتها نفسِها، وفي الدرجة الأولى حماية طريقة تصنيعها!».

شرب كلاهما شيئاً من نبيذ العسل.

«كنتَ تتحدث عن شيئين إذا تصادفا..».

«صحيح. أحزر من اتصل بنا؟».

«أللأمر علاقة بميتاني أيضاً؟».

«أنت على الطريق الصحيح».

«أتقصد ذلك المتبجّح؟».

«هو نفسه. أيمكنك تصور أنه يطالب منذ الآن بضمّه إلى أخوية الملوك العظام، رغم أن آشور لم تتحرر كلياً بعدُ من قبضة ميتاني؟ أتشوّق لمعرفة رأي فرعون في الأمر، فهو بالغ الحساسية حيال مرتبة الملك العظيم! و(آشور أوباليت) هذا سيكون حاكماً معاصراً مزعجاً، ولا بدّ لنا من أن نحسب حسابه، فهو ينوي بناء آشور عُظمى، وسيلجأ إلى كلّ الوسائل لتحقيق هدفه. إنه يخطّط لرابطةِ زواجٍ مع ملك بابل، وقد كتب لي ذلك بكل وقاحة. ومعنا نحن، يريد العودة إلى المفاوضات، وهو اقتراح ملائم لنا نوعاً ما الآن، فآشور قد تكون هي الضمان الذي أشرتَ إليه قبل قليل. فإنْ جاء سلوك أرتاتما تجاه حتّوشا غير مناسب، ستتمكن من أخذ ميتاني بين فكّي الكمّاشة: نحن من الغرب وآشور من الشرق. حتى وإن خرج الملك توشراتا من الصراع العائليّ منتصراً، فإن بلده لن تحتمل حرباً على جبهتين. وآشور يهمّها جداً أن تتوسع غرباً. أي أنه يمكن تقسيم ميتاني بيننا، وسنتفق على الحدود المشتركة!».

«لكن هذا يعني أننا في كل الأحوال سندخل حرباً، أنت تتمنى تجنّبها!».

«علينا أن ننتظر. سأتجنّب التسرع في الإجابة على رسالة آشور أوباليت. علينا قبل ذلك أن نكون على بيّنةٍ من أمر كل هذه الإمارات في شمالي سوريا، من حيث ارتباطاتها بميتاني أو بمصر: أوغاريت، كركميش، قطنا. أمامنا عمل كثير لا بدّ من إنجازه!».

قد تكون هذه مهمّة مثالية لتانوا، هكذا فكّر هنوتي. إنها أفضل طريقة لدعمه. فاقترح على الملك: «يمكننا أن نربط ابن أختي بهذه المهمّة، فلا أشطر منه في جمع المعلومات. لقد زار مع أبيه معظم الإمارات التي ذكرتها، لكنهما أطالا الإقامة في قطنا، التي اطّلع على أحوالها من كثب، ولا سيّما أنه قد صادق أبناء العائلة المالكة، خاصة وليّ العهد، على حد علمي».

«هذا ما خطر في بالي أنا أيضاً، أقصد احتمال الاستفادة منه، عندما ذكر قبل حين، لدهشتي، أنه يود إرسال رسالة إلى هناك. ولكن يجب علينا أن نعرف أولاً مضمون هذه الرسالة، ألست معي في ذلك؟». ثم بدّل الموضوع فجأة وسأل هنوتي: «هل زرت أهلك وعرّفتهم على تانوا؟ أظن أنّ غالبيتهم لا يعرفونه».

«حتى الآن لا. ألقيت السلام على أمي سريعاً، لكن زيارة الترحيب بعودتي لم تحدد بعد. كما أني لم أرغب في أن يواجه تانوا العشيرة كلها دفعة واحدة».

«أعتقد أن هذا الشاب سيملأ قلبنا سروراً، أنا متأكد من ذلك. جيد أنه قد بحث عن طريقه إلى حتّوشا ووجده». ونهض الملك متابعاً كلامه: «هذا كافٍ لليوم، هنوتي. أشكرك لقدومك يا صديقي!».

«يا شمسي!». ونهض هنوتي أيضاً وانحنى، ثم تعانقا وانسحب هنوتي.

«ألا ترين أيضاً أن الشبه كبير جداً بين الخال وابن الأخت؟ بنية الجسم نفسها، وعيون كليهما زرقاء، والهيئة العامة أيضاً!». سأل شوبيلو مساءً زوجته وهما يناقشان أحداث النهار، وأردف: «دققتُ النظر فيهما منذ احتفال أدانيا!».

«أليس هذا متوقعاً مع هذه الدرجة من القرابة؟».

«نعم، بلا شك. على كل حال، ليس في تانوا أي شيء من إحيّا. لم أستطع اكتشاف أي شبه».

«دعني أعترف لك بأني لم أُولِ إحيّا أي اهتمام»، قالت هنتي مفكرة، ثم تابعت: «أيحتمل يا عزيزي أنك ترحب بذلك؟ أعني عدم التشابه بين الفتى وإحيا!».

التفت شوپيلو عنها إلى الناحية الأخرى. للحظة خيّم الصمت عليهما. لم تلحّ هنتي عليه، لكنها تساءلت في نفسها عندما لاحظت أن زوجها يستصعب الإجابة. أخيراً هزّ كتفيه ولم يجب عن سؤالها. غير أنها التقطت طرف الحديث مجدداً ببساطة قائلة: «ثمة أمر آخر لفت انتباهي، وهو معاملة هنوتي للفتى. في أدانيا لم أرهما قط معاً. وأثناء الطريق كان مستغرباً إنكار هنوتي له..».

«لقد فسّر لي ذلك»، قاطعها شوپيلو «لم يُرِدْ فضحَه أمام الجميع: ابن أخته، هارب من البيت، وفوق ذلك كله باسم مزوّر. كيف سيكون وقع ذلك؟».

«طيب، لكن علاقتهما الآن انقلبت رأساً على عقب، صارا كالسمن والعسل. نادراً ما رأيت هنوتي شفيعاً إيثارياً كالآن، ويبدو أنه يحبّذ حتى تبديل الاسم، فأتساءل، ما الأمر؟».

لدهشة هنتي ثانية، تجاوز الملك تساؤلها، فبالنسبة إليه لا فرق بين تالزو أو تانوا، ثم قال: «ربما كان على هنوتي أن يعتاد أولاً على حمل مسؤولية ربيب، إن شئتِ هذه التسمية، حتى وإن كان الربيب في عمر يؤهله للوقوف على قدميه وحده. وهذا الانطباع تأكد اليوم بصورة لا لبس فيها. حتى وإن كان الشاب حتى الآن على شيء من الخجل، ولنقل بدقة إنه ما زال مأخوذاً بالقصر ومرتبكاً تجاه عاداتنا الرسمية هنا، لا يسعني سوى تأكيد تقييم هنوتي له: هذا الشاب يعرف ما يريد وبدقة. ولسوف يشقّ طريقه بنفسه!».

كانت الملكة تشارك الملك رأيه هذا، فانطباعها عن الشاب كان إيجابياً جداً. ذهبت هنتي إلى شوپيلو وربتت على شعره برقة. جذبها شوپيلو إلى حضنه. كم كان الوقت ضيقاً لمثل هذه اللحظات الحميمية في زحمة أعباء المملكة المتنوعة. تنهد شوپيلو. وكأن هنتي كانت تقرأ أفكاره، فتابعت الحديث: «هناك أمر آخر استرعى انتباهي لأني استغربته، وهو حالة التوتر في التعامل بين كالي وهنوتي في أدانيا».

«لا داعي لإيلاء الأمر أهمّية يا حبيبتي. المناسبة كانت رسمية، وهما لم يلتقيا منذ زمن. حسب ما أعرف، كالي متعلقة جداً بأخيها هذا، وبأسرتها ككل أيضاً. غالباً ما تعاني من الحنين إلى وطنها. أعرف هذا من هنوتي نفسه». قبّل شوپيليو هنتي على جبهتها وأضاف: «هذه المسألة لن نحلّها اليوم يا حبيبتي، فدعينا ننتقل إلى موضوع آخر!».

هذا الإنهاء المفاجئ للموضوع أدى إلى مزيد من التساؤل لدى هنتي. كان واضحاً أن شوپيلو يخفي عنها أمراً ما، أو، وهو الأقرب، أنه مضطر لإخفاء هذا الأمر عنها. هنتي كانت تعرف أن هناك أموراً معينة لا يجوز للملك الحتي أن يتطرق إليها مع أي كان، ولا حتى مع

زوجته، التي تحوز ثقته المطلقة في كل شيء، ورغم كونها نديمته المفضلة. ولكن أيمكن لإحيا وتانوا وهنوتي أن يكونوا على صلة بسرّ من أسرار المملكة؟ هذا مستبعد: ماذا يكمن إذاً وراء سلوك شوپيلوليوما الغريب؟

لقد استيقظ فضول هنتي.

لم يحظَ تانوا بوقت كاف للراحة، وهو لم يحتج إليه. في اليوم التالي لحفل الاستقبال أوصله هنوتي شخصياً إلى كبير الكتّاب (ميتانامو)، مدير الشؤون الإدارية للدولة. وكان هذا ذا بنية رشيقة تميل إلى النحول، بيدين ناعمتين أنيقتين. ووجهه المستطيل تعلوه جبهة عريضة مميزة. نظراته يقظة ونفاذة، والشيب الذي بدأ يخط شعره جعله يبدو أكبر سناً مما هو عليه. كان يلبس رداء طويلاً يؤكد هيبته الظاهرة. لم يترك في نفس تانوا انطباعاً مُرهباً بل حازماً. تقع مكاتب عمله في الفناء الأوسط من الحصن، ملتصقة مباشرة ببناء المحفوظات ومكتبة القصر. من كلمات الترحاب الحارة والقليلة بين الرجلين أدرك تانوا أن كل ما يتعلق به قد بُحث بينهما مسبقاً. ثم غادر هنوتي بناء إدارة الدولة.

«بِنْتي، تاتيّا، واشيّا وأنتم أيضاً تعالوا رحبوا بزميلكم الجديد!». نادى ميتانامو وأردف: «أقدم لكم تانوا، ابن إحيّا من كيزواتنا وكالي من حتّوشا، أخت القائد العام للقوات المسلحة هنوتي». حاول تانوا حفظ الأسماء التي ذكرها ميتانامو بالتتالي.

«أنا وأنت تانوا ستتحاور قليلاً الآن ليتسنى لي تقدير مستوى معارفك، ثم مبدئياً ستعمل تحت إشراف رئيس الكتّاب بنتي»، وأشار إلى رجل في أواسط العمر وحادّ القسمات، «وهو سيطلعك على أسلوب عمل الإدارة ومهامها. يمكنك دائماً التوجه إليه بأسئلتك. أما اليوم فعليك أن تشغل معظمه بنفسك، لأننا منشغلين بأعمال ملحّة. أفضل ما تعمله هو أن تستفيد من الوقت بكتابة رسائلك الخاصة التي ستذهب خلال أيام مع الساعي نحو الجنوب. إذ إنك لن تجد وقتاً لذلك في الأيام القادمة!».

عاد الجميع، كلٌّ إلى عمله، في حين تبع تانوا ميتانامو إلى غرفة أصغر معدّة للمشاورات. ومن دون مقدمات بدأ كبير الكتاب بامتحانه، فسأل تانوا عن اللغات التي يعرفها، ثم أعطاه جملة نموذجية ليترجمها إلى الحورية واللوفية والأكدية. بعد ذلك وضع أمامه عدداً من الرُّقم وطلب منه قراءة السطور الأولى من كل منها. سارت الأمور بأفضل مما كان يخشى بعد الانقطاع الطويل بسبب السفر، فتراجعت مخاوفه وتبرعمت فرحته لقول ميتانامو: «أربع لغات، هذا جيد!».

«وأعرف بعض العبارات بالإيجيه!».

«جيد، هذا سيفرح الملكة هتي، فهي كما تعرف أميرة إيجية، ابنة الملك العظيم أتارسيا أو أتريوس، حاكم ميكِناي أو موكانو حسب لفظنا. ولكن لنعد إلى العمل. ما ينقصك إذاً هي لغة بِلا الشمالية، لكنك ستتعلمها بسرعة حسب تقديري. اللغتان الهَتّية (الحثّيّة القديمة) والسومرية لا تُستخدمان فعلياً إلا في الطقوس الدينية وما يرتبط بها، أي أنك لن تتعامل بهما، إلا إذا تخصصت في هذا الاتجاه. دعنا نرى مستواك في الكتابة المسمارية!».

وضع أمام تانوا لوحاً طينياً طرياً وناوله بيده قصبة الكتابة، وقال: «سنختبر الجانبين. أولاً سأُملي عليك نصّاً، وبعد أن تنتهي ستنسخ نصّاً آخر. أجاهز أنت؟».

أومأ تانوا برأسه وركّز على المهمّة. كانت البداية جيدة. صيغة تحية مألوفة، تلاها عدّة جمل، اضطرّ إلى ترك بعض الكلمات منها، لأنه لم يعرفها، ولأنه لم يستوعب الموضوع ككل. يا إلهي، كم ستكون النتيجة مخزية! وتلاشى شعوره بالنشوة. أخذ منه كبير الكتاب اللوح دون تعليق، وناوله لوحاً آخر وأداة كتابة غريبة، وسأله: «ما مدى معرفتك بالكتابة الصوَرية؟».

احمرّ وجه تانوا، لكنه أجاب بجرأة: «في ترشا لم نستخدم سوى الكتابة المسمارية، ولهذا فإني لا أعرف الكتابة الصوَرية!».

فأجابه ميتاناموا بهدوء: «طيّب، هذه أمور يمكن تعلّمها، فأنت هنا لهذا السبب». لم يصدق تانوا أذنيه. وأردف كبير الكتاب: «اتبعني الآن، سأريك المكان حيث يمكنك نسخ النص. وعندما تنتهي أعطِه لبنتي. ثم يمكنك الالتفات إلى كتاباتك الخاصة. هنا ستجد ما تحتاج إليه من ألواح وأدوات كتابة. بعد أن ننهي كل شيء يمكنك العودة إلى مقر إقامتك. غداً سأرسل في طلبك!».

تلفّت تانوا حوله في قاعة العمل الواسعة، مأخوذاً بعدد الكتّاب الكبير وبالرفوف الممتلئة بالرُّقم. لم تتطلب عملية النسخ منه جهداً كبيراً، لا سيّما أن النص كان مقطعاً من عمل يسرد تاريخ غلغامش ملك أوروك. أنهاه بسرعة، وهو راضٍ عن النتيجة، فقد كتبه بحروفٍ متناسقة، واضعاً الإشارات الخاصة بالسومرية بصورة نظيفة واضحة، محافظاً على استقامة السطور. وبعد فترة قصيرة اقترب من طاولة بنتي وناوله اللوحين معاً، فتناولهما هذا دون تعليق.

والآن كان لا بدّ من البدء بالرسالة الموجهة إلى الوالدين. كان قد جهّزها في رأسه مراراً وتكراراً. أراد لشروحه أن تكون مقتضبة وواضحة، آملاً أن تصل سطوره إلى قلبَي والدته ووالده، في حين تقوم رسالة الملك ورسالة خاله بعملية الإقناع الضرورية. وهكذا أنهى هذا الواجب أيضاً بسرعة.

على مقربة منه جلس شاب لا يكبره بسنوات كثيرة، رفع رأسه عن عمله في تلك اللحظة، فالتقت عيناه بنظرته المتفحصة، فابتسم له. سأله الشاب هامساً: «أجديد أنت هنا؟».

أومأ تانوا برأسه وأجاب بهمس أيضاً: «أنا من كيزواتنا!».

«اسمي (نانينزي). منذ وقت قريب عبرتُ كيزواتنا. ما زال الطقس دافئاً هناك».

«هدوء!». هتف أحد الكتبة.

«دعنا نتحدث خارج القاعة!». ونهض نانينزي ومشى نحو الباب، فتبعه تانوا إلى ردهة، حيث تبادلا الحديث حول كيزواتنا وطقسها وهذا وذاك. انتبه تانوا إلى أن محدّثه يتجنّب تقديم معلومات واضحة على سؤالَيْ: من أين؟ وإلى أين؟. لكنه عرف على أية حال أنه يقوم بخدمات بريدية، ما أثار اهتمامه. لكن كلام نانينزي بقي غائماً غير محدد. فقدَّر تانوا أنه يحظر عليه الحديث عن مهامه أمام الغرباء. وهذا أمر لا بدّ من قبوله. وأخيراً قال:

«سأعود لأتابع عملي الآن. قل لي، أتعرف اللغة المصرية؟». وكان يفكر بالرسالة إلى قطنا وإلى كيا، التي كانت تتباهى بأنها تجيد كتابة الهيروغليفيات المصرية. وما أذهله كان قول نانينزي: «طبعاً أعرفها، ويمكنني كتابة بعضها، ماذا تحتاج؟».

«صيغة تحية مألوفة، سيكون هذا رائعاً!».

«لا أسهل من ذلك! تعال، سأكتبها لك!».

«لكنك ستقول لي أيضاً معنى ما سنكتبه في اللوح!».

«طال عمركَ في صحة وعافية!».

«يجب أن تكون: طال عمركِ في صحة وعافية!».

ضحك نانينزي وقال: «إذا كان المخاطب سيدة، نضيف علامة وينتهي الأمر».

امتلأ تانوا حماسة. ما هذه المصادفة! لا شك في أنه محظوظ. كم بودّه رؤية وجه كيا عندما يريها أكيزي الهيروغليفيات. بدأ كتابة الرسالة إلى أكيزي باندفاع. وكان يتوق جداً

لأن يعرف أصدقاؤه في قطنا، كيف سارت أموره، وأنه قبل كل شيء، ما زال وفياً لأهدافه. لقد فكر بهم جميعاً وكتب أسماءهم وخصّهم بتحياته. وفي الختام تماماً أضاف صيغة التحية التي تعلمها لتوه، وكيا ستعرف أنها المقصودة بذلك. ماذا تفعل يا ترى؟ إنها حلم. حلمه. بلسم حياته. وتلمّست يده ميداليته. هذه الخصل السوداء الرائعة التي يمكن للمرء أن يدفن نفسه فيها. وهذه الجدالات الملهمة وذكاؤها وحدّة لسانها. وفجأة تذكّر ما لا بدّ من أن يخبرها به، وكان يفكر فيه طوال الوقت، وإذا به يكاد ينسى الآن. ولكن كيف؟ لا يمكنه هكذا ببساطة أن يملأ لوحاً جديداً؛ ثم إن الموضوع بالغ الحساسية. فماذا إنْ كان مخطئاً؟ فكّر، إلى أن وجد حلاً جيداً. لملم أشياءه، وحيّا نانينزي برأسه بودٍّ وأسرع إلى جناح الضيوف. تناول تانوا من رزمة أغراضه ورقة بردي محفوظة بعناية، وحبراً وريشة. بدأ كتابته بحكمة مأثورة، ثم بصيغة مرتبكة ومقتضبة، دوّن ملاحظاته عما رآه في قطْنا آنذاك، وما سمعه من حوار بين الشريف تيرو والبدوي. قد يكون الأمر مهماً وقد لا يكون. وأمل أن تتمكن كيا من قراءة حروفه المسمارية التي خطّها وتستفيد من المعلومة. ولكن مَن يمكن أن يستفيد منها سواها؟ في أسوأ الحالات يمكنها أن تحرق البردي ببساطة. لف ورقة البردي ثم ختمها بعناية وكتب عليها اسم كيا. ثم خطرت في باله فكرة أخرى، فلفّ سلسالاً حولها. وأخيراً وضعها في صندوق صغير ملأه بهدايا صغيرة متنوعة، ثم أغلقه وختمه أيضاً. غداً عندما سيطلبه ميتاناموا سيحزم كل شيء معاً ويعطيه لساعي البريد.

إذا طلبه ميتاناموا.

**

أولى الملك إيداندا أهمّية للتحذيرات التي أرسلتها إليه شالا، بعد حلمها بالمعبد المهجور، كما شاركها رأيها في أن الحياة في قطنا يجب أن تأخذ مسارها المعتاد. ولهذا السبب، وككلّ سنة أُعدّت التحضيرات لعيد قمر الشتاء الجديد واحتِفل بالعيد، حتى وإن كان يحمل له خاصة أخطاراً مختلفة. وقد واجه الأمر في نفسه بكل رصانة، فهو مستعِدّ لمواجهتها ولقبول مشيئة الأرباب. لقد رتّب شؤون بيته بأفضل ما بوسعه. لكنه كان قلقاً بشأن بكره، فهل نضج هذا كفاية لحمل العبء؟ هزّ الملك كتفيه، ماذا بوسعه أن يفعل إذا رغب الرب (مُوتْ) بأن يأخذه معه؟ لقد وفّر لأكيزي أفضل تربية وتعليم، وحاول أن يكون قدوة له. ليس بوسعه أكثر من ذلك. وعلى أكيزي الآن أن يقف على قدميه بجدارة. وبكل

هدوء ورزانة حضَّر الملك نفسه لأداء واجباته. لكنه صلّى للأرباب كي يمنحوه بعض الوقت على عرشه. وعلت وجهه ابتسامةَ مَن يضحك على نفسه.

كيا وإهلي نيكالو وبعض الفتيات والفتيان الآخرين شاركوا لأول مرة في عيد القمر الجديد. وكما في كل الأعياد الكبرى كان شرط المشاركة هو المرور بطقس التطهّر. ولم يكن يجوز إلا لقلة من المصطفين الدخول إلى الحرم الصغير الواقع في شمال غربي القصر، والمخصّص للأسلاف المؤلّهين.

لقد نجح مينوس حقاً في رسم الجدار الخلفي للحرم برسوم رائعة، يبثُّ فيها الحياةَ، النورُ المتدفق طوال النهار من جهة الشمال. كان قد هيأ الإفريز الكامل في ورشته، وذلك بمدِّ طبقة من الجص على كل قطعة على حدة وتمليسها ثم فرشِ الألوان عليها. كان لون الخلفية غالباً أبيض يميل إلى البيج، أما الأشكال المرسومة عليها فجاءت بالأحمر الداكن والبني والأسود والأمغر والرمادي الداكن، إضافة إلى الرمادي المزْرَق والرمادي الفاتح للأغصان الرفيعة وأوراق الأعشاب والحشائش، ما أسبغ على المنظر ككل تأثيراً خارقاً. تجسّدُ اللوحة منظر نهر، تغطّي ضفّتيه حشائش وورود وأشجار نخيل، وهناك على طول ضفته القريبة أربع سلاحف وراء بعضها، فيما تتراقص في ماء النهر دلافين وأسماك وسراطين وبعض القواقع المقدسة. ويحيط بالكل إطارٌ بنماذج هندسيةِ التنسيق من أوراق النباتات وعروقها الحلزونية المعقدة التشكيل. وبكل عناية كانت القطع الجاهزة تُلصق بالجص بدقة متناهية على الجدار، بحيث لا تلحظُ العين أي اختلاف في مستويات السطوح المشكلة للوحة. وفي الختام شرَّب مينوس سطح اللوحة كلها بالحليب، ما منحها بعد جفافه طبقة لماعة وبريقاً غامضاً.

راقبته كيا صامتة خلال العملية الختامية، ولم يستوعب عقلها أن الأرباب الذين يهبون رجلاً مثل مينوس هذه المواهب، هم الأرباب أنفسهم الذين يرسلون الموت والدمار. هل أثمت قطنا؟ ولكن إشارات الرؤى قد تكون مجرد أوهام. وقد يتغير كل شيء في المستقبل عندما يمدّ أمونحوتب يد الحماية فوق قطنا. ليته يأتي. كم تشتاق إلى قربه منها، إلى نظرات عينيه، إلى عناقه، إلى كلماته الحلوة لها. انتفضت كيا من أفكارها عائدة إلى واقعها. حيّت مينوس برأسها بودٍّ وغادرت.

في تصورات سكان قطنا الدينية المرتبطة بقمر الشتاء الجديد، يجري تقارب خاص بين الأحياء والأموات. فالأموات لم يفقدوا طاقاتهم، ولكن ليحتفظوا بقدراتهم على دعم

عشائرهم باستمرار، يجب أن يبقوا منضوين مندمجين في نطاق كل أسرة. ولهذا السبب تُستعاد ذكراهم على نحو دائم، ويُحتفل على شرفهم بعيد قمر الشتاء الجديد في المدينة كلها وفي أريافها. فتُقدّم لهم الأضاحي وتُلتمس بركاتهم.

في حرم القصر ناجى الملك، وهو كبير الكهنة في الوقت نفسه، أسلافَه من الملوك الموتى. ودعاهم مع سائر أسلافه إلى مأدبة مشتركة مع الأحياء، في صالة الطعام في القصر، حيث التقى عشية قمر الشتاء الجديد نخبة أشراف المدينة.

طوال أيام قبل ذلك كانت شالا توجّه الكاهنات القديمات والجديدات، اللواتي خضن الطقس إلى واجباتهن. وكان لها حديث خاص مع كيا، فقد أرادت التأكد من استعدادها وعدم تراجعها، إذ لاحظت بشيء من القلق تغيّرات في نفسية الصبية. كان جليّاً أنها تمرّ بحالة عشق. ولكن هل الارتباط بأمونحوتب هو قدرها؟ هل وليّ عهد مصر جادٌّ يا ترى في علاقته مع كيا، أم أنها كانت رفيقةً لطيفة لتمضية الوقت في الغربة؟ كان لا بدّ لشالا من الاعتراف لنفسها، بأن رغبتها الدفينة الخاصة ليست وحدها ما يدفعها لجعل كيا خليفتها، بصفتها كبيرة كاهنات المعبد، بل الاندفاع الذاتي للفتاة نفسها. غير أنها عبر تجربتها الذاتية المؤلمة كانت تعرف معرفة يقينية، أن على كيا بنفسها ولنفسها مواجهة هذه الأخطار، وليس بوسع شالا سوى أن تدعمها بكل حبّها.

خفّف نور بعض المشاعل العتمة في صالة الاحتفال، حيث سرت همهمات خافتة بانتظار أرواح الموتى المدعوين. ومن العدم ظهر في وسط الصالة الرب إيل، خالق الكون، ورب الأرباب. وقف وسط المحتفلين بجلالته الإلهية وردائه الملكي البهي. كان شعره الأبيض كالثلج هو الدلالة الوحيدة على سنه الأزلي، في حين كانت وقفته وقفة رجل ناضج. رغم معرفة كيا بأن كبير الكهنة هو الذي يجسد رب الأرباب وأبا البشرية إيل، فقد جعلها مرآه تتجمّد في مكانها. ارتمى الضيوف أرضاً وحجبوا وجوههم مرحّبين بالربّ وهم يرتّلون بصوت رتيب:

«آه إيل! آه، يا أبناء إيل!
آه يا أبناء إيل المجتمعين!
آه يا أبناء إيل الوافدين!
آه يا إيل ويا عشيرات!
نلتمس الرحمة منك يا إيل!

نلتمس الحماية منك يا إيل!
أسرع يا إيل لنجدتنا،
أسرع إلى جبل الربّ صفون
لنجدة قطنا،
بالرمح المرفوع عالياً يا إيل،
وبالبلطة الفالقة يا إيل!»

عبر الرب القاعة وجلس على العرش المخصّص له. نهض الجميع عن الأرض وجلسوا في أماكنهم أيضاً. وحسب الخطة ناول كاهنان الربَّ قدحاً بعد الآخر، مملوءين بشراب أعشاب سكر ممزوج بالخشخاش. قدم الربُّ الأولَ لأرباب العالم السفلي وسكبه على الأرض، ثم شرب الثاني جرعة فجرعة حتى تخدّرت حواسّه تماماً.

هيمن صمت على القاعة. حاول كلٌّ من الحضور استعطاف أرباب العالم الآخر عن طريق سكب جزء من شراب القربان ورشف جزء آخر منه باستمتاع، وهو يصلي مبتهلاً ظهور أحبائه من الموتى، متمتماً أسماءهم، بحيث يتجسدون أمام ناظريه. لا، لم ينس الأهل أقاربهم الموتى، وليكن هؤلاء واثقين من أن الأهل يبجّلونهم ويُعنون بهما وليطمئنّوا برضا، إلى وجودهم في العالم الآخر. أما اليوم فقد جُهّزت هذه المأدبة لهم هنا، فلماذا تغيّبوا؟!

مع ضربةٍ كهدير الرعد ظهر الربّ موت، ربّ العالم السفلي، بين المحتفلين. كان منظره مرعباً، بشدقيه الهائلين القادرين على ابتلاع البشر. دوّت صيحة عبر القاعة، فحجب الجميع وجوههم ثانية، وحل صمت القبور. دار موت معزّماً، حول إيل، سيّد الأرباب وربّهم، حاملاً بيده مبخرةً يتصاعد منها عبقٌ ساحر. جعلَ موتُ إيلَ المخمور ينتشي بأدخنة مبخرته المخدِّرة حتى الذروة. وبرعب تابع الحضور فقدان إيل حواسه، بحيث لم يعد قادراً على شيء. وبينما كانت جميع الأنظار موجّهة إلى الكهنة الذين أمسكوا بإيل وهو ينزلق كالميت عن عرشه، اختفى موت، ولكن بعد أن فتح الطريق لأرواح الموتى، رحمةً بهم، عقب انتصاره على إيل؛ وبذلك تحقق التواصل مع عالم الموتى. وأخيراً كُشفت الحجبُ عن موكب تماثيل ملوك قطْنا وملكاتها السابقين، التي ستدبّ فيها الأرواح. وبأزيائها البهيّة تحت أضواء المشاعل بدت التماثيل وكأنها حية، وأمام كل منها امتدت صحفة لتلقي الهدايا، فهلّل الجميع وصفقوا. ولهذا لم ينتبه أيٌّ منهم في بادئ الأمر، إلى أن الملك الذي يجسّد إيل ما زال على الأرض بلا حراك، رغم أن شالا التي

تجسد ملكة السماء قد قطَّرت في فم الإله الميت بلسماً لإيقاظه من غشية النشوة. غير أنه لم يُبدِ حراكاً. أمرت شالا الجميع بالصمت. أرقدت رأس الإله في حضنها وأخذت تبلّل شفتيه ببلسم الإنعاش. تفحّصت تنفّسه ونبض دمه.

اقتربت كيا وأخذت تتابع برعب ما تفعله ملكة السماء الجالسة على الأرض. ماذا، إنْ لم يستيقظ الرب؟ وقع نظرها على وجه ملكة السماء، فرأته يشحب حتى بات بلون الرماد، وأمسك بها مرافقوها بقوة، كي لا تعكّر مسار الاحتفال.

في تلك اللحظة أدركت كيا، أن ثمة ما ليس على ما يرام. أم أن هذا أيضاً جزء من خطة الطقس المرسومة مسبقاً؟ بعد دقائق، شعرت بها كيا أبدية، تحرّك الملك ورفّ جفناه، ثم فتح عينيه وأخذ يتهيّأ للنهوض. فانفلت فجأة غناء مديح متحرّر، فذُبحت الأضاحي الحيوانية، وأحضرت المعجنات والزيوت والجعة والعسل والسمسم وأشياء أخرى كثيرة، إذْ صار يمكن البدء بالوليمة المشتركة. لكن كيا رأت الجهد الذي بذله أبوها المَلك للنهوض مستنداً إلى كاهنين. كانت حركاته بطيئة، ثم جلس جامداً على كرسيّه مدة طويلة. إلا أنه ابتسم لبلتوم مطمئناً إياها. دهم كيا شعور غريب مهدِّد، لكنها لم تستسلم له، فقد كان الجميع يحتفل باسترخاء وحبور، متلذّذين بأطايب الطعام، ولا سيّما بالمشروبات المسكرة رافعين أنخاب اللقاء بالموتى. وكان الكهنة والكاهنات منهمكين كلياً في الإشراف على سير الاحتفال الذي استمر طوال الليل، وكان كل منهم، وبضمنهم كيا، مسؤولاً عن متابعة مجموعة من المحتفلين. ولا سيّما أن كثيراً منهم لم تحتمل أجسادهم نشوة اللقاء مع الأسلاف، فكان لا بدّ من دعمهم، إما بالعقاقير وإما بالماء الساخن لتطهيرهم. وفي أسوأ الحالات نقل الخدم بعضهم إلى دار الشفاء.

**

«هذا أمر لا يصدق!».

توقفت كيا عندما سمعت صوت أكيزي الغاضب. نبّهت إلى وجودها بأن نقرت على باب غرفة عمل والدها ودخلت، ثم قالت: «أرجو ألّا يكون في وجودي إزعاج لكما!». أشار لها الملك أن تقترب منه. بدا متعباً، لكنه ابتسم لابنته فرحاً بها وقال: «تعالي يا بنتي، واجلسي إلى جانبي. وجودك يفرحني!».

جلست كيا إلى جانبه ملتصقة به وقبّلت يديه وخدّيه، ثم نظرت إليه بقلق. بدا لها وكأن

تجربة عيد القمر الجديد ما زالت مؤثرة فيه. كما نظرت بقلق إلى أخيها أكيزي الذي كان يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو متوتّر. ثمّة ما هيّج غضبه بلا حدود.

«أتسمحان لي بالسؤال، عمّ تتشاجران؟».

بقي أكيزي صامتاً، لكنه نظر إلى الملك باستفزاز.

«أكيزي غاضب لاتصالي برجل ارتباط بيننا وبين حتّوشا. فقد التقى مصادفة اليوم بالساعي الذي أرسله رجل الارتباط إليّ!».

«كان عليك أن تضيف يا أبي، أنها ليست المرة الأولى التي يدخل فيها هذا الساعي القصر. بودّي أن أعرف، منذ متى تتفاوض مع الحتّيين من وراء ظهورنا، أم أن أويّا وأكالينا وتيرو ولوايا على علم بالأمر؟».

استقام الملك في جلسته قائلاً: «أعتقد أني أعمل لمصلحة قطنا. ثم إني أتساءل عن اللهجة التي تخاطبني بها يا بني. هل أنا مسؤول تجاهك؟».

«نعم يا أبي، مع فائق الاحترام، أنت مسؤول تجاهي وتجاه أعيان قطنا كافة!».

فتدخلت كيا جاهدة للتخفيف من توتّر الوضع واستفسرت: «لأي غرض جرى ذلك؟ أقصد، لماذا تَعقد صلاتٍ مع الحتّيين؟ لا شك في أن لديك مبررات مقنعة يا أبي!».

«أنا سأجيبك. إنه أسلوب عمل أبينا، أن يكون على علاقات جيدة مع جميع البلاد، ما أمكن. من النظرة الأولى هذا جيد ولا غبار عليه، وهو إنجاز ديبلوماسي كبير. لكن مصر سترتبك بل وستغضب لاحقاً، عندما تعرف أننا نبحث عن حلف مع عدوها اللدود، أليس كذلك؟ والدنا يرى أن جانب مصر مكفول لنا، والضمانة هي السيدة المبجلة إيست أولاً، ثم أنت يا صغيرتي!». وابتسم أكيزي في وجه أخته وهو عملياً يكشّر ممتعضاً، فاحمرّت لا إرادياً. أكان ميلها إلى أمونحوتب جلياً إلى هذا الحدّ؟

«ولن يدهشني أبداً وجود سعاة على الطريق سراً إلى توشراتا ملك ميتاني، وإلى آشور أيضاً. ففي نهاية المطاف لا أحد يعرف كيف ستتطور الأمور. ألستُ محقاً؟».

تعالُم أكيزي جعل الملك ينتفض واقفاً. وظنّت كيا للوهلة الأولى أنه سيرفع يده على ابنه، غير أن إيداندا كان متماسكاً. لكنه قال بحدة:

«أنا أمنعك من هذا السلوك العاصي المتطاول، أكيزي! قد أجيز لمجلس الأعيان أن يلومني، أما لكَ فلا! ما هو هذا الخطأ الفادح برأيك في جهودي؟ حتّوشا هي القوة

القادمة. شوپيلوليوما لن يهدأ، حتى يُخضِع ميتاني لسلطاته ويحتل آشور. لهذا يجب أن نكون جاهزين، أم تريد لقطنا أن تُهرس بين القوى المتصارعة؟».

«أتظن أن قطنا لن تُهرس، فقط لوجود اتفاقيات تجارية بينها وبين الجميع؟ وعندما يصل النزاع بين حتّوشا ومصر إلى مواجهة مسلحة، أتظن أن شوپيلوليوما سيهتم لوجود قطنا؟».

«طبعاً سيهتم، بل أنا موقن من أنه سيهتم. نحن نحتل هنا خط المواجهة تجاه بلدان الفرات ودجلة. منتوجات هذه البلدان وموادها الخام ضرورية دائماً، مثلما أن منتوجاتنا وموادنا الخام ضرورية لها!».

«التجارة والثروة هما الأمران الوحيدان اللذان يوجهان تفكيرك!». تفاقمت سورة غضب أكيزي، بحيث تجلّى جوهره المنفلت في حركات جسمه كله.

«إن قِصَرَ نظرك سياسياً وسوء تقديرك لميزان القوى يدفعني إلى حجب وجهي حزناً. وبغضّ النظر عن ذلك، ألا توفر لك ثروة قطنا عيشاً مرفّهاً؟».

تابعت كيا بانزعاج النزاع بين الاثنين، إذ لم يسبق لها قطّ أن سمعتهما يخاطبان أحدهما الآخر بهذا الأسلوب. ما الذي جرى لأكيزي؟ كيف يمكنها التوسط في هذا النزاع؟ التفتت إلى أخيها وسألته: «ما الذي تريده؟ ما هو الصواب برأيك؟».

«أبي يعرفه تماماً»، فحّ أكيزي وأردف: «نحن مرتبطون بمصر، وخيراً نفعل بذلك. ونحن بأمسّ الحاجة الآن، أكثر من أي وقت آخر، إلى هذه الحماية القوية. ولكن تحديداً بعد زيارة ولي عهد مصر لسوريا وإقامته بين هذه الجدران بالذات، نسمح لسعاة حتّوشا بالدخول والخروج حسبما شاؤوا. هذا لا يعقل!».

«من المؤسف جداً أنك على ما يبدو غير قادر على التفكير بمبرراتي بهدوء»، قال الملك إيداندا، وأضاف: «أرجو أن تتركني مع كيا وحدنا الآن!».

كوّر أكيزي قبضتيه بغضب، لكنه انحنى محيّياً بتصنّع وغادر غرفة العمل. نهضت كيا مضطربة، توجّهت إلى أبيها وعانقته. كم كانت مؤلمة له هذه الملاسنة. نظر إيداندا إلى ابنته بامتنان، ثم قال لها: «يؤسفني يا صغيرتي خوضك هذه التجربة. أتعرفين؟ أسوأ ما في الأمر أن أكيزي محقّ في تهمة واحدة: ما كان يجوز لي الاتصال بحتّوشا من دون إطلاع المجلس على الأمر. ما أسرّه لكِ يجب أن يبقى بيننا، كيا! أنا لم أطلع أحداً على الأمر، ليقيني من وجود أكثر من خائن في المجلس. ورغم كل جهود مخبرينا ما زلت لا أعرف

هويتهم. وأنا لست قادراً على تخيّل أحدهم خائناً: أوبيا، تيرو، لوايا، لا يمكن لأي منهم أن يعمل ضد مصلحة قطنا. لكن جميع المؤشرات تدل على ذلك. إذا تسرب الآن خبر اتصالنا بالحتّيين، فمن المؤكد أن علاقتنا بمصر ستتعقد، وكذلك وضعنا هنا في قطنا، ولا سيّما علاقاتنا ببعض جيراننا السوريين. أنت تعرفين أن لهم وجهة نظر مختلفة عما يجب أن تكون سوريا عليه. أشعر أحياناً بحيرة كبرى وبإرهاق شديد. وإضافة إلى ذلك، لم يتغير انطباعي بأن الأرباب يحجبون مساعدتهم عنا!».

جلس الملك إيداندا قرب المجمر مرتجفاً من البرد، وأخذ يفرك يديه ببعضهما ليدفئهما.

«هل سيكتم أكيزي الأمر؟».

«أكيد، لا تشغلي بالك بالموضوع!».

**

بعد عيد قمر الشتاء الجديد ببضعة أسابيع عاد أمونحوتب إلى قطنا، إثر رحلةٍ ممضّة. لقد حوَّلت أمطار الشتاء الدروب إلى أوحال، جعلتها إلى حد كبير غير صالحة للعبور. اعتبر الملك إيداندا هذه العودة إشارة جيدة. فما من سبب آخر لتحمّل الأمير هذا العبء بملء إرادته، سوى لقائه بكيا مجدّداً. وقد أحضر معه من أوغاريت وبيبلوس أشياء كثيرة جديدة، من بضائع وهدايا ورسائل، ومنها رسالة لأكيزي.

وهذه المرة تمكنت كيا من الترحاب بالأمير بصورة لائقة. أرادت أن تكون رزينة هادئة، وعاهدت نفسها على ذلك. لكن مجرد تفكيرها به جعلها تفور وتغلي. وعندما وقفت قبالته لم ترَ سواه. رمته بنظرة حارقة، فيما أبقى أمونحوتب عينيه مركّزتين عليها طويلاً، ثم ابتسم وانسحب إلى الجناح الغربي ليطهّر نفسه من الرحلة.

احتاجت كيا إلى بعض اللحظات كي تجمع أشتاتها، وقرّرت أن تمضي الوقت في القصر حتى موعد المأدبة المشتركة. وها هي ذي بعد مدة طويلة تجلس ثانية مع إخوتها في غرفة المعيشة. بدا أن التوتر بين الملك وأكيزي قد تلاشى، فاطمأنّت لهذا الجو الأليف، وبدا كلّ شيء طبيعياً. إن حياتها الحالية مختلفة، وكم ستتغيّر يا ترى، إذا ما صارت كاهنة!

كان محور الحديث هو الرسالة التي جلبها المصريون معهم من أوغاريت لأكيزي، الذي كان طيب المزاج عندما دخل الغرفة وسألهم: «احزروا، مَن المرسل!».

كانت كيا قد فكّرت بالأمر وتوصلت إلى نتيجة، فأجابته فوراً: «ما أسهل الجواب. بما أن الرسالة من أوغاريت، فمرسلها لا يمكن أن يكون سوى تالزو. لا أعرف شخصاً آخر قد يراسلك من هناك، أم تراك خطبت أميرة أوغاريتية، يا محطّم القلوب؟!».

ضحك الجميع، لكن موضوع السخرية بقي متماسكاً، فقال: «أخطأتِ الهدف يا أختي العزيزة! على غلاف الرسالة هناك اسم قائد عسكري كبير يدعى هنوتي». وسُرّ أكيزي لمرأى وجه كيا المذهول.

«هنوتي؟ إنه شخصية بارزة جداً في حتّوشا. حسب علمي هو اليد اليمنى للملك شوپيلوليوما»، قال كواري وتابع سائلاً: «وما علاقتك أنتَ به؟ هيا، اعترف!». فقد ثار فضول كواري أيضاً.

بُهتت كيا. تذكّرت النزاع بين الملك وأكيزي قبل أيام قليلة، ومدى غضب أكيزي بسبب الصلات مع حتّوشا، وها هو ذا الآن يتحدث بكل هدوء عن رسالة من قائد حتّي، دون أدنى إشارة إلى شعورٍ بالذنب. ما هي اللعبة هنا؟ فسألت بصوت أجشّ:

«هل يعني هذا أن الرسالة مكتوبة في حتّوشا؟». ولاحظت فوراً من جوابه سلامة نواياه، فقد كان مستمتعاً بحالة الإثارة.

«طبعاً في حتّوشا، وهذا واضح من شكل الرُّقُم! وهي من شخص يدعى تانوا».

انزاح حجرٌ عن قلب كيا. إنها من تالزو إذاً، وقد عرفت ذلك من البداية. لكنها جذبت الخيط الذي مدّه أكيزي وتابعت غزله قائلة: «آه، من تانوا. لماذا لم تقل ذلك فوراً. فهذا لم يخطر في بالي مطلقاً. أمر رائع!».

نقل كواري نظره من أكيزي إلى كيا وقال: «ما عدت أفهم شيئاً. عمّ تتكلمون يا جماعة؟».

غير أن أكيزي أيضاً أصيب بالدهشة، فقال: «أختنا الصغيرة الماكرة تصعب هزيمتها. أخبريني، أقادرة أنت على الاستبصار؟».

صمتت كيا. غير أن أفكارها سرحت عائدة إلى ذلك اليوم الذي حكى لها فيه تالزو عن مشاريعه، عن أنه سيغادر ترشا إلى حتّوشا، حتى رغم إرادة والديه. وأنه في هذه الحالة سيبدل اسمه إلى تانوا. حينذاك ضحكت منه ولم تتصور أنه سينجح في مسعاه. لكنه قد نجح على ما يبدو.

«طيّب، لن أطيل عذابكم. إنها حقاً رسالة من تالزو. الأرباب وحدها تعرف كيف

حزرت كيا ذلك. إنه في حتّوشا، في خدمة الملك، ويتلقى تعليمه هناك، تماماً مثلما كان يرغب. صار يتبع الآن حاشية القائد العام هنوتي ويحمل اسم تانوا. حياته تبدو قاسية جداً، لكنّه راضٍ عن وضعه. إنه يفكر بنا – انظروا هنا، ذكر أسماءنا كلنا – وهو يرسل لنا تحياته!».

فعلّق كواري: «يفرحني أن أسمع أخباره. إنه شاب جيد. وفي أيامنا هذه من المستحسن أن يكون لنا في حتّوشا شخص نثق به. وماذا عن إحيّا؟». فأجاب أكيزي:

«عن والديه لم يكتب شيئاً. ولكن ثمة رسالة إضافية هنا خاصة بكيا!». ومدّ يده نحو كيا بالرُّقُم. كان على الرقم أربع إشارات مصرية، استدعت ابتسامة من كيا. يا له من إخلاص! إنه فعلاً لم ينسَ أنها أرادت أن تكاتبه بالمصرية، فبذل جهده ليتعلمها. قرأت كيا بصوت عالٍ: «طال عمركِ في صحة وعافية!». وهذا ما أتمنّاه لك أيضاً، قالت في نفسها.

غادرت كيا غرفة المعيشة، وعلى طريقها بين القاعات لحق بها أكيزي وسحبها من يدها إلى غرفة عمل الملك الخالية، قائلاً: «أريد أن أكلّمك، كيا. اجلسي!». وسحب من كمّ ردائه لفافة بردي، فسألته: «ما هذه؟».

«هذا ما أريد أنا معرفته، يا أختي العزيزة. صديقنا تالزو أو تانوا، كما تشائين، أرسل عدّة رسائل في طرد واحد. اللوح الطيني موجّه إليّ ولنا جميعاً، ثم هذه اللفافة المزينة باسمك، و كانت مخبّأة في إحدى الهدايا، مختومةً ومحاطةً بسلسال ذهبي ناعم يشبه سلسالك. يستحيل أن يفترض تالزو أني لن أعثر على اللفافة الموجهة إليكِ، إذاً فقد أخفاها لأسباب أخرى. وأنا من جهتي أريد أن أعرف ماذا يكتب لك، وليس لي أنا. كيا، أنا أخشى.. تعرفين ما أعني، أليس كذلك؟ هذا سيخرّب جميع الخطط مع أمونحوتب، ويحتمل أن يؤدي إلى فضيحة كبيرة. أرجوكِ، افتحي لفافة البردي هذه. إذا كان فيها ما أتوقعه، فيجب أن نعدمها بأسرع ما يمكن وأن نكتم أمرها كلياً!».

ناولها أكيزي اللفافة.

تحسّست البردي بيدها والختم والسلسال. لقد زوّد تالزو نفسه بالبردي من قطنا. كانت موجودة إلى جانبه وهو يجمع الأوراق الفاتحة والناعمة بكل عناية. لقد اختار أفضل الأنواع. لم تتصور أنْ يوجد في حتّوشا مثل هذا الختم الخاص والجديد؛ أمر يسترعي الانتباه! لحسن الحظ أن حروف الإطار كانت أكدية، أما العلامات الصوَرية في الوسط فلم تعرفها، إذ لا علاقة لها بالهيروغليفات المصرية. لا بدّ إذاً من أن تكون علامات

كتابة حتية. لا شك في أن تالزو يتقدم في عمله سريعاً. فكّرت فيما إذا كان عليها أن تفكّ السلسال، وما إذا كان عليها أن تفتح اللفافة هنا، حسبما يتوقع أكيزي منها.

«أفضّل أن أقرأ الرسالة وحدي في بيت الربة!».

«لا يمكنني أن أسمح لك بذلك بأي حال من الأحوال، كيا، وأنت تتفهمين ذلك. فكّري بالمجازفة القائمة. ماذا سيحدث إن اعترضك أحد وأضعت اللفافة لسبب ما. لا، لا نقاش حول الأمر. يكفيكِ أني قد أعطيتك إياها بنفسي، وفوق ذلك، غير مفتوحة!».

«ماذا جرى لك؟ لا يمكنك هكذا ببساطة أن تحجب عني أخباراً موجهة لي، أو أن تفتح رسائلي. إني أقولها لك بطيبة، أكيزي، إذا وصل إلى علمي مرة أنك تخدعني بهذه الطريقة..!».

فقاطعها أكيزي قائلاً: «عفواً يا أختي. هذا لن يحصل، طبعاً. أنا قلق وحسب، ولا داعي لأن أذكّرك بالسبب. من المهم جداً لقطنا أن يقف أمونحوتب إلى جانبنا. وأنا أريد تجنّب أية مخاطرة. أنت تعرفين معزّة تالزو عندي كصديق، أما أن يصارحك بحبه ويقسم على الإخلاص لك، فهذا غير وارد إطلاقاً. لذلك أرجوك، كيا، افتحي ورقة البردي لتتضح لنا الأمور!».

«حسناً، لنتفق على ما يلي: إذا تحققت مخاوفك فسأعطيك الرسالة لنحرقها. أما إذا كانت بريئة فسأحتفظ بها. موافق؟».

«ما معنى هذا؟ لا يمكن لأي رسالة منه أن تكون بريئة! ألا تفهمين؟ كيف يخطر في باله أساساً أن يخاطب أميرة قطنا؟».

«لعله يخاطبني، لأننا أصدقاء، أنسيت؟».

عضّ أكيزي على شفته. لا مكان الآن لخلاف بينه وبين كيا. ولطالما كانت أخته تعرف دائماً ما تريد. فقال: «موافق!».

جلس إلى إحدى طاولات الكتابة، بينما حلّت كيا برويّة السلسال الناعم عن اللفافة وخبّأته في ردائها. ثم كسرت الختم وفردت اللفافة وأمسكتها بيديها. كانت الصفحة مملوءة بالكتابة. بدأت الرسالة بصيغة تحية مألوفة، وقد ابتسمت كيا عندما قرأت اسم الربة التي اختارها تالزو لها: «حفظتك الربة شاوشْغا». ولم يكن في الرسالة ما يبرر مخاوف أكيزي. طارت عيناها عبر السطور، من دون أن تفهم شيئاً. عمَّ يتحدث تالزو؟ ولكنها في القراءة الثانية التقطت ما يلمّح إليه الصديق، فارتعدت وأمِلت في الوقت نفسه

ألا يكون أكيزي قد انتبه إلى ذلك. إن ما لاحظه تالزو بشأن تيرو يجب أن تكتمه لنفسها، وحتى أكيزي لا يجوز أن يطّلع عليه. وإن اضطرّت فوالدها فقط، فلعله الوحيد القادر على استيعاب الأمر وتفسيره. على كل حال، ليس في الرسالة ما يسرّ، وقد تبدّى لها ذلك جلياً.

أثناء قراءتها شغل أكيزي نفسه بتفحّص أحد الرُّقم على الطاولة، كي لا يستثير غضب أخته بأكثر مما هي عليه. ولذلك فإنه لم يستجب فوراً عندما نهضت وتوجّهت إلى المجمر ورمت لفافة البردي الجافّ لتشتعل فيه. لكنه عندما رأى ما فعلت قفز وسألها عابساً: «ماذا تفعلين؟ يبدو أن مخاوفي كانت في محلّها! تجاسره هذا سأحاسبه عليه!». كانت كيا قد تماسكت، فقالت له مهدّئة: «يا أخي أكيزي، أرجوك استمع إليّ لحظة بهدوء. لم يكتب تالزو أي شيء مما تتّهمه به. عليك أن تصدقني في ذلك، فأنا لن أكذب عليك!».

«لماذا لم تُرني إذاً، ما أراد أن يقوله؟».

«لا يسعني أن أتحدث في الموضوع إلا مع أبي. ويفضّل أن تنسى الأمر كله!».

وعلى غير عادتها قبّلته على خدّه وغادرت غرفة المكتب بسرعة، فيما بقي أكيزي مشوّشاً والشكّ يأكله. أيمكنه الاعتماد على كيا؟ أيمكنه الاعتماد على صديقه تالزو؟ ما الذي كتبه لها يا ترى؟ ولماذا لها بالذات؟ اشتعل حنقاً، فهو وليّ العهد وليس صبياً طائشاً. كيف تتطاول كيا عليه بهذا التبرير؟ إلى جانب مَن تقف كيا؟ كان يعتقد أنها تحب أمونحوتب. والآن تالزو؟ هل للرسالة علاقة بصلات الملك مع حتّوشا؟ وأخيراً بدا له هذا حلّاً معقولاً. لكن هذا يعني أن كيا تقف إلى جانب الملك، الذي يدعم الارتباط بين كيا وأمونحوتب، ويمدّ مجسّاته رغم ذلك نحو الحثّيين. ما هذا اللعب المربك! كم يكره هذا العبء المرتبط بالسلطة والحكم، وقرّر أن يغرق غضبه بالشراب وأن يبحث عن إحدى ضجيعاته، فحملُ إهلي نيكالو يُضجره.

الرسائل الأخرى التي وصلت إلى قطنا مع أمونحوتب، لم تكن سارّة أيضاً. ففي إحداها يخبر (ريب أدّي) حاكم جبيل الملك إيداندا بأن أمْنَ طريق القوافل قد ساء جداً. فإحدى القوافل المنطلقة من قطنا والمزمع متابعة شحن حمولات حميرها بالسفن إلى مصر، كانت عند وصولها إلى جبيل قد فقدت عدّة حمير مع حمولاتهم الثمينة. وقد علم ريب أدّي بحادثة مشابهة تتعلق بقافلة منطلقة من نَشَلا إلى أوغاريت. وكتب ريب أدّي إضافة إلى ذلك أنه قد سأل ملك أمورّو وملك قادش وحكّام إمارات مجاورة أخرى عما إذا كانوا قد سمعوا عن حوادث مشابهة في مناطقهم. لكنه لم يحصل حتى الآن سوى على

جوابِ حاكم أمورو الذي قال إن الأمن في مملكته مستتبّ، وإن رقابته مشددة على كل شيء فيها. غير أن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً، في رأي ريب أدّي، فقد علم من مصدر موثوق أن حوادث الاعتداء على القوافل قد وقعت في أمورو أيضاً، لكنه لا يعرف مبلغ الأضرار الناجمة عنها.

«حالما تتحسن أوضاع الطرقات وتعود صالحة للسفر، لا بدّ لنا من الاتصال بريب أدّي»، قال إيداندا لأقرب أعضاء مجلس الأعيان، بعد أن ناقش معهم رسالة ريب أدّي، وأضاف: «لنعرف ما إذا كانت الهجمات على القوافل تشابه ما مر بنا. في حالة واحدة على الأقل، نعرف أن الغنيمة كانت ثمينة جداً. لكن الرسالة لا تخبرنا ما إذا كان المالك من قطننا».

«أليس غريباً أن تتكاثر الهجمات في هذا الصيف تحديداً؟! في السنوات الماضية لم يكن الأمر هكذا. يبدو لي أن ثمة من يريد إثارة القلاقل. ولكن لأيّ غرض؟». قال أوبيّا وهو يهز برأسه. فعلق أكاليا: «لا أدري أيهما أكثر أهمّية: تعرّض أمن طرق القوافل للخطر وضرورة تحسين حمايتها، أم أن البضائع المنهوبة هي الأمر الحاسم في الأحوال كلها. بالنسبة إلى عائلتي كانت خسارتنا فادحة، كما تذكرون حتماً، فالمهاجمون قد استهدفوا أغلى ما في الشحنة كلها!».

«عندما نعرف أكثر، ستتمكن من إيضاح تساؤلك!». قال تيرو.

«الشريف تيرو محقّ في قوله»، علّق أوبيّا وتابع: «لكن ما لا أفهمه هو ما يخبرنا به ريب أدّي عن الملك (عبدي عشيرتا). لماذا يزعم هذا أنه لم تقع أية هجمات على القوافل في أمورو، رغم أن الواقع غير ذلك؟».

«تعرفون جميعكم»، أجاب إيداندا «مدى اعتزاز عبدي عشيرتا بنفسه إلى درجة الغرور. إن مجرد التلميح إلى أنه لا يُحكِم سلطته الكاملة على ما يجري في مملكته، سيخرجه عن طوره. فليضحك إذاً ريب أدّي في عبِّه لكون تصريحه لم يؤدِّ إلى استدعائه للمبارزة». فضحك الجميع، ثم سأل تيرو ملتفتاً إلى إيداندا:

«وما حكاية ابنه عزيرا؟».

«ماذا تقصد؟».

«ظننت أنه معجب بابنتك، كيا. أليس كذلك؟».

«ما هذا الكلام؟».

«لن تكون أسوأ الزيجات إنْ جمعتُ بين قطنا وأمورو، وأنت تدرك ذلك جيداً، إيداندا!».

«أرجوك تيرو، لا تفتح هذا الموضوع مجدداً!».

«لا تستغبِني يا صهري العزيز، أنا أعرف تماماً بمن تفكّر عريساً لأميرتك!». ونهض تيرو منزعجاً وانسحب من الاجتماع.

**

مخاوف تانوا من أنه لم يكن في مستوى متطلبات كبير الكتّاب لم يكن لها ما يبررها. لقد علم بذلك من هنوتي، الذي أخبره بفخر، بأن معلمه المستقبلي راضٍ عنه وعن إمكاناته كلّ الرضا.

«لكن كلمات كثيرة في النص لم أعرفها، فلم أستطع كتابتها».

«لا أحد يتوقع منك أن تأتي إلى الدنيا ضليعاً بالحثيّة في لغة الإدارة والقانون الاختصاصية. معلوماتك اللغوية ممتازة. وذكرك اللغة الإيجية كان ضربة ذكاء منك!».

«رغم عدم معرفتي بأن الملكة من تلك المنطقة. ما هذه المصادفة؟».

«هناك علاقات سلمية أيضاً مع بلدان بحر الغرب الكبير. أما أن يصل جنون العظمة عند ملك أرزاوا حداً يعلن فيه العداء تجاهنا، ويضطرّنا إلى خوض عدّة معارك ضدّه، فهذا ما لم يتوقعه أحد. الملكة هنتي جاءت مع عدد من أشراف إيجة وأرزاوا لزيارة حتّوشا كالعادة. في تلك الزيارة، أذكر أنهم رافقوا تمثال ربة الشفاء. وأثناء ذلك اشتعلت شرارة بينها وبين الملك»، وضحك هنوتي.

يبدو أن هذا الشرار لم يلمع في وجه هنوتي حتى الآن، فكر تانوا. وهذا الأمر يؤرق شوميري، أم هنوتي وجدة تانوا. وهي سيدة نبيلة متينة البنيان، استقبلت بعد طول غياب ابنها، بحضور أفراد العائلة الذين لا يحصى عددهم، في دارها الكبيرة الواسعة الواقعة بين الحصن والمعبد الكبير في منطقة سكنية راقية. وكان سؤالها الأول له: «متى ستتزوج لأرى أحفادك؟»، فانتهز هنوتي الفرصة بمزاج طيب وأجابها:

«لأجنّبك يا أمي الحبيبة عناء الرضّع ومتاعبهم، أحضرت لك معي كتعويض حفيداً ناضجاً حسنَ التربية ممتازَ التعليم: ها هو ذا تانوا، ابن كالي!».

أيخدعه انطباعه يا ترى أم أن الصمت قد حلّ فجأة حقاً؟ يُحتمل أن يكون الأمر مفهوماً، نظراً لبعد الشقة وطولها مع كالي، فكان الجميع فضوليين تجاه ابنها، ولكن بتحفّظ. رحّبت به شوميري بودّ، وعرّفته بالحضور. أراه هنوتي بعض قاعات الدار وشرح له المبدأ المعماري الذي تُبنى وفقه معظم دور الأشراف والقصور والمعابد في حاتوشا:

«تُعدّ الدار بمنزلة كونٍ مصغّر: فالعمود الذي يتوسط القاعة الرئيسية هنا يمثل العمود الذي يدعم السماء. في جميع المنازل والقصور والمعابد يوجد هنا عرشُ سيّد الدار أو الملك أو الرب، أو كرسيُّه. وهنا يوجد أيضاً مكانُ الشرف لكبار الضيوف. سقف الدار يمثّل السماء، والزوايا الأربع تمثل الاتجاهات الأربعة. الموقد هو مركز الدار، حيث نقدم الأضاحي لأرباب الدار. وأرضية الدار تمثل الأرض التي يوجد تحتها العالم السفلي».

تجمّع الحضور حول هنوتي في القاعة الرئيسية وأخذوا يسألونه عن مغامراته. شعر تانوا بالفرح عندما تمكن من الجلوس بجانب هنوتي إلى مأدبة الطعام، فقد كان يشعر بنوع من الضياع رغم ترحيب الجميع به. ولاحقاً، عندما عاد للتفكير في هذا اللقاء الأول لفت نظره أمران. أولهما أن خالة عجوزاً فقط، هي مَن استفسر بالتفصيل عن حال أمه من بين جميع أفراد العائلة. لكن ما أثار استغرابه أكثر، وقد انتبه إلى الأمر مصادفة عند مغادرتهما دار العائلة مساء، هو أن عدداً من أفراد العائلة وراءهم، قد رفعوا أكفّهم ليحموا أنفسهم من مصيبة نازلة. شعر تانوا بنفسه في مواجهة ألغاز، لكنه لم يجرؤ على السؤال.

كان تانوا مسروراً بالعمل في مكاتب الإدارة، رغم ضغط الفروض والواجبات التي كان عليه إنجازها يومياً. فقد وضعوا له برنامجاً ساعيّاً، فكان ينتقل يومياً من مدرّسٍ إلى آخر. وأكبر ما كان ينقصه هو تعلّم قراءة العلامات الصوَرية وكتابتها، غير أن تقدّمه كان سريعاً لأنه كان يطيل السهر وهو يتمرّن في مقرّ إقامته.

ومقرّ إقامته كان في دار هنوتي، في بناء يقع إلى غرب باحة الحصن السفلى، حيث خصّص له خاله غرفتين. وكما كان الحال عليه لدى الأهل في ترشا، لم يكن مطلوباً منه هنا سوى أن يهتم بتعليمه، وكل الأمور الأخرى الضرورية كان الخدم يقومون بها. وقد حصل على هذه الميزة لقاء اندفاعه الكبير في أداء جميع واجباته.

إضافة إلى تعلّم الكتابة الصوَرية، تلقّى تانوا دروساً بلغة البْلا الشمالية الغربية، كما تعلم التمييز بين أنواع النصوص: الشعائرية، الاحتفالية، الصلواتية، الأسطورية، الحكائية،

والنصوص الأدبية السومرية والأكدية والأخرى التي تتضمن مدونات تأريخية. وتعلّم إضافة إلى ذلك كتابة الديباجة الصحيحة لمختلف الرسائل، وتحضير نصوص المعاهدات والاتفاقيات. وتدوين محاضر اجتماعات مجلس الشيوخ ومباحثاته، وتدوين النصوص القانونية. وفوق ذلك كله كان عليه تعلّم إدارة المكتبات والمحفوظات. ولتسهيل ذلك كان يُلجأ إلى ملصقات طينية صغيرة على مختلف الرفوف تدل باختصار إلى مضامين مجموعات الرُّقم.

ولخلق نوع من التوازن مع العمل المغبّر، حسب وصف هنوتي لعمل الدوائر الحكومية، كان على تانوا ما أمكن أن يتابع التدريبات الجسدية المتنظمة. وكان هنوتي هو من طالب بذلك، تحسّباً لمشاركة تانوا في حملات عسكرية. وقد شعر تانوا بأن التدريبات اليومية مفيدة وتبقيه على اتصال بزملائه وأصدقائه.

انصب اهتمام تانوا على دراسة جغرافية حتّوشا، والبلدان الأخرى أيضاً التي لها صلات مع حتّوشا. وكانت محفوظات الإدارة تحتوي على ملفات واسعة عن كثير من هذه البلاد. وقد سُرّ تانوا لوجود ملف حول كَتّانا حسب اللفظ الحتي لقَطْنا. ولكن بدا أن كاتب الملف لا يعرفها من كثب، أو أنه قد زارها عابراً. وتضمن الملف إشارة إلى مادة الصباغ الأحمر التي تستخدم لتلوين أجزاء من الأردية والأثواب. فكُلّف تانوا بتجديد معلومات الملف، نظراً لإقامته عدّة أسابيع في تلك المملكة.

بدأ تانوا بالعمل، وفكر بالغرض من معلوماته، وتبيّن له بعد فترة قصيرة أنه يواجه مشكلة. وتأكد ذلك عندما أعلمه ميتاناموا بأن الملك يريد شخصياً تبادل الحديث معه حول قطنا. عندئذٍ أحسّ أنه في ورطة. فهو في قطنا موضع ثقة، وأكيزي كان صديقه؛ وهو في حتّوشا موضع ثقة كبيرة. فلقد اطّلع على محفوظات الإدارة، كما أُطلع بشكل أو بآخر على المراسلات الديبلوماسية. وبات يعرف ما يدور في مركز السلطة في حتّوشا وما حولها، وما المطلوب منه أثناء المفاوضات، إذا ما رافق هنوتي والملك في الحملات العسكرية. والنتيجة باختصار: عليه أن يكرّس حياته في سبيل حتّوشا، وأن يكون ولاؤه لها مطلقاً، ولا سيّما بعد أدائه القسَم الرسمي.

ولكن ماذا عن قطنا؟ وعن الملك إيداندا وأكيزي؟ وماذا عن كيا؟ بعد تفكير بالأمر، أحسّ بارتياح لأنه فعلاً لم يطّلع على المنطقة المحظورة في قطنا وما يجري فيها. لذلك ليس لديه الآن ما يكشف عنه، ولولا ذلك لكان لديه الكثير ليدوّنه.

يا ترى إلى جانب من تقف قطنا؟ ماذا حدث فيها منذ سفره منها؟ ليته يمتلك المرآة السحرية المذكورة في الحكايات! في الخارج كانت الرياح الشتائية تعصف بصخب، فيكون لاندفاعاتها بين المنازل صفير حاد. وقلب تانوا كان يعصف أيضاً. لم يكن بوسعه سوى التضرّع للأرباب الألف كي لا تصبح قطنا ذات يوم مشكلة لحتّوشا، وأن تصبح معلوماته فائضة، مع موازنته لها الآن بتأنٍّ. وفي زحمة هذه الأفكار خطرت بباله أيضاً رسالته إلى أكيزي وكيا. كان قد سلّم كل شيء إلى الإدارة ليذهب مع ساعي البريد، من دون أي ارتياب. إنهم مطّلعون على صلاته إذاً، ولا شك في أنهم قد تساءلوا عن السبب الملحّ الذي دفعه للكتابة إلى وليّ العهد. لقد وضع اللوح الطيني في الكيس المعتاد وختَمه. وماذا عن ورقة البردي؟ أيحتمل ألا تكون الرسائل قد أرسلت قط؟ كم كان ساذجاً سليم النية! عليه أن يتعلم أكثر بكثير من كتابة العلامات الصورية!

لقد ظن أنه يعرف، مَن الذي أُرسل نحو الجنوب، فنانينزي لم يعد يظهر في مكاتب الإدارة. إلى أين في الجنوب؟ قيل أوغاريت. إذا وصلت الأمور بين حتّوشا وميتاني إلى الحرب، فحال أوغاريت ستكون في خطر، مثل قطنا. إنه يحاجج الآن مثل الملك إيداندا! ليس بوسعه أن يفعل شيئاً الآن سوى أن يجهز نفسه للأسئلة. لذلك لا بدّ له من أن يوضح الأمور في ذهنه ليعرف بماذا سيجيب. والأفضل هو أن يقول الحقيقة ببساطة، وهم سيحترمون هذه الحالة الاستثنائية. لا، لن يترك الأمور لتصل إلى هذا الحد. لا أحد يعرف شيئاً عن حبّه لكيا. حتى أنه لم يبُحْ بالأمر لمورسيلي، ولا لهنوتي. والده هو الوحيد الذي قد يخمن ذلك، لكنه بعيد جداً. ومن ترشا لم يصله حتى الآن كلمة واحدة. إذاً لا ضمانة لديه، أن الرسائل قد أرسلت. إنه لم يصبح بعد فرداً في عداد الخدمة الملكية الفعلية، وها هو يورط نفسه في مشاكل. إنه مستعد بكل قواه لخدمة حتّوشا، لكن وعده المقدس بالمساعدة لكيا يأتي في المقام الأول. ماذا سيفعل، إن أرسلت له ذات يوم تميمتها؟ عندئذ سيهرع إلى جانبها، ولن يعيقه عن ذلك شيء. ترى هل سيقبل أرباب حتّوشا بذلك؟ يقال إنه لا جدوى من الكذب، لأن الأرباب يعرفون دائماً ما إن كان المرء يكذب أم لا. ولكن إنْ لم يسأله أحد عن كيا، فإنه لن يكذب.

وبقلب مثقل تناول بيده اللوح الطيني، طلاه بطبقة طازجة من الشمع المذاب، وشرع يكتب عليه كل ما يستحق أن يروى.

بمرور الوقت بات تانوا يعرف العاصمة الواسعة بصورة جيدة. فكلما سنحت له الفرصة

بين دروسه وواجباته كان يتجول فيها وحده، نادراً مع هنوتي وأحياناً مع مورسيلي وميتا أو مع الزملاء الجدد في الإدارة. ومنهم عرف أن القصر ليس المكان الوحيد في حتّوشا، حيث تتم عمليات التدوين والنسخ والحفظ. ففي المعبد الكبير لرب الطقس فقط يوجد أكثر من خمسين كاتباً ثابتاً، من دون أن نحسب حساب المعابد الأخرى. كانت الحاجة إلى الكتّاب الجيدين كبيرة جداً، ففي جميع المقارّ الملكية يجب أن يسود المستوى الجيد نفسه. إضافة إلى ذلك هناك كثير من الكتّاب المتنقلين الذين يرافقون الملك في جولاته وحملاته العسكرية، إلى جانب مختلف المترجمين.

كما قبل سنة تقريباً مع كيا في قطنا، كان تانوا هنا في حتّوشا يصغي للشروح الدقيقة. وقد أُعجب على نحو خاص بمجمع مباني المعبد الكبير لرب الطقس الواقع في المدينة السفلى على مساحة شاسعة، وهو معبد من معابد كثيرة غيره في المدينة. في المدينة العليا يوجد حي المعابد المشكّل من نحو عشرين بناء مخصّصة لمختلف الأرباب، وتكاد تكون متلاصقة. الأرباب المبجّلون في حتّوشا لا يحصى عددهم، وكل واحد منهم بحاجة إلى مقرّ، إما وحده أو مع أرباب آخرين. وكان لأرباب الدرجة الثانية، أمكنةٍ يُعبدون فيها، تتألف كحد أدنى من شاهدة حجرية مقدسة أو من دغلٍ مقدس.

«هنا تم التفكير بكل شيء بعناية»، قال له هنوتي في أثناء إحدى الجولات، وكانت طبقة من الثلج الأبيض ما زالت تغطي كل شيء، فبدا المنظر نقياً جليلاً. «خذ مثلاً تنظيم الأبنية المهمّة. مساكن الأرباب تقع في مكان خاص منعزل أعلى القصر الملكي الذي يقع أعلى المدينة السفلى بأحيائها السكنية الكثيرة. وهكذا أمكن تجسيد نظام الدنيا بالحجارة!».

«إذاً ما سبب وجود المعبد الكبير في المدينة السفلى؟».

«لقد بني هذا المعبد قبل زمن بعيد جداً، هو والحصن يشكلان نواة المدينة. هنا يقيم ربّا المملكة الأعلى مرتبة والأكثر أهمّية: رب طقس السماء وربة شمس أرينّا. قديماً لم تكن المدينة بهذا الاتساع، وتدريجياً أخذت تتوسع وما زالت باتجاه الجنوب، حيث ما زال السور جديداً، نوعاً ما، وغير مكتمل في بعض المواضع. علينا من وقت إلى آخر زيارة ورشة البناء في أقصى جنوبي المدينة. سيكون السور صرحاً عملاقاً. لقد رأيت مخططات البناء ونموذجاً طينياً له».

«تلك الأبنية هناك على الهضبات الصخرية الثلاث تبدو مثل قلاع صغيرة خاصة. مَن يعيش هناك؟».

«الموتى»، قال هنوتي وأردف: «إنها أحرام لعبادة الموتى»، وعندما رأى تانوا يقطِّب جبينه، أضاف: «ومن يدري لأية أشياء أخرى. زيارة المكان ليست إلزامية».

«السور في الشمال الشرقي هائل أيضاً. مشيت بمحاذاته حتى وصلت إلى الجدول. ما سبب ترك فتحة في السور هناك؟».

«جميع المحاولات هناك أخفقت، لأن الفيضان السنوي في الربيع يحطم أي سور. لكن المكان هناك محروس بكثافة دائماً، إلا في أعماق الشتاء!».

«وهذا الوادي الذي يمتد إلى يمين السور ويساره..؟». فقاطعه هنوتي على نحو باتر قائلاً: «ستتحدث عنه في فرصة أخرى. هناك من ينتظرني».

فعلّق تانوا: «يبدو أن لكل مدينة سرّاً!».

توقف هنوتي في مكانه وسأله: «ماذا تقصد بذلك؟».

«دائماً هناك حيّ محظور ومسوّر ومحروس. وإذا سأل الإنسان، عمّا يوجد هناك، فإما أن يأتيك جواب موارب أو الصمت المطبق!». وضحك.

«أين مثلاً؟».

«مثلاً، في قطنا!». وعضّ تانوا على شفته.

«آه، وماذا يخفون هناك؟».

«لا أعرف. ولكن يمكنني التخمين فحسب. لكن هذا موضوع أردت منذ مدة أن أحدثك فيه يا خالي». غلطة ثانية، فقد نبّهه هنوتي ألا يخاطبه بصيغة يا خالي، بل باسمه المباشر هنوتي أو برتبته العسكرية أمام الآخرين.

«أي موضوع؟ قطنا؟ بكل سرور، لكن علينا تأجيله الآن. إنهم ينتظرونني في مجلس الشيوخ. وداعاً الآن إلى حين!».

**

«أنت لا تعرفين، كم ألهمتِني يا كيا، وكم جعلت عقلي ينشط يا جميلتي! لم أتوقف عن التفكير فيك منذ غادرت قطنا، وباستمرار. ترى هل أرسلك رع إلي؟ هذا ما كنت أسأل نفسي عنه طوال الأسابيع الماضية. فتدفقت السطور مني إليه بكل امتنان وبهجة. ومنذئذ أضيفت إليها سطور كثيرة أخرى. هل ستقرئينها؟».

فقالت كيا بصوت خافت: «لقد أسعدتني جداً يا أمونحوتب بما أرسلته إلي. جميلة تبدين، أيتها الشمس الحية، يا سيدة الزمن اللا متناهي!». وأخذت تقرأ القصيدة.

كانت واقفة هناك في ردائها البسيط، بوجهها الجادّ المستغرق، وقد أحاطت خصل شعرها الأسود به وبعينيها المضيئتين، فركع أمونحوتب أمامها على ركبتيه بتأثر عميق، وأحاط خصرها بذراعيه. وعندما رفع ناظريه إليها كانتا مغرورقتين بالدموع.

«أنت كل شيء في حياتي!». قال هامساً «نعم، لقد أرسلك رع إلي!».

وبكل نعومة اضطرّته كيا للنهوض.

«أتعرفين، لدي خطط عظيمة. في قادم الأيام، عندما سأجلس مكان أبي -أطال الأرباب في عمره- سأنجز ما بدأه مع الملكة حتى الكمال. سأعلن على الملأ مع زوجتي رسالة النور الأوحد، رسالة مانح الحياة وسيد الكون، رسالة رب الأرباب. سنبني له معابد رائعة، يغمرها النور في كل مكان في البلاد. أرض مصر السوداء - كيميت، ستزدهر أكثر فأكثر وستنتشر ضياءها على جميع البلدان الخاضعة لها والممالك المتحالفة معها. وذات يوم سيغمر النور جميع البلاد، فتنضج به. سنكون نحن كبيري كهنة رب الشمس، وسننشر رسالته في كل مكان!».

أنصتت كيا إلى رؤياه. ما قاله أمونحوتب بدا مقنعاً. نسيَت التهديدات العسكرية التي تؤرق أباها، ونسيَت النبوءات السيئة التي عصفت بشالا، والأخبار المزعجة التي انطوت على مزيد من الألغاز، بدلاً من أن تحلّ بعضها. كما نسيت أحلامها المنذرة بالسوء. أن تحيا إلى جانب أمونحوتب، أن تدعم معه أفكاره، أن تتماهى فيه.. إنها مستعدة للتضحية بكل شيء في سبيل ذلك. إنه قدرها! رفع أمونحوتب عنها وشاح كتفيها برقّة وتحسّس يديها وساعديها. رفع يديه إلى كتفيها ثم أغرق أصابعه في شعرها. استجابت كيا لملاطفاته.

بمرور الأيام تنامى شعور كيا بثقل خدمتها في بيت الربة. وباتت تتوقع يوماً أن تطلبها شالا لتسائلها. ولكن لم يحدث أيّ شيء من هذا، وسرعان ما تراجعت مخاوفها. كانت تمشي على سُحبٍ، وتشعر بكل ما يجري حولها خافتاً ونائياً. لم تعد تعرف شيئاً عن حياة القصر، ولا عن الحركة التجارية الدائبة في دار البلد، ولا عن نشاطات كل حي من أحياء المدينة. لاءمتها رتابة الحياة الساكنة في بيت الربة. فتعلمت الكثير عما كانت موقنة بأنه سيفيدها كملكة أيضاً: مهارات في كتابة لغات مختلفة، والكثير في شؤون الطب.

كانت كيا شديدة الإعجاب بمهارات بعض الكاهنات في دار الشفاء، في استخدام

أيديهن ومعارفهن الواسعة وحدسهن لمعالجة الحالات المرضية. كانت هناك في مكتبة المعبد تدوينات حول أمراض بعض الأعضاء الداخلية كالمرارة والطحال والكبد، وحول أمراض الرأس ومشاكل العين وأمراض الأسنان وسيلان الأنف والسعال وأمراض الرئتين والقلب والأمراض الجلدية والأورام والدمامل وأمراض الدم. إضافة إلى ذلك كانت هناك تدوينات أخرى حول ما يسمى الْمَسّ والإصابة بالعين الشريرة، ومختلف حالات الجنون وغيرها كثير. وبالتدريج اكتسبت كيا معارف واسعة حول مفعول العقاقير والأعشاب الشافية، التي جيء ببعضها من بلدان نائية. ففي بعض أمراض العين مثلاً استخدم حجر الشبِّ الذي كان يستورد من مصر أو حتّوشا، والذي كان يستخدم أيضاً للتعقيم. في حياتها اليومية كانت كيا تعرف الكثير من المواد من دون دراية باستخداماتها الطبية، كالزيوت والثوم والبَقس. وهناك كثير من العقاقير التي لم تسمع بها قط.

في دار الشفاء كانت تُصان أسرار وصفات خاصة جداً، كتحضير شرابات مخدرة تستخدم في طقوس احتفالية معينة. ومعرفة التركيب والمعايير اللازمة تتطلب مسؤولية كبيرة، وفي الوقت نفسه معرفة دقيقة بالشخص الذي سيتجرع الشراب. وقد اطّلعت كيا على ذلك وخبرته في شخص أبيها الملك أثناء عيد قمر الشتاء الجديد. إلى جانب ذلك كان على الكاهنات التعامل مع المواد المسكّنة للآلام التي قد تؤدي إلى حالات تخدير ونشوة إذا زاد العيار عن حدّه. إحدى هذه المواد كانت تستخرج من نبات الخشخاش، الذي كان يزرع في حقل تابع لمعبد خارج أسوار قطنا.

كان محور اهتمام دار الشفاء هو الشؤون النسائية، فكانت الكاهنات تعالجن اضطرابات الدورة الشهرية والحمل والتوليد، كما كنّ بارعات في إزالة شعر العانة والإبط على نحو سليم. حتى في حالات شكوى المرأة من تراجع قدرات زوجها الجنسية، كانت الكاهنات غالباً ما يقدّمن المقوّيات.

كانت كيا تمتص المعارف والمعلومات كقطعة أسفنج. وإضافة إلى ذلك كانت تُسعدها يومياً نظرات الشكر والعرفان في عيون نساء، ساعدت يداها ومعارفها في تخفيف آلامهن.

على الرغم من ذلك كان أمونحوتب يلتقي يومياً تقريباً بكيا. بدا لها أن الجميع من حولها يحبذون هذه اللقاءات ويدعمونها، فكثيراً ما كانت تصادف حالات يجدان نفسيهما فيها معاً وحدهما. وكان أمونحوتب ينتهز هذه الفرص ليحدّثها عن رع رب الشمس، الأمر

الذي كان يتجنّبه في حضور آخرين، سوى إيست. كانت تنصت منجذبة إلى استفاضاته، التي كانت تشعرها بنوع من النشوة. يا للهالة الكاريزمية التي كانت تشعّ منه! سيكون مخلّصاً للبشرية.

«سأعود قريباً إلى مصر!». قال لها ذات مساء. رفعت كيا عينيها عن رقعة اللعب ونظرت إليه متفاجئة. كانت مستغرقة في التفكير بنقلتها التالية، عساها تنتصر على أمونحوتب. هذه اللعبة المعقدة المؤلفة من خمسة أحجار من الأبنوس ومثلها من المحار ورقعة من الصدف واللازورد، تعلمها أمونحوتب بسرعة كبيرة وأتقنها حتى بات معلماً لا يبارى في خططها وحركاتها، إلى درجة أن صاروا كلهم يبذلون كل مهاراتهم لمنازلته والصمود في وجهه.

«الجزء القاسي من الشتاء شارف على نهايته. حالما تصبح الطرق صالحة للعبور، وينتهي فيضان نهر أرانتو، سأتحرك نحو الساحل. لقد آن الوقت لأغادر قطنا، رغم ما يعنيه ابتعادي عنك من ألم يا نجمة عيني. وفي الوطن سأتدبر الأمور كلها، فهناك الكثير مما يحتاج إلى التفكير والترتيب. وفي أسرع وقت ممكن سأرسل في طلبك!».

إلى حدٍّ ما كان هذا الإعلان مباغتاً لكيا، فسألت بشيء من التردّد: «هل ستكلّم أبي قبل ذلك؟».

«أكيد. ثم هناك بعض الأمور التي لا بدّ من إيضاحها معه».

«أيحق لي أن أسأل عن أية أمور؟».

«طبعاً يا مهجة فؤادي. أنا لا أخفي عنك شيئاً. هناك أولاً الرسالة التي أحضرناها لأخيك من أوغاريت. في البداية لم أفكر بالموضوع. وما الداعي؟ فالأمر الطبيعي هو أن الإمارات، وخاصة تلك المرتبطة ببعضها باستثمارات تجارية متنوعة، كالحال بين قطنا وأوغاريت، تتراسل فيما بينها. وقد أحضرنا معنا رسائل من جبيل أيضاً، لكنها تتعلق بأمور محلية لا تهمنا. غير أنه وصل إلى علمنا أن الرسالة الموجهة لأكيزي قادمة من حتّوشا وليس من أوغاريت».

احمرّ وجه كيا. نظر إليها أمونحوتب مندهشاً وسألها:

«أتعرفين شيئاً عن الموضوع؟».

ولانزعاجها نوعاً ما من ردة فعلها، أجابت ببساطة: «هذه رسالة لا أهمّية لها. إنها من ابن شريك تجاري من كيزواتنا، وهو موجود حالياً في حتّوشا!».

«هكذا إذاً!».

فأومأت كيا برأسها مرتاحة.

«ماذا تقصدين بحالياً يا حبيبتي. حسبما قيل لي، الأمر يتعلق بشخص مقرب جداً إلى قائد جيوش حتّوشا هنوتي، إذا كان هذا الاسم يعني لك شيئاً».

«نعم، أذكر أن كوراي قد تحدث عن هذا القائد. حتى هذا له تفسيره، فأمّ هذا الذي ذكرتَه أصلها من حتّوشا. لهذا من الطبيعي أن تكون هناك صلات».

«اذكري لي إذاً يا حبيبتي اسم الشخص، إذا كنت محيطة بالموضوع!».

«اسمه تالزو».

«نحن إذاً بصدد شخصين مختلفين. فمرسل الرسالة على كل حال ليس تالزو».

ارتبكت كيا. من الواضح أن أمونحوتب يعرف أكثر بكثير مما أوحى لها بمعرفته، فجاء كلامها كمن يهوي على حد السكين. فجأة تتحول مسألة بسيطة إلى أمر بغيض، فلا شك في أن أمونحوتب الآن سيتكون لديه الانطباع بأنها لم تقل الحقيقة أو بأنها تخفي عنه شيئاً. هل تراه يلمّح بكلامه إلى الرسالتين؟ حتى في هذه الحال لن يكون الأمر سيئاً أبداً، فالرسالة الرئيسية لأكيزي لا مشكلة فيها، والرسالة الموجهة إليها تتعلق بقطنا فحسب. من أين له أن يعلم بكل هذا؟ مؤكد ليس من أكيزي، إلا إذا تطرقا إليها في حديث عام بينهما وليس بصيغة استجواب. لا، لقد نُقلت إليه المعلومات، ومن شخص يبغي الإساءة إليها أو لعائلتها.

«أتعرف، إنها حكاية طويلة»، قالت محاولة لفلفة الموضوع.

«احكها لي. لدينا ما يكفي من الوقت!».

أحست كيا بشيء من الحدة في كلماته، مما فاجأها. فحكت له بالتفصيل عن إقامة تالزو في قطنا وعن همومه الشخصية، وأنهت حديثها بقولها: «ولهذا غيّر اسمه الآن إلى تانوا». وأمونحوتب كان يصغي إليها طوال الوقت دون أن يقاطعها، بل كان يومئ برأسه بين الحين والآخر. وبعد برهة وجيزة علّق: «من الواضح أنك قد شعرت بميل نحو هذا الشاب أو أنه قد مال إليك!».

هل يشعر أمونحوتب بالغيرة؟ أم تراه يتهمها بـ...؟ أحست بسخونة تسري في بدنها، ورفضت أن تنهي الفكرة. لكنها أحست في تلك اللحظة بمتطلبات أمونحوتب من زوجته

القادمة. لا يجوز قطعاً أن يشوب سمعتها أي شائبة. استُفِزّت روحها المتمردة. أيثق أمونحوتب بها أم لا؟ تالزو كان شاباً لطيفاً وصديق الجميع، لا أكثر من ذلك. هل هذا ممنوع؟

«لا أعرف ما تريد!». قالت وعيناها تومضان بغضب: «لا أستطيع ولا أريد أن أحكي لك المزيد عن تالزو، أكثر مما شرحت، إذْ ببساطة ليس هناك أكثر مما قلت. وإن لم تفهم ذلك فلا أستطيع مساعدتك!».

نظر إليها أمونحوتب مندهشاً. لا تذلُّل ولا خُنوع، بل اعتراض. إنها لم تتراجع، ووجد نفسه يُقرّ داخلياً بأن هذا هو ما يعجبه فيها. فلطّف لهجته قائلاً: «اهدئي يا جميلتي. سننهي هذا الموضوع. لم يكن هذا قصدي. دعينا نكمل لعبتنا. إنه دورك!».

كانت كيا على وشك أن تسترخي على وسائدها ثانية، عندما أطلق أمونحوتب سهماً آخر: «بقية الأمور، كما سبق أن قلت، سأتباحث فيها مع أبيك قبل سفري. فلا شك في أنه سيوضح لي طبيعة العلاقة بين الزيارة البريئة لتالزو - تانوا الذي يعمل في خدمة هنوتي، والزيارة البالغة السرية التي قام بها موفد حتّوشا إلى القصر في قطنا أثناء غيابي!».

جمدت كيا في مكانها. آه يا أبي، فكّرت، إنك تربكني، إذ لا يمكنني التظاهر بأنني لم أدرِ بشيء مما جرى. وأنت أمونحوتب، أتجبرني على أن أحسم أمري، وأعلن إلى أي جانب أقف؟ عندئذٍ انقلب شعورها إلى غضب واضح. لماذا، إذاً، يزعجها أمونحوتب بهذه التُّهم السخيفة؟ فانفجرت: «كنت أظنّنا سنستمتع بالساعات القليلة المتبقية، وبينما أرتعد لفراقك، أجد أن لا همّ لك سوى طرح الأسئلة وتوجيه التّهم إليّ. أجدك تحوّل رسالة ودية من شابٍّ لطيف إلى قضية كبرى وتجعل من البعوضة فيلاً. ألهذا الحدّ تجهل من أنا؟ أوَتعرف أن أشدّ ما يرعبني هو أن تخطر ببالك مثل هذه الأفكار السافلة!». وانتفضت واقفة فأسقطت رقعة اللعب وحجارتها، وضاعت اللعبة. غمرها حزن شديد. نظرت في عيني أمونحوتب كسيرة القلب، ثم غادرت الغرفة هاربة إلى بيت الربة.

طوال أيام مديدة لم تسمع كيا كلمة من أمونحوتب، وكانت الأيام تمرّ بلا هوادة، ثم هذا الصمت المحيط بها. حتى صديقتها أمينابة بدت منهمكة بشغلها، لدرجةٍ لم تسنح معها الفرصة لحديث بوح. أدّت كيا واجباتها كما هو منصوص عليه في بيت الربة، وكانت تُمضي الاستراحات القصيرة عند الربة، على أمل أن تساعدها، أن ترشدها في هذا الظرف العصيب، لكن الربة صمتت كعادتها غالباً. لعلها غاضبة مني لأني موشكة على ترك بيتها؟

أجهدت كيا فكرها، ولكن عبثاً. ما الذي عليها أن تفعله؟ على الرغم من هذا الشجار، هي تحبّ أمونحوتب. ستتخلّى عن كل شيء في قطنا من أجله، وسترحل معه، وستصبح إلى جانبه حاكمة مصر، وستدعم جميع أفكاره وخططه المحلِّقة عالياً في السماء. هو الذي قال بلسانه، إنها هي المختارة له من قبل رع. لماذا لم يعد يكلّمها؟ ما الذي يتوقّعه منها؟ أعليها أن تعتذر؟ ولكن عمَّ؟ إنها لم تخطئ في شيء يتعلق به أو بمصر. هل كانت حقاً صادقة مع نفسها في كل شيء؟ ما أشدّ هذا الألم! أعليها أن تتحدث إلى أبيها؟ لكنه المسبّب الفعلي لتعكّر المياه بينها وبين أمونحوتب. ليتها لم تسمع ذلك الحوار بين أكيزي وبينه، لكانت الآن صافية وبريئة وغير مرتبكة. ولكن من هذه الناحية من حقّ أبيها أن يتحدّث مع مَن يشاء، لما فيه الخير، فقطنا ليست خاضعة لمصر، بل هي بلد حرّ. لكن كيا شعرت أن حججها لا تقف على قدمين راسختين. ومع ذلك استُفز عنادها القديم. إنها لن تتراجع ولن تتذلّل.

وفجأة انتصبت شالا أمامها، وكأنها قد انبثقت من الأرض، كما يحدث في الأحلام. شالا! رمَتْ نفسها كغريقة تروم النجاة بين ساعدي المرأة الحبيبة الحكيمة. نسيَت في تلك اللحظة أن شالا هي الكاهنة العليا للربة.. لا، لا شك في أن الربة نفسها قد أرسلتها إليها. فانهمرت دموع الخلاص. أحاطتها شالا بذراعها وقادتها إلى جناحها الخاص الذي تعرفه كيا من كثب. أخذت برؤوس أصابعها بضع قطرات من حنجور بلسم، وفركت بها صدغَيْ كيا وجبينها، فهدأت وصفت أفكارها وتحرّرت. ناولتها شالا مشروباً مقوّياً ذا نكهة رائعة بالنعنع والصعتر وبعض أوراق الزهور. رفعت يديها الممدودتين وباركتها.

وما نجحت شالا في إخفائه بمهارة عن كيا، هو الصراع الحاد الذي تعيشه بنفسها. فكيف وبماذا تستطيع أن تنصح ربيبتها انطلاقاً من ضمير صاف؟ ها هي ذي شالا في مواجهة نفسها ومصالح المعبد. إنها تحب كيا كابنتها، وكيا بلا أدنى شك هي الدعامة الملائمة والخلف المحتمل المناسب لمرتبة الكاهنة العليا، فلقد منَّ عليها الأرباب بمهارات وقدرات كثيرة. ويبدو أنها مشيئة الربة أن تبقى كيا في بيتها. فإذا أكملت تعليمها وتأهيلها بما بوسع المعبد أن يقدمه لها، فإنها ستتجاوز شالا معرفة وقدرة. لا بدّ من تشذيب حساسيتها لتزداد رهافة. غير أن شالا تدرك من تطورها الذاتي، أن الأمر يحتاج إلى وقت، حتى يتغلب المرء على تعلقه بزخارف الدنيا ويتجاوز حاجاته الجسدية ويكرّس نفسه كلياً للربة وبقية الأرباب، وللمدينة ومملكة قطنا.

من مصلحة قطنا أن تؤهّل كيا لمرتبة الكاهنة العليا، وفي الوقت نفسه من المفيد

والصحيح لقطنا أن تصبح كيا زوجة ولي عهد مصر. هذا أمر سيحسمه الأرباب، وربما الملك أيضاً، حتى وإن كان ذلك رغماً عنه. لقد تناقشت شالا مراراً مع الملك، حول الخطوات الدبلوماسية الأكثر فائدة للحفاظ على البلد، واستوعبت حججه. ولكن ماذا عن بقية الأعيان؟ ليسوا جميعهم موافقين على آراء الملك. وكم سيبقى هذا الملك حاكماً لهذه المملكة؟ هل أخطأت يا ترى في تفسير الإشارات المختلفة؟ تذكّرتْ برعب تجربة عيد قمر الشتاء الجديد، عندما خافت على حياة الملك أثناء أداء الطقس. لم يكن الخطأ في الشراب الذي قدّمتْه إليه.

وفي نهاية المطاف كيا. ما المقدّر لها يا تُرى؟ ماذا تملك في يدها؟ لقد فكّرت شالا فيها طويلاً، وساءلت الربة، لكنها لم تستطع التوصل إلى صورة واضحة. لقد رأت كثيراً من الحزن والألم والأيام العصيبة. ولن يحل الهدوء في قوس حياة كيا إلا في مرحلة متأخرة ومعها تأتي السعادة.

بالنسبة إلى شالا كان أمونحوتب أكبر المشاكل. رغم كل ما بذلته من جهد، لم تستطع ولوج شخصيته وتقييمها. وهذا كان حال إيداندا أيضاً، إنها تعرف ذلك. أكان ذا شخصية طاهرة.نبيلة تكرس حياتها لخدمة الأرباب وخدمة وطنه؟ أم تُراه ذئب في فروة خروف يوظّف استعراضاته الدينية التي رأت قطنا شيئاً منها أثناء إقامته، ذريعةً للوصول إلى أهداف عملية أخرى؟ أهداف تخصّ مصر في المقام الأول: السلطة والرخاء المادي. فتكديس كنوز خيالية وتشييد عمارات لتمجيد الأرباب والفراعنة تدهش العالم بأسره، دليل يُنبئ عن نفسه. وذات يوم عندما سيحكم أمونحوتب مصر لن يكون وحده، فسلطة كهنة طيبة مرهوبة الجانب حتى خارج حدود مصر. وحتى الآن لم يستطع أي فرعون الإفلات من هيمنتهم. وقد بلغ الأمر حد المعجزة أن صبروا على عقد قران والده أمينوفيس الثالث على صانعةِ السلال تِيّه. وما سهّل الأمر حتماً، هو أن عائلتها ممثلة جيداً في صفوف كهنة طيبة. وهذه الواقعة يمكن أن تفيد الآن في عقد رباط الزواج بين أمونحوتب وكيا؛ فهي على كل حال ابنة أخت تِيّه. الواضح حتى الآن هو أنه في حال طلبَ أمونحوتب كيا زوجةً، فإنها لا تستطيع الرفض. وهي لن تفعل ذلك بأي حال من الأحوال، بل ستطير لاحقة بحب حياتها العظيم، محاطة براياتٍ خفاقة. لقد رأت شالا بجلاء كيف وقعت الصبية في شباك كاريزما هذا الرجل. أوَلا يحتمل أن تكون شكوكها تجاه أمونحوتب وليدة نوع من الغيرة، فهي بالتالي غير مبررة؟ أوَلا يحتمل أيضاً أنّ أمونحوتب يبادل كيا الحب حقاً؟ نادراً ما شعرت شالا بمثل هذا العجز؛ الحجب تجلل كل شيء، فلا تستطيع رؤية المستقبل

عبرها. «سأكون دائماً إلى جانبك يا صغيرتي، مهما حدث!». همست كبيرة الكاهنات في إذاً ربيبتها «وستحدث أمور كثيرة، وستخوضين في عذاب أليم يا أميرة قطنا. لكن العذاب سيطهّرك ويجعلك نقية، عندما تقترب النهاية!».

كانت كيا منشغلة بهمومها الخاصة، لكنها كانت تعرف أن الأمور، حتى بالنسبة إلى كبيرة الكاهنات، لا تسير دائماً على ما يرام، غير أن الربة أولاً وأخيراً معها.

الربة! ربما هذه هي أكبر المشكلات التي تؤرق كيا. قبل أن يدخل أمونحوتب حياتها كانت مسرورة بوجودها في بيت الربة. صحيح أنه قد شغلها السؤال حول وجود هذا العدد الكبير من الأرباب، واختلافهم باختلاف البلدان. لم يكن صعباً على شالا في هذه النقطة أن تتمكن من إقناعها، بأن شرحت وبرهنت لها على أن أسماء الأرباب هي التي تختلف، وفي بعض الحالات مسؤولياتهم أيضاً. الأمر الأشد صعوبة كان الجدل حول تعدد الأرباب. ولم يسبق لكيا قبل ذلك أن طرحت عليها هذا السؤال. في عالم الأرباب هناك مراتب، كما عند البشر: سلاطين، ملوك، حكام، أمراء محليون، وهكذا حتى نصل إلى رب العائلة العادي. بدأت الشكوك تظهر عندما لمّحت إيسِت أول مرة إلى إمكانية وجود ربٍّ واحدٍ أحدٍ، يجمع في ذاته كل هذه التمظهرات الأخرى، لكنه يتجلى في مظاهر مختلفة. كانت تتحدث عن رع، عن رع أمونحوتب الذي يجيز طبعاً وجود أرباب آخرين في ظله. غير أن كيا دأبت على السؤال: أي مكان تشغله بيليت إكاليم في سماء الأرباب هذه؟ أفلا يلغي وجود رع في نهاية الأمر الأرباب الآخرين؟ ومعهم الربة التي خدمتها، والتي ستخدمها مستقبلاً بصفتها كاهنتها؟ أيجوز أن تستبدل بها رع؟ أهي جزء منه مختفية فيه؟ عندما يتحدث أمونحوتب عن رع بتلك الحماسة، تبدو لها الأمور بسيطة وواضحة. أما عندما تفكر وحدها في سكون حجرتها، فيبدو كل شيء معقّداً وصعباً، ويملؤها الخوف من أن تعاقبها الربة لأفكارها الآثمة، وأن تهجرها نهائياً.

ثمة أمر آخر كان يقلقها: ألّا تكون جديرةً كأجنبية للقيام بمهام الزوجة والأم والملكة في مصر العظيمة والبعيدة. فلطالما سمعت عن الخصوصيات المصرية وعن مؤامرات البلاط العديدة. تجري الحياة هناك على نهر طويل بلا نهاية، وفي الشمال تجري الحياة على الجهة المقابلة تماماً للبلدان التي تعرفها. والسؤال حول هذا النزاع ما زال قائماً لمن تتبع قطنا حقاً؟ أهي فعلاً بلد مستقل حسبما يقول أبوها، ويحق لها بناءً على ذلك عقد تحالفاتها بحرّيّة، أم عليها الخضوع لمظلة السلطة المصرية، حسبما يطالب أكيزي؟ ألا

يُفترض بالممالك السورية أن تتّحد ثانية، أم أن ذلك سيشكل إهانة لجميع القوى العظمى وستكون له تبعاته؟ وولاء كيا نفسها، بأي طرف عليها أن تلتزم: بأبيها وقطنا، أم بأمونحوتب ومصالح مصر؟

وقد صارحت شالا بكل ما كان يقلقها.

«ما كان موضوع خصامكما؟». سألتها شالا التي أنصتت إلى بوحها بكل انتباه. لقد أدهشها كل هذا الذي يعتمل في داخل هذه الصبية، حتى وإن كان ما يزال أمامها الكثير لتتعلمه، وعن نفسها خاصة، فقد ترسخت قناعة شالا مجدداً: لقد خُلقت كيا لتفعل، لا لأن تخضع لأحد. ولكن لعل الأرباب ينتظرون منها طاعتهم لقاء عطاياهم. من يدري؟

حكت لها كيا تفاصيل الشجار بينها وبين أمونحوتب، ثم قالت: «ببساطة لا أدري ما إذا كان عليّ أنا أن ألين!».

«ماذا يقول لك قلبك؟».

جاء الجواب خافتاً جداً: «لا أعرف، أليس هذا مريعاً؟». ونظرت كيا إلى شالا يائسة. «ألا يجب عليّ أن أفعل كل شيء لأسعِد أمونحوتب، لأبعد عنه الأذى، لأجنّبه النزاعات، ما دمت أحبّه؟ ولكن دائماً كلما أردت الإسراع إليه، ثمة صوت في داخلي يقول لي: لا، ففي هذا اعتراف بخطئي. وليس هناك ما يوجب ذلك. ولكن أتلعب مثل هذه الأمور دوراً بين الأحبة؟».

«ربما، عندما يكون الحبيب وليّ عهد مصر!».

«وماذا عليّ أن أفعل الآن، شالا؟ لا يجوز أن يغادر قطنا دون أن نتصالح!».

«انتظري وأنصتي بروية إلى صوتكِ الداخلي. واعتمدي على الربة!». أجابتها شالا بأمومة «هي سترشدك إلى الحل!».

مع انبلاج فجر اليوم التالي جاءت خادمة من القصر إلى بوابة المعبد، وطلبت كيا، لكنها أبت بصلابة دخول بيت الربة. فاستدعيت كيا إلى البوابة. عرفت كيا هذه الصبية الرشيقة التي تعمل في خدمة الملك والملكة، ونُدبت مع غيرها لتعمل في خدمة أمونحوتب أثناء إقامته.

«ماذا تريدين؟». سألتها كيا مستغربة.

«رجاء سيدتي، تعالي معي!». أجابت بصوت خافت، اضطرّت كيا للانحناء نحوها

لتفهم ما تقول. أمسكت الخادمة بيمنى كيا ودسّت فيها شيئاً، جُعَلاً من اللازورد. قرأت كيا على بطنه اسمها محفوراً بطريقة مرتبكة، لكنه مقروء.

«هو، الرب أرسلني إليك!». همست الخادمة، وأردفت: «يجب عليّ إحضارك إليه، لكن يجب أن تأتي وحدك. هل ستتبعينني فوراً؟».

قفز قلب كيا. لقد نُسي الأمس بكل شكوكه وهمومه ومخاوفه، كما تلاشى الغضب كله. لا قيمة الآن إلا لشيء واحد: لقد أرسل في طلبها. وهي لن تتردد لحظة واحدة. كل شيء يجذبها نحوه. ومن دون تردد شدت عباءتها على جسمها وخرجت إلى الفجر البارد. هرولت الخادمة عبرالشارع، لدرجة أن كيا لم تستطع أن تحذو حذوها. باغتتها السرعة مثلما باغتها ظهور الخادمة. توقعت كيا أن يدخلا من البوابة الجنوبية، لكنها أخطأت. مشت الخادمة بحذاء جدار القصر على الجانب الغربي حتى بوابةٍ عند نهاية الجناح الغربي، الذي يقيم فيه وليّ العهد المصري. أشارت لها الخادمة كي تسرع. كانت كيا مرتبكة وغير قادرة على التفكير. وبطريقة غير ملكية رفعت بيدها طرف معطفها كي تتمكن من المشي بسرعة. عبرتا البوابة وصعدتا درجاً، لا تريدُ درجاته أن تنتهي.. هل سبق لها أن كانت في هذا المكان؟ أخيراً عندما توقفتا لالتقاط أنفاسهما، كانتا على سطح القصر، تطلان على المدينة من علٍ. عندما نظرت كيا نحو الشمال شعرت بدوخة، فالمكان هنا ليس فقط أعلى طوابق القصر الثلاثة، بل يضاف إليها الانحدار الشديد للهضبة الصخرية التي بني عليها القصر.

ماذا تفعل أعلى هذا السطح؟ اختفت مرافقتها وكأن الأرض قد انشقّت وابتلعتها. والباب الأرضي الذي وصلا عبره إلى السطح كان مطبقاً. كانت وحدها، وجدها على سطح القصر عند انبلاج الفجر في أواخر الشتاء. أتضحك؟ أتبكي؟ أتصرخ؟ هل ارتكبت خطأ؟ أكان هذا فخاً؟ لا، لا يمكن. فهي كثيراً ما صعدت إلى سطح القصر؛ قبل عيد الخريف وبعده مثلاً. هناك مداخل متعددة إلى السطح. لا بدّ من حل آخر. في الشرق بدأت السماء تصطبغ بالحمرة. رجعت كيا إلى حيث وطِئت قدماها السطح، وعندئذ رأت على الأرض أحد أحجار اللعبة المصدّفة، التي كانت تلعبها مؤخراً مع أمونحوتب. رفعته بيدها، ورأت حجراً آخر على مسافة قريبة، ثم ثالثاً. إنه أثر، أثر عليها أن تتبعه. أوصلها الأثر إلى هياكل سقف قاعة الاجتماعات، أعلى نقطة. ثمة سلم كان مسنوداً إلى جدار الهيكل يوصلها إلى المستوى الأول، ولما بلغته دعاها سلم ثان إلى الصعود إلى المستوى الثاني. وأخيراً وصلت. وجدت أمامها عند منتصف السقف مذبحاً بسيطاً. في تلك اللحظة انبثق

من الأفق قوس الشمس المتوهج مرسلاً أوائل أشعته إلى الدنيا الموشكة على الاستيقاظ. وكما في حلمها، أحاطها أمونحوتب من ورائها بذراعيه، بحيث استقرّت يداه على نهديها المستورين، ثم وقف إلى جانبها في ردائه الأبيض الفضفاض. كان يحيط جيده بعقد عريض من حجارة ثمينة، ويغطّي رأسه بقماشة بيضاء حسب التقليد الملكي المصري. أمسك بيدها اليمنى، ثم رفعا بإيقاع واحد سواعدهما باتجاه الشمس. بصوت واضح أخذ أمونحوتب يرتّل أبياتاً، اعتقدت كيا أنها تعرفها رغم تبدل كلماتها:

«جميلة تظهرين في أفق السماء،
أيتها الشمس الحية، مانحة الحياة!
من أفق الشرق بزغتِ
وملأتِ بجمالك البلدان كلها.
جميلة أنتِ، عظيمة وساطعة،
عالية، على البلدان كلها.
أشعتك تحيط بالبلدان،
حتى آخر ما خلقتِ.
أنت رع، عندما تبلغين حدودها،
فتجعلينها تسجد لابنك الحبيب.
أنت بعيدة، لكن أشعتك هنا على الأرض؛
أنت في مواجهتها، لكن مسارك خفيّ»[1].

رتل أمونحوتب مقطعاً فمقطعاً. لم تتمكّن كيا من ملاحقة الكلمات، وتركت نفسها لإيقاع الصوت الرخيم، الذي نقلها من هنا إلى عالم سماوي. صمت الترتيل، وشق أمونحوتب ليديه طريقاً تحت معطفها مداعباً إياها بحب ونعومة. أشرقت الشمس وسطعت على خدمها. تركت كيا نفسها ليديه وصوته الذي همس بكلمات غزله في أذنيها عن الحب والمستقبل، وهو يسميها «يا جميلتي ووحيدتي». استدارت نحوه ببطء. غرق كل منهما في نظرات الآخر، وذابا معاً في قبلة.

**

أخيراً ذاب معظم الثلج الأبدي في حتّوشا، ولم يتبقَّ منه إلا ما اختبأ معانداً في الزوايا الظليلة. خلال الأشهر التي أمضاها تانوا في العاصمة حقّق نجاحات ملحوظة وفاز بالرضا.

بعد عيد رأس السنة الذي سيُحتفل به في المملكة كلها، سيبدأ موسم زابابا، إله الحرب. وتحضيراً له تعاقبت جلسات مجلس الشيوخ التشاورية، لدرجة أن اضطرّ الكتّاب إلى تمديد أوقات عملهم، وإنجازه بنور سراجات الزيت والمشاعل. كانت تتجمع الخيوط كلها في مكاتب الإدارة، حيث يجهز ميتانامو، كبير الكتّاب، المعلومات الواردة لاجتماعات مجلس الشيوخ. لم يكن القتال ضرورياً دائماً، إذْ أمكن ترتيب كثير من الأمور بالتفاوض والتعاهد. ولكن إلى أن تُبرم إحدى هذه المعاهدات كان الجهد المكتبي المبذول هائلاً.

فُرز تانوا للعمل تحت إدارة هنوتي، الذي أصر على حضور ابن أخته جميع الاجتماعات التحضيرية ليواكب كل ما يجري. وفي الاجتماع الختامي كان لا بدّ من اتخاذ القرارات النهائية الحاسمة. كانت تلك أول مرة يحضر فيها تانوا، ويشكّل لنفسه صورة عما يعنيه اجتماع مجلس الشيوخ الموسّع وطبيعة عمله.

تألّف الحضور من الملك العظيم (لابارنا) وأمه (تَوانانّا) التي تشاركه الحكم بعد موت أبيه. ثم هناك زوجة اللابارنا، هِنْتي، والأشراف؛ وهم جميعهم أمراء من العشيرة المالكة يقدمون المشورة للملك؛ ويمارس كل منهم في دائرته أعلى سلطة إدارية ودينية بعد الملك، كما بوسعه قيادة جيشه الخاص. وما أدهش تانوا هو تساويهم فيما بينهم، غير أن ما أذهله هو أن هذه المناصب لا تُمنح مدى الحياة ولا تُورَّث، بل يشغلها الأقدر على أداء المهام المنوطة به، أي أنّ على المرء إثبات جدارته باستمرار.

إضافة إلى كبار الأشراف يأتي الصف الثاني من القادة أي المديرون، ثم حكام المقاطعات وأسياد الأرض أو أسياد الثغور الحدودية، ومجموعة من الأتباع المرتبطين مع الدولة بعقود، والذين مُنحوا لقب سادة لأسباب مختلفة. ولكنهم، حسبما علم تانوا، لم يحضروا جميعهم، ولعل السبب يتعلق بحالة الطقس. قبل الاجتماع شرح له معلمه ميتانامو مختلف صلاحيات مجلس الشيوخ: لا تنحصر مهامه في تقديم المشورة فحسب، بل إنه يسهم في سنّ القوانين وإبرام المعاهدات، أي أنه المحكمة العليا، التي يخضع لها حتى الملك والملكة، وهو الذي يُقِرّ الابن المرشح من قبل الملك والملكة لولاية العهد، ويسمي الابن الأكبر (تليبينو) للملك والملكة معاً. هذه النخبة البارزة إذاً هي مَن اجتمع في قاعة الاستقبال، يرافقها حشد من الكتّاب.

بعد الصلوات والابتهالات بدأ النقاش حول ما يجب إنجازه في هذا الفصل ذي

الطقس الطيب، من أجل تحسين الحالة الأمنية للبلد. ما عدا الجنوب وبعض المناطق الصغيرة في الشرق، ما زالت هناك بؤر اضطرابات حول الحدود. ولكن ما دامت ميتاني منشغلة بنزاعاتها الداخلية، فيُستبعد وقوع هجوم من تلك الجهة.

«لدينا من الأنباء ما يطمئننا إلى عدم ضرورة شن هجوم على ميتاني في هذه السنة. فلنركّز جهودنا على مشاكلنا المزمنة في شمال المملكة وغربها».

لاقت كلمات الملك قبولاً عاماً، ثم قدم كل من (زيدا)، شقيق الملك وقائد الحرس الشخصي وحاكم المنطقة العليا، وهنوتي، قائد الجيوش وحاكم المنطقة السفلى، تقييماً لأوضاع قبائل الكشكيين وشعوب ممالك أرزاوا. وسرعان ما اتفق الجميع مبدئياً على إرسال قوة اقتحام كبيرة لاستعادة أراضٍ حتيّة من أرزاوا، ولتثبيت النطاق الحدودي الغربي بعد النصر العظيم الذي تحقق عند جبل تيواتاسا. ولا سيّما أن جنود الاستطلاع الحتّيين هناك لم يلحظوا أي تحركات عسكرية تشير إلى تخطيطِ ممالك أرزاوا لهجومٍ ضد حتّوشا. وطبعاً لا بدّ من مراقبة الحدود بعناية. أُسندت قيادة هذه الحملة إلى (هيمويلي)، كي يعوّض هزيمته قبل سنتين في مواجهة قوات أرزاوا. وعليه أن يتقدم بقواته عبر پورروشْخندا وإكّووانيا باتجاه بحر الغرب الكبير، وأن يراقب خطوات بناء حرمِ النبعِ هناك ويرسل تقريراً بذلك إلى حتّوشا، قبل أن ينطلق إلى المنطقة الحدودية في پورانْدا.

الأمر الأصعب كان اتخاذ قرار بشأن التعامل مع القبائل الكشكية، وهي قضية أثارت النفوس وكانت مدعاة لغضب شديد.

«هؤلاء الهوام يشبهون أسراب الناموس القارص المزعج! ألا يمكنهم أن يحشدوا أنفسهم معاً لخوض معركة نظامية؟ لا، بل يقومون دائماً بغزوات فجائية صغيرة على مناطقنا. ينزلون علينا كالسيول من غاباتهم الجبلية الكثيفة، ويختفون ثانية بالسرعة نفسها. هذه حال تدفع إلى الجنون!».

«كما لا يمكن توقّع سلوكهم مسبقاً، ولا يمكن استخدام العربات القتالية ضدهم، لأنهم يحتمون وراء الأشجار والصخور!».

«إنهم ببساطة يقاتلون وفق القواعد التي تناسبهم. ولكي نتمكن منهم لا بدّ من استمرار وجودنا عسكرياً في كل مكان وبشكل دائم! وهذا مستحيل، إذ لا يسعنا وضع جندي مرافق لكل فلاح وراعٍ وصياد وفحّام وخزّاف!».

«علينا التفكير ببناء نوع من السور على طول الحدود!».

«لا، هذا لا جدوى منه. لأن منطلقنا الأساسي هو استعادة أراضينا بالقوة. نِريكا على الأقل يجب أن تعود إلى الحصن الحتي! فعلى أية حدود تريد أن تمد السور؟ مثل هذا التحصين الثابت سيقطع المياه عنا نحن!».

«تصور كلفة ذلك من حيث المواد واليد العاملة. والكشكيون سيتفرجون علينا بفضول فحسب، أليس كذلك؟».

«في المستقبل يمكننا بناء عدد من القلاع تجعل غزوهم لمملكتنا عسيراً. وهذه القلاع يجب أن تشيَّد ما أمكن على مرتفعات مشرفة، وأن تُحصّن جيداً، وأن تكون قريبة من مصادر مياه وأراض زراعية. ويمكن دعم منظومة القلاع هذه بأبراج حراسة صغيرة ومراصد. غير أن هذا كله رهن بالمستقبل. أما الآن فعلينا أولاً ضبط غزوات هؤلاء الأنذال!».

«وكيف سنحقق ذلك؟ لا يمكننا أن نتصدى لهم بجيش، سنوياً، لنسحقهم ونجرجرهم إلى حتّوشا. فبمرور الوقت ستتضرر نحن أيضاً من ذلك!».

«كما لا يمكنك أن تجازف بتركهم يغزون حتّوشا وينهبونها!».

«ما يزيد الأمر صعوبة فوق كل ما ذكر، هو تعدد قبائلهمُ وعشائرهم واختلافها. بعضهم بدو دائمو الترحال، وبعضهم يستقرون مدة من الزمن ثم ينتقلون، لا عاصمة لهم ولا ملكٌ يجمعهم. ثم إنهم لا يأبهون بالمعاهدات، على الأقل أولئك منهم الذين لم يوافقوا على المعاهدة شخصياً!».

«إضافة إلى ذلك أرى في الأفق خطراً يهددنا. إذا تابع الكشكيون توسعهم فسوف يتصلون غرباً بممالك أرزاوا. فإذا تحالفوا معها، ستكون النتائج كارثية بالنسبة إلينا. لقد توسعوا من الشمال الغربي إلى الشمال الشرقي، وبين بحر الشمال الكبير وحدود مملكتنا».

«لحسن الحظ أنهم ليسوا جميعهم محاربين. كشكيو منطقة تورميتا يبدون حتى الآن رعاة مسالمين».

«إذاً، ليس بينهم مسالمون حقاً!».

كل هذه الاعتراضات لم تحظ باهتمام هنوتي، لكنه تدخّل في الحديث قائلاً: «من المزعج بلا شك أن نجد منطقة تورميتا مملوءة بهم حتى بحيرة تاتّا. أستطيع حتى من بوروشخندا أن أراهم. ونتيجة لذلك فإن پَلا في الشمال الشرقي تكاد تنفصل عن المملكة، ولا يمكننا القبول بهذا!».

«هذا يعني إذاً أن نحدّ من مراعيهم في الشمال الغربي. قد نتوصل إلى ذلك بالتفاوض معهم. علينا أن نحاول ذلك. أما فيما يتعلق ببقية الكشكيين فإني لا أرى أي بارقة أمل. سوف يدافعون جميعهم عن الأراضي المملوءة بالكنوز!». وهز الملك رأسه بقلق.

«أيها السادة!». قال هنوتي ثانية «دعوني أقترح الآتي بخصوص حملتنا العسكرية: سنوزع الجيش إلى أجزاء. حالما ينتهي عيد رأس السنة، يتحرك الجزء الرئيسي من القوات المسلحة والمشاة بكثير من الصخب ومع المفاوضات المسبقة المعهودة، نحو الشمال مباشرة باتجاه نِريكا، مكاننا المقدس المفقود. بعد فترة قصيرة يتحرك جزء آخر، من المشاة غالباً، باتجاه الشرق. نقطة التجميع والانطلاق ستكون ساموحا. وعلى القوات الرديفة من الممالك التابعة لنا في الشرق أن تتوجه إلى هناك أيضاً. في الوقت نفسه، يتحرك جزء ثالث ليعبر مراسَتنا في الغرب، ليتخذ مواقعه أعلى تورميتا في مواجهة الكشكيين. علينا أن نحمي المنطقة الجبلية، كي يبقى الطريق إلى پَلا سالكاً. هناك سنحاول التفاوض. في حال إخفاقنا سيكون علينا الهجوم!».

«هذه وجهة نظري أيضاً»، قال الأمير زيدا.

لم يرتبك هنوتي، بل تابع: «هجمات أجزاء الجيش الثلاثة يجب أن تُنفّذ في الوقت نفسه ما أمكن، فهذا هو الهدف! سيكون من الصعب نوعاً ما ضبط التوقيت، لكن النصر في الختام سيكون أعظم. فعندما سيشيع خبر أن الملك الشمس قد ظهر وقاتل في ثلاثة أماكن في الوقت نفسه، فسيُطامِن الكشكيون رؤوسهم أخيراً!».

«إنها خطة رائعة!».

«بهذه الطريقة سننتصر!».

طلب الملك الهدوء، فأفضل قادته لم ينتهِ من الكلام بعد. تابع هنوتي قائلاً:

«منذ الآن وحتى انطلاقنا، علينا تدريب جنود المشاة على طريقة في القتال تقارب طريقة عدونا: أي القتال بمجموعات صغيرة سهلة الحركة من دون أن ينقطع نفَسها بسرعة. العربات القتالية تتقدم ما أمكنها ذلك وتنجز الباقي. سنحرق وندمر ما أمكن كل ما يمكن الاستغناء عنه. أما المضارب الرئيسية فعلينا أن نصونها طبعاً. الأسرى وقطعان الماشية سنحضرهم إلى حتّوشا».

حصل اقتراح المخطّط العسكري البارع على موافقة جماعية. فتابع هنوتي قوله:

«في الوقت التحضيري علينا ما أمكن تحسين معلوماتنا عن القبائل المختلفة. وفي

هذا المجال لا شك في أن مكاتب الشؤون الإدارية ستساعدنا من خلال المترجمين الذين سيكونون إلى جانبنا. علينا أن نسأل الأسرى الذين لجؤوا إلينا، والكشكيين الآخرين الذين يخدمون في جيشنا كذلك. وهذا أمر منوط بضباط الكتائب كلاًّ على حدة».

«أحسنت الكلام يا صديقي هنوتي!». قال شوپيلوليوما وأردف: «إننا لفخورون بوجودك بين صفوفنا!». أبدى بقية أعضاء مجلس الشيوخ إعجابهم بالتصفيق بالأقدام وبتعليقات بأصوات عالية. لا شك في أن الرب زابابا كان راضياً عنهم، مسروراً بهم!

**

ربة اليمامِ المبشِّرة بالربيع دخلت حتّوشا، فانتشر دفء الشمس الساطعة بضعة أيام، مغوياً الناس بالخروج إلى الهواء الطلق. وازداد حنين تانوا إلى موطنه، فالربيع في ترشا ساحر أيضاً. امتلأت الشوارع والساحات بالناس هرباً من ضيق الشتاء، وفي كل مكان كانت التحضيرات لعيد رأس السنة على قدم وساق. ترى هل سيصل بعدَه جوابٌ من الأهل؟ أم أنهم لم يسامحوه حتى الآن؟ أيتصل بهم مرة ثانية؟ استبعد تانوا هذه الفكرة من رأسه، ولا سيّما أن أفكاره قد سرحت إلى قطنا. ومن هناك لم يصله شيء أيضاً. فكر بأكيزي وإهلي نيكالو. أهما سعيدان يا ترى؟ وكيا؟ كيا الحلوة؟ مرة واحدة فقط، كان حقاً قريباً منها. مرة واحدة فقط، لمس بشرتها غَرَضاً وتنشّق عبق شعرها. وهذا اللقاء بينهما على نهر قطنا الهامس، كان تانوا يزيد من ألوانه في ذاكرته: لقد اقتربت ثم ارتعبت عندما وجدته أمامها في مكانها المفضل وأرادت أن تنسحب فوراً، لكنه أمسك بيدها وسحبها وهي مترددة، إلى جانبه على ضفة النهر. التفتت نحوه في ضوء الغسق، فرفع الحجاب عن وجهها. أبقت عينيها مغمضتين وثغرها المشقوق قليلاً كان مغوياً جداً لـ...

بتر هنوتي أحلامه بقوله: «سنزور العائلة مرة أخرى. لقد آن الأوان!». فطوال الشتاء لم يزورا دار أم هنوتي سوى مرة أو مرتين. وقد اكتفى تانوا بذلك، إذ كان غارقاً في الشغل، ويفرح إن زاد لديه بعض الوقت ليمضيه مع أصدقائه، قبل أن يسقط في سريره كالقتيل. فكانوا يترددون على الحانات ودور الحب. ونظراً لإقبال مورسيلي على الحياة بنهم، كانوا يستمتعون دائماً. كما ترددوا أحياناً على حمام السوق، حيث كانوا يغطسون أجسامهم في أحواض خزفية مملوءة بالماء الحار الممزوج بأرواح زيوت منعشة تاركين أنفسهم لأيدٍ مدربة تدللهم بخبرة. وعندما تحمى أجسامهم كانوا يركضون عراة إلى العراء ليمرغوا

أنفسهم بالثلج ويتراموا بكراتٍ منه ويلعبوا كصغار الأطفال. كان يبتسم كلما تذكر هرجهم معاً. وفي بعض الأحيان كانت تتراجع كيا في ذاكرته نوعاً ما. وقد ساعدته هذه الصداقات أيضاً على احتمال عدم التواصل مع أقاربه، من دون أن يغيب عن باله تحفظهم الجلي في التعامل معه. قد يعود سبب ذلك إلى رحيله عن دار أهله بتلك الطريقة غير اللائقة، في حين لا تسمح لياقتهم العالية بمواجهته بذلك. ما زال هنوتي مديناً له بجواب على تساؤله. لكن تساؤله لم يكن ملحاً، فثمة أمور أخرى كثيرة تشغله.

«وافق مجلس الشيوخ في اجتماعه على أن ترافقني في حملتي»، قال هنوتي وأضاف: «سنرافق الملك حتى نِريكا، بهدف إثارة الغضب والاستفزاز». والتفت نحو ابن أخته ليرى رد فعله. لكن وجه تانوا لم يبدِ أي تعبير، بل عاد عوضاً عن ذلك إلى طرح أسئلته الكثيرة.. يا له من شاب لا يشبع!

«لطالما أردت سؤالك: ما السبب في أن نريكا هذه مهمّة إلى هذا الحد؟».

«لا أعرف بالضبط منذ متى، لكن نريكا وزالبا في أقصى الشمال أيضاً مدينتان حتيتان قديمتان جداً، ونريكا تحديداً تعد أقدم مدينة مقدسة في المملكة. هناك، حسب الشروط الربانية، يجب أن تجرى مراسم تتويج الملك دائماً. وكونها بيد أعدائنا، يعتبر عاراً. ولكن ثمة أمراً آخر يرتبط بنريكا والشمال، ففي الجبال المحيطة بحوض نريكا يوجد فضة ورصاص ونحاس ومعادن أخرى. وكلما اتجهنا شرقاً مع هذه الجبال تكاثرت فلزات هذه المعادن».

«طيب، وماذا بعد؟».

«إنها مواد خام تحتاج إليها المملكة بصورة ضرورية».

نظر تانوا إلى خاله متسائلاً، فأردف: «ضرورية لصنع الأدوات، وللمعابد مثلاً، ولكن قبل كل شيء آخر لصناعة الأسلحة».

«السلاح الحتي العجيب؟».

«أهكذا يسمّونه؟». وضحك هنوتي وأردف: «هذا جيد!».

كانا قد بلغا دار الأسرة، ما اضطرّ تانوا إلى تأجيل أسئلته الأخرى: مَن يستخرج هذه الكنوز الأرضية وكيف؟ كيف تبدو؟ وكيف تنقل إلى حتّوشا؟ هل يسرقونها ببساطة أم يقايضونها بأشياء أخرى؟

بدا له الاستقبال في دار جدته هذه المرة ودياً ومنشرحاً أكثر من السابق. كان تانوا هذه

المرة أكثر معرفة بالعادات المتبعة، وأكثر اطّلاعاً على أحوال بعض أفراد الأسرة. وفيما هو يفكر باحتمال وجود مناسبة معينة للزيارة، فُتح بابٌ وراءه، فسكتت جميع الأصوات. التفت وحبس أنفاسه دهشةً. وإلى أن أدرك مَن القادم نحوه، كان إحيا قد وصل إلى ابنه. وقفا أحدهما قبالة الآخر صامتين، وكل منهما يحدق في وجه الآخر: تانوا مندهشاً وإحيا مذهولاً من التغيرات التي طرأت على الفتى! ها هو ذا يرى أمامه شاباً يافعاً أنيقاً قوياً، ويوحي بأنه مرتاح البال. لم يبقَ شيء من ذاك الفتى الخجول الشاحب، الذي ما زال في ذاكرته من أيام ترشا. انفجر إحيا بضحكته القلبية الصاخبة، فتح ذراعيه وضم إلى صدره الابن الضال. تعالت بعض الهتافات وصفق هنوتي بيديه. تبادل الاثنان التحيات، ثم فرد إحيا ذراعيه، مبعداً تانوا عنه قليلاً، رازه وهو يهز برأسه وقال: «دعني أتملّى منك! هذا لا يصدق!».

على مائدة طويلة مُدّت مأدبة احتفالية باذخة. تكوَّن الطبق الأول من أنواع مختلفة من اللبنة المنكّهة بأنواع من الأعشاب والمصفّاة من لبن الماعز والنعاج والبقر، إضافة إلى القَريش. ثم قُدِّم نوعان من حساء الخضار بعدس وبازلاء وحنطة وشعير. تلا ذلك صحاف مملوءة بلحوم باردة أو ساخنة من أرانب وخراف وبط، وعجّة بالسمك. وانتشرت في جو القاعة روائح زكية صادرة من الخبز الطازج والسمك النهري المشوي. أما المحالي فتشكلت من نبيذ حلو ومكسرات منوعة وتفاح وإجاص وخوخ ومشمش وتين مجفف، إضافة إلى خبز بالعسل والكعك المحلّى. وفي الختام قُدمت صحافُ جبن منوع.

منذ مدة طويلة لم يأكل تانوا كاليوم، ولم يكن بمثل هذه السعادة والانشراح كما هو الآن. تحدث مع أبيه عن العائلة والأصادقاء والمعارف، وعن المتجر والأحداث المهمّة في ترشا. لقد قبل والداه بقراره، وسلمه والده رسالة من أمه، سيصونها ككنز، ولن يقرأها إلا عندما يكون وحده.

لم يسأله والده أية أسئلة. ولم يتمكن تانوا من معرفة ما إذا كان ذلك نتيجة عدم اهتمام أم بسبب لياقة مبالغ فيها. لم تنكمش الهوة بينهما، بل بالعكس، فقد بقي والده غريباً عنه، على نحو عجيب. لا شك في أنه هو أيضاً قد تغير، فصار أكثر ثقة بنفسه وأكثر استقلالاً. قرر القبول شاكراً بعودة السلام إلى علاقته بعائلته، وألاّ يغضب لعدم اهتمام والده بعمله، فلربما كان بحاجة إلى وقت ليستوعب الأمر.

في وقت متأخر من الليل افترقوا وعاد كل منهم إلى داره. ورغم أنه لم يكن صاحياً

تماماً، إلا أنه لاحظ بطرف عينه عند المغادرة كيف رُفعت الأيدي بإشارات درءِ الشر وراءهما. وتساءل في نفسه: أيعرف الأرباب معنى هذه الإشارات يا ترى؟ على أية حال لن أدعها تقلقني اليوم.

كانت رسالة أمه مليئة بالحب والحنان، ولكن أيضاً بسلسلة من التحذيرات. إنها لا تشعر حياله إلا بالقلق، مما أزعجه وأثقل عليه. فها هو ذا ثانية السبب في لجوئها إلى الأرباب والابتهال لهم من أجله. لكنه سيتحمل ذلك ويتابع طريقه. فاكتفى بإرسال تحياته لها مع والده، وبسلامات لمربّيته العجوز والعمات والأعمام وأفراد الأسرة الآخرين، فوالده سيقوم بإخبارهم بما رآه وسمعه. وها هو ذا قد أنهى أعماله بسرعة، ولا يبدو أنه سيكرس أي وقت لحوار تفاهم فيما بينهما. قبل تانوا قرار والده. لكنه سيتحدث مع هنوتي في هذا الشأن. وخلال الحملة سيكون هناك من الوقت ما يكفي ويزيد.

لم تمر زيارة إحيًا من دون جديدٍ مثيرٍ، ترك أثره البالغ، لا في نفس تانوا فقط. فقد أخبرهم إحيا بأن أمونحوتب ولي عهد مصر قد ظهر فجأة في الساحل السوري وأمضى الشتاء هناك. لم يفاجئ أحداً خبر زيارته لجبيل وأوغاريت، أما أن يقيم معظم الوقت في قطنا فقد حيّرهم ذلك، وأخذوا يتكهنون بما قد يعنيه: أهي محض مصادفة، أم أنها خطة محكمة؟ استُدعي تانوا، فهو في حتّوشا الآن أفضل من يعرف قطنا.

«زوجة الملك إيداندا الثانية هي خالة وليّ عهد مصر، فلربما كان هذا هو السبب».

واعترف لنفسه فوراً بأنه هو نفسه غير مقتنع بهذا السبب.

«الزيارة العائليّة أمر جيد لا غبار عليه. ولكن لهذه المدة الطويلة؟ جبيل وأوغاريت تُعدان منطقة مصرية، وميتاني حليف وثيق الصلة؛ فأخت الملك موجودة في حريم أمينوفيس، فلماذا قطنا غير التابعة لمصر وغير المتحالفة معها حسب علمنا؟ ويبدو أن القلق قد انتاب ملكنا بخصوص مصر؛ فلماذا لم يحاول أمونحوتب، وإن بصورة غير مباشرة، الاتصال بنا؟».

كان هذا جديداً بالنسبة لتانوا. ألهذا أرادوا منه كل هذه المعلومات؟ تذكر النقاشات الكثيرة في قطنا، عندما كان هناك مع والده، الذي سئل بالتفصيل من قبل مجلس الأعيان عن الأوضاع في حتّوشا. ما الذي يجري في قطنا يا ترى؟ ما سبب وجود ولي عهد مصر هناك؟ إنه لا يعرف أي شيء عن أمونحوتب هذا. والده يقول إنه قد سمع بأنه رجل وسيم بشخصية كاريزمية. وما مغزى ذلك. ثم إنه لا أقل من ولي عهد مصر. ماذا جرى مع كيا يا

ترى؟ إنها تتقن اللغة المصرية، فلا شك في أنها قد اعتُمدت مترجمة أو جليسة مع الضيف. لا شك في أن الاثنين قد التقيا كثيراً. فجأة أحس تانوا بانقباض في بطنه. لم يشعر حتى الآن بغيرة ولا بحسد، لكنه يحس الآن بكلا الشعورين يدهمانه. وخطرت بباله النبوءة: كيا، الملكة. ملكة مصر المستقبلية يا ترى؟ لا بدّ له من البحث عن نانينزي المراسل، إذ يحتمل أن يعرف شيئاً أكثر دقة.

في حتّوشا استُقبلت بداية الربيع باحتفالية كبيرة مكلفة. وعيد رأس السنة الجديدة المسمى (پوراليا)، يوظَّف في الوقت نفسه لتأكيد ثبات اللابارنا على عرشه، ولهذا ترافقه احتفالات متنوعة رائعة، لكن عامة الشعب غالباً لا تشارك فيها، بل تحتفل بعيدها على هواها، باسترخاء وانشراح، بعيداً عن صرامة المراسم، وتمتلئ الحانات ثانية وحتى الدور بالمحتفلين بصخبٍ بانتهاء الشتاء القاسي وبالقدرة على احتماله مجدداً.

بعد الاحتفالات في العاصمة انطلق الملك والملكة، كما في الخريف، في رحلتهما المجهدة عبر المملكة المتنامية، للاحتفال مع جميع الرعايا بعيد (كروكوس) في أماكن مقدسة معينة. في كل مكان تفتحت براعم الربيع وضاءةً بلون أصفر محبّب. في أثناء غيابهما كانت في حتّوشا تجري التحضيرات للحملة العسكرية، فأخذت الوحدات العسكرية تصل من مختلف القواعد. وانطلق زيدا نحو ساموحا في الشرق ليشرف على تنفيذ الأعمال الضرورية هناك.

كان تانوا يراقب تجمّع الوحدات العسكرية بشعور متنامٍ بالنأي، وقد امتلأت المدينة وما حولها بضجيج التدريبات. وبدأ التنافس بين المشاة وقوادِ العربات القتالية، وأخذوا يتبادلون الرفسات مثل جياد هائجة، فكان لا بدّ يومياً من فضّ النزاعات وفكّ الشجارات، ليتبيّن في معظم الحالات أن الديكة المتصارعة من الجانبين لا تعرف سبب الشجار، ولا سيّما أنهم غالباً كانوا يتكلمون لغات مختلفة. في هذه الأجواء تفتّحت إمكانات ميتا ومورسيلي، فقد اعتبرا استراحة الشتاء اختباراً هادئاً، أما الآن فثمة أخيراً ما يحدث. جدول الخدمة كان قاسياً، فقد نُظّم كل شيء من الفجر وحتى المساء. وبدا أن هنوتي موجود في كل مكان في الوقت نفسه، والتقدير يلاحقه أينما توقف، حتى بات يُبجَّل مثل إله الحرب زابابا الذي تجسد كرجل يعتلي أسداً، ممسكاً رمحاً بيمناه وترساً بيسراه، قوياً كدبّ وشجاعاً كأسد ورشيقاً مرناً كجواد، مفتول العضلات وجميل المحيا، محبوب الأرباب، وجميع النساء طبعاً. هكذا كان يحكي الجنود عن قائدهم بكل احترام.

في مكاتب إدارة شؤون الدولة فُرز تانوا مع مجموعة من المراسلين الإخباريين للعمل حسب الاختصاص. فالرسائل العاجلة ليست وحدها المهمّة، بل تقارير الوضع التفصيلية، والملاحظات الخاصة بدروب حركة القوات والطرقات المتصلة لاحقاً بشوارع، وكل الملاحظات المفيدة أثناء سير الحملة بشأن الينابيع والمخاضات والمعابر، والأماكن الصالحة لزراعة الحبوب، وطلبات الإمداد، وتحضير الاتفاقات والعقود، وغير ذلك من أمور كثيرة مفيدة. وأهمها على الإطلاق، إضافة إلى تدوين الأحداث، تسجيل بطولات الملك التي سيرفعها لاحقاً في تقريره إلى الأرباب. وقد نُدب عدد كبير من السعاة الخيّالين للتحرك جيئة وذهاباً بين أماكن وجود الملك والعاصمة وأجزاء القوات المسلحة الثلاثة للحفاظ على التواصل الدائم. فالملك وبقية القادة في مواقعهم كان لا بدّ من أن يطّلعوا باستمرار على ما يجري في حتّوشا والمملكة وعلى الحدود وفي بقية أنحاء العالم. بعض الأخبار كانت تُرسل ليلاً بالإشارات النارية. وهنا تعمق الانطباع لدى تانوا حول جودة أنظمة العمل والتفكير بترابطها معاً. لا نُظم توصيل المعلومات فحسب، بل تنظيم شؤون المدينة أيضاً، إذ لا بدّ من توفير الغذاء للجميع، والسلاح لكل جندي. إذاً لا بدّ من تأمين ما يكفي من المواد الأولية، كما لا بدّ من سياسة اقتصادية جيدة لتأمين مواد احتياطية، إضافة إلى حرفيين اختصاصيين. لا، إنه غير نادم إطلاقاً على حسم أمره لصالح حتّوشا.

بعد انتهاء جولة الملك والملكة عبر المملكة، هيأ شوپيلوليوما نفسه عسكرياً، وكذلك بكره أرنوواندا، وليّ العهد، فانتظما يومياً في التمارين القتالية. وقد ذهل تانوا لمرأى تحول الملك في صفوف الجنود، إذ لم يعد بعيداً ومحصّناً، بل بدا إنساناً عادياً من لحم ودم. يلبس الرداء نفسه مثل ضباطه، ولا يبارى في قتال العربات، فحتى هنوتي لم يصمد أمامه.

رافق تحرّكَ الجيوش احتفالاتُ وداعٍ رائعة. وفي ختامها ظهر الملك والملكة معاً أمام المقاتلين المحتشدين، فصلّيا لربة الشمس في أرينّا، ولربّ طقس المملكة ولجميع الأرباب، وخاطبهم الملك قائلاً: «في نريكا وهورساما وكَسْتاما وسيريسا وهيموا وتاغاشتا وأرض كمّاما نهب الكشكيون المعابد، التي هي بيوتكم في تلك المناطق. لقد حطموا التماثيل التي جسّدكم بها الناس. سرقوا الفضة والذهب وأباريق شراب القربان وصحافاً من فضة وذهب ونحاس، سرقوا أدواتكم البرونزية وثيابكم، وتوزعوا الغنائم فيما بينهم. لقد طاردوا الكهّان وأصحاب القداسة، طاردوا الكاهنات والمحشومين

والموسيقيين والمغنين والطباخين والجنازين، طاردوا الفلاحين والبستانيين وأخذوهم عبيداً لهم. هذا ما جرى، بحيث لم يعد هناك من يذكر أسماء الأرباب، أسماءكم، لم يعد هناك من يقدم إليكم الأضاحي اليومية والشهرية والسنوية، ولم يعد هناك من يحتفل بأعيادكم ويؤدي التمثيليات الغنائية. إننا نعاهدكم على إعادة الأماكن المقدسة إلى ما كانت عليه، فأمدّونا بعونكم!».

صدحت حناجر الرجال الذين لا يحصى عددهم بهتافات التأييد، وهم يخبطون بأيديهم على تروسهم. ثم بدأ الجيش يتحرك باتجاه الشمال.

**

لم يكن ممكناً التوصل إلى معرفة ما إذا كان الملك إيداندا قد نجح في إبعاد شكوك أمونحوتب، بشأن الاتصالات مع حتّوشا، فلقد سوَّغها بضرورات تتعلق بالشؤون التجارية، ولكن يحتمل أن ظنون المصري قد ازدادت. هذا ما استنتجه إيداندا من واقعة أن أمونحوتب لم يفتح الموضوع معه فحسب، بل أيضاً مع لووايا وأكالينا، علماً بأن ذلك كان سيزيد من إيضاح الوضع للمصري؛ فهما في نهاية المطاف أهم ممثلين لتجارة قطنا. لكنهما من ناحية أخرى غير مطلعين على جميع تحركات إيداندا على رقعة اللعبة السياسية، وهذا في هذه المرة قد يُعد ميزة، أو مثلبة. ومَن الذي سيحسم الأمر؟ وإيداندا لا يريد ولا يستطيع أن يستفهم منهما عن الأمر، خشية أن يقع في ورطة جديدة، هو في غنى عنها.

ومن ناحية أخرى ازداد قلق إيداندا عندما وصل إلى علمه أن أمونحوتب قد اتصل بتيرو، أو كان الأمر بالعكس؟ هل كان تيرو هو الذي طلب مقابلة أمونحوتب؟ هذا التفصيل لم تستطع (آذان) إيداندا أن تتبيّنه بوضوح، لكنها أخبرته بوقوع لقاء بين الاثنين، وفي جوّ من التكتم، إذ لم يحضر اللقاء أي مترجم من قطنا. ولكن يبدو أن اللقاء كان فائق الأهمّية بالنسبة لأمونحوتب، إلى حد أنه على غير عادته، قد توجه بنفسه إلى دار تيرو وبثياب محلية لا تلفت النظر. ولولا يقظة (الآذان) وحرفيتها العالية لما كُشِف، ولما أمكن تتبّعه حتى مكان لقائه.

دائماً تيرو، دائماً تيرو. لم يعد بوسع الملك إيداندا أن يغمض عينيه بعد الآن عن حقيقة أن سِلفه تيرو متورط في قصة ما، غامضة يصعب كشف سترها. وأسئلته المبطنة المواربة

لزوجته بلتوم كانت سرعان ما تثير غضبها، ما إن تشمّ رائحة نقد لعائلتها، ولا سيّما لأخيها. فأسرتها في نهاية المطاف كانت الأسرة المالكة السابقة في قطنا، ولا بدّ من التعامل معها باحترام. كانت هذه وجهة نظرها. أهنا يكمن السر؟

غادر أمونحوتب قطنا قبل عيد رأس السنة، وبكامل الرضا، على ما يبدو، عن كل شيء. وعلى شرَفِه أُقيمت ثانية مأدبة احتفالية عامرة. وجمع القصر ما لا يحصى من الهدايا الثمينة لينقلها أمونحوتب معه كعطايا رمزية للفرعون وزوجته وأعضاء آخرين في الأسرة المالكة. وكتبت إيست لأحبائها عدداً كبيراً من الرسائل. وفي مقابل ذلك ترك أمونحوتب لخالته البالغة الحزن لسفره، مذبحه الخاص المنحوت من الحجر بفنيةٍ عالية، والمزود بعدد من الدروج المتحركة والأبواب الخشبية المنحوتة بإتقان كبير، وذلك لأداء صلواتها التقية الخاصة. وكان قبل ذلك قد أوصى له بصناعة عدد من الأثواب الأرجوانية البديعة، وأبرم اتفاقيات تجارية مع عدد من كبار تجار قطنا.

من الجانب الرسمي لم يتقدم أمونحوتب لخطبة كيا، ولم يكن إيداندا سعيداً بذلك. لكن السلوك العام لوليّ العهد تجاه كيا طمأنه وأبعد عنه القلق. وقد صعب على أمونحوتب جداً أن يفترق عن كيا، التي لم تستطع هي أيضاً تصوّر الحياة في قطنا من دونه. في أثناء الأيام الأخيرة حاول كلاهما ما أمكن أن يكونا معاً ويستمرّا في التخطيط للمستقبل. وكرّر أمونحوتب على مسامعها ما عليه أن ينجزه في مصر، وأنه في أقرب فرصة ممكنة سيرسل في طلبها مع مرافَقةٍ لائقةٍ بمقامها. وموكب العروس البهيّ لن يعبر البحر، بل سيمرّ بجميع بلدان الساحل السوري وكنعان حتى مصر في الجنوب، حيث سيسرع إلى استقبالها.

وعندما لم يعد هناك ثمة مجال آخر لتأجيل الوداع، فكر أمونحوتب بأن يواسي كيا بطريقة خاصة – ولربما كان يواسي نفسه – فزيّنها بمجموعة مصوغات فريدة من الذهب والأحجار الكريمة وخزف القيشاني الثمين. كانا وحدهما، وكانت هي في ثوبها البسيط. فأمرها: «أغمضي عينيك!». ثم وضع على رأسها إكليلاً وطوّق جيدها بقلادة وعضديها بسوارين وخصرها الرشيق بزنار، ثم رفع مرآة أمامها وقال: «أنظري الآن إلى جمالك الذي لا مثيل له!».

وضع في يدها زوج الحلق لتثبّته بنفسها في أذنيها. وقفت أمامه شامخة باعتزاز، وعيناه لم تشبعا من مرآها، فضمّ هذه اللحظة إلى مخزون قلبه. وفي الختام أسمعها مزيداً من أسطر نشيده إلى رع، وصيةً حتى لقائهما. تبادلا القبلات لآخرِ مرة ثم خرج أمونحوتب،

وحيّا الكثيرين الذين أتوا لوداعه، ثم ركب عربته وغادر على الطريق الطويل إلى وطنه. رافق حشدٌ كبيرٌ الضيفَ الساعي حتى خارج البوابة الغربية. أما مراسلو الملك فقد رافقوه إلى جبيل، فقادش، فأمورو.

وعدت كيا حبيبها أن تستفيد من الوقت حتى لقائهما لاستكمال تعليمها. فقريباً ستصبح زوجته. وهل في الدنيا سعادة أكبر من ذلك؟ ومع ذلك لم تتمالك نفسها، فانهمرت دموعها في المكان نفسه على سطح المعبد، وهي تتابعه بنظراتها مغادراً، مثلما رأته لأول مرة قادماً إلى قطنا قبل شهور. متى سيلتقيان ثانية يا ترى؟ دهم كيا شعور غريب، لكنها عزَتْه إلى ألم الفراق. وبشرود نزعت المصوغات الجديدة واحدة تلو الأخرى، تاركة القلادة حول جيدها، وحفظت جميع القطع الأخرى في صندوقها.

4

ربيع 1352 ق. م حتى نهاية العام

اقترب موعد تعادل النهار والليل الربيعي. وطال أمد سطوع الشمس. في قطنا والمناطق التابعة لها استعدّ الناس لفلاحة الحقول والبساتين، التي تبدأ عادة في نيسان، الشهر الأول من السنة، أي شهر البذار. بداية السنة يُحتفل بها في (عيد رأس السنة الجديدة) الذي يمتد عدّة أيام، لكن الشعب لا يشارك في أيام العيد الأربعة الأخيرة. فاتحةُ كل يوم من أيام العيد تبدأ دائماً مساءً، ومساره مرسوم بدقة مسبقاً. ولا بدّ من إيلاء كل الاهتمام لإقامة الشعائر بعناية ليأتي حصاد السنة طيباً وغنياً، والعبء الأكبر يقع على عاتق الملك والملكة، فصحّتهما وقوتهما وإرادتهما الطيبة هي الضمانات لتجديد رضاء الأرباب والحصول على بركاتهم.

التحضيرات الواسعة للعيد شغلت القصر وجميع التابعين له، وجميع المعابد مع كل التابعين لها انشغالاً كلياً، فكانت بالنسبة لكيا تسرية محبّبة. لم يسبق لها أن فرحت بعيد، كما بهذا. أرادت أن تستمتع بكل مباهجه حتى الثمالة، وإن كان فرحها مشرّباً بحسرة، حسبما اعترفت لإهلي نيكالو. فلربما كان هذا آخر أعيادها الكبرى في قطنا.

«كيف تحسّين؟». سألت كيا صديقتها «لا يبدو عليك أبداً أنك تنتظرين طفلاً».

«لكني أحس به بكل وضوح!». أجابت هذه بفرح. بدت متوردة وبعافية جيدة. شعرت كيا بالارتياح لكون الأمور قد اتخذت مساراً جيداً.

«وهل يشعر أبوه بالفرح أيضاً؟ لا يمكنني أبداً تصوّر أكيزي بدور الأب!».

انطفأ الفرح على وجه إهلي نيكالو، وأجابت بجمل باترة: «أكيزي مشغول جداً. وفرحه يبديه بطريقته الخاصة»، وعندما لاحظت أن كيا ستستمر في الكلام، قالت متوسلة:

«أرجوكِ كفى أمثلة. أنا فعلاً بخير، وراضية بما أنا فيه. صدقيني. لا يمكنك تصور الطريقة التي تدللني بها الملكة، وأمي أيضاً. إنهما تقرأان رغباتي من عيني. وعليّ الحذر لئلا يزفونني مثل إوزة!».

عادت إهلي نيكالو إلى طريقتها في الكلام كالسيل. ولكن كان واضحاً أن ثمة ما ليس على ما يرام بينها وبين أكيزي. وستنتهز كيا أقرب فرصة لتسأل أمها وتايا.

«أنا ببساطة لا يمكنني تصور أنك قريباً ستغادرين قطنا إلى الأبد!». هذا التبدل في المزاج جاء مفاجئاً جداً، وإهلي نيكالو كانت تنظر إلى وجه كيا بحزن. ثم أردفت: «لقد أمضينا كل حياتنا معاً. وقريباً قد لا أراكِ ولا تريننني أبداً!».

ضمّت كيا صديقتها بين ذراعيها، ثم قالت: «انظري يا عزيزتي، أعمق أمنية عندي هي أن أعيش سعيدة مع أمونحوتب. وما أظنك تضنّين علي بهذا، أليس كذلك؟».

أومأت إهلي نيكالو برأسها محاولة أن تكبح دموعها. ثم قالت باندفاع: «أتمنى لك من كل قلبي رجلاً يحبك ويقدّرك ويدلّلك. ستبدين رائعة كملكة في تلك الأثواب الشفافة والتيجان الرائعة». ضحكت كيا، فهكذا عهدت صديقتها.

«ملكة! حتّئذ ما زال الوقت باكراً. ثم إنني ما زلت هنا!». قالت من قلبها، وأردفت: «لن ننسى بعضنا أبداً، يا أختي. ولن نُنغِّص على أنفسنا عيد رأس السنة الرائع هذا، اتفقنا؟».

خلال الأيام الثلاثة الأولى أقيمت الشعائر نفسها بالطرق المعهودة نفسها. ابتهل الجميع إلى الرب بعل؛ رب المطر والخصب، ولزوجته وللملوك المؤلّهين وزوجاتهم أيضاً.

قبل انتهاء الليل بساعتين غادر الملك والملكة والحاشية القصر عبر البوابة الجنوبية، وحملة المشاعل ينيرون لهم الطريق. شكّلوا موكباً احتفالياً على طول الشارع العريض إلى بيت الأرباب، غير البعيد عن معبد بيليت إكاليم. وهناك كُرّس إناء ذهبي لنهل ماء أرانتو المقدس وحملِه من النهر إلى الحوض المخصص له في بيت الأرباب. بهذا الماء غُسل وطُهّر كبير كهنة الرب بعل، ثم فُتحت الستارة الكتّانية عن قدس الأقداس. غطى الجميع وجوههم إلى أن قال: «بعل، يا سيد الأرض وفارس السحاب، اغفر لأبناء قطنا جميع ذنوبهم. احمِ بيتك!».

فتحت بوابات المعبد الرئيسية، كي يتحرك الأرباب دخولاً وخروجاً من دون

عائق، فيما كان المغنون والموسيقيون يرفّهون عنهم بفنّهم. وخُصّص ما تبقى من النهار لتحضيرات أخرى، ونُصبت مائدة طعام احتفالية.

في اليوم الرابع بدأت الشعائر الدينية في وقت مبكر من الليل. رتّل كبير الكهنة صلاةً، ثم خطا نحو باحة المعبد الرئيسية. التفتَ باتجاه الشمال ورتّل صيغة ابتهال أخرى:

«أيها الجبار القادر القوي،
يا من تسرع عبر السحاب،
يا من تسوق الغيوم كالغنم أمامك،
يا مالك البرق والرعد،
أمطِرْ قطنا ثلاث مرات!».

بعد أن أشرقت الشمس دخل الملك المعبد في رداء احتفالي مزيّن، وتناول الصولجان الملكي من كبير الكهنة. وهذا الفعل المقدس يُذكّر، من جهة، بعملية تنصيب الملك عند تسنُّمه زمام الحكم، ومن جهة أخرى، بضرورة تجديد الملك سلطته في قطنا سنوياً، والمصادقة على هذا التجديد من قبل الأرباب ومن مجلس المدينة.

عقب هذه المراسم المهمّة مشى الملك والملكة عبر الأراضي الزراعية والحقول في الاتجاهات الأربعة حتى العلامات الرمزية لحدود المملكة، وقد استغرق ذلك حتى الغسق، إذ كان على الجميع أن يقتنعوا باستعادة الملك سلطته.

في جميع الأمكنة التي توقفوا فيها، تليت مقاطع من أساطير الخلق وتكرر استجداء الرب من أجل الماء والخبز والنبيذ والزيت وعلف الماشية ونماء جميع المخلوقات. كان الناس يقفون على جوانب الطرقات وعلى سطوح الدور أو على التلال ويصلّون طلباً لبركات الأرباب.

كاليوم الرابع بُدئ بالشعائر الاحتفالية قبل نهاية الليل بأربع ساعات. وبعد الشروق ناول الكهنة الملك تمثال الرب، فوضعه في العربة إلى جانبه وجال به عبر شوارع قطنا، إلى أن عاد أخيراً إلى بيت الأرباب، فاستقبله خدمه استقبالاً حافلاً تعبيراً عن شكرهم لعودته.

بعد ذلك أراد الملك نفسه دخول المعبد، لكنه مُنع، حتى خلع أسلحته وتاجه ووضعها جانباً مع صولجانه. وعندئذ سُمح له بالدخول ليخضع لامتحانات أخرى. وبحضور الملكة وحاشية البلاط جَرّ كبير الكهنة الملكَ من أذنه وسأله: «هل أثمت أو فسقت؟».

لتأكيد أهمّية السؤال صفع كبير الكهنة الملك صفعةً سالت لها دموعه، وأجاب حسبما هو منصوص عليه: «كان سلوكي دائماً خالياً من الإثم». وللتأكد من صحة هذا الزعم سُئلت العرّافة.

بالنسبة إلى كيا كانت كل هذه الطقوس جديدة. لم يُسمح لها سابقاً إلا بالمشاركة في الاحتفالات العامة. والتأثر الذي كان يغمرها دائماً عند مشاهدتها أفعالاً مقدسة، لم يغب عنها اليوم أيضاً. فكانت مرعوبة بانتظار نتيجة العرافة، فبها ترتبط موافقة الأرباب على بعض تصرفات أبيها الاستبدادية.

ذُبحت نعجة عمرها أقل من سنة، ولا عيب فيها، وشُرِّحت حسب الأصول بحيث تُمكن مراقبَ القربان من ملاحظة الكبد ومحيطه بدقة وتأويل الإرادة الإلهية الكامنة فيه. من بيت الربة كانت كيا تعرف نماذج أكبادٍ وتأويلاتها المدونة، وتعلمت أن العالم الكبير ينعكس مصغراً في هذا العضو الحيوي المهم. كان واضحاً أن الكبد لا شائبة فيه كالنعجة الصغيرة نفسها، فبُشِّرت قطنا بمستقبلٍ حافل بالخير. تنفست كيا الصعداء، كما ارتسم الارتياح على وجه الملك، فخطا نحو تمثال بعل وأمسك بيديه، كي تنتقل قوة الرب إليه. وبعدئذٍ حقَّ له أن يستعيد رموز سلطته الملكية. عند الغسق تكرر طقس العرافة، وكان القربان هذه المرة ثوراً. ولما كانت نتيجته أيضاً بما يرضي الجميع كامل الرضا، خُتم المساء بمأدبة احتفالية.

في اليوم السادس كان على الرب أن يبرهن على قوته للملك. فأُحضرت إلى المعبد تماثيل أرباب ذهبية وأُجري الصراع الذي كان حامياً وقاسياً، حسب الأصوات الصادرة من وراء الستائر. تصدى جميع الأرباب لبعل، لكنهم لم يستطيعوا أن يصرعوه، فهو سيدهم ومعلمهم وبقي منتصراً. وكان هذا إشارة لأرباب المناطق المجاورة، لتقديم فروض الطاعة له. عند الغسق دخلوا قطنا عبر بواباتها، فاستقبلهم الشعب بالهتافات ورافقهم حتى المعبد. في صباح اليوم التالي غُسلوا بعناية ومُسِحوا وعُطِّروا، ثم ألبسوا ثياباً جديدة، فصاروا جاهزين للذروة الأولى من احتفالات اليوم الثامن. عرضت جميع التماثيل أمام الشعب، الذي بات شاهداً على تبجيل كلّ الأرباب لبعل، مانح الأمطار وقاذف البروق الجبار، وعلى قسمهم بالولاء له والوعد بالخير في السنة الجديدة. بعد طقس القَسم خرج الشعب مع تماثيل الأرباب بقيادة الملك والملكة وبمرافقة الموسيقا والغناء على طريق المواكب إلى نهر أرانتو، حيث ركبوا القوارب لمسافة قصيرة مع التيار. ثم ترجلوا ورُفعت

القوارب على عربات جرّ، نقلتهم إلى دار السنة الجديدة، حيث قُدمت قرابين سخية. كان الشعب المشارك في الاحتفال مواكباً للأرباب طوال الطريق، مهلّلاً مغنّياً، بانتظار المراسم الأكثر أهمّية. ففي دار السنة الجديدة حصل الأرباب على أزياء جديدة وقُدمت لهم أطايب المأكولات والمشروبات، تمهيداً لتلقّيهم الهدايا والأعطيات. لذلك في اليوم التالي وضع الملك أمام الأرباب في دار السنة الجديدة نفائس من ذهب وفضة وغيرها، مما قدمته عائلات التجار والأشراف في قطنا. وقبل الأرباب كل شيء بإعجاب ورضا، وتركوا كل شيء لمدبّري شؤونهم من البشر في المعابد، ليعتنوا بهم طوال العام، فهذا من واجبات البشر تجاه أربابهم، ولأجل هذا خلقهم إيل.

والآن كان لا بدّ للعام الجديد من أن يكون سنة خير. كل فرد على حدة أرسل التماساته الشخصية إلى السماء، ومن بينهم كيا أيضاً التي تضرعت إلى الأرباب من كل قلبها. ماذا ستجلب لها السنة الجديدة؟ وماذا ستجلب لكل أحبابها؟ لأبيها وأمها وأخوتها، وإهلي نيكالو التي كانت تشارك في الرقص باسترخاء ممسكة بذراعها؟ ثمة طفل سيولد! أخ، وأمونحوتب؟ وشالا؟ وتالزو؟ فجأة خطر الصديق في بالها، كان سيستمتع بهذه الاحتفالات وجوهره المرهف سيرتشف فرحها. كيف يحتفلون يا ترى في حتّوشا النائية والباردة بعيد رأس السنة؟ احتشد الناس معاً لينشدوا تمجيداً لرب الخصب:

«لقد صبَّ زيتاً وقال: أنعش الأرض والسماء!
جالَ حول أطراف الأرض الزراعية،
وعبرَ أخاديد أرض الحنطة العميقة.
فلتهطل على الأرض الزراعية أمطارُ بعل.
وعلى الحقلِ أمطارُ ربّ الأرباب!
ليكن مطرُ بعل حلواً للأرض الزراعية،
وللحقل أمطارُ ربّ الأرباب!
ليكن حلواً للحبوب في الأخاديد،
وللحقل المحروث حديثاً، ففاحت روائح تربته
كعبق أعشاب زكية!
رفع حارثو الحقول رؤوسهم،
وعالياً رفعه العمالُ الزراعيون.

فقد نفدَ الخبز من السلال،
ونفدَ النبيذ من الدنان،
ونفدَ الزيت من الجرار!».

لم يكن بوسع الجميع الانغماس في مباهج العيد طوال أيامه، ففي أثناء وجود الملك والملكة والحاشية في دار السنة الجديدة، كان أصحاب قطعان الغنم منهمكين في العمل، وخاصة منهم الذين يعيشون حياة البداوة رغم تبعيتهم لمملكة قطنا. فعيد رأس السنة الجديدة هو في الوقت نفسه موسم جزّ الغنم، ولذلك لم يشارك شيوخ البدو إلا في احتفالاتٍ محددة من العيد في قطنا.

يتطلب جزّ هذه الأعداد الكبيرة من الغنم مهارات خاصة وقوة جسدية وصبراً. وقد كُرِّس الجزّ للأرباب، وفتح الكهنة أعينهم لاصطفاء الرؤوس ذات الفراء الخاص. فإذا كانت فروة رأس معين مبرقعة بطريقة استثنائية، فهذا بشيرٌ لمالكه بالخير والرفاه والسعادة. ومَن لا يتوقُ إلى ذلك؟ وفي الأراضي الزراعية أيضاً كان العمل على قدم وساق، فما زُرع في التربة في الخريف، لا بدّ الآن من تهويته وتحريره من الأعشاب الضارة. وهناك بعض المحاصيل التي آن موعد حصادها، بينما كانت حقول أخرى تُحرث وتُبدر مصحوبة بغناء الفلاحين.

مع غروب شمس اليوم العاشر جاءت الذروة الأخيرة لعيد رأس السنة الجديدة، وهي طقس الزواج الإلهي بين الرب بعل وزوجته، الذي يضمن خصوبة الجنس البشري. وبعده مباشرة استضاف الملك جميع الحضور إلى مأدبة عامرة تعبيراً عن امتنانه للأرباب لما قدّموه في السنة الفائتة مع التماس بركاتهم للسنة البادئة. استمر العيد حتى ساعة متأخرة من الليل بين الأكل والشرب والغناء والرقص والضحك. وكثير من الأزواج حذوا حذو ربهم بعل وزوجته على أمل أن الاتحاد الجسدي في هذه الليلة ستكون مكافأته أطفالاً أصحاء. عمّ الفرح والانشراح في كل مكان.

في صباح اليوم التالي غادر الأرباب والبشر دار السنة الجديدة منهكين، وعادوا إلى قطنا، مثلما جاؤوا منها، وبعضهم اتخذ الدرب المباشر. من كان بوسعه ألّا يعمل هجع ليرتاح، أما الملك فكانت أمامه واجبات كثيرة: كان عليه تعيين أشخاص جدد أو تثبيت القدامى في أعمالهم، وأن يتلقى قسَم الولاء من ممثلي جهات كثيرة، وما شابه ذلك. كان الملك مرهقاً، لكنه فرح بنجاح كل شيء على ما يرام، فأوى عقب ذلك إلى ملجئه الخاص

ليفكر. أليس غريباً أن كل ما حذرت شالا من وقوعه لم يتحقق، وهو ما بقي يخشاه طوال الاحتفالات؟ أم إلى متى يمتد أمد هذه التحذيرات؟ عند هذه النقطة جنبّه الأرباب المزيد من التكهنات، فللجسد حقه أيضاً، وإذا بالملك يغرق في نوم طويل بلا أحلام.

**

أتى الربيع بوفرة في الإزهار والاخضرار وبأيام دافئة. والسعاة المرسلون إلى جبيل وأمورو وقادش عادوا إلى قطنا ومعهم أخبار تؤكد الخشية من أن الأسرة المالكة في قطنا قد تعرضت لمزيد من الخسائر. عبّرت رسالة ريب عدّي لأخيه الحبيب إيداندا عن أسفه الشديد لتعرّض القافلة المتوجهة نحو جبيل لهجوم أدى إلى فقدان عدد من الحيوانات بكامل حمولتها، وتبيّن أنها هي التي تخص الملك إيداندا. وقد بيّنت تحرياته لاحقاً أن الهجوم قد اتبع الأسلوب نفسه، كما في الهجوم على قافلة قطنا، التي وصلت إليه أخبارها، وأن ثمة جماعة من البدو متورطين في العملية. وهذا هو ما أكده أيتاكما، حاكم قادش، وحكام بقية الإمارات عند سؤالهم عن الأمر، إلا عبدي عشيرتا حاكم أمورو، الذي يصر على نفي أن تكون أية قافلة قد تعرضت لهجوم على أرضه. ويرجو ريب عدي من أخيه إيداندا أن يخبره عما ينوي اتخاذه من إجراءات بهذا الشأن، أما هو من جهته فسيعلم الفرعون بالأمر.

كما أرسل حاكم قادش إلى إيداندا رسالة شخصية، لا تتضمن أية معلومات جديدة، سوى أن استجوابه للبدو الذين يرعون قطعانهم على أرضه لم يُسفر عن شيء. وهذا لم يدهش أحداً في قطنا.

«هناك من يجمع ثروات هائلة. ولكن من هو؟ ولأي غرض؟». كانت هذه هي الأسئلة التي بقيت دون أجوبة.

بعد أن علمت كيا بعودة السعاة، استفسرت في القصر، بعد تردد، عن بقية رحلة أمونحوتب. قيل لها إنه قد مخر البحر فوراً، دون استراحة في جبيل. لكن السعاة لم يحضروا لها رسالة أو خبراً منه. وبناء على حسابات كيا يُحتمل أن يكون الحبيب الآن في تارو، أحد الموانئ المصرية، ليتابع رحلته من هناك إلى طيبة.

خيّرتها شالا أن تبقى في بيت الربة أو أن تعود إلى القصر. ثمة صوت داخلي نصحها

بالبقاء في بيت الربة، على الرغم من البرنامج اليومي المنظم بصرامة. غير أنها، مع ذلك، كانت تشعر هنا بحرية في الحركة أكثر من القصر، ثم إن صداقتها مع أمينابة قد توثقت أكثر خلال الفترة الماضية. لقد وجدت كل منهما الطريق إلى الأخرى من خلال خدمة الربة. تحدثتا في مواضيع شتى، ولا سيّما مساءً في حجرة نومهما المشتركة، وضحكتا كثيراً معاً. إذا كان الفضل يعود إلى أمينابة في اكتساب كيا درجة من الجدية شيئاً فشيئاً، فإن أمينابة بدورها تشعر بالامتنان لفرح كيا الجامح غالباً، والذي كان يصيبها بعدواه. تعد أمينابة واحدة من ذوات الأيدي الشافية، التي اكتسبت الكثير من الخبرات الطبية. وكان دافعها إلى ذلك شعور إنسانيّ عميق وتعاطف أصيل مع جميع المخلوقات. وعلى الرغم من ميلها الشديد إلى كيا، لكنها لم تتوان عند الضرورة عن انتقادها، من دون أن يُفسد ذلك للود قضية. وهذا التوازن المبني على الحب والاحترام معاً، كانت كيا تقدره أعلى تقدير. وفي الوقت نفسه كان التلاقي مع النساء والفتيات الأخريات في بيت الربة يرجح خيار تفضيل كيا البقاء هنا، على العودة إلى القصر، حيث طرأ على المزاج هناك تغيّر كبير.

«لا!». قالت إيست «أنتِ مَن تغير، ولذلك تبدو لك الحياة هنا مختلفة. أنت لم تعودي تلك الطفلة الصغيرة التي تتقافز في كل مكان، وتدس أنفها في ما لا يعنيها، وترد على الملكة بكلمات وقحة، وتغيظ إخوتها أو مربّيتها، تمزمز الطعام من المطبخ وتلعب بعقل الملك. وهذه الأخيرة ما زلت تفعلينها!». وضحكت.

«أكنتُ مشاكسة إلى هذا الحد؟ هذا مريع. آمل أن تنجب إهلي نيكالو طفلة حلوة ودودة وهادئة، لتكون لاحقاً أميرة قطنا اللطيفة! أمي، ما القصة بين إهلي نيكالو وأكيزي؟».

كان هذا السؤال يؤرق روحها طوال الوقت. كانت إهلي نيكالو غالباً مرحة، وقد لاءمها الحمل. بطنها تكور شيئاً فشيئاً، وكان متعةً لكيا أن تتلمس رفسات الجنين على جدار البطن. ويا له من شعور عارم وجليل، أن تحمل في بطنكَ حياة جديدة أرسلتها الربة. ولكن في أيام كثيرة بدت إهلي نيكالو مكروبة بعد نوبة بكاء.

أخبرتها أمينابة أن تبدل المزاج أمر طبيعي في المرحلة الأولى من الحمل، وشرحت لها قائلة: «تصوري كل ما يطرأ من تغيرات على الجسم، عندما ينمو داخلك إنسان صغير». لكن كيا كانت تتذكر تلميحات إهلي نيكالو المتكررة، والتي ما زالت لا تفهمها.

«بالنسبة إلى كثير من الرجال يشكل حمل زوجاتهم عذاباً لهم»، شرحت إيست «لأنهم لا يستطيعون بعد، تلبية رغباتهم الملحة في المرأة».

«لكن البديل في هذه الحالة موجود»، اعترضت كيا متزعجة.

«لا شك في أن أكيزي يلجأ إلى هذا البديل. لكن هذا يؤدي إلى فقدان زوجته كثيراً من اهتمامه بها، الأمر الذي تحتاجه بصورة خاصة مع الطفل الأول. لكنني لا أكتمك كيا، أنا لا أتصور أكيزي ذلك الحبيب الذي يراعي حبيبته. يحتمل أنه قد أجبرها، مما أشعرها بالإهانة، فقد كانت مغرمة به جداً. بعد العرس سرعان ما تولّد لدي الانطباع بأنها باتت تخشى الليالي المشتركة معه».

«يحتمل أنك محقة. فقد ألمحت إلى مثل هذا مرة. لكنني لم أستوعب ما عنته، حينذاك».

«لا أريد أن أبدو متشائمة، ولكن على الأغلب، سيكون قدرها مثل كثير من النساء. عليها أن تلد للملك الجديد - هذا إذا صادق مجلس الأعيان على ذلك، بعد ألف عام إن شاء الرب - أبناء وبنات من دون أن تحظى بحبه. وهذا قد يؤدي من جهته تجاهها إلى سلوك أرعن وفظ. وهي كعشيقة فراش لا تستهويه كما يبدو، والعكس صحيح. وأفضل ما يمكنها عمله هو أن تعوّد نفسها على هذا الوضع بأسرع ما يمكن، لتستفيد من أفضل ما يقدمه بأقل الخسائر. سيكون وضعها مثل الملكة بلتوم، ستتفتح من خلال أطفالها. وهذا ليس أسوأ الحظوظ! أكيزي لن ينتظر طويلاً حتى يرتبط بمن تشتهيها نفسه، حسب ظني!».

«هل كان الوضع هكذا بينك وبين أبي؟». سألت كيا أمها باستياء واضح.

«لا، كان وضعنا مقدراً من الأرباب. فهو لم يعرفني سابقاً، ثم إن أباك كإنسان يختلف عن أكيزي اختلافاً بيناً. كان واعياً دائماً أن لا يسيء إلى أحد، رغم عدم إمكانية تجنّب ذلك في حالات معينة. ولكن حتى الملكة تعرف أنه يبذل جهده من أجل ذلك».

كانت كيا مرتبكة ومضطربة عندما غادرت مخدع أمها. لم تتصور الزواج على هذا النحو. ولحسن الحظ أن الحال بينها وبين أمونحوتب مختلف. مع كل يوم يمر، كان قلق كيا يزداد تلهفاً لوصول الساعي ومعه الخطبة الرسمية والإعلان عن موعد رحلة العروس. لكن شيئاً من هذا لم يحصل.

في القصر كانوا مشغولين بجهاز العروس، وبدت إهلي نيكالو أكثر انشغالاً بالأمر منها، وكانت تخبر صديقتها بكل المستجدات باستمرار.

«ماذا كنت سأفعل من دونك؟». قالت كيا: «لا بدّ أن تأتي معي، بلا نقاش، رغم أن هذا يعني للأسف أن قطنا لن تحصل على ملكة».

كان الأوان قد فات، عندما عضّت على شفتها ندماً. فهذه المزحة أخفقت من جميع الوجوه. إذْ كم كان بود إهلي نيكالو أن ترافق صديقتها، على الرغم من مقتها الشديد لفكرة مغادرة قطنا! هل نطقت كيا بنذير سوء؟ لقد انفجرت إهلي نيكالو باكية. فقد كانت تعلم علم اليقين أن مكانتها القانونية، قبل ولادة طفلها الأول صحيح البنية، ستبقى غير مضمونة. ما أسرع ما تنقلب الأيام السعيدة إلى نقيضها، حتى في القصر الملكي.

«أنا آسفة، أرجوك اعذريني. كان هذا سهواً مني. كل ما كنت أريد أن أقوله لك، هو مدى امتناني لك لتدبرك كل هذه الأمور من أجلي، في حين أني لا أجد الوقت ولا الرغبة للقيام بها، وكم أفتقدك منذ الآن.. هل تماسكتِ؟». وعانقتها كيا نادمة وهي تقول: «ما أخبار ابن أخي الصغير؟ لا شك في أنه يمد لي لسانه الآن، ليعاقبني على كلامي الغبي!».

ضحكت إهلي نيكالو قائلة: «ما هذا الكلام؟ عليّ أن أذهب»، وقبّلت كيا وغادرت.

لم يكن هذا أول حديث يفتحه الملك مع كيا حول ارتباطها بولي عهد مصر. فقد انقضت عدّة أسابيع ولم يُسمع شيء بعدْ من مملكة النيل بهذا الشأن، رغم أن التبادل التجاري بعد عطلة الشتاء قد عاد إلى نشاطه براً وبحراً، مما زاد الملكَ قلقاً. وتعليقات الملكة الساخرة دوماً، مثل (مَن يطيل النظر إلى النجوم ستؤلمه رقبته) لم تساعد في تحسين مزاجه. حتى إيست لم تنجح في تخفيف قلقه، ولا سيّما أن الوضع السياسي قد بقي على حاله من حيث التعقيد، إنْ لم يكن قد ساء أكثر فأكثر.

العائلتان المتنافستان على السلطة في ميتاني زادتا في غموض الوضع. وبات مؤكداً أنه لا بدّ من الأخذ في الحسبان هجوماً حتياً قريباً على المملكة المستضعفة، مما سيؤثر بالدرجة نفسها على الإمارات الحدودية والتابعة أيضاً. وعلى السوريين الانفصاليين تشمُّم المزيد من الفرص لهم، من دون أخذ سلوك مصر وبابل وآشور في الحسبان. ولكن، لو أن نهبَ القوافل يتوقف. فانعدام الأمن على طرق القوافل سيلحق الضرر بالجناح السوري، هذا إن لم يُعتبر هو وراءه. هذا الإدراك كان يترسخ في نفس إيداندا بمزيد من الاقتناع، إذ ليس ثمة من تفسير منطقي آخر. فالغنائم ستُستخدم لشراء حكام المدن المترددين وجعلهم بذلك في صف الانفصاليين. كما ستستخدم الغنائم لكسب مزيد من المقاتلين. لقد أخبره الشيخ إيدريمي في إطار احتفالات رأس السنة الجديدة، بأن رجالاً غرباء قد تحدثوا مع شباب من قبيلته ودعوهم إلى مشاركتهم في مغامرات. هكذا ستسير الأمور: سيسلحون الشبابَ الغُفْل ويدفعونهم إلى التضحية بحيواتهم من أجل قضية لا جدوى منها. يا له من

جنون! ميتاني وحتّوشا ومصر وبابل أيضاً سيجدون أنفسهم مضطرين إلى الاتحاد معاً لتدمير المنطقة السورية وتقاسمها فيما بينهم. ألا يرون ذلك؟!

ظهور كيا انتزع إيداندا من أفكاره. تنهد بعمق. كان في الآونة الأخيرة متعباً دائماً. لا بدّ أنه تأثير الربيع. لا شك في أن وقوع حدث مثير، سيكون مفيداً له وللجميع. وزواج كيا من أمونحوتب سيرفع قطنا مرة واحدة إلى صدارة الحديث، حتى ما وراء حدود سوريا، وسيُمتِّن سلطتها التجارية بشدة.

«اجلسي يا بنتي، ارتاحي!».

قبّلت كيا يدي أبيها وخديه ثم جلست. يبدو أن معتزله الخاص صار مكان إقامته الدائم. لم يعد يطلبها إلا إلى هناك، عندما يبغي رؤيتها، أو إذا كانت هناك أمور للحديث فيها. أيستحسن يا ترى أن يعتزل بهذه الطريقة؟ نظرت كيا إلى إيداندا بتشوق.

«أظنكِ تستغربين مثلنا كلنا عدم تسلمنا أي إشارة من مصر. إني أفكر في الأمر، ولا أريد تجاهله. من البديهي أنه لا يمكننا استبعاد أن ارتباطكما لا يعجب فرعون، أو أنه خلال غياب الأمير لظروف قاهرة قد اختار له زوجة أخرى، لا يعرف أمونحوتب عنها شيئاً بسبب وجوده هنا وفي جبيل وأوغاريت. ولكن في مثل هذه الحال يُفترض إبلاغنا برسالة بواقع الحال الجديد. إضافة إلى ذلك، هناك في مصر، لا يُحظر عليه أن يرتبط بالمرأة التي يحبها إلى جانب الزوجة الملكة الأولى. هذا لاحقاً طبعاً، بعد أن تلتحق تييّه بالأرباب. أنا لا أريد طبعاً أن أثير من القلق ما لا جدوى منه، فقد تُحل الأمور كلها قريباً. ومع ذلك أريد أن أسألك: أيخطر في بالك ما قد يعيق أمونحوتب؟».

«أبي، لقد رأيت بعينيك، كم كان مؤلماً ابتعادنا الاضطراري أحدنا عن الآخر. لقد غمرني بالهدايا!».

«نعم، طبعاً. كما أنكما لم تلتقيا كثيراً معاً، إلى حدٍّ أن تختلفا، ثم علام ستختلفان يا زوج الحمام؟». كان الملك يفكر بصوت عال، أكثر من كونه يتحدث مع كيا. ربت على يديها وأردف: «خطر ببالي فقط..».

«أنت مخطئ يا أبي» قاطعته كيا «لقد تشاجرنا، مرة، وشجاراً حاداً».

«هل لي أن أسألك، عمَّ كان الشجار؟».

«حول الرسالة التي كتبها تالزو لأكيزي. أتتذكر؟ جئتُ إليك بعد فترة على سفر أمونحوتب، لأن الرسالة كانت تتضمن خبراً لي أنا وقد أخبرتك به».

«لكنك لم تخبريني بأنك قد تشاجرت مع أمونحوتب لهذا السبب».

«لم يبدُ لي الأمر مهماً، مقارنة بأهمّية الخبر بالنسبة إلى قطنا وحدها».

«أهميته تتعدى قطنا كثيراً للأسف. لكن هذا موضوع آخر».

فكر إيداندا برهة بعملية الربط الذكية، التي قام بها ذلك الشاب من كيزواتنا. ففي نهاية المطاف لم تدعم ملاحظة تالزو شكوكه وتحرياته فحسب، بل وضعته على درب محسوس وصحيح. ولقد وضع سِلفه تيرو منذئذ تحت رقابة مشددة. ولكن ما دام تيرو يتصرف بسرية وروية، تبقى يدا إيداندا مقيدتين، للأسف. إضافة إلى ذلك كان من المهم التوصل إلى معرفة المحركين الفعليين. فهو لا يعتقد أن تيرو قادر وحده على مثل هذا الإنجاز، بل هو مجرد تابع. طيب، لكن الموضوع الآن مختلف.

«عفواً، لقد شردت قليلاً. قولي لي ثانية، عمّ كان الشجار؟».

«من شخص ما، عرف أمونحوتب أن الرسالة الموجهة إلى أكيزي لم يكن مصدرها أوغاريت، بل أنها قد كُتبت في حتّوشا وأُرسلت منها. وأن أوغاريت كانت مجرد محطة على الطريق. كما ربط المرسلَ تالزو أو تانوا - وهذا الاسمان بلبلا ذهنه جداً، لكني أوضحت له كل شيء - وهو كاتبُ القائد هنوتي، ربطَه مع الساعي الذي زارك هنا في القصر، أثناء غيابه. وهذا أيضاً وصله عن طريق شخص ما. وبناء على ذلك أراد مكالمتك في الأمر! ألم يكلمك فيه؟».

هز إيداندا رأسه نافياً: «لا، بل سألني عن الساعي، ولماذا أحيطه بهذه السرية. لكنه لم يذكر كلمة واحدة بشأن تالزو».

«غير أن هذا لم يكن كل شيء!». قالت كيا ولاحظت تصاعد الغضب داخلها فوراً: «أسوأ ما في الأمر هو ارتيابه حقاً في أني مغرمة بتالزو أو أن تالزو مغرم بي. وجدت الأمر لا يطاق، فانفجرت باكية وهرعت إلى بيت الربة. لكنه أدرك خطأه، وبعد بضعة أيام استرضاني. عندما سافر كانت الأمور بيننا على أحسن ما يرام، صدّقني يا أبي!».

صمت الملك. لقد أجهده الحديث جداً، على غير العادة. فرك عينيه بتعب.

«ما بك يا أبي؟ تبدو مرهقاً جداً».

«أنا مرهق، هذا صحيح. إني أتقدّم في السن يا بنتي. كل شيء يجهدني».

«لكنك لست عجوزاً أبداً يا أبي!». نهضت كيا وجلست إلى جانبه ملتصقة به، كما كانت تفعل وهي طفلة، ثم سألته بقلق: «أتعاني هذا منذ وقت طويل؟».

«لا، لا. لا تقلقي. عارض وسيزول. لربما كان هذا من عواقب عيد الربيع، طوال تلك الأيام الكثيرة المتتالية. حتى ولادة الطفل الجديد سأكون قد تحسّنت، سترين. عند ذلك ستبدأ هنا حياة جديدة. عليه أن يواسيني عندما تغادرني حبيبتي الصغيرة».

ترك الملك كيا تغادر، وفي ظنه أنه قد طمأنها كفاية. إلا أن أفكاره، رغم إرهاقه، أخذت تحوم حول ما سمعه. أكان أمونحوتب يا ترى يغار من حبيب سابق مفترض واستمر صامتاً؟ عندئذ يكون قد أجاد التمثيل في فترة إقامته الأخيرة في قطنا. أم أن اتصالاته بحتّوشا هي السبب؟ لكنه شرح للأمير بالتفصيل، عن شريكه هناك، وعن ميزات التبادل التجاري المباشر لكلا الطرفين، بصدد بضائع بعينها من دون الوساطة المعقدة عبر كيزواتنا، بشرط استتباب السلم بين ميتاني وحتّوشا. كما شرح له إضافة إلى ذلك، أن الأمر يرتبط بعلاقة شخصية، ولذلك لم يشأ أن يربك بها زملاءه التجار في قطنا، ولكونها نوعاً من جسّ النبض على أعلى مستوى. وقد ولّد لديه أمونحوتب الانطباع بأنه قد فهم الأمر. ولكن لماذا ذاك الحديث مع تيرو إذاً؟ وحول ماذا تحدثا؟ لماذا لم يذكر شيئاً بشأن تالزو؟ ربما لتبيّنه في حينها أنه لا يستحق الذكر، هذا محتمل. على الرغم من أن الشاب كان جيداً. كم يتمنى لو أن أكيزي يمتلك شيئاً من بعد نظره ورزانته. لكن أكيزي بذل جهده فعلاً. يجب أن يكون منصفاً. ولا شك أن علاقته مع إهلي نيكالو ستتحسن بعد ولادة الطفل. أعليه أن يتحدث مع أكيزي في هذا الموضوع؟ سيكون مريعاً في المستقبل أن يكون مزاج إهلي نيكالو سيئاً مثل مزاج الملكة. استبعد الفكرة. فإهلي نيكالو فتاة بريئة بسيطة. لا شك في أنهما سيستمر كل منهما في نتف ريش الآخر، فهما لا يزالان شابّين.

قلقت كيا بشأن أبيها. بدا لها جلده في حالة سيئة. هل تستشير في الأمر شالا أو أمينابة؟ ألقت نظرة على غرفتها، وجدتها فارغة. لم تستطع مقاومة الغواية. فتحت صندوقها وأخرجت قطع المصوغات وأخذت تتأملها وتتلمسها وتقبلها قبل أن تعيدها إلى مكانها. وأخيراً مدت يدها إلى رسالة البردي، رغم أنها قد حفظت مضمونها كلمة فكلمة. استلقت على فراشها وضمتها إلى قلبها. كان الحبيب شديد القرب منها. سمعته يتحدث. سيكون لقاؤهما كما في الحكايات. هي في محفّتها وهو في عربته القتالية - هكذا سيكون اللقاء، مجرد نظرة ملتهبة بينهما، ويتابعان طريقهما إلى المكان أو المعسكر القادم. وهناك عندئذ، أخيراً ومن دون رقيب سيرتميان كل منهما في ذراعي الآخر ويتبادلان القبل والقبل والقبل.

هيّجتها تخيلاتها. أحست بيديه على نهديها، وبشفتيه على شفتيها. كان شوقها إليه من الشدة بحيث أحست بألم. هل سمعته يهمس:

«آه، أنت يا حبيبتي المغوية!
بريق عينيك يشعرني بالحلاوة.
قولي فوراً «نعم» يا أختي الحبيبة!
قبلتك على صدري عند اللقاء تشعرني بالحلاوة،
قولي فوراً «نعم» يا أختي الحبيبة!
التوق إليك تأكلني مُذ كنا في دارك،
كشهوة طفل إلى كعكة أمه المعجونة بالعسل!
يا أختي الحبيبة، التوق إليك
يتأكلني منذ البداية! قولي فوراً «نعم!».
أنت حقاً أميرتي - قولي فوراً «نعم»،
يا أختي الحبيبة!».

صدّت كيا هذه الأفكار عن نفسها، وإلا كيف ستتحمل هذا البعد بينهما؟ وبدلاً من ذلك أخذت ترسم في ذهنها صورة مسار الرحلة. رأت على ضفة النيل قارباً مزيناً بالورود على قضبان ذهبية ومغطى بمظلة ثمينة. كان هناك تحت المظلة كرسيان بمساند، جليلا الهيئة، وأمام كل منهما كرسي صغير واطئ للقدمين. هناك سيجلسان أحدهما إلى جانب الآخر في رداءين خفيفين بيضاوين وكأنهما على عرشين. ومن ورائهما عبيد يحركون الهواء بمراوح للتبريد. سينزلق القارب ماخراً الماء، ترافقهما الزوارق من الجانبين، وتتقدمهما زوارق المنادين وعازفي الأبواق. والناس يقفون على الضفتين، يلوحون بأيديهم ويهتفون.

انتفضت كيا واعتدلت. هل نامت وشاهدت رؤيا؟ ويا لها من رؤيا جميلة!

**

نظرت في اتجاهه، لكنه لاحظ فوراً أنها لم تره. طبيعي، فلقد تغير. صار مفتول العضلات، أميل إلى الرجولة والجدية. إضافة إلى الثياب الحتيّة التي يبدو فيها كالمقاتلين، بالقميص القصير والسترة فوقه. أما هو، فقد رآها فوراً. كانت واقفة بهدوء برداء أبيض

طويل، تلعب به النسمات. توجه إليها ورأى أنها تبتسم. لا ابتسامتها الساخرة تلك، بل ابتسامة تعرُّف وفرح قلبي. فتح ذراعيه وأسرع في مشيه. وهي؟ ركضت إليه وارتمت بين ذراعيه، فدار بها مؤرجحاً إياها فرحاً باللقاء. ثم وقفا متعانقين، والخد على الخد، والقلب الخافق على القلب الخافق. استنشق عبير بشرتها. بحث بشفتيه بحذر عن فمها الذي كان في انتظارهما.

«هيا تانوا، اخرج، لقد بدأتْ»، صاح مورسيلي وشدّ تانوا بقوة منتزعاً إياه من حلمه.

في محيط نِريكا صال الرب رَيابا وجال على نحو عنيف. لقد فشلت جميع المفاوضات التمهيدية، التي عزم تانوا على المشاركة فيها، معتمداً على نجاحه السلمي مع الكشكيين في تورميتا. غير أن هنوتي منعه، متذرعاً بأن عليه أولاً جمع بعض الخبرات وتعلُّم المزيد من لغتهم. وأوفد بذكاء، مجموعة من المفاوضين المجربين، يدعمها كشكيون كانوا عبيداً وأُعتقوا، أو من الذين التحقوا بالحتّيين وخدموا في صفوفهم. غير أنهم عادوا من الوفادة إما مقتولين أو مشوهين ماتوا بسرعة عقب وصولهم، إنْ لم يكن زملاؤهم قد حرروهم من آلامهم.

لم يكن هناك إذاً احتمال لتسوية تفاوضية. وبلغ غضب الجنود حدّه الأقصى بسبب الاستفزاز الوحشي في التعامل مع الوفد. أما تانوا فقد اضطرب وذُهل لمرأى هذه القسوة لأول مرة في حياته. وعلى الرغم من ذلك فقد نجح في إغضاب هنوتي مجدداً. فجواباً على تساؤل هنوتي، عمّا إنْ كان قد أدرك الآن أنه لا خيار أمام المملكة سوى التدخل وبقسوة، تجرأ على التصريح بأن الحتّيين قد فوّتوا على أنفسهم انتهاز الفرصة باكراً للبحث عن حلول للتعايش المشترك جنباً إلى جنب. وأضاف سائلاً: «هناك متسع للجميع، أليس كذلك؟».

«ما هذا هو الموضوع إطلاقاً»، قال هنوتي وهو ينفخ غيظاً: «إما أنك لا تريد أن تفهم وإما أنك لست قادراً على الفهم. هذه المنطقة في الأصل منطقة حتية، من البحر الكبير الشمالي وحتى نيسا جنوبياً. أجدادنا القدامى احتلوها وسكنوها وعمّروها. نحن مَن بنى المعابد فيها، نحن من نظّم الري وفتح الترع والقنوات ومدَّ نوعين من الأنابيب لنقل الماء النظيف والماء الوسخ، نحن من شيّد الدور والقصور وصوامع الحبوب ومخازن الغلال، كي لا يجوع الشعب في سنوات القحط. لكن عصابات اللصوص هذه لا تريد ذلك. وأنت ترى ذلك بأم عينيك!».

«ألا يحتمل ببساطة أنهم يريدون أن يعيشوا بصورة مختلفة؟».

لقد أثار تانوا غضب هنوتي عدّة مرات، هذا صحيح، لكنه علّمه شيئاً جديداً أيضاً: أي الخروج من أساليب التفكير الثابتة والتخلي عن الميزات القديمة المريحة. فحتى الآن لم يتصور أحد أنه من الممكن التخلي عن استراتيجية مجربة وناجحة، في التعامل مع ممالك مثل ميتاني، وتبني استراتيجية العدو، مع احتمال النزول إلى مستواه أيضاً. غير أن المهم حقاً الآن هو النجاح. لا بدّ لهم من السيطرة على الشمال، لضمان ظهرهم عند الالتفات إلى المهمّة الرئيسية، وهي إخضاع ميتاني وإعادة احتلال شمالي سوريا بكل ما فيه من كنوز.

على الرغم من ارتفاع الخسائر لدى الجانبين، نجح تكتيك هنوتي في القتال وأثبت جدواه. فقد انتاب القبائل الكشكية المختلفة شعور بأنهم يصطدمون بالحثّيين حيثما اتجهوا. فمجموعاتهم القتالية الصغيرة، التي كانت تنجح عادة في هجماتها، سحقتها الآن قوات المشاة الحثّيّة بمرافقة العربات القتالية قبل أن تتأهب مجموعاتهم جيداً للهجوم. وفي حال الهروب إلى الغابات والجبال أخذت وحدات المشاة الحثّيّة تلاحقهم وتسحقهم. كثيراً ما أباد الحثيون المعسكرات أو المستوطنات، التي كان المقاتلون الكشكيون يلتجئون إليها، عن بكرة أبيها، بغض النظر عمَّن فيها من شيوخ ونساء وأطفال. وكانت الجثث تترك في مكانها لتفترسها الحيوانات. تصاعد دخان الحرائق فوق الغابات والمرتفعات والسهول، وفي أيام الصحو، كانت العين ترى حتى القرى الفقيرة المدمرة. كانت قطعان الماشية تُجمع وتُساق مع القوات. وفي حال إعلان الكشكيين استسلامهم، كانوا يُؤخذون أسرى وتُدمر مساكنهم، إلى أن يُبت لاحقاً في أمرهم، فإما أن يشتغلوا عبيداً في حتّوشا وإما أن يُقتلوا.

كان تانوا يفرح في كل مرة لعودة مورسيلي وميتا سالمين، مع بقية المقاتلين من هجماتهم. كان مورسيلي على استعداد دائم، إما للقتال وإما للمرح. وإن صدرت عنه أحياناً بعض الملاحظات الساخرة المتشائمة، فما كان يلتقط فحواها سوى تانوا. وكان يبذل جهده ما أمكن لئلا تتبدى عليه أهوال ما تراه عيناه.

في جميع العمليات القتالية، ولا سيّما في الاشتباكات الصغيرة أو المناوشات كان على تانوا أن يجلس في الخيمة ليكتب، وفي بعض الأحيان كان يدهمه شعور بافتقاد وضعه إلى الرجولة. لكنه كان ممتناً لذلك، لا لجبنه عن المشاركة في القتال، بل لأمله

بأن ما يقوم به سيحقق ذات يوم شيئاً ما. وهكذا كانت سمعته في وحدته القتالية: كان الجميع يعرف أنه مقاتل ذكي في التخطيط، لكنه أبرع بصفته وسيطاً مفاوضاً، ولذلك كان يتمتع باحترام الجميع. كان يطلب من أصدقائه وزملائه إخبارَه بالتفصيل عن كل ما مروا به ورأوه أثناء القتال. حتى على هذا الصعيد برز مورسيلي، لا لجودة وصفه فحسب، بل ولدقة ملاحظاته لأشياء كانت تفوت الآخرين. ومع ذلك ما كان من شأنها أن تغير موقف تانوا من لا جدوى مغامرتهم الخطيرة. قرويون ورعاة فقراء. ما الغنيمة منهم؟ لا بدّ من وجود شيء آخر. فالمقاومة المستميتة تدفع إلى استنتاج أن في الأمر خسارة أخرى، غير المراعي والحقول، التي كان من المؤكد أن الملك سيضعها تحت تصرفهم. ربما لم يصل الجيش بعدُ إلى العمق المطلوب. لا بدّ من وجود الكنوز التي ذكرها هنوتي في مكان ما هناك. لكن الأمر كله ما زال غامضاً بالنسبة إليه.

لم يتمكن تانوا إلا نادراً من التواصل مع أسرى الكشكيين المحشورين في ما يشبه الحظيرة حتى يساقوا إلى حتّوشا. كانت نظرات رجالهم عابسة، وسرعان ما كانوا يلتفتون عنه، أما نساؤهم فكن دائماً منزويات. كان يصعب التعرف على قائدٍ بينهم، وإن حدث ذلك، فكان أحد الضباط يحضره ليُستجوب بمساعدة مترجم. ولكن نادراً ما كانوا يعطون أجوبة، ونادراً ما كان أحدهم يلتجئ إلى الحتّيين، إذ ما كان لينجو بجلده طويلاً. كانت نظرات فتيات الكشكيين تتابع سراً حركات تانوا الوسيم، ولكن ما إن يخاطبهن بمفرداته الكشكية القليلة، حتى ينزوين خائفات. وكان يتفهم موقفهن.

طال أمد القتال. ورغم الانتصارات الكثيرة لم تتحقق هزيمة العدو، ولم تنته الهجمات المتتالية، ولم يتقدم الجيش، ولم تحرر نِريكا. لكنِ الأنباء القادمة من ساحتي المعارك الأخريين كانت تدعو للتفاؤل. ففي الشمال الغربي، حسب ما هو مأمول، أدت المفاوضات إلى تسوية الأوضاع. ربما بسبب سرعة انتشار أخبار تغيير الحتّيين لأسلوبهم القتالي، أو – حسب تقدير تانوا – لكون القبائل المستوطنة حول مخاضة مراسَنتا أقل ميلاً إلى القتال والعنف. إذ كانوا يلتمسون من أربابهم ومن أرباب الحتّيين دوام السلام والبقاء في المناطق الرعوية المخصصة لهم. وفي الشمال الشرقي تمكن زيدا بعد معارك قليلة من إبرام اتفاقية سلام، فاندفع إلى عمق شمال شرقي المملكة، كي ينقل إلى أتباع الحتّيين هناك مسؤولية الحفاظ على السلم مع المناطق المجاورة، ما يرفع عن كاهل الجيش الحتي عبئاً ثقيلاً.

مع هذه الأنباء الجديدة وصل إلى المعسكر أيضاً خبر الرسالة الموجهة من الملك

إيداندا في قطنا إلى لابارنا حتّوشا شوپيلوليوما، والتي علم بها تانوا من هنوتي. من الواضح أن الملك يبدي استعداده للخضوع للحتيين.

«ما رأيك بهذا؟». سأل هنوتي تانوا.

«إني مندهش جداً. ولا سيّما بعد ما سمعنا من والدي أن ولي عهد مصر كان في قطنا. فهل حدثت قطيعة مع مصر؟».

«الرسول الذي جلب الرسالة لبى طلبات الملك إيداندا، وزاره عدّة مرات زيارات خاصة، من دون علم مجلس أعيان قطنا كما يبدو. وقد أحاط الملك زيارات رسولنا بسرية تامة. وهذا يشي بسلوك فردي. ولكن لأي سبب؟».

«لربما يشعر الملك بنفسه مهدَّداً!». أجاب تانوا متفكراً.

«من قبل مَن، ولماذا؟ إذا كنتَ تعرف أو تخمن شيئاً، فهاتِ ما عندك. فقد يكون بالغ الأهمّية!».

فحكى له تانوا قصة الهجوم على القافلة كاملة، وذكر تفاصيل الغنيمة، واستماعه مصادفة إلى الحديث بين شقيق الملكة وأحد البدو في لقاء سري. لم يعلق هنوتي بأي شيء على ما سمعه، سوى أنه سينقل فحوى الحديث إلى الملك. لكنه قال في نفسه: إن قطنا تغلي. شقيق الملكة.. إنها ليست المرة الأولى التي يقوم فيها شخص كهذا بزرع الشقاق.

«بالمناسبة، أخبرني والدي لاحقاً أن أعضاء المجلس قد اختلفوا فيما بينهم، لإصرار الملك إيداندا على إبقاء قطنا محطة تواصل تجاري مستقلة، بموافقة القوى العظمى. فهناك حزب في المجلس يميل إلى جانب مصر كلياً، وثمة حزب آخر ينادي باستعادة أمجاد قطنا الماضية. لكني ذكرتُ هذا كله في تقريري».

كان هنوتي كله آذان. لم يتصور أن تكون حدة الصراع بين القوى بهذه الحدة في مدينة صغيرة كقطنا. وهذه كلها معلومات مفيدة بصدد التخطيط للحملة على ميتاني، وعلى شمالي سوريا إن شاء الأرباب. لكن تانوا قاطع أفكار هنوتي سائلاً: «وهل من أخبار سوى ذلك من قطنا؟».

«هل تتوقع شيئاً؟».

تردد تانوا ثم قال: «كنت كتبت لوليّ العهد، فأنا صديقه». وحكى لهنوتي عن رحلتهما إلى الجبال، ومحاولة الاغتيال المزعومة وتعاهدهما على الصداقة.

«هذا يفسّر طبعاً سبب اهتمامك الدائم بقطنا يا عزيزي. للأسف لا أخبار أخرى. يحتمل أن يكون ساع أو رسالة في انتظارك في حتّوشا».

هز تانوا رأسه.

«وماذا عن كيا هذه؟».

احمر وجه تانوا حقاً، كمن ضبط متلبساً.

«أنت مغرم! هذا رائع! وأنا الذي ظننتك لا تهتم بالنساء. هل هي جميلة فعلاً؟ لا تخف، لن أكشف سرك لأحد. ولكن عليك الانتباه لئلا يخطفها المصري منك!». واستمر هنوتي في سيل كلامه وهو يمازح تانوا بود، في حين يزداد غضب تانوا. ألا يدرك الخال محنته؟ ابنة ملك قطنا، وهو ابن تاجر.

نريكا ومخاضة مراسَتا باتتا على مشارف النظر. كانت أرتال الجيش في الطقس الجيد تتقدم إلى الشمال من دون معوقات. وانتشر بين الجند نوع من المزاح العابث بأنهم بدلاً من القتال، سيتسابقون حتى البحر الأسود.

سارت الأرتال عبر مناطق جبلية على دروب وعرة مهملة، سبق للحتيين أن شقوها، ودخلوا في عمق المناطق الكشكية. بقي هنوتي مع مؤخرة الجيش، متفادياً الوقوع في خطأ الولوج في أرض العدو بعيداً، والتعرض لانقطاع الإمدادات نتيجة حصاره من الخلف ولكن على الرغم من كثرة ما أرسل من كشافين ومستطلعين، بقي كل شيء هادئاً. لم يروا أي كشكي. وبقي طريق السعاة سالكاً من دون أخطار. وقد سبب له هذا مزيداً من القلق. ما معنى هذا؟ إن لم يكن العدو وراءه أو على الجناحين، فليس من حل آخر سوى أنه في الشمال. أما أن يكون قد انسحب إلى مخابىء معينة بانتظار انسحاب الحتّيين، فهذا مستبعد. كاد هنوتي مع مرافقته أن يبلغ المعسكر الرئيسي عندما التقى من الاتجاه المعاكس تانوا مع مجموعة جنود.

«جلالته ينتظرك بأقصى سرعة»، قال تانوا باقتضاب بعد أداء التحية العسكرية، واستدار بحصانه فوراً. كان يحمل لهنوتي خبراً آخر. انطلق هنوتي وراء ابن أخيه حتى ابتعدا عن مرأى الجنود، فشد تانوا عنان جواده وقال لهنوتي: «لقد حشدوا جموعهم في السهل أمام المدينة! واضح أنهم يفوقوننا عدداً!». صفر هنوتي من بين أسنانه وقال: «كنت أتوجس أنهم أمامنا. ولكن بهذه الكثرة؟ دعنا نسرع!».

بعد ركوب سريع وصلوا المعسكر الملكي المقام على مرتفع جنوب المدينة، بحيث يتيح مجالاً واسعاً للرؤية. غير أن ارتفاعه هو ميزته الوحيدة. كان السهل، كما عبَّر تانوا، حاشداً متخماً بالمقاتلين. وليلاً أرتهم النيران أن أمشاط الجبال من حولهم محتلَّة من قبل العدو أيضاً. باختصار: العدو متفوق عدداً بصورة لا تصدق.

بعد أن دخل هنوتي الخيمة الملكية للمشاورة قال: «لقد تركونا نصل إلى هنا متعمدين ذلك. هم على بيّنة من أننا نريد استعادة المدينة. لقد استغلوا الوقت الذي احتجناه للوصول إلى الشمال كي يحشدوا قواتهم هنا. لكنهم ليسوا قبيلة واحدة. عجيب!».

«ليس هذا وحده ما هو عجيب يا عزيزي!». ونظر شوبيلوليوما إلى قائد جيوشه متفكراً: «بات عندهم ملك الآن! خرج من بينهم رجل اسمه (پيهونيا) ونجح في توحيد عدد من قبائل الشمال معاً. كان واثقاً من نفسه جداً عندما أرسل إلي رسوله ليبلغني بأنهم ينتظرون المعركة ببالغ السرور!».

«إنهم كومة من الجنود سيئي التدريب وسيئي التسلُّح»، قال أحد الضباط.

«أوافقك جزئياً فحسب. هم سيئو التدريب من منظور طريقتنا في القتال، ولا سيّما على ما يبدو أن قواتهم تتألف من المشاة فحسب. لكنهم ينافسوننا حتماً بأسلوب زج المشاة بمجموعات مفاجئة لا يحسب حسابها مسبقاً. أنا متلهف لمعرفة تشكيل قواتهم في المعركة. لكنهم ليسوا سيئي التسليح مطلقاً. اسمح لي أن أذكرك فقط بأنهم لا يملكون المواد الخام فقط، بل أفضل الحدادين أيضاً. لا، لا. علينا استخدام مهاراتنا التكتيكية كلها كي لا نقع هنا في مصيدة. قوتنا الضاربة تعتمد على زج العربات القتالية في المعركة، ولا يمكننا فعل ذلك من هذا المرتفع».

«لقد أمّنّا المعسكر من جميع الجوانب، ولا سيّما من ظهرِنا. هناك ستبقى كتيبة جيدة التسلح ولا تغادر مكانها مهما كان الثمن»، قال الملك، وهز هنوتي رأسه موافقاً.

«علينا أن نرسل كشافين، من الكشكيين العاملين في صفوفنا ما أمكن، ليستطلعوا لنا على الأقل المناطق الجبلية المحيطة بنا، لنعرف عدد الموزعَين هناك. قد يكون الأمر خدعة، ليجعلونا نصدق أن قواتهم الاحتياطية عديدة، في حين لا يوجد حول النيران هناك سوى بضعة رجال».

لم يدر تانوا مَن يخص بإعجابه أكثر، الملك أم خاله. كلاهما كان مسترخياً تماماً، وكأن الأمر لا يعدو تحريك بعض الأحجار على رقعة اللعب للتغلب على الخصم.

ويخيل للمستمع إليهما أنهما يتنافسان بأفكارهما التكتيكية، في حين كانا في الواقع يكمل أحدهما الآخر على نحو ممتاز.

الأيام والليالي التي تلت ذلك، لم ينسها تانوا طوال حياته. وقد تبيّن من استطلاعات الكشافين أن مُشعلي النيران هم نساء وأطفال يختفون نهاراً لجمع الحطب، وأن النيران ليست بغرض الخديعة فحسب، بل هي وسيلة لنقل الأخبار. وقد عرف الجيش الحتي ذلك من صدامات سابقة. ولذلك كان الحتيون في غزواتهم الليلية يُبقون المرأةَ المسؤولة عن النار حيةً، للتمويه بأن الخدعة لم تُكشف بعد، ويقتلون جميع الآخرين، ويضعون في مكانهم جنوداً حتيين.

دارت معركة اليوم الأول بين قوات المشاة، وتوسل الجيش الحتي الدعم من أرباب حتّوشا، وخاصة رب الحرب زَبابا ورب الطقس. وأكد الملك في صلاته قبل المعركة أن عملهم مشروعٌ ومبرر.

قسم شوبيلوليوما وهنوتي الجيش إلى مجموعتين اتخذتا موقعيهما عند الفجر. ووضعت فرقة رماة السهام في منتصف المنحدر لصد العدو، إنْ بكّرَ في هجومه. لكن العدو بقي قرب المدينة تاركاً مشاة الحتّيين يمشون مسافة طويلة، ليتعبوهم. كان ذلك خطأً جوهرياً، إذ تقدم المشاة بصفوف منتظمة بمرافقة أناشيد حماسية تمجد زبابا. كانت حرارة الصباح محتملة. أثناء التقدم بقيادة كبار الضباط انفصلت المجموعتان إحداهما عن الأخرى، تاركتين بينهما ثغرة. كان التحام الجيشين قاسياً. صحيح أن الرماة قد حصدوا الصفوف الأمامية من العدو، لكن عدم تدخل العربات زاد العبء على مجموعتي المشاة. وقد أحيط الجنود علماً بأن العدو سيهجم بشكل فوضوي دون تنظيم قتالي معين، وهذا هو ما وقع. لذلك بات كل جندي مسؤولاً عن حماية نفسه من جميع الجوانب. وفقط بفضل التسليح المتنوع (حراب، سيوف طويلة، سيوف قصيرة، خوذات جلدية، تروس) تمكن الجنود من الصمود وبجلَد. كانوا يساندون بعضهم ما أمكنهم، لكن العدو كان في كل مكان. غير أنه بسبب انقسامهم إلى مجموعتين، وجد نفسه مضطراً لمقاومة جبهتين، فتوزع الثقل وخف زخم المواجهة بالاعتماد على التفوق العددي. مات كثيرون من الطرفين أو أصيبوا بجروح خطيرة، ولم يتمكن الحتيون من إنقاذ جرحاهم، لأن جميع السواعد كانت ضرورية للقتال. كان جلياً أن الكشكيين يبدلون مقاتليهم، إذْ بدا أن مقاتلين جدداً، بالزخم والعتاد، يدخلون المعركة بين الآونة والأخرى، وكانت صيحاتهم التي تصم الآذان تدب

الرعب في صفوف الحتّيين. لكن هؤلاء نتيجة جودة تدريبهم كانوا أقدر على الصمود في المعمعة. ومع ذلك لم يستطع أي من الجانبين حسم المعركة لصالحه. مع حلول المساء انسحبت القوات الحتّيّة إلى المعسكر، واستنكف الكشكيون عن مطاردتهم، لعلمهم بما في ذلك من مخاطرة كبيرة على مشاتهم.

لقد حققت الاستراتيجية ما توقعوه منها، وإنْ بثمن باهظ. فالمقاتلون الحتيون الذين خسروا الكثير في المعركة سمحوا لزملائهم في المؤخرة بإنزال قطع العربات الخفيفة إلى السطح وتركيبها هناك، فباتت جاهزة للزج في المعركة في الصباح التالي. ركب الملك شوبيلوليوما والقائد هنوتي وضباطه مورسيلي وميتا وغيرهم كثير، العربات القتالية وكأنهم آلهة. كانت كل عربة يجرها حصانان وعليها قائدها والسائق حامل الترس. وعلى الرغم من تفوق هذه الوسيلة القتالية فإنها لم تحقق خلال الأيام التالية نصراً صريحاً. صحيح أنها قللت الخسائر، ولكن لسبب رئيسي، هو أن العدو كان المرة تلو الأخرى ينسحب إلى المدينة أو إلى الجبال، ليهاجم فجأة من جهة أخرى. كان هذا مرهقاً ولم يحقق أي ظفر، إذ يبدو أن احتياطي الكشكيين من المقاتلين لا ينتهي. وأسلحة الطعن والضرب التي غنمها الحتيون، فرضت احترامها من حيث جودة الصنع والمتانة. أما أقواس النشاب فقد كانت بائسة، مقارنة بالأقواس الحتّيّة المصنوعة من الخشب وقرون الحيوانات. ومع ذلك فقد أصابت بعض سهامهم أهدافها.

**

«لقد تزوج!».

وقف الملك إيداندا في الباب فجأة، دون خبر مسبق. فوجئت إيست، فرفعت رأسها عن التطريز الذي تشتغله بيديها ونهضت مسرعة لاستقبال زوجها الملك.

«أهلاً بك يا حبيبي، تفضل!». أبعدت بعض الأشياء جانباً، ثم دعت سيدها للجلوس إلى جانبها وسألته: «أترغب في شراب منعش؟».

«لا، لا أريد. بل أريد معرفة رأيك. لا شك أن لك رأياً في هذا؟».

«هدئ من روعك يا حبيبي، وقل لي، مَن الذي تزوج؟ أنت لم تذكر اسمه بعد!».

«أمونحوتب!».

«ولي عهد مصر؟». ذهلت إيست: «لكن هذا مستحيل! لقد أراد.. مَن التي...؟».

«ابنةَ رجل يدعى أيا من إيبو، حيث تقيم أسرتك أيضاً. اسمها نُفِرْتيتِي!».

«هكذا فجأة؟ دون أن يَعلم أحد بالأمر؟».

«نحن هنا في قطنا لم نعلم، يا حبيبتي. لا رسول ولا خبر، حتى أنت قريبته المقربة، لا شيء».

«ربما أصاب الساعي خطب ما؟».

«والسعاة إلى جبيل وأوغاريت وميتاني وغيرها، مما لا أدري إلى أين أرسل سعاته، لم يصبهم شيء، كلهم؟».

«الآخرون إذاً تلقوا أخباراً؟ كيف عرفت بالأمر؟ هل هو حقاً صحيح؟».

«نعم، إنه خبر صحيح. أتظنين ريب عدّي يكتب لنا حكايات خرافية؟ هو طبعاً لا يدري أننا قد أمِلنا، بسبب كيا. يا للإهانة ويا للعار! ماذا يبغي هؤلاء الكلاب القذرين؟ عفواً، إيست. لم أتعمد إزعاجك، لكنني خارج عن طوري. أنا غاضب جداً، ومن نفسي أولاً. لقد أحسست بأن ثمة خطأ في الأمر. الأمير الشاب سمح لنفسه بأن يمازحنا. ما كان يجوز لي أبداً أن أشجع كيا، ولا حتى في ميلها إليه، المسكينة. روابط الحب هذه كلها لا جدوى منها. الوالدان يختاران الرجل المناسب، وكفى!».

«يا عزيزي، دعك من لوم الذات. ما كان لنا أن ندرك ما يجري، صدّقني. ثم قبل أن نعرف بالدقة ما جرى، لا يحق لنا أن ندين أمونحوتب. لقد كان جاداً تجاه كيا، أنا واثقة مما أقول. لقد أمضيت وإياه وقتاً كافياً لأعرفه، ومعهما معاً أيضاً. كانا مغرمين أحدهما بالآخر. لا بدّ من وجود أسباب أخرى لمنح الأفضلية لابنة عائلة ملكية ثانوية!».

«هذا إذا كان الشاب قد أتى على ذكر كيا هناك. كان مستغرباً أن لا يصلنا منه حتى تحية. ربما كنتُ أنا السبب. لربما يكون قد استاء مني لالتفاتي إلى حتّوشا، رغم أن الأمر لا يعنيه. إنه ليس سيدي المطاع. أن يستغل كرم ضيافتنا وطيبتنا بهذه الطريقة البشعة! أن يضلل فتاة بريئة ويتخلى عنها بهذه البساطة! لم نعد بحاجة إلى أميرة قطنا.. تصوري! هل الملكة تِيِّه وراء ذلك يا ترى؟ ربما كان يعرف مسبقاً نفرتيتي هذه، وكانا موعودين أحدهما بالآخر. لا أستبعد شيئاً عن هذا الخيالي المتوهم. سيرى العالم العجب منه بعد. إيست، يا لي من أحمق!».

ودفن رأسه في صدرها. لم يسبق أن رأته إيست في مثل هذه الحال، غاضباً ويائساً ومستسلماً. في الآونة الأخيرة بدا إرهاقه الدائم قد تراجع، فامتلأت أملاً بعودته إلى

حيويته ونشاطه السابقين. والآن جاءت هذه النكسة. إذا أعدنا التفكير، سنجد أنه كان من حسن الحظ عدم إعلان خطبة رسمية. وإلا لكان ذلك مدعاةً لسخرية الجميع من قطنا. أما بهذه الصورة فقد بقيت الإهانة محصورة بأهل قطنا أنفسهم. لو أن أمونحوتب لم يفتح فمه، لما علم أحد بالموضوع. لكن هذا وحده سيئ بما فيه الكفاية. كيف سيكون وقع الخبر على كيا؟

«ماذا عن مستقبل قطنا؟». سأل الملك واعتدل ثانية في جلسته: «المصريون لا يُعتمد عليهم. كل ما يريدونه هو خشبنا وما يحتاجون إليه من منتجاتنا، وما سوى ذلك سيّان بالنسبة إليهم، سترين. نحن بعيدون جداً عنهم، وما نمارسه هنا في الشمال لا يعادل عندهم طنين ذبابة. الأمراء يرسلون بناتهم إليهم زوجات، ويعدون أنفسهم سعداء إن أدخلوهن إلى حريمهم. لا حاجة لسادة النيل إلى أن يخطبوا بناتنا هنا في الشمال. ما الذي جال في ذهني آنذاك؟ لماذا اعتبرتُ ابنتي أنا استثناءً؟ لكنها أبداً لن تكون زوجة في حريم هذا المخادع.. أبداً، ما دمت حياً، ولو تسبب ذلك في حرب!».

شعرت إيست بنفسها عاجزة. يأس إيداندا انتقل إليها، ولم تعد تعرف ما عليها أن تقول، لتواسيه وتهدئه. كان الأمر بالغ القسوة. ها قد تدفّق الماء في طواحين الملكة بلتوم، كم ستطرب للخبر وتشمت، ولا سيّما أخوها تيرو. لا شك في أنه سيبذل قصارى جهده مجدداً لبيع كيا لراعي الغنم عبدي عشيرتا.

«علينا أن نحاول لملمة الموضوع ما أمكن يا عزيزي، ألستَ من رأيي أيضاً؟ ألا يسعنا أن نغفر لكيا علاقة حب عابرة؟».

«إيست، ما هذا الكلام؟ لن تقبل كيا بذلك مطلقاً. لقد كانت جدية تماماً في كل ما واجهته، وأنتِ خير من يعرف ذلك. ومن يعرفها كان يرى أنها مغرمة بهذا المشعوذ».

«إيداندا!». قالت إيست وقد ازورّت عنه قليلاً. نادراً ما عارضته في الرأي، لكنها شعرت الآن بضرورة مواجهة هذا التجني: «إيداندا، إنك تأثم بهذا الكلام. وأظن أن يأسك هو السبب. لذلك سأغفر لك. أرجوك، دعنا لا نتشاجر حول الموضوع. احترم إيماني، كسابق عهدك دائماً. أمونحوتب ليس دجالاً، إذا كان هذا ما تعنيه. الحقيقة متغلغلة في روحه. إنه واعٍ برسالته، وهو سيجلب الخلاص للبشر وللشعوب!».

«وهل سيسألهم ما إذا كانوا يبغون ذلك؟». سألها إيداندا بمرارة.

«ما هذا الكلام؟ وهل الناس العاديون بصورة عامة، قادرون على إدراك ما فيه

خلاصهم حقاً؟». ثم لطّفت لهجتها وتابعت: «لكن، ليس هذا موضوعنا الآن. قل لي، متى ستكلم كيا؟».

«فكّرت، أنه من الأفضل قبل ذلك، أن أستدعي شالا إلي».

«من غيرنا يعرف الخبر الجديد؟».

«الساعي أتى إلي مباشرة. لكنه يمكن أن يتحدث بالأمر إلى كثيرين: أكيزي، لووايا، أوبيا، وربما تيرو أيضاً. ويُحتمل أنه قد تحدث إليهم، فما يخبرهم به عن لسان ريب عدّي ليس سراً. وخبر كهذا سرعان ما ينتشر».

«ألا يفضل إذاً أن نسرع ما أمكن في إخبار كيا؟ سيكون مريعاً أن تدري من جهة ثالثة».

«أرسلي أنتِ في طلبها. حالياً لا طاقة لي على ذلك. حاولي أن تكلميها من امرأة لامرأة. أنت أكثر قدرة مني على حبْكِ قصة ما حدث، أو إيراد مسوغات لزواجه السريع. هل تعرفين هذه الفتاة نفرتيتي؟».

هزت إيست رأسها نفياً.

«وأباها؟».

«نعم، لكن ما أتذكره عنه وعن أسرته قليل جداً. ولكن هناك صلة قرابة بينهما. أكثر من هذا، لا أعرف للأسف».

«لعل الأمر كله حلقة في سلسلة زيجات الأسرة المتعارف عليها في مصر: الأخ يتزوج الأخت، العم ابنة أخيه، العمة ابن أخيها وإلى آخر ما هنالك، من أجل تماسك الأسرة المالكة وضبطها. وفي هذه الحال لن تحتاج نفرتيتي سوى إلى تملّقه كما ينبغي، ولا سيّما أن هذا الخرع على أتم الاستعداد لذلك، وهذا بادٍ على وجهه بجلاء. ثم تأتي وعودها بأشياء أخرى، وقد تعِدُه بكيا نفسها، فتكون بذلك قد أطبقت عليه. ومن يدري إنْ لم يكن هناك طفل على الطريق!».

أخذت شكوك الملك تتزايد، فقال: «خففي الأمر على صغيرتي ما أمكن، أرجوك. أنا سأنسحب، فعذراً يا عزيزتي. أنا بحاجة إلى السكينة لبعض الوقت!».

قبّل إيداندا يدي إيست وخديها وغادر الغرفة منكسراً بخطاً ثقيلة. بقيت إيست جالسة طوال دقائق وهي تنظر إلى النهار المشمس من أيام أواخر الربيع. كالعاصفة أطبق عليها خبر الملك، وهيمن فجأة سكون منذِر. لا بدّ من أن تثوب إلى نفسها أولاً. ربما كانت فكرة الملك باستدعاء شالا أولاً، صائبة. إنها الشخص الوحيد القادر على إنهاض كيا

مجدداً. هل تستدعي كيا إليها؟ الأمر مستعجل. قررت إيست إرسال المربّية إلى بيت الربة لاستدعاء كيا.

عندما دخلت كيا الفناء، همدت الأحاديث. نظرت مستغربة في وجوه الجالسين وانحنت محيية. لم ينهض سوى إهلي نيكالو، وإن متثاقلة، فقد استدار جسمها مثل كرة، ولم يعد يوم الولادة بعيداً. وفيما هي في طريقها إلى كيا، ابتدرت الملكة بلتوم من كرسيها الكلام، من دون أن ترد التحية، وكان صوتها بحلاوة العسل: «موضوع عرش مصر لم ينجح، ها! مدللة أبيها لم تكفِ، يا للأسف. ولكن ماذا بوسع المرء أن يقول بعد؟».

لم تسمع كيا سوى السخرية الجارحة التي صبّتها عليها الملكة بلتوم، لكنها لم تستوعب مضمون كلامها الذي جعل إهلي نيكالو تتوقف في مكانها من هول ما سمعت. وعندما تمايلت هرعت إليها كيا لتسندها، فقالت ودموعها تسيل على خديها: «أنا آسفة من أعماق قلبي يا أختي!».

اعتدلت كيا في وقفتها. دهمها حافز أن تهاجم الملكة بالكلمات أو بالأيدي أو بكليهما معاً، هذه الشخصية الوقحة الحقيرة! فلتصِبْها الربة بالجذام أو الطاعون! لكنها تمالكت نفسها. لا، إنها لن تمن عليها بهذا النصر. لقد تبدت تربية بيت الربة جلية في سلوكها: إنها مسيطرة على نفسها. وبكل استرخاء خارجي، بل حتى بجلال، قالت ببرود وهي ثابتة النظر في عيني الملكة: «عرش مصر؟.. هذا لمن يطلبه. ما يهمني أنا شخصياً أفضل منه!».

شحب وجه الملكة. لم يجرؤ أحد على مخاطبتها بهذه اللهجة المتمردة. يا لها من وحش متنمر. هذه ليست فتاة صغيرة تتطاول على غيرها، بل صبية ناضجة وواثقة من نفسها تقابلها كعدوة. تصاعد غضب بلتوم إلى ذروته، فصاحت: «كيا!».

لكن كيا كانت قد صارت على الدرج صاعدة إلى الطابق العلوي، من دون أن تمنح بقية الموجودين حتى التفاتة. صعدت مرفوعة الرأس درجة فدرجة، تتبعها تايا المرتجفة وهي تجر قدميها.

بات معروفاً لها الآن ما ستخبرها أمها به. ولكن يبدو أن القصر كله على علم بالأمر، وسرعان ما سيصل الخبر إلى بيت الربة وإلى أعيان قطنا ووجهائها، الذين كانوا على علم بالمخططات، أو علموا الآن بها. كوّرت كيا قبضتيها. إنها ترفض أن تبدي ضعفاً تجاه أحد. أسرعت في مشيتها لتصل إلى جناح أمها.

**

إذاً، لقد جعل من امرأة أخرى زوجة له. لقد تصورت كيا جميع الاحتمالات الممكنة، سوى هذا، فإنه لم يخطر في بالها. علماً بأنه حلٌ في متناول اليد. فبصفته ولي عهد مصر يجوز له ذلك. وها هم جميعهم يركضون وراء المصريين ويعرضون عليهم أميراتهم بإلحاح. لكنها لن تعرض نفسها عليه، بل تفضل الهروب على ذلك. بدأ الأمر مع تلك الشكوك والاتهامات. ولا يمكنها أن تربط نفسها برجل كهذا. يا له من وغد! انفجرت كيا باكية، انهمرت دموعها رثاءً لحالها، وانتحبت غضباً، إلى أن جفت مآقيها. وعندئذ هدأت قليلاً.

وقع نظرها على صندوقها الذي يحتوي المصوغات التي أهداها إياها. ذاك الكلب! لقد دفع لها كما يدفع لعاهراته، وهي لم تنتبه للأمر مطلقاً.

ولكن لا. هذا غير معقول. كان على قناعة تامة بأنها مرسلة لها. أليس هو مَن كتب هذه السطور الرائعة؟ وقال إنها هي التي ألهمته إياها؟ أكانت هذه كلها أكاذيب؟ حتى أمها كانت مقتنعة بأن ثمة أمراً آخر وراء هذا القرار.

لا بدّ لها من الخروج من هذا الضيق، من بيت الربة، والأفضل من المدينة كلها. كم تشتاق إلى مكانها الحبيب على النهر، مكانها الصغير المعزول. نهضت من سريرها، تناولت وشاحاً وغادرت المخدع، آملة أن لا تلتقي أحداً. عند البوابة سُئلت إن كانت تحتاج لمن يرافقها كالعادة. هزت رأسها نافية، وخرجت بسرعة إلى الطريق، خيفة أن يبقوها في المعبد. لا بدّ لها من الوصول حتى القصر. مغادرة المدينة غير واردة الآن، فهي معروفة، ولا يليق أن تتجول وحدها. ولكن لا بدّ من وجود معتزل تلجأ إليه حاملة كل هذا الألم. في قيظ الظهيرة كانت الحركة في الطريق خفيفة. وصلت إلى الباب الصغير في نهاية سور القصر، وجدته مفتوحاً. رفعت الحجاب عن وجهها ورأسها وأخذت نفساً عميقاً. كالمرة السابقة أسرعت صاعدة الدرجات التي لا نهاية لها. تمكنت وحدها من فتح الباب الأرضي الثقيل. وتدريجياً أخذ خفقان قلبها يهدأ.

على مسافة قريبة منها رأت هيكل السقف فوق القاعة الكبيرة. هناك تعاهدا، وقبل فترة ليست بعيدة. ألم يمجدا معاً هناك رب الشمس؟ اليوم لم يكن هناك سلالم على جدران الهيكل. اليوم كانت وحيدة ومهجورة. مهجورة من قبل حبيبها.

وإذا كان مسحوراً؟ لربما أتى على ذكرها عند وصوله مصر مباشرة، فرمى أحدهم بسحره عليه. أحد معارضي هذا الارتباط. ملكة مصر نفسها، أو تلك التي تزوجته الآن.

أهي أجمل منها يا ترى؟ ما هذا الاسم! نُفْرِتيتي.. الجميلة قادمة. أهكذا يدعونها؟ أمونحوتب لقَّبها يا جميلتي مرات لا تحصى. هل أصابه العمى؟ أيظن أنها عنده هناك؟ لا، إنها لم تأت بعد. هناك أخرى بين ذراعيه. أهي مثيرة يا ترى؟ لا شك في أنها قد استخدمت جميع الحيل الممكنة، لتستأثر بانتباهه، فوقع في أحابيلها. ومن دون التعاويذ الصحيحة لا يمكن تخليصه من الشياطين. يجب أن نسرع إليه لتنقذه. ولكن كيف؟ إنها مقيدة هنا. يستحيل أن تركب عربة وتقول للحوذي: إلى طيبة! لا بدّ من أن تتنكر وتسافر كرجل. هذا غير وارد، فهي أميرة قطنا. لا، ثم لا. لن تركض وراءه. لولاه لما تعرضت لإهانة الملكة، أمام كل تلك النسوة. يا للعار!

صارت الشمس في الأفق الغربي. نهضت كيا واقفة. أحست بنفسها متيبسة. تمطّت ومشت بضع خطوات. هنا في الأعلى، لن يبحث عنها أحد. يا له من إحساس مريح. اتكأت بجسمها على الجدار الغربي الذي تشرَّب دفء الشمس، ثم استلقت على ظهرها تاركة أشعة الشمس تتغلغل فيها وأخذت تتنفس بعمق.

عندما استيقظت ثانية كان الوقت ليلاً تقريباً. نامت بلا أحلام وشعرت ببعض التحسن. كانت مناديل دموعها قد جفت. من جهة البحر تهب ريح خفيفة. نهضت واقفة وهي ترتعش برداً. منذ ساعات لم تأكل أو تشرب شيئاً. ولكن هناك لا يوجد ماء، إذاً عليها أن تنزل، رغم أنها لا تريد مغادرة هذا المكان المسالم، ليس بعد. ركزت كي تقهر شعورها بالعطش. في السماء ظهرت أوائل النجوم، ونجمة الزهراء كانت تضيء بقوة. تكوّرت كيا على الأرض عند الجدار وأخذت تحدق في قبة السماء. أليست هي المسؤولة عن هذا الانهيار؟ كان يجب عليها أن تستجيب لأمونحوتب، فهو رب تقريباً. كان عليها، كما أمها، أن ترتمي عند قدميه وأن تغمره حباً وتبجيلاً وحمداً. ولكن لا، كان لا بدّ أن تُظهر اعتزازها بنفسها، وأن ترد على اتهاماته، وأن تفوقه معرفةً. أي رجل سيقبل بهذا؟

فجأة خطر تالزو في بالها. لقد تحمّل بعض المجادلات معها، ورغم معاملتها الزرية له أكثر من مرة، لم يتخلّ عن إظهار الاحترام لها. لكنها تتذكر مرة وحيدة أبدى فيها حزنه من غطرستها، وقد شعرت بعدها بخجل شديد. لكنها كانت لا تزال طفلة تقريباً، وكان محقاً في تأنيبه لها، ابن التاجر! على الرغم من يأسها وغضبها وجدت نفسها تبتسم. لكنها شتمته وبسخاء. كم كانت إوزة غبية. لم يكن يستحق ذلك أبداً. رغم كل التدريب الذي خاضته في بيت الربة، فإنها لم تتعلم شيئاً: إنها لا تزال كسابق عهدها متغطرسة، معتدّة بنفسها ومتكبّرة. نهضت واقفة ومشت بضع خطوات في الظلام.

ما أقوم به هنا لا يعدو أن يكونَ تمزيقاً للذات، فكّرت كيا. الأجدى، بل من الضرورة بمكان أن أكون واثقة من نفسي، إذ لا بدّ للناس أن يعرفوا مع مَن يتعاملون: مع ابنة الملك. بدا الأمر غريباً، وحدها على السطح العالي وفي الليل. يستحسن أن تنزل وتعود بهدوء. تحركت بحذر نحو الباب الأرضي، وتلمست جوانبه. تحتها ثمة هوة عميقة تتثاءب وتنتظر نزولها فيها، مثل نفق إلى العالم السفلي. لقد أطالت الانتظار.

هل أطالت الانتظار أيضاً بشأن أمونحوتب؟ ألم يكن حبها له خطأ؟ لقد كان أجبن من أن يرسل إليها خبراً صغيراً. أم أن عدم مبالاته بها قد وصل به إلى حد عدم التفكير بالأمر؟ طيب، تجاه والدها كحد أدنى! فهو ملك وليس تابعاً لمصر. يا لهذا البلد المتغطرس! سيعاقبه الأرباب كما فعلوا في بعض الأحايين. في حالات اليأس منه كانوا ينتزعون السلطة من السلالة الحاكمة ويسلطون عليه غزاة أجانب ليحتلوه، أو يبلوه بالمجاعة بعد غياب فيضان النيل. ثار غضبها مجدداً فأحست بكراهية ورغبة بالانتقام، إلى أن تقززت من نفسها وهي خادمة الربة. لماذا تفلتُ العنان لنفسها على هذا النحو؟ كانت السماء فوقها صافية ومليئة بالنجوم، مما ساعدها لبرهة في طرد الأفكار السيئة من رأسها. ارتجفت برداً. نزلت الدرجات مترددة وببطء. إنْ أغلقت الباب الأرضي فوقها فسيتسبب ذلك في ضجة تلفت الأسماع إليها، إضافة إلى أنها ستبقى أسيرة ظلمة الهاوية. تصاعد خوفها. كانت وحيدة مع الظلال الزائلة. سمعت أصوات طقطقة ودبيب خطوات ثم أنيناً من أحد الأركان، وأخذت الأصوات تتزايد في أذنيها، فتكورت ما أمكنها على إحدى الدرجات، وبدت لنفسها ضئيلة ومسكينة تثير الشفقة.

وماذا إنْ كانت هذه مشيئة الربة؟ جلست كيا في العتمة، وتذكرت فجأة حلمها الذي رأت فيه أمونحوتب بعد دخوله قطنا بمدة قصيرة، وبسرعة البرق عادت إلى ذاكرتها الرؤية المفزعة. الربة إذاً لم تشأ تحقق هذه الرابطة بينهما. لو ارتبط بها الأمير لمات. هذا ما أراد الحلم أن يقوله لها. ولهذا منعته بيليت إكاليم من الاقتراب منها أكثر، فقد اختارتها الربة لها. أيعقل أن كيا كانت عمياء وصماء إلى هذا الحد؟ لهذا كان غضب الربة يزداد في كل مرة تساير فيها كيا تصورات أمونحوتب، كما عندما تحدث عن أنهما كليهما سيصيران كاهني رع الوحيدين. ألم تحجب عنها الربة القدرة على الرؤية والحلم طوال الأسابيع والشهور الماضية لتعاقبها ولتعيد إرشادها إلى الطريق الصحيح؟ بثّت هذه الأفكار قوة في نفسها وانتزعتها من آلامها. ألم تحسم أمرها منذ مدة طويلة بأن تخدم الربة إلى الأبد؟

ثمة سؤال ما زال يعذبها. لماذا سمحت لها بيليت إكاليم بالتقرب من الأمير إلى ذاك

الحد؟ هل أرادت أن تختبر صمودها؟ أم أنه كان على أمونحوتب أن يريها شيئاً، لطالما كان يتحرك في قلبها منذ مدة طويلة؟ فكرة، ما كان ليسمح أمونحوتب بأن تتملكها. هل أرادت الربة أن توصلها عبره، إلى أن فكرة الوحدانية صحيحة، ولكن ليس وحدانية ربٍ، وإنما ربة؟ لقد وجدت الحل!

على سطح القصر، في أعماق الليل، قررت كيا بعد كل سخطها وحسرتها، أن تطلب من شالالا إخضاعها لطقوس تطهير قاسية، كي تعود إلى حضن الربة نقية، ولتخدمها في المستقبل وحدها، وبكل طاقتها. هذه هي مهمّة حياتها. وبهذه الثقة المطَمئنة غفت كيا في جلستها غير المريحة. عند الفجر عادت بمشية متصبة إلى بيت الربة، دون أن تولي اهتماماً للحرس.

**

خطوة فخطوة نجح الحثيون في السيطرة على معظم الهضاب والجبال المحيطة. لم يكن في الأمر أية بطولة، فكل هذه المواقع كان يحرسها نساء وأولاد. غير أنهم بهذا العمل تمكنوا من شد الحزام حول السهل الذي كانوا قد نقلوا معسكرهم إليه. وصل جيشهم في الجنوب الغربي إلى مراسنتا. والكشكيون ما زالوا يقاومون صامدين، رافضين أي عروض اتفاقيات. وملكهم پيهونيا لم يره أحد من الحثّيين، لكن رسله استمروا في نقل رسائله الساخرة إلى شوپيلوليوما. كان الوضع يستنزف قوى الجيش، الذي هبطت معنوياته بالتدريج، ولا سيّما أنه لم يتوقع أي دعم من حتّوشا، بل العكس هو ما جرى، إذ وصلت إلى الملك ذات يوم رسالة تطلب منه الإسراع بأقصى ما يمكن لدعم القوات المقاتلة على حدود أرزاوا. لكن الانسحاب كان مستحيلاً دون إحراز نصر حاسم. بات الوضع بالغ التعقيد، مما أدى إلى زجّ الجميع في المعركة، وبضمنهم ذوو الإصابات الخفيفة، كما صدر أمر بعدم أخذ أسرى، بل قتلهم فوراً.

أخيراً قررت القيادة ضرب حصار حول نيريكا قبل أن تصلها إمدادات كشكية جديدة، مما أدى إلى ازدحام لا يحتمل داخل المدينة. وقدمت للأرباب الأضاحي تلو الأخرى. ما بالهم لا يمنحون النصر لحتّوشا؟ صحيح أن تفوق العدو قد كُسر، لكنه ما زال صامداً. انتشر التذمر في صفوف الحثّيين، ووصل حتى إلى أذني تانوا. كره الجنود حالة العطالة والانتظار من دون وسائل حصار فعالة. فأخذوا يمضون الوقت بمحاولات سحرية لشل

قوة العدو القتالية، منها أن ألبسوا تمثال إله حرب كشكيٍّ غنموه في المعركة، زينةً نسائية. استبدلوا بكلمات نشيدٍ لزبابا كلمات توحي بالسخرية، وأخذوا يغنّونها بأصوات كظيمة:

«جلبن معهن المغازل،
عوضاً عن الحراب.
جلبن معهن أدوات الزينة،
عوضاً عن الهراوات..»!.

إلى ما لا نهاية له من الأبيات المشابهة، لكن ذلك كله لم يفدهم شيئاً. ثم وصل البريد الجديد من القائد هيموبلي على حدود أرزاوا، يطلب فيها دعماً مستعجلاً كي لا تضيع انتصارات العام الفائت هباء. لذلك وعلى الرغم من العار، رفع الحتيون الحصار عن نريكا خلال أيام معدودة وانسحبوا إلى المعسكر القريب من المخاضة. وأخيراً نجحت هذه الحركة على رقعة المعركة. فالكشكيون المحررون من ضيق الحصار خرجوا من المدينة. وفي الليل انقضّ الحتيون عليهم، ففقَدَ عدد لا يحصى من الكشكيين حيواتهم. ومع انبلاج الفجر تبيّن أن السهل بات مغطى كله بالقتلى أو الموشكين على الموت. ومن كل مكان كانت تفوح روائح الدم والعرق والفضلات، وكانت صيحات الجرحى وتأوهاتهم تُكتم بطعنات الرحمة، ولم يعد يسمع أخيراً سوى خنفرة الجياد.

طوال الحملة شارك تانوا بحماسة في المشاورات والمناقشات التكتيكية بين قادة القوات، وكان يلحّ خلالها على تقديم عروض تفاوض، غير أنه مع عودة كل رسول كان يضطر إلى الاعتراف بأن الأعداء لن يوقفوا القتال، وبأنه حقاً لم يبقَ أمام الحتّيين من خيار آخر سوى متابعة القتال. ولكن هذا الانقضاض الليلي، هل كان يليق بملك حتّوشا العظيم؟ أهذا هو النصر الباهر الذي منحه الأرباب للحتيين؟

فكر تانوا بالمعارك الأولى، حينما كانت المواجهات رجلاً لرجل. عندها كان هناك للمقاتل كحد أدنى فرصة ما للنجاة، علماً بأن الذبح المتبادل من الطرفين كان يروّع تانوا. حاول أن يفتح الموضوع مع مورسيلي وميتا، لكنهما كانا مأخوذين بنشوة القتال. لم يسبق منذ سنوات أن كان الهدف بمتناول اليد، كالآن. نريكا! لا بدّ أن تعود حتية. سيدخلونها منتصرين، ليتابعوا زحفهم من هناك إلى زالبا على البحر الأسود في الشمال، وبذلك ستستعيد المملكة عظمتها تحت لواء الملك المظفر المجيد شوبيلوليوما. أدرك تانوا أنهما غير مستعدين الآن لمناقشة هذا الموضوع. وعلى الرغم منه أصابته حماستهم بالعدوى.

ثم جاء يومٌ في خضم المعركة، قفز فيه هنوتي من عربته القتالية لينجد بعض المشاة. كان تانوا يراقب المشهد واقفاً في مكان مرتفع نسبياً وغير بعيد، لكنه ليس في المعمعة. رأى عدداً كبيراً من الكشكيين يضيقون الخناق على هنوتي من عدّة جهات، ثم انتبه إلى رامي سهام كشكي يتناول سهماً من جعبته ويسدّد ليقتل هنوتي. من دون أدنى تردد رفع تانوا قوسه ورمى الكشكيّ بسهم قاتل قبل أن يُفلت ذاك وتر قوسه. هكذا إذاً، ينهي الإنسان حياة إنسان آخر، بكل بساطة. لم يستطع إطالة التفكير في الأمر، فقد انتبه الكشكيون إليه. لكنه لاحقاً، بينه وبين نفسه، اعترف بأن ما دفعه حينها إلى رمي الكشكيين بسهام متتالية لم يكن خوفه على نفسه ولا قلقه على هنوتي، بل شعور جامح بالقوة غمره فجأة، وجعله يصوّب ويطلق، من دون أن يخيب أي سهم هدفه، وتساقط الكشكيون، حتى بعدما سيطر هنوتي على الوضع. ولولا انتهاء السهام من جعبته لما توقف. وكان في ذروة النشوة عندما رفعه هنوتي إلى عربته وأوصله إلى المعسكر.

وكلما استعاد المشهد في ذاكرته كان يفرح لبقاء هنوتي حياً. وفي حلقة الأصدقاء قال خاله إنه مدين له بحياته، فطرق الأصدقاء أسلحتهم ببعضها معاً اعترافاً بفضله، فيما أحس هو بخجل شديد، لكونه قد أصبح هو أيضاً مجرد قاتل. أين كانت مبادئه النبيلة وقناعاته؟ امّحت وكأنه قد أكثر من شرب الجعة أو النبيذ. قدم اعتذاره للقتلى وابتهل إلى الأرباب، وخاصة زبابا، أن يحفظوا عليه حياته في المستقبل، ولا سيّما أنه بات عارفاً بأزمة القتال. في ظروف معينة سيُقْدم أيٌّ كان على القتل. وفي حالته، فإنه فقط لتمتّعه بميزة الانتماء إلى الإدارة الملكية، تمكّن من إبعاد نفسه عنه، غالباً على الأقل. وهذا ليس بفضله، بل بالتفضل عليه. وما دام القتال شريفاً، فلا يجوز له أن يلوم أي جندي. ولكن أن يُذبح الأعداء ليلاً؟ أهي إرادة الأرباب؟ أيكفي الانتصار لنسيان ذلك؟ لكنه بات يعرف الآن أنه لا يحق له إدانة العملية. ولم يعد بوسعه سوى بذل كل جهوده، حيثما أمكن ذلك، لتجنّب وقوع صدامات عسكرية.

بعد المذبحة الليلية استسلم الكشكيون، ربما لعلمهم بمرور الوقت أن بقية القبائل الكشكية في الشمال الشرقي والشمال الغربي لا تقاتل، بل أبرمت اتفاقيات مع حتّوشا. أرسل الملك پيهونيا وفداً عرَض الاستسلام والتمسَ البدء في مفاوضات سلام، فلاقى قبولاً. ومن أجل ذلك نُصبت خيمة فخمة في حقل مكشوف، وظهر الملك شوپيلوليوما بكامل زينته لاستقبال المهزومين. كان الملك پيهونيا رجلاً متقدماً في السن، وقوراً، مرفوع الرأس، ذا نظرات صريحة، ثبّتها على الملك شوپيلوليوما من دون أن يرف له

جفن طوال مدة تقديم تحيات الاستسلام العسكرية من طرف زعماء القبائل الكشكية أمام الملك الشمس. وكانت بنود الاتفاقية قد حُضِّرت بعناية وبصورة غير مجحفة: بقي معظم الأراضي الزراعية والرعوية في تصرف رابطة القبائل الكشكية بقيادة بيهونيا. تعود نريكا والأراضي الأخرى إلى الحثّيين شكلياً، مع حق بقاء الكشكيين القاطنين والعاملين فيها على حالهم السابق، بشرط الابتعاد عن المعابد. كما ثُبِّت مبلغ الضريبة السنوية والمواد العينية، إضافة إلى الالتزام بتقديم المساعدة العسكرية. وقد سمَّى الملك تانوا مترجماً ومفاوضاً. فكانت هذه عمليته المهمّة الأولى تحت أنظار الملك العظيم وأسماعه. ومثلما فعل يومذاك على الطريق من بورروشْخَندا إلى حتّوشا، طلب تقديم خبز وملح للقادة الكشكيين. ورأى الدهشة في أعينهم عندما خاطبهم باحترام وحيّاهم بلغتهم. من الجليّ أنه قد التقط الخيط المناسب. أنصتوا إليه بهدوء وهو يعرض بنود الاتفاقية، وهزّوا رؤوسهم موافقين بعد كل بند، ثم أقسموا بأربابهم وبأرباب الحثّيين على التقيد بالاتفاقية. وشوبيلوليوما بصفته السيد الآمر الأعلى عسكرياً أقسم برب طقس حتّوشا، وبصنمَي الحماية في كارزي وهَبانْتالي، وبزَبابا، وبربة العرش وصنمها الملكي، وبصنم المحفوظات الملكية من الرُّقم، بأن الكشكيين، في حال نقضهم الاتفاقية، يُعتبرون ملعونين من جميع هؤلاء الأرباب وأصنامهم. كان اللابارنا الجبار واقفاً هناك في الخيمة وكأنه رب، وقال: «إذا خرقتم أي بند من الاتفاقية، أو جئتم لغزو أراضي حتّوشا، فليقلب زبابا أسلحتكم إلى نحوركم لتمزّق لحمكم، وليقلب اتجاه سهامكم لتخترق قلوبكم!».

**

رغم الاتفاق على عدم التطرق إلى موضوع أمونحوتب وكيا، كان لا بدّ من التحدث في مستقبل العلاقة مع مصر. ضغط الملك في مجلس الأعيان باتجاه اتخاذ قرار حاسم. وإضافة إلى عدم وفاء مصر عامة بوعودها وعدم اهتمامها الواضح بالمنطقة، طرح الملك مشكلة ميتاني العسيرة على طاولة النقاش، قائلاً: «عاجلاً أم آجلاً سنعرف مَن الذي سيمسك بزمام السلطة، الملك توشراتا، أم منافسه أرتاتما. أنا لا أفهم كيف يفجّران الصراع على العرش، وهما يريان أن الحثّيين وراء الباب». فأضاف أوبيّا: «يفترض أن يكون واضحاً لكليهما أنهما لا يجازفان بوجود ميتاني فحسب، بل يجرّاننا جميعنا إلى حيز الخطر. والسبب في ذلك كله هو تعطّش أرتاتما للسلطة!». وأخذ يهزّ برأسه.

«أو إخفاق توشراتا في إدارة دفة الحكم. حتى رجاله يتخلّون عنه»، قال لورايا، فأضاف أكالينا: «ولكن بغض النظر الآن عمّن هو المذنب، هذا الصراع الداخلي يضعف البلد على نحو خطير، ويفتح شهية الصقور، للهجوم من الغرب والشرق، وحتى من الشمال. وعلينا نحن أن نعتبر الأمر نذيراً لنا».

«تماماً. هذا هو رأيي أيضاً. ولا منقذ لنا من مثل هذا المصير سوى اتحاد سوريا وتكاتف صفوفها»، قال تيرو، فأجابه أكالينا بسرعة: «ولكن يا عزيزي تيرو، أنا لم أتطرق إلى هذا الموضوع، بل أردتُ التنبيه إلى أنه علينا التصرف بشكل لا يثير الغبار من حولنا ما أمكن». فعلّق إيداندا: «أو أن نعقد الأحلاف المناسبة. علينا أن نستند إلى القوة المناسبة، هذا وحده هو ما يمكن أن ينقذنا».

«وما اسم هذه القوة يا صهري؟ طبعاً ليس مصر، بعد أن رفضوا هناك دلوعتك الحلوة. أنت ستودي بقطنا إلى التهلكة، لمجرد أن كبرياءك قد جُرحت، ولأن العار والشَّنار قد أُلحقا بابنتك كيا! هذه هي الحقيقة! أنتَ لا تفكر إلا بنفسك، لا بخير البلد!».

شحب إيداندا، لكنه لم يحرْ بأي جواب.

«تيرو، أنت مخطئ، وليس في لهجتك فحسب!». أجابه أوپيا بقسوة وأردف: «مَن هنا سيودي بقطنا إلى التهلكة؟ ليس سواك حتماً، فسلوكك يضرّ بالمدينة وبمصالحها. أنت تريد أن تبيعنا لأمورو. بماذا وعدوك لقاء ذلك؟ بحكم المدينة؟».

انتفض تيرو واقفاً، وظهر كأنه سيهجم على أوپيا. لكنه ضبط نفسه، عندما رأى أن بقية الأعضاء قد نهضوا جميعهم. قال بعد لحظات: «أنتم تريدون إساءة فهمي. وهذا جليّ جداً. فبدلاً من أن نقرر معاً، أن نتصرف حسبما يمليه العقل، أراكم تتكالبون على مناصبكم لا تريدون التخلي عن شيء، ولا التبعية لأحد، بل تفضلون شراء حماية قوة عظمى بأموالكم!».

«أن ندفع ضريبة لقاء حمايتنا أفضل من مهاجمة القوافل ونهبها مثل اللصوص الأشقياء»، قال إيداندا وهو ينظر إلى تيرو باستفزاز.

«لقد طفح الكيل. لن تجرؤوا على اتهامي بذلك! أنا سأجعلكم تدفعون ثمن ذلك!».

رفع أوپيا صوته، بصفته رئيس المجلس، وقال: «اهدأا واجلسا! هذه تهمة كبيرة بحق تيرو. ألديك دليل يبررها يا إيداندا بن أولاشودا؟ ألديك شهود وقرائن؟».

نفى الملك ذلك. إن ملاحظة تالزو ومعلومات الشيخ إيدريمي ليست كافية لمواجهة

تيرو في المجلس. ما الذي دفعه أساساً إلى ذكر الموضوع؟ انزعج إيداندا من نفسه. ما هذا الغباء؟ ها هو ذا ينبّه الأشقياء إلى شكّه بهم. أين رزانته المعهودة ورجاحة عقله وتبصّره؟

«من واجبك إذاً أن تعتذر من سِلْفِك. وإلا فإنك تشوّه سمعته، وله الحق في مقاضاتك!».

«أما هو فيحق له ببساطة أن يهينني وعائلتي؟». علّق إيداندا بقسوة.

«يكفيكما هذا! نحن لا نناقش هنا مشاكلكما الخاصة، بل نتداول بشأن مستقبل قطنا. يجب أن نقرر ماذا سنفعل. هذا هو واجبنا الآن!».

تدخل كوزيا بن أكابا في النقاش قائلاً: «نعم أيها السادة، لووايا محق في ما ذهب إليه تماماً. أعتقد أننا قد فعلنا حسناً حتى الآن بسلوكنا الحيادي تجاه مصر، وتجاه ميتاني أيضاً. ولكن في حال اضطررنا لاتخاذ موقف، فنصيحتي التي لا محيد عنها هي أن نضع أنفسنا تحت حماية أمينوفيس. فمصر موجودة في كل مكان على الساحل السوري، وهناك مصاهرة بينها وبين بابل، ومصاهرة وحلف مع ميتاني. لا يجوز بأي حال من الأحوال أن نلتفت إلى حتّوشا. وإذا حدث، بعكس ما هو متوقع، أن تنتصر حتّوشا على ميتاني وتحاول ضمّها إليها، عندئذٍ من واجب مصر أن تتدخل بصفتها حليفتها. أنا لا أتوقع أن تتخلى مصر عن مصالحها في المنطقة وتشتري الأرز في المستقبل من الحتّيين».

سُمعت من عدّة زوايا أصواتاً تقول: «معك حق!».

أما غابوللبين شِنّا فقال: «علينا ألا ننسى أن آشور أيضاً ستحاول التدخل مطالبة بنصيب من القسمة. وهذا كله سيجري من دون أن يمسّنا مطلقاً، بشرط أن نبقى إلى جانب مصر».

هزّ معظم الأعضاء برؤوسهم موافقين. وهكذا انفضّ اجتماع المجلس.

انسحب إيداندا إلى معتزله. لقد أجهده اجتماع المجلس إلى حد كبير، وبات بحاجة إلى الراحة. لكن رأسه لم يتوقف لحظة عن العمل. إذاً ليس أكيزي وحده، بل تقريباً معظم أعضاء مجلس الأعيان يقفون ضده. ربما ما زال أوبيا وأكالينا إلى جانبه، رغم عدم يقينه من مشاطرتهما رأيه في أن حتّوشا هي القوة المستقبلية في شمال سوريا، علماً بأنه يرى الأمر بكل جلاء. ألم يتوصل شوبيلوليوما إلى جعل المنطقة كلها تضطرب بمجرد التهديد بسلاحه العجيب؟ وماذا عن المفاوضات مع آشور؟ من يدري ما قد يفعله أيضاً: حلف مع بابل، صلح مع مصر، وماذا بعد؟ لا، سيكون عليه التصرف بمفرده ثانية. وسيأتي يوم

يشكرونه فيه على تبصّره الذكي! أما اليوم فإن أعيان المجلس لم يفهموا قصده. لذلك عليه لاحقاً أن يهتم بمشكلة تيرو. وعندئذ لا بدّ من الحذر الشديد. في واقع الأمر لا بدّ من وضعه تحت رقابة دائمة. مشاكل، هموم، مشاكل حيثما التفت، حالٌ تدعو لليأس. ولكن لو أنه لا يشعر بهذا الوهن. ربما كان عليه إرسال أحد إلى دار الشفاء، ليجلب له مسكّناً.

**

«أعرف ذلك من مصدر موثوق!».

«أسماء، أريد أن أسمع أسماء!».

«ما هذا التطاول؟ ألا تصدقني؟».

«يا عزيزي تيرو، لا يمكنني ببساطة أن أثق بكلمتك وحدها، اعذرني يا أميري!». وانحنى الشيخ پوسور انحناءة مبالغاً فيها لتيرو، ثم أضاف بحدة: «أنا أخاطر برأسي!».

«لست وحدك فقط!».

«إذاً أرجوك، من أين أتيت بمعلوماتك؟».

صرف تيرو بأسنانه. لم يشعر بأي إلحاح لكشف المزيد من أموره لشيخ البدو هذا. ولكن لولا مساعدته لما حققوا ما وصلوا إليه حتى الآن. فقال أخيراً: «من الملكة».

صفر البدوي من بين أسنانه ثم قال: «وهل يُعتمد عليها حقاً، أم أنه هذر امرأة تريد أن تمنح نفسها أهمّية؟».

«يا لك من وقح..»، خرج تيرو عن طوره، وخشي مزيداً من الوقاحة.

«لا تخطئ يا أميري!». وضحك البدوي في وجهه وهو يقول: «تعرف جيداً أن خنجري لا يحتمل أي إهانات. فجاوب عن سؤالي لكي أعرف ماذا أقول للملك العظيم عبدي عشيرتا في أمورو».

قرر تيرو ألا يقول المزيد لابن الصحراء النتن هذا. أخبره بالضروري، وهذا يكفي.

«قل له، إن علينا الاجتماع بأسرع ما يمكن، قبل الهلال الجديد، لنتخذ القرارات النهائية. وفي المكان المعتاد نفسه».

«أنا من عليه أن يقطع الطريق الأطول دائماً». دمدم الشيخ پوسور.

«وماذا عن أيتاكما؟».

«حاكم قادش؟ ماذا عنه؟».

«أنت تعرف تماماً ما أعنيه. أهو معنا؟».

«سوف نرى! كن صبوراً يا أميري!».

ضاق تيرو ذرعاً بهذه الوقاحات. لماذا يضطر الإنسان للتعامل مع هذه المخلوقات؟

«اذهب الآن، يوسور، وكن حريصاً! لا أريد المزيد من المشاكل في قطنا بسببك».

«لا تقلق تيرو، يا أميري. فقد يظن المرء أنك تخطط لارتكاب جريمة. حافظ على هدوئك. حافظ على صحتك حتى لقائنا القادم».

انحنى شيخ البدو مجدداً أمام تيرو بصورة مبالغ فيها، وغادر الغرفة السرية الصغيرة وهو يضحك بصخب. عند الباب حجب وجهه وانسل من المخرج الجانبي لدار تيرو واختفى في غبشة الغسق.

كاد تيرو ينفجر غيظاً، فشرب جرعة نبيذ كبيرة، شطف بها حنقه وغضبه. جسارة هذا البدوي كانت استفزازية مغيظة، إلا أنه يؤدي عمله بصورة جيدة، لا شك في ذلك أبداً. كانت مخططاتهم تسير على خير وجه، وكم كان مفيداً أن يساعدهم إيداندا، من حيث لا يدري! سنرى مَن سيضحك أخيراً يا صهري! قريباً ستنسى ما هو الضحك. في صحتك!

لطالما عاود إيداندا التفكير في الغلطة التي ارتكبها قبل أسابيع بحق زوجته. كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد؟ لقد بقي يتجنّبها منذ الشجار معها. إن السخرية التي عاملت بها كيا، أصابته في نخاع العظم. لقد أذلّته بإذلالها كيا. وإذا كان قد أبدى حتى الآن الكثير من التفهم لغيرتها الهوجاء ولوخزاتها المتكررة، فإنها هذه المرة قد تمادت جداً.

كانت إيست مَن وقف إلى جانب منافستها اللدود، فقالت له: «انس إهانتك ما أمكنك. تصالح مع الملكة. ليس في مصلحتك أن تقف ضدك في هذه الأيام العصيبة. وحتى بسبب أكيزي، فلها عليه على الأقل نفوذ معين. وعليك أن تأخذ ذلك بعين الاعتبار».

«آه يا حبيبتي، ماذا كنت لأفعل من دونك؟ لكننا لا نتحدث إلا عني أنا. اعذريني، فأنا لم أسألك بعد عن حالك. لقد لحقت بك الإهانة في نهاية المطاف، لا من طرف عائلتك فحسب، بل من طرف عائلتي أيضاً. وكما أعرفك، أجدك تحتملين كل شيء بتماسك ووقار».

صمتت إيست. لقد رأت كم يعاني الملك، وبدا لها أنه بات عجوزاً في غضون أيام.

وتنامي قلقها من ازدياد شكواه من الوهن وسوء الحال. كانت حتى الآن تعزو الأمر إلى كثرة الأعباء. وها هو ذا يقلق مجدداً بسبب الإضطراب في مجلس الأعيان، إضافة إلى كل ما يدور في الخفاء. أكان ضرورياً يا ترى؟ إنه لأمر خطير، إرسال ساع إلى حتّوشا مجدداً، وليس إلى وسيط هذه المرة، بل إلى اللابارنا مباشرة. تكتّمت على آلامها الذاتية أمام الملك، الذي يجب أن يجد راحته عندها. وتابعت بحثها بلا كلل عن أسباب يمكن أن تبرئ ساحة أمينوفيس وتيِّه وأمونحوتب. ولكن من دون معرفة الدافع أو الحجج التي تسوغ الزواج بنفرتيتي، بقيت غارقة في الحيرة. وما دفعها إلى مشارف الانفجار هو أن لا يرسل إليها أحد من عائلتها توضيحاً لهذا السلوك. لم تبح بهذا كله إلا لأمون رع وهي تبحث عن سلوى لنفسها أمام تمثاله.

بعد الحديث مع إيست أرسل الملك في طلب زوجته بلتوم. وعندما رأى كيف هرعت إليه، حال دخولها الغرفة وطلبت صفحه عما بدر منها، فكر إيداندا بأن إيست محقة كالعادة. عانق بلتوم برهة، وكانت شاكرة له ذلك، وعادت إلى طبيعتها، كما في الأيام الطيبة. حكت في أمور كثيرة من هنا وهناك، لكنه لم يكن منصتاً، لأنه بأفكاره كان في مكان آخر. ولاحقاً لم يعد يتذكر كيف جرى، على نقيض عادته، أن باح لها بهمومه.

أنصتت إليه بلتوم بتهذيب، من دون تعليقات أو تعالُمٍ عُرِف عنها، وهو ما لم يكن يطيقه فيها. تركته على سجيّته. وكان حديثه نوعاً من التفكير بصوت عالٍ، وازن به الأمور وقارنها ببعضها، تابع الفكرة الأولى حتى أشبعت، وانتقل إلى الثانية، وهكذا دواليك. وفي سياق أفكاره ذكر أيضاً أنه قد اتخذ قراره وراسل شوپيلوليوما. وفي تلك اللحظة فقط رفع نظره والتفت إلى بلتوم. رأى وجهها المتحجر، وأدرك للتو أنه قد ارتكب خطأ فادحاً. حاول الإمساك بخيط الحديث مجدداً والتظاهر بأنه لم ينتبه إلى رد فعلها نهائياً. فتحدث عن القوافل والاتفاقات التجارية مع حكام الإمارات المجاورة، وعن الملك توشراتا. لكن الأوان كان قد فات للفت انتباهها عن ذلك الموضوع. لقد وقع المحظور، ولا رادّ له. لم يشأ أن يطلب من زوجته كتمان الأمر، إذ يحتمل أن يوقظ بذلك كلاباً نائمة أخرى. صحيح أنه كان من واجبها دائماً، ألا تُسِرّ لأحد بما يأتمنها الملك عليه، ولكن أليس جائزاً أن تمر بما مر به للتو، فتعيد ما سمعته منه في سياق حديثها مع إحدى أخواتها أو زوجات إخوتها؟ وما أدراه بما يدور من أحاديث بين النساء. أنجدوني يا أرباب! فالمصائب لا تأتي فرادى.

الحياة في القصر وفي بيت الربة وفي المدينة تابعت مسارها المألوف. والقوافل

القادمة من تدمر وجبيل وأوغاريت وصلت إلى قطنا سالمة من دون أن تتعرض لأي طوارئ على الطرقات، وفي الوقت نفسه جُهزت قوافل جديدة وسارت في دروبها. تابع التجار أعمالهم وزاروا شركاءهم، أو دققوا مخزونهم من أخشاب الغابات. وحتى تيرو جهز نفسه لجولته السنوية التي تمتد حتى الساحل، وذلك تحت رقابة (عيون) الملك المرتابة، والتي رفعت تقريراً بذلك إلى الملك وسألت عما إذا كان من الضروري تتبّعه. لكن الملك نفى ذلك. فخطّ جولته معروف، وشركاؤه في التجارة معروفون كفاية، ولا يُشتمّ من جولته رائحة خطر.

لكن قلق إيداندا تفاقم، لعدم وصول أي جواب من حتّوشا. غير أنه كان لا بدّ من الأخذ في الحسبان أن اللابارنا منهمكٌ منذ فترة على إحدى الجبهات. وقد كشف رجال استطلاع ميتانيين عن وجود قوات حثية بجهوزية قتالية في الشمال والغرب. يبدو أن حتّوشا قد أجّلت موضوع ميتاني حتى أواخر الصيف، أو غضّت النظر عنه حتى العام القادم. غير أن ملك ميتاني امتلأ بالقلق، وكأن الجيشين قد اشتبكا فعلياً. وهو من جهته لا يجرؤ على مهاجمة المملكة الحثيّة، لأن منافسه أرتاتما يتربص به وينتظر تغيّبه لينقضّ على العاصمة واشوكاني ويحتلّها.

كان شمال سوريا كله مع ميتاني في حالة توتر، لأن طريق زحف الحثّيين لا يمكن إلا أن يمر عبر كيزواتنا، إلى معبر جبل الأمانوس، فإلى مخاضة الفرات قرب كركَميش، فإلى حرّان مدينة رب القمر المقدسة، أو إلى إرّيته، إحدى مدن ميتاني المهمّة، للوصول أخيراً إلى واشوكاني. وقد يخطر ببال شوبيلوليوما نهب الممالك التابعة لميتاني وتدميرها بغرض إضعاف مملكة توشراتا.

أرسل إيداندا ساعيين إلى ملكي أوغاريت وألالاخ، أي إلى عنوانين غير مريبين. ولعله يحصل منهما على معلومات أفضل. فقد أضناه الانتظار وبات سريع الانفعال، الأمر الذي أحس به أكيزي على نحو خاص. لقد تفاقمت الخلافات بين الأب والابن بدلاً من أن تتراجع، وإيداندا كان يجد دائماً ما ينتقده في ابنه، وترسخ لديه انطباع بأنه ببساطة غير مؤهل لأعباء هذا المنصب. وماذا بوسعه أن يفعل أكثر مما فعل، ليهيئه بصورة أفضل، إذا كان أكيزي يرفض بعناد؟ أحياناً كان إيداندا يشعر بنفسه كالمشلول، وهذا لا يسري على حالته العقلية فحسب، بل الجسدية أيضاً. لكنه كان يتكتم على ذلك ويحتفظ به لنفسه، محاولاً التمويه على ضعفه.

**

عند الظهيرة التقى تيرو مع عبدي عشيرتا، ملك أمورّو، وأيتاكما، ملك قادش، ويوسور شيخ البدو، الذي تقيم قبيلته مضاربها جنوب شرقي قادش، ليس بعيداً عن التل العظيم لغابات الأرز الملكية جنوبي السلسلة الجبلية. بكل جسارة، وفي بؤرة الخطر، على طريق القوافل الرئيسي إلى الساحل، الذي تستورد منه قطنا حيواناتها البحرية، فهنا لن يخطر وجودهم في بال أحد. وإذا حصل أن رآهم أحد من سكان قطنا، على غير ما هو متوقع، فإنه لن يستغرب رؤيته أو رؤية أيتاكما هنا. إذ أي طريق سواه سيسلكان إلى الجبال شمالاً أو إلى الوهدة جنوباً أو إلى الأماكن الساحلية؟

كان مكان الموعد قد جُرِّب سابقاً بنجاح، وهو استراحة بعيدة قليلاً عن الطريق، نادراً ما يرتادها أحد، وغالباً ما يتجنّبها المسافرون ليلاً، بسبب كونها مسكونة بأرواح شريرة. لكنه المكان المثالي للمتآمرين، حتى وإن كان تيرو يرغب بمغادرته بأسرع ما يمكن، لهذا السبب تحديداً.

«الأمر صحيح إذاً؟». ابتدر عبدي عشيرتا الكلام.

«هلا تكرمتم وأخبرتموني أولاً، لماذا هذا الاجتماع الطارئ المستعجل! إذ يبدو أني الوحيد غير المطّلع!».

«اهدأ قليلاً، أيتاكما. لن يتجاوزك أحد منا. إذاً، تيرو، أخبرنا!».

«لقد باع إيداندا قطنا لشوبيلوليوما ملك حتّوشا».

«ما الذي يدفعه إلى فعل ذلك؟ أنا لا أصدق هذا!». سأل أيتاكما.

«أنا سأقول لك ما دفعه إلى ذلك. إنه شرفه المهان».

«ما هذا يا تيرو؟ ليس هذا من عادته. ثم ما الذي أهان شرفه إلى هذا الحد؟».

«حسناً، ألن يهان شرفك، إن أقام أحد أبناء نخبة الأعيان علاقة مع ابنتك، ثم تخلى عنها وتركها وهي ربما حامل منه؟».

لم يكن تيرو مرتاحاً لمبالغته هذه، ولكن المهم في الأمر الآن هو جذب ملك قادش المتردد إلى صفهم، ولهذا السبب أضاف مشدداً: «إيداندا خرج عن طوره من الألم والغضب، وأقسم على الانتقام لهذا العار بكل الوسائل المتاحة، حتى ولو فوق الجثث. أنت تعرف مدى تعلقه بابنته كيا».

وقف أيتاكما فاغراً فاه، ثم سأل: «ومن كان هذا النغل، الذي ألحق به هذا العار؟».

«وليّ عهد مصر».

«أمونحوتب؟».

«ما غيره».

«هذا وضع مأزوم للغاية. في مثل هذه الحالة الدنيئة، التي تمس الشرف، يجوز أن تطلب أياً كان للنزال، ولكن ليس ولي عهد مصر». قال أيتاكما وهو يهز رأسه.

«ولكن هذا تماماً هو ما فعله إيداندا»، قال عبدي عشيرتا «فهو باصطفافه إلى جانب حتّوشا، يوجه صفعة إلى الفرعون، الذي لن يسكت حتماً، على مثل هذه الإساءة. فإيداندا بحركته هذه، يمنح شوبيلوليوما رأس جسر استراتيجي، يمكنه من احتواء جميع الممالك في شمالي سوريا، بل يضعه على الحدود المصرية مباشرة، أي أنه يؤمّن له مركز انطلاق للزحف على قادش». قال عبدي عشيرتا وهو ينظر إلى أيتاكما نظرة ذات مغزى، وباستفزاز أيضاً، ثم أضاف: «وبالتالي ستصبح أمورو وجبيل وغيرها وغيرها من ممالك الساحل مكشوفة أمامه».

«لقد اختلقتم هذا كله معاً!». قال أيتاكما ذلك كمحاولة أخيرة، وإن ضعيفة، دفاعاً عن إيداندا. ولكن كان جلياً أنه إنما يحاول إقناع نفسه.

«لا، نحن لم نختلق شيئاً. أخبره يا تيرو عن مصدر المعلومات». قال عبدي عشيرتا.

التفت أيتاكما إلى تيرو بفضول، بينما وقف پوسور بملل وهو يعلك شيئاً بأسنانه، ثم قال: «هيا يا أميري تيرو، أخبره!».

«من أختي».

«من بلتوم، ملكة قطنا»، أضاف عبدي عشيرتا بلذة «وما أظنك ستشكّك في كلامها؟».

«لا يمكنك تصور مدى الإساءة التي تشعر بها أختي. لقد أهملها الملك منذ سنوات ليلتفت كلياً إلى زوجته الثانية ذات الحظوة، وبات يدلل البنت بصورة تلفت النظر. وها هو هذا العجوز الخرع الآن، نتيجة تعلّقه المبالغ فيه بابنته ورغبته في تتويجها، يبيع مدينتنا الجميلة قطنا ومعها الساحل السوري كله للحتيين». وبذلك بلغ تيرو أقصى ما عنده.

«لا يمكن أن يستمر الوضع بهذه الصورة! لا بدّ أخيراً من أن نتدخل!».

«ماذا يمكننا أن نفعل؟».

«لا بدّ من إبعاد إيداندا. هل فهمت ما أقصد؟ ابنه، وليّ العهد، يمكننا تحريكه بأيدينا بسهولة. أكيزي في كل الأحوال يقف إلى صفّنا. ولكن لا يجوز مطلقاً أن يعلم بأننا وراء العملية. بل لا يجوز لكائن مَن كان أن يعلم بالأمر، وهذا ما سنقسم عليه الآن هنا بجميع

أربابنا وأجدادنا. بعد أن يطوي النسيان القصة، وفي الوقت المناسب لنا، سندفع علناً باتجاه وحدة ممالك منطقة الساحل السوري، وإنْ اضطررنا، فسنفرضها عسكرياً، وهذا ما كنا نهيئ له». وضحك عبدي عشيرتا ضحكة مبهمة. ولكن عندما أدرك أن أيتاكما لم يفهم ما يقصده، تابع متسائلاً: «ألم تدرك بعد أن كثيراً من القوافل كانت تدفع لنا الضريبة، وإن لم يكن ذاك بمطلق إرادتها؟».

«أنت من دبر الغزوات على القوافل؟».

«نحن، يا عزيزي، نحن! المسؤولية مشتركة. كيف كان بوسعنا في رأيك أن ندفع للمرتزقة الضروريين؟ ثم إن بعض الأمراء يفضّلون قبض الذهب والمجوهرات على التورط في حرب. هذا كله ضروري لإنجاح خطتنا. وأنت ترى أننا قد فكّرنا بكل شيء».

التفت أيتاكما عنه برهة، لكنه أخيراً أدرك الضرورة، بلا جدال، لإزاحة إيداندا. فأن يقرر وحده رمي نفسه عند قدمي شوبيلوليوما، ضد الإرادة الصريحة لأعيان قطنا، كان عملاً لا يُغتفر.

كان لا بدّ من تنفيذ الخطة في قطنا. ومَن سينفذها هما تِيرو ويوسور، علماً بأن المسؤولية الرئيسية ستقع على عاتق الأخير. إذ أكّد تيرو احتمال أن يُشتبه به في تنفيذ العملية، لأنه طالب أكثر من مرة في المجلس بتأسيس مملكة سورية جديدة. ثم أضاف بمكر، أن من الأفضل توجيه الشبهة إلى ابن الشيخ إيدريمي، بصورة تتلبسه تماماً، باعتبار أن ما قام به ليس إلا انتقاماً متأخراً لاتهامهم بسرقة قافلة تدمر. كما اقترح تيرو إضافة إلى ذلك، إضعاف إيداندا بالسم تدريجياً قبل توجيه الضربة القاتلة إليه. إلا أنه تكتّم على شريكه في المؤامرة، الذي يقوم منذ أسابيع بتسريب سمّ فعّال للملك في مشروباته. سيأتي يوم تذهلهم فيه تصرفاته! وأنهى كلامه راضياً بقوله: «وبعدذلك يمكننا بهدوء انتظار دفن إيداندا وتتويج أكيزي قبل الانتقال إلى خطواتنا التالية».

«وماذا عن ابنة إيداندا؟ فهي يقظة وصعبة المراس. قد تشكل خطراً علينا!».

«لا، أبداً»، قال عبدي عشيرتا باستخفاف وأردف: «سنزوج الصغيرة لابني عزيرا، فننتهي من نزواتها. سنلجمها وستصير فرساً راضية. إنها بحاجة إلى من يجيد ترويضها، إن فهمتم قصدي».

أدى المتآمرون الأربعة القسم، ثم تفرقوا بسرعة. عند الوداع ربّت عبدي عشيرتا على كتف تيرو قائلاً: «كن على ثقة يا صديقي بأنك ستحتل مركزك!».

شارفت إهلي نيكالو على موعد الوضع، وكانت تتمنى أن يأتي أخيراً، لتتخلص. فقد كان حملها صعباً وثقيلاً. كانت لا تتوقف عن الابتهال إلى ربّتها وتقديم الأضاحي لها، مع أمها وحماتها. كل شيء كان جاهزاً ومهيأً لاستقبال الإنسان الجديد. كثيرات هن من قرأن على الحامل إشارات لا تخطئ تدل على صبي، وكثيرات قرأن أيضاً ما يدل على بنت. إذاً، لا بدّ للإنسان من تعلّم الصبر. عرفت إهلي نيكالو كل ما يخطر على البال من ضروب العناية. عولج بطنها بزيوت مهدئة، ودُلِّك ظهرها وساقاها وأَخَذت حمامات طقسية، وأشبعت كل رغباتها الطعامية، ما دامت لم تشتهِ مأكولات أو مشروبات محظورة. فسمنت سمَناً مفرطاً.

وقد وُضِع صبرها وصبر من حولها على محك تجربة صعبة. الأيام تمضي الواحد تلو الآخر، ولا يُسمح لها بمغادرة غرفة الولادة قبل أن تستعيد طهارتها. وطريقة الغسل هذه كانت الأفضل، لإبعاد الأرواح الشريرة عن الحامل. وتوسلن جميعهن للربة الأم، ورتلن لها الأناشيد كي تخفف من آلام ولادتها، ولم يكن الجنين قد اتخذ بعد وضعية النزول الصحيحة. تناوبت أمها وحماتها على حراسة الأميرة الحامل، مع وجود إحدى القابلات دوماً. وكلفت خادمة بالوقوف على استعداد طوال الوقت للانطلاق حال بدء المخاض، لإحضار إحدى الكاهنات، وحتى شالا نفسها، لتلَقّي فأل الولادة.

جاءها المخاض عند منتصف الليل. كانت الطلْقات منتظمة، لكنها خفيفة، لا تساعد على دفع طفل للخروج إلى نور الدنيا. وأخيراً تدخلت القابلة وتلمست بيدها الطريق لضبط وضعية رأس الطفل. فابتسمت لها إهلي نيكالو شاكرة. ثم سألت: «هل يمكن لكيا أن تأتي؟».

«لن يكون الأمر سهلاً، إذ عليها عندئذٍ أن تخضع لحمّامات تطهّر معقدة».

«ولكن هذا مهم بالنسبة إلي يا أمي». وتغرغرت عيناها بالدموع.

«طيب، سأرسل في طلبها. اهدئي يا حبيبتي!».

دهمتها موجة طلْقات أقوى، فأحاطت بطنها بذراعيها مرعوبة.

«سيكون الألم كالسكاكين يا صغيرتي. استعدّي لأقصى ما يمكنك تصوره من ألم، وسنكون نحن هنا لمساعدتك ما أمكن».

«أرجوك يا أمي، اعذريني. اعذري خطاياي في حقك. لم أكن دائماً متفقة معك في الرأي».

«ليس هناك ما يستحق الاعتذار عنه يا حبيبتي، لا تقلقي. ستلدين طفلاً سليماً صحيح البنية. هذا هو الأمر الوحيد الذي ستركزين عليه الآن. أما الأمور الأخرى، فهي ثانوية، أو بإمكانها الانتظار».

«أماه، إن لم تكرمني الربة بهذه الولادة، فعليك أن تبلغي أكيزي حتماً، أنني لم أحب سواه. عديني بذلك!».

«طبعاً يا حبيبتي، أعدك بذلك، حتى وإن لم يستحق حبك». لم تسمع إهلي نيكالو الكلمات الأخيرة، التي لم تكن موجهة إلى أذنيها أصلاً، فقد دهمتها موجة طلْقات جديدة.

«ألا يفضل أن تنهض واقفة؟».

نفت القابلة ذلك بهزة من رأسها ثم قالت: «ما زال هناك وقت. الفتحة ما زالت مغلقة تماماً. إذا دعت الضرورة فسأعطيها بعد قليل شيئاً من زيت الخروع».

انقضت ساعات، سبحت خلالها إهلي نيكالو في عرقها، فاضطرّوا لتبديل ردائها عدّة مرات بصعوبة. كانت تكافح، محافظة على هدوئها. لقد رتبت كل شيء، فإذا أرادت الربة أن تأخذها إليها، فستقوم كيا برعاية الطفل. لقد وعدتها صديقتها وأخت زوجها بذلك أمام شهود. قبل أن تضطر كيا للعودة إلى المعبد، عانقتها وقالت لها مع ابتسامة: «أولادك الكثر ستربينهم بنفسك يا عزيزتي صدقيني!». ثم رمت لها قبلة يدوية واختفت. فلتحقق الربة رجاءها. ولكن إن لم تفعل، فإهلي نيكالو واثقة من حصول طفلها على أفضل رعاية. ولم يعد يهمها ما سيأتي، مهما كان. فاسترخت حتى جاءت موجة الطلْقات التالية وانتزعت منها الصراخ رغماً عنها.

«الرأس، أرى الرأس الصغير مغطّى بشعر كثيف. يا له من فأل حسن! بسرعة هيا! ساعدوني على إيقافها على قدميها».

بجهود متكاتفة أُنهضت إهلي نيكالو، ثم قرفصت على الأرض سائدة ذراعيها من الجانبين على النساء. لم تنتبه إلى أن ظهرها ووركيها قد دُهنا بزيت زيتون ثم بحليب بقر، كما لم تنتبه إلى دمدمة التعويذات. وبآخر ما تبقى لديها من قوة ضغطت الطفل إلى الخارج، ثم خطف الألم حواسها لفترة قصيرة.

استعادت وعيها والنساء يُضجعنها على السرير ثانية. بقيت عيناها مغمضتين. أما زالت حية؟ هل عاش الطفل؟ إنها لا تسمع شيئاً، رحمتك يا ربتي! ولكن لا، ها هو ذا صراخه.

«انظري، انظري أيتها الأم إهلي نيكالو! افتحي عينيك! انظري ابنك! يا له من صبي صغير رائع!».

وضعت القابلة الصبي على بطن الأم، ريثما يتم تنظيف وجهه الصغير وجسمه تنظيفاً أولياً. أخذ يصيح بأعلى صوته، فيما أمه تضحك وتبكي في الوقت نفسه.

ظهرت شالا لتقيم شعيرة فصل حبل الخلاص. فاستدعت (غولا)، ربة الولادة والخلاص، فهذه هي لحظة تقرير مصير الوليد الجديد. وحسب العرف المتبع، وضِع في يدي الصبي خنجر وسهم كي ينشأ ويصير رجلاً بطلاً قوياً. ولكن كان لا بدّ من محاولتين لتثبيت السلاحين في مكانيهما، فارتعدت شالا وأملت ألا يكون قد لاحظ ذلك أحد. ثم باركت الطفل أثناء عقد سرّته.

أثناء العودة إلى بيت الربة تنهدت شالا عميقاً. حتى هذا الطفل، مثل كثير غيره، لن يعيش طويلاً. بأي كلمات يمكنها أن تموّه النبوءة المتناقضة كي يتحملها الوالدان؟ لا بدّ من انتظار نتائج غسل الفم. أما الآن فستنتشر الخبر السعيد في المعبد: الولادة كانت ناجحة.

كالنار في الهشيم انتشر الخبر السعيد في القصر وكذلك في دار البلد، وفي المدينة كلها. عمَّ الفرح في كل مكان وبلغ حتى غرف الخدم وأكواخ العمال المياومين. رقص أكيزي من الفرح والسعادة. لقد أنجب ابناً صحيحاً وقوياً، هكذا أخبروه، فأرسل تميمة صغيرة للوليد الجديد وسلسال رقبة ثميناً مع قرطين لزوجته، مُزمعاً أن يطلب مغفرتها حالما تغادر سرير النُّفاس، وأن يوليها في المستقبل اهتماماً أكبر، غير أن هذا الوعد بقي سراً بينه وبين نفسه. ثم قام بزيارة للملك، في مخدعه الخاص الذي بات يقضي فيه معظم الوقت مؤخراً. وكانت هناك خادمة قد زودته للتو ببعض النبيذ والخبز، وخرجت حال دخول وليّ العهد. تابعها بنظراته بشيء من الاستغراب، لكن ذلك لم يشغله إلا هنيهة، إذ كان متلهفاً على الوقوف مقابل أبيه.

«أكيزي» قال إيداندا خالي البال «ما سبب هذا الصخب؟». ومن ضحكة سروره أدرك أكيزي المزحة. فتابع إيداندا: «هيا، أخبرني، لا تعذب أباك العجوز بالمماطلة. أهو صبي؟». عندما أكد أكيزي توقّع أبيه، عانقه بسعادة وهو يقول من صميم قلبه: «الشكر لربتنا ولجميع الأرباب»، وأردف: «والأم الشابة، كيف حالها؟».

«وضعها جيد، رغم أن الولادة لم تكن سهلة. يقولون إنه فرخ جميل وقوي!». كان أكيزي فخوراً على نحو لا يوصف، فهل هناك في بيتٍ ملكي ما هو أكثر أهمّية من استمرار السلالة بوريث! وقد تحقق هذا. بقي أكيزي لا مبالياً كعادته، رغم عَلمه بالأخطار الكثيرة

المحيقة بالوليد الجديد وبأن الكثير من الأطفال أثناء السنة الأولى من أعمارهم يأخذهم الأرباب إليهم. أما اليوم فلا يجوز لهذا كله أن يمسّه.

«ماذا تريدون أن تسمّوه؟».

كان هذا سؤالاً بالغ الأهمّية.

«يمكن أن نسميه باسم أحد الأجداد، إيداندا أو ناپليما أو أحد الأسلاف الملكيين، مثل سينادو أو أدّو أو ربما باسم أبيك أولاشودا. أيّها أنسب برأيك؟».

«أمامك بضعة أيام لتقرر، ولا شك في أن النساء يرغبن بأن يكون لهن رأي في الأمر. ولا تنسَ استشارة الكهنة. هل كانت شالا حاضرة؟».

«نعم كانت».

«جيد. دعهم يحضرون لمأدبة احتفالية يا بني. سنحتفل بهذا اليوم السعيد بشكل لائق. وحتئذ سأرتاح قليلاً».

**

أفاقت كيا في سريرها بغتة. أيقظتها صرختها. كانت تلهث بشدة غارقة في عرقها. همهمت بأنين واه: «أمينابة، أمينابة، الربة زارتني ثانية. ولكن يا لهول عقابها لي ولنا جميعاً!». فأفاقت أمينابة من نومها الخفيف أصلاً وسألتها: «ماذا رأيت؟». فأجابت وهي ترتجف: «أرجوك خذيني إلى شالا»، ونهضت بجهد من سريرها. كان الفجر قد انبلج، ورأت أمينابة برعب وجه كيا الشاحب وهي تقف أمامها جامدة، فجفّفت عرقها وألبستها رداء نظيفاً ثم توجهتا إلى جناح شالا.

وشالا أيضاً استيقظت حال دخولهما. أوصت أمينابة تكليف المطبخ بتحضير حساء ساخن لكيا. باركت كيا همساً وجلست قبالتها بهدوء منتظرة أن تتماسك.

«الملك سيموت!». نشجت كيا بصوت جاف عميق وغريب الوقع. عرفت شالا أن الربة حاضرة، فركعت على الأرض أمام كيا وجمدت في مكانها.

«الوقت ليل. الملك يمشي نحو هاوية وهو في ردائه الملكي، ولكن من دون رموز السلطة. الرجل العقرب والمرأة العقرب اللذان يعني مرآهما الموت، يعترضان طريقه، فيتراجع، لكنهما يحيدان عن طريقه ثانية ويجبرانه على التقدم. يمشي ويخطو خطوة زائدة، فيترنح ويهوي. يسقط في حفرة عميقة، حفرتها أيدٍ بشرية. الجدران ملساء والقاع

بعيد الغور، بحيث لا يمكن للإنسان الخروج وحده، ولا مساعدَ هناك. يغوص الملك في آلاف العقارب القاتلة، التي تفتح وتطبق مقصّاتها الهائلة، وتهجم كلها على الملك وتلدغه. فيَسْوَدّ لونه ويثقل تنفّسه ويكاد يختنق، لكنه لا يدافع عن نفسه ولا يصرخ مستنجداً، بل ينتظر موته».

تسرّبت من الخارج زقزقة عصافير صاخبة إلى هدوء المخدع.

استعادت كيا وعيها. انتفضت وصرخت: «ستكون نهايته مؤلمة جداً. ولكن لماذا، لماذا؟».

عادت شالا فوراً للجلوس إلى جانبها، وأحاطتها بذراعها وضغطتها إليها برقة. أشارت إلى أمينابة التي عادت من المطبخ، وأسلمتها كيا لترعاها. أخذت كيا تتناول ملاعق الحساء المنعش من يد صديقتها مثل طفل صغير. كانت منهكة كلياً. أما شالا فقد قامت بالمهمّة الصعبة ودوّنت كل ما تنبأ به فم كيا.

كان عليها أن تتحدث مع الملك ووليّ العهد، وكان لا بدّ بسرعة من تحضير طقس «عرس الروح الميتة». يجب أن يحاولوا كل شيء من أجل إنقاذ حياة الملك المهددة، وذلك تحديداً في الوقت نفسه مع الاحتفال بولادة بكر أكيزي وإهلي نيكالو. كم من الوقت بقي للملك؟

هل سيكون للطقوس أي مفعول؟ ألم يوافق الأرباب مسبقاً على الموت الذي خطط له بشر؟ وإلا ما هو تفسير أن الرجل العقرب والمرأة العقرب، حاميي الشروق والغروب، يدفعانه على الطريق نحو الهاوية؟ كان الملك مجرداً من رموز سلطته، فبقيت وراءه لخليفته. ولكن: لماذا أرسلت الربة هذا التحذير؟ هل تدافع الربة عنه؟ ضد مَن؟ أم يجب فهم الإعلان عن الموت كإشارة لإيداندا، كي يرتب أمور بيته بأسرع ما يمكن ويهيّئها لخليفته؟ أهكذا يجب أن تُفهم أيضاً إعاقة الشيطانين له، كتأجيل قصير لموته؟ علامَ يُعاقَب الملك بهذه القسوة؟ يبدو أنه قد شدّ وتر قوسٍ ما أكثر مما ينبغي. على الأغلب، سيموتُ بالسم وطعناً أيضاً، لهذا وقف العقربان. هل يجب عليها حقاً إخبار الملك بكل شيء؟ لا، لا يجوز لها ذلك. ولكن أغلبه.

قبيل العصر التمست شالا مقابلة الملك. نهض من كرسيه المريح ليستقبلها ويحييها، فتهيأ لها أنها تقف قبالة رجل عجوز. كان شاحباً، وبدت بشرة وجهه مريضة ومبقّعة. لماذا لم يخبرها أحد بذلك؟

عرض عليها إيداندا مكاناً للجلوس وشراباً مقوياً، غير أنها ارتاعت عندما انتبهت إلى

بطء حركة الملك والجهد الذي بذله للجلوس ولمدّ يده للإمساك بالقدح. وللحظةٍ خافت أن يسقط القدح من يده، إذ بدا وكأن يده لا تستجيب له. ما الذي كان يجري هنا يا ترى؟

ابتدر الملك الكلام قائلاً: «أيتها العزيزة شالا، إنه لممّا يفرح قلبي أن تأتي شخصياً لتباركي لي بولادة حفيدي الأول، وأنا شاكر لك ذلك. وأنا كلّيّ الامتنان للأرباب لكون استمرار عائلتي قد صار مؤكداً. وأنا واثق من أن هذا الوليد لن يكون آخر ما سينجبه هذان الزوجان القويان».

كاد الغثيان يدهم شالا ألماً، لما عليها أن تخبر به الملك. فالإشارات ذات دلالات سيئة، ليس بالنسبة إليه فحسب، بل أيضاً بالنسبة للطفل وللمدينة. مدّت يدها إلى قدحها وشربت لتموّه ترددها، فيما ذهنها يشتغل بحمى الغليان. فماذا لو كانت مخطئة؟ ماذا لو كان ما جمعته من الدلالات غير كاف؟ أليس من الخطأ أن تستند فقط على نبوءات كيا؟ أما كان على الربة أن توحي لها تحديداً، بعد أن تجنّبتها كيا طوال شهور؟ ألا يحتمل أن روحاً شريرة ما تنصب لها شركاً؟ لا، لا يمكنها أن تبوح بشيء الآن، قبل أن تتأكد إلى درجة اليقين. ولكن عليها أن تعرف ما الذي يُثقل على الملك، وكم مضى على اعتلال صحته. فأخبرها بأمر الساعي الذي أرسله إلى شوبيلوليوما، وعن تهوره وإخبار الملكة بلتوم بذلك. كما أخبر شالا بأمر النزاع مع أكيزي، وبمشاكله مع بعض أعضاء مجلس الأعيان، وتخوفه من وجود أكثر من خائن بينهم، وبقلقه بشأن كيا. كثير من هذه الأمور كانت شالا تعرفها أو أنها قد خمّنتها، غير أن بعضها الآخر كان جديداً، فارتاحت لقدومها، آملةً ألا تكون قد تأخرت كثيراً في ذلك.

«قل لي إيداندا، منذ متى تشعر بنفسك متوعكاً؟».

«لا يمكنني تحديد ذلك بدقة، ولكن عندما أفكر في الأمر أقول إني منذ عيد رأس السنة، لم أعد بعافيتي المعتادة. لقد أصبح كل شيء تدريجياً أكثر مما أحتمل!». وضحك بارتباك.

«صف لي كيف يتبدى مرضك، أرجوك!». ألحّت شالا.

«دعكِ من ذلك، لا أكثر من نوبات وهن بسيطة»، قال الملك متهرّباً.

«أرجوك إيداندا!». أصرّت شالا.

«في البداية لاحظتُ شعوري الدائم بالتعب والوهن. فما إن أستريح ثم أشتغل قليلاً حتى يعاودني الوهن العام. ثم تراجع هذا كله لفترة قصيرة، وأملت بأني قد تجاوزت

الأمر. لكنني الآن أشعر بالوهن والكلل نفسه، بل ربما أشد. ولأجيبك بصدق، شالا، تمر بي لحظات أشعر فيها بأني مشلول. يداي وساقاي لا يستجيبون لي، أفقد الإحساس بهم. وبعد مدة يزول هذا الشعور وأعود إلى طبيعتي».

«أوجاع؟».

«في الحقيقة لا».

«هل لاحظت إنْ كانت نوباتُ الوهن تأتيك في أوقات معينة؟».

«ما قصدك بذلك؟».

«مساء فقط أو بعد الأكل. أتغيب في الليل تماماً؟ هذا قصدي».

«دعيني أفكر. غالباً بعد العصر وقبيل المساء. لا أستطيع أن أحدد لك بدقة».

«ماذا تأخذ ظهراً وبعد العصر؟».

«شالا، أتشتبهين في شيء؟».

«الواقع أن لون بشرتك ووضع جلدك يقلقاني. يحتمل وجود مشكلة في الكبد، أو في المرارة».

«هكذا إذاً، كدت أظن..».

«ماذا ظننت؟».

«لا، انسي ما قلته، كانت مجرد فكرة عابرة».

«يا مليكي، كل شيء مهم، عندما يتعلق الأمر بك! أنت تمثل قطنا. إذاً، ماذا ظننت؟».

«أن الأمر لا يتعلق ربما بمرض أرسله الأرباب، وإنما من صنع البشر».

«من أية ناحية؟».

«يبدو لي الأمر الآن غير معقول تماماً ونحن نتحدث عنه، ولكن عنَّ في بالي أن يكون السبب سمّاً».

لم تبدِ شالا أي تعبير على وجهها، مع شكّها في الأمر مثلَه. ثم هناك حلم كيا! آه أيها الأرباب!!

«مَن يضمر لك الشر إلى هذا الحد، والأهم من بوسعه تجريعك السم؟ إذْ لا بدّ أن يُمزج في طعامك أو في شرابك، كهذا الذي نشربه الآن. ولا سيّما أنك لا تتوجع. فمسكّن الآلام والمنوّم قد يتسببان في آلام رهيبة إذا زادت الجرعة عن عيارها».

«عزيزتي شالا، لا بدّ أن أفكر في هذا كله بهدوء. طبعاً لي أعداء. في المجلس هناك خلافات حول الحليف المستقبلي لقطنا».

«وصلني خبر ذلك».

«وهناك مسألة كيا. والغزوات على القوافل ونهبها، التي لم نكشف مَن وراءها بعد. هناك أكيزي وتعنّته برأيه. كثير من الأمور تتداخل معاً. ولكن ليس بينها في تقديري ما يتجاوز المألوف من المشاكل، لدرجة التفكير بالتخلص مني بهذه الطريقة. لا، لا. أعتقد أنك محقة، بأن العلة في الكبد أو المرارة، وهذا ما يسبب سوء حالي».

أليس عليها أن تترك الملك على اعتقاده هذا؟ على الأقل إلى أن تتوضح لها الأمور؟

«هل تحدثتَ في الأمر مع أحد ما؟». استفسرت شالا.

«لا، ليس بصورة مباشرة. لكني فكّرت عدّة مرات بأن أطلبك، ولكن»، وأشار بيده آسفاً «كانت الوعكة دائماً تزول. قد يكون أحدهم لاحظ أني لست بخير: كيا، أكيزي، إيست، الملكة. ألا أجد عندك عشباً فعّالاً لي؟».

«سأهتم بالأمر فوراً. وسأعطي تعليماتي حول ما يجوز وما لا يجوز أن تأكله وتشربه في الأيام القادمة».

«يفضل أن ترتبي الأمر مع الخادمة التي تخدمني دائماً».

«حسناً، أرسلها إلي. كان الأرباب في عونِك يا ملك قطنا!».

حاولت شالا تذكّر الطقوس التي يمكن اللجوء إليها لوقاية الملك. كانت لا تزال مبلبلة تماماً. لو أنها تعرف فقط، أعليها مكافحة خلل في عضو داخلي، أم ضدّ سمٌ تسبّب في مرض الملك؟ بعض الدلائل تشير إلى الاحتمال الثاني، وخاصة رؤيا كيا. أي نوع من السموم هو يا ترى؟ سمّ ينهك الجسم ويسبب شللاً جزئياً، ولا طعم له، أو يمكن تمويه طعمه بالبهارات. في الطعام؟ في الشراب؟ التعب والغثيان يشيران إلى سمّ عشبيّ، والشلل الجزئي يحيل إلى سم الأفاعي. يستحيل، ولكن من دون معلومات إضافية لن تجد الترياق المضاد. كان عليها دفعة واحدة أن تدقق في أمور كثيرة. لا بدّ أولاً من فحص مسببات وضع الملك. ثم لا بدّ من إيجاد الطقس الصحيح المؤدي إلى وقاية الملك، ولكن قبل ذلك لا بدّ من استشارة الربة حول جواز استخدامه. فمن المسيء جداً لحياة الملك بعد موته أن تتصرف ضد إرادة الأرباب. بماذا تبدأ؟

انزعجت شالا لانقطاع سلسلة أفكارها بسبب وصول خادمة الملك، التي كانت على درجة من الوقاحة أن طلبت حضور شالا إلى بوابة بيت الربة، فقد رفضت أن تدوس الحرم المقدس رفضاً قطعياً. طيب، لن ترهقها بضع خطوات حتى البوابة. على الطريق فكّرت شالا بما يجب على الملك تجنّبه. كان الأمر محيراً جداً: فما هو ضار لمرض الكبد والمرارة كالزيت والحليب الدسِم يُعدُّ مفيداً في حال التسمم. فبماذا تنصح؟

مغليُّ البصل والصعتر وورد السياج، لا يمكن أن يكون ضاراً، في كلا الحالين. قليل من اللحم، فواكه طريه، خبز غير طازج. وهذه كلها محاولات غير فعّالة، كانت تعرف ذلك.

توقعت شالا أن تلقى خادمة وقحة وفظّة بانتظارها، غير أنها وجدت فتاة ناعمة، تبدو خجولة مطيعة. أنصتت إليها الخادمة بانتباه، وكررتْ ما سمعته بأدب، وإن بصوت يكاد لا يُسمع. استجوبتها كبيرة الكاهنات بدقة عن عادات الملك في طعامه وشرابه، ومع ذلك لم تحصل منها على معلومات كثيرة. إنه يتناول الوجبات المعتادة، غالباً مع أفراد العائلة. لكن شالا كان يهمها أن تعرف ما إذا كان يطلب شيئاً بين الوجبات. نعم، أحياناً، بعد الظهر، فواكه مجففة. وهل هي التي تحضر دائماً هذه الوجبات؟ فجاءها الجواب: نعم، بلا استثناء تقريباً. وهل هي من قطنا، ومنذ متى تشتغل في القصر؟ فأجابت الفتاة بأن عائلتها تخدم الملك الحاكم في قطنا منذ أجيال. كان هلع الخادمة يزداد مع كل سؤال، وعندما صرفتها شالا كان كتفاها يرتجفان. لم تستطع شالا أن تتبين ماهية الخادمة. فلقد بدت لها مطيعة جداً، تبجّل الملك وكأنه ربّ، وتلبّي طلباته بورع. ومع ذلك تصرفت مدعية الخجل والخشية من أن تدوس بيت الربة. وهذا كان مستغرباً.

«عذراً يا كبيرة الكاهنات!». قالت كيا وهي تقترب من شالا.

«ما الأمر؟».

«عمّ تحدثت معها؟».

«إنها خادمة عند أبيك».

«أعرف. وكانت في خدمة أمونحوتب طوال إقامته في قطنا. كانت هي التي..». وسكتت كيا، لكن شالا عرفت فوراً إلامَ تلمّح.

كان هذا لافتاً للانتباه جداً! أمونحوتب. إنه لم يخطر أبداً في بالها.

«تعالي معي، لن نبقى واقفتين في الباحة». عادتا إلى مخدع شالا، حيث أخبرتها عما دار أثناء زيارتها للملك. ارتعبت كيا بشدة.

«أيها الأرباب! أردت أن أخبرك بذلك فوراً. كان ذلك قبل أسابيع عندما تحدثت آخر مرة بالتفصيل مع أبي. قبل وصول هذا النبأ التعيس. لماذا لم أفعل ذلك؟ صرفني من عنده لأنه كان يشعر بوهن وعجز. ليتني جئتكِ فوراً!».

«علينا الآن أن نهتم بما يمكننا عمله، وبأسرع ما يمكن».

**

«ماذا تريدين؟ تعرفين جيداً أنه لا يجوز لك أن تأتي إلى هنا، أيتها الغبية!».

«اعذرني سيدي، ولكن كان لا بدّ من أن آتي. إنها تعرف كل شيء!». وأخذ جسمها كله يرتجف.

«من هي؟». جاءها السؤال بلهجة فظة متعجرفة.

«كبيرة الكاهنات».

«شالا؟ وما أدراك أنت بذلك؟».

«استدعتني إليها واستجوبتني سؤالاً وراء آخر: منذ متى أخدم في القصر، ماذا يأكل الملك وماذا يشرب، وإذا كنت أنا من يأتيه بكل شيء وأسئلة من هذا القبيل. وأمرتني أن أحضّر له مغليّ أعشاب».

وازدادت الخادمة اضطراباً.

«تماسكي يا بنت. وإلا أنت تعرفين ما ينتظرك! هذا كله لا معنى له. لقد لاحظوا أن صحة الملك متراجعة، ولذلك أرسلوا في طلب من يفهم في الطب. سبق أن قلت لك: عليكِ أن تحسبي حساب أن يطلب الملك المساعدة! هل نسيتِ؟ انطقي!».

«لم أنس يا سيدي، لم أنس. قلت لي ذلك». وكانت على وشك أن تبكي.

«أرأيت؟ كوني مطمئنة إذاً. تعالي يا صغيرتي. لا تتصرفي بهذا الشكل! قلت لك تعالي. أنت ما زلت عصفورتي الصغيرة، أليس كذلك! لا تنسي أبداً من هو سيدك، وإياك والخطأ، وإلا..».

ارتعشت خادمة الملك.

«اسمعيني جيداً الآن! أوقفي السم لثلاثة أيام، واضح؟ بعد ظهر اليوم الرابع ضعي له كل ما في الحنجور. عليك أن تدبري ذلك وحدك، هذا شغلك أنت. لا يجوز أن يلاحظ

أحد أي شيء. بعد ذلك تنتهي خدمتك. غادري القصر حسب التعليمات. هل فهمتِ ما قلت؟».

«نعم، سيدي!».

«اسمعيني يا حمامتي! أحب أن أسمع بوضوح، ما إذا كنتِ قد فهمتِ ما قلت». وأمسك تيرو الفتاة من ساعدها بقسوة.

خفقت عينا الفتاة وقالت بصوت أعلى: «نعم، سيدي!».

«أترين، ليس الأمر صعباً. انصرفي الآن، ولا تعودي إلا عندما أرسل في طلبك يا نعجة. ولا تقلقي بشأن أمك!».

وفيما أسرعت مغادرة سمعت ضحكه المدوي.

**

أمعنت شالا التفكير فتوصلت إلى أن الأجدى هو استشارة العرافة، وبعدذلك سيكون هناك يقين كحدٍّ أدنى، ولا سيّما أن الوقت يلح. خلال أيام قليلة ستبدأ في القصر الاحتفالات بولادة الطفل. إذاً، لم يتبقَّ سوى يوم أو يومين، والأمر يحتاج إلى تحضيرات متعددة ضرورية. قبل كل شيء لا بدّ من الحصول على حيوان مناسب للقربان. ثم انتقت شالا مساعِداتها. وبعد أن ترددت بادئ الأمر، أضافت كيا إليهن، رغم أنها ما زالت مبتدئة وأن الأمر يتعلق بأبيها. ولكن ألم توحِ الربة بتحذيرها الجلي الأول إليها؟ ثم إنها ستكون مجرد مساعِدة، ولن تلمس القربان.

طُهّرت قاعة القربان في الحرم من كل الأرواح والشياطين الشريرة التي يُحتمل أنها قد تمكنت من التسلّل إليها. أحست شالا بطهارة القاعة التي كانت غارقة في دغشة الغسق، عندما دخلتها مجموعة من الكاهنات والمساعدات بعد أخذ حمامات التطهير المنصوص عليها. كان على المذبح أوعية مملوءة بماء مقدس ونبيذ وقمح مطحون. تصاعدت من مجامر البخور أدخنة عبقة مدوّخة. تقدمت شالا إلى المذبح ورفعت صوتها قائلة: «بتقديمنا هذا الحمَل يا بيليت إكاليم، نأمل الفوز برضاك، كي تتكرمي وتكشفي لنا أموراً من المستقبل، عسى صفاتك الألوهية تنقل إلينا عرافتك في أعضاء هذا الحيوان».

أعيد نثر صمغ السرو على المجامر، فانتشر الدخان في القاعة مثل الضباب. قامت

كاهنتان بسكب جعة وشعير هدية في الصحفة البرونزية المليئة بالفحم المتقد، وعندئذٍ أدخل الحمل الأبيض المختار بروية إلى القاعة.

رفعت إحدى الكاهنات ذراعيها متوسلة وقالت:

«ألتمس إليك يا ربتي أن تقي مكان العرافة هذا من أن يمسّه أي نجس!
وأن تقي حمَل القربان هذا من أن يكون غير صالح أو ناقص!
وأن تقي هذا الحيوان عند ذبحه من أن يؤثّر رداءُ قربانٍ دنسٍ أو طعامٌ أو شرابٌ دنسٌ تناولته إحدى الكاهنات، على مفعول العرافة، فيحجب رؤية المستقبل!
وأن تقي فم كاهنتك من أن يُفلت الجواب منه على نحو متسرع!».

والآن جاء دور شالا لتطرح السؤال. كانت مستغرقة تماماً وسمع صوتها سماوياً جلياً:

«إني أسألك، بيليت إكاليم أيتها الربة الكبيرة، ما إذا كانت قطنا وملكها سيكونان سعيدين؟».

دوى في القاعة صوت صنج عميق، فيما قامت إحدى كاهنات المعبد بقتل الحمل بطعنة سريعة على شريان الرقبة. وحلَّ الصمت بانتظار انتهاء النزيف. ثم حملت كاهنة أخرى الحمل الميت، وفتحت جسمه بمشرطها بحركاتِ خبير. خلال ذلك أُحرق المزيد من صمغ السرو، وسُكب مزيد من الجعة والشعير. اقتربت شالا من الحيوان وعاينت بروية وضع أحشائه. فصلت بعناية الكبد، مقر الحياة والروح، حيث تركت الربة آثارها، وأخرجته. بعد انتهاء نزفه غُسل الكبد بماء مقدس، وعندئذ حملت كبيرة الكاهنات الكبد بيدها واتجهت نحو كرسي العرافة المرتفع قليلاً، فركع الجميع. إلى يمين شالا ويسارها جلست كاهنتان لتدوّنا كلمات العرافة، واتخذت كاهنتان أخريان موقعيهما إلى جانبها. ناولتها الأولى صحفة لتضع عليها الكبد، بحيث يكون الجانب الكبير باتجاه الشرق. عاينت الكاهنات الكبد بعناية صامتات.

«قُبّة الكبد تماثل رأس أسد، هذا يعني أن الخدَم سيتسببون في عذاب السيد».

«انظروا، إنها تشبه أذُنَ أسدٍ مشرومة. وهذا يعني حسب النصوص أن الأرباب سيتخلون عن الملك على الحدود».

«الجانب الصغير يشبه أذن خروف أو لسانَ ثور، أي أن أتباعاً غير مخلصين أو أعداءً ينوون بالملك شراً».

الملاحظات اللاحقة لمراقبات القربان الثلاث لم تكن مفهومة.

جمدت شالا في مكانها. شحب وجهها وتخشّب. أنصتت إلى داخلها، كي تتمكن في استغراقها من تأويل كلمات الربة على نحو صحيح.

من وراء ستارة المذبح تناهى نشيدٌ رتيب الوقع، تتناوب فيه أصوات الكاهنات. أخيراً فتحت شالا عينيها، بدت نظرتها قادمة من مكان ناءٍ، من الطرف الآخر للعالم.

«لقد شُيِّد تمثال ضخم يبلغ ارتفاعه غيوم السماء. رأسه من الغرانيت، جسمه من الحجر الرملي، وأقدامه من فخّار. عندما تزلزل الأرض تحت أقدامه الفخارية وتعصف الريح حول رأسه الغرانيتي، سيغادر الملك إلى أسلافه».

مزقت صرخةٌ الصمتَ اللاهث، فغطت جميعهن وجوههن من الرعب، وفي اللحظة نفسها تداعت كيا وشالا وسقطتا معاً.

بعد مرور سبعة أيام على الولادة غادرت إهلي نيكالو مخدع النفاس في القصر. وأخضعت الأم الشابة لجميع إجراءات التطهر الضرورية. صحيح أن آثار الحمل لم تكن قد زالت بعد، غير أنها كانت سعيدة بأن تكون بين الناس وبنظرات إعجاب الجميع. وقد أولاها والد الطفل اهتماماً كبيراً عوّضها عن كثير من كروبها.

اجتمع الكل في القاعة الكبرى منتظرين. ومن قاعة العرش دخلت إهلي نيكالو حاملة الطفل على ذراعها. عند بوابة حرم بيليت إكاليم في القصر كان في انتظارهما شالا مع سائر الكاهنات والكهان الذين باركوهما. ثم خطت إهلي نيكالو مع الطفل إلى وسط القاعة، حيث كان أكيزي بانتظارهما. وضعت الصبي الذي بدا غير آبه بهذا كله، على الأرض العارية أمام أكيزي، الذي انحنى أمام أعين الجميع ورفعه عالياً، وبذلك اعترف بأبوته للطفل. ومنذئذ بات الثلاثة عائلة، من الناحية القانونية أيضاً. وبذلك ارتفعت مكانة إهلي نيكالو، فهي لم تعد زوجته الرسمية فحسب، بل أم ابنه أيضاً. ولم يعد بإمكان أكيزي من بعدُ أن يتخلى عنها من دون سبب وجيه. لكنها في تلك اللحظة لم تفكر بهذه الأمور. كانت سعيدة، كما لم تكن في حياتها قط.

دار الزوجان مع الطفل حول المجمر الكبير، لا لكي يطهروه رمزياً بالنار الموقدة فحسب، بل أيضاً ليصبح عضواً في العائلة والعشيرة والمدينة ومملكة قطنا. انتشرت ضجة الحماس في القاعة، فارتعب الصبي من الضجيج المفاجئ وأخذ يبكي، لكنه سرعان ما هدأ عندما أنصت الجميع، كي لا يفوتهم النطق بالاسم.

«ليكن اسمه أمّوت پان»، أعلن أكيزي بصوت عال.

وكان لا بدّ من الاحتفال بذلك.

كان إيداندا سعيداً لتمكّنه قبل العصر من الانسحاب من صخب الاحتفال، وكان يشعر منذ يومين بشيء من التحسن، أضيفت إليه فرحة الاحتفال، فشعر بنفسه مبسوطاً وراضياً، لكنه لم يرغب في التمادي، فقد آن أوان ساعة الراحة. كانت بلتوم منشغلة بلا انقطاع بالوليد الصغير، وكلها فرح ورضا، بينما كان الوالدان يتلقيان التهاني والهدايا، محاطين بأفراد العائلة الكثر. لن ينتبه أحد إلى تغيّبه القصير، فلوّح بيده لكيا عند تقاطع نظراتهما وانسحب بهدوء، بأن مرّ عبر قاعة المكتب والباب السري للوصول إلى معتزله الأثير على قلبه. مساءً سيتحدث بالتفصيل مع كيا، فقد اتفقا على ذلك.

شعر بالحر، فمال على مضجعه، نصف جالس نصف مستلقٍ، وأخذ يهوّي طالباً البرود. انتبهت خادمته المخلصة إلى عودته، فظهرت في إطار الباب وعرضت عليه شراباً بارداً منعشاً، فشكرها راغباً. المسكينة، المتحفظة دائماً، الكتومة دائماً. ونتيجة حذرها وتخوفها البادبين جلياً، كان بوسع إيداندا تصور مرارة التجارب التي مرت بها هذه المسكينة.

شرد قليلاً. هبت نسمة عبر الغرفة ذات الإنارة الضعيفة. ترك العنان لأفكاره كي تسرح على هواها. وربما يكون قد غفا قليلاً، فقد نقَزَ عندما دخلت الخادمة ثانية. لقد جاءت في وقتها لتطفئ عطشه. قدمت له قدحاً كبيراً يسبح على سطحه بعض الثلج. عصير رمان مع منكهات منعشة، لم يتمكن من تمييز روائحها العابقة. شرب بنهم جرعات كبيرة.

«ماذا في الكأس إضافة إلى عصير الرمان؟». سألها.

«روح وردة السياج»، أجابت، «كبيرة الكاهنات قالت إنه..».

«نعم، نعم، هذا صحيح. هل أحضرت هذا القدح فقط، أم أكثر؟».

«هناك المزيد في هذا الإبريق يا صاحب الجلالة».

«أشكرك. دعيني الآن وحدي يا بنتي».

استلقى الملك على مضجعه وأغمض عينيه.

راقبته الخادمة لبرهة بهدوء، ثم قامت ببعض الإشارات باتجاهه وانحنت مصلّبة ذراعيها وغادرت الغرفة.

عندما استيقظ ثانية كان الغسق في بدايته. أراد النهوض، لكن ألماً واخزاً أعاده إلى الوسائد. أحس بحرقة شديدة في حلقه. مد يده بصعوبة إلى القدح، فوجده فارغاً، ولم يكن بمستطاعه الوصول إلى الإبريق. حاول أن يتذكر. كان يوم الاحتفال بولادة أمّوت پان. كم نام يا ترى؟ أين الخادمة؟ من أين هذا الألم؟

سمع أصواتاً من وراء الباب. أحدهم قال مؤكداً: «الملك لا يريد أن يزعجه أحد!».

«هو الذي طلبني إليه. وسأدخل الآن!».

ابتسم الملك رغم ارتباكه وألمه. كان ذلك صوت كيا.

«أبي»، قالت عندما رأته مستلقياً كالعاجز، «ما بك؟».

هز إيداندا رأسه بضعف ولحس شفتيه.

«أنت عطشان؟ انتظر، سأحضر لك ماء طازجاً بسرعة».

عادت إليه بلمح البصر، جلست إلى جانبه ممسكة بالقدح على شفتيه، فشرب ببطء، وقد صعب عليه البلع جداً. كان يحس بنار في حلقه. حاول أن يتنحنح، لكن ما صدر كان مجرد حشرجةً.

«هل أحضر شالا؟ ما به حلقك؟ هل عندك سخونة؟».

هز الملك رأسه. الأفضل هو النوم. ثم همس لها: «تعالي غداً باكراً يا صغيرتي. أنا الآن مهدود، لست قادراً على الكلام معك. تعالي باكراً!».

«كان الأرباب معك يا أبي الحبيب!».

غادرت كيا الغرفة وهي في غاية القلق. لا يمكن لكلمات الربة أن تتحقق بهذه السرعة! سألت عن الخادمة التي تحدثت شالا معها. لم يرها أحد منذ ساعة، لكنها قالت قبل ذلك إن الملك لا يرغب في أي إزعاج. ليس في الأمر ما هو غير عادي، سوى أنه قد جرى اليوم تحديداً. لكن الخدم لم يستغربوا الأمر. أمرت كيا الخدم بتحضير شراب مسكن للحلق وبإحضار وجبة خفيفة للملك. وأمرت بضرورة أن يبقى أحدهم قربه ليهتم بمضجعه ويهوّي له ويشرف على راحته. وإذا ساء حاله فليطلبوها من بيت الربة بأقصى سرعة. هذه المرة توجهت كيا إلى شالا مباشرة وأخبرتها بكل شيء.

ناوشت الملك أحاسيس مقلقة، ونأى عنه النوم. اعتدل قليلاً وتمكن بصعوبة من شرب جرعة ماء. كان مذاق الماء لذيذاً جداً، رغم الحرقة في حلقه. ورد السياج، أكان

هذا ما لم يناسبه؟ لكن شالا هي التي نصحت به، وهي تعرف ما تفعل. شالا! لا بدّ من ترتيب أمور كثيرة معها، ومع أكيزي كذلك. كيف ستكون الحياة بالنسبة إلى إيست بعد أن يموت؟ وكيا؟... هدّأ من روعه، فكيا ستكون في المعبد في حماية جيدة. ولكن إيست! بلتوم ستحترم رغباته. يجب أن يجعلها تعده بذلك. لماذا لم يعد الساعي من حتّوشا؟ ربما لم يصل إليها مطلقاً. هل اصطادوه على الطريق؟ هل أصابه مكروه؟ أمور كثيرة قد تحدث. كل هذه المشاكل بدأت بزيارة أمونحوتب الغريبة. هذا الشيطان. اختلطت الصور في رأسه. نَفَز. مَن في الغرفة؟ لا، لا يوجد أحد. ظن للحظة أن أباه يقف أمامه. أيها الأرباب، احموا قطنا! ما هذا الضجيج؟ أيحلم ثانية؟

لكن هذا صوت تيرو. ماذا يريد هذا الآن؟ لم يكن يريحه أبداً أن يبدو في حال سيّئ أمام سِلْفه. شدّ عزمه وتجلّد عندما دخل عليه خادمٌ ليعلن قدوم الشريف تيرو الذي يصر على الدخول، ليعتذر من الملك.

يا للعجب، هذا خبر سار. لم يكن يتصور طوال مدة حكمه أن يتصرف تيرو بولاء. كان الوقت متأخراً في واقع الأمر، فقد حل الظلام في الخارج، وهواء الليل البارد يهب على الغرفة. ولكن في سبيل الصلح لن يكون الوقت أبداً متأخراً. أشار بيده أن أدخله. ساعده الخادم على أن يعتدل ويجلس، ورتب له وضع ردائه ثم أذِن للضيف بالدخول.

لم يدخل تيرو وحده، بل في صحبته شيخ بدو، لم يسبق لإيداندا أن رآه. ومن المدخل قال تيرو من دون التحيات الرسمية:

«يا صهري إيداندا، لقد انحلّ لغز الغارات على القوافل! تفضّل، هذا الشيخ المحترم يمكنه أن يعطينا كل المعلومات اللازمة».

تقدم الرجلان معاً. أراد إيداندا أن يقول شيئاً، لكن حلقه ازداد ورماً فصار الكلام أصعب.

«ألا تستطيع الكلام يا مليكي؟». سأله تيرو وأضاف: «جيد جداً».

ظن إيداندا أنه لم يسمع جيداً. كان جالساً هناك على مضجعه، عاجزاً، غير قادر على الحركة ولا على الكلام. ثبّت نظره على تيرو. تحولت الظنون إلى يقين. وفيما شفتاه تشكلان لعنة تشمل المجرمين معاً، استل شيخ البدو من تحت عباءته خنجراً ذا نصل ضيق وطويل، وهمس:

«عليك أن تطعن من تحت بشكل مائل».

وضع تيرو رأس الخنجر أسفل صدر إيداندا. كانت سحنته تشبه شيطاناً مرعباً. وما قاله لم يسمعه إيداندا، فقد انغرز الخنجر في قلبه دون أية مقاومة. مدّداه معاً كأنما لبرتاح، وغطياه بشرشف ملون. غادر تيرو الغرفة أولاً، وبعد فترة غادر البدوي بعدَ أن أطفأ السُّرج.

استيقظت كيا في الوقت نفسه مع أمينابة. كان جو المخدع حاراً، وسكون الموت يهيمن في الخارج. ثم سمعتا هزيماً مرعباً. من الساخط يا ترى؟ إيل أم ياو أم عشتار؟ اعتدلت الفتاتان في سريريهما.

«ما معنى هذا؟».

«هذه هي الإشارة، وفوراً ستزلزل الأرض»، قالت كيا «يجب أن ننهض فوراً».

لفّتا نفسيهما برداءيهما.

«هيا، لنخرج من هنا. الأفضل إلى الباحة، هيا نوقظ الأخريات».

أسرعتا إلى المخادع المجاورة وصاحتا بالأخريات للخروج. ثم جاءت الرجّة الأولى. كانت خفيفة كالشعور بميلان قليل على سطح قارب. دوّت صرخات في الحرم. وهبت ريح في الخارج.

صاحت كيا: «بسرعة إلى الباحة أو إلى الطريق». ثم شقت طريقها إلى شالا. كانت تعرف أنها أرادت أن تمضي الليل عند قدمي الربة راجية العون للملك ولقطنا.

«احفظي شالا يا ربتي!». همهمت كيا مهرولة: «لا تتخلّي عن خادمتك!».

كانت شالا متمددة كالميتة. من دون مراعاة الطقوس الواجبة، اندفعت كيا نحوها ووضعت أذنها على صدرها. القلب يخفق بقوة. بكت كيا ارتياحاً وأخذت تهزها وتهزها. عندما فتحت شالا عينيها كانت الأرض تهتز.

«إيل ساخط»، قالت كيا «هيا انهضي!».

ببطء استعادت شالا وعيها.

«إيل ساخط؟ هل وقعت الواقعة إذاً!».

شدت كيا شالا وراءها ببساطة نحو الباحة، حيث تجمعت النسوة كلهن. كانت شالا قد تيقظت تماماً، فجاء سؤالها الأول: «أينقص أحد؟». ثم تلفتت حولها. بدا على ضوء المشاعل أن الأبنية من حولها لم تصب بأي أذى بعد، فلا حجارة متساقطة ولا حرائق. تكرر الهزيم والأنين، ولكأن الجدران تتأوه تحت ثقل ضاغط. اشتد هبوب الريح.

خرجت كيا إلى الطريق والقلق يتأكلها لترى ما إذا كان القصر أصيب بأضرار، أو ما إذا تجمع سكانه على السطح. صاحت بها شالا لتعود، ثم قالت: «النبقَ معاً. هيا إلى الحديقة، هناك سننتظر الفجر. ولنأمل حتئذ أن تهدأ أمنا الأرض. ابتهِلن للأرباب طلباً للرحمة، صلّين لإيل وعشتار، لياو وبيليت إكاليم!».

يبدو أن الدعوات الصادقة قد استجيبت، إذْ توقفت الهزات، ولم تنشقّ الأرض. كما خمدت الريح، وبدت السماء صافية بنجومها المتلألئة. بعد فترة قصيرة سمعن نداء أول طائر ليلي، وكان ذلك إشارة الخلاص.

«ربما لم تكن قطنا المقصودة»، همهمت شالا «أم أن إيل قد أرسل نذيره؟ نذيرٍ آخر؟ أم إنذار؟ أياً يكن فهي علامة سوء».

كشف ضياء النهار عن بعض الأضرار داخل المعبد وخارجه. لن يصعب إصلاحها، وها هو الآجر الطيني قد صمد ثانية.

كبر الأمل في قلب كيا، فالهزة الأرضية كانت خفيفة، وتلك الريح لا يمكن أن تسمى عاصفة. وإذاً ليست هي الإشارات المرتبطة بالملك، ولا بدّ أن لها تفسيراً آخر. وهناك، حيث كان أثر الزلزال شديداً، في أمورو أو ألالاخ أو في أي مكان آخر، هناك كان هدف رسالة الأرباب. ومع ذلك كانت تجربة صبرٍ قاسية، أن تنتظر حتى السماح لها بزيارة والدها. لقد منعتها شالا من دخول القصر قبل أن تُفتح بواباته الكبيرة، وحتى إن كانت شديدة القلق على والدها. مهما كان الأمر مريعاً، لم يكن بوسعهن أن يفعلن شيئاً. فمن القصر لم يصل إليهنّ أيُّ خبر، والخادمة تلك لم تظهر. الأمل والانتظار. إذا كان تأويل العرافة صائباً، فقد تأخر الوقت وانقضى الأمر.

كان حرّاس القصر ما زالوا يتثاءبون، وكان كل شيء هادئاً، سوى بعض الأصوات المألوفة من جناح المطبخ. كانت الأضرار هنا أقل من المعبد. الواضح أن الجميع عادوا ليناموا بعد أن هدأت الأرض. لم تبال كيا بهذا كله. كانت تأمل ألا يكون وصولها مبكراً على نهوض أبيها. كانت تأمل أن تعانقه فوراً، وأن تجري معه الحديث الذي طلبها من أجله، فقد كان الأمر يهمه جداً. ولكنها كلما اقتربت من معتزله ازداد انقباض قلبها. ماذا قالت شالا؟ إذا سخط إيل، فقد انقضى الأمر!

لم تر أحداً في غرفة المعيشة ولا في ردهة المعتزل. ربما جعل الزلزال الخادم يهرب ولم يعد.

الشكر للرب! ما زال الوالد نائماً! تقدمت كيا منه بهدوء. لكنه لم يتحرك، ولم يتنفس.

«أبي!». انحنت فوق مضجعه، بللت أصبعها ووضعته فوق فمه. أحست بنفحة نَفَس تخرج من فمه، أم تراها مخطئة؟

«أبي!».

وانتبهت إلى البقعة المبلولة على غطاء السرير. حمراء. رفعت الغطاء واكتشفت الخنجر. لبّت أول حافزٍ ألمّ بها وسحبت السلاح من جسمه، فنزف الجرح بشدة. في تلك اللحظة فتح إيداندا عينيه، واعتقدت كيا أنها لمحت ابتسامة على فمه، فانهمرت دموعها. أمسكت بمنديل وحاولت إيقاف النزيف دون أن تفارق عيناها عينيه.

«يا نور عينيّ!». همس الملك.

حاول أن يقول شيئاً آخر: «تالزو يعرف، أن تـ..»، هذا ما فهمته. بذل الملك جهداً جباراً ليبدأ الكلام من جديد: «أ..». ولم يخرج من فمه أكثر من ذلك. وبعد لحظات: «عليك بالمجرمين!». ومات صوت الملك.

أضاء وجهه لهنيهة، وعندما انطفأ كان الدم الأخير قد نزف من الجرح. صار ملك قطنا على الدرب إلى أسلافه.

وجدت شالا كيا تنتحب على صدر أبيها. لقد تحقق كل ما جاء في النبوءة. ولكن على الرغم من الألم الذاتي كان لا بدّ من برودة الأعصاب، فهي مدينة للملك بذلك. سحبت كيا بلطف وعزم، وأغمضت عينَي الميت.

«اجلسي هنا، إلى جانب الملك، كيا. ستقومين الآن بحراسته!».

رتبت شالا بدقة وعناية جميع الأمور الضرورية آنياً. سترت آثار الاعتداء ما أمكن، فردت غطاء جديداً على الملك وأخفت مكان الطعنة، ونبّهت كيا لئلا تسمح لأحد بالدخول إلى المعتزل. ثم أرسلت خادماً إلى المطبخ، وآخر إلى أكيزي، وأمرت خادماً ثالثاً بالوقوف عند مدخل غرفة المعيشة لمنع الغرباء من الدخول، وعادت إلى غرفة الميت. فتحت بحذر فم الملك للحظة. كان لسانه متورماً ومبقعاً. وهذا! ما توقعته. رتلت دعاء تبريك على رأس إيداندا. كان لا بد لها من تأجيل جميع الطقوس الضرورية إلى أن تتحدث مع أكيزي، كي يتفقا على الخطوات الصحيحة معاً. وأثناء الانتظار عاينت الغرفة بدقة إلى أن رأت الإبريق الفخاري بجانب السرير، فتناولته وتشممت رائحته: عصير رمان. ولكن ماذا أيضاً؟ ستحاول حل هذا اللغز في بيت الربة لاحقاً.

بنظرة واحدة على ما يبدو أدرك أكيزي الوضع، فوقف عند المدخل مرعوباً. «هذا غير ممكن، يا ربي! هكذا فجأة! ماذا جرى؟ ما بها كيا؟».

نهضت شالا وسحبت أكيزي إلى غرفة المعيشة وقالت له: «واضح أن الملك كان يُسمَّم منذ فترة، كي لا يتمكن من المقاومة عندما يطعنه القاتل. الاغتيال جرى مساء أمس أو أثناء الليل. وربما أثناء غضْبةِ إيل، ربما لهذا السبب أرسل الرب إشاراته. لا أعرف، لكنني لا أصدق أن الأمر محض مصادفة».

«ما هذا الذي تقولينه؟ أيها الأرباب! يا لها من مصيبة. من يجرؤ على عمل كهذا؟ هل عرفت الملكة؟».

«ليس بعدُ. أردت أن أكلمك أولاً، كي تكون مستعداً لمجلس الأعيان».

«ما الذي ترمين إليه؟».

قاطعهما دخول الخادم حاملاً إفطار الملك من المطبخ. أخذت شالا منه الصينية وصرفته، ثم عادت إلى أكيزي وتابعت كلامها: «يجب أن تهيئ نفسك لعدم موافقة المجلس على وراثتك العرش، ما دام والدك قد مات مقتولاً!».

شحب لون أكيزي وقال: «لا يجوز أن يعلم أحد بالأمر، شالا».

انضمت إليهما كيا دون أن يلاحظا ذلك، وكانت تحمل بيدها سلاح الجريمة، وقد أزاح حنقٌ بارد بكاءها المتفجع جانباً. وإذا كانت قبل قليل تنتحب مثل طفل، فقد بدت الآن تجسيداً لربة الانتقام. قالت لهما: «يجب أن نتقصى ما جرى مساء أمس بعد أن غادرته. هل استقبل الملك أحداً مساءً؟ هو ذكر (مجرمين). أيٌّ من الخدم بقي في خدمته؟ لماذا اختفت تلك الخادمة بلا أثر؟».

في الوقت نفسه تقريباً سألها كلاهما: «كان الملك حياً عندما أتيت؟ وتكلم أيضاً؟».

ثم قال أكيزي فجأة: «دعيني أرى هذا الخنجر!».

«أتعرفه؟».

«أظن ذلك. إنها قطعة سلاح تلفت النظر. انظري هنا، هذه القبضة العاجية النحيفة والمحفورة بعناية كبيرة بأشكال حيوانات برية. إما هذا أو ما يشبهه، رأيته في خيمة الشيخ إيدريمي المحترم. وأظنه خنجر ابنه. لكن هذا غير معقول مطلقاً!».

«سنناقش كل شيء بهدوء. أما الآن فلا يسعنا الانتظار طويلاً. الطقوس الضرورية يجب أن تأخذ مجراها»، قالت شالا بإلحاح وأضافت: «وإلا تأذت روح الميت!».

فأجاب أكيزي: «معك حق، شالا المبجلة، يا كبيرة كاهنات قطنا. ولكن قبل ذلك، علينا أن نحسم صيغة الإعلان الرسمي عن الوفاة. صياغتها لن تكون أمراً سهلاً. إذا أعلنت حقيقة أن الملك قد قُتل، فسيكون لدفنه طقس خاص، ولا بدّ من تطهير القصر من الخطيئة. وهذا يعني أن الملكية لا يمكن أن تبقى في عائلتنا. وهذا سيسبب اضطراباً كبيراً في قطنا وعند جيراننا أيضاً، وتحديداً في هذه الظروف الحرجة المتوترة. لا يجوز أن نسمح بحدوث ذلك. لا يجوز لبنت شفة أن تخرج من هذه الغرفة بشأن حقيقة قتل الملك!».

«كيف يمكنك الكلام بهذه الصورة؟ لا بدّ أن ننتقم لأبينا. قتلة جبناء جعلوه عاجزاً وطعنوه، وهذا أسوأ من نحرِ أي حيوان. يجب أن نجد القتلة ونفضح كل شيء. لماذا كان موته ضرورياً؟ هناك عدّة أطراف متورطة في الأمر. لا يمكنك أن تتكتم على هذا، فقط من أجل عرشك!».

«كيا، يا أختي، أرجوك افهميني. الأمر لا يتعلق بي أنا. بل بقطنا».

«وفِّر هذا النفاق. أنت لا يهمك سوى العرش. لطالما كنتَ طوال الوقت ضد أبي. ولربما كان يقصدك أنت!».

دهمتها موجة رعب جديدة. تهاوت على كرسي بلا ظهر ووضعت رأسها بين يديها وأخذت تنتحب. لم يمنع هذا أكيزي من الهياج، فكاد أن يهجم على أخته، لولا أن أوقفته شالا.

«اجلس!». قالت له بحزم. انتظرت قليلاً ثم قالت لكيا: «عليك أن تخبرينا الآن بما قاله الملك. كرري كلماته بدقة».

«سأخبرك أنتِ فقط».

«أكيزي أخوكِ، والملك القادم، يجب أن يعرف مثلي تماماً».

فأجابت كيا قانطة: «لقد حسمتِ أمركِ إلى جانبه إذاً!».

«مثلما حسمتِ أنت أمرك إلى جانب قطنا»، قالت شالا من دون تردد. «لا أريد أن أعيق الوصول إلى الحقيقة، بل بالعكس. ولكن ليس في مصلحة أبيكما أبداً أن تتمزق قطنا، نتيجة اضطرابات داخلية، فتصبح طريدةً سائغة للأعداء. أمورو مثلاً تتربص بنا وستنقض علينا إن أعطيناها الفرصة، لتضمنا إلى مملكتها. أنا أعتمد إذاً على رجاحة عقلك، وأرجوك مجدداً أن تكرري علينا الآن كلمات الملك الأخيرة!».

ازدردتْ كيا ريقها، وقد أدركت أن لا خيار آخر أمامها. لكنها لن تقول جميع الكلمات، فاثنتان منهما تخصّانها هي فقط! ثم قالت بتلعثم: «عندما وصلت إليه كان قد نزف كل دمه تقريباً، لكنه بمعجزة ما بقي حياً. ربما كانت تلك رغبة الربة، أن يخبرني بمن قتلوه، ولماذا. لكنه لم يكلفني بأمر واضح. قال أولاً: (تالزو يعرف، أن تـ..).ثم حاول أن يضيف شيئاً آخر، ربما كان يقصد شخصاً ثانياً، لكنني لم أفهم منه سوى (أ..). ثم قال بوضوح: (عليك بالمجرمين..). وهذا يعني العثور عليهم وفضحهم. أليس كذلك؟».

«ماذا قصد بقوله (تالزو يعرف)؟». سأل أكيزي شالا التي هزت كتفيها.

«كيا، ماذا قصد بذلك؟».

هل تفرّط بكل معلوماتها؟ لكن الأمر قد انقضى وحُسم. أكيزي سيصبح ملكاً وتبقى الملكية في العائلة. وذات يوم سيجلس أموت پان الصغير على العرش. وإذا خطر في بال أكيزي أن يؤذيها في المستقبل، فيمكنها تهديده بكشف الأمور المخجلة، التي جرت هنا صباح هذا اليوم، فلن يجرؤ.

فأخبرتهما بملاحظة تالزو التي حولت شك أبيها إلى يقين: تيرو كان الخائن أو أحد الخونة. تيرو، سِلْفه، شقيق الملكة. ثم أضافت: «ربما كان الشخص الثاني بدوياً. والبدوي في قطنا لا يلفت النظر. قلت لكما إن علينا إيجاد الخادم الذي كلمتُه البارحة مساء، واستجوابه..».

«هل جاء هذا في الرسالة التي أرسلها تالزو إليك؟». سأل أكيزي مقاطعاً إياها.

فأومأت كيا برأسها.

«سنعود إلى هذه المسألة. وعند سماعك (أ..). خطر أكيزي ببالك، فالأمر واضح!». قال أكيزي بسخريته الواخزة.

«لا، هذا غير صحيح! فقط عندما سمعتك تتكلم بهذه الطريقة ووالدنا لمّا... اعذرني، كنت مخطئة. كنت حانقة ساخطة وهاجمتك دون وجه حق، أنا آسفة. في الواقع، مَن أشتبه به يرعبني». وأخذت كيا ترتجف.

وقفت شالا وأحاطت كيا بذراعها وكأنها تحميها. ثم قالت: «ألا يفترض بنا، بل ألا يجب علينا تأجيل الموضوع الآن؟ يجب أن نولي اهتمامنا للملك، ويجب أن نخبر الملكة وأوريّا الناطق باسم المجلس، وكهنة قطنا. هذا لا محيد عنه. أكيزي، نحتاج هنا إلى خدم موثوقين مخلصين. في حال الضرورة عليك أن... حسناً، أنت تعرف شغلك. عليهم

مساعدتي في تحضير الملك للتسجية. أعطني الخنجر، سأحتفظ به عندي. عليك أن تكلم كبير كهّان بعل، وعندما أصبحُ هنا جاهزة عليك بسرعة أن تخبر أمك وبقية أفراد العائلة».

«وماذا علي أن أقول؟».

فجأة بدا أكيزي كالعاجز. الأمل أن يحسن القيام بدوره، فكّرت شالا وتذكرت تحفظات إيداندا على بكره. ولكن لا بديل عن أكيزي، ثم إنه لا يشبه خاله في شيء. ولقد تم تدريبه وتحضيره للمنصب. حتى وإن لم يكن بقامة إيداندا، لكنه يعرف دوره. ولربما ساعده الأرباب في هذه المهمّة.

«ستقول: الملك توفي فجأة أثناء الليل، ربما بسبب مشكلة في الكبد أو المعدة، كانت تعذبه منذ مدة. ووجبة الاحتفال أمس سرَّعت النهاية. كيا وجدته ميتاً عندما جاءته صباح اليوم بناء على طلبه. والحرس يمكن أن يؤكدوا دخولها القصر».

«لكنني جئت باكراً جداً!».

«كنتِ غارقة في ألمك، فتأخرت في إخبار أكيزي».

«وأنت؟ الحرس رأوك والخدم أيضاً».

«كان عندي ما أُخبر به الملك، فجئتُ دون أن يستدعيني. ثم اعتنيت بك أنتِ. لا تقلقي، كيا. لا يحق لأحد أن يسائلني بشأن سلوكي».

«وماذا بشأن غضبة إيل؟».

«لم يكن قصدها قطنا، فالهزة الأرضية هنا كانت خفيفة جداً. ربما أصابت منطقة الساحل، علينا أن ننتظر الأخبار، التي ستصل قريباً».

«وماذا إذا تكلم تيرو؟».

«سيكون معتوهاً بأن يسلّم رقبته لسيف الجلاد».

«تقولين هذا لأنك تصدقين كيا. ولكن في حال اتهمَ ابن الشيخ إيدريمي؟».

«بأي دليل؟ أبعد عنك الهواجس، أكيزي. الخنجر مخبّأ عندي. إذا كان تيرو يعرف بأمره، فهذا يكشف أنه كان موجوداً. الشرط هو أن نصمت ثلاثتنا. والخدم. عليك بسرعة أن تجد الخادم والخادمة. اذهب الآن وأرسل إلي مساعدَين موثوقين. كيا، اذهبي أنت أيضاً. خذي معك هذا الإبريق واحفظيه بحيث لا يمسه أحد. ثم أخبري أمينايا بأن الملك قد مات وأن عليها أن تأتي إليّ في القصر حالاً. هي تعرف ما علينا فعله. أما أنتِ فابقي في بيت الربة. كلي شيئاً!».

بفضل سلوك شالا الذكي سار كل شيء على ما يرام، من دون أن يشتبه أحد بشيء أو يطرح أسئلة مزعجة. كادت الملكة تفقد صوابها ألماً، واستمرت تنتحب وتندب فقدان الملك والزوج حتى حدود الانهيار. ولم يتمكن أكيزي وإهلي نيكالو من إقناعها بالنوم بعض الوقت لترتاح، بل إنها لم تغادر غرفة الميت إلا لبرهة قصيرة، سمحت لإيست برؤية زوجها وسيدها. بأسلوبها الرصين، ورغم حزنها العميق انتبهت إيست إلى غرابة منظر الملك، لكنها حافظت على صمتها. فما الذي تعرفه عن طقوس الدفن في هذا البلد؟ لا شيء تقريباً. هل سينتظرها زوجها الحبيب في الغرب يا ترى؟ هذا ما كان يهمها، ولا شيء سواه.

عدة قرعات عميقة على صنوج برونزية أعلنت على الملأ في المدينة كلها موت الملك. وأُرسل السعاة إلى المناطق المحيطة بالمدينة لنقل الخبر المريع. استمرت شعائر الموت أربعة عشر يوماً، بدأت بـ (وقت الشدّة) ما دام البلد الآن من دون حاكم. ولهذا السبب دخل كل من يرتبط بحضور الشعائر بمرحلة صوم طوعي، وقد شمل هذا: الكاهنات والكهان، الندابات ومن يلحق بهن، أفراد العائلة الملكية، كبار ذوي المناصب وزوجاتهن. وتكريماً للميت ذبح ثور حرثٍ ووزع لحمه مع نبيذ، ثم كُسرت الدنان الفارغة وقدمت للميت. بعد مغيب الشمس أقيمت شعيرة الكفّارة وبدأت ليالي السهر على الميت.

بعد منتصف الليل حمل رجال بأقنعة عجيبة مرعبة جثمان الملك إلى بيت الأموات. لا يسمح بالدخول إلى بيت الموتى إلا للمخوّلين، وسوى التكهنات لا يعرف أحد ما يجري هناك. ولكن بناء على الأدخنة المتصاعدة يمكن التخمين بأن للنار شأناً هناك. ثم إن كميات الجعة والنبيذ والمشروب الخاص التي طُلبت تشير أيضاً إلى استخدام النار، على الأغلب لإطفائها، ولكن ليس هناك من يصر على معرفة التفاصيل بدقة. وكان الناس بكل إجلال وخوف يتجنّبون الساحة التي يوجد فيها مدخل بيت الموتى. ولا يعرف أحد مَن الذي يقوم بالخدمة هناك. وكانت ترافق الشعائر الغامضة وجبات من الأضاحي مقدمة للأسلاف والأرباب والحزانى.

بعد الإقامة في بيت الموتى أعيد الملك إلى قصره، حيث سجّي بعناية على الحامل الخشبي ووضع في قاعة الاستقبال، حيث يمكن للجميع المشاركة في الحزن عليه خلال الأيام القادمة. أما حالياً فقد سُلِّم لرعاية الكاهنات.

أنجزت شالا مع مساعداتها عملاً بديعاً، فقد ألبسن الملك زينته الأجمل، ولا سيّما

معطفه الملكي المزيّن بالشراريب، ثم جاءت السلاسل حول رقبته والأساور العريضة حول ذراعيه. وحسب التقاليد عُقد شعره أعلى رأسه على شكل عقصة عريضة مربوطة بشريط قماشي رفيع، وسرح شعر لحيته فبدت ملساء. كان لوجهه وعينيه المغمضتين وفمه تأثير رجل نائم بسلام، ولم يدر سوى خاصة الخاصة أن وجهه قد غطي بطبقة بلون البشرة الطبيعي كقناع موت. وبعد ذلك زوِّد الملك بِشارات مُلكه، فأُلبس التاجَ لآخر مرة على رأسه المرفوع على وسادة نفيسة. وفي يمناه وضعت العصا المعقوفة، رمز الراعي العادل، الذي يرعى خرافه بإخلاص وعناية. وفي يسراه المبسوطة على صدره وضع الصولجان. وأمامه أُشعل سراج إلى جانب إناء مملوء بزيت فاخر. وبعد ذلك صار ممكناً إجراء شعيرة الميزان. حصل الأرباب على مشروبهم المفضل، الجعة، وعلى أفخاذ الخراف والزبيب والزيتون والخبز، إضافة إلى ندائف الصوف. ثم تناولت كبيرة الكاهنات في يدها ميزاناً، وضعت في كفته الأولى فضة وذهباً وجواهر، وفي كفته الثانية حفنة تراب، وقالت في الحوار مع مساعدتها: «ليُحضر أحدهم إيداندا، من سيحضره إلى هنا؟».

«رجال قطنا والقضاة سيحضرونه إلى هنا».

«عليهم أنْ لا يحضروه إلى هنا!».

«خذي الذهب والفضة!».

«لن آخذ الذهب والفضة!».

ومع التكرار الثالث تقول الراقية قارئة العزائم: «سآخذ التراب».

ثم يُكسر الميزان ويوضع إلى جانب الميت، ويعود الترتيل والندب. تُقدّم أبقار وخراف قرباناً للأرباب. تملأ صيحات الندابات القاعة وهن يمزقن أرديتهن حسب ضرورات الطَقس. يتناوب الكهان في السهر على الميت جالبين معهم بخوراً يملأ عبق دخانه القاعة للحصول على رضا أرباب العالم السفلي. عمّ الحزن مملكة قطنا، فتوقفت الأعمال والأشغال اليومية، أو تم تأجيلها. فالرعية تودع راعيها المحبوب.

إن موت الملك المفاجئ وغير المتوقع، أثار نوعاً من الفزع والذهول بين أعضاء مجلس الأعيان، الذين دعيوا للاجتماع على نحو مستعجل. وعلى الرغم من ذلك استمرت الحياة على منوالها المعتاد. لكن المدينة لم تستطع البقاء دون قيادة، ولذلك، وبناء على الأنظمة المعمول بها، تسلّم رئيس المجلس، أوبيّا، مهام الملك مؤقتاً.

«يا أعيان قطنا! إن الحزن يغشى وجوهنا لفقدان ملكنا المحبوب. احجبوا وجوهكم وصلوا لأرباب العالم السفلي ملتمسين له قبولاً رحيماً!». بهذه الكلمات افتتح أوپيا الجلسة، ثم طلب من وليّ العهد تقريره. كان حزن أكيزي عميقاً، لكنه تماسك عندما أخبرهم بأن الملك كان معتل الصحة منذ فترة، دون أن يولي مرضه الاهتمام الضروري. ولكن مع تفاقم المرض والآلام المرافقة له طلب المساعدة من دار الشفاء، إلا أنه تأخر في ذلك على ما يبدو. حسب تشخيص الخبراء كان سبب علته المعدة أو الكبد، وعلى الأغلب كليهما معاً.

«واحتفال الأمس بمأكولاته الدسمة وشرب النبيذ صافياً قد أدى بسرعة إلى تشنجات ونوبات مغص ومن ثم إلى موت سريع، بحيث لم يكن بوسع أي طقس أو دعاء أو صلاة أو دواء أن يؤثر في ربة الموت».

«عندما زرته بالأمس لأهنئه بحفيده الرائع»، سُمع صوت تيرو وكأنه آت من قبر، يقول: «شكا بأسلوبه المتماسك من أنه ليس على ما يرام. عرضت عليه إرسال أحد إلى دار الشفاء، لكنه رفض. يا ليتني فعلت! أتراه كان موقناً من قدوم الموت؟ آه منكم أيها الأرباب الظالمين، لماذا هو بالذات؟ في ذروة نضجه وخبرته!».

تدخل أوپيّا فوراً طالباً منه الصمت وعدم التجديف، كي لا يستنزل عليهم مصائب أخرى. لم يصدق أكيزي ما سمعت أذناه، فنظر إلى خاله بحيرة وذهول. أيمكن لأحد أن يكذب بهذه الدرجة من الإقناع؟ ولكن يجوز أنه لا يكذب، وأن الملك أراد قول شيء مختلف لكيا. ها هو ذا يعترف، على الأقل، بأنه قد زار الملك. لا بدّ من مراجعة هذا كله بدقة وسراً. هناك الآن ما هو أكثر أهمّية: أن يُعترف به وريثاً للعرش ليس سوى إجراء شكلي، لكن المرء لا يمكن أن يكون على يقين تام من ذلك. موقف تيرو من الأمر لا يزال غامضاً.

«الملك سيلتحق بأسلافه الملكيين. ونحن سنبذل كل ما في وسعنا كي يعبر طريقه إلى العالم السفلي بنجاح، فيبقى هناك حياً حسبما يليق به إلى أبد الآبدين». صمت أوپيّا برهة قبل أن يردف قائلاً: «ونحن المجتمعون هنا يجب أن نتفكر الآن بالعواقب المترتبة على موته، فهذا هو سبب اجتماعنا. الملك إيداندا ترك لنا قطنا في وضع مثالي. وخليفته على العرش مهيأ بأفضل صورة. ونحن المنوط بنا أن نقر ذلك الآن. بصفتي الناطق باسم المجلس يحق لي تقديم الاقتراح الأول، وأنا أوصي بأكيزي بكر إيداندا وبلتوم الذي تأهل بكل عناية لهذا المنصب!».

ترددت في القاعة أصداء موافقة عامة على الاقتراح.

«وكيف تفسر غضب إيل!». سأل غابوللي. مرّر أصابع يده على لحيته الرمادية الطويلة والقلق بادٍ على وجهه من نذير الشؤم هذا، وأضاف: «ألا يجب أن نتفكر فيه أيضاً؟».

«ترى كهانتنا أن الزلزال لم يستهدف قطنا. ورغم ذلك تقترح كهانتنا إخضاع الملك القادم لحكم الرب، لإزالة أي شك محتمل».

وثانية ترددت في القاعة همهمات الموافقة. لم يظهر على وجه أكيزي أي نوع من التعبير.

«هل ثمة اقتراحات أخرى لخلافة الشريف إيداندا؟». سأل أوبيّا متلفتاً في القاعة.

لم يتقدم أحد من الأعيان باقتراح. ومع ذلك نظر أوبيا وأكالّينا عدّة مرات صوب تيرو. فهو لم يتوانَ أبداً عن المجاهرة بمعارضة الخط السياسي لصهره. والآن بإمكانه أن يدلي بدلوه، أن يرشح نفسه مقابل أكيزي. لكنه لم يقدم على ذلك. أيخشى حكم الرب يا ترى؟

«حسن إذاً، جميعنا موافقون على أن وليّ العهد أكيزي، بكر إيداندا بن أولاشودا وبلتوم بنت نابليما، سيكون وريث العرش في قطنا. بعد مراسم الدفن عليه أن يخضع لحكم الرب لتأكيد خيارنا. ومن ثم يمكننا تتويجه. كان الأرباب في عوننا وعون قطنا!».

رجع أوبيا إلى الخلف وجلس على كرسيه.

تقدم كاهن من أكيزي، وفي أثناء تقديم قرابين البخور والشراب مُسِحَ وليّ العهد المرشح لوراثة العرش، واقتيد إلى الكرسي الشاغر المرفوع على منصة في منتصف القاعة. أبدى الجميع تبجيلهم للملك القادم. بذل أكيزي جهده ليبدو مسترخياً، لكن قلبه كان يخفق بشدة من الفخر. وللحظة عابرة غابت عن ذهنه الأحداث المهدِّدة وخوفه من حكم الرب القريب: هكذا ستكون الأمور دائماً في المستقبل، الجميع سينحني له احتراماً. سيكون السيد، ملك قطنا.

كان تيرو آخر مَن تقدم منه، فنهض أكيزي بصورة غريزية واقفاً، فكان أطول من خاله برأسه تقريباً.

«يا ابن أختي الحبيب، أخبرني عندما ستحتاج إلى دعمي إياك بخبرتي الواسعة وعلاقاتي الجيدة. أنا هنا من أجلك في أي وقت، ولا سيّما أنك قد بتَّ يتيم الأب!». وعانق أكيزي على نحو مبالغ فيه. وفجأة خطر في بال أكيزي أنه عملياً حتى الآن لم يولِ خاله أية أهمّية. ولكن في لحظة العناق انتابه إحساس بأن أفعى تلتف حوله.

انسحبت إهلي نيكالو وأمها وطفلها إلى المخادع، كانت تتألم حزناً على وفاة حميها الذي احتل مكانة عالية التقدير في نفسها، وخوفاً من المستقبل. وكانت تأمل ألا يكون ذلك فألاً سيئاً لصغيرها أمّوت پان، أن يموت جده احتفالاً بولادته. لقد أخبرها أكيزي، وإنْ متعجلاً، بأن المجلس صادق على وراثته العرش، وكان فخوراً بذلك. كيف سيكون عندما يصبح ملكاً؟ وكزوج؟.. ستترتب عليها أعباء كثيرة، حتى وإن احتفظت بلتوم طوال حياتها بلقب الملكة. لن تتوانى إهلي نيكالو عن دعم زوجها بكل طاقتها، وستقوم بواجباتها كاملة وبسرور. مسحت بحب على شعر صغيرها الحريري وألقمته ثديها.

في مساء اليوم نفسه أرسل أكيزي في طلب كبيرة الكاهنات وأخته ليجتمع بهما. كان في حاجة ماسة لتبادل الحديث مع أشخاص موثوقين. في القصر كان الجميع منشغلاً بالتحضير لمراسم الدفن. ولم يكن بوسعه مناقشة الأمور التي تقلقه مع إهلي نيكالو، فاهتمامها الأول حالياً هو الطفل. وهو لا يريد توريط المزيد من أفراد العائلة، كي لا يعرّضهم ويعرّض نفسه معهم للخطر. ولهذا استبعد أخاه كواري أيضاً، الذي كان يميل عادة إلى التباحث معه في أمور شتى. فقد ورث أخوه الأصغر عن أبيه الرزانة وتدبر الأمور، وإمعان التفكير بروية قبل الإقدام على الفعل، ولهذا كان ناصحاً جيداً. أما في هذه الحالة فلا يمكنه المساعدة، إذ يجب على حلقة العارفين أن تضيق ما أمكن.

التقوا في الجناح الغربي من القصر، في الطابق الأعلى. هناك، وبعد رحيل أمونحوتب فرش أكيزي لنفسه بعض الغرف بإطلالة بديعة على الغرب والشمال، كي يلتقي فيها بمن يشاء دون إزعاجات. دخلت شالا وكيا القصر من البوابة الرئيسية ووصلتا إلى الطابق العلوي عن طريق الدرج دون أن تمرا من قاعة الاستقبال. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يدعوهما أكيزي فيها إلى هذا الجناح. بقيتا في غرفة الاستقبال المفروشة بصورة مريحة بسجاد وكراس وفراء غنم وبقر. ولم ترغب كيا في التفكير بالغرف الأخرى للجناح ولأية أغراض يستخدمها أخوها.

بعد القلق الشديد استمتعت كيا بلحظة من الهدوء الظاهري. ألم تمض حقاً سوى بضع ساعات على موت أبيها بين ذراعيها؟ ألا يتوجب عليهم أن يبكوا ويندبوا ويبتهلوا إلى الأرباب ويقدموا إليهم الأضاحي لاستمالتهم، بدلاً من أن ينغمسوا في السياسة ويطاردوا المجرمين؟ كل شيء يبدو غير حقيقي. تناولت القدح الخزفي وشربت جرعات خفيفة من نبيذ مبرد. أيجوز شرب النبيذ أثناء الحزن؟ استرقت نظرة إلى شالا بين رشفتين.

انتبهت بعد قليل إلى قرب هذه الغرفة من الدرج المؤدي إلى سطح القصر. أهناك باب يا ترى بين الطابق الأعلى وممر الدرج المؤدي إلى السطح، ولم تره رغم قضائها نصف ليلة هناك؟ عندئذٍ سينحلّ لغز وصول أمونحوتب إلى السطح دون أن يُرى أو يُسمع، وكذلك اختفاءُ خادمته السريع. أمونحوتب - أمونحوتب! بفظاظة أعادها صوت أكيزي إلى أرض الواقع، قائلاً: «كان عليكما سماعه بنفسيكما، وهو يقول بكل ثقة بأنه قام بزيارةِ تهنئة للملك؛ خالي المحترم! إذا كانت كيا محقة بأنه وراء العملية كلها، فقد كان بتصريحه بارعاً جداً، لأنه يعرف تماماً أن بعض الحرس والخدم قد رأوه، وأنها مسألة وقت لا غير حتى نكتشف ذلك».

فأجابت شالا: «لكنه لا يمكن أن يخمّن بأننا نشتبه به. هو يفكر بأننا سنتتبع الأثر المتروك، والذي سيقودنا إلى الشيخ إيدريمي وابنه. أو أنه واثق من أننا لن نفعل أي شيء. من وجهة نظره، هكذا يجب أن تبدو الأمور. أما نحن فإننا لا نعرف ما إذا كان قد قال الحقيقة فعلاً. لربما كان حقاً عند الملك وغادره وهو حي!».

«أنا أرى أنه يكذب. أبي صرفني لأنه كان مضطراً للراحة حتى الصباح. لم يكن قادراً حتى على النطق وكان منهكاً. فلماذا يسمح بدخول تيرو عليه، أليهنّئه؟ لا بدّ أن يكون تيرو قد أغواه بأخبار مهمّة، وإلا لصرفه بالتأكيد، على الأقل كي لا يكشف سوء صحته أمامه».

«هذا يبدو مقنعاً. سنستجوب الخادم. لقد عرفته وعرفت الحرس المناوب أيضاً».

«والخادمة؟».

«لا أثر لها إطلاقاً. يبدو أنها قد تركت القصر. بحثت عنها عن طريق عبدة كتومة عجوز، وحتى الآن بلا طائل. لمَ تولينها كل هذه الأهمّية؟».

فتدخلت شالا قائلة: «هذه الفتاة التي تبدو وجلة، نَدبها إيداندا لخدمة أمونحوتب الشخصية، طوال إقامته هنا».

«والمعنى؟».

«أكيزي! لا بدّ أنها هي التي كانت تسرّب السم للملك، مَن غيرها؟ ولكن مَن الذي كلّفها بالأمر؟».

«أتقصدين أن أبي قد كشف هذا كله و...».

«وأراد أن يقول أمونحوتب». انقبض قلب كيا وهي تصرح بشبهتها المخيفة.

هز أكيزي رأسه ثم نهض وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً. ثم تساءل: «ما مكسب

أمونحوتب من تسميم الملك إيداندا؟ تسميم وطعن؟ هل الخادمة هي أيضاً التي طعنت الملك؟ لا، كانت قد اختفت. شوهدت آخر مرة في المطبخ عند العصر، ثم اختفى أثرها. إذاً، مَن الذي نفّذ هذه المهمّة القذرة؟ إيدريمي أم ابنه؟ أهو تصادفٌ لمأربين أم عملية مشتركة؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

«أكيزي، كفى! على هذا النحو لن نتقدم خطوة، فالأمور كلها تتشابك. يجب أن نتابع كل خيط على حدة. لكنني مرهقة كلياً. ألا يمكننا أن نتابع غداً؟».

«تدبّرا أمركما غداً من دوني. هناك الكثير مما لا بدّ من تحضيره للجنازة. ولكن أعلموني بكل ما يستجد»، قالت شالا التي تابعت حديث الأخ والأخت صامتة. غادرت المرأتان تاركتين وراءهما أكيزي غارقاً في تفكيره.

نُحت للملك الميت تمثال في وضعية الجلوس، ليأخذ مكانه في القصر في اليوم السابع. كانت النذابات يحطن بالجثمان في عدّة دوائر، وقد أُحرق في الوقت نفسه رداء ملكي وقش وزيت مقدس. وحزناً على الميت كُسر دنّ جعة ودنّ نبيذ، ونُحرت أبقار وخراف قرباناً للأرباب والأسلاف ولروح الميت، التي كانت الأكباد من نصيبها. قُدمت للأرباب قرابين نبيذ وجعة، ولروح الميت قرابين خبز، ثم سُقيت النذابات نبيذاً على روح الميت وهن يبادينه باسمه بأصوات عالية.

خُصصت الأيام التالية لتجهيز الميتِ للعالم الآخر. ولكي يتم هناك استقباله بصفته ملكاً، وليتم قبوله في حلقة أسلافه، لا بدّ من تزويده بالأفضل من موجودات هذه الدنيا. مثال ذلك، أن ذُبحت أبقار وخراف في مرعى يافع العشب وعند النبع، تحت أنظار تمثال الملك الجالس الذي جُرّ إلى المرعى على عربة، لكي يشهد بنفسه على حسن اختيار الحيوانات والمرعى والمياه. كما زوِّد بدنّ نبيذ ومعول ومجراف ومحراث ومضرابِ دراسة وكثير من الأدوات المفيدة الأخرى. ثم أُجلس في خيمةٍ على عرش ذهبي مزوداً بقوس وكنانةِ سهام، ليتناول هناك مع أهله وجبة الموتى. وفي ختام النهار جُمعت له عند بوابة القصر أكوام من الحبوب والفواكه، وزيّن الميت بالورود. وفي نهار آخر وُضع التمثال على عربة وسيق إلى الخيمة، حيث أمسَك خليفته المصادَق على وراثته، بالفأس الفضية وقطع بها كرمةً، بصفتها رمزاً آخر للحياة. ثم زينت الكرمة بشرائط وبعناقيد طازجة للأحياء وأخرى مصنوعة من الصوف للعالم السفلي ووضعت على طاولة الميت. ثم جُهزت له زوّادات أخرى لرحلته: صحفة ثمينة، دواليب من عجين، رداء فاخر، دورق

زيت ممتاز. ثم عاد الجميع إلى القصر، حيث احتفل ليلاً بقربان نبيذ للميت، فوقف إلى يمين المجمر الكبير ويساره ساقيان يسكبان من إبريقيهما النبيذ المخصص لروح الميت على أطراف المجمر، بشرط ألا تنطفئ النار. تلا ذلك شعيرة (القدمين) لإرضاء روح الميت، فوضعت أرغفة خبز على قدمي التمثال الجالس وردّد الحاضرون معاً: «انظر، لقد وضعنا على قدميك خبز الجنود، فلا تسخط بعدئذ! كن طيباً تجاه أولادك! مملكتك ستستمر لأحفادك وأحفاد أحفادك! وسيكون لسلالتك مهابة وحرمة، وستقدم لك القرابين». بعد نطق هذا الوعد يوضع مزيد من الخبز والفاكهة عند قدمي التمثال. ثم تأتي شعيرة (الحبل) الذي يرمز إلى آخر صلة بالحياة الدنيا، والذي لا يجوز للميت أن يبقى ممسكاً به. وخلال هذه الشعيرة تصدح تراتيل النساء وصيحات الندابات.

«من كان ليخطر في باله أن أختي الصغيرة ستصبح ذات يوم مستشارتي الأولى وموضع ثقتي؟». لم يكن بوسع أكيزي ترك مزاحه جانباً.

«كفاكَ تناديني يا أختي الصغيرة طوال الوقت، وكفاك سخرية بي كلما التقينا!».

«أنا لا أسخر بك، كيا. الحقيقة هي أننا كلانا كنا الأقرب إلى أبينا، وها نحن نحاول معاً حل لغز الظروف الغامضة التي أحاطت بموته. إذاً، لا مزاح بعد الآن، بل كل الجد. أنت جديرة باحترامي، كيا، صدقيني. منذ مدة لم أعد أنظر إليك كطفلة صغيرة، لكني مع ذلك، عندما أناديك بأختي الصغيرة، فذلك فعلاً بكل حب أخوي. أتفهمين ما أقصد؟».

هزت رأسها مصالحة وقالت: «هل نبدأ؟».

«فلنستمع أولاً إلى أقوال الخادم. هل يمكنك تدوين رؤوس أقلام، للطوارئ فقط؟ هاك لوح شمع نظيف!».

كان الخادم رجلاً في أواسط العمر، قصيراً وصلب العود، وقد بدا الشعور بالذنب جلياً على وجهه. وقف منكّس الرأس، مضطرباً وقلقاً. ما إن دخل حتى ارتمى على الأرض مستعطفاً: «الرحمة، الرحمة!».

أخبرهما بكل ما جرى يوم الوفاة منذ ما بعد العصر. ونتيجة استفسارات أكيزي وكيا كرر روايته عدّة مرات: استلم مناوبته عند الملك من تلك الخادمة، التي نقلت إليه أمره، بأن لا يجوز لأحد أن يزعجه. لم يظهر أحد سوى الأميرة، التي تجاوزت تعليمات الملك كعادتها، مبررة إصرارها بأن الملك يتوقع قدومها. بعد وقت قصير خرجت الأميرة وأمرته بألا يسمح لأحد بالدخول وأن يقوم على حراسته وأن يجلب له وجبة خفيفة من المطبخ.

طلب منه أكيزي أن يصف بدقة ممّ تألفت الوجبة، فهمست له كيا بأن هذه الوجبة قد تم تحضيرها بناء على تعليمات شالا، وأنها لا يمكن أن تحتوي أي سم، وإلا لظهر طعمه على لسان الملك في مادة الوجبة. فأمر أكيزي الخادم: «تابع! ماذا جرى بعد ذلك؟».

«بعد ذلك جاء الرجل الشريف».

«أي رجل شريف؟».

«الشريف تيرو، يا صاحب الجلالة، وقال إنه يريد طلب المعذرة من الملك. أعلمت الملك بالأمر، فبدا مسروراً جداً بذلك، ثم أدخلت السيدين إلى الملك». أثناء ذلك تصبب الخادم عرقاً.

«من أيضاً؟ لم تذكر حتى الآن سوى الشريف تيرو؟».

«نعم، كان معه شيخ بدو غريب، لديه معلومات عن هجمات على قوافل. سمعت ذلك لأن الشريف تيرو أعلن ذلك بصوت عال من المدخل، وأنا أغادر لأجلب شراباً منعشاً للضيفين».

تبادل كيا وأكيزي نظرة.

«تابع!».

«يبدو أنهما لم يرغبا شرب أي شيء. فحالما عدت لأقدم الشراب خرج الشريف تيرو مغادراً، وقال لي إن ملكنا المبجل يريد أن ينام بعد أن يغادر الضيف الثاني. وهذا خرج بعد وقت قصير من غرفة الملك ورافقته حتى بوابة القصر حسبما يمليه الواجب. ثم ألقيت نظرة سريعة على غرفة الملك فوجدت السُّرجَ مطفأة جميعها ولم أسمع شيئاً».

تبادل أكيزي وكيا نظرة ثانية، ثم سألته كيا بلهجة اتهام باردة:

«لماذا لم أرك صباحاً باكراً؟».

أخذ الخادم يرتجف. فعاجله أكيزي:

«هيا تكلم، أجب عن السؤال!».

قال إنه قد اضطجع في الردهة حسب التعليمات، كي يكون جاهزاً فوراً لأي طلب. ثم بدأ الدوي المرعب وأخذت الأرض تهتز بصورة لا توصف.

«ذعرتُ وامتلأت خوفاً من أن تقتلني الشياطين»، ولوح بكفيه مبعداً عنه الشر. «وأردت فقط أن أركض إلى الخارج». وصرخ فجأة بصوت عال، مما جعل الحراس

يندفعون داخلين، ثم قال: «أعرف أني غبت عن مركزي. سامحوني! سامحوني! ما كان يجوز أبداً أن أترك مليكي المبجل. فليعاقبني الأرباب على تقصيري هذا!». وارتمى على الأرض ثانية.

«لماذا لم تعد إلى مركزك فوراً؟».

«كنت مرعوباً من تخاذلي وخائفاً من العقوبة، لذلك انسللت إلى مخدعي حالما سكن غضب إيل»، وأخذ يندب باكياً: «والعقوبة كانت فظيعة، بل لا أفظع من ذلك». وأخذ يشد شعره ويلطم وجهه. بدا ألمه وشعوره بالندم الشديد حقيقيين.

«خذوه وضعوه في الحجز حالياً». بعد برهة التفت أكيزي نحو كيا قائلاً: «أقوال الحرس تؤكد ما قاله هذا المخلوق البائس: تيرو والبدوي الغريب دخلا القصر معاً من البوابة الرئيسية. تيرو غادر القصر بعد فترة من البوابة نفسها. لم يتابع المشاركة في الاحتفال. وعندما أعود بذاكرتي الآن إلى الوراء، أجد هذا صحيحاً، فأنا لم أره طوال المساء. لم يخطر في بالي شيء تفسيراً لغيابه، وبصراحة أنا لم أفتقده أبداً. أمي علقت على الأمر بكلمة، ربما. لكنني سأبعدها ما أمكن عن المسألة كلها».

«غريب ألا يسأل الحرس البدوي الغريب عن اسمه»، قالت كيا.

«في يوم كهذا وبرفقة أحد أشراف قطنا؟ ما الداعي لذلك؟ البدوي بالمناسبة خرج من البوابة الجنوبية، وفي العتمة بعد ذلك لم يلفت نظر أحد. حراس بوابات المدينة لم يلاحظوا أي شيء. الواضح: هو أنه لم يكن إيدريمي أو ابنه حسب شهادة الخادم وأحد الحراس الذين رأوهما في القصر سابقاً أثناء جلسة المحاكمة».

«والشيخ إيدريمي؟ هل شوهد هو أو أحد أفراد عشيرته في قطنا مؤخراً؟».

«هنا في القصر لم ير أحد الشيخ إيدريمي وابنه، طوال الأيام الماضية. لكننا لا يمكن أن نستبعد وجودهما في المدينة. أنا شخصياً أستبعد ذلك، وأرى أن نتجنّب سؤالهما قدر المستطاع».

«إن لم يكونا هنا قط، فليس هناك سوى نتيجة واحدة، أن تيرو والبدوي المجهول يريدان تلبيس تهمةٍ ما لإيدريمي أو لابنه».

«وماذا إذا كان الخادم قد فعلها بتكليف من ابن إيدريمي؟ ففي هذا تفسير لهربه واختبائه، أليس كذلك؟».

«لا، يبدو لي هذا مجافياً للصواب. أولاً، سيكون عملاً غبياً من قبل ابن إيدريمي أن

يعطي الخادم سلاحاً معروفاً يدل عليه مباشرة. ثانياً، سيصعب فهم لماذا لم يختفِ الخادم كلياً. كان بوسعه مغادرة قطنا من دون مشاكل، ولا سيّما أنه ليس عبداً».

«أم أنهم جميعهم قد طبخوها معاً بدهاء! لن يشتبه أحد بعشيرة إيدريمي انطلاقاً من أن رجالها ليسوا أغبياء ليتركوا وراءهم سلاحاً يدل عليهم. ولكن بصراحة وتجرد، ماذا يدفع ابن إيدريمي إلى قتل الملك؟».

«عزة النفس، الانتقام، الثأر. لأن الملك، وإن لمدة قصيرة، لم يستبعد شبهة أنهم مَن نهب القافلة».

«لا، مستحيل. لقد أكدت لإيدريمي بوجود ابنه فوراً، أن ليس فينا مَن يشك في ولائهم. وقد كررنا ذلك عدّة مرات: عند استجوابهما في الخيمة وأثناء المحاكمة كان تالزو حاضراً. لا، هذا غير وارد، ولا يخطر في بالي شيء آخر يحتمل أن يكون بين الملك وعشيرة إيدريمي. لا، في تقديري، الجناةُ أرادوا توجيه الشبهة نحو جماعة إيدريمي. لماذا؟ لا أعرف».

«إذاً، أنت لا تعتقد أن الخادم هو الفاعل؟ ولا أنه قد فعلها بتكليف من تيرو والشيخ، وأنه لهذا السبب قد هرب؟ التهمة كلها غير معقولة، فهو على ما يبدو، لا يعرف شيئاً عن الجريمة، فهو بالتالي يقول الحقيقة. ولولا وقوع الزلزال لكان اكتشف الجريمة صباحاً بنفسه، وليس أنا».

نكّست كيا رأسها وأخذت تعاودها حقيقة أن: أبي مات. لن يناديها بعد الآن باسمها بحنان. ولن يشملها بعد الآن بحمايته ورعايته. ما مصيرها ومصير أمها من بعده؟ لا شك في أن سلوك أمها المتحفظ وتواضعها سيثبتان جدواهما الآن. لكنها في فترة وجود أمونحوتب كانت الملكة السرية لقطنا. لن تصابا بالعوز، فلأمها ثروة لا يستهان بها، أما هي ففي وقاية منه على نحو جيد. ومع ذلك يحتمل أن تجعل الملكة بلتوم حياتيهما عسيرة. لو سارت الأمور حسبما كان مخططاً لها، لكانت كيا منذ مدة زوجةً مكرمة معززة في مصر.. لا، هذا يكفي.

وأكيزي أيضاً كان غارقاً في أفكاره. ومن هدأة الصمت سألها: «ما الذي دفعك للتفكير بأن الخادمة تتصرف بتكليف من أمونحوتب؟ صحيح أنها قد فرزت لخدمته أثناء زيارته لنا، لكن هذه الحجة ضعيفة. ثم ما دافع أمونحوتب أساساً ليكلفها بمثل هذه المهمّة؟ فكّرت بالأمر طوال الليل، ولم أتوصل إلى أي دافع يحفز مصر على ارتكاب جريمة قتل. فماذا في ذهنك؟».

نظرت كيا إلى أخيها طويلاً، ووجهها الدقيق القسمات يشي بارتعاشات غامضة. دهمتها كل الذكريات المؤلمة فتغرغرت عيناها بالدموع، وأخيراً قالت: «حصل خلاف بيني وبينه، بسبب صلات أبي مع حتّوشا. ظن أمونحوتب أن لتالزو علاقة بالأمر. هناك من أخبره بأن الرسالة الموجهة إليك آتية من حتّوشا وليس من أوغاريت، وهناك من أخبره أيضاً أن رسولاً حتياً قد زار الملك سراً، أثناء غيابه في الساحل. حنقت عليه جداً، فقد وجه إليّ اتهامات لا معنى لها أصلاً. لكنه عندما أتى على ذكر الرسول، ماذا كان بوسعي أن أقول؟ من الذي أخبره بكل هذه الأمور؟ حتماً ليس أنت! من كان مطلعاً عليها؟».

هدر الكلام من فم كيا كالسيل، فشعرت بشيء من الارتياح، وسكنت قليلاً وهي تنظر في عيني أكيزي بألم. هل هذا هو ما حطّم سعادتها؟ أكان أمونحوتب قادراً على التظاهر تجاهها بأنها أحبّ الناس إليه في الدنيا، ثم عند رحيله يكلف شخصاً بجريمة قتل، وقتل أبيها الحبيب؟ لا، قال قلبها.

كان جلياً أن أفكار أكيزي قد ذهبت في الاتجاه نفسه، إذ قال: «كيا، ما تخشينه لا يعقل. لا داعي لأمونحوتب للجوء إلى طرق تآمرية خسيسة. كان بمقدوره مواجهة أبي صراحة. ولكن بغض النظر عن ذلك، لا يحق له التدخل في أمور مراسلاتنا، فقطنا بلد مستقل، لا يتبع أحداً. وبالنسبة إلي هذا تأكيد جديد لموقفي السابق بأنه لا بدّ من الاعتماد على مصر. وأول ما سأقوم به لاحقاً، هو الكتابة إلى أمينوفيس الثالث. هذا مؤكد»، ولمّا لاحظ رد فعل كيا أردف: «مع الاعتذار منك. ولكن لا محالة من أن نعقد معه صلات متينة. رتّبي أمورك على هذا الأساس، وإن آلمك ذلك. أزمة وتزول»، أضاف مواسياً أخته وإن بارتباك. لماذا تأتي ردود أفعال النساء دائماً بهذه الحساسية؟

«في كل الأحوال، لا علاقة لأمونحوتب بموت أبينا، هذا واضح. ولكن يبقى السؤال، من أين حصل على المعلومات، هنا أنت محقة. مَن عرف بموضوع الرسول الحتي؟ أبونا وأنت وأنا فقط. لربما أيضاً أمك أو أمي؟ لا علم لي بالأحاديث التي كانت تدور بين أبي ونسائه. ولكن مَن أيضاً؟ لقد كان يبالغ في حذره. أنا لم أعلم بالأمر إلا بمحض المصادفة، وحق الأرباب!». وانتفض أكيزي وأخذ يجول كالنمر، ثم قال: «لن نصل إلى نتيجة. الأسئلة تتكاثر في وجهنا ولا أجوبة. إذاً، لنعد ثانية إلى خالطة السموم تلك. أنا أظن أنها تعمل بتكليف من تيرو والبدوي المجهول. لقد تمكّنا من رشوتها بشيء ما. لربما كانت تريد ذهباً وفضة لتعتق نفسها».

«أنا أرى أنها على الأغلب قد تعرضت لابتزاز. فالجميع يشهدون بولائها المطلق للملك، بل إنها كانت تبجله وتحبه، وأبي كان يثق بها. أخبرني أنه يقدّرها جداً للهفتها وإخلاصها. وشعورها الدائم بالخوف كان يؤلمه، واستنتج أنها قد مرت بتجارب مرعبة في حياتها، ولهذا كان طيباً جداً تجاهها».

«طيب. لكن سواء بالرشوة أم بالابتزاز يبقى الأمر سيّان. أتعرفين عنها شيئاً؟ قد يساعدنا هذا. ألها عائلة في القصر؟ علينا أن نعرف ذلك. ولكن لنعد الآن إلى تيرو والبدوي المجهول. ماذا يفعل هذان الاثنان مع بعضهما؟ ما الذي جمعهما؟ الغارات على القوافل حتماً. هذا ما نعرفه من صديقنا تالزو اليقظ. وهذه الفتاة الخادمة سمعت أن تيرو قد استخدمها كمفتاح. فإما أنهما يعرفان بالأمر وإما أن أيديهما ملطخة».

«أعتقد أنهما متورطان. تذكّر أن الذين نهبوا القافلة كانوا من البدو».

«في جميع الغارات التي وصلتنا أخبارها من ريب عدّي أو أيتاكما كان المغيرون من البدو».

«السؤال التالي يجب إذاً أن يكون: ما الغرض من الغارات وماذا يفعلون بالغنائم؟ أرجح أن أبي أراد أن يتحدث معي في هذا الموضوع. يحتمل أنه توصل إلى معلومات جديدة».

«لماذا معك أنتِ، وليس معي أنا؟ أنا ابنه!»، وكوّر أكيزي قبضته غاضباً.

صمتت كيا. ماذا كان بوسعها أن تقول؟

تماسك أكيزي مجدداً، مع أن دلائل المرارة قد رسمت خطاً حول فمه، ثم قال: «أتعرفين ما قاله أوبيّا لتيرو في المجلس مؤخراً، بعد هجوم تيرو الشنيع على الملك؟ اتهمه بالاستعداد للتآمر مع عبدي عشيرتا، وبأنه جاهز لبيع قطنا له. وسأله عما إذا كان ملك أمورو قد وعده بتنصيبه حاكماً للمدينة لقاء ذلك. نتيجة لذلك ثار غضب تيرو وقال إن أبي على وشك أن يبيعنا بأبخس الأسعار لأي قوة عظمى تحمينا، أو ما شابه ذلك. وعندئذ أجابه أبي، بأن هذا أفضل من الإغارة على القوافل ونهبها كاللصوص العاديين».

«أكيزي، هذا هو الحل بعينه. لماذا لم تقل ذلك حتى الآن؟».

«لم أتذكره إلا الآن. في حينها ظننت أن كلاً منهم يستفز الآخر، أما الآن فيبدو أن أبي كان يعرف أكثر مما يخمن، ويرجح أنه قد أسرّ بذلك لأوبيا. ولكن فعلياً ما معنى هذا؟».

كان عقل كيا يشتغل بتوقد. قالت: «هناك مؤامرة، يشارك فيها على الأقل شيخ بدو

نجهل هويته، وتيرو من قطنا، وعبْدي عشيرتا مَن أمورو. هدفهم أن تصير سوريا مملكة مستقلة. ولجذب حكام المناطق الأخرى إلى صفّهم بالرشا، يغيرون على القوافل وينهبونها. لم يكن أمراً عسيراً معرفة موقع أفضل الغنائم في القافلة. ففي دار البلد ما كان لأحد أن يرفض إطلاع تيرو على ترتيب البضائع المعدة للشحن في القافلة. أبونا كان، قولاً واحداً، ضد مملكةٍ سوريّة. ونحن نعرف أن الأفضلية عنده كانت مؤخراً، أن ننضوي تحت جناح حتّوشا. سرّه هذا كُشف، فكان لا بدّ من أن يموت. أ.. تشير إلى أمورو! هذا ما أراد أن يقوله لي. الآن يتوضح لي ذلك جلياً».

صفر أكيزي صفرة اعتراف وإعجاب، فحدّة ذهن كيا كانت فعلاً تلفت النظر. تابع أكيزي نسج خيوط أفكارها متسائلاً: «ولماذا لم يرشّح تيرو نفسه الآن للعرش، بل صادق على ترشيحي؟».

«ربما كي يبقى في الخفاء حتى تنضج الظروف. وربما لمعرفته بأن معظم الأعضاء، بل حتى كلهم سيصادقون على ترشيحك. وربما لاعتقاده بقدرته على جذبك إلى صفّه».

«في هذا سيكون خطؤه هائلاً. فأنا لست دمية ليلعب بها مَن يشاء. كان موقفي الثابت دائماً إلى جانب مصر».

«أكيزي، هذا قد يعني أنك أنت أيضاً معرض لخطر شديد! يجب أن تتخذ كل الإجراءات لحماية نفسك!».

«لم أصبح ملكاً بعد! بالمناسبة، يجب أن أخضع لحكم الرب. هل علمت بذلك؟».

«لا، لكن هذه خطوة حكيمة لدرء ظهور أي شك. ولكن كيف سيتحقق ذلك؟». تساءلت كيا بذعر... فماذا إنْ قضى أكيزي بسببه؟ «عليك استشارة شالا بشأن ذلك!».

أومأ أكيزي برأسه. لقد اعتدل مزاجه وتلاشت سَورة غضبه... لا شيء يسير على ما يرام، في مسألة قتل الملك هناك افتراضات مشتركة صائبة، ولكن من دون أدلة. حتى وإن تمكنوا من إثبات فعل القتل، لا يجوز لهم الإقدام على أي عمل، بل عليهم التزام الصمت، كي لا يتعرض تتويجه للخطر. وماذا عن الخادم الذي ما زال في الحجز؟ لا ريب في أنه بات يشك بأن ثمة ما ليس على ما يرام. وتلك الفتاة، إنْ ظهرت ثانية، قد يفضحان سرّهم أو يبتزّانهم. لا يجوز أن يبقيا أحياء، فكر أكيزي. أهكذا سيبدأ عهدي؟

**

مساء اليوم الثالث عشر أغلقت جميع بوابات القصر. من السطوح سمعت أصوات أبواق وصنوج. في الوقت نفسه أوصدت جميع بوابات المدينة وأبواب المعابد ودار البلد وجميع بيوت المدينة بالمزاليج. إنه (يوم إصابة قطنا بمكروه كبير)، والكل كان يعرف: إنها بداية رحلة الملك إلى الأرض التي لا عودة منها.

في المعابد تجمّع الكهان والكاهنات وعائلات الوجهاء حول المذابح، حيث وضعت القرابين. وفي فسحات مداخل المعابد تجمّع الرعاة والفلاحون والحرفيون وصغار التجار، ليقدموا هداياهم للأرباب.

لم يرافق الملك إلا قلة من المختارين: كبير كهان بعل وكبيرة كاهنات سيدة المدينة ومساعديهما، عائلة الملك وعلى رأسها أكيزي وريث العرش المختار وزوجة إيداندا الملكة بلتوم وأبناؤهما، وابنته كيا، وإخوة الملك وأخواته. أما زوجته إيست فقد تغيّبت، إذ حزنت على الحبيب المتوفى حسب الطقوس المصرية.

أحاط المرافقون بالملك المسجى على محفّة الموتى إلى جانب محراب سيدة المدينة وعيونهم موجهة نحو الغرب. بدا الملك كالنائم. وعندما نظرت كيا إلى وجهه انتابها ألم حاد، ودهمها خوف أن تنسى هذا الوجه ذات يوم. حاولت أن تحفظ في ذاكرتها كل التفاصيل وهي تقاوم دموعها. البوابة المؤدية إلى قاعة العرش ما زالت مسدلة الستائر، لكن الوداع الأخير بات وشيكاً.

«إني أخاف الموت، ولهذا أسرع عبر الصحراء،
مصير صديقي ما زال يثقل كاهلي.
هل سأضطرّ مثله إلى الاستلقاء،
دون أن أعاود النهوض إلى أبد الآبدين ؟».

هذا ما كان يرتله كبير كهان بعل من أبيات (ملحمة غلغامش) التي تروي بطولات غلغامش وصديقه إنكيدو، وتركز في المقام الأول على بحث غلغامش عن الخلود. تابع الكاهن بصوته المجلجل الذي تغلغل في جميع الواقفين في المكان:

«الموت ظلوم، لا يعرف الرحمة.
هل نبني داراً إلى الأبد؟ ونُبحر إلى الأبد؟
هل سيستمر الخصب إلى الأبد على الأرض ؟
هل سيرتفع النهر إلى الأبد ويدفع مياه الفيضان؟

منذ الأزل لا استمرارية هناك،
النائم والميت، كم يتشابهان؟!».

ارتفعت أصوات الندب، وفوراً علا صوت آمر بالنهي عنه. فلقد بدأ الدرب إلى العالم السفلي.

كان لا بدّ من عبور سبع بوابات والهيمنة عليها، إذْ كان لكل منها حراس مرعبون. فإن لم يفسحوا المجال للعبور، فستحلّ بالملك لعنة أبدية، فيبقى روحاً ضالة بائسة تهدد مجتمع الأحياء، محكومة بالتيه بين الدنيا والآخرة بلا خلاص. لهذا لا بدّ من حمل ما يكفي من الأعطيات والهدايا والمأكولات والمشروبات لحراس البوابات أولاً، ومن ثم لأرباب العالم السفلي: الرب مُوت والربة (أللاني) وغيرهما. ولا بدّ من ترتيل أناشيد ساحرة لتلطيف أمزجتهم. وكان يحق لكل من المرافقين أن يُسر للملك بآخر ما لديه وأن يلمسه. ثم اتخذ الموكب شكله التراتبي، يقوده الكاهن الأكبر، يتبعه أربعة كهان يحملون محفة الملك إيداندا، فيما اتخذ الآخرون الأمكنة المحددة لهم حاملين ما تم تزويدهم به للرحلة.

في أولى المحطات السبع يودِّع الملك واجباته الدنيوية. وكان قد حضر لتوه آخر استقبال في القاعة الكبرى، وها هو ذا الآن أمام البوابة الأولى.

«إنه يقدم هدايا لحراس بوابات العالم السفلي السبع.
الراعي العادل يعرف قلبُهُ نظام العالم السفلي.
الملك يقدم الهدايا قرابينَ للعالم السفلي.
إيداندا يقدم الهدايا قرابينَ للعالم السفلي».

من بوابة قاعة العرش المسدلة الستائر خرجت تحت ضوء المشاعل هيئة مريعة المنظر، على رأسها ريشُ بطٍّ بريّ، الوجه مغطّى بقناع يذكّر بخنزيرٍ بري، الجسم أحمر بلون الدم الذي كان يسيل على فروة الخروف الملفوفة حول الخصر.

«تقدم إيداندا، ادخل!». قالت الهيئة بصوت ناعم ذي وقع أجوف، غير متوقع من مثل هذه الهيئة الفظيعة، التي تقدمت من المحفة ورفعت التاج عن رأس الملك، وأضافت: «كن مطمئناً إيداندا، هذه هي الهدية المناسبة للعالم السفلي». وبأيدٍ غير مرئية رُفعت الستائر عن البوابة، فعبرها الموكب، ثم أُسدلت وراءه بلا صوت.

عبر الموكب قاعة العرش حاملاً الملكَ الذي لن ينطق بالحق من على هذا العرش من

بعد، لكنه زوّد لرحلة الموكب بعرش متحرك. بلغ الموكب البوابة الثانية التي ظهر منها أيضاً حارس مريع الهيئة، سمح للملك وحاشيته بالعبور إلى قاعة المآدب بعد أن تلقى العرشَ المتحركَ كهدية. هنا تناول الموكب الوجبة الأرضية الأخيرة برفقة تراتيل تعود إلى عهود سحيقة. وللأرباب قُدمت الجعة الفاخرة والطحين الفاخر.

كانت كيا تمشي إلى جانب كواري وهي تشعر بالارتياح لقربه منها. تُرى كيف ستكون بقية الدرب إلى حيث لا عودة؟ لم يكن في ذهنها أي تصور، رغم أن معرفة محطات الدرب والشعائر المرتبطة بها تُعدّ جزءاً من تأهيلها للكهانة. كم تختلف التجربة الواقعية عن الدرس! انتابتها قشعريرة. لم يسبق لها أن فكّرت بمكانِ دفنِ أفراد العائلة والأسلاف. كانت تعرف أن هناك لقاءات دورية في مواعيد ثابتة مع الأسلاف الملكيين، لكنها لم تعرف مكان انعقادها. فهذا محصور بفئة محددة، باتت واحدة منها منذ اليوم.

حمل الكهان الأربعة المحفة ثانية وانتظم الموكب مجدداً. إلى أين سيتجه؟ تلفتت كيا حولها. كانت هناك بوابات وأبواب تؤدي إلى أجزاء القصر الأخرى باتجاه الشمال والجنوب الشرقي. لكن هذا الاتجاه لا يؤدي إلى العالم السفلي، أم ماذا؟ بينما كانت كيا تفكر، انفتح فجأة في الجدار الشمالي بابٌ، لم يسبق لها قط أن لاحظت وجوده. كانت جميع جدران قاعة المآدب مزينة بلوحات كبيرة من الحفر النافر، تجسد مشاهد مختلفة من أعياد السنة. لوحة الجدار الشمالي كانت تجسد طاولة مأدبة عامرة كالتي تقدم في عيد قمر الشتاء الجديد. لكن الحفر النافر هنا لم يكن مجرد زينة جدارية، بل لإخفاء البوابة الثالثة، وهي إنجاز فائق المهارة لمعلم البناء والنحت.

«تقدّم إيداندا، ادخل!». صدح صوت معدني، وفي الوقت نفسه امتدت يدُ هيئة مغطاة بالحراشف من رأسها حتى قدميها وتناولت عصا الملك. وأضاف الصوت: «كن مطمئناً إيداندا، هذه هي الهدية المناسبة للعالم السفلي»، مفسحاً في المجال لعبور الموكب من الباب الضيق، وانغلق وراءه من دون صوت بعد أن نزل الموكب عدّة درجات شديدة الانحدار. لقد باتوا أسرى:

كان الدرج المنار بإضاءة خفيفة عريضاً، يتسع لأربعة أشخاص معاً. ضغط أفراد الموكب أنفسهم على درجات السلم السبع عشرة - حسبما عدّتها كيا - لوجود باب بمصراعين في الطرف الآخر يسد إمكانية المتابعة. ومجدداً دهم كيا خوف محرج لوجودها في هذا المكان المغلق، فأخذت تلهث. ماذا، إنْ لم يكن ثمة عودة لهم جميعاً؟ أمسكت بيدها الحرة رداء كواري وتشبثت به.

فُتح المصراع الأيمن العريض وظهرت منه في ضوء المشاعل هيئة شيطانية مفزعة. وبعد أن قيلت الكلمات الشعائرية وحصل الشيطان على الصولجان هدية، عبر الموكب إلى دهليز منحدر وبلغ في نهايته المدخل الخامس. كانت كيا تعرف قصة نزول الربة عشتار إلى العالم السفلي، التي كان عليها أن تجتاز عتبات سبع بوابات. هل يتكرر النزول هنا؟ إذاً، هناك أمل. لكنها شخصياً ما زالت تحت الأرض. شمّت رائحة العفونة الباردة، وسمعت خشخشة الثياب، وليس أمامها سوى المجهول. ومع ذلك فقد عاد جميع الأحياء، وهذه هي الفكرة التي عليها أن تتشبث بها. قُدم للبواب الخامس رداءٌ نقيٌّ هدية، فسمح لهم بالعبور عبر باب مزدوج، استمر الموكب بعده بالنزول انحداراً حتى بلغ باباً مماثلاً للسابق. ظهر حارسه في النور الضعيف وطالب بهديته التي كانت إناء مرهم فاخراً مملوءاً بزيت زكي الرائحة. بعد الباب السادس نزل الموكب عدّة درجات ثم سار في دهليز منحدر، ولكن بعد خطوات قليلة بلغ جداراً من أحجار كلسية ضخمة.

أخذ قلب كيا يخفق بشدة. هي إذاً سجينة هذه الجدران مع الملك الميت، وقسم كبير من العائلة الملكية. ماذا إن أبقاهم القتلة هنا وتركوهم للموت؟ وتسلّلوا بهذه الطريقة إلى عرش قطنا؟ كيف لهم أن ينقذوا أنفسهم من هذا المكان؟ لماذا لا يُسمح لهم بالمتابعة؟ حاولت التنفس وهي متشنجة الجسم. التفت كواري نحوها، فرأت عينيه الكبيرتين اللتين بدتا في ضوء المشاعل أكبر. هل ينظر إليها لائماً؟ حاولت أن تتماسك، قائلة لنفسها بأن كل مخاوفها ليست سوى وساوس حمقاء. سنعود إلى وجه الأرض، سوى أبي. أغمضت عينيها. وقف الجميع بلا حراك، ثم بدأ الترتيل. طلبوا من الحارس الأخير فتح بابه وقدموا له ماء وطحيناً حتى لان جانبه، وأخذ كل من الكاهن الأكبر ومحفة الملك والأشخاص، الواحد تلو الآخر يغيبون عن أنظار كيا. وبعد مدة قصيرة، عندما تمكنت أخيراً من أن تتقدم بنفسها، انتبهت إلى أن الدهليز ينعطف بزاوية حادة نحو اليمين عبر باب خشبي آخر، أي البوابة السابعة، التي يقف حارسها وراءها رافعاً في يده بحركة انتصار سلسالاً نفيساً وثميناً جداً. وأدركت أن الدهليز ينتهي بلا شيء.

انفتحت أمامه فجوة محفورة في الصخر، ويصدر منها شعاع نور خفيف، لا يمكن النزول فيها إلا على سلم خشبي طويل. ناولت كيا الأيدي الممدودة لمساعدتها الصرّة التي كانت تحملها بيدها، ونزلت على درجات السلم بشيء من الارتباك حتى البسطة الأولى. ومن هناك يستمر النزول على سلم ثان. في هذه البسطة خيّل لكيا أنها قد رأت إحدى أنفس المزهريات الغرانيتية التي أحضرها أمونحوتب معه كهدايا. وعندما وصلت

إلى الأرض خامرها شعور بوجود برج أسود شاهق ينتصب فوقها. حاولت تجنّب النظر نحو الأعلى. اجتمع أفراد الموكب جميعهم الآن في غرفة مستطيلة متوسطة الاتساع، جزء منها منحوت في الصخر والجزء الآخر مبني بحجارة كبيرة، ولا يضيئها سوى مشعل واحد. في الجدار الصخري الأيمن نحت مدخل خشن، زيّن جانباه بتمثالين متشابهين، من الحجر الرمادي القاتم، لملكين جالسين من الأجداد، وقد أُلبسا بمناسبة هذا الحفل الطقسي، كرمزين للسلطة الأبدية، بغض النظر عن العائلة والزمن. وضع كل منهما يده اليسرى على صدره واليمنى تحمل إناءً مستندة على الركبة اليمنى. كانا يرتديان المعطف التقليدي الطويل ذا الأطراف السميكة. وفي الإنارة الشبحية تبدّى الوجهان حيّين: هل كانا يحرّكان شفاههما الممتلئة؟ هل كانا يهمسان بالبركات أم باللعنات؟ وعيونهما ذوات الأحداق السوداء في المقلات البيضاء، كانت تبدو شاخصة لكل واصل جديد. وكانت تسريحة شعرهما مثل تسريحة إيداندا. كانت كيا تعرف هذين التمثالين من حرم الأسلاف في القصر. إلا أنهما هناك كانا يرتديان تاجين مقرّنين رمزاً لألوهيتهما. صبَّ كاهنان جعة طازجة في إناءي الملكين، ووضعا في حضنيهما خبزاً فوّاحاً، تنشقت كيا رائحته بتلذذ، فقد قرّبتها الرائحة خطوة من الحياة. وبدهشة أخذت تنظر إلى الأشياء الكثيرة المنقولة من يد إلى يد على السلم نحو القاعة السفلية.

عبر الموكب المدخل بالترتيب نفسه إلى مساحة تشبه قاعة، هي الهدف، أي قصر الملك الميت وجميع الأسلاف الملكيين. أُشعلت المشاعل ووضعت في الحوامل الجدارية، فأضيئت القاعة الرئيسية ومداخل ثلاث غرف فرعية منها. وقفت كيا وظهرها للمدخل الرئيسي وأخذت تراقب ما حولها بحذر. رأت أربعة أعمدة خشبية ضخمة تحمل السقف هنا، كما في قاعة الاستقبال في القصر. في منتصف المربع المتشكل بينها نُصبت مجامر، أخذ الكهان يزودونها بفحم متقد. كانت الأرضية مغطاة بكتل طرية. أهي من قماش مهترئ أم من صوف قديم أم من سجاد؟ في الفراغات بين الكتل كانت تلتمع صفائح ذهبية كالتي تخاط أحياناً على الألبسة. تقدمت كيا متنبهة كالآخرين.

وضع الكهان محفّة الملك في الغرفة المقابلة لمدخل القاعة، التي زوِّد جانبا مدخلها العريض بعمودين خشبيين مزدانين بأشغال حفر جميلة. وهناك في الغرفة انتصب سرير عظيم مغطى بأقمشة نفيسة ذات بريق ذهبي ووسائد ناعمة فاخرة، وهو المكان الذي خصصه الأرباب لوجبة الملك اللاحقة. نُقل الملك بروية إلى السرير ووضعت المحفة جانباً، ومن ثم رتبت على السرير وأمامه الأغراض والمأكولات التي سيحتاجها في حياته

الجديدة وكذلك هدايا الأرباب. ومن هذه الأغراض قوس الملك وجعبة سهامه المغلفة بطبقة رقيقة من الذهب نُقشت عليها بمهارة عدّة مشاهد صيد. وكان في الجعبة عدّة سهام ذات رؤوس برونزية، إضافة إلى سهام أخرى، ومغرفة قربان النبيذ للأرباب، وحناجير المراهم، وحلي وجواهر، وأدوات طعام فاخرة وأشياء أخرى كثيرة.

وإلى يسار مدخل الغرفة هذه، وضع أيضاً عرش الملك المتوفى الجديد، وهو كرسي ذو مسند ظهر عالٍ مُطعَّم بالعاج. يتبع العرش كرسي قدمين منجّد وملبّس بقماش قرمزي اللون. كان يجب أن تبدو هذه الغرف مألوفة للملك كقاعة الاستقبال وقاعة العرش وقاعة المآدب. في أثناء هذه العملية جلس أفراد العائلة في قاعة الاستقبال السفلية على مقاعد حجرية مزودة بوسائد على كراسيّ خشبية قابلة للطي. في الجهة المقابلة نُحت في الصخر ما يماثل مقاعد حجرية على قواعد دائرية الشكل، وقد رُتبت عليها وعلى الأرض بجانبها أبراج من الصحاف والصحون والأقداح والكؤوس والأباريق والزجاجات وغيرها من أدوات الشرب. وكانت الكاهنات منشغلات في هذا المطبخ.

بمرافقة التراتيل وُجهت الدعوة إلى أرباب العالم السفلي إلى مأدبة مع الأسلاف الملكيين، هيأها لهم الملك إيداندا. كما وضعت الهدايا المخصصة لهم في مكان بارز. وهذه الدعوة الجماعية كانت تتكرر تباعاً. وفي أثناء أداء شعائر أخرى كانت لحوم الغنم والبقر قد جهزت وشويت. وسرعان ما عبقت في المكان روائح الشواء اللذيذة التي أنست الحضور الدخان المزعج.

أخذت كيا تراقب، في الطرف المقابل من غرفة الأعمدة الأربعة، الكهان الواقفين عند تابوت حجري مفتوح ويضعون فيه أشياء، ربما صحافاً وقرابين. وكانوا يرتلون بالتناوب نشيداً تعزيمياً رتيباً. ثم اختفوا في الغرفة إلى يسار التابوت، حيث سكبوا جعة وحليباً. بعد مدة طويلة عرفت كيا أن هذه الغرفة تحتوي على رفات جميع المدفونين من الأسلاف، منذ بناء هذه المقبرة الملكية: عظام، جماجم، هدايا قربانية كالحلي وأدوات الطعام والشراب. بعد ذلك انتقل الكهان إلى غرفة العرش الجديد والمآدب، حيث كان الملك مسجّى على سريره. وهنا أيضاً صب الكهان جعة وحليباً في طاسات، وصبوا حبوباً وطحيناً وملحاً في أوانٍ مصفوفة، معظمها هدايا عتيقة من حكام غابرين.

حالما نضج اللحم نهض أكيزي واقفاً، وهتف باسم أبيه إيداندا ملك قطنا، داعياً جميع أسلاف العائلة بأسمائهم المعروفة إلى المأدبة، والد والده أولاشودا وزوجته، والديّ

أورلاشودا، وأجدادهما وجميع الآخرين الذين لم يعد يحفظ أسماءهم أحد: «تفضلوا! كلوا هذا! اشربوا هذا! واستقبلوا ببركاتكم وفي وسطكم إيداندا ملك قطنا».

صب الكهان جعة وحليباً قرباناً لأرباب العالم السفلي وللأسلاف. قدموا لهم لحماً مشوياً زكي الرائحة وحبوباً وملحاً وخبزاً طازجاً وزبدة. قامت الكاهنات بخدمة الملك أولاً، فوضعن أمامه مأكولات متنوعة. ثم حصل الجميع على الطعام وبدأت المأدبة مع تناول الجعة وارتفاع الأصوات. وبينما كانت كيا تمضغ بعض الخبز صامتة، فكّرت بالأجيال الكثيرة المتعاقبة التي اجتمعت في هذا المكان تحت الأرض. كم من الأحياء، وكم من الأقارب الأموات من طرف شخص واحد، أبيها! سلسلة لا نهاية لها حتى البداية، عندما خلق الأرباب البشر لكي يخدموهم ويرعوهم. أليس هؤلاء البشر كلهم أقرباء؟ عائلة كبيرة واحدة؟ أليس صحيحاً إذاً، أن يعيشوا مع بعضهم في سلام؟ أخذت لقمة جديدة وهي سارحة وراء أفكارها. ولكن، إنْ لم يتمسك حتى الأرباب بذلك؟

كل المعالجات الضرورية للميت التي أجريت في الغرف الجانبية لمدفن العائلة لم يكن يعرفها ولا يجوز أن يقوم بها سوى العالمين بالأسرار. ولهذا السبب اختتمت طقوس الموتى صباحاً بعد الدفن. استيقظ سكان قطنا في وقت مبكر على صياح الكهنة المروع من سطح القصر وهم يطردون الشياطين التي تحوِّم حول الميت. عندئذٍ فتحت جميع الأبواب والبوابات للقادرين، كي ينصتوا إلى التراتيل المتبادلة بين كاهن على السطح وكهان عند البوابة الرئيسية الغربية يجسدون أرباب القبر.

«إلى أين ذهب إيداندا؟».

فأجاب الأربابُ الموجودُ عندهم: «لقد ذهب إلى دار الموتى». ويجب أن يستمر تكرار السؤال والجواب إلى أن يتم إرضاء الأرباب بحصولهم على مناديل، وعندئذٍ يجيبون عن سؤال: «إلى أين ذهب إيداندا ؟». بقولهم: «أإلى هنا ذهب!». ويكررون قولهم ست مرات. وفي المرة السابعة يأتي جواب الخلاص من الأرباب: «لقد خرجت الأم للقائه، فأمسكت بيده ورافقته».

عندئذٍ يُكسر على السطح إناء فخاري وتُسمع وصلة ندب أخيرة وتُقدم وجبة وفاة أخيرة. وبذلك يسود يقين بأن إيداندا قد وصل إلى ملكوت الموتى، منفصلاً انفصالاً كاملاً عن الأحياء، مزوداً بكل ما يلزمه بأفضل صورة وقد استقبله الأسلاف بترحاب.

**

لم تسنح الفرصة لتانوا لرؤية المدينة الشهيرة نِريكا. القسم الأكبر من الجيش تقدم بقيادة هنوتي بمسيرات سريعة نحو الجنوب الغربي، عبر المنطقة الكشكية، التي سادها السلام مجدداً، على حدود أرزاوا، بهدف دعم القائد هيمويلي. هُزمت مقاطعة هبالّا ونهبت، وعيِّن فيها باسم الملك العظيم شوبيلوليوما حاكمٌ موالٍ للحثّيين، تحذيراً لأرزاوا. في أواخر الصيف عاد تانوا أخيراً إلى حتّوشا حيث نام في سرير حقيقي.

في مكاتب إدارة شؤون الدولة بُدئ بعناية بتقييم كثير من الملاحظات والمشاهدات التي دونها تانوا وبقية الكتّاب والسعاة والرسل. أما في التقرير الملكي حول مجريات الحملة فقد دوِّن ما يلي:

«أنا اللابارنا شوبيلوليوما، عندما كنت أقاتل في أرض أرزاوا انقضّت القوات الكشكية من وراء ظهري على أرض حتّوشا ونشرت الخراب فيها. لذلك أمرتُ، أنا شوبيلوليوما، قواتي في السنة التالية بالتحرك ليلاً، وحاصرتُ قوات العدو، وساعدني الأرباب في إسقاط جيش الكشكيين بين يديّ، لذلك أوجه شكري لربة الشمس في أرينّا، ولرب الطقس في السماء وللربة حامية حتّوشا ولزّاماما وعشتار وسين ولِلْواني، فبدعمهم هزمتُ الأعداء واحتللت أرضهم. ومهما كانت البلد التي اندفعت منها الجيوش لتشارك في المعركة، كان الأرباب يتقدمونني فيفتحون أمامي البلدان التي أعلنت الحرب عليّ. قُتل عدد كبير جداً من قوات الأعداء. مَن أسرناهم وما غنمناه من الثيران والأغنام وممتلكات البلدان أخذته معي إلى حتّوشا. والآن بعد أن دمرتُ أرزاوا، عدتُ إلى وطني حتّوشا. بلغت الغنيمة عشرة آلاف جندي مشاة وستمئة عربة خيل مع سائقيها. أحضرتهم إلى حتّوشا ووطّنتهم فيها. وحيثما توجهتُ في معاركي كنت أهزم العدو وأحتل أرضه بقوة. لقد دمرتُ البلدان وأنهيتُ سيادتها».

5

1351 - 1342 ق. م

انتهت مدة الحداد الرسمي، وطُردت الأرواح الشريرة من القصر ثم نُظف جذرياً. وكانت أخبار الزلزال قد وصلت إلى قطنا. لم تستغرب شالا ولا أكيزي وكيا أن مركزه كان على الساحل، حيث تسبب في أضرار جسيمة، لا سيّما في إرْقاتا عاصمة أمورو. وبذلك اطمأن مجلس الأعيان، لتأكده الآن من أن تحذير الرب إيل أو عقابه لم يكن موجهاً إلى ملك قطنا.

على الرغم من ذلك لم يُعف أكيزي من قرار حكم الرب، إذ لم يشأ أحد الوقوع في الخطأ. كما بُرّر القرار، إضافة إلى ذلك، بأن كثيراً من حيوانات البحر على طول الساحل قد قضت، ويضمنها (أفخاذ إنكيدو) أو القواقع المقدسة، ذات الأهمّية الكبيرة لقطنا. فلقد طالب رب البحر (ياو) بنصيبه. وكان لهذا الخبر وقع مخيف، إذْ سيمضي وقت طويل حتى ينمو ما يكفي من القواقع وتُجمع لتلبية حاجة قطنا. ولم يكن واضحاً، إلى متى يكفي مخزون المادة اللونية لإنتاج الأقمشة الأرجوانية المرغوبة والمطلوبة. وكان ذلك ضربة موجعة للعائلة المالكة، فهي السلطة الوحيدة المخوّلة بهذا الانتاج.

كلما اقترب الوقت، ازدادت خشية أكيزي من حكم الرب، الجاثم على كاهله، لا سيّما أن لا فكرة لديه إطلاقاً، عما قد يواجهه. أيسمح الأرباب بالتفاوض معهم؟ أيدركون أنه لأسباب محض سياسية لم يكن بوسعه التصرف على نحو آخر؟ ومن ساعة إلى أخرى كانت خشيته تتصاعد إلى خوف لا اسم له. حاول في البداية مداراة خوفه عن زوجته وأمه وبقية أفراد العائلة، وكان يفرغ توتره ببلسمه الشافي الوحيد، بأن يجر إهلي نيكالو إلى السرير وينقضّ عليها. أليس هذا حقه بعد انتظار طال شهوراً؟ وكانت ترضخ بلا حول ولا

قوة، مواسية نفسها بقولها إن هذا هو واجبها الذي كلفها الأرباب به. وذات مرة كان أكيزي تالف الأعصاب إلى درجة أن انفجر في حضن زوجته باكياً كأنه رضيع. وبارتباك ونوع من العجز، ورغم كل شيء، أخذت تربّت على أسدها وتبثّ فيه الأمل. وأخيراً أرسلت خبراً إلى كيا.

مساءً ظهرت كيا في القصر مثل ظلّ، طلبت الانفراد بأكيزي، وبعد فترة قصيرة عادت إلى بيت الربة. شعر أكيزي بعدذلك بنوع من التحسن، وليس الخلاص. لكنه بات متماسكاً في انتظار دعوته إلى معبد بعل.

إضافة إلى الكهان، كان المجلس حاضراً بكامل أعضائه ليدلي بشهادته. كان على أكيزي أن يجلس بحضور الجميع. عُصبت عيناه وناوله كبير الكهان كأساً، وبعد التماس الأرباب للحضور وهو يدور حول مكان جلوس أكيزي أمره كبير الكهان قائلاً:

«اشرب، أكيزي يا ابن قطنا، وأثبت جدارتك!».

تذوق السائل بحذر. امتلأ فمه بشيء مرّ ولّد لديه إحساساً بفطرٍ سام. كان لا بدّ من أن يسيطر على حواسه، كي لا يبصق أو يسعل أو يكشّر بطريقة لا رجولة فيها. مع كل جرعة جديدة كان يتولد لديه انطباع بأن معبر حلقومه يزداد ضيقاً. ومع ذلك أفرغ الكأس حتى القطرة الأخيرة من دون أن يفضح حقيقة إحساسه، وخلال ذلك كان يبتهل إلى الأرباب أن يمدّوا له يد المساعدة. كان عليه أن يبقي الشراب في معدته، وألا يتعرق، وأن ينهض واقفاً بعد تناول الشراب ويمشي مستقيماً حتى باب المعبد. وهناك يحق لخدمه أن يمسكوا به ويقودوه إلى القصر. كانت تلك هي الشروط.

أكيزي نفسه لم يصدّق كيف جرت الأمور، لكن الأرباب أسبغوا عليه من رحمتهم في كل شيء، فخرج من التجربة من دون خطأ أو مثلبة. وفي جميع أنحاء البلاد أعلن المنادون: «أكيزي، ابن إيداندا سيصبح ملك قطنا!». وسرعان ما توصل كهان العرافة إلى اليوم المناسب لتتويج الملك الجديد. وحتى موعد التتويج، كخاتمة للاحتفالات، وحين يستلم مهام عمله فعلياً، كان عليه أثناء الاحتفالات أن يقدم مختلف البراهين على قوته وقدراته، كي لا تصاب المدينة والبلد بأي مكروه. وفي ختام ذلك كله تنتظر قطنا احتفالاً، بمنزلة عيد.

ملأت بيت الربة أصوات ثرثرة ونقنقة. ففي الباحة الهادئة عادة، اجتمعت في ساعات ما بعد العصر بنات عائلات الأعيان والأشراف، سواء أكنّ يخدمن في الحرم الآن أم لا.

من هذا الحشد وبعد أسئلة الكاهنات لكل واحدة على حدة، سُمح لسبعة منهن بالبقاء، وكيا من بينهن، لأنهن يمتلكن السمات المنصوص عليها. أما بقية الفتيات الغارقات في صوصأة متداخلة هائجة فقد اختفين مساء من المعبد، فعاد إليه السكون. وإذا حزن بعضهن لعدم وقوع الخيار عليهن، فإن المنتخبات لم يكنّ متأكدات من ضرورة شعورهن بالسعادة، لهذا الشرف العظيم الذي أُسبغ عليهن وعلى عائلاتهن. فلقد انتُخبن لتجري عليهن قرعةُ مَن منهن التي ستنوب عن الربة في طقس العرس المقدس. وكانت الكاهنات مسؤولات عن إعداد هذا الجزء من العيد، فهن من ينتقين بعناية فائقة المرشحات الأُوَل. أما القرار النهائي فتحسمه الربة نفسها، بأن تضع يدها على العذراء التي عبْرَ جسدِها ستعاشرُ الملك. والعذراءُ تعيرُ الربةَ جسدها فقط، ولن يعرف الملك مطلقاً أي المرشحات ستكون من نصيبه لهذه المرة الوحيدة. وكان هذا الأمر يحاط بسرية كاملة.

وأفضل بشارة خير للملك الجديد ولقطنا هو حملُ نائبة الربة، الذي يعد هدية الربة لملكها المحبوب ولبلدها المحبوب. ولهذا اختارت شالا أفضل كاهناتها علماً لطرح الأسئلة على الصبايا. وفي الليلة نفسها بدأت عملية القرعة. دخلن فرادى وبكل خشوع إلى غرفة صغيرة مجاورة لقاعة المذبح. قدمت لهن شالا طاسة مغطاة لتأخذ منها كل منهن بعينين مغمضتين حبة حمص وتناولها من دون أن تراها للكاهنة الكبرى. بالتالي سحبت كل واحدة منهن حبة حمص سوداء، إلى أن لم يتبقّ في الطاسة سوى الحبة البيضاء، وصبية واحدة عند المدخل: كيا. من دون أن تبدي أي نأمة، أنهت شالا العملية وأرسلت الفتيات إلى أسرّتهن، دون أن يعرفن النتيجة.

تُوّج أكيزي ملكاً، بمشاركة واسعة من سكان قطنا وفي حضور عدد من كبار الضيوف. وخلال العيد المتعدد الأيام حُسِب حساب كل وجه من وجوه الحكم الملكي بما يليق به. فالملك هو الممثل السياسي الأعلى للبلد، وفي الوقت نفسه كاهنه الأعلى، فهاتان الوظيفتان مرتبطتان إحداهما بالأخرى لا تنفصلان. لكنه أيضاً الفلاح الأعلى، والراعي الأعلى، والصياد الأعلى، والناظر الأعلى للبلد. وقد افتُتحت الاحتفالات في معبد بعل، بإلباس الملك عباءة القداسة التي تُبرز هوية أكيزي الجديدة، أي أن جميع أفعاله في المستقبل ستكون بتكليف من الأرباب.

ومن ثم ركب مع زوجته العربة ذات الدولابين التي يجرها جوادان وهو يقول: «ربة العرش منحتني، أنا الملك، شارات السلطة والعربة!». وفي موكب احتفالي طويل وصل

أكيزي إلى القصر الذي غادره وريثاً للعرش، ودخله الآن من البوابة الجنوبية ملكاً لقطنا. رافقه موكب الحاشية عبر قاعة الاستقبال إلى عرشه، الذي يرمز إلى ديمومة السلطة، حيث استلم بيديه الصولجان الذي صُنع له خصيصاً، ثم ناوله أحد الكهان العصا الذهبية المعقوفة المطعّمة بتزيينات فضية، التي ترمز إلى السلطة القضائية. بعد ذلك ناوله كاهن آخر حربة النصر، رمز الحكم الملكي والقوة العسكرية، التي وضعت في مكانها الدائم إلى يسار العرش.

«المِخْفر بيد الملك وحجر الرحا بيد الملكة، بهما تهيئان يا سليلي الأرباب الخبز والشراب قرابينَ إلى أبد الأبدين»، هكذا صدح الغناء تمجيداً للصفات الفلاحية للزوج الملكي، لتأكيد أن الأرباب قد منحوهما القدرة للتأثير في نمو الطبيعة. وأخيراً أُلبِس الملك معطف الرعاة، فعلى الراعي الأعلى أن يوفر للمراعي السلام والازدهار. ثم جاء دور مديح الصياد الأعلى الذي يوفر الغذاء للناس بطلقات سهامه المحكمة، ومن بعده الناظر الأعلى الذي يشرف على طبيعة الأرض وغابات الأرز وبساتين التمور وكروم العنب. وتخلل احتفالات العيد تقديم قرابين طعام وشراب للأرباب والأسلاف ومآدب عامرة للأحياء المحتفلين.

ناجت شالا ربتها لفترة طويلة. لماذا كيا؟ عمَّ تريد الربة أن تعبّر بهذا الاختيار؟ هل يمثل هذا الخيار مستقبلاً خيّراً أم لا بدّ من اعتباره إشارة تهديد؟ راجعت شالا فوراً النصوص كافة. هل ارتكبت خطأ ما؟ أكان من غير الجائز اعتبار كيا واحدة من مجموعة الصبايا، لأنها تتحدّر من العائلة الملكية؟ لكن النصوص لا تذكر شيئاً بهذا الصدد، بل ذكرت: من عائلات الأعيان والأشراف، فقط. زواج الإخوة كان محظوراً في قطنا. والعرس المقدس ليس زواجاً، بل نكاح إخصابٍ لمرة واحدة لا غير. ومع ذلك يحتمل أن يسيء لكيا بصفتها أميرة قطنا. ولكن لن يدري أحد قط أن كيا كانت تجسد الربة. النساء كن ملزمات بالصمت، وسيبقين شهراً كاملاً في بيت الربة، هذا إن لم يكنّ أصلاً من المبتدئات في سلك الكهانة. وإذا حدث حملٌ، فإن الطفل يؤخذ من أمه عقب الولادة فوراً، ويتبع للمعبد.

أن يقع خيارُ الربة على صبيةٍ للعرس المقدس، يُعد عادةً ذروة حياة الصبية، لأنها ستمثل الربةَ في اعتلاءِ الملك عرشه، دون إعلاءٍ من قدرها الاجتماعي. أما في حال كيا فإن كبيرة الكاهنات، ببساطة، لم تكن متأكدة. قلّبت شالا الأمر على وجوهه، دون أن تتوصل إلى مخرج. كل ما ارتبط بتتويج أكيزي كان غير عادي، فهو في نهاية المطاف قد اشتري من

الأرباب بثمن باهظ. وشالا امرأة واقعية لا تخدع نفسها. تُرى هل ينتقمون؟ حتى وإن كان كل شيء الآن يبدو في مساره المعتاد؟ المؤشرات السابقة التي قرئت بقيت ملتبسة. ولم تحصل شالا على أجوبة عن أسئلتها. وأخيراً تجرأت وحسمت أمرها بأن الأجوبة لم تأتِ، لأن أسئلتها كانت نافلة. كيا ستكون خليفتها المختارة، وكل ما عدا ذلك لا أهمّية له بالنسبة إلى الربة. ومع ذلك كان قلبها مثقلاً بالهم للقبول بهذا الخيار: أن تشارك كيا في طقس العرس المقدس مع أخيها غير الشقيق، بصفتها تجسيداً للربة بيليت إكاليم سيدة المدينة ولربة الحب عشتار.

والآن، لا بدّ من تهيئة المختارة للمشاركة في الفعل المقدس. أرسلت شالا في طلب أمينابة، لتشد من أزر صديقتها. فقد سبق أن كانت أمينابة مختارة من قبل الربة، وأدت واجبها في عيد رأس السنة، ولكن ليس كعذراء. فالعذرية شرط عند تتويج الملك فقط. سرحت أفكار شالا إلى سنين خلت. عند اعتلاء إيداندا العرش كانت هي التي شاركته السرير المقدس. هل علم بذلك لاحقاً يا ترى؟ طوال تلك السنوات كانت علاقتهما مبنية على الثقة والاحترام. كان عشيقاً حساساً، متعاطفاً، حنوناً، ومع ذلك ممتلئاً فحولة وثقة، فلم تعان مطلقاً آنذاك في سرير الزهور.

«جهّزي كل شيء أمينابة»، قالت شالا عائدة من شرودها إلى أرض الواقع: «مساء اليوم ستحصل المختارة على الإكليل وتُهيأ للغد».

«أنت هي!».

اندفعت أمينابة إلى المخدع المشترك وعانقت كيا مبتهجة وهي تقول: «أنت يا حلوتي، ولا أحد غيرك. الربة تريدك أنت! لقد اختارتك وباركتك منذ البداية. مالكِ صامتة! ألستِ سعيدة بذلك؟».

«أتقولين إني أنا والملك.. نحن، تقصدين أن الملك وأنا يتوجب علينا إقامة الطقس؟ لا شك في أنك مخطئة. أنا أخته!».

«وماذا في ذلك؟ إنها مشيئة الربة. لقد سحبتِ القرعة. ستحلّ الربة في جسدك، وستمنح الأرض البركة والخصب». وأخذت أمينابة ترقص من البهجة. إنها المنّة الأعلى التي قد تمنحها الربة لعذراء أو امرأة، فيا له من يوم سعيد!

جلست كيا على سريرها مذهولة. هذا مستحيل. كل ما فيها كان يرفض. لا، ليس أكيزي!

«صدقيني يا كنزي، لا داعي للخوف أبداً. مساء اليوم ستُكلّلين بصفتك مختارة الربة. وستتم التحضيرات بكل عناية لنهار الغد ومسائه. ستلاحظين سرعة حلول الربة فيك. عندئذٍ لن تكوني كيا، وهي التي ستقودك إلى السرير المقدس»، قالت أمينابة بخشوع، ثم أضافت: «سآتي لآخذك عندما يحين الوقت!».

سخطت كيا، رغم معرفتها بأن الربة ستعاقبها لعصيانها وعنادها. لماذا هي؟ إنها لا تريد هذا الشرف. أهذا عقاب مساعدتها لأكيزي في أمور لا تستند على أرضية صلبة؟ لكنها لم تتصرف بملء حريتها، بل أُجبرت على الصمت لأنه الأفضل لقطنا.

بعد فترة اعترفت لنفسها بخوفها من أكيزي الذي تعرفه بصفته أخاً، ومن أحاديث إهلي نيكالو بصفته عشيقاً. وكان تصوّرها عن فضّ عذريتها مختلفاً تماماً. فكّرت بأمونحوتب وقبلاته ويديه. آه، يا للأحلام الضائعة. وبكت كيا، إلى أن انتزعها صوت جليل من الحزن على نفسها: «الأمر لا يتعلق بك أنت، كيا أميرة قطنا، ولا برغباتك وأحلامك. عليك تلبية الواجب المناط بك، وعليك أن تخدمي الربة بسرور، مهما طلبتْ منك!». انتفضت كيا واقفة وحمرة الخجل تغطي وجهها. إنها لم تسمع شالا داخلة. كيف يمكن لشالا أن تقرأ دخيلتها بهذه البساطة؟ لم يبدُ على شالا أي رد فعل، بل أضافت: «اذهبي إلى الحمام. إنهن بانتظارك!».

في حلقة النساء مُسِحت مختارة الربة بمصاحبة الغناء والرقص، ثم ألبسنها إكليلاً من زهور صفراء فوّاحة، ورافقنها إلى مخدع النوم، وأسلمنها لرعاية الكاهنة أمينابة، التي حكت لكيا بتفهم لحالتها، تصورها لمسار الفعل المقدس وشرحت لها ما عليها أن تفعله. كان لشروح أمينابة وتشجيعها وقربها أثر مريح في كيا. ابتهلتا معاً إلى الربة، وطلبت كيا غفرانها نادمة على عصيانها وتعاليها.

كان النهار التالي مملوءاً بالتحضيرات للاحتفال. وبما أن نوم كيا كان مضطرباً وقليلاً ودون أحلام، فقد جعلها التعب هادئة. غسلتها النسوة المرة تلو الأخرى وحلقن عن جسمها كل شعرة مزعجة ومسَّحنها وعطّرنها. غنّت لها الكاهنات أغنيات غزلية، وتلَوْنَ على أذنيها وهنّ يزيّنّها مقاطع معينة من الأساطير القديمة. وفي لحظة ما غمرتهن بهجة الحياة الصافية، فاختلطت النصوص المقدسة مع الضحكات والنكات. كانت كيا مترددة في الاندماج معهن. كانت تعرف ما هو المتوقع منها وحاولت أن تهيئ نفسها له. لم ترد أن

ترتكب أي خطأ، ولا سيّما أن الخوف والرفض كانا مرافقيها الدائمين. شاكرة تناولت بعد العصر شراباً مبرداً، فقد فرض عليها الصيام منذ مساء الأمس. كان يجب أن تكون نقية من الداخل والخارج عندما تسكنها الربة. بدأت الكاهنات بتزيين وجهها، وأخذت كيا تتابع في المرآة بدهشة التغييرات التي تتالت عليها. هل هذه هي نفسها؟ رأت صبية عارية جميلة ومشتهاة، رأسها مزيّن بشعر الربة المستعار وكل حليها، فغمرها شعور مستعذب. وفي غمرة نسيانها نفسها شربت قدح الشراب الثاني. ثم أُلبست ثوباً خفيفاً شفافاً، ولما نظرت إلى صورتها في المرآة تملّكتها رغبة مجهولة. زيّنت خادمات الربة أصابعها بالخواتم. وتدريجياً أخذت شخصية كيّا بالتلاشي حتى الامحاء. تغزلت الكاهنات بالربة وقدمن لها القرابين وتوسلن قربها. أُشعلت المشاعل وأوقدت المباخر. وتحرك الموكب الذي سيوصل الربة إلى الملك.

كان العرس المقدس في بيت بيليت إكاليم إحدى ذرا العيد. فبعد أن يثبت الملك مهارته في الصيد وشطارته في الفلاحة وكونه راعياً يعوَّل عليه، يأتي دور عقد الرباط بين الربة والملك بصفته ممثلاً للرعية، من أجل ازدهار البلد. والمغزى من اتحاد ربة الحب مع الملك الجديد هو تأكيد قدرته على الإخصاب، أي على شرعيته كحاكم جديد، بصورة علنية. ومن ثم فقط، يليق به لبس التاج..

في أثناء تنفيذ المراسم جميعها كان أكيزي بالغ التوتر، إذ لا يجوز له ولإهلي نيكالو أن يرتكبا أي خطأ. صحيح أن معلمي المراسم كانوا إلى جانبهما، ولكن كان عليهما النجاح في تنفيذ الأفعال العلنية بنفسيهما، إذ لا يجوز لأحد أن ينوب عنهما هنا. وقد سارت الأمور كلها على خير وجه، أما الآن فقد وجب على الملك الشاب أن يثبت رجولته أمام شهود. لم يشكّ ولو للحظة واحدة فيما إذا كان قادراً على إسعاد امرأة بناء على طلبها، بل بالعكس، فقد كان مستعداً لأي رهان، على نجاحه في إرضاء أكثر من امرأة في وقت واحد، وخادمات المعبد خير شاهد على ذلك. ولكن أن يكون محط الأنظار وهو يؤدي واجباً، فهذه تجربة جديدة. والتي تنتظره ليست أية امرأة، بل صَفيَّة الربة!

انقطع حبل أفكاره بدخول زوجته. إنها لا تأتي إلا في اللحظات الحرجة!

«ما الأمر يا حبيبتي؟».

«جئتُ راجية لك الحظ السعيد. فلا شك في أنه فأل خير أن تنتظرك الربة في ذكرى مرور سنة على زواجنا!».

للحظة أحسّ أكيزي بالخجل، وعلى نحو عفوي خطر أبوه في باله. فرغم مشاغل منصبه ومهامه الكثيرة، نجح في أن يكون لأمه زوجاً يراعي مشاعرها. وأكيزي يعرف أن بلتوم لم تكن زوجة بسيطة أبداً. ضم إليه إهلي نيكالو وقال واعداً: «سنعوض كل شيء حالما تختتم الاحتفالات الرسمية. أما الآن فلا بدّ لي من أن أهيئ نفسي، وأنت تفهمين ما أقصد. قبّلي أمّوت پان بالنيابة عني!».

دفعها برفق إلى خارج الغرفة. وقال لنفسه: سنة! قبل سنة كانت في سريري عذراء حلوة. من ناحيتي، لا مانع من أن يصبح هذا قاعدة. رغم التزامه بواجب الصيام حاول ببعض أقداح النبيذ أن يهدئ من قلقه المتزايد، وهل سيخفف النبيذ من تشنجه يا ترى؟

في أوائل المساء حضر الخدم ورافقوه من الجناح الملكي نزولاً إلى حمام القصر المجهز بترف. فكشطوا شعر بدنه وقصوا أظافره، إذ لا يجوز أن يزعج الربة أو يؤذيها شيء. رافق ذلك موسيقا وغناء مجموعة من الصبايا، ما نقل أكيزي إلى جوٍّ مترع بالتوقعات. ثم مُسّح الملك من رأسه إلى قدميه بزيوت فواحة حتى طري جلده وبات لدناً. لم يتزين الملك بأي حلي سوى خاتمه. وفي الختام لف الخدم جسمه بثوب خفيف.

في الحرم هُيِّئ سرير العشق للربة والملك بعناية. غمر فضاء الحرم نورٌ ناعم وزُيّنت جدرانه بأكاليل الزهور، وعبق الجو بروائح زكية. كانت العازفات يداعبن أوتار القيثارات بألحان ناعمة لمرافقة أغنية العشق: «عالجت سريري بالمرّ والصبر والقرفة..». كان السرير العريض من خشب الأبنوس، مغطى بمظلة من الأغصان المورقة وأغصان الأرز الخضراء، ومزداناً بورود ذهبية تتلألأ كالنجوم مع ارتعاشات النور، أما أشغال الحفر في العاج فتروي حكايات عشق الربة. وقد قامت الكاهنات بتنجيده بكل حب وهن يغنين، ففرشنه بطبقات من اللباد والفراء النفيس والأقمشة الحريرية، وفردن فوق ذلك كله شرشفاً كتانياً أبيض لا شائبة فيه. من جهة الرأس زيّن السرير بإكليل من الزهور الفواحة، وبمجموعة من الوسائد البيضاء، كما نثرن الزهور على السرير كله.

أثناء مرافقة الملك إلى الحرم، مرتدياً مئزراً قصيراً بسيطاً، كانت خادمات المعبد يغنين أنشودة مديح ربة الحب:

«دخلتِ الحمام لتغتسل، اغتسلت وتطهرت ومشحت جسمها بعطر فاخر، ثم تزينت، فصارت ساحرة تنثر الفتنة من حولها».

رافقوا الملك إلى السرير تحت المظلة، ودعوه إلى الاستلقاء، فجلس على طرفه بشيء من الارتباك ومر بيده على الشرشف الكتاني الأملس المتلألئ البياض. ولتحلية انتظاره لقدوم الربة، ناولته كاهنة صبية شراباً في قدح خزفي لماع، فشربه بنهم وطلب المزيد. سال الشراب عبر حنجرته كالزيت الحارق، ما أثاره وجعله يغلي. لم يعد يشعر بجميع من حوله من الناس، وأخذ يفكر بالربة ويتصور ظهورها الفوزي بجمالها الخارق، راغبة في أن تمنح نفسها له، لملك قطنا. هيّجته هذه الأفكار، فاستلقى مشحوناً بالتوق والتوقع.

توقفت الموسيقا برهة، ثم صدحت القيثارات بلحن سماوي. فتح الملك عينيه. تراءت الربة له أمام السرير صبية فتية، تلتفّ بثوب شفيف، يبدي أكثر مما يحجب. شعرها الأسود الطويل المجعد على جبينها وكتفيها، يحيط بوجه ذهبي اللمعان، بحاجبين سوداوين مزجّجين، وعينين سوداوين مكحلتين وفم أحمر كالورد. كانت مزينة بخواتم ذهبية وعدة أطواق من أحجار كريمة. لم يسبق لأكيزي قط أن رأى مثل هذا الجمال.

«أنا ملكة النجوم جميعها. حكمة الحياة تأتي من رحمي، وهو رحم رائع»، غنت المغنيات بصوت خافت.

اقتربت الربة وهي تكشف ثوبها قليلاً، بحيث يرى الملك نهديها وحلمتيها المنتصبتين الملونتين بالأحمر، ويرى مثلث عانتها الواعد. انزلق الثوب عن كتفيها كلياً عندما وقفت عند السرير. عارية وقفت أمام الملك عارضة جسدها لنظراته الشبقة. ثم صعدت إليه على السرير وحلّت مئزره، فظهر عضوه تحته مشرعاً في انتصاب كامل، جاهزاً لاستقبال الربة. كانت رغبته عارمة في امتلاكها فوراً، هذه العذراء الميساء بنهديها الصغيرين والريانين مع ذلك مثل تفاح لذيذ، بفمها الأحمر كالكرز، وأنفاسها المنعشة كالنعنع. ارتجفت ربة العشق. لم يدر الملك، أخشية أم إثارة. وللحظة قصيره دهمه شعور بالخيلاء وحب التملك، وكأنه حقاً أول زوج لهذه الربة التي تتصرف كصبية عذراء، لم يسبق لها قط أن ضاجعت عشيقاً. استثاره هذا بصورة هائلة، وفي سكرة الاندفاع أمسك بها وجذبها إلى جانبه. حاول أن يضبط نفسه، تلمّس نهديها وقبّلهما، ثم شقت يده طريقها إلى عانتها، لكن فخذيها المضغوطين أحدهما على الآخر منعاه من الدخول، فتصاعدت استثارته. باعد أحدهما عن الآخر بيديه، بشيء من القوة، ونظر بشبق عارم إلى مدخل الحديقة السماوية، إلى الشفرين الورديين والربوة الواعدة. ارتمى بجموح فوق الجسد الأعزل وقد ثبتت يداه يديها. أخذت نظراته ترتوي بمنظر نهديها الصاعدين الهابطين بسرعة، وبالوجه الذهبي الإلهي السرمدي النقي، والذي لم يبدِ نأمة استجابة من جانب الربة. ومع ذلك

كانت ارتعاشات أعضائها الخفيفة تشير إلى عدم زوال مقاومتها، ما أجّج شهوته لامتلاكها وإخصابها. وعندما لم يعد قادراً على التمهل أكثر، أولج عضوه فيها. وفيما هو مأخوذ بشهوة عذريتها، لم يتنبه أبداً إلى صيحتها المكتومة، بل انجرف وراء لذّته الخاصة. في الوقت نفسه بدأ كاهن وكاهنة غناءً تبادلياً من كلمات النصوص الطقسية المرتبطة بالربة إنانا وعشيقها تموزي:

«هي أرض ذات رواب في السهل،
هي حقل يقصده الطير المهاجر،
هي أرض خضراء وأرض بور.
فرجي ربوة تنتظر،
أنا الفتاة.. من سيكون حارثها؟
فرجي أرض بور.
أنا الملكة، من سيكون ثور الحرث؟

سيدتي، الملك سيحرثها لك،
الملك تموزي سيحرثها لك.

احرثْ فرجي يا حبيبي،
فإنانا قد غسلت جسدها الطاهر.

فرجي رطب، فرجي رطب،
أنا ملكة السماء، فرجي رطب،
أنا ملكة السماء، فرجي رطب،
دع الرجل على السطح يضع يده على فرجي،
فليضع الرجل القوي يده على فرجي».

انفصل الملك عن الربة وانقلب إلى جانبها، تمدّد وأغمض عينيه ليتابع لذته. أحس بقماشة خفيفة كريشة تلامس كنسمة جسمه المتقد. أخذت أياد نسائية ناعمة تلحِس عليه وتداعبه بنعومة. وتدريجياً بدأ يعي ما يحيط به، سمع موسيقا وأنشودة مديح ربة الحب، التي يمكنها أن تتجلى في هيئات كثيرة.

«غنّوا الربة! المبجلة بين الربات!

الحمد لسيدة البشر، العظيمة بين الأرباب قاطبة!
غنوا عشتار! المبجلة بين الربات،
سيدة البشر، العظيمة بين الأرباب قاطبة!

أجل هي! ترتدي الإغراء والفتنة،
وتتزين بمتعة الجنس والشهوة، ممتلئة بالغواية.
عشتار! ترتدي الإغراء والفتنة،
وتتزين بمتعة الجنس والشهوة، ممتلئة بالغواية.

شفتاها عسل نحل! فمها طاقة الحياة!
وبكل ما تمتلكه، يتكاثر ضحك السعادة!
بديعة هي وقد نُثرت الجواهر على رأسها،
متلألئة بجمال مع ألوان عينيها البراقتين».

أخذت الأيدي تدفع الملك برفق، مع الإصرار على أن ينهض. فتح عينيه، غير راغب وغير مستعد لمغادرة هذا المكان السماوي. وعاوده الانتصاب عندما فكر بربته الرشيقة، بردفيها المدورين بخفة وخصرها اللذيذ وسرتها اللطيفة المزينة بوردة ذهبية. التفت فرأى السرير إلى جانبه خالياً. كانت الكاهنات واقفات قربه، ناولته إحداهن شراباً، ثم دفعنه للنهوض، فألبسنه المئزر والمعطف الملكي، ورافقنه حتى المذبح. قدم للربة جعة فاخرة كسائر الموجودين، من النوع الذي تفضله، ثم شرب بنفسه قدحاً تلو الآخر ليستعيد لذة السكرة. وفي هذه الحال وهو شبه دائخ تناهت إليه أغنية الختام.

«الأرض الممتدة بعيداً تزيّنت بالأحجار الكريمة واللازورد،
تزيّنت بالديوريت الأسود والعقيق الأبيض والأحمر وبالنيازك.
رمت السماء على النبات ثوباً من جمالها وتبدّت ببهائها.
الأرض الطاهرة العذراء قدمت نفسها مزهرة للسماء الطاهرة.
السماء الأكثر علواً ركعت على الأرض وأخصبتها،
نثرت فيها نطف الأبطال والأشجار والقصب.
الأرض الحلوة، هذه البقرة الجيدة التكوين،
حضنت نطف السماء الطيبة في رحمها:

وهيأت نفسها بفرح لولادة نبات الحياة.
ثَقُل الحملُ على الأرض المبتهجة،
فتعرقت عسلاً ونبيذاً!».

لم يعد أكيزي يتذكر، كيف وصل إلى القصر. لم يعد حتى موقناً ما إذا كان قد غادره أصلاً. أكان كل شيء حلماً؟ ثم غمره الشعور بالفوز: لقد امتلك الربة. لقد أسلمت نفسها له، وقد أنجز مهمته كما يجب. ولهذا ستكافئه بمباركة البلد.

اليوم تُوّج! فصار إذاً ملكاً بكامل الحقوق والواجبات. وسيعمل على قيادة البلد إلى مزيد من الازدهار، وإلى مزيد من الثراء والرفاه. اسم قطنا لا بدّ أن يرتفع عالياً فوق سوريا. بحماية مصر ستتحدى ميتاني وحتّوشا وكل من سيمدّ يديه الطامعتين فيها. ستحرق هذه الأيدي! في السلسلة الطويلة لملوك قطنا سيغشى نور أحدهم على الجميع: إنه أكيزي، ابن إيداندا. أما اليوم فليحتفل الجميع بأول عيد بهيّ في ظل حكمه، وستتلوه أخرى كثيرة، ستكون موضوع حديث الناس في سوريا كلها وفي محيطها أيضاً.

**

«أين وجدوها؟».

سمح أكيزي للـ (مخبرَين) بالدخول فوراً، حالما علم بسبب قدومهما.

«انتشلوها من نهر أرانتو، إلى الشمال قليلاً باتجاه زينزار. جسمها كان عالقاً بين القصب».

«كيف عرفتما بالأمر بهذه السرعة؟».

«الفلاح الذي انتشلها تعرّف على الختم الملكي على معصمها، فنقلها في الليلة نفسها بقاربه حتى مخاضة قطنا، وسلّمها هناك إلى أحد الحراس الذي أحضرها إلى دار الشفاء».

«وما أدرانا أنها الفتاة نفسها، التي اختفت من هنا؟».

«كبيرة الكاهنات أمرتنا بأن نحضر من مطبخ القصر شخصاً يعرف الفتاة. الطباخ أكد أنها هي، رغم أنها مشوهة».

«الخادم المحتجز عندنا، يمكنه أيضاً التعرف عليها»، قال الملك مفكراً، وأضاف: «هل وجدتما عائلتها؟».

«ليس بعد. حصلنا أخيراً على معلومة من الطباخ، قد تقودنا إلى حيث كانت تسكن».

«جيد، اهتما بالأمر فوراً، ولكن بتكتّم! ولا كلمة حول الموضوع لأيٍّ كان. وإذا وصلتما إلى معلومات جديدة، تعالا إليّ فوراً!».

بعد ذلك بقليل وصلت ساعية دار الشفاء، التي كان الملك بانتظارها بلهفة. في هذه المسألة الحساسة، كان لا بدّ لشالا من العودة إلى كيا، رغم رغبتها الأكيدة بإعفائها من ذلك.

بعد خوض تجربة العرس المقدس كان لا بدّ للكاهنات من حمل كيا، لعدم قدرتها على المشي بنفسها. كانت نظرتها جامدة وقاسية. تأثير الشراب المسكر الممزوج بالمهيجات الجنسية قد تطاير، وما تبقى كان واضحاً: ألم. أعطت شالا إشارة لأمينابة، فاختفت هذه مع كيا، قبل أن يفتح الملك عينيه، ولا سيّما أنه كان ملتهياً مع خادمات الحب. ما كان يجوز لرجل أن يرى الربة في هذه الحال. جلست أمينابة على طرف سرير كيا، بعد أن مسحت عن وجهها قناع الربة، ومسحت جسمها بحذر بماء دافئ، وأعطتها قطعة قماش مدهونة ببلسم شاف لعانتها المجروحة. ثم أخذت تربت عليها وتهمس لها بكلمات لطيفة. بقيت كيا جامدة بلا حراك، بحيث لم تعرف أمينابة إن كانت نائمة أم صاحية. وفي لحظة ما، رغم جلستها غير المريحة، غفت. مع الفجر، عندما استيقظت متيبّسة الأطراف، نظرت في عيني كيا الصافيتين، ووجدت أن وضعيتها لم تتغير، لكنها فتحت فمها وقالت:

«كانت تفوح منه رائحة الخمر. إنه قاس وأناني فظيع. المرأة بالنسبة إليه، حتى الربة نفسها، ليست أكثر من وسيلة لإشباع رغبته. أما كيف تشعر، فهذا لا يهمه. إذا كان سيحكم البلد بالطريقة نفسها، فيا ويل قطنا منه!».

لم تردّ أمينابة بشيء. فما فائدة أن تشرح كيا الآن، أنه مع مزيد من الخبرة في أمور العشق يمكن للمرأة إلى حد كبير أن تقود شريكها، وأن تُفهمه رغباتها. كانت هذه أول مرة لكيا. والخوف من ألم فض البكارة لا يمكن أن يسعد أو يمتع أية فتاة. وكون الملك عشيقاً لا يبالي بشريكته، أمر متداول بين بعض نساء قطنا. مساء الأمس سارت الأمور بسرعة زائدة، رغم المساعدات التي قدمت لكيا. الآن فقط انتبهت أمينابة للبقع الزرقاء على معصمي كيا. ماذا يسعها أن تقول لتواسيها؟ ثم نهضت كيا وغادرت المخدع. ولم تنبس من بعد أمام أمينابة بحرف واحد حول الموضوع. أثناء أداء الطقس لا أهمّية للمشاعر الخاصة. وسرعان ما شفيت الجراح الجسدية، وتابعت كيا حياتها المعتادة في بيت الربة.

كانت تلك أول مرة تلتقي فيها ثانية بأخيها الملك بعد العرس المقدس. لم تلفت نظرها أية مؤشرات على احتمال أن يكون قد تعرّفها. كان عليها أن تستعيد لهجة الحديث المعتادة بينهما، كي لا يشتبه بشيء. منذ دخولها القاعة أدركت أن أكيزي مأخوذ تماماً بمسألة الفتاة الميتة، وبالتالي فإنه لن يولي أخته أي اهتمام شخصي. وقد سَهّل هذا أموراً كثيرة.

ابتدرته قائلة: «ترى كبيرة الكاهنات أن الفتاة قد غرقت. لكنها لم تدخل النهر بإرادتها. ثمة علامات على جسمها تشير إلى أن هناك من ثبّتها وأبقى رأسها تحت الماء».

«إذاً، هناك من أبعدها من طريقه، خشية أن تحكي».

«أعتقد أن هذا يؤكد ظننا، بأنها لم تتصرف من نفسها، بل هناك من أرغمها على ارتكاب الفعل. ثمة ما يخيف وراء الأمر، وإلا لما أقدمت على تسميم سيدها المحبوب بـ..». وسكتت كيا.

«قد نعرف أكثر عندما نجد عائلتها. إنه لأمر مستغرب ألا يعرف أحد في القصر عنها أي شيء. فالأمر المتبع عادة، هو أن كل من يعمل في خدمة الملك الشخصية، يُنتقى بعناية فائقة، ويُدقق في أمور عائلته. أما هذه فلا نعرف شيئاً عنها. انقلي شكري لكبيرة الكاهنات وسأرسل مَن يخبركم، عندما تصلني معلومات جديدة!».

ولكن قبل حدوث ذلك، أسفر وصول رسول حتّوشا، المنشود طويلاً من الملك إيداندا، عن حالة محرجة جديدة. إذاً، لقد كتب الوالد حقاً إلى الملك العظيم، دون أن يخبر أحداً بالأمر. في إدارة شؤون المملكة وفي المحفوظات لا توجد نسخة عن الرسالة، ولم يستطع أكيزي معرفة مَن خطّها. غير أن جواب حتّوشا سمح باستنتاج بعض ما ورد في الرسالة. يطالب اللابارنا بتبعية قطنا رسمياً إلى حكم حتّوشا. «فالأتباع»، هكذا قال الرسول، «يحصلون من حتّوشا وأربابها على حماية عسكرية كاملة، أما الضرائب المترتبة على ذلك فيمكن الحديث بشأنها لاحقاً».

انزعج أكيزي بشدة. هل عليه إطلاع المجلس على تصرف أبيه الفردي؟ أم عليه إعادة الرسول على عقبيه مع خبر بسيط للابارنا بأن الملك إيداندا قد مات؟ وأخيراً قرر مناقشة المسألة في المجلس بصراحة. فهو في نهاية المطاف ليس مسؤولاً عن سلوك أبيه. قدم للرسول مكاناً للإقامة وطلب منه انتظار جواب المجلس.

هذه المسألة تحمل جانباً إيجابياً: إنها تقدم سبباً معقولاً للكتابة إلى الفرعون مجدداً.

فرسالة إخباره بموت الملك إيداندا، وتتويجه ملكاً من بعده، لم يصل جوابها من مصر حتى الآن، وما زال الوقت مبكراً لذلك. ولكن لا ضرر من التأكيد على لفت انتباه أمينوفيس إلى قطنا.

ما تنبأ به أكيزي وقع، فقد تضاربت الآراء بحدة في مجلس الأعيان، ولا سيّما تيرو الذي هاج، من دون أن يهاجم الملك الميت بصورة مباشرة. وحتى أكالينا وأوپيا تصرفا بارتباك، فإيداندا لم يسّر لأحد حقاً بما فعل. وسيكون ضرباً من البراعة الدبلوماسية أن يصاغ الرد على الملك العظيم، بحيث لا يهينه، ويوضح في الوقت نفسه أن قطنا لا تفكر بالخضوع لحتّوشا.

لم تكن حتّوشا وحدها موضوع البحث، بل أيضاً رسالة التحية التي اقترح أكيزي توجيهها إلى أمينوفيس، والتي يجب التأكيد فيها على اعتبار قطنا نفسها في حماية مصر.

«لماذا يجب علينا أن نكون تابعين لأحد، أياً يكن؟ هل من الضروري لقطنا أن تتذلل لجهة ما؟ إني لا أفهمك، أكيزي! إنك تقترح الأمر نفسه الذي اقترحه أبوك قبلك، سوى أن اسم القوة العظمى قد تغير! وما رأي أختك الصغيرة المسكينة في الموضوع؟».

كوّر أكيزي قبضته، فقد عاد خاله، بلا انقطاع، لطرح الأمور نفسها. لكن الأمور لم تصل إلى حدّ التصادم بين الطرفين، لأن غالبية أعضاء المجلس أظهرت موقفها الموالي للملك.

«لا حاجة لتكرار كل شيء الآن، يا تيرو»، قال أوپيا بأسلوبه الهادئ المعهود، وكان أكيزي ممتناً لحميه. وتابع أوپيا: «لقد سبق أن اتخذنا قرارنا. ولم يتغير في الأمر شيء، سوى أن علينا الآن توخي الحذر الشديد لمنع وقوع تعقيدات دبلوماسية».

هز أكيزي رأسه موافقاً. وجرى الاتفاق على مخاطبة اللابارنا في حتّوشا بلغة الورود وبكثير من الهدايا لاستمالته مع عدم قطع الأمل، وإعلامه بأن الملك إيداندا قد غادر عالم الأحياء منذ مدة قصيرة، وبأن تتويج أكيزي قد جرى للتو. وختم أوپيا كلامه قائلاً: «عندما يصل الرسول إلى حتّوشا، يكون الملك العظيم على الأغلب ما زال على الجبهة. ثم يأتي عيد الخريف ويتبعه الشتاء. في رأيي لن يحصل ما هو مهم حتى الربيع القادم، ومن ثم سنرى».

لقد وقعت المعركة الأولى، وانتصر أكيزي فيها، فكان راضياً مرتاحاً عندما فضّ الاجتماع، متجنّباً وجه خاله المتجهم، وقرر أن يحتفل ابتهاجاً بهذا اليوم. بعد استلامه

مهام الحكم جدَّد تأثيث الغرف الغربية لاستخدامه الخاص فصارت أجمل. كان يلتقي هنا ببعض أصحابه، حيث يضطجعون على وسائد مريحة ليستمتعوا بمداعبات خادمات الحب ويستمعوا إلى الغناء والموسيقا، وقد تتطور الأمور إلى ألعاب أخرى تمتد حتى ساعات الفجر. يا للقدر السعيد! فكر أكيزي. إنه ملك، ولكلماته وزنها في مجلس الأعيان. إنه في كامل الرضا عن نفسه.

لكن أكيزي لم يحسب حساب تيرو، الذي سرعان ما بات زائراً يومياً في القصر، يتردد على أخته الملكة بلتوم، وعلى إهلي نيكالو أيضاً، مبرراً ذلك بضرورة الاطمئنان إلى تطور ابن أخته الملك وليكون نوعاً ما بديلاً عن الجد. كان ينتهز أية فرصة للتشاور مع أكيزي حول مستقبل البلد، غالياً بكلام كالعسل، وكأنه مستعد للوقوف إلى جانب ابن أخته في أداء المهام الصعبة وتحمل المسؤولية. غير أنه بين الحين والآخر، كان يكشف عن وجهه الحقيقي. ومع كل لقاء كان صبر أكيزي ينفد أكثر فأكثر. أليس هو قاتل أبيه؟ أيعرف تيرو أن أكيزي يعرف؟ الواضح أنه لا يعرف.

«رغم شبابك كنتَ بعيد النظر لتدرك ضرورة الابتعاد عن الحثّيين»، قال تيرو محابياً، وأضاف: «سيكون لك شأن كملك!». وامتدح الارتباط بمصر، الذي هاجمه قبل حين في المجلس، ولكن باعتباره الآن نقلةً ناجحة في اللعبة الدبلوماسية تدل على ذكاء أكيزي، الذي يخدم بهذا المسألة السورية أفضل خدمة. بمرور الوقت أدى استمرار هذه الوسوسات إلى تأرجح موقف أكيزي. فتصور أن لا يكونَ فحسبُ ملكَ مدينةٍ يمثل إرادة مجلسها، ومنتخباً من وسطها ولكن مع قابلية تبديله في حال الشك بأهليته. هذا التصور كان مغرياً جداً، فمن موقع حاكم مملكة سوريا سيبدو العالم مختلفاً، وعند ذلك سيخاطب أمينوفيس بـ «يا أخي»، وهكذا سيخاطبه الفرعون، وهو الأهم!

أحس تيرو، بغريزة الخبير، التأرجح المتنامي في موقف الملك، رغم تأكيد أكيزي تجاهه باستمرار على ثباته. ما أسهل التلاعب بشاب غرّير كهذا! إنه يراهن على غرور أكيزي. ولاحقاً سيكون أمراً سهلاً أن يضع في طريقه حجراً يهلكه.

إضافة إلى الرسالة الجوابية للملك العظيم، حمَّل أكيزي الرسول الحثي رسالة طويلة إلى تالزو، لا، بل إلى تانوا، يدعوه فيها لزيارة قطنا. وفكر لبرهة ما إذا كان ضرورياً إخبار كيا بذلك، لكنه سرعان ما تخلى عن الفكرة، فأخته على كل حال تعرف أكثر من اللازم. والأفضل أن تكرّس نفسها لواجباتها في بيت الربة. وفي عيد قمر الشتاء يمكن أن تُرسم

كاهنة. إنه لأمر جيد أن تكون في صفّه في النزاع، لكنها سرعان ما تكشف نواياه، وهذا ما لا يريحه تجاهها. هل تكلمت إهلي نيكالو معها يا ترى؟ في اللقاء الأخير بدت له متغيرة. حسناً، دواعي اللقاء كانت رسمية. كما أن معاناتها كانت أشد من معاناته نتيجة وفاة الوالد، ما أدى في نهاية الأمر إلى أن تكون وأمها متعلقتين به، بالملك، فهو رأس العائلة، وهذا لا شك لا يبهج كيا. قد لا تكون فكرة تيرو حمقاء تماماً. لماذا لا نزوج كيا إلى عزيرا بن عبدي عشيرتا ملك أمورو؟ ترى أكان هذا ليعجب الوالد؟ بالتأكيد: لا.

قبيل عيد الخريف تأكد حمل كيا. إنها حامل بهدية الربة. منذ عدّة أيام خمّنت شالا ما بات الآن مؤكداً. كيا تعاني الغثيان، كما توقفت دورتها الشهرية. إنها فتية، ومن المحتمل أن تكون حالات القلق التي مرت بها قد تسببت في انقطاع دورتها، غير أن جميع المؤشرات كانت تؤكد هذه النتيجة. ظاهرياً لم يتغير شيء في أسلوب حياتها اليومية، سوى أنها باتت تحت رعاية مشددة من قبل شالا وأميناية. وغيرهما لم يعلم أحد بالحمل. من الجانب الرسمي لا يعلن الأمر للملك والملكة كفأل خير، إلا بعد ولادة الطفل سليماً. وحتى ذلك الحين يبقى السر مكتوماً بين جدران بيت الربة.

لم تعلق كيا بأي كلمة على الخبر السعيد. كانت تمضي وقتها مع المبتدئات الأخريات في سلك الكهانة، وتستكمل علمها في الطب واستخدامات الأعشاب. بين الحين والآخر كانت تفكر بأمها وتحن إليها. أما أميناية فقد لاحظت بقلق أن كيا، ظاهرياً على الأقل، غير واعية بحملها. ولكن يحتمل أن الوقت لا يزال باكراً جداً ليظهر فرحها بالطفل.

**

نتيجة للحملات العسكرية في هذه السنة ازداد عدد أعضاء مجمع الأرباب الحتي. فتماثيل أرباب البلاد المحتلة، التي نقلتها الجيوش العائدة معها، سُلِّمت بشكل احتفالي في المعبد الكبير لرب الطقس وقُبلت في رابطة الأرباب الحتّيين. وهذه العملية لا يُقصد بها إضعاف المهزومين، بل عدم إهانة أي رب بإهماله. وعرف تانوا أن الأرباب يخاطَبون بلغات أوطانهم ويشرف على العناية بهم كهنة يعرفونهم، ما أمكن، كي لا يشعروا بأي نقص؛ إذ يجب أن تطيب لهم الإقامة في حتّوشا.

وهذا هو ما فعله تانوا أيضاً. فبعد الأسابيع والشهور الطويلة من السفر والتوتر الدائم،

ورغم الشغل الكثير انبسط بما تبقى من الصيف في العاصمة. غالباً ما كان يجلس قرب بوابة أبي الهول ليسرح بنظره فوق المدينة. حركة الإعمار على قدم وساق في كل مكان. في منطقة المدينة العليا نهضت معابد ضخمة جديدة. حُفرت أحواض للمياه ومخازن احتياطيةٌ للمؤونة يُحتفظ فيها بطرقٍ مبتكرة بفائض الحبوب لأوقات الشدة.

وأخيراً أُطلع أيضاً على سر حتّوشا. ففي القسم الشمالي الشرقي من المدينة السفلى، قرب الشِّعب العميق توجد عدّة ورشات لمعالجة النحاس والذهب والفضة، ولكن ليس هذه المعادن فحسب، بل هدية السماء أيضاً! ومثل هذه الورشات موجود أيضاً في الجهة المقابلة للشعب عند سفح الجبل الصخري الهائل داخل السور المحيط. والمنطقة كلها محصّنة إضافة إلى السور بجدار مزدوج مع حراسة مشددة عليه. الطرق إلى هناك مسوّرة على الجانبين بأكوام هائلة من الخشب، والفحامون مشغولون ليلاً ونهاراً بتحضير الفحم الخشبي.

«لتشغيل الورشات وأفران الصهر نحتاج إلى كثير من الفحم الخشبي الذي يُحضَّر في المقام الأول في الغابات المحيطة، وليس هنا فقط»، شرح له هنوتي.

«ولأي غرض نحتاج إلى هذه الكميات الكبيرة من الكتل الحجرية؟».

«إنها سلاحنا العجيب، حسب تسميتك أنت»، وضحك هنوتي.

«حجارة؟ ما هذه النكتة؟». ونظر تانوا غير مصدق إلى الكتلة التافهة.

«بل أنا جاد تماماً. في هذه الحجارة يكمن المعدن السماوي الذي نسميه حديداً. لكنه لا يتساقط علينا من السماء، بل نحن نستخرجه بعمل شاق جداً من الأرض في أماكن سرية».

«من بلاد الكشكيين مثلاً».

«تماماً. سريع البديهة كعادتك!». ضحك هنوتي وأضاف: «هذا المعدن إما أن يُصهَر من الحجارة في أماكن استخراجه، وإما أن يُنقل ليعالج هنا. الملك العظيم فقط، هو القادر على توفير إمكانيات الحماية الضرورية. لاستخراج الحديد النقي تحتاج إلى وقت طويل وحرارة عالية. تعال، سأريك فرناً للصهر!».

كان على هنوتي وتانوا أن ينزلا مسافة قصيرة على منحدر الشِعب، حيث أُنشئت عدّة أفران ضخمة لصهر الحديد.

«من الربيع حتى الخريف تهب في الشِّعب ريح قوية جداً وبصورة منتظمة، فتؤجج الأفران بقوة ولمدة طويلة، مما يؤدي إلى ارتفاع الحرارة في الفرن بما يكفي لصهر الحديد. لا حاجة هنا لهدر الجهد بتشغيل الأكوار».

«لكن الأفران مبنية من الطين فقط!».

«صحيح. لكنه طين صلصالي خاص لا يتأثر بالحرارة. بئر الفرن تبنى فوق حفرة. من أجل الصهر يُرتب في الفرن طبقات من فحم الخشب وكتل الخام بالتبادل، ثم توقد النار. تمتد العملية نهاراً وليلة. بعد ذلك تُهدم البئر للوصول في أسفل الحفرة إلى الحديد المختلط بالخَبَث. ثم لا بدّ من إجراء عمليات أخرى لاستخراج خام الحديد الجيد، الذي تصنع منه أدوات للمعبد وللزراعة والأسلحة أيضاً». تملّى هنوتي وجه تانوا الذي بدا بالغ التأثر، وأضاف: «هناك حداد اكتشف بمحض المصادفة أن بالإمكان جعل الحديد أقسى مما هو عليه. لا تسألني كيف. فأنا لا أعرف ولا أريد أن أعرف. لكن كل سيف وكل خنجر من هذا الحديد المقسّى يفوق بمراحل قوة أبناء عمه البرونزيين».

«هذا لا يصدّق. لكن هذا السلاح لم يستخدم في المعارك ضد الكشكيين وفي حَبَلّا، وإلا لكنت رأيت ذلك».

«معك حق يا ابن أختي الماكر! حتى الآن لا يحمل هذا السلاح سوى الملك وبعض الكبار، وغالباً في مناسبات رسمية محددة. لكن الإنتاج على قدم وساق».

لم يتمكن تانوا من معرفة المزيد منه. عند مغادرتهما حي الحدادين جعله هنوتي يقسم يميناً معظماً بألا يفشي هذا السر لأحد مطلقاً.

«تانوا، أنت تعرف أن عقوبة الموت في حتّوشا لا تسري إلا على القليل من الجرائم. في حال تجاوز هذا السر شفتيك، فستموت بلا رحمة!».

«أكان جريمةً ما فعله شقيق الملك؟ ألهذا السبب قُتل؟». سأل كمن أُفلت لسانه.

كظم هنوتي حنقه، ثم قال بفظاظة: «هناك مجرد إشاعات لا أكثر حول نوع الجريمة التي ارتكبها تودهاليا. لا يعرف الأمر سوى الحلقة الضيقة من العائلة. لهذا السبب أستبعد أن يتعلق الأمر بإنتاج الحديد. السبب الحقيقي لإدانته لا أعرفه. كيف عرفت بالأمر؟».

«كان موضوع حديث في..».

«في قطنا، خمّنت ذلك. يا ترى، ما الذي لا يحكي الناس فيه هناك؟ يبدو لي أنهم متيقظون، مهتمون بكل شيء. لا عجب في أنهم على هذه الدرجة من الغنى. وفوق ذلك،

لديهم بنات يسلبن العقل، لدرجة أنك لا تتعطّف بنظرة على أية فتاة من مملكة حتّوشا الواسعة. أم تراك لا تفكر أبداً بحب النساء؟».

لم يستجب تانوا لمزحة خاله، بل داراها بقوله: «إنك تحكي مثل جدتي! ألا يليق بي الانتظار حتى تسبقني كقدوة حسنة؟». وكان جواباً مفحماً.

طلب الملك الاجتماع بأقرب مستشاريه، والتقوا في شرفةٍ محمية من الشمس وتطل على المدينة. الريح الفاترة جعلت القيظ محمولاً. لم يكن الملك رائق المزاج، وقد لاحظ هنوتي ذلك فوراً. إلى جانب الملك جلس ميتّانَموا مدير شؤون إدارة الدولة. وعلى طاولة صغيرة أمامه كانت هناك ألواح طينية صغيرة الحجم، وعدة ألواح عمل كبيرة الحجم. افتتح شوپيلوليوما الجلسة بقوله: «وصلتنا رسالتان من قطنا»، وأشار بيده لميتانموا كي يتابع، فقال: «إحداهما موجهة إلى الملك الشمس. المرسل هو الملك أكيزي. بعد التحيات المألوفة يخبرنا أكيزي بأن الملك إيداندا، والده، قد مات قبل مدة قصيرة. طقوس دفن الملك الميت وتتويج أكيزي أخّرت إمكانية الإجابة باكراً على كتاب الملك الشمس، ويرجو السماح. وهم منشغلون حالياً بإعادة ترتيب كل شيء وتنظيمه. وإن ليس حرفياً»، قال ميتانموا وأردف: «ولكن بهذا المعنى يمكن ترجمة ما كتب: سنكتب إليكم ثانية، عندما يطيب لنا ذلك».

ارتفعت عدّة أصوات احتجاج، بعد أن أنهى ميتانموا تقريره.

«يا له من جسور!».

«صح، أو أحمق!».

«أو ماكر!».

«ثمة ما يحدث في سوريا، هذا مؤكد. ولي عهد مصر لم يكن هناك للا شيء، صدقوني».

انتظر الملك إلى أن هدأت ردود الفعل الغاضبة، ثم سأل: «وماذا ورد في الرسالة أيضاً؟ أي شيء حول موت الملك؟ فهو لم يكن أبداً متقدماً في السن».

«لا، لا شيء آخر. إنها أولاً وأخيراً رسالة بلا فحوى، غرضها المماطلة، لا تشير إلى رسالة إيداندا السابقة ولا إلى جوابنا عليها».

«وماذا عن الرسالة الثانية؟».

«إنها لِفتانا تانوا. مكتوب عليها باللغة الحورية: أكيزي ملك قطنا يهدي تحياته لصديقه تانوا»..

«عجيب!».

«لا عجب في ذلك»، تدخل هنوتي موضحاً: «تانوا والملك الشاب صديقان. لقد أخبرت بعضكم بذلك. كثير من الموجودين الآن هنا قد لا يعرفون أن تانوا ووالده إحيّا قد أقاما عدّة أسابيع في قطنا في السنة الماضية، واستُقبلا في القصر الملكي هناك كأصدقاء».

«وماذا يكتب الصديق للصديق؟».

هز ميتانموا كتفيه وقال: «لم نفتح الرسالة».

«ولماذا لا نفعل؟».

نظر الجميع إلى الملك منتظرين، فالتفت هذا إلى هنوتي: «بماذا تنصح؟».

قلّب هنوتي الأفكار في رأسه لبرهة ثم قال: «تانوا يثق بي. أعتقد أن من الأفضل أن نسلمه الرسالة، دون أن نكسر الختم. أنا واثق من أنه سيخبرني بكل شيء».

أومأ الملك موافقاً وقال: «حسناً، سنعتمد على ذلك. أنت هنوتي، ستتحمل مسؤولية وصول جميع المعلومات فعلياً إلى الإدارة».

«وكيف ستتصرف حيال هذا الملك أكيزي؟ هل ستسكت على هذه الرسالة ببساطة؟».

«أعترف بأنها استفزاز سياسي. ولكن، يحتمل أن نحصل على مكسبٍ لا يصدَّق، لو كان لنا حليف في وسط سوريا، وفي موقع حساسٍ استراتيجياً. والأفضل ألا يعلم ملوك الإمارات المجاورة بشأنه شيئاً». أجاب شوبيلوليوما.

التفت ميتّانَموا نحو هنوتي وقال: «ما أخبرنا به ربيبك عن قطنا، مهم جداً بالنسبة إلينا، ويدل على معارفه الممتازة. ما يؤسف له أن الوضع قد تغير الآن. فالملك السابق كان على ما يبدو ذرائعياً ذكياً بنظرة مستقبلية. أما عن الملك الجديد فإن تانوا في تقريره لم يذكره إلّا عرضاً، كما أنه لم يذكر شيئاً عن جيل الشباب. وما فائدة ذلك؟ هذا التبدل السريع على العرش لم يكن متوقعاً قط. المهم أن نعرف الآن تقييمه للملك أكيزي. سأسأله في القريب العاجل، أم تفضلون أن نطلبه الآن؟».

حك شوبيلوليوما ذقنه متفكراً، وقد سرحت نظرته لبرهة في البعيد. عادت إلى ذاكرته صور كان يرغب في نسيانها إلى الأبد. ضغط يده على القدح وشرب جرعة كبيرة من النبيذ

الممزوج بالماء. إنه يشعر بهذا الشاب قريباً من قلبه. لم يكن من عادته مراعاة الخواطر، ورغم ذلك احتكم الملك لشعوره، وقال: «أخشى أن نخرجه، هكذا من دون أن يُهيئ نفسه. فلنترك الأمر لهنوتي، ليسأله في هذا الموضوع، ويمكنه أن يطلب منه أيضاً تدوين كل ما هو مهم».

«لكن هذا لا يشكل جواباً على رسالة أكيزي بعد»، قال صاحب السؤال وأضاف: «أقترح بدلاً عن جواب قد يكشفنا، أن نرسل تانوا إلى قطنا، لنقل مبعوثاً غير رسمي، ما رأيكم؟ سيكون رسولاً لا يثير أية ريبة. أعتقد أنه، عدا الملك أكيزي وبعض أفراد العائلة، لا أحد يعرف أن تانوا يعمل في خدمة حتّوشا. غالبيتهم هناك يعتبرونه ابن تاجر».

نظر شوبيلوليوما إلى ميتانموا متسائلاً: «هل بلغ مستوى القيام بمثل هذه المهمّة؟».

«إن لم يستوجب الأمر أن يسافر غداً، حتماً، فسوف نعدُّه للمهمّة»، وضحك ميتانموا راضياً.

«ما رأي الآخرين؟».

«أجدها فكرة جيدة. يبدو أن الملك الجديد يثق به. لا بدّ من التأكيد طبعاً على معرفة تانوا بالطرف الذي يمثله».

«سنعرف كيف نختبر ذلك».

انفض الاجتماع بوقوف الملك. أما ميتانموا فنهض متردداً، ثم سأل: «هنوتي، هل ستسلم أنت الرسالة إلى تانوا؟».

«لا. فليتسلّمها بالأسلوب المعهود».

«هذا جيدا». وهز ميتانموا رأسه باستحسان.

«رائع أنك أتيت تانوا، لي حديث معك. ماذا لديك؟ فضفض!».

حيّا تانوا خاله برأسه بود، وقدم طلبه مباشرة: «أرغب بزيارة والديّ بمناسبة عيد الخريف».

«يا لها من أقدار ربانية سعيدة! ويا لها من فكرة جيدة. أمك لا شك في غاية الشوق لرؤيتك».

نظر تانوا إلى خاله مندهشاً، فهو لم يتوقع أن يُقبل طلبه بهذا السرور. فتابع هنوتي كلامه: «يمكننا أن نترافق على الطريق حتى نيسا. أنا سأعود إلى بوروشخندا. هذه المرة

على طرق السفر». وغمز ابن أخته بعينه مذكراً إياه بالرحلة المشتركة إلى حتّوشا، ثم أضاف: «حان الوقت لترتيب الأمور هناك. إقامتي هناك بعد حملة حَبلا كانت قصيرة جداً. هل ستبقى الوقت كله في ترشا؟».

تردد تانوا قليلاً، ثم حسم أمره بالهروب إلى الأمام، فقال: «لا. بل أريد أيضاً أن ألبي دعوة جاءتني من الملك أكيزي».

«وما زلتَ قاعداً هنا؟». كانت سخرية هنوتي جلية لاذعة، وفكر في أنه على الأقل لم يكذب. بقي تانوا صامتاً. قفز هنوتي مستثاراً وأحاط بكتفي تانوا قائلاً: «أخبرني، هل كنت تريد جاداً أن تقول أمامي وأمام ميتانموا وزملائك وأصدقائك بأنك ستزور أهلك في ترشا، وتنسلّ سعيداً في هذه الأوقات المضطربة إلى قطنا؟ ما معنى هذا التستر على الأمور؟ ألديك ما تخفيه؟».

«لم أُرِد أن أشغل بالك يا خالي».

«قلت لك مراراً، لا تنادني يا خالي، اللعنة أولاً وثانياً. ولا تموّه الموضوع بهذا الهذر الفارغ. أشغل بالك! شيء مضحك. سيان عندي ما ستفعله في قطنا، سواء قبّلت حبيبتك الساحرة، أم رقصت الدبكة مع الملك، لكني لا أستحق منك هذه الحكايات. وبغض النظر عن ذلك، هل فاتتك التزاماتك تجاه المملكة؟ لقد أُطلعت هنا على أمور كثيرة، لا يجوز لأحد خارج حتّوشا أن يعرفها..».

«لكنني لن أكشف أية أسرار!». ونظر تانوا في عيني خاله مباشرة. إنه جريء، مرت الفكرة في رأس هنوتي. ومع ذلك، هذا الدرس كان لا بدّ منه. إنه لخيره وصالحه، ويُفضل أن يأتي منه على أن يُترك ذلك لميتانموا. «لا تقاطعني، من فضلك. بديهي أنك لن تكشف أية أسرار، أليس كذلك؟ لقد أقسمتَ على ذلك. لكن هذا يتضمن أيضاً أنه لا يجوز لك أن تغادر البلد ببساطة، دون أن يعرف أحد بوجهتك. ماذا، إن هاجمك قطاع طرق، أو إن اختطفك أحد، أو أُخذتَ رهينة من قبل أتباع الميتانيين؟ أنت لم تعد ابن تاجر من ترشا. أنت تعمل الآن في خدمة اللابارنا. وفي حال السفر تحصل من الإدارة على وثيقة تُثبت أنك في خدمة الملك الشمس، وهذا حسب الأعراف المتبعة يوفر لك أكبر حماية ممكنة. أحياناً أجدك جاهلاً ببساطة، لكنك تتعالم».

«أنا آسف، بصدق»، قال تانوا محاولاً تلطيف الجو، وأردف: «أعترف بأني أرغب منذ مدة طويلة بزيارة قطنا ثانية، أما فكرة السفر أثناء عيد الخريف فقد جاءتني عفوياً».

«احكِ هذا الكلام لجدّتك، ولن تصدّقك. الأمر مرتبط بالرسالة التي وصلتك من صديقك أكيزي، أليس كذلك؟».

اتسعت عينا تانوا دهشة، فسأل خاله: «من أين عرفت بالأمر؟».

«أساذج أنت؟ ليس ثمة ما يُخفى هنا، ولا سيّما رسالة من قطنا، مِن ملكها إلى تانوا الكاتب!». التفت هنوتي عنه، ناظراً نحو الخارج عبر الباحة الخامدة بلا حياة تحت شمس الظهيرة اللاهبة، ثم قال: «بعد كل ما خضناه معاً، لا أفهم إطلاقاً أن تكتم الأمر عني، فلا تذكر حتى كلمة واحدة عنه. ألم أثبت أني أهل للثقة بالنسبة لك؟». وجاء السؤال الأخير بصوت خافت جداً.

ولمّا بقي تانوا صامتاً، أضاف: «ظننتُ طبعاً، أنك ستأتي مع الرسالة إليّ فوراً، لأنها أمر غير عادي، ولا يمكن كتمان خبرها. على كل حال أنا كنت لأفعل ذلك».

ما أكثر الأمور التي يتكتم عليها هنوتي، فكر تانوا. لكن هذا لا علاقة له بالموضوع الآن، ولكنه الآن تحديداً يشعر بأنه يُعامل بإجحاف، فقال: «لكنني لم أستلم الرسالة إلا الآن من ميتانموا، إني لم أكد أقرأها. أردت التفكير بمضمونها قليلاً، قبل أن أحكي عنها. ولأقل بصدق، إني لم أتصور أني سأحصل على الإذن بزيارة أصدقائي في قطنا. ليس فيها ما هو مهم. خذ، اقرأها بنفسك!».

«اقرأها أمامي»، همهم هنوتي وهو يفكر في نفسه، مَن يختبرُ الآخر هنا. يا له من ثعلب ماكر، ميتانموا هذا. كان على وشك أن يزرع الشقاق بينهما. ولكن رغم ذلك! لم تكن إشارة خير، أن لا يثق به تانوا تمام الثقة. أم أن في فطرته شيئاً غير أرضي يا ترى! لم يشعر هنوتي بارتياح في نفسه. هل يتصرف تجاه ابن أخته بشكل صائب؟ ما هذا الهذر! ما هذا التردد والاضطراب: المملكة أولاً.

«هل تنصتُ إلى ما أقرأ؟». سأله تانوا قاطعاً سلسلة أفكاره.

«طبعاً، طبعاً.. الأب مات، وماذا بعد؟». تابع الشاب الترجمة بكل سلاسة من الحورية إلى الحثيّة. هذا الشاب بارع جداً. لكن الملك أكيزي حقاً لم يكتب شيئاً مهماً. عدا عن خسارة والده الفظيعة، الجميع بخير، وقد صار أباً لصبي، والمحصول وافر، وما شابه ذلك.

«ومع ذلك ثمة أمران يثيران قلقي، لأني لا أجد تفسيراً لهما»، قال تانوا وأردف: «هو يكتب أن لغز القوافل قد انحل تقريباً.. لماذا هذا الغموض؟ لماذا لا يكتب ببساطة مَن

هو؟ والأمر الثاني: لماذا يريدني أن أزوره؟ هو يعرف أني لم أعد في ترشا وأن العمل في المتجر يضجرني. هو يعرف أني هنا في حتّرشا. ما رأيك؟».

كان هنوتي قد استعاد هدوءه، فقال: «سؤالان مبرران. الواضح أنه يريد استشارتك أنت تحديداً في موضوع ما. أي نوع من الناس هو، أكيزي هذا؟».

لا بدّ لتانوا من أن يرتب أفكاره أولاً، للإجابة عن هذا السؤال العسير، ولا سيّما أنه لم ينظر إلى أكيزي إلا باعتباره أخاً لكيا. وكان غالباً يفهم أسباب غضبها منه. ولكن ما الذي يكشفه هذا في ما يتعلق بجوهر أكيزي؟ وأخيراً قال: «من ناحية الشكل الخارجي، أنتما متقاربان. شكله رائع، قوي البنية كالمحاربين وشجاع. كانت البنات كلهن مغرمات به، ربما لأنه كان طيب المزاج، دائماً تقريباً، جاهزاً للمزاح وللمغامرات الخطرة. وهذا ما كان يجذب الشباب إلى صفه. كان مستعداً دائماً للمشاركة في المباريات، مهما كان نوعها. إنه أفضل قائد عربة بلا منافس. أمه الملكة تعبده. أما الملك، أعني الملك إيداندا، فكان في أحيان كثيرة غاضباً منه، لأنه برأيه لا يأخذ الأمور على محمل الجد باعتباره وليّ العهد، وتنقصه النظرة الشمولية، بل النظرة المستقبلية. ولكن أين هو ذلك الأب الذي يمكنك أن ترضيه تماماً؟». تنهد تانوا ثم أضاف: «أحياناً تجده سريع الغضب، ما يدفعه لاحقاً للتأسف، ومن ناحية أخرى كان يبذل جهداً كبيراً للقيام بواجباته على أفضل وجه، وانتخابه الآن من قبل المجلس خير دليل، أليس كذلك؟».

«أتقصد أنه سيتابع خط أبيه السياسي؟».

«هذا ما لا أعرفه. صحيح أننا كنا نلتقي كثيراً، لكننا لم نتطرق قط إلى هذا الموضوع. وبصورة عامة، معرفتي في هذا الموضوع محدودة جداً. كنت أفرح عندما أتمكن من التسلّل من دار البلد. واجتماعات المجلس كانت محظورة على الغرباء، إلا في حالات استثنائية. أبي حضر اجتماعاً مرة. كيف كان لي أن أتكهن بأن الملك إيداندا سيبكر في الالتحاق بأسلافه؟».

كان هنوتي قد سمع ما يكفي ليتأكد من أن تانوا لم يتقصد إخفاء معلومات مهمّة عنه، فقال راضياً ومن دون سخرية مبطنة: «وعن كيا لم يكتب شيئاً، هذا الوغد!».

«ولماذا يُفترض به ذلك؟».

«إذاً، هو لا يعرف شيئاً عن عواطفك تجاه السيدة الشابة؟».

هز تانوا رأسه نافياً، متمنياً أن يُبتر هذا الموضوع ما أمكن، فمشاعره تجاه كيا تخصه

وحده. لقد ساعدته في مواجهة أوقات عصيبة، ولا يجوز لأحد أن يستثيرها، ثم قال من أعماق قلبه، بشيء من القلق: «آمل أن تكون هي وأمها بخير. كيا كانت المفضلة علناً عند أبيها. كان يعبدها ويسمح لها بأمور كثيرة، وأحياناً كان أكيزي يغار منها، أظن ذلك. الملكة بلتوم على كل حال تكرهها أكثر من كرهها لأمها الأميرة إيست، وهذا كان جلياً في سلوكها. أكيزي كان يعامل كيا غالباً مثل طفلة صغيرة يعابثها، وهذا ما كان يزعجها. يستفزها دائماً، ولكن على سبيل المزاح. كم بودي أن أعرف أحوالهما الآن، في الظروف المختلفة، من دون حماية إيداندا».

«كنت أريد أن أحكي معك عن هذا الموضوع».

«عن أحوال كيا وأمها؟». سأل تانوا مدهوشاً ثانية.

«ليس بصورة مباشرة طبعاً. اصغ إلي. هناك رسالة ثانية من الملك أكيزي وصلت إلى الملك الشمس، وهي لا تلبي التطلعات المنتظرة هنا».

«أية تطلعات؟».

«لتفهم ذلك عليك أن تعرف أن رسولاً رسمياً من طرف الملك إيداندا قد سلّمنا قبل شهرين كتاباً يطلب فيه وضع قطنا تحت حماية حتّوشا».

فانفجر تانوا قائلاً: «هذا لا يصدق. ليس مصر؟».

«إما أن الملك كان بعيد النظر، فأدرك أن حتّوشا في المستقبل لن تترك عائقاً أمامها، وإما أن وراء الأمر سبباً آخر. إذا صح هذا الافتراض، فعليك أنتَ أن تكتشف ما هو».

«أنا؟».

«أنت!». قال هنوتي ضاحكاً، وأردف: «أنت من قال، إنك ترغب في أن يكون لك شأن في السلك الدبلوماسي. وها قد آن الأوان لتنطلق وحدك، بدل التمسّك دائماً بطرف ردائي! ستكون مهمّة صعبة وفيها الكثير من المسؤولية. صحيح أنك مبعوث الملك الشمس، ولكن ليس بتكليف رسمي. إذ يبدو أن ابن إيداندا لا يريد السير على خطا والده؛ هذا ما اتضح على الأقل من رسالته الرسمية الأخيرة التي لا يُفهم منها شيء. وأن تتمكن من تغيير موقفه، وإنْ أمكنْ مواقفَ النخبة في قطنا لصالح حتّوشا، فسيعدُّ هذا نصراً كاملاً لك. ولكن إنْ استطعت فقط أن تكتشف غموض موقفهم، أين تقف قطنا وإلى أين تتجه، كيف يبدو ميزان القوى في مجلسها وإلى ما هنالك، تكون قد أدّيتَ مهمتك بنجاح.

والآن، ما رأيك؟ ظننتك ستفرح، ففي نهاية المطاف أنا الذي اقترحتك!». ونظر إلى وجه تانوا بتشوّق.

كيف كان له أن يخطئ إلى هذا الحد في تقدير هنوتي حق قدره؟ فهو لم يكن موقناً حتى الآن مما يخططه خاله له. علماً بأنه منذ المبارزة بينهما في پوروشخندا لم يعد يملك مبررات للشكوى. أما الآن فقد فهم سبب خيبة أمل خاله، عندما لم يهرع بالرسالة إليه - ولكن هكذا هو طبعه. نهض وعانق هنوتي.

«ما زلت عاجزاً عن الكلام، اعذرني! لم أعتقد أن من الممكن لأملي المنشود أن يتحقق بهذه الصورة. ولا أن أكلف بمهمّة على هذه الدرجة من الأهمّية، بهذه السرعة. والفضل في ذلك يعود لك!».

«الفضل يعود بالدرجة الأولى لك أنت. ميتانموا راضٍ عنك كلياً، فأنت مجتهد وموهوب. وقد قدمت الدليل على ذلك خلال الحملة العسكرية»، وعندما أشار تانوا بيده تعبيراً عن تواضع ما قدمه، ألح هنوتي قائلاً: «بل قدمت وزيادة. ولكن تانوا، رغم كل هذه النشوة التي تستحقها من أعماق القلب، لا بدّ لي من أن أحذرك جدياً: عليك ألا تنسى أبداً مع أي جانب تقف. في المقام الأول يأتي الحفاظ على مصالح مملكتنا وتوسيعها. كل ما عدا ذلك يأتي لاحقاً. وثمة أمر آخر لا بدّ من أن تعرفه: إني أضمنك بحياتي!».

**

«لماذا لم تخبراني بالأمر إلا الآن؟». صرخ الملك في وجه عمّه أكالينا وأخيه كواري، وأخذ يذرع قاعة الاستقبال جيئة وذهاباً.

«اعتدل في لهجتك، فهذا الخبر المروّع لم يصلنا إلا قبل قليل». أجابه أكالينا.

«والبضاعة المسروقة، أهي مجدداً بضاعتنا نحن؟». سأل أكيزي متراجعاً عن لهجة التأنيب.

«الوضع أسوأ هذه المرة. معظم المسروقات يخصّ الفرعون!». أجاب كواري.

«هذه كارثة!».

«هذا ليس كل شيء. عبدي عشيرتا ملك أمورو، الذي وقعت الغارة على حدوده الجنوبية اتهمنا لدى الفرعون بأننا لم نوفر للقافلة الحراسة المنصوص عليها في التعليمات،

ولم نُعلِم الجهات المعنية في أمورو بطريق القافلة، التي لم يرافقها سوى شخصين مريبين. فمن الواضح أننا قد خططنا لأن تُنهب القافلة، وأغلب الظن لمصلحتنا الخاصة».

«ما هذا التجني الدنيء؟! من أين عرفت بكل هذا؟».

«ريب أدّي ملك جبلة وصلته رسالة من الفرعون بهذا الشأن، طالبه فيها بأن يرسل إلينا رسولاً ليعرض علينا هذه الاتهامات».

شحب أكيزي ثم قال: «ألا يراسلنا مباشرة؟ يا لها من إهانة! ولا شك في أن ابن الكلبة الجرباء وراء العملية كلها. ما هذه الجسارة الوقحة الدنيئة! المرجح أنه قد وضع كل شيء في خرجه الخاص، مثلما فعل بغنائم غارات السنة الماضية». ثم هدر غاضباً: «ويتهمنا نحن بالذات. فليأخذه الطاعون!».

أثناء سورة غضب أكيزي بقي الاثنان صامتين، إذْ كانا يعرفانه. وبعد أن همد قليلاً قال: «وأنا الذي ظننتُ أن هذه الغارات قد انتهت أخيراً»، وأردف شاكياً: «ماذا بوسعنا أن نفعل؟».

«عليكَ بأسرع ما يمكن أن تبعث رسولاً موثوقاً إلى أمينوفيس، ليوضح له بالتفصيل أن لا علاقة لنا على الإطلاق بالغارة، وأننا لبّينا متطلبات أمن القافلة كاملة. لا أرى إمكانية أخرى سوى هذه».

«أحقاً لم نُعلم الجهات المعنية في محطات أمورو؟».

«عليّ مراجعة الأمر. لا أريد تأكيد ذلك الآن. ولكن إنْ لم يحدث ذلك، فلا بدّ من وجود سبب. ما دام لم يتوضح بعد أين يجلس الخائن أو الخونة فـ..».

قطع أكيزي كلام أكالينا بإشارة من يده. كان يعرف الخونة، ولكن لم يكن بمقدوره أن يكشف ما يعرفه أمام هذين. يا أيها الأرباب!

«أرسلا في طلب (أكيّا) إلى مكتب العمل. وجهّزا كل ما هو ضروري!».

أنعش أكيزي نفسه بقدح جعة باردة وطازجة، ما ساعده في التفكير، ثم ذهب إلى المكتب لمناقشة الرسالة إلى الفرعون أمينوفيس. يجب أن تصاغ بذكاء، فلا تقول أكثر أو أقل مما يلزم. وسيُسِرّ بأهم الأخبار إلى أكيا مباشرة، فهو موضع ثقة عمياء للقصر، إذْ يفضل الانتحار على أن تخرج من بين شفتيه كلمات، في مكان ما، لأذنين غير مقصودتين. إنه يعرف سوريا ومنطقة الساحل بطولها مثلما يعرف جيب ردائه. لقد زار مصر عدّة

مرات ووصل إلى عمق جنوبها في بلاد كوش. وله صلات في كل مكان، يساعدونه عند الضرورة، فقد نسج خلال السنين الطويلة شبكة متينة من العلاقات. ومؤخراً عاد إلينا سالماً عبر قادش وأمورو. لا شك في أنه أهل لهذه المهمّة الصعبة، وسينجح في أدائها.

أمر أكيزي كاتبه الأول قائلاً: «جهّز وثيقة السفر لأكيا. أحضرها إليّ عندما تنتهي لأختمها!». وأشار بيده للكاتب الثاني كي يتبعه إلى الفسحة، حيث كان الهواء عليلاً، على نقيض جو المكتب الخانق، وقال له: «تعال معي!». أسرع الخدم وهيؤوا الوسائد لراحة الملك. جلس الكاتب عند قدميه واضعاً طاولة صغيرة فوق ركبتيه.

«لن تكون رسالة بسيطة» قال أكيزي وزفر. يا ربتي، أوحي إلي بالكلمات المناسبة. تلا بعض الأدعية باتجاه السماء. كان مهماً جداً بالنسبة إلى قطنا أن تعود العلاقة مع أمينوفيس إلى طبيعتها. ليس فقط بسبب الحماية التي توفرها مملكة النيل، بل لأن المصريين أفضل مستوردي بضائع قطنا ومنتوجاتها، ويمتلكون مصادر ذهب لا تنتهي. ألا يستفيد الجميع منها؟! بدأ أكيزي يغتاظ لطول تفكيره بالصياغة الأفضل، دونما نجاح يذكر. إن الطريقة التي يتعامل بها أمينوفيس الثالث، وابنه في المقام الأول، مع قطنا، تعد في واقع الأمر سلوكاً شاذاً. يستغل كرم ضيافتنا طوال أسابيع ثم يختفي دون شكر، ودون أن يرسل هدايا. والآن هذه الاتهامات المريعة. وفوق ذلك كله عليه الآن أن يتوسل، كي يصغوا إليه، علماً بأن قطنا ليست خاضعة لمصر. ليس بعد. أليس من الأفضل حقاً أن تستقل سوريا ثانية. انحناء وتملّق لمصر، وانحناء وتملق واسترضاء لحتّوشا وبابل وميتاني، وللجيران أيضاً، ولآشور في القريب العاجل، ربما. كم يكره هذا كله. نهض واقفاً وأخذ يذرع الفسحة جيئة وذهاباً بانفعال واضح، بينما الكاتب ينتظر. وأخيراً جلس بعد أن أرسل خادماً لإحضار مزيد من الجعة الباردة.

«طيّب، لنبدأ إذاً. لا مناص ولا بدّ. أنت تكتب على الشمع. عندما ننتهي، خذ الرسالة إلى الشريف أكالينا ليراجعها مع الشريف كواري، مفهوم؟ بعد ذلك تكتب الصيغة النهائية على الطين مع النسخ الضرورية!».

أومأ الكاتب إيجاباً. كالمعتاد إذاً.

«قل لفرعون مصر العظيم: «رسالة من خادمكم أكيزي. إني أركع سبع مرات عند قدمَيْ سيّدي وشمسي.

دقق يا سيدي في التقارير المرسلة إليك مع الساعي، وستدرك عندئذ أن قطنا ما زالت تقف إلى جانبك بوفاء. ليست قطنا من نهب بضائعك.

منذ سنين تُشَنّ على القوافل في منطقتنا غارات لنهبها. إن قطنا هي التي تُنهب، رغم كل الاحترازات التي اتخذت لحراسة القوافل. ولكن من هم اللصوص؟ دقق بعناية يا سيدي في أماكن وقوع الغارات وستدرك مَن يُحتمل أن يكون الفاعل.

إن قطنا تطلب مساعدتك يا سيدي. أعداؤك هم أعدائي. أما نحن فما زلنا موالين لك ولابنك.

أرجو لك ولأسرتك ولزوجتك العظيمة وسائر زوجاتك وأبنائك وبناتك وعرباتك وجيادك ومقاتليك ومملكتك، ولكل ما يخصك، كلّ الخير!

أُرسلُ إليك هدايا ستسرُّ قلبك!».

**

حدث الأمر، نوعاً ما، كما في أحلامه. كان واقفاً مع أكيزي على شرفة جناح المعيشة الملكي، عندما ظهرت كيا في الباب. كان الملك قد أرسل مَن يدعوها، دون إخبارها بالسبب. بدت رائعة في ثوبها الطويل والخفيف، والشعر الأسود الأجعد المربوط بشريط بسيط، يحيط بوجهها. كانت أجمل ألف مرة منها في ذاكرته. ما زالت رشيقة كفتاة صغيرة، لكن ملامح الوجه اكتسبت نضج المرأة ونعومتها، أم تراه يتخيل ذلك. تعرّف من فوره ملمح الجسارة المميز حول فمها. لا شك في أنها ستسأل أكيزي فوراً عن سبب استدعائها من دون ذكر الأسباب. لكن هذا لم يحدث. بعد تردد لبرهة تعرّفته، فظهرت على وجهها ابتسامة مشرقة أضاءته، ثم ركضت فرحة كأخت صغرى وعانقته من دون أي تردد.

«تالزو، ماذا تفعل هنا؟ لماذا لم تخبرنا مسبقاً بقدومك يا وغد؟! ما أجمل رؤيتك! كيف تبدو؟ لا بأس بك في هذه التنورة القصيرة، وما هذه السمرة؟ ظننتك تجلس في مكتب!».

أرجحها حوله، وقلبه يخفق لضمّها أخيراً بين ذراعيه ولشمّ عطر جلدها وشعرها الخلاب. لم يحتج بادئ الأمر لأن يجيب، لأن كيا كانت تمطره بالأسئلة والملاحظات بلا توقف، فاستمتع بصمت بسعادة لحظة لا تضاهى، إلى أن رفعت ذراعيها عن عناقه لتحيّي الموجودين.

«لقد صمتُّم جميعكم! يا لكم من عائلة مريعة! كواري، أنت على الأقل، كان بوسعك أن تنذرني مسبقاً!».

«وكيف لي ذلك. جميعنا لم نعرف شيئاً عن قدوم تالزو، أقصد تانوا».

«متى وصلت؟».

كان يتنشق صوتها الجميل. سيبقى عاشقاً لهذه المرأة حتى نهاية حياته. كان عليه أن يضبط نفسه، كي لا يبقى محدّقاً فيها وحدها. تنحنح وحاول ما أمكن أن يبدو طبيعياً في قوله: «في الوقت المناسب لوجبة غداء لذيذة واستراحة قصيرة، يعني قبل ساعات قليلة فقط. لو كنت أعرف مكان وجودك لتركت لك خبراً في البوابة!».

«عليك إخبارنا بكل شيء، بالتفصيل!».

«طبعاً، ولكن ليس الآن»، قاطعها أكيزي وأضاف: «هناك حديث خاص بيني وبين تالزو، أعني تانوا.. علي أن أعتاد على الاسم أولاً. سنلتقي على عشاء ممتد مع العائلة كلها، التحضيرات جارية الآن. لا بدّ أن نحتفل بقدومك!».

«بودي أن أحيي ابنك أيضاً. كيف حال إهلي نيكالو؟ ما أخبار أمك، كيا؟ أما زال دونيو هنا؟».

«أجّل أسئلتك، تانوا. سيجاب عليها كلها لاحقاً!». وضحك أكيزي.

هز تانوا كتفيه آسفاً وقال: «عندما ينادي صاحب الجلالة، فليس بوسع المرء سوى تلبية النداء». وابتسم ابتسامة عريضة. كان يشعر بالارتياح في هذا الجو العائليّ. من الواضح أنهم قد افتقدوه حقاً، ولو قليلاً، وبدا مسروراً بوجوده بينهم. ثمة أمر ملحّ يضغط على أكيزي، وإلا لما تصرف بهذا الأسلوب شبه الفظّ.

«كم تستطيع أن تبقى؟». ابتسمت كيا، لكن نظرة عينيها كانت جادة جداً.

«بضعة أيام، على الأقل حتى بداية عيد الخريف».

«هذا أفضل من لا شيء». والتفتت مغادرة دون وداع.

لاحقها تانوا بنظره، غارقاً في أفكاره. هل أخطأ في كلامه؟

«ما بال كيا؟».

قاد أكيزي تانوا إلى جناحه الغربي الخاص، حيث جلسا وشربا عصير الرمان مع الثلج.

«بئر قصركم أعجوبة. لم أر في أي مكان مثل هذه العمارة المصممة بخيال مذهل. أن يتوافر لديكم الثلج حتى الآن، هذا أمر لا يصدق. ولكن مرة ثانية أكيزي، ما بال كيا؟ عندما غادرَت بدت لي جادة جداً».

«أهذا شعورك؟ أنا لم أرها منذ دهر مسترخية مرتاحة كما اليوم. لا شك أن الأمر يتعلق بك، فهي تودّك! إنها تعاني جداً فقدان أبيها وطبعاً أيضاً بسـ.. آخ تانوا، هناك الكثير للحديث. لدينا بعض الهموم. لهذا دعوتك للقدوم. أنا أحتاج إلى مشورتك يا صديقي. هنا في قطنا لا أجد من أستطيع أن أتحدث معه حديثاً نزيهاً دون غرض ودون خوف. هناك أمور كثيرة تغيرت منذ إقامتك هنا، وبشكل خاص منذ أن صرتُ ملكاً».

أدرك تانوا أنه لا بدّ لأكيزي من أن يُفصح عن كل همومه وقلقه، قبل أن يصل إلى حالة تقديم المعلومات التي تهمه أكثر من أي شيء آخر. كان قلب أكيزي مترعاً إلى حد أنه لم يسأل تانوا، من أين وإلى أين. من الواضح أنه لم يجد ما يلفت النظر بظهوره المفاجئ في لباس حتّيٍّ صارخ، ومكلفاً فوق ذلك بمهمّة دقيقة. أصغى تانوا إليه بصبر. تحدث أكيزي عن الصلات السرية للملك إيداندا مع شخصية موثوقة في حتّوشا أولاً، ثم مع الملك شوبيلوليوما. كما تحدث عن المؤامرة ضد الملك إيداندا وكيف توصل أبوه من ملاحظة تانوا، في رسالته إلى كيا، إلى معرفة الخونة، وتحدث عن احتضاره وموته، وعن الاتفاق مع كيا وشالا للتكتم على جريمة القتل، كي لا تتعرض وراثة العرش إلى الخطر، وعن تجربة حكم الأرباب التي اضطرّ إلى خوضها، وعن جسارة تيرو وعبدي عشيرتا، وعن قتل الخادمة. كان فيض حديثه لا ينضب، وقد انتقلا من العصير البارد إلى الجعة الباردة. ترك تانوا الملك يفضفض ولم يقاطعه إلا لماماً.

«آه يا صديقي الوفي العزيز، أنت لا تتصور كم يريح الحديث عن هذا العبء.. مرت أيام ظننت فيها أني سأجنّ. شالا وكيا اختفتا وراء جدران معبدهما. وهذه المواضيع لا أستطيع أن أتطرق إليها مع إهلي نيكالو أو مع الملكة. فهي أمور في نهاية المطاف لا علاقة للنساء بها».

لا إرادياً ظهر شبح ابتسامة على وجه تانوا. هذا هو أكيزي! ألا يجلس على العرش بفضل امرأتين ذكيتين عاقلتين؟ تابع أكيزي عرض وضعه قائلاً: «أنت تدرك حرج وجودي بين جميع الكراسي. بعضهم يريد سوريا مستقلة. قد لا تكون هذه أسوأ الأفكار، وقد قلّبتها في رأسي كثيراً مؤخراً. تصور، هذا الجرذ عبدي عشيرتا قد عرض ثانية خطبة كيا، يريد تزويجها لابنه، هذا الأهبل الثخين عزيرا، لتكون ضمانة لاتحاد البلدين. أنا لم أخبرها بذلك بعد. فبعد فعلته الوقحة الأخيرة، أن يسيء إلى سمعتنا عند الفرعون بسبب القافلة، أيُّ جواب يتوقع منا هذا الثعبان؟ لكن هذا موضوع آخر».

كان حال تانوا كمن تتالت عليه طاسة ماء حار وراء طاسة ماء بارد. فأكيزي يتحدث عن كيا وكأنها لفة قماش. شرب ما في قدحه بجرعة واحدة وأشار إلى الخادم ليملأه له ثانية، وهو يتابع الإصغاء: «وملكك يلح عليّ أيضاً بصورة مزعجة. يعتمد على رسالة أبي المتهورة كلياً، والتي دبّجها وحده دون استشارة أحد، ويتوقع منا الخضوع له ودفع ضريبة الحماية. وقد أعلمنا بذلك عن طريق رسول وسيم جداً ورشيق»، وأدار أكيزي حدقتي عينيه بحركة توحي بمعانٍ كثيرة. نانينزي، قفز الاسم إلى رأس تانوا وهو يضحك متفهّماً.

«إني أسألك، تانوا، لماذا يُفترض بنا أن نخضع لغيرنا؟ نحن بلد مستقل. ولكن كيف يوصل المرء هذا الموقف إلى الملك العظيم دون أن يتجاوز حدود اللياقة، أو أن يحل عليه الغضب؟ لقد بذلنا جهداً كبيراً كي لا نخطئ في صياغة جوابنا، ومع ذلك لم يصلنا الرد حتى الآن».

لو أن أكيزي يعلم...، ولكن فكرة احتمال أن يكون تانوا هو مَن يحمل الرد، لم تخطر في باله. على كل حال، لا داعي للعجلة الآن. سيفكر بشيء مناسب.

«ثم جاء هذا النبذ من جانب مصر. وهو أصعب المشاكل بالنسبة إلي. لقد كنت دائماً أحبذ فكرة أن نخضع لمصر، إذا اضطررنا للبحث عن حماية. وهذا مبرَّر، أليس كذلك؟ في نقطة واحدة على الأقل كان أبي محقاً تماماً، وهو أن نتجنّب التورط في السقوط المتوقع والوشيك لميتاني. غالبية أعضاء المجلس مقتنعة بوجهة النظر هذه. ولكن الآن؟ يا لهذا التعقيد! أنت، بماذا تنصحني؟». ودون أن يترك لتانوا فرصة للإجابة، تابع: «أتتذكر كيف كان أبي يمتدحك دائماً كقدوة منيرة تفكيراً واتزاناً؟». وعانق أكيزي تانوا. «كان يقدِّرك جداً، إلى حد أني كنت أغار أحياناً. لا، فأنا أعرف قدراتك حق المعرفة. وإلا لماذا دعوتك لزيارتي. أتظن أن أبي كان ليرضى عني الآن؟».

ضحك تانوا قائلاً: «هذا كثير، دفعة واحدة!».

شاركه أكيزي الضحك وهو يقول: «ما أروع أن تكون هنا. لم أكن أتخيل مطلقاً، مدى وحدة المرء عندما يكون ملكاً. كم كنا مبسوطين في نزهاتنا آنذاك، أتذكر؟ لقد انتهى هذا كله. إما أن الهيبة الملكية تحظر ذلك، وإما أن يُعتبر الأمر إيثاراً على حساب الآخرين، وإما أن يوجد هناك مانع ما. كل تلك المبارزات والمصارعات الجميلة. لحسن حظي بقيت لي النساء! وأنا لهنّ!». وربّت على ذقنه.

«وما رأي زوجتك في الأمر؟». لم يكن تانوا مهتماً بتفاصيل غراميات أكيزي.

«لقد تغيرت إهلي نيكالو كثيراً، منذ زواجنا، صدقني. ومنذ أن صار لديها الطفل.. إنها على كل حال منشغلة بـ أمّوت پان طوال الوقت، ومعها أمها وحماتها أيضاً. هكذا هي الحياة. خذها مني يا صديقي! استمتع بأفضل ما لدى النساء ودعك من بقية أمورهن. لكن الصغير حلو، صبي متين، مثل أبي تماماً!».

حاول تانوا ثانية وبحذر أن يعيد الحديث إلى مصر متسائلاً: «لم يتضح لي بعد سبب معاملة الفرعون لقطنا فجأة بهذه الطريقة المزرية. كانت العلاقات دائماً ممتازة، على الأقل بسبب الأميرة إيست. وهو حتماً لا يعرف أن قرون استشعار الملك إيداندا قد التفتت نحو حتّوشا».

«بل يعرف. على الأقل ابنه أمونحوتب يعرف».

«وما أدراك؟».

«لأنه استجوب كيا أولاً، ثم أبي».

«لا أفهم – ماذا تقصد؟».

فأخبره أكيزي بالتفصيل عن إقامة أمونحوتب في قطنا، وعن الآمال التي عقدت عليها، من دون أن ينتبه أثناء الحديث إلى شحوب تانوا، الذي انقبضت معدته عندما أتى على ذكر هموم كيا. وعند ذكره مشاعرها تجاه وريث العرش لم يعد يحتمل. كيا حبيبته، حبيبته المسكينة، وأخذ يتقلب بين الغيرة والتعاطف. الآن فهم نظرتها، إنها لم تكن جادة، بل حزينة.

ختم أكيزي حديثه بقوله: «وهو قد تزوج نوفرِتيتي الآن. وأنا بصراحة لا أفهم سبب غضب والدي الشديد نتيجة لذلك».

أخذ ذهن تانوا يربط ويحلل. كان واضحاً بالنسبة إليه ضرورة استبعاد جميع الأفكار الشخصية من رأسه، وألا يبدي أية مشاعر. كان عليه كسب الوقت. أخذ جرعة كبيرة من الجعة وشرع يرتب ما سمعه حتى الآن: «لنأخذ الأحداث في تسلسلها. كانت الأمور كلها بخير، ثم بدأ التفكير برابط زواج بين مصر وقطنا، صحيح؟».

أومأ أكيزي موافقاً.

«عرف وريث العرش بأمر الرسول الحتي القادم من قبل تاجر صديق في حتّوشا، وليس من قِبل الملك العظيم نفسه، صحيح؟».

أومأ أكيزي موافقاً ثانية.

«حاول الملك إيداندا تهدئة غضب وريث العرش المصري، بتفسير الأمر على أنه يتعلق بصفقات تجارية مع حتّوشا، وسافر أمونحوتب في أجواء صافية تماماً».

«نعم، لكنه قبل سفره زار تيرو. وخالي هذا حقاً مشكلة. مكانه الحقيقي إما أمام القاضي وإما في القبر بعد أن آمر بقتله، لكن هذا غير ممكن. عند ذلك سأفضح نفسي، أتفهم؟ حالة تدعو لليأس!».

لم يبدُ على وجه تانوا أي تعبير. بدلاً من ذلك شرع يفكر بصوت عال: «ما غرض المصري عند تيرو؟ لم يكن بوسعه سوى التحقق، مما إذا كان يقف إلى جانب الملك. إذا كان يعرف كفاية، كما تقول، فيجب أن يكون عارفاً أن آراء تيرو غالباً مغايرة لآراء صهره الملك. فهل يفكر به المصري بديلاً عن إيداندا؟ لكن هذا لن يفيده شيئاً، مطلقاً. إلا في حالة واحدة، وهي أن أمونحوتب لم يصدق زعم أبيك بشأن الصفقات التجارية مع حتّوشا. عندئذٍ يُحتمل أن لمصر يداً في قتل أبيك، وليس ذاك الذي تشتبه أنت فيه. وهذا يوضح أيضاً إسقاط مشروع الخطوبة، وعدم كتابة الفرعون إليك بل إلى ريب عدّي ملك جبيل التابع إليه».

«في هذه الحالة يُفترض أن يكون تيرو جالساً على العرش، وليس أنا، أليس كذلك؟ صحيح أن أمونحوتب وأنا لم نصبح أصحاباً، لكنه كان متأكداً من أني مطلق الولاء لمصر. لقد أرسلت إلى الفرعون عدّة رسائل، أكدت فيها ولاءنا له».

«محاججتك تحمل جانباً من الصواب. أيحتمل ألا تشكل قطنا حالياً أية أهمّية بالنسبة إلى مصر؟ على المرء أن يعرف ما يجري هناك أولاً، وقبل ذلك ما الذي قاله عبدي عشيرتا الأموري للفرعون». همهم أكيزي حانقاً: «الأكثر مدعاة للأمن هو إزاحة عبدي عشيرتا من الطريق أيضاً»، ثم أضاف: «قبل فترة قصيرة أرسلنا رسالة جديدة إلى الفرعون، قد تنجح في إقناعه ببراءتنا من الغارات على القوافل، فتعود الأمور إلى مجراها الطبيعي. كما فكّرت بإرسال كيا إلى أمينوفيس. ولكن ماذا يجدي هذا. ستختفي في الحريم مثل أميرات ملوك أخريات، هذا إنْ لم يُعدْها إلينا فوراً. وكم سيكون ذلك مذلاً، يا أيها الأرباب!».

كان تانوا يعاني آلاماً فظيعة. كيف يمكن لأكيزي أن يحكي عن كيا باستمرار بهذه الصورة! من الواضح أن أخته كإنسان لا تعني له شيئاً إطلاقاً. إنه مستعد لبيعها ببساطة، إذا كان في الأمر مكسب له. كيا! تماسك وسأل أكيزي: «أليس للأميرة إيست قنواتها؟».

«لم أطلب مساعدتها. كانت حبيبة أبي، وهذا حقه كملك. سنحترمها هنا طبعاً، ولكن

لا أكثر من ذلك». نهض أكيزي واقفاً وأضاف: «يا عزيزي، اليوم لن نحل المشاكل. أرجو عفوك لمصادرتي إياك فوراً، ولم تمض ساعات بعد على وصولك، فضلاً عن أني لم أسألك عن أحوالك. مساء اليوم ستخبرنا عن كل شيء بالتفصيل. سترى وجوهاً كثيرة مألوفة. أترغب في زيارة الملكة قبل أن تنسحب لتستريح؟».

أومأ تانوا برأسه إيجاباً وتبع الخادمة.

إذا كان أكيزي يخامره شعور بأنه يجلس بين الكراسي، فإن تانوا خير من يشاطره هذا الشعور. لقد أتى إلى قطنا مكلفاً من سيده للعمل على جذب الإمارة إلى الجانب الحتي. إضافة إلى ذلك، يُنتظر منه بعد عودته إلى العاصمة أن يقدم تقريراً أميناً للإدارة يتضمن كل المعلومات المهمّة، التي سيجمعها أثناء رحلته. حتى الآن لا بأس. صديقه أكيزي يثق به على ما يبدو ثقة عمياء، فباح له بكل شيء، وكأنه قد سلّمه نفسَه. كان هذا أمراً مفهوماً بسبب رابط الأخوّة الذي عقداه بينهما. ولكن أيجوز لأكيزي أن يهين المرأة التي يحبها تانوا أكثر من حياته، وأن يتصرف بها؟ كان هذا يزعجه ويقلقه. وكان كل أمله، أن تكون كيا في بيت الربة في رعاية جيدة، فهي هناك في حماية كبيرة الكاهنات شخصياً. قد يضمن لها هذا أماناً معيناً من نزوات أخيها الملك.

لم يسعف الوقت تانوا لمعرفة ما إذا كانت كيا لا تزال حادة في الدفاع عن نفسها. ويبدو أن مرحها العفوي السابق قد تلاشى. أهي مريضة؟ لاحظ تانوا أنها تقريباً لم تمسّ المأكولات التي كان وجودها على المائدة يبهجها عادة، علماً بأن مأدبة أكيزي لم تقل فخامة وأبهة عن مآدب شوبيلوليوما. وفي أثنائها كانت نظراته تعود دائماً لتحط عند كيا الجالسة إلى جانب أمها، بعيداً جداً عنه، بحيث لم يتمكنا من تبادل حتى بعض الكلمات.

لم يبالغ أكيزي في وعده، فقد حضر الجميع: العائلة والأصدقاء ورفاق المباريات. وقام تانوا بواجبه في الإطراء على الطفل أمّوت بان ومجاملة أمه، التي يبدو حقاً أن عينيها لم تفارقا الصغير، حتى جاءت المربّية وأخذته للنوم. أكيزي، وخاصة كواري، سألا صديقهما عن تجاربه، فحاول تانوا أن يخبرهما بأسلوب مرح، ليدفع كيا إلى الضحك، وقد نجح في ذلك أكثر من مرة. حكى عن هروبه من أدانيا في قافلة عتاد الملك، وعن مورسيللي الطيب، وعن الرحلة الشتوية إلى حتّوشا، ووصف لهم مشاهدها الحساسة، وحاول جهده ما أمكن تجنّب الحديث عن نفسه. ولم يكن الأمر صعباً، فقد شارك الأصدقاء والرفاق من جانبهم بالحديث عن تجاربهم، وحتى كواري الجاد انخرط في الحديث بحيوية ممتدحاً

قدرة تانوا على التأقلم مع الظروف. كانت أمسية مرحة، انتهت ببقاء الرجال مع بعضهم طوال ليلة بهيجة امتدت حتى أوّل خيوط الفجر.

استمتع تانوا، على غير عادته، بالاحتفال الذي أقيم على شرفه وبالاستقبال الدافئ. كان الوقت في أوائل الخريف، والمحاصيل بالغة الجودة ووفيرة. كان الليل معتدلاً، وعند المغادرة همست له كيا بمكان لقائهما وموعده.

في أثناء التحضيرات لعيد الحصاد قام تانوا بزيارات عديدة. لم يكن مرتاحاً عند زيارة تيرو، لكن هذا جزء من واجبه، معترف به حتى من أكيزي، فلم يكن بإمكانه تجنّب مضيف والده. لم يكن إحيّا مطلعاً على تورط تيرو في المؤامرة، ثم إن تيرو نفسه قد تراوده شكوك. إضافة إلى ذلك كان إحيّا قد حمّله كثيراً من الهدايا له وكلفه بترتيب عدّة صفقات. وهكذا فإن تانوا لم يتردد، بل أدى الزيارة كأولى مهامه ووضعها وراء ظهره.

كان تانوا يطيل جلوسه عند كواري في دار البلد. هذا الرجل كان حقاً في المكان المناسب، لحسن حظ العائلة الملكية كلها. أراد كواري الاطّلاع على بعض الأمور في حياة تانوا في حتّوشا، وخاصة طريقة تنظيم إدارة شؤون الدولة، وما شابه ذلك. وبالنسبة إلى تانوا كان مهماً جداً أن يطلع على وجهة نظر كواري في أحداث الشهور الأخيرة. وأكيزي لم يجافِ الحقيقة في تأكيده، أنه وكيا هما الوحيدان، من أفراد العائلة، المطلعان على الأحداث المرتبطة بموت أبيهما. لقد فكر كواري في الأمر، لكنه لم يتوصل إلى شيء. وعندما أخبره عن المشاكل التي ظهرت بين أكيزي وإهلي نيكالو كان حصيفاً واقعياً، وصف له التغيرات التي لاحظها على أكيري منذ انتخابه ملكاً، وقدم لتانوا أخيراً تفسيراً مقبولاً لسلوك الملك إيداندا، في قراره الأحادي بصدد الخضوع لحتّوشا من دون ضرورة ملحة لذلك. فالسياسي العجوز المحنك والحكيم كان ضحية مشاعره، أي أن العار الذي لحق بكيا وما يرتبط بذلك ذاتياً، على مستوى شعوره بفقدان شرفه الخاص، هو ما كان يسيّره.

احتدم الصراع داخل تانوا بين مشاعر متضاربة. كيف كانت طبيعة العلاقة بين كيا وأمونحوتب فعلياً؟ هل تم التخطيط لتحالف عبر الزواج؟ هل تعلّق وريث العرش بكيا، حسبما خشي تانوا في حتّوشا، عندما سمع عن إقامَتُه الطويلة في قطنا على نحوٍ يلفت النظر؟ هل أحبت كيا أمونحوتب؟ حتى الآن لم يتحدث أحد في هذا الموضوع بصراحة. وقد أمل بالتوصل إلى شيء من الوضوح بزيارته للأميرة إيست، التي دعته إليها. لفترة

قصيرة أمل تانوا بأن تكون كيا حاضرة أثناء الزيارة، لكن إيست استقبلته وحدها. اعترفت له بأنها تفتقد إلى الملك، وبأنها تفضّل العودة إلى مصر، لولا وجود كيا. ولم يحصل منها تانوا على المعلومات المنشودة. كما حاولت بحنكة تجنّب الحديث عن أمونحوتب. أخبرته بأنها لا ترى كيا إلا لماماً، لانتقال كيا إلى بيت الربة بعد سفر أمونحوتب بفترة قصيرة. أحياناً تضيق بوحدتها.. لكن هذا قدر المرأة. ولهذا تسرّها زيارته بصورة خاصة، إذْ يجلب معه نسمات من العالم الواسع البعيد إلى مخدعها. وفقط عندما نهض تانوا ليغادر، انتبه إلى كم الأسئلة التي طرحتها عليه، عن ماضيه في ترشا ووالديه، وأمه خاصة، عن أسباب تركه الدار وعمله في حتّوشا، عن تجاربه في المعارك وعن هنوتي وشوبيلوليوما وهنتي والمدن التي زارها.

بعد أن ودعها تانوا وغادرها ابتسم مفكراً بأن النهم للمعرفة عند كيا قد أخذته لا شك عن أمها. راجع أجوبته بسرعة، خشية أن يكون لسانه قد زلّ بمحظور، فزمن البراءة قد ولّى. ومع ذلك فإن فضول الأم قد بعث السرور في نفسه. فلا أمه ولا حتى جدته لأبيه أو أي من أفراد الأسرة في ترشا أو حتّوشا قد أبدى مثل هذا الاهتمام بدرب حياته وخططه وآماله وأهدافه، أو فضولاً للاطّلاع على تجاربه ووجهات نظره في العالم والأرباب.

وبما أن الوقت لم يتأخر بعد، قرر تانوا زيارة دونيو، وكانت معرفته باللغة الإيجية قد تحسنت كثيراً خلال المدة الماضية. لم يكن دونيو قد علم بوجود تانوا في قطنا. دخل تانوا الورشة قائلاً: «مرحبا، دونيو!». فأجابه دونيو من دون أن يرفع رأسه عن عمله: «اجلس!». مندهشاً من هذا الجواب المقتضب، رضخ تانوا وجلس منتظراً. ما أروع القطع المرتبة على الرفوف. سرحت نظرته في أطراف الورشة. أشكال دقيقة رشيقة، طاسات وصحون رقيقة، أباريق ذات أشكال متنوعة، صحاف، مطلية بألوان غير مألوفة. كل هذا يدل على وجود معلم فنان. أراد الاقتراب ليدقق النظر، وعندئذ أخيراً رفع دونيو رأسه، تردد لبرهة وتعرّف تانوا، فصاح: «تالزو، أهذا أنت! إني لا أصدق. ظننتُ أن مَن دخل هو مينوس. يا ليتني عرفت..». تدفقت الكلمات من فمه كالسيل وهو مندفع نحو تانوا ليعانقه بشوق ويقبّله على خديه.

«من هو مينوس؟».

«ألم تشاهد اللوحات الجدارية الجديدة في القصر؟ يجب حتماً أن تراها. إنه فنان موهوب. جاء مع الأمير المصري الصغير، ومنذئذ لم أعد أشعر بالوحدة. يجب أن تتعرف عليه فوراً». وأرسل دونيو أحد فتيانه للبحث عن مينوس، وآخر ليحضر نبيذاً.

«هل كنت في أهياوا؟ لفظك صار جيداً».

«دونيو، أنت تبالغ جداً. ثم عليك أن تكلمني ببطء. لقد تعلمت قليلاً، ولكن ليس بما يكفي. لكني أرى أن شغلك صار أجمل. ليتني أستطيع أخذ شيء منه معي! ألا تريد الرحيل معي إلى حتّوشا؟».

برعب صَلَّب دونيو سبابتيه إحداهما على الأخرى أمام وجهه وهو يقول: «اعفني من هذا. ماذا تفعل في ذاك القَفْر؟ يفضل أن تبقى أنت هنا، على أن تجرجرني». وعانقه ثانية، ثم قال: «هذا هو مينوس»، مقدماً الشاب الذي دخل الورشة للتو، وأردف: «لهجته غريبة نوعاً ما، فهو من جزيرة كِفْتو، حسب التسمية المحلية هنا لكريتا، وما عدا ذلك فهو شاب لطيف. وهذا هو تالزو»، قال لصديقه مقدماً الزائر، وأضاف: «من ترشا، تعلّم لغتنا في حانات مينائها حتى صار يتقنها».

أمضوا أمسية ممتعة معاً. عرض مينوس على تانوا في ورشته بعض المشاريع والتجارب، ما ترك أثراً عميقاً بمعلميّة مينوس في نفس تانوا. فهذه الأعمال الفنية تنقص حتّوشا، ولا بدّ له من ذكرها في تقريره. ألح عليه دونيو بأخذ قطعة كتذكار، رغم تحذير تانوا له بأنها لن تصل إلى الوطن سالمة. فعلق دونيو: «الحطام يأخذ الشرّ معه، ألا تعرف المثل؟ على كل حال أرجعه معك في المرة القادمة لأرتقه لك!».

لم يبق لتانوا ما يكفي من الوقت لتنفيذ مهمته الرئيسية. فعيد الحصاد سيشغل الزوج الملكي والكهنة طوال أيام، ووقته لا يسمح له بالبقاء. لا بدّ أن يبدأ رحلة العودة بعد بداية العيد مباشرة، وبأقصى سرعة عبر ترشا إلى حتّوشا، ليكون طوع أوامر الملك قبل بداية عيد الحصاد الحتي.

لقد جمع معلومات مفيدة خلال الأيام الأخيرة، ولكن حتى الآن لم تخطر في باله فكرة ذكية لتحويل أكيزي إلى صف حتّوشا. يُحتمل أن الفكرة لم تنتش بعد، لأن الوقت ما زال مبكراً. ففي حتّوشا تعمدت القيادة عدم متابعة النزاع مع ميتاني في هذه السنة، إذْ لا بدّ قبل ذلك، من توطيد الأوضاع داخل إطار المملكة وعلى جميع حدودها، عدا الجنوب الشرقي، ومن ثم يمكن توجيه الضربة القاضية إلى ميتاني وشمالي سوريا. والقيادة تعمل بلا هوادة على استراتيجيةٍ للإبقاء على مصر هادئة. لا يمكن لتانوا طبعاً أن يأتمن أكيزي على هذه المعلومات. وكون أكيزي يراهن بكل شيء على مصر، مفهومٌ من وجهة نظره، وليس فقط بسبب إيست. فما مبرر أن ينقلب فجأة إلى صف حتّوشا، من دون معرفةٍ

بالخطط المستقبلية ومن دون حجج صامدة يواجه بها أعضاء مجلس الأعيان، لإقناعهم بالضرورة الملحة لتغيير هذا التوجه؟ ليس ثمة أدلة محسوسة يستطيع تانوا مواجهته بها على نحو جدير بالتصديق. ولا جدوى من إقحام كيا في اللعبة، لأن أكيزي، على نقيض أبيه، لا مشكلة لديه في اختيار أمونحوتب زوجة أخرى، بل بالعكس. ثم إن هذا ضعيف جداً ليُعتمد عليه في المجلس، وهو ما جعل إيداندا يستغني عن استشارة المجلس فيه.

ربما كان الأكثر أهمّية الآن هو كيف سيتصرف الفرعون تجاه قطنا مستقبلاً. ولعل الأفضل هو كسب الوقت لمصلحة حتّوشا. إن خيّبت مصرُ قطنا ثانية، فسيكون أكيزي والمجلس أكثر ميلاً للعروض القادمة من حتّوشا. ولكن على المرء الانتباه لئلا تسقط قطنا في أيدي الاستقلاليين، نتيجة عدم التحرك في الوقت المناسب. فهذا لن يؤدي إلا إلى إراقة كثير من الدماء، وهو ما لا تقبل به مصر ولا حتّوشا.

بعد تقليب هذه الأفكار على وجوهها، وفي أثناء الحوار الطويل الثاني نصح تانوا أكيزي، انطلاقاً من روح سياسة أبيه بأن يحاول إقامة علاقات مقبولة مع الجميع، حتى وإن وجد ذلك صعباً، كما في حالة عبدي عشيرتا الأموري تحديداً. ولذلك فإن إبقاءه على مسافة معينة، بالرد على اقتراحاته بودٍّ، ولكن على نحو غير ملزم، أفضل من الدخول معه في جدل عقيم ومعاملته بخشونة. وإضافة إلى الرسول الذي أرسله إلى الفرعون مباشرة، على أكيزي الاستفادة من وساطة ريب عدّي الجبيلي ذي العلاقة الودية مع قطنا. وفي هذه النقطة على ريب عدي أن يَقصُر كلامه على قطنا فحسب، وألا يتهم أحداً أو يذكر أسماء بعينها.

«تانوا، ألا يمكنك البقاء عندي؟». قال أكيزي وكرر «كل شيء يبدو لي أسهل بكثير، عندما تعالجه أنت. دعك من حتّوشا. هنا أيضاً يمكنك أن تبلغ أعلى المناصب. سنجزل لك العطاء ونجعلك غنياً!».

ضحك تانوا وقال: «إن إطراءك يشرفني جداً، وكذلك عرضك بصفتك ملك قطنا، لكنك تعرف مثلما أعرف أن رجلاً مثلي لا يرتبط بمكان محدد».

«معك حق. ولكن عدني بأن تعود كلما سنحت لك الفرصة لتدعمني بمشوراتك».

وأخيراً أتت الأسئلة التي كان تانوا يخشاها.

«كيف سيبدو الأمر، إن أرسلت معك رسالة؟».

«لا مشكلة، فصداقتنا أمر معروف».

«إذاً في حال استلامك رسالة، سيعلم القصر هناك بالأمر؟ من حسن حظي أني لم أبح بشيء من أسراري». وضحك بطريقته اللامبالية وأضاف: «وإذا تأزم الوضع حولي في المستقبل، فلا بدّ لي من إرسال أفضل السعاة تمويهاً إليك، كيا مثلاً!». وأخذ يضرب بيديه على فخذيه وهو يضحك لنجاح دعابته. ثم سأل: «هل سُئلت هناك عن قطنا؟».

«نعم، طبعاً، خاصة عندما جاء أبي لزيارتي. كان الأمر شبيهاً بما جرى عندكم آنذاك، عندما وقف أبي أمام مجلسكم لتقديم إيضاحات».

«هذا جيد! فهذا يعني أنهم هناك في حتّوشا البعيدة يولوننا بعض الاهتمام. أكالينا وكواري بذلا جهوداً مكثفة لإقامة علاقات تجارية مباشرة مع القصر هناك، بهدف اختصار وساطة كيزواتنا. وهذا لن يعجب أباك أبداً». ضحك أكيزي مجدداً، ولكن مع شيء من الارتباك. فتابع أكيزي: «حتى الآن على هذا الصعيد لم ينتج أي شيء ملزم، فيمكنك طمأنته. هل أعلموك برسالة أبي ومن ثم برسالتي إلى الملك العظيم؟ وهل تعلم يا ترى سبب عدم تلقّينا أي جواب؟ فأنت وخالك هنوتي لديكما صلات متينة مع القيادة العليا».

«حسبما أعرف، أُعلم الملك الشمس من رسالتك بأن الملك إيداندا قد (صار رباً) حسبما يقال في حتّوشا عند موت ملك. وهذا يرتبط عرفاً في حتّوشا بمدة حداد طويلة، وبعدذلك فقط يعاودون الشؤون الرسمية. وبما أن الملك العظيم لا يرسل رسائل تعزية إلا إلى إخوته الملوك، فمن المرجح التروي إلى أن تعود الأمور هنا إلى مسارها الطبيعي. رسالتك لم تصل إلى يدي»، قال تانوا صادقاً، وأضاف: «ولكن يحتمل أن صياغتها لا تتطلب جواباً، أهذا ممكن؟».

«لم أعد أذكر تماماً. لا بدّ أن أرسل خادماً إلى مكتب الإدارة ليحضر النسخة. لكن ما تقوله يبدو لي واضحاً. هذا هو التفسير: لا يفترض أن نتوقع أي جواب. هذا ما سأقوله في المجلس، إذا طُرق هذا الموضوع. ماذا كنت لأفعل من دونك! ألا يمكنك أن تزكّينا هناك! فبشفيع مثلك في حتّوشا سنكون في مأمن!».

**

أخيراً جاء اليوم، الذي كان السبب الأساسي في سفره إلى قطنا. بتفكير مترَوٍّ اختارت كيا اليوم الذي يسبق الاحتفالات الفعلية، إذ كان الناس في كل مكان منشغلون بإنهاء تحضيراتهم في الموعد المحدد، فأقاموا الأكواخ الأخيرة من الأغصان وهيّؤوا

المأكولات. كان كل شيء على قدم وساق، وفي هذه الزحمة لن يتنبه أحد في بيت الربة إلى غيابها فترة من الوقت. وهي لم تخبر أحداً بمكان ذهابها سوى صديقتها أمينابة.

منذ إقامة كيا في بيت الربة، غادرت مربّيتها تايا القصر، إذ كان لأهلي نيكالو مربّية خاصة لصغيرها أمّوت پان. وقد سكنت تايا في بيت صغير شمال شرقي المدينة. ولم تكن هذه أول مرة تزورها كيا فيها، بل كانت تكثر من زياراتها، لاستمتاعها هناك، حسب قولها، بالحياة الطبيعية بين ورشات صغار الحرفيين والمطاعم الصغيرة وحياة الشارع النشطة الصاخبة.

.إلى هناك دعت كيا تانوا.

لبس تانوا رداء بسيطاً مألوفاً في قطنا وأخذ يتمشى عبر شوارع المدينة، والحسرة تملأ قلبه لاقتراب موعد السفر. ولما كان مبكراً جداً على موعده فقد انتهز الفرصة للمرور بجميع الأماكن المتبقية في ذاكرته من إقامته الأولى. وهكذا اقترب من المنطقة المحظورة، حيث كان النشاط على أشده، ضجته تصل أذنيه بوضوح. سادت الهواء رائحة غريبة، بل رائحة نتن! أو سمك؟ أو سمك عتيق جداً ومتن؟ كاد تانوا يتقيأ. إنهم يستخدمون النار أيضاً، فالدخان كان يتصاعد من أماكن عدة. أتوجد وراء الجدران ورشات معادن؟ والرائحة القاتلة؟ ليس لمعالجة المعادن هذه الرائحة. ما سبب هذا التكتم؟ في قطنا حتماً لا يوجد سلاح عجيب. حتى الملك أكيزي نفسه لا يحمل خنجراً حديدياً. لم تلفت نظره هنا قطع حلي أو أدوات كالتي رآها في حتّوشا. إنه لا يعرف سوى سرٍّ واحد، محميٍّ هنا في قطنا، وعقوبة خيانته الموت، وهو سر اللون الأرجواني. لكن الثياب والأقمشة المصبوغة به لا تفوح منها هذه الرائحة الكريهة أبداً. يا له من لغز! لم يرغب تانوا في أن يلفت النظر إليه، فأسرع متجاوزاً السور المحيط بالمنطقة المحظورة. لأي غرض يستخدمون النار؟ لا بدّ من أن يسأل في ترشا عن عملية صباغة القماش. لماذا لم تخطر هذه الفكرة في باله مسبقاً، يا للغباء!

استقبلته تايا بتحفظ، ولم يدهشه ذلك، فهما لم يتعرفا أحدهما الآخر عن قرب سابقاً. إنه غريب وهي تخاطر نوعاً ما، بدعمها هذا اللقاء غير اللائق. عرف تانوا من كيا أن مربّيتها تُقدِم على أي فعل من أجل حبيبتها الصغيرة. كان البيت متواضعاً، لكنه نظيف ومرتب جداً، يتألف من مطبخ في الطابق الأرضي وغرفة نوم في الطابق العلوي، إلى حيث قادت تايا تانوا. وقبل أن تنزل ثانية ضيّفته شراباً لذيذاً منعشاً أخضر اللون. أحس تانوا فجأة

بأنه قد فقد هدوء نفسه، وأخذ قلبه يخفق بشدة عندما تناهت إليه أصوات من الطابق السفلي، وعند سماعه خطوات على الدرج الضيق الشديد الانحدار. لكن الخطوات لم تكن خفيفة، بل ثقيلة تتعذب أثناء الصعود، يرافقها أنين خافت. وأخيراً ظهرت عجوز حدباء، تمنى لو يساعدها بعصا تخفف عنها عناء المشي. نهض احتراماً لها، فيما لدهشته، حلّت حجاب وجهها.

«كيا، ألا تكفّين عن هذه الشيطنات!».

«هيا اعترف بأنك لم تتعرّفني!».

«وكيف لي مع هذا الإتقان؟! هل جرجرت نفسك هكذا عبر المدينة كلها؟».

أومأت برأسها إيجاباً وتخلّصت من تنكرها وهي تقول برضا: «كم كان هذا مسلّياً. والفضل في ذلك يعود إليك طبعاً! تالزو - تانوا، تحياتي!».

خامر تانوا شعور بأن ما يفصله عن لقائهما الأخير ليس شهوراً طويلة، بل بضع ساعات. لم تعامله كغريب، ولم تلجأ إلى عبارات الترحيب المعهودة، بل خلقت فوراً جواً من الألفة والقرب، فتلاشى اضطرابه وأمسك بيديها.

«دعيني أراك. إنت نحيفة جداً. ألا يطعمونك ما يسمن في بيت الربة؟ احكي لي عن حالك! أود أن أعرف أصغر التفاصيل منذ سفري».

«كم ستبقى بعد؟».

«لم يبق إلا القليل. يجب أن أكون في حتّوشا قبل بداية عيد الحصاد عندنا».

«أيطلبك سيدك؟».

ما لم يلاحظه أكيزي طوال ساعات من أحاديثهما، أوجزته كيا منذ الدقائق الأولى.

«كيف تجمع الأمرين معاً، أن تخدم حتّوشا وأن تكون صديقاً لملك قطنا؟».

«لا يوجد تضادّ بين الأمرين».

«ليس بعد!».

«دعينا نتحدث عنك، كيا. لماذا اخترت خدمة الربة، أم أن الأمر ليس نهائياً بعد؟».

مثلما جرى مع أكيزي، أحس تانوا حيال كيا وكأنه قد دفع بوابة كانت موصدة حتى الآن، فتدفق الكلام والأفكار. حكت عن مقابلاتها مع أبيها الذي ترك لها الخيار بين الزواج أو خدمة الربة، وعن وصول رسالة تانوا المخبأة، وعن اغتيال أبيها وعملية دفنه، وعن مخاوفها مما قد يتغير بشأنها وأمها من بعده، وعن تكالب أكيزي على السلطة.

«ولكن ألم يكن ضرورياً أن يخلف أباه على العرش؟ لم يكن هناك من تأهّل للمنصب مثله».

«كان يفترض بي أن أعرف، أنك ستدافع عنه»، قالت بمرارة وأردفت: «أنتم الرجال لا تفكرون إلا بمثل هذه الأمور، وتجدون المسوّغات لدعم قراراتكم. وعلى ما يبدو، حتى الأرباب يتسترون على هذه الخديعة. القتلة يسيرون أحراراً. ولكن يوماً ما ستدفع قطنا ثمن ذلك». ونظرت إليه بحزن. فسألها قلقاً:

«أسعيدة أنت في بيت الربة؟».

«كنت سعيدة لأسابيع كثيرة».

«ماذا جرى؟».

نظرت كيا إلى يديها وصمتت. رفع ذقنها بيده بحيث تلاقت نظراتهما، ثم سألها: «أيرتبط الأمر بولي عهد مصر؟».

«أيضاً!».

«كيا»، قال بصوت خافت «أنت تعرفين أني أحبك أكثر من حياتي؟».

ارتدّت كيا إلى الوراء كمن لدغته أفعى، وهي تقول: «ما هذا الهراء؟ لا تهزأ بي. إني أحذرك. لا تظن، لأن أمونحوتب قد تزوج، أني غارقة في الكآبة، ولا بدّ لك أنت تحديداً أن تواسيني بما أني لم أعد مرغوبة من أحد. ما زلت حتى الآن لا أعرف ما إذا كان قد اضطرّ للزواج بها رضوخاً لأحد الأسباب، التي تجيدون أنتم الرجال صياغتها (لمصلحة الوطن). ثم إني»، ونهضت «سأخدم الربة إلى الأبد!».

اكفهرّ وجه تانوا، ونهض هو أيضاً. أما وجهها فكان متقداً عندما قالت بصوت خافت وواضح: «إني أحمل طفلها!». وتهاوت فجأة بين ذراعي تالزو وأخذت تنتحب مثل طفلة صغيرة. حضن الكتلة المرتجفة ذاهلاً، وشرع يمسّد شعرها ويهمس لها محاولاً تهدئتها.

«بسّت»، سمعا من جهة الدرج.

ارتعبت كيا وانفصلت عنه. تناولت بسرعة ثياب تنكّرها وقالت له: «أقسِم بأربابك وأربابي بأنك لن تخبر أحداً! وإلا فسأستنزل عليك جميع اللعنات التي أعرفها!».

أومأ تالزو ووضع يمينه على قلبه. ثم سألها: «متى سأراكِ ثانية؟».

«في المرة القادمة، في حال حدوث مرة قادمة».

«أتذكرين ما وعدتكِ به عند سفري؟».

أومأت وأرته التميمة المعلقة في عنقها.

«ما زلتُ عند وعدي. لا تنسي ذلك!».

لكنها كانت قد نزلت الدرج واختفت.

أقيم عيد الحصاد هذه السنة ببذخ وترف، فقد كانت المحاصيل وافرة جداً. ولأول مرة أدى أكيزي وإهلي نيكالو جميع المراسم الاحتفالية. وكانت الشوارع والأزقة تضج ببهجة وانشراح.

امتنع تانوا عن المشاركة في الاحتفالات مع المرافقة المألوفة للضيوف، إذْ إنه لم يرغب أن يقحم نفسه فيزعجهم. شاهد مساءً الطقس المقام على سطوح الدور، وشارك السكان آمالهم بأن يبتهج الأرباب بأكواخ الأغصان، التي نصبت لهم. والوجبة التي تلت الطقس كانت بالنسبة إليه في الوقت نفسه بمثابة مأدبة الوداع، وقد شارك فيها كثيرون، لكن شالا وكيا بقيتا في المعبد لالتزامهما بواجبات لا تؤجل. كان الوداع مؤثراً صادقاً من القلب، ولا سيّما من جانب أكيزي. مع تباشير الفجر غادر تانوا المدينة بقلب مثقل بالشجن.

**

أثناء الطريق استعاد تانوا في ذاكرته اللقاء مع كيا عدّة مرات. كيف جمحت به مشاعره على هذا النحو؟ كان يعرف أنها لا تريد سماع شيء عن حبه لها. أكان ابن تاجر أو كاتباً في خدمة الملك العظيم، حتى ولو كانت أمه أميرة حثية، كل هذا سواء. إنه لا ينسجم مع تصورها للحياة. إنها لا تحبه! هكذا هو الأمر ببساطة. إنها تحب أمونحوتب. ألم تعتقد، على الرغم من حنقها وعزة نفسها الجريحة، أن الزواج قد فُرض عليه فرضاً؟ بغض النظر عن حبهما أحدهما للآخر؟ نعم، هكذا كان الأمر. أمونحوتب أيضاً كان يحبها، وقد باحا بمشاعرهما واحدهما للآخر. وهي تحبه لدرجة أن تتصور نفسها زوجته الثانوية. لا. إما ملكة وإما كاهنة، هذا ما أرادت أن تقوله. ولكن ما تفسير قولها، إنها تحمل طفل الربة؟ إنها حامل وستلد طفلاً، ولكن من هو أبوه؟

لا يمكن إلا أن يكون طفل أمونحوتب، ولُقّب بطفل الربة لأن كيا تعيش في بيتها. هذا

هو التفسير المعقول. ولكن لماذا كيا غير فرحة بالطفل، إذا كان أمونحوتب الذي تحبه كثيراً، هو أبوه؟ لم تكن كيا سعيدة. كانت تبكي يأساً. هل يحظَر في قطنا يا ترى، إنجاب طفل قبل الزواج الرسمي؟ أيدري أمونحوتب بالأمر، أم أنه لا يعرف شيئاً إطلاقاً؟ أسئلة، أسئلة موجعة، ولا أجوبة، لأنه لا يجوز له أن يبوح بكلمة لأحد.

ماذا يملك أمونحوتب من صفات، لا يملكها هو؟ سوى أنه سيصير فرعون مصر. ضحك تانوا بمرارة. لقد وصفه كواري بأنه متدين جداً، متوحّدٌ مع ربٍّ ما، بل مع ربه هو بالذات، وبأنه غير مهتم بشؤون السياسة، أو يتظاهر بذلك، على الأقل حسب قول أكيزي. كما أنه لم يُبدِ كبير اهتمام بالتجارة، إلا إذا كان قد خاض في هذا الموضوع مع تيرو. لقد أخبره كواري بأن أمونحوتب طوال أسابيع إقامته لم يزره في دار البلد، ولا حتى مرة واحدة. ولكن قبل مغادرته بقليل فاجأهم بمجموعة طلبيات. دونيو لقَّبه بالأمير الصغير. ربما لكونه مدللاً. لكنه يمتلك جسماً رياضياً على ما يبدو. لا يجوز للمرء أن يبخسه حقه بأي حال من الأحوال. لكنه ليس موهوباً لغوياً. لغته الأكدية رديئة ولا يجيد الحورية، إلا إذا كان هذا أيضاً تمويهاً، كي يبقى أطول وقت ممكن مع كيا، التي كانت غالباً تترجم له، حسبما قيل له. الأميرة إيست وجدت أمونحوتب وسيماً وذا شخصية ساحرة. كانت تبجله وكأنه رب. ولكن الأمر في حالتها كان مفهوماً إلى حد ما. فهي قريبته وقد نشأت في مصر. كانت تتقن التعامل مع الفراعنة وأبنائهم، ثم إنها تعتبر مدة إقامته في قطنا من أسعد أوقات حياتها.

وكيا؟ لقد فرحت برؤية تانوا، أكثر من فرح إنسان بعودة أخيه بعد طول غياب. إنها تقدره كصديق، وإلا لما خاطرت باللقاء به سراً، ولما باحت له بالكثير، ولما ائتمنته على أكثر أسرارها خصوصية. ومع ذلك: لماذا لا تحبه هو؟ إنه بالنسبة إليها ابن التاجر الصدوق والكاتب الودود، والشاب اللطيف المخلص، والوفي الذي يُعتمد عليه. ولكن لا بدّ لها من أن تشعر نحوه بشيء ما: فهي تحمل تميمته! لقد مدت يدها إليها فوراً ومن دون تفكير، عندما ذكّرها بوعده لها بالوقوف إلى جانبها في أي محنة تواجهها. ربما كانت تحتاج ببساطة إلى وقت. سينتظرها ويكون صبوراً. هو أيضاً له الحق بأن يكون له حلم، حلم حياة. أمسك بميداليته، رفعها إلى شفتيه وقبّلها بحنان.

تساءل تانوا في نفسه عمّا يميز عيد الحصاد في قطنا عنه في أدانيا أو حتّوشا. ربما كانت بلاد الجنوب تأخذ الحياة بشيء من الخفة، فما يميز العيد هناك هو دفق الفرح

والانشراح. في حتّوشا قد يسري هذا على بسطاء الناس، أما بالنسبة إلى الملك والملكة والحاشية الدينية فإنه جهد مرهق لا أكثر. لقد مر عام الآن على مغادرته وطنه، أكانت سنة واحدة فقط؟ لم يكن واثقاً. زيارته الأخيرة لترشا على طريق عودته من قطنا رسّخت في نفسه صواب قراره.

كان إحِيّا مشرقاً من الراحة المرفهة، وفي غاية الرضا عن صفقات تانوا، فلا شك في أرباحها. أما خبر محاولة القطنيين عقد صفقاتهم مع حتّوشا مباشرة، فلم يؤثر فيه، بل علق عليه قائلاً: سيلاحظون بسرعة أنهم لن يغنموا أي شيء من وراء ذلك. أتتصور مبالغ الجمارك التي سيضطرون لدفعها عند ذلك، والتي يوفرونها الآن. دعهم يحاولون. سيعودون إلينا نادمين!». وأخذ يملّس على كرشه ناسياً نفسه وهو يضحك من قلبه.

إلى جانب والده المتوسع حجماً، بدت أمه نحيلة ومحزونة. وانتاب تانوا شعور مؤرق بأنها لا تُمضي ساعات في الصلاة فحسب، بل بأنها تميت رغبات جسمها. عندما أتاها قادماً من حتّوشا ونقل إليها أخبار العائلة هناك وقدم لها الهدايا الكثيرة، لاحظ مسحة فرح على وجهها. لكنها تلاشت الآن، وعند الوداع بدا له وجهها رمادياً. ولهذا كبت في نفسه سؤالها: لماذا يلوّح أفراد العائلة بأيديهم بإشارة إبعاد الشر، كلما غادر دارهم مع هنوتي؟ لا بدّ من تجنيبها أي ألم إضافي. كم كان بوده لو يساعدها، أن يواسيها كحد أدنى. ولكن كيف؟ باركته ودارت دموعها عندما امتطى جواده. شعر بنوع من الارتياح عندما باتت ترشا وراءه، وتنفس بعمق.

كلما اقترب تانوا من حتّوشا ازداد تفكيره تركيزاً في التقرير الذي عليه تقديمه.

«ستصير ديبلوماسياً جيداً، هراء، ما هذا الذي أقوله، أنت الآن بالتأكيد ديبلوماسي جيد، حسبما كنت تتمنى لنفسك»، هكذا استقبله هنوتي عندما التقيا مجدداً في پوروشخندا أثناء رحلة الزوج الملكي الخريفية، وبعد أن استمع إلى تقرير رحلته الرسمي، وأردف: «إنه مصقول! الملك ومدير إدارة شؤون الدولة كالا لك المديح على ما أنجزته. مؤكد أنها لن تكون زيارتك الأخيرة لقطنا. وعودتك في الموعد المحدد تركت انطباعاً جيداً، فتهانينا الحارة. لقد شرّفت نفسك وشرفتني، إني فخور بك. لكن ما شاب سروري مرارة هو أن الملك قد فتح عينيه عليك ويريدك لنفسه، وقال لي ما معناه، يمكنني أن أشكر الأرباب لكوني خالك، ويكفيني هذا فخراً. لكنني عارضت فوراً. لذلك، سيبقى كل شيء حالياً على سابق عهده. لكن شوپيلوليوما لن يتراجع، إلى أن يحصل على ما يريد. وأنا أتفهّم ذلك».

لطالما بالغ هنوتي وغلّف بالمزاح ما يصعب عليه قوله صراحة. أن يتنازعا بسببه، ولّد في نفسه شعوراً بالرفعة وبأنه قد أُجزي العطاء. لكنه أجاب قائلاً:

«وما هذا الأمر الكبير الذي حققته؟ بدا لي من المنطقي أن أترك للملك الخيار الحر المتوهَم خطأً، ما دمنا على اطّلاع على ما يجري في سوريا وفي مصر. المجموعة التي تطمح إلى سوريا مستقلة، تعمل بنشاط كبير، في حين أن مصر، بالعكس، قد انطوت على نفسها. سمعت شكاوى في كل مكان، بأن الرسائل لا تُجاب والسعاة لا يُعادون. والهدايا الذهبية توقفت».

«كيف تنسجم هذه المقولة مع الإقامة الطويلة لوليّ العهد في الشتاء في سوريا؟».

«حول هذه النقطة تضاربت الآراء. الغالبية ترى أن الفرعون لم يعتبره ولياً للعهد، ولكن عقب موت أخيه الأكبر المفاجئة، كان لا بدّ من تهيئته سريعاً للمنصب، وهذا يشمل تعرّفه جيداً بالأتباع والحلفاء والمتعاونين. كان قد زار بلاد كوش جنوب مصر، وحان موعد زيارته لبلدان الساحل السوري، لكنه فوَّت على نفسه الرحلة المبكرة. إنه بالمقارنة معك لا يُعد مقداماً» وضحك تانوا «فهو لا يعبر البلاد مواجهاً الريح والعواصف الثلجية!».

«يسعدني أن أكون بذلك قد تمكنت من التأثير فيك إلى هذا الحد. ولكن لنعد إلى موضوعنا. ما سبب بقائه في قطنا تحديداً؟».

«لقد زار أوغاريت وجبيل وغيرها من الإمارات أيضاً، وليس قطنا فقط. لكنه في قطنا أحس بألفة أكثر من القصور الأخرى، لأن خالته تعيش هناك».

«وابنتها أيضاً، أليس كذلك؟ تانوا، تانوا، لقد كشفتك!».

«كيا في هذا الخريف ستُرسم كاهنة لسيدة المدينة».

«يا لها من سيدة شابة جديرة بالاحترام. تريد الاستقلال بذاتها - ما دام هذا ممكناً - لا أن تبقى تحت سطوة الملك وأمه. فتاة عاقلة».

«تصور أن أباها بالذات هو مَن نصحها بذلك».

«هل رأى أن الاحتفاظ بها في قطنا أفضل من دسّها في سرير أحد ملوك الإمارات؟ هذا هو حب الوالدين الحق. وماذا وجدت حول موته؟ يمكنك أن تخبرني أنا، بما تكتمت عليه رسمياً».

نظر تانوا إلى هنوتي مرعوباً. «ماذا تقصد بقولك تكتّمت؟ أيعتقد ميتانموا أني تكتمت على شيء ما؟».

«هو لا، ولكن أنا!».

«لماذا؟». ورمى تانوا هنوتي بنظرة شك.

«يخامرني شعور غريب، أتفهم؟ ثم إن الأمر مع السادة الرسل دائماً هكذا. إنهم لا يخبرون الذي كلفهم بالمهمّة، إلا بقدر ما يرونه ضرورياً جداً. وما تبقى يحتفظون به لأنفسهم» ودمدم مضيفاً: «وهذا هو مغزى المهمّة بالنسبة لهم، على ما أظن. والآن، لا تنظر إلي بهذا الشكل، بل أخبرني!».

«حول موت الملك تمكنت من التحدث مع عدّة أشخاص. دخلت حتى إلى المطبخ لجمع معلومات. قبل موته بمدة وجيزة انسحب الملك من الحياة العامة، هذا ما قاله أوبيا، الناطق باسم المجلس والحمو الملكي، وأكالينا شقيق إيداندا، وأكيزي ولوايا وغيرهم. كان منزعجاً من نمو المعارضة له في المجلس، وخاصة بزعامة سِلفه تيرو».

«شريك والدك في التجارة؟».

«هو نفسه. لكن هذا لم يكن السبب الوحيد، بل كان يشعر باعتلال في جسمه، أخفاه عن أفراد العائلة وغيرهم. حتى زوجتاه وابنته كيا لم يلاحظوا شيئاً. تبيّن فيما بعد أن سبب موت الملك كان مرضاً ثقيلاً امتد طويلاً. والذين حوله الجاهلون بالأمر، بدا لهم موته فجائياً».

«وهذا عرفته من المطبخ؟».

«ليس فقط. لكنهم أخبروني هناك أنهم تلقوا من دار الشفاء، من كبيرة الكاهنات شخصياً، تعليمات خاصة بما يجوز للملك أن يأكل وما لا يجوز. لكن ذلك كان قبيل موته».

«ماذا قال خدمه؟ فهم دائماً أفضل من يعرف. لا شك في وجود صبية صغيرة بينهم تدفئ للملك سريره».

«بهذا الشأن ثمة ما هو غريب. اثنان من خدمه على الأقل، من الذين يعتنون بطعامه وشرابه، رجل وامرأة، اختفيا منذ موت الملك، ولم يعد يراهما أحد في مطبخ القصر، ولا أحد يعرف مكان وجودهما. ولكن بوسعي أن أطمئنك. كان على أكيزي قبل تتويجه أن يخضع لحكم الأرباب!».

«إذاً، كان هناك شك في موت الملك ميتة طبيعية؟».

«أرجّح أنهم كانوا شديدي الحذر، بسبب زلزالٍ وقع ليلة الوفاة، وكان فألاً مريعاً.

صحيح أن أثر الزلزال في قطنا كان طفيفاً، لكن أعضاء المجلس توجسوا من ارتكاب أي خطأ في حق الأرباب. لهذا لجؤوا إلى (حكم الأرباب) الذي اجتازه أكيزي بنجاح، حسبما أخبرني باعتزاز».

أومأ هنوتي برأسه وقال: «الحذر واجب عند التعامل مع الأرباب ذوي القدرة الكلية».

كان لقوله في أذني تانوا وقع ساخر. رحمتكم أيها الأرباب! لا شك أنه قد أخطأ السمع.

«هل رأيت محبوبتك كيا؟».

بما لا يجافي الحقيقة، أجاب تانوا: «قليلاً فقط. أثناء تناول الطعام لا توجد إمكانية لتبادل الحديث إلا مع جيرانك مباشرة، فلكل شخص مكانه الثابت حتى انتهاء المأدبة».

بدا جلياً أن هنوتي قد انتهى من موضوع قطنا ومن رحلة تانوا كلها.

«هنوتي، لقد أحضرت للملكة شيئاً من قطنا، نال إعجابها جداً».

«أنت أحضرت شيئاً للملكة؟ يا لك من شاب لبق! وما هو؟».

أخبره تانوا عن دونيو ومينوس وروائعهما الفنية. «لم يكن بوسعي نقل لوحة، لكن حنجور مرهم صغير وبعض الخزفيات نجت من الرحلة بسلام. فكّرت بأن الملكة هِنتي ستُسَرّ بحصولها على شيء من بلدها».

«أنت تبجّلها، ألستُ محقاً؟».

«أجدها تستحق كل إجلال. إنها ذكية وذات جمال أجنبي فاتن وودودة. الملك شوپيلوليوما وهي يشكلان زوجاً مثالياً. ولا شك في أنه يحبها جداً. كلهم معاً، الوالدان والأمراء يشكلون عائلة نموذجية رائعة، خير دليل على بركة الأرباب في حتّوشا».

«فيما مضى كان الاثنان عاشقين مغرمين. كان يجوز لهما ذلك. آنذاك كان شوپيلوليوما الابن المفضل عند أبيه، لكنه لم يكن وليّ العهد. من كان يظن أن ذاك..». وبتر هنوتي كلامه، ثم أضاف: «لنأمل خيراً. حتى الآن يبدو أن الأرباب يعطفون علينا. انظر فقط إلى محاصيل هذه السنة. بالمناسبة، كلنا دون استثناء كنا مغرمين بهنتي. ولكن كان واضحاً، مَن الذي سيفوز بها في النهاية».

هل استشف تانوا شيئاً من المرارة في هذا الاعتراف؟ ألهذا لم يرتبط هنوتي حتى الآن؟

**

بعد عيد الحصاد بأسبوعين عاد أكيّا من مصر. وما جلبه معه من أخبار ولّد في أكيزي مزاجاً ممتازاً، إلى درجة أن أمر بتحضير مأدبة احتفالية عارمة، من دون مناسبة محددة، دعا إليها الأعيان وزوجاتهم، إضافة طبعاً إلى شالا وكيا وممثلين عن الكهنوت.

«يا أعيان قطنا، يا أصدقائي» هتف الملك بوجه مشرق في الجمع الأكول «أعيروني سمعكم قليلاً. إنكم تتساءلون في أنفسكم، بماذا نحتفل اليوم؟ إننا نحتفل بانبعاث علاقاتنا الممتازة مع مصر. ليكن في علمكم أن الفرعون أمينوفيس لم يرسل فحسب هدايا ثمينة لا تحصى، بل أرسل الذهب أيضاً لمتابعة تجميل مدينتنا. لكن الأهم هو أنه قد برّأنا من أي ذنب، ظن حاكم أمورو أنه سيثقل كاهلنا به. إنه يؤكد صداقته لقطنا ويشكر كرم ضيافتنا لابنه المبجل أمونحوتب. لا أحد في سوريا أكثر معزّة في نفسه من قطنا. إنه يأسف بعمق لأن صديقه الملك إيداندا لم يعد بيننا، لكنه موقن من وجوده في رياض الغرب المباركة، حيث سيلتقيه ثانية. إنه يهنئ مجلس الأعيان لحسن اختيار خلفه.. إلخ.. إلخ. أليس هذا مبرراً للاحتفال؟ قولوا بأنفسكم!».

دوى التصفيق وأخذ الحضور يهتفون بحياة الفرعون. وفي غمرة الهيجان العاطفي هتفوا أيضاً بحياة الأميرة إيست، ولكن حتى هذا ما كان ليعكر فرحة الملكة بلتوم اليوم. كانت مع ابنها أكيزي في منتهى الارتياح للكلمات المنقذة التي طال انتظارها. لم يُبدِ تيرو وجماعته أية آثار انزعاج على وجوههم، بل بالعكس. كان تيرو أول من نهض واقفاً ليهنئ الملك بهذه الأخبار السعيدة. وشاءت المصادفة – أم كان ثمة قصد – أن تلتقي في تلك اللحظة نظرات أكيزي وأكيا. وقد عرف كلاهما أن المتكلم ما هو إلا أفعى بلسان ذي شعبين، ويحتمل أن تكون الآن قد فقدت أحد نابَيْ سمّها.

في اليوم التالي للاحتفال طلبت كيا على نحو مفاجئ مقابلة أخيها في جناحه الخاص. وهذا ما لم يحدث منذ وقت طويل، في الواقع منذ تتويج أكيزي، الذي سرّ لزيارتها ورحب بها قائلاً: «يا للحدث السعيد. لقد أفرحني أن تجدي الطريق إليّ ثانية يا أختي الصغيرة!». وأراد أن يعانقها، لكنها لم تستجب، فبقي على مسافة منها، وقال: «اسمحي لي أن أقدم لك قدحاً. استريحي. ما المشكلة؟».

«لي حديث معك».

«هذا ما ظننته. عن تيرو، الأفعى السامة؟».

«ظننتك تصالحت معه. يقال إنك لا ترفض مخططاته تماماً».

«من يزعم ذلك؟». وظهرت على وجه أكيزي تجاعيد الغضب.

«أنت تعرف كم يحكى في القصر. والحيطان لها آذان. الحذر مطلوب دائماً. لكني لم آتِ كي أتشاجر معك بشأن تيرو، أكيزي. أنا أعرف أنك مضطر للحفاظ على المظهر، رغم صعوبة ذلك. لقد ورطت نفسك كثيراً. ثم إن همساته مغوية، أليس كذلك؟ سيد سوريا كلها! ولكن إياك أن تنسى أكيزي: إنه يكذب!».

تغير وقع صوتها وجمدت نظراتها على نقطة في البعيد، فأدرك أكيزي أن ثمة رؤيا تداهمها في هذه اللحظة، فنهض واقفاً في شبه خشوع منكساً رأسه.

«إنه يريد السلطة لنفسه، لكن الأرباب سيحولون بينه وبينها!». ومدت كيا يدها إلى قدحها. انتهت الرؤيا، وجلس أكيزي مضطرباً. عادت نظرات كيا إلى طبيعتها وكذلك وقعُ صوتها. هل أرادت استفزازه؟ إنها ليست أول مرة. من أين لها معرفة كل هذه الأمور؟ إنه لم يناقش آراءه بصوت مسموع إلا مع أمه الملكة بلتوم. وأشار إليها لا أكثر مع تانوا. ترى هل تحدثت معه؟ إنه لأمر مريع حقاً، ألا يكون المرء سيد بيته.

صمتت كيا برهة. تنفست عميقاً ثم قالت: «سأقدم لك عرضاً. أنا أريد الحصول على معلومات منك، ومقابل ذلك تحصل على معلومات مني. ما رأيك في الأمر؟».

«أنحن في دار البلد للمقايضة؟». مازحها أكيزي، ثم أضاف «لا بأس. حول ماذا؟ ماذا تريدين أن تعرفي؟ وماذا لديك لتعرضي علي؟».

«سأخبرك بمن قتل الخادمة وبالسبب. مقابل ذلك أود مستقبلاً أن تمنحني فرصة الكلام مع المراسلين المسافرين إلى مصر أو القادمين منها. وحدي!».

«هل يهمك كثيراً أن تعرفي كيف يعيش وماذا يفعل ومَن يحب؟ لماذا تفعلين هذا بنفسك؟ انسيه ببساطة!».

«هذا شأني. عدني بذلك!».

«سنجد لك زوجاً جيداً يليق بك». قال أكيزي محاولاً ثني كيا عن طلبها. أخبار المراسلين ستؤذيها، فما الداعي لتعذيب الذات؟

«عزيرا البدين مثلاً؟ إياك حتى أن تفكر بالأمر. أقسم لي هنا والآن بربتنا وأبينا أنك ستحترم إقامتي في بيت الربة. مع بزوغ هلال الشتاء سأُرسم كاهنة. كل منا يخدم وطننا بطريقته!». وانتفضت كيا واقفة وهي شاحبة من الغضب. أجبرته على أن ينهض أيضاً ويقسم. فماذا بوسعه أن يفعل حيال هذه الموسوسة؟

«هل ستلبي رجائي؟».

«وهل من خيار أمامي؟ لطالما كنتِ دائماً تنفذين ما برأسك، يا مدللة أبي. افعلي ما تشائين! ولكن بتكتّم وتحفّظ رجاءً! يمكنك هنا أن تتكلمي مع أكيا، لا مانع لدي. ولكن لا تأتيني بعد ذلك وتشكين. يا للنساء! أنتن تقنّ دفعنا، نحن الرجال، إلى حافة الجنون، وخاصة أنت. فمن هذا الذي يبغي مشاطرتك الحياة؟». اندفعت الكلمات من فم أكيزي في سورة غضب. لماذا يرضخ دائماً وأبداً لهذه البنت؟ وهو الملك. سيأتي يوم تعرف فيه من هو أكيزي.

لم تفعل إساءاته فعلها في كيا، إنما أشعرتها، بالعكس، بقوتها في مواجهة خباثته. فقالت له: «عندما تهدأ سأنفذ جانبي من الصفقة». فأومأ أكيزي برأسه.

«كبيرة الكاهنات أجرت استقصاءات لتتوصل إلى معرفة شيء عن أصل الخادمة وموتها، وذلك بعد أن أوقفتَ أنت استقصاءاتك، على ما يبدو».

«كان عندي ما هو أهم، والمخبرون لم يعودوا إلي بشيء، وإلا لكنت بالتأكيد قد أعلمتكما في بيت الربة».

«نحن عثرنا على أمها. إنها تعيش مختبئة في قرية على نهر أرانتو في شمالي المملكة. يحتمل أن الخادمة كانت على الطريق إليها، عندما وصلوا إليها وقتلوها، لكن القتلة لم يعرفوا ذلك. كانوا يعتقدون أن الأم ميتة وأن عائلتها قد اندثرت. ولهذا لم يعرف أحد في القصر شيئاً عنها وعن أصلها».

«ولكن في هذه الحال، ما كانت لتُستخدم في القصر. إنها ليست عبدة».

«صحيح. لكنها جاءت بتوصية. وبمستوى ذكائك ستحزر بنفسك ممن حصلت عليها».

«حتماً ليس من تيرو».

«بل منه. هو الذي أحضرها إلى الملكة، قائلاً إنها رأت بعينيها موت أهلها، ولهذا فهي تعاني ذهولاً شديداً».

«لكن هذا غير صحيح».

«فيه شيء من الصحة. لكن العائلة لم تُمحَ كلها. إضافة إلى الفتاة بقيت أمها حية. وكانت سابقاً بارعة الجمال حتماً. اليوم تحكي بعناء، ولا تنطق إلا بما هو ضروري جداً. لم نستطع معرفة أصل علاقتها مع تيرو، لكنها صارت دميته وضجيعته، يفرغ فيها شهواته

كلما عنّ له ذلك، وكأنها جارية، بل أسوأ، كانت بين براثنه. لكنها تمكنت بطريقة ما من إبعاده عن ابنتها، ولقاء ذلك كان عليها أن تفعل كل ما يطلبه تيرو منها، وإلا فإنه كان يعاقب الأم أمام عيني الابنة. وهكذا تمكن من إجبار الابنة على دس السم لأبينا بانتظام. ماذا كان بوسعها أن تفعل؟».

«هل عرفت أمها بذلك؟».

«لا نعرف بدقة».

«وماذا جرى حتى أنها لم تعد عند تيرو؟».

«بعد نجاح الخطة وموت الملك، لم يعد تيرو بحاجة إليهما. وكان قد مل لا شك من المرأة المستهلكة والمكروبة دائماً، فأمر عبداً بقتلها. إلا أن العبد رحمها، ولا أدري أين الرحمة في ترك إنسان يعيش بهذه الصورة. أخرجها من المدينة باعتبارها ميتة وتركها لتهرب. لا نعرف أيضاً كيف أوصلت لابنتها خبر مكان وجودها. لكنهما لم تلتقيا ثانية، لأن تيرو لم يفكر أبداً بأن يترك الفتاة لشأنها».

«هذا أمر يدفع للجنون. إننا لا نستطيع اتخاذ أي إجراء ضده. لا شيء مطلقاً. معرفتنا لا تفيدنا شيئاً».

«من يدري. قد يأتي اليوم الذي يكشف فيه كل شيء فيتلقى عقابه الحق. ماذا نعرف نحن عن مشيئة الأرباب؟».

أكان يُفترض بها الإصغاء لأكيزي. ماذا أمِلت من الاستفسار من أكيا؟ أن يسحر لها رسالة سرية من جيبه؟ أو تحية ولو بكلمة، تقول لها بأنه لم ينسها كلياً؟

لم يحدث شيء من هذا كله، بل قدم لها وصفاً مفصلاً لحياة العائلة في بلاط طيبة. أخبرها بأن زوجة وليّ العهد امرأة غير عادية، ليست بجمال أميرة قطنا، لكنها تقاربها شبهاً. وكان هذا مجرد مجاملة طبعاً. وهي حامل بطفلها الأول. وحمواها مفتونان بها. وزوجها يقرأ رغباتها في عينيها فيلبيها من فوره، ويُظهر اهتمامه الشديد بأوضاعها، رغم أن هذا - حسب تقدير أكيا - غير ضروري، لأنها تعرف تماماً ما عليها عمله لنفسها ولزوجها أيضاً.

لكنهما كلاهما يؤديان واجبات رسمية كثيرة. وقد تمكن أكيا من التحدث مراراً مع وليّ العهد، لأن الفرعون في بعض الأيام كان معتل الصحة لا يستقبل أحداً. ولفت نظره في الفرعون - حفظه الأرباب معافى وأطالوا عمره - أن الكلام يثقل عليه أحياناً. وهذا لا

أكثر من تخمين، إذ لا يجوز للرسل الاقتراب كثيراً من جلالته، ولكن الانطباع الذي تولّد لديه، هو أن الخدم وولّي العهد أيضاً يلتفتون عن جلالته عندما يتكلم. وهو لا يستطيع أن يجزم ما إذا كان ذلك نتيجة خشوع أم تجنّباً لرائحةٍ مريعة.

سألته كيا عما يكمن وراء الصمت الطويل تجاه قطنا، وكيف انقلب الموقف؟ فأجاب بأن الصمت كان نتيجة لظروف سيئة، وبسبب القلق الذي سببه طول غياب وليّ العهد. ولدى عودته تسارعت الأحداث وتراكمت، اضطرابات على الحدود الجنوبية وفي الواحات الغربية، تحضيرات الزواج تركزت كلها بين يدي الملكة تِيه، التي تنتمي العروس إلى أسرتها، وهذا حتماً ليس جديداً بالنسبة للأميرة كيا. وثمة أمور أخرى كثيرة أدت إلى تحوُّل واجب إبداء اللياقة الواجبة إلى ما يشبه العقوبة. والفرعون كان آسفاً جداً لذلك، والملكة تيه كذلك، التي أكدت أسفها. وبهذا المعنى كتبت لابنة أختها الحبيبة وأرسلت لها الهدايا، وهذا ما تعرفه كيا مسبقاً. فقد أسرعت أمها بإخبارها وأرتها الرسالة، كما قالت لها بأنها باتت موقنة بأن الفرعون وزوجته لا يعرفان شيئاً عن عاطفة أمونحوتب تجاه كيا. وكما قدّرت سابقاً بإمكانها الآن أن تتصور أنهما هما مَن اختار نوفرِتيتي وخططا لإقامة العرس في الشتاء. ولمّا لم يعد وليّ العهد في الوقت المناسب إلى الوطن، واجهاه حال عودته برغبتهما في تزويجه، بحيث لم يجد فرصة للرفض من دون تعريض نوفرتيتي وعائلة أمه كلها إلى إهانة مشينة.

صرفت كيا الرسول أكيا.

«عليك أن تتصالحي مع الوضع القائم يا ابنتي!». نصحتها أمها. تتصالح! تتصالح مع حظها التعس، حسب تعبير أكيزي اللبق. أمونحوتب وهي كانا ضحيتين للظروف. أيمكنها أن تطلب منه أن يتسبب في فضيحة دولة، لمصلحتها؟ لا، طبعاً لا. لكنه خانها. تخلى عنها وخانها. خان حبهما. حبهما الذي وضعه في رعاية أمون رع. كان جباناً، بالغ الجبن. أخذت كيا تغوص في ألمها عميقاً. كانت تدافع عنه وتتهمه، تحبه وتكرهه بالدرجة نفسها. وكانت في شوق إليه على نحو يجلّ عن الوصف، إلى ذراعيه وشفتيه. لو أن الموت يخلصها. عندما دخلت أمينابة المخدع في وقت متأخر من الليل، كانت كيا قد بكت حتى النوم.

صحت كيا وهي تصرخ. رأت دماً في كل مكان. كان يسيل على تمثال الربة سيدة المدينة، يتدفق خارجاً منها، من حيث كان ينبثقُ ماءٌ فواح، يفيض عن حافة الحوض

ويصبغ الأرض بالأحمر، ولا يني يتدفق ويتدفق. على جدران قاعة الأعمدة العظيمة رأت آثاراً حمراء لأكفٍّ أناس يائسين، حاولوا الوقوف لآخر مرة، آثاراً مفزعة.

جثث، في كل مكان جثث. رؤوس مقطوعة، أطراف مقطوعة، أجسام مذبوحة، وجوه مشوهة بقسوة. أنين ونواح هنا وهناك، الصيحات الأخيرة لمحتضرين، آلام موت.

ما عدا ذلك، سكون.

همد أتون المعركة ولم يبقَ سوى الموت. القاعات الثلاث كانت متخمة بالموت الذي زحف عبر القصر كله. والدماء تسيل بلا انقطاع، حمراء كأجمل أرجوان، تكفي صباغاً حتى الأبد. الأموات فقدوا لونهم البشري، ما عاد يمكن تعرّفهم أجساماً، ضاعت معالمهم. كان كل شيء يسيح إلى أحمر أرجواني هو الأجمل والأشدّ مدعاة للذعر.

وقفت بلا حراك، تركت الصور تمرّ أمام عينيها، لتغرق أخيراً في الأحمر الذي بدا أنه يمتصّها هي أيضاً، غير قادرة على إدراك ما جرى.

أرسلت عشتار هِبتها، فتحركت الريح. هبّت نسمةٌ تكاد لا تُحَسّ، تسلّلت عبر البوابات، وانسلّت بهدوء عبر القاعات ولامست الموتى بنعومة. استمدّت قوةً وانتفخت واندفعت في دفقات متصاعدة العزم بلا توقّف. في البداية تناهى عويل الريح من البعيد، وأخذ يتصاعد مقترباً، كأصوات شكوى تخترق الآذان، لتتحوّل هناك إلى ندب، ولتضيع من ثم في هدير متصاعد. تعالت الريح من جديد متحولة إلى عاصفة، تسوط هبّاتُها بقوة عبر بوابات القصر المفتوحة إلى أن وصلت إلى مجمر الفحم الهائل في القاعة الكبرى فتمكنت من النار وأججتها، واندفعت صافرةً فأشعلت الستائر وكل ما هو قابل للاشتعال. انتشرت ألسنة النار مثل لصوص طمّاعين، وأخذت تلحس كل ما تصادفه في طريقها، وتلتهم حتى خيوط الغبار في الزوايا المنسية وتؤجّجها. تغطّت سجادة الدم ببحرٍ من اللهيب المدمِّر ذي اللون البرتقالي المزرق. انتشرت حرارة لا توصف وأدخنة غشّت عينَي الرائية بنظراتها المتجمدة، فسالت دموعها وكادت تختنق من الحرارة.

أغمضت عينيها وتنشّقت الروائح. غيمةُ دخانِ قربانٍ مشويٍّ هائل الحجم – أهي مأدبة تقيمها بيليت إكاليم سيدة المدينة؟ لأي أرباب يا ترى؟ – ملأت أنفها: إنها الرائحة المميزة للشعر والقرون المحترقة. أجساد ميتة مغلفة بأردية جلدية يتصاعد منها البخار، ودروع برونزية منصهرة تبقبق في الدم الأرجواني الساخن. أثقل حواسَّها عطنُ روائح لحم بشري محروق ومشوي ومحمَّر.

عندما لم تعد كيا قادرة على احتمال ما رأته وشمّته وذاقته وأحسّت به، ولم يعد أمامها إلا أن تفقد وعيها، أدركت بجلاءٍ عاجزٍ عن أي فعل، أن القصر قد سقط.

«كيا، ما بك؟ كيا، أفيقي يا حبيبتي. أفيقي، كيا، استيقظي!». حاولت أمينابة يائسة إيقاظ كيا، التي كان جسمها كله يرتعد وكأنها مصابة بالبردية والحمى معاً. وأخيراً فتحت عينيها، وانهمرت دموعها على خدَّيها.

«أمينابة، الوضع مخيف جداً، يجب أن نهرب».

«يا حبيبتي، اهدئي قليلاً، نحن في أمان. كنت تحلمين، كيا!».

«الحلم نفسه»، همست «الحلم نفسه ثانية». وفجأة شبّت كيا في مكانها.

«ما بك؟».

«ألم واخز»، قالت كيا لاهثة «أشعر بحرارة شديدة بين فخذي. أمينابة، يا لشقائي!». وعادت لتسقط على ظهرها، ودموعها تسيل بلا انقطاع. نادت أمينابة إحدى الخادمات وأعطتها أوامرها. أخذت كيا بين ذراعيها وصارت تهمس لها بعض الكلمات لتواسيها، حتى دخلت شالا.

«لقد فقدت الطفل. فقدت طفل الربة!». قالت أمينابة وهي تنظر في وجه كبيرة الكاهنات ذي المسحة الجادة، وأردفت همساً: «ورأت ذاك الحلم نفسه!».

رفعت شالا يديها مبتهلة: «يا ربّتي لا تعاقبينا، يا سيدتي لا تتخلّي عنا!».

وبينما كيا مستلقية في سريرها فاقدة الشعور، كمن لا يدري بما يجري حوله، كانت الأيدي الماهرة تعتني بها، كي لا تأخذ الربة حياتها أيضاً.

احتدم النزاع في نفس شالا. كان واجبها يحتّم عليها كحدٍّ أدنى أن تُعلم الملك بالحلم النذير. غير أن فقدان العرس المقدس ثمرته المباركة، بقي من أسرار المعبد. ثمة فارق طبعاً بين أن يؤدي العرس إلى حملٍ أم لا؟ لو أن الملك إيداندا ما زال حياً، لأخبرته شالا. أما أكيزي؟ فحكمه قائم على كذبة، وهي قد مدَّت يدها له بمطلق حريتها، لمصلحة قطنا، حسبما ظنت حينذاك. أتراها أخطأت في تفسير رغبات الأرباب؟ هل ارتكبت خطيئة؟ ماذا أرادت الربة أن تخبرها؟ أم تراها تعاقب كيا؟ أحست شالا بنفسها وحيدة وعجوزاً. غير أنها ستكمل ما بدأته حتى النهاية، وستحمل مسؤولية ذلك في أي وقت كان. ولن تذهب إلى الملك.

استعادت كيا عافيتها بسرعة. بدت وكأن عبئاً قد رُفع عن كاهلها. فكرست قواها

الجديدة لخدمة الربة بلا هوادة، ولاستكمال تأهيلها المعرفي الواسع. عاودها مزاجها الرائق، فكانت ودودة مع الكل، حتى أنها تصالحت داخلياً مع أكيزي، وصارت قادرة على ممازحته دون ارتباك.

وهذا جعل أكيزي يستعين بمقولته: يا للنساء! لكنه فرح بعودة التفاهم بينهما. أكثرت كيا من زياراتها للقصر ومن لقاءاتها مع إهلي نيكالو. في موعد الانقلاب الشتائي أعلن القصر أن قرينة الملك حامل بطفلها الثاني. وفي الوقت نفسه تقريباً رُسمت كيا كاهنة. وانقضى عيد الأسلاف من دون وقوع حوادث لافتة. لم يكن الشتاء قد اشتد بعد، وكان كل شيء يأخذ مساره الطبيعي المعتاد.

**

على الرغم من أن الوقت شتاء، فقد انتشر بسرعة الريح وعبر كل البلدان خبر أن الفرعون أمينوفيس الثالث لم يعد بين الأحياء. ففي السنة الثامنة والثلاثين من حكمه اتخذ الملك العظيم، سيد مصر العليا والسفلى، حامل التاج المزدوج، حاكم البيت الأبيض والأحمر، الفرعون، اتخذ طريقه بالقارب إلى الحياة الأخرى حيث خلود الأرباب. وبينما تحولت أرض النيل من تربة سوداء إلى حقول مخضوضرة، جُهِّز جسم الملك، بمعرفة أيدي المحنّطين المهرة، للعالم الآخر. قبالة العاصمة طيبة، على ضفة النيل الغربية شيّد الملك في وسط مدينة الموتى معبد قبرٍ هائلاً، حيث سيوارى جثمانه هناك.

بعد سبعين يوماً، قبيل أعياد الربيع في قطنا وفي حتّوشا، تسلّم أمونحوتب زمام الحكم باسم أمينوفيس الرابع وتُوِّج في طيبة. قرينته كانت الملكة العظيمة نوفرِتيتي. لكن ملكة مصر بقيت تِيّه، الملكة الأم، أرملة أمينوفيس الثالث.

**

بدت السنوات التالية لكيا مثل تكرار دائم للشيء نفسه. كانت الأوضاع تمور في كل مكان، ولكن لم يحدث أي اختراق حاسم في أي مكان، ولم ينتج عنها أي شيء. وطدت حتّوشا سلطتها في آسيا الصغرى بقيادة شوبيلوليوما الحازم الحاسم الطموح، أما احتلال ميتاني وامتصاص شمالي سوريا معه، حسبما كان مخططاً، والذي كان سيؤدي بالضرورة إلى اصطدام قوات حتّوشا بقوات مصر، فلم يقع. كما لم يظهر أي أثر للسلاح الحتي

العجيب، الذي كثر التغنّي به. في كل ربيع كانت كيا تتوقع تحقق الإشارات في السنة الجديدة، وفي كل خريف كانت تحمد الأرباب وتشكرهم، كيفما كانت محاصيل السنة، ولبقاء كل شيء على حاله.

وعلى الصعيد الشخصي تحسنت أحوال كيا في وضعها الجديد، الذي وفّر لها سلاماً داخلياً، غطّى آلامها كحدٍّ أدنى، فبدت منشرحة. هل كانت تخدع نفسها والآخرين؟ هي نفسها لم تكن تدري. ولقد تبيّن أنها لم تحصل من الربة على منّة العرافة فحسب، بل إن يديها الشافيتين كانتا مباركتين أيضاً. غير أنها لم تعالج كل من كانوا يقصدونها بالحدس وحسب، بل كانت تمعن التفكير في احتمالات علاقات الأسباب بالنتائج، وتجرب، وتفرح في حال نجاح عمليات الشفاء. كلما أتاح لها وقت المعبد فرصة، كانت تمضيها في دار الشفاء. لكنها كانت تؤدي واجبها الرئيسي على خير ما يرام، بالوقوف إلى جانب شالا في مهام المعبد كافة، وغالباً بسرور وفرح. لقد تعلمت منها الكثير، وكانت معجبة بلا حدود بهذه المرأة الرائعة. لكن هذا لم يُنسِها قطّ عقلها، وهي لم تسمح لأحد، أياً يكن، أن يمنعها من التفكير.

لكن ما لم تلاحظه كيا، كان التغيرات التي طرأت على شكلها الخارجي. كانت رشيقة القوام، لكن حدود هيئتها باتت أنعم. فقد وجهها سماته الطفلية وصارت نظراتها أنضج. كان جمالها حديث الناس.

في أثناء ذلك لم تهدأ الاضطرابات في سوريا، ومحركها الرئيسي كان عبدي عشيرتا، ملك أمورو، وهذا ما لم يدهش أحداً في قطنا. بفضل يقظة المخبرين، كان القطنيون على معرفة دقيقة بلعبته المزدوجة. فالأسلوب الذي اتبعه في المبالغة في إظهار الولاء للفرعون الجديد أمينوفيس الرابع وللمندوب المصري على التوابع الشمالية، الذي يقيم على مرمى نظره في سومورا، كان أسلوباً في غاية الوقاحة. ففي الوقت نفسه كان يحرّض سراً في كل الزوايا، لدفع الإمارات السورية إلى الانفصال عن مصر، ويتابع مع شيوخ القبائل نصف البدوية في المنطقة، غاراتهم على القوافل، وأيضاً على بعض المدن المنعزلة، من دون أن يُعرف الرأس المدبر. كانت الحوادث تُعزى بصورة عامة إلى بدو البادية السورية. غير أن أكيزي في قطنا كان يعرف الحقيقة، ولكن من دون دليل ضد عبدي عشيرتا، على الرغم من خدمات مخبريه. أجابه أيتاكما ملك قادش، متجنّباً استفساره بهذا الشأن، مما دفع أكيزي إلى الظن بأنه شريك عبدي عشيرتا. وملوك الإمارات الشمالية كانوا دائمي التورط في

النزاعات بين ميتاني وحتوشا. أما الإمارات الجنوبية فكانت خاضعة لرقابة مشددة من قبل أمورو وقادش، بحيث لم توقع أية عقود معها.

بطريقة ما، بقيت سراً، تمكن أكيّا، رسول أكيزي، من الحصول على نسخة من آخر رسالة لملك أمورو إلى الفرعون. وعندما قرأها أكيزي ارتجف خجلاً وقرفاً من الرياء الفاحش:

«إلى الملك الشمس، سيدي،
أرسل رسالة، أنا عبدي عشيرتا، خادمك،
والوسَخُ تحت قدميك.
إني أرتمي عند قدمي الملك، سيدي،
وأركع سبع مرات فسبع مرات.
أنا خادم الملك وكلبٌ في داره،
أنا أحرس أمورو للملك سيدي»[٩].

وبهذا الأسلوب يتابع عبدي عشيرتا، كذبة تلو كذبة. وبعد مرور خمس سنوات على اعتلاء أكيزي العرش شعر كثيرون بالارتياح وبصورة تجلّ عن الوصف، عندما انتقل خبر موت عبدي عشيرتا عبر سوريا. أشيع إنه ابتلي بمرض ثقيل، فيما رجّح البعض أنه قُتل. أسرع ريب عدّي ملك جبيل بإعلام الفرعون الذي بقي صامتاً كعادته. أما الملك أكيزي فإنه لم يُعلم المجلس فحسب، بل شالا وكيا أيضاً، فظروف الموت، حسبما تناقلتها الألسن، ذكّرته بالموت المثير لأبيه الملك إيدانذا. وفي حال وجود تشابه، ألا يحتمل، أن عبدي عشيرتا ليس واحداً من القتلة، بل فقط تيرو وشيخ البدو الذي ما زال مجهولاً. ولكن من دون معلومات دقيقة، ليس في وسعهم سوى الحدس. كررت كيا تحذيراتها بأن من المحتمل أن يكون أكيزي الضحية القادمة. فعليه تكليف شخص بتذوق طعامه وشرابه مسبقاً.

لدهشة أكيزي أعلن عزيرا بن عبدي عشيرتا وخليفته، بسرعة لافتة، عن رغبته في زيارة قطنا. تحلّى القصر بالصبر، فهم لا يرون أن يجاهروا بصدِّه، بأي حال من الأحوال. لذلك اتخذت كل الإجراءات لاستقباله بصورة لائقة. كان ثخيناً بديناً، سريع التعرّق، وجهه مشوّه بندوب سببها مرض خبيث. إضافة إلى ذلك كانت تعوزه فتنة شخصية أبيه التي لاقت صدى بعيداً عند البدو وأنصاف البدو الأموريين. ولمّا كان غالباً عرضةً لإهانات أبيه وسخريته وشماتته، فقد أنتج الوضعُ نقيضه، كنوع من الانتقام، إذ أعلن تنصّله من جميع

أفاعيل أبيه، ماضياً ومستقبلاً. هذا ما قاله على الأقل. وقد أصغى أعضاء مجلس أعيان قطنا إلى كلامه باهتمام. فإن صح ذلك فسيحدث انزياح حاد في ميزان القوى في سوريا. وكان المهم في المقام الأول، أن طرق القوافل عبر أمورو ستصير آمنة، وكان هذا مطمئناً جداً لتجار قطنا. في ما عدا ذلك بقي التعامل معه مهذباً، وإنْ مشوباً بالريبة.

إضافة إلى أعيان قطنا وزوجاتهم، دعي إلى الاستقبال في القاعة الكبرى هيئة الكهنوت، وفي مقدمتها كبيرة كاهنات بيليت إكاليم وحاشيتها. التمس عزيرا أن تجلس كيا قبالته. ولاحظ الملك أكيزي والملكة بلتوم وإهلي نيكالو بنظرات خاطفة أن عزيرا كان يلتهم أميرة قطنا بعينيه، في حين أنها لم تمنّ عليه بنظرة. بعد أن شرب عزيرا عدّة أقداح من النبيذ المنكَّه، شرع يتغنى بجمال الأميرة، باذلاً جهداً في استحضار محفوظاته. وقد تمكنت كيا وشالا من تجنّب الاستمرار في الإصغاء إليه بالانسحاب، متذرعتين بضرورة تحضير مراسم الغد. بدا الغرض الرئيسي من الزيارة جلياً، فقد أراد عزيرا أن يطلب كيا للزواج. وتساءل أكيزي في نفسه، عما إذا كان عزيرا مقدماً على الخطوبة بمطلق إرادته، أم بإيحاء سابق من أبيه وتيرو. وتنهد خفيةً مفكراً بالوضع الحرج القادم، فهو لم ينس موقف كيا من عزيرا.

«وددتُ أن أعرف يا بني، لماذا لا تعطيه إياها؟ هذه الزيجة حل رائع ومفيد للجميع. لا أظنك تخاف مواجهة شيطانتك الصغيرة؟».

«قصدكِ أنك بهذا تتخلّصين من كيا نهائياً، أليس كذلك يا أمي؟».

زمّت الملكة بلتوم شفتيها كاظمة الإهانة، ثم قالت: «ما بالك تخاطبني بهذه الطريقة؟ هذا لا يليق. تزويج الأميرات أمر عادي مألوف. مئات الأحلاف تُعقد بهذه الطريقة. ثم إنهما ملائمان جداً واحدهما للآخر. كلاهما تجاوز العشرين وسيشكّلان زوجاً جميلاً!».

هكذا كانت الملكة بلتوم. وأكيزي بدأ يفهم تدريجياً أسباب حنق أبيه المتكرر على زوجته، وعودته للصفح عنها مجدداً.

«فكّر بالمحور الذي سينتج من هذه الزيجة!».

«إنه لا أكثر من راعي غنم مترف، بدين وقبيح. ومن يدري أنه لا يضمر شراً مثل أبيه. نواياه تجاه قطنا ليست سليمة».

«أكيزي! ما هذا الهراء الذي تتلفظ به!؟ ما الذي يجعلك تفتري على عبدي عشيرتا وعزيرا؟!». قالت الملكة ذلك بغضب فعليّ.

«بل بالعكس! أنا من يجب أن يسألك عن جهلك بأعمال الأب المشينة. مؤكّد أن زوجك، أبي قد حذرك منه، أليس كذلك؟».

«كانت هذه مجرد تهيّؤات. كان يهجس بفكرة أن عبدي عشيرتنا هو مدبّر الغارات على القوافل. لكن تيرو كان يؤكد لي دائماً أن هذه الاتهامات المغرضة لا أساس لها من الصحة».

«تحدثتِ في الأمر مع تيرو؟».

«مراراً. لا أظنك ستعترض على تبادلي الحديث مع أخي! إنك تخيّب أملي فيك. لقد دعمتك دائماً وأبداً. ماذا عندك ضد تيرو؟ مؤخراً فقط شكا لي مجدداً سلوكك غير اللائق تجاهه، علماً بأنه لا يريد لك سوى الخير. وكان دائماً يناصر إيداندا ويساعده ما أمكن. لكن أباك كانت له أفكاره الخاصة، وفوق ذلك اتصل بأولئك الحثّيين. وتيرو كان منزعجاً جداً من ذلك».

«أبي أسرّ لتيرو بهذه المسألة؟».

«طبعاً لا. قبل موته بقليل كان أبوك شديد التكتم في أموره، بدلاً من أن ينصت إلى مَن يريد نصحه وخيره. ثم جاءت قضية كيا والمصري، فصار مثل ذكر الحمام العاشق، ولابنته بالذات! ما هذا السلوك؟ لقد خلبت عقله منذ ولادتها. ففي نهاية المطاف هي المذنبة في أنه أراد بيعنا لشوبيلوليوما. لقد تشاورت مع تيرو في هذه المسألة، عما يمكن فعله، لكننا تأخرنا جداً. كان الرسول قد سافر».

كاد أكيزي ألا يصدق أذنيه، وتبدّى الانزعاج جلياً على وجهه. لماذا لم يخطر في بال أبيه أن يتكتم على مراده أمام بلتوم؟ ففي حاجتها إلى الثرثرة النسائية بوسعها أن تبوح بكل ما عندها، فلا تبقي لنفسها شيئاً!

«إذاً، تيرو يعرف كل شيء منك! كيف لم يخطر لي ذلك!؟ لكني ما كنت لأصدق أنك قد تسلمين أبي إلى حد السكين! أمي، يبدو أنك لا تدركين أبداً ما فعلتِ! إن جهلك الظاهر هو فقط ما يشفع لخيانتك المستمرة ويعفيك من العقاب الذي أصابك جزء منه!».

نظرت الملكة إلى ابنها مستغربة ومهانة، وقالت: «ما هذه الألغاز الآن؟!».

«وأية أسرار أخرى أفشيتها لتيرو أيضاً؟ لوائح الشحن؟ المراسلات المهمّة؟».

«أكيزي! إنه أخي، وهو موالٍ لنا كلياً!».

«لا، إنه ليس موالياً مطلقاً. اذهبي الآن يا أمي، لا أريد أن أقول المزيد في هذا

الموضوع. لكني أمنعك، بصفتي ملك قطنا وكاهنها الأكبر، من أن تذكري كلمة واحدة عن هذا الحوار أمام تيرو، أو أي شخص آخر، وألحُّ على ذلك. أقول لك ذلك حبّاً. أقسمي على ذلك بالربة حامية مدينتنا!».

**

«إنها أمي»، قال أكيزي يائساً، «إنها مسؤولة عن مقتله، على الأقل بتسريب المعلومات، بحيث بات أسهل على القاتل أو القتلة أن ينفذوا جريمتهم. لا أريد التخفيف من نصيب أبي نفسه في المسؤولية، ولكن يحتمل أن الاتفاق مع الحثّيين كان بطريقة ما ممكناً. لهذا السبب، موت أبي لم يكن ضرورياً».

«تدريجياً تكتمل الصورة»، قالت كيا «أجد من السهل تحمّل ما لم يعد من الممكن تغييره، عندما يعرف الإنسان كيف حدث ولماذا!».

«هل توصّلت إلى شيء؟».

«ليس مباشرة. لكني متأكدة من أن عزيرا كان يريد إخباري بشيء في هذا الموضوع. لمّح عدّة مرات إلى أنه على علم ببعض ما جرى في قطنا، وما يجري الآن، مما لا نعرف عنه شيئاً، وسترعبنا معرفة الأمور بدقة. بهذا الأسلوب تكلم!».

«ربما يريد أن ينأى بنفسه حقاً عن أفعال أبيه».

«هذا ما سيكشفه لنا المستقبل. أما الآن فاهتمامه الرئيسي هو أن أبلع الطعم، ليسهل علي أن أصبح زوجته».

«ما أظنك قبلت عرضه؟». ونظر إليها أكيزي مضطرباً.

«لا، ليس بهذا التعبير الصريح. لم أرفضه قطعياً. ماذا كنت لتفعل في موقفي؟ أليس مفهوماً أني أريد أن أعرف ما حدث؟».

«وماذا قال؟».

هزت كيا كتفيها، ثم قالت: «لم يذكر شيئاً مما أملته». سَخرت باحتقار وأخذت تقلّد بإتقان صوت عزيرا الأنفي: «لا، لا يا حمامتي الصغيرة! الأمر مقايضة، وأحدة لقاء واحدة. صيري زوجتي أولاً. وحالياً يكفيك أن تعرفي بأنها ستكون صفقة رابحة إذا تحالفت قطنا مع أمورو. ولم أتمكن من معرفة المزيد».

«هذا المتبجّح المقرف. وكيف ستسير الأمور؟».

«اشترطت عليه مهلة تفكير».

«طولها؟».

«سنة».

«ووافق، رغم كونك كاهنة؟».

أومأت كيا برأسها إيجاباً وقالت: «أمامنا سنة من الوقت لنعرف ما يمكنه إخبارنا به. أكيزي، فكر: إذا نطق بالحقيقة علناً أمام العالم كله، سيكون بإمكاننا أخيراً أن نتحرك. سيكون بإمكاننا تقديم قتلة والدنا للحساب، دون أن يمسّك من ذلك سوء. يجب أن ننجح خلال هذه المهلة في جعله يتكلم أمام شهود. في الوقت نفسه علينا، رغم ذلك، التفكير بحجّة تحول دون زواجه بي. لأني لن أتزوجه، وآمل أن يكون هذا واضحاً لك. حتى ولو كان هذا الزواج ملائماً جداً لكثيرين في قطنا، كالملكة الأم مثلاً».

«لا تذهبي بعيداً في لعبتك معه، ولتتوصل أخيراً فقط إلى ما نعرفه مسبقاً. لا يسعني إلا أن أحذرك من ذلك. تعرفين حق المعرفة أني أريد حمايتك، أما إنْ أساتِ إلى سمعتك، فستكون يداي مقيّدتين».

«أنت لا تنوي الانتقام لأبينا أبداً. بل تريد الاستمتاع هنا بسلطتك، وأنا عائق في طريقك. لقد فهمت».

«كيا، أنتِ تبالغين بلا حدود. لقد أقسمتُ على ألا أدعك تسقطين!».

«إذاً، وفر على نفسك تحذيراتك الفاترة. أنا على الأقل أفعل شيئاً».

«بلعبك بالنار! ماذا قد يكون السبب مثلاً، لإنقاذك سليمةً من الأذى بعد سنة؟».

«مثلاً، لوقوع غارات جديدة على قوافلنا، ومدبّرها هو عزيرا، أو لزواجه بامرأة أخرى، فهو لم يخطبني رسمياً، أليس كذلك؟».

«لا. أرجّح أنه كان يريد. لكنه ليس غبياً لدرجة أن يحفر بنفسه حفرة قد يقع فيها».

**

بموت عبدي عشيرتا ملك أمورو، لم تدبّ الحركة فقط في الإمارات الواقعة على حدود قطنا جنوباً، بل شمالاً أيضاً. فبعد أن ارتحل كبير مناصري سوريا المستقلة إلى

أسلافه مباشرة، حاول ملكا إمارتي موكيش ونوحاشّة توحيد بلديهما في وجه حتّوشا المتمددة ببطء واستمرار.

كان ملك أوغاريت قد مات قبل خمس سنوات وخلفه على العرش ابنه نيقمادّو الثاني. وفي عهده كان اهتمام أوغاريت، مثل قطنا، مركّزاً على التجارة، البحرية خاصة. ولتأمين ازدهارها دون عراقيل، اعتمد ملوك أوغاريت آنذاك على حماية مصر. وكان هذا الخيار ذكياً، إذ إن مصر بعد انتهاء النزاعات مع ميتاني، قد كافأتهم باتفاقية اتحاد، كسبت منها أوغاريت كثيراً. فالتجارة البرية والبحرية إلى مصر، وإلى ألاشيا (قبرص) وإلى موانئ أبعد غرباً، كانت تنظّم انطلاقاً من أوغاريت، التي كانت تتقاضى رسوماً سخية من الجهات كافة. خلافة العرش في مصر وفي أوغاريت وقعت في أوقات متقاربة. وسرعان ما تبيّن أن وليّ العهد ذاك الذي زار أوغاريت وأقام فيها مدة طويلة لم يعد، بصفته فرعوناً، يبالي كثيراً بالعلاقات مع الأقاليم الشمالية. حتى أنه أبرم معاهدة صداقة مع شوپيلوليوما الحثي. ولمّا علم نيقمادّو بالأمر عن طريق مخبريه، عرف أن الساعة قد حانت. كان رد فعله، مثل الملك إيداندا، البحث عن صلات ودية على الأقل مع حتّوشا، مركّزاً في المقام الأول على العلاقات التجارية. لكنه بذلك عزل نفسه في شمالي سوريا. حاول جيرانه ما أمكنهم ذلك النأي عن ميتاني، لكنهم رفضوا عقد تحالف مع حتّوشا. وبذلوا جهدهم في البداية لإقناع نيقمادو بالانضمام إليهم. وعندما لم يثمر ذلك، استغلوا الاضطرابات الناتجة عن موت عبدي عشيرتا، وغزوا أوغاريت ونهبوها، ليجبروها بهذه الطريقة على الانضمام إلى حلف مناهض للحثيين. على نقيض مصر التي صمتت بإصرار حيال جميع طلبات النجدة، استجاب شوپيلوليوما لطلب أوغاريت الحماية، وأرسل قواته فوراً. وأخيراً حصلت حتّوشا على رأس الجسر المنشود طويلاً في شمالي سوريا. ودعمت جهودها المبذولة لضمّ قطنا، عقدة الطرق التجارية المهمّة الثانية، وجعلها تحت رقابتها. لكن الملك أكيزي رفض، على الرغم من جميع محاولات صديقه تانوا لكسبه بأسلوب سلمي.

خلال هذه السنوات التقت كيا بتانوا بصورة شبه منتظمة، فتمكنت من متابعة تطوره خطوة بخطوة. أثناء أدائه مهامه الدبلوماسية، التي كانت تقوده إلى شمالي سوريا وإلى جنوبي الساحل السوري، وحتى إلى مصر، كان يتوقف في قطنا كلما سنحت له الفرصة. وكان غالباً على الطريق لتنفيذ مهام ملكية، وبرفقته كاتبان خصصا له. خارجياً لم يتغير

كثيراً، سوى أن بنيته قد صارت أكثر رجولة، كما بقي في جوهره على ما كان عليه: صادقاً، ذكياً، إيثارياً ومستعداً لتقديم المساعدة. ولكن أحياناً كانت تلاحظ كيا على وجهه مسحة حزن تمسها على نحو غريب، وعند ذلك تشعر بشيء ما يقف بينهما، ولم ترغب كيا في تحديده، لكنه غالباً ما يغيب قبل أن تسنح الفرصة لطرح أسئلة.

كانت كيا تقدّر حدة ذكائه ودقة ملاحظته وآرائه المتّزنة، وتشارك بحيوية في مغامرات رحلاته التي أوصلته إلى جميع أطراف العالم المعروف. وكم كانت تحسده! كان كل شيء يثير اهتمامها، حقاً كل شيء. ومن باب المزاح أثناء محادثاتهما كانا يتنقلان بين اللغات. فحتى بالمصرية بات تانوا ملمّاً بصورة لا بأس بها. وأخذت كيا تساعده فيها وتصحّح لفظه وتعلّمه مفردات جديدة. وكان طريفاً أن تقوم بدور المعلم. أما هو فكان متقدماً عليها بلغة بلدان بحر إيجة، لغة دونير ومينوس. وعندما يلتقون معاً، كان الثلاثة يتمازحون بالإيجية ويتسلّون، وهي لا تفهم شيئاً. فكان هذا يغيظها من تانوا، وكذلك دأبه على مديح معلمته: «الملكة هتي قالت، الملكة هتي رأت، الملكة هتي فكّرت بأن..»، فأجابته مرّة وبحدّة: «لا بدّ أن تكون امرأة رائعة ملكتك هذه!».

وكانا غالباً ما يتجادلان، جدّاً ومزحاً طبعاً. لكن كيا كانت تحترم تانوا جداً وتعجب بقدراته المتعددة وبجهده الدائب، بحيث لم تعد تشير أبداً إلى أصله، ورمت عن نفسها أي تكبّر تجاهه. وكثيراً ما كانت تفكر في تصوره بإمكانية تعايش البلاد معاً دون حروب، إذا تنازل كل بلد قليلاً في موقفه. حقاً، لماذا لا؟ لماذا يندفع الرجال مباشرة إلى السلاح؟ ثم تفكر بطبعها المشاكس وتأمل ببعض التحسن. كان تانوا يرى أن هذا أمر مختلف تماماً، إذ يجب على الناس أن يتجادلوا بالكلام، كي يتوصلوا إلى إيضاح الأمور المطروحة، وهو يجيد ذلك معها تحديداً أكثر من أي شخص أخر في الدنيا كلها. وهذا منتهى الدبلوماسية.

طوال تلك السنوات لم يعد تانوا يذكر أمامها أي شيء عن حبه، لكنها كانت تشعر بميله الشديد نحوها. وسألته ذات مرة، لماذا لم يأت أمامها على ذكر فتاة أو لماذا لم يتزوج؟ لم يجبها بشيء، لكن نظرته وشت بأن مشاعره تجاهها لم تتغير. وهكذا تجنّبت هي أيضاً هذا الموضوع.

لم يتطرقا قط في أحاديثهما إلى الفرعون أمينوفيس بصورة مباشرة. ولكن في حال عودة تانوا من رحلة إلى مصر ومروره بقطنا، يكون فضولها كبيراً لمعرفة كل شيء بالتفصيل، ثم تصمت في حيرة شديدة. لقد لاحظت، بألم، أنها ما زالت تحب أمينوفيس وتكرهه بالشدة

نفسها، سنة بعد سنة، مع أن الأمر لم يعد يؤثر في حياتها اليومية. وكانت تعرف أن تانوا يعرف ذلك. وقد اعترفت لأمينابة مدهوشة بأنها في كل مرة يغادر تانوا قطنا تشعر بحزن عميق وبيقين عميق أيضاً بأنه سيعود. كانت تشعر بارتياح وانشراح أثناء وجوده. أما أمينابة فكانت تفسر الأمر بطريقتها. وقد وجهت إلى الربة صلوات لا تحصى لتجمع بين هذين الإنسانين اللذين من الجليّ أنهما ينتميان واحدهما للآخر، لكن الربة لم تستجب.

عندما أخبرت كيا تانوا عن عزيرا، أحس أن قلبه كاد يتوقف. كيف تجازف بهذه الطريقة؟ وكونها لم ترفض طلب عزيرا فوراً، بل استمهلته مدة للتفكير، كان ضربة صائبة.

«لم أفعل هذا إلا لأستوضح الأمر وأثبت إدانة القتلة!».

«أليس الثمن باهظاً؟ ماذا ستقولين له عندما يعود؟».

«أن عليه إخباري أخيراً، بما كان حتى الآن يلمّح إليه تلميحاً».

«ما أظنه سيفعل ذلك إلا بعد أن تعطيه يدك للزواج».

«لقد أخطأت. الآن أدرك ذلك».

«قد يوجد حل في الوقت المناسب»، حاول تانوا مواساتها.

«على كل حال أنا لن أتزوجه أبداً!». قالت بصوت خافت ومؤكد «سأنتحر قبل ذلك!».

وبما أن تانوا قد صدّق قولها، في جانبيه، تبدّى القلق في تجاعيد جبينه.

في أثناء هذه السنة أرسل عزيرا باستمرار هدايا لكيا، التي كانت تحولها دون أن تلقي نظرة عليها، إلى الخزانة الملكية. لكنه لم يقدم لها شيئاً من معرفته المزعومة. لعنت كيا لحظة سذاجتها تلك واندفاعها الأعمى. كم كان من السهل الاحتماء بكونها كاهنة. والآن ضاقت بها السبل، فالسنة تتقدم وعزيرا لم يرتكب أي غلطة تبرر رفض طلبه من دون خزي. وكان لا بدّ حتماً من تجنّب أي تعكير للأجواء بين قطنا وأمورو. كانت كيا تعرف حق المعرفة أن رابط الزواج بين العائلتين الملكيتين من منظور سياسي، سيكون حلاً رائعاً. كل الرجاء معقود على أن يحافظ أكيزي على وعده. إذا أمرها بالزواج لأن المجلس قد قرر ذلك، فلن يمكن حتى لشالا أن تحميها. كم كانت مجنونة. مع كل يوم جديد كان عذابها يزداد. أن تضطر لربط حياتها بعزيرا، يا له من تصور مرعب. يستحيل!

وأخبار مصر التي كانت تحصل عليها من تانوا عادة، ومن المراسلين والمخبرين القطنيين إضافة إلى ذلك، لم تكن تجلب الهدوء إلى نفسها، بل بالعكس. ففي السنة

الأولى من حكمه أنجبت له نوفرتيتي ابنة، باسم مِريت أتون، محبوبة الرب أتون. وأخبرها الكشافون أن الفرعون يحتفل بحياته العائليّة الخاصة في قصر طيبة وكأنها شأن من شؤون الدولة العلنية، على الأرجح بتأثير زوجته نوفرتيتي، وبطريقة لا سابقة لها. فعلى الجميع أن يشاركوا في هذه السعادة العائليّة، شهوداً عند لبس الثياب، وعند تناول الطعام، وأثناء القداسات وعند دخول الحمامات وتسريح الشعر، وحتى أثناء الجلسات الخاصة. وقد خمنت كيا بأن هذه مبالغات لا شك، ولكن لا بدّ أن هذه الأوصاف تنطوي على ذرة من الحقيقة.

صحيح أن الأرباب القدامى ما زالوا يُعبدون، ولكن بعد ولادة ابنته الثانية مَكيت أتون فاجأ الفرعون رعيته برب جديد: آتون. وحسبما تعرف كيا من أمونحوتب نفسه، هذا الرب موجود من زمن بعيد. ولكن حسبما يقدمه أمينوفيس الرابع الآن لبلاده، فإنه يبدو رباً جديداً. وصارت عبادته لازمة باعتباره رب الأرباب. في السنة التالية بُدِئ بتشييد معبد ضخم لآتون في طيبة، فجن جنون كهنة أمون الراسخين في عبادته.

وصحيح أن الملكة الأم تِيّه قد دعمت الفرعون، لكنها كانت تراقب بقلق صفة الوحدانية التي بات الفرعون يسبغها على ربه بصورة متنامية وعلناً. ولا سيّما بعد أن أمر ببناء معابد له في جميع أنحاء البلاد ودشنها أمكنة مقدسة. وبسبب انزعاجه من المقاومة المتصاعدة في طيبة، أمر ببناء عاصمة جديدة له على ضفة النيل الشرقية، في منتصف الطريق إلى ممفيس، خطط هندسة عمارتها في الصحراء وافتتحها رسمياً بوضع حجر الأساس لها. وكتب اسمها عليه بحروف الكتابة الجديدة التي ابتكرها بنفسه، وفرض استخدامها فوراً دون سواها. وأطلق على عاصمته اسم آخِت آتون، أي: أفق آتون.

ما إن ولدت ابنته الثالثة أنخ سَنْبا آتون حتى كان طاقم موظفي الدولة بكامله قد استُبدل، وعلى نحو مفاجئ، إذْ اختفى جميع مناهضي الفرعون. تنامى الاستياء في صفوف الشعب. ثم حدث ما لم يسبق أن حدث قط. بدَّل الفرعون اسمه، وحتى اسم ولادته! صار اسمه إخناتون، أي: أشعة آتون.

وفي سنة موت عبدي عشيرتا وولادة نوفرتيتي ابنتها الرابعة نِفرنِفرو – آتون – تَشِريت، انتقل البلاط من طيبة إلى آخِت آتون، وأقسم إخناتون ألا يغادرها مطلقاً.

بين ولادة الابنة الخامسة نِفرنِفرو – ري والابنة السادسة سِتِپِن – ري حدث مالا تُحمد عقباه، إذ انقسمت مصر قسمين: قسم مندهش ساخط، وقسم مستنكر معارض؛ فقد أمر

إخناتون بإغلاق جميع معابد الأرباب الآخرين وتدميرها. ومنذ تلك اللحظة لا يُعبد في مصر سوى آتون، النور، الذي تجلى لكاهنه الأعلى إخناتون ولكاهنته العليا نوفِرتيتي.

جمعت كيا كل هذه المعلومات التي وصلتها عبر السنين ودارتها في قلبها. لقد حقق إخناتون خطته، التي عرضها أمامها في قطنا آنذاك. ونفّذ مراده بأن جعل ربّه المعبود الوحيد الأوحد، وبنى له معابد ومدينة. لكنه حقق هذا كله مع امرأة أخرى إلى جانبه، في حين أن هذه كلها كانت تصوراتهما معاً! لقد وقف في وجه شعبه كله من أجل الرب، وليس من أجلها! لقد نسيها! لا، إنه لم ينسها، لكنها لا تعني له شيئاً، لا شيء، لا شيء! لقد مر وقت طويل على عودة العلاقات إلى طبيعتها بين قطنا ومصر، ولو كان هناك أي خبر لها من مصر لكان قد وصل. ولكن من هناك كانت تصل للملك أكيزي وللملكة الأم ولزوجته وإخوته وأخته وجميع الأقارب أطيب التحيات. طبعاً كان هناك كتّاب يدونون الرسائل، وعلى اطّلاع دقيق على الأوضاع العائليّة في قطنا، وهذا كان واضحاً لها تماماً، ومع ذلك كانت تشعر كل مرة بالإهانة: إنها لا أكثر من فرد في عائلة أكيزي الكبيرة.

أحياناً كانت تشعر بالفخر لمثابرته وكفاحه في سبيل أهدافه. يحتمل أن لا أهمّية بالنسبة إليه، مع أي امرأة إلى جانبه يسير. عندئذٍ تكون نوفرِتيتي قابلة للتبديل! ولكن ما مبرر استعراض حياة العائلة الجميلة والمحبة، بهذا الشكل؟ ست بنات! إذاً، هو يحبها. ولكن يحتمل أن ينجب المرء أطفالاً كثيرين، حتى من دون أن يكون الحب متبادلاً. إهلي نيكالو تنتظر طفلها الرابع، فهل ما بينهما يسمى حباً؟

هل أحبها إخناتون، حسبما يسمي نفسه الآن، في أي وقت من الأوقات؟ لماذا أيتها الربة لا تنتهي هذه الأسئلة الأبدية؟ لماذا لم تستطع نسيانه؟ ألأنه صاحب رؤى؟ أم لأنه أراها مدخلاً جديداً إلى العالم؟ أم لأنها ما زالت تحس بلمساته حتى الآن؟ كم تود أن تلقاه ثانية، ولو مرة واحدة في حياتها. تريد أن ترى في عينيه، كيف يفكر بالشخص الماثل أمامه، كيف يسترجع ذكرى قصة عابرة في حياته، كيف تبدأ عيناه بالإشراق.. أحلام، أحلام.

أما الواقع فكان اسمه عزيرا، وهو موجود في أمورو. وقد تبادل الرسائل مع أكيزي بشأن تصوراته عن موكب العروس من قطنا إلى عاصمته إرقاتا، وعدد المرافقين اللازم، وكذلك حول خطوات عملية الزواج. فتطرق من جانب إلى مسألة هدايا العروس، ومن جانب آخر إلى جهازها.

«ما زال الوضع على حاله، لا يتحلحل»، اعترفت كيا لتانوا، الذي كان عابراً مرة أخرى، فتوقف كعادته دائماً عندها في بيت الربة، وجلسا في حديقة القصر الرائعة مستمتعين بالظلال المنعشة.

«لم يصلنا أي خبر هذه السنة عن غارة على قافلة ونهبها. ليس ثمة ما يؤخذ على عزيرا. ماذا يُفترض بي أن أفعل، تانوا؟ لا يمكنني طبعاً أن أهرب. وأكاد أموت لمجرد التفكير باحتمال أن يمسّني. كم كنت غبية! كانت تستحوذ عليّ حينذاك فكرة كشف ظروف موت أبي وعقاب القتلة. عدا تلميحاته القديمة لم ينبس عزيرا ببنت شفة. ويبدو حسب تقدير أكيزي منذئذ، أنه لا يعرف شيئاً».

وأكيزي الذي انضم إليهما في الحديقة، هز كتفيه حائراً وقال: «لقد حذّرتها، صدّقني! لكنها كانت قد أعطته كلمتها المشؤومة، دون أن تسألني. والآن، إذا طلبها عزيرا للزواج رسمياً، فإني لا أمتلك أية حجة أمامه ولا أمام المجلس لرفض طلبه. فهي ليست أول ولا آخر كاهنة تتزوج!».

«لكنك وعدتني باحترام وضعي بصفتي كاهنة!».

«لكنني لا أقدر على ذلك، إلا إذا تصرفت بما تمليه عليك صفتك! ماذا جرى لك؟ يا لك من إوزة بلهاء ومغرورة أيضاً!». صاح بها أكيزي.

عاجزاً تابع تانوا شجار الإخوة. بالنسبة إليه ستضيع كيا بمجرد أن تصبح ملكة في أمورو - أين أنتم يا أرباب حتّوشا القادرين؟! حتى في هذا الظرف، إنقاذاً لها من مأزقها، لن يتمكن من التقدم لخطبتها، وفقط لأنه ليس من مرتبتها الاجتماعية. ماذا بوسعه أن يقدم لها؟ هو الكاتب ابن التاجر. كوّر قبضتيه حنقاً. ما دامت كيا مقيمة في قطنا، فسيكون التقاؤهما على الأقل ممكناً. ومهما أمعن في التفكير، لم يخطر في باله أي حل. مهلة السنة المتفق عليها ستنتهي قريباً. وحتى كيا نفسها كانت مدركة أنها عندئذ ستلتحق بعريزا في أمورو. وهذا سيؤدي إلى تعقيدات جديدة مع مصر، لأن لعبة عزيرا المزدوجة لن تبقى خافية طويلاً. وانتقام إخناتون سيكون مزدوجاً في رعبه. وإنْ رفضت عزيرا زوجاً، فسيورّط هذا قطنا وملكها في وضع مخيف داخل سوريا. مهما كانت زاوية النظر إلى الوضع، فإن كلمات كيا المتهورة ستدمر حياتها، وحياة تانوا كذلك. كانت لحظة مغادرته المدينة أسوأ وداع ممكن. ترى هل سيلتقيان ثانية؟

كيا، الإنسان الذي يحبه أكثر من نفسه، تركه وراءه في مأزق لا مخرج منه. لم يقدر

على مساعدتها ولا على تغيير شيء. فكر في اختطافها،في أن ينتحرا معاً. ولكن كان عليه أن يدرك، مثل كيا قبله، أنهما بالغين راشدين يحملان مسؤولية، لا يجوز التملص منها، لأسباب أنانية. ومع ذلك فقد كره نفسه لتفكيره العقلاني. فأي نوع من الحب هذا؟ ألم يقسم على مساعدة كيا دائماً عندما تكون في شدة؟ لكن ها هي ذي الآن تستدعي الشدة، بمطلق إرادتها، لتقع فيها، ولا حول لأحدٍ تجاه ذلك.

غير أنه كان مخطئاً.

فمن سوى الأرباب الرحماء سيهديه إلى طريق إنقاذ كيا من مأزقها الخطير! نادراً ما كان تانوا، على طريق عودته، يتوقف في إمارات شمالي سوريا المتعددة. أما هذه المرة فقد قام بزيارات للعائلات الملكية هناك. لم يكن على عجل للعودة إلى حتّوشا، وقد شغله قلقه على مصير كيا. وكالعادة المتبعة في حال زيارة ضيف رفيع المقام، مثل تانوا، السفير الحتّي، كانت تقام له مأدبة احتفالية تتخللها أحاديث شتى. وفي هذا السياق ورد ذكر الإمارات الجنوبية، وخاصة أمورو. وما بقي من شأنها خافياً في قطنا، أضحك ملوك إمارات الشمال حتى سالت دموعهم.. ولم يدر أكيزي لاحقاً، ولا تانوا تفسيراً لذلك. فبعد وفاة أبيه بمدة قصيرة، قام الملك عزيرا بزيارات عديدة لمختلف العائلات الملكية في الإمارات السورية، ولكن غالباً ليس بشخصه الكريم، بل عن طريق مندوبه. وعلى خلاف ما جرى في قطنا، تقدم مندوبه في تونيپ ونيّا وحلبا وموكيش وعدد من ممالك المدن بخطبة أميرة من كل عائلة رسمياً، مع الوعد بجعلها ملكة. كان محتملاً أن لا تنفضح الحكاية. لكن عزيرا، لغبائه، أرسل مندوباً واحداً للجولة كلها. ولدى سؤاله من أين هو قادم وإلى أين سيذهب، زلّ لسانه عدّة مرات. وبعد عدّة أقداح من الجعة أو النبيذ انطلق لسانه وثرثر، فبات سهلاً إعادة رسم محطات رحلته، من أميرة مختارة إلى أخرى. فوضع تانوا لائحة ترتيب زيارات المندوب وزيارات الملك بنفسه، فتوصل بنتيجتها إلى حريمٍ محترمٍ لا مثيل له في منطقة الساحل السوري كلها، كان موضع تندّر ملوكي كمخطط باهر، طمح به عزيرا إلى التفوق حتى على فرعون، فبات مسخرة الجميع. وهكذا يُحتمل ألا يحصل على أية زوجة.

أما تانوا فقد توجه من أعماق قلبه بالشكر إلى الأقدار التي تلطفت به، وتمنى لعزيرا، من دون أي تحفظات، زوجة مخلصة تسعده، على ألا تشمل هذه الأمنية كيا. وأرسل من أوغاريت كاتبه نانيتزي إلى قطنا بسرعة، حاملاً إليها رسالة الخلاص. حسب استقصاءاته تأتي كيا في مخطط عزيرا، في المرتبة الرابعة.. أيُّ وقاحة هذه! أميرة قطنا كزوجة ثانوية

ثالثة؟ أم أراد لهن عزيرا أن يسحبن القرعة؟ وهل عليهن اللعب بالنرد للفوز بمقام الزوجة الرئيسية؟ يبقى هذا مشكلة عزيرا الخاصة به، بعيداً عن أميرة قطنا! انطلاقاً من الوضع القائم تمكن كلا الجانبين من حفظ مياه وجهه. أما مصدر تمويل الهدايا الكثيرة لكل تلك الأميرات، فلم يستدعِ كثيراً من التخمين، من جانب تانوا ولا أكيزي.

كيا لم تسعها الدنيا من السعادة، فقد انزاحت صخرة عن قلبها. وعدت الربة بأضاحٍ إضافية على مدار سنة كاملة، لأنها شملتها برحمتها. ووعدت بتقديم أضاحٍ أخرى من أجل صديقها الطيب تانوا كي تشمله يد الربة بحمايتها.

**

مضت سنوات وتانوا في حالة سفر دائم. وفي حتّوشا بقي الهدف الأعلى احتلال ميتاني وضمها إلى مملكة حتّوشا. وبمرور السنين ازداد ارتباط تانوا بالتحضيرات ذات الصبغة الدبلوماسية التي يُفترض أن تؤدي إلى عزل ميتاني كلياً. وكانت حتّوشا تهاجم ميتاني سنوياً. وفي النهاية تركزت هذه الجهود الدبلوماسية في يده. فصار بذلك أحد أقرب مستشاري الملك على هذا الصعيد. وكان الملك يعبّر عن تقديره له بهدايا سخية. وخلال هذه المدة امتلك تانوا قطعة أرض يشتغل فيها فلاحون وعبيد. كما خُصّصت له في القصر مساحة من عدّة غرف تليق برئيس الكتبة.

إضافة إلى ابني الملك: أرنوواندا، وتِليبينو، وخاله هنوتي، كان تانوا واحداً من مجموعة صغيرة طوَّرت خطة لتحقيق أهداف حتّوشا تستغرق عدّة سنوات. عُرضت الخطة على الملك ومجلس الأعيان للاستشارة. وبحسبها يتعيّن ضفر الجهود كلها لحل مشكلات الجنوب الشرقي، ما دامت الأوضاع في الشمال والغرب هادئة. وكانوا في حتّوشا يأملون، عن طريق الوسائل الدبلوماسية، بكسب مصر بصورة دائمة، وكذلك أوغاريت وقطنا في شمالي سوريا، كقاعدتين وراء الجبهة. وكانت آشور شريكاً مفترضاً في العمليات العسكرية، فالبلد كانت تمور وتغلي بعد الاستقلال الدائم عن ميتاني، كما أنها كانت تقع خارج منطقة اهتمام حتّوشا، فكان من السهل على شوبيلوليوما أن يعدها بالسيادة الكاملة، في حال تحقيقها ما ينص عليه الاتفاق.

كُلِّف تانوا بمهمّة كبير سفراء حتّوشا في ما يتعلق بمصر وأوغاريت وقطنا وبقية إمارات الساحل السوري. وكلّف رجل يدعى پامبا بالمهمّة نفسها في ما يتعلق ببلدان إشووا وآشور وبابل. وعلى كاهليهما معاً حملا مسؤوليات جساماً.

كان تانوا يعرف أنه في زيارته الأولى لمصر، بمهمته الجديدة، سيجد أمامه عدداً من نقاط الوصل لمتابعتها. فحتى أمينوفيس الثالث خلال سنوات حكمه الأخيرة كان بالغ الاعتدال في تعامله مع أخيه شوبيلوليوما. وولي عهده آنذاك، أثناء إقامته في أوغاريت، لم يلتق بممثلي ميتاني فحسب، بل وبالسفير الحتي عدّة مرات. وقد نقل السفير إلى عاصمته انطباعه بأن اهتمام وليّ العهد آنذاك والفرعون حالياً، ينصب على حفظ المصالح الاقتصادية المصرية، الأمر الذي يمكن لحتّوشا أن تضمنه بصورة مؤكدة. كما كان السفير في غاية اليقظة لتشكيل صورة شاملة عن وليّ العهد، فلم يفته التفاته الجاد إلى العناية بالأرباب، وخاصة رب الشمس. وبالتالي يمكن على هذا الصعيد، تحقيق تقارب متميز بين البلدين، ولا سيّما أن للشمس دوراً مهماً في حتّوشا.

استفاد الملك الشمس شوبيلوليوما من هذه المعرفة مباشرة في رسالته الأولى إلى أمينوفيس الرابع، مُهنّئاً إياه باعتلائه العرش. وبدلاً من إملائه بالديباجة الرسمية المعهودة، تقرر صياغة الرسالة بأسلوب شخصي ما أمكن، وكأن الطرفين صديقان قديمان. وللمخاطبة اختار الملك اسم التحبب المصري الحميم (حورِيا)، الذي استخدمته كيا لمخاطبة تانوا أثناء زيارته قطنا قبيل عيد الحصاد. كان لا بدّ من ترك أثر عميق في نفس أمينوفيس، بحيث تشحب رسائل تهاني الملوك الآخرين من ألاشيا أو ميتاني. ولهذا لا بدّ من الظهور بمظهر الواثق من نفسه. فذُكّر الفرعون الجديد بالاتفاقيات المبرمة مع أبيه، وبالهدايا المتأخرة، المتوقع وصولها منذ زمن، ومنها تمثالان ذهبيان وآخران فضيان وقطعة كبيرة من حجر الفيروز. وبالمقابل ليذكر الأخ الفرعون ما يشاء، فأخوه شوبيلوليوما مستعد لإرساله إليه. وقد دُعمت الكلمات النبيلة بهدايا أصيلة ونفيسة: أيل فضي يعادل وزنه خمس مينات، ومثله بشكل كبش، وصحنان فضيان مزخرفان. مجموع وزن الفضة يعادل عشر مينات. وإضافة إلى ذلك خنجر أنيق من معدن هبة السماء.

نجاح المساعي تبدّى جلياً. فبعد رحلة سفارته الثانية إلى مصر توصل تانوا إلى تحقيق اتفاقِ هدنةٍ غير رسمي بصدد ميتاني وسوريا، موقّعٍ من قبل الملكين. وبعد سنوات قليلة تطور هذا الاتفاق إلى معاهدة صداقة، لم يدرِ بها توشراتا ولا منافسه. وتوشراتا الجاهل بما يجري، أرسل ابنته تادوهيبا زوجةً لأمِينوفيس الرابع، وكان يُعلمه باستمرار بكل نصرٍ يحوزه ضد حتّوشا ويرسل إليه جزءاً كبيراً من الغنيمة، علماً بأن أمينوفيس لم يعد مهتماً بهذه الأمور كلها، فكان يصمت. وبالتالي كان الخناق يضيق تدريجياً حول ميتاني.

ومن أسباب ذلك أيضاً التقدم المستمر، الذي تبدى على صعيد التوسع في مملكة

أوغاريت. فمباشرة بعد استلام رسالة الملك إيداندا، أجاب البلاط الحتي عليها واتصل بأوغاريت عارضاً عليها اتفاقية تبعية لحتّوشا لقاء وضع أوغاريت تحت حمايتها. أما مكسب حتّوشا الفعلي فهو توسع منطقة نفوذها إلى حد كبير. لكن أوغاريت بقيت آنئذ موالية لمصر. وفي السنة الثانية من حكم الملك الجديد نيقْمَدّو الثاني تغير الوضع، إذْ أدرك هذا أن الحال، عاجلاً أم آجلاً، سينقلب ضد ميتاني. وقد كان لزيارات السفير الحتي تانوا، غير البريئة تماماً، اليد الطولى في تعميق إدراك نيقمدو.

كانت أوغاريت آنذاك في أوج ازدهارٍ اقتصادي، تقصدها السفن قادمة من مصر وألاشيا وكريتا وإيجا وأرزاوا ومن أقصى الغرب. وكانت إضافة إلى ذلك مركزاً لتجميع البضائع من جميع أنحاء الشرق الأدنى والأوسط، وتبادلها. وفيها عدّة قصور كبيرة تشهد على ثرائها الواسع. وفي أحياء معينة من المدينة استقر عدد من التجار الأجانب على نحو دائم. على الرغم من ثرائها كانت أوغاريت ضعيفة عسكرياً، فاضطرّت كبقية إمارات الساحل السوري إلى ترتيب أمورها مع القوى العظمى. في البداية راهن نيقمدو مثل أبيه على مصر، التي كافأته بإرسال أميرة من بلاط طيبة ليتزوجها، من أجل تمتين العلاقات. ولكن يبدو أن جهود مصر من أجل المنطقة قد استنفدت بهذا الزواج، ما دفع نيقمدو إلى الميل لقبول عرض حتّوشا، بتوسيع رقعة أوغاريت. استفسر نيقمدو من الملك شوپيلوليوما عن كيفية تحقيق التوسع، فأقنعه شوپيلوليوما بأن يحتلَ مملكتي موكيش ونوحاشّه المتحالفتين مع ميتاني ويضمهما إلى أوغاريت برضا حتّوشا.

في واقع الأمر لم يقم نيقمّدو بالهجوم، لكن ملكي موكيش ونوحاشّه عرفا بالخطة، إما عن طريق الجواسيس أو الخيانة. أهي مصادفة؟ أم مكيدة حتية؟ في كل الأحوال كان المتضرر هو نيقمدو، إذْ هاجم الملكان أوغاريت ونهباها لإجبار نيقمدو على العودة إلى حلفهم. لكنهما حققا عكس مرادهما، وهو ما أمِلت فيه حتّوشا، التي استنجد نيقمدو بجيشها، لكن ما لم يعرفه نيقمدو، هو أن حتّوشا لم تراهن عليه فقط، بل أبرمت في الوقت نفسه اتفاقية حماية مع أحد ملوك نوحاسه الملقب سَرّوپْسي، وليس معه فحسب. وبذلك اختمرت خطة حتّوشا المدروسة بعناية، وصار لها موطئ قدم دائم في شمالي سوريا.

أبرم نيقمدّو اتفاقية مع شوپيلوليوما، عُرضت فيها الأحداث بصورة مختلفة نوعاً ما، لكنها حققت الغرض منها:

«على أثر انفصال كل من ملك موكيش وملك نوحاسه وملك نيّا عن شوپيلوليوما،

حشد هؤلاء قواتهم وهاجموا أوغاريت ونهبوها. فاستنجد نيقمدو بالملك العظيم، ملك حتي وكتب إليه: (أنقذني يا سيدي من أيدي الأعداء. إن الملوك يبتزونني). أرسل الملك العظيم أمراء ووجهاء مع قواتٍ من المشاة إلى أوغاريت، فنجحوا في إعادة الأمور إلى نصابها في أوغاريت! فالبيعة لشوبيلوليوما. وقد رأى اللابارنا، ملك حتي، ولاء نيقمدو له، وها قد أبرم الاثنان اتفاقية بينهما». وتلا ذلك شروط متعددة.

يعد إبرام هذه الاتفاقية أحد أبرز إنجازات تانوا الدبلوماسية التي بوّأته مكانة محترمة في كل مكان.

**

«على المرء أن يكون حذراً حقاً في التعامل معك»، قال أكيزي في إحدى لحظات صفاءِ مزاجه المعتادة، في أثناء زيارة تانوا الجديدة لقطنا، وأضاف: «فقبل أن تطرف عين الإنسان، تكون أنت قد قلبتَ الجبهات وجعلتَه يوقع اتفاقية!».

إلا أن أكيزي لم يفكر بإبرام اتفاقية مشابهة. كما أن مجلس الأعيان كان راضياً جداً عن الوضع القائم. فمن جهة أمورو رُفعت الضغوط، ولا سيّما أن سلوك عزيرا حيال قطنا كان هادئاً بصورة لافتة، علماً بأنه قد حذا حذو أبيه تماماً، ولم يتخلّ بأي حال عن طموحه لخلق مملكة سورية مستقلة. لكنه ركّز اهتمامه على جبيل وإماراتٍ جنوبية أخرى. أما مصر فقد تركت المنطقة كلها لشأنها. وبهذا كانت طرق قوافل البضائع سالكة آمنة، دون أية عراقيل، بل ازداد الطلب على بضائعَ ومواد خام معينة، ولا سيّما ما له علاقة ببناء عاصمة الفرعون الجديدة آخِت آتون. فاغتنت قطنا فوق غناها.

بمرور الوقت كانت نحو تسع سنوات قد انقضت منذ اعتلاء أكيزي عرش قطنا، وأمينوفيس الرابع عرشَ مصر ونيقمدّو في أوغاريت، فبدا التبدل على العروش وكأنه قد بات عادة.

ولكن فجأة توترت الأوضاع، إذ تأهبت حتّوشا، على غفلة من جيرانها، لضربةٍ كبيرة، فتحالفت مع بابل. وبذلك باتت أيام ميتاني معدودة.

6

1341 - 1339 ق. م

«تحيات تانوا لكيا، كاهنة قطنا وأميرتها!
آمل أن تكوني وأحباءك في صحة جيدة، ولتكن سنةَ خير وخصب.
لأمر طارئ لن أتمكن من زيارتكم لمدة طويلة. ومع ذلك لا تقلقي، فسنلتقي.
إذا احتجت إليّ راسلي خالي!».

نظرت كيا إلى الرسالة مضطربة، ثم سألت أخاها الملك أكيزي: «ما معنى هذا؟».

«ليس لدي أي فكرة. لم يرسل إلي شيئاً آخر. علينا التحلي بالصبر. طبعاً أنا سأحاول الاستقصاء عن الأمر».

«من سلمك الرسائل؟».

«سفير حتي اسمه پامبا. إنه على طريقه نحو الشرق، وسيلتحق هنا بالقافلة التالية إلى تِرْقا».

«ألا يمكنك أن تستفسر منه؟».

«حتى إنْ كان يعرف شيئاً، فإنه لن يخبرنا شيئاً».

«يمكننا على الأقل أن نسأله، متى غادر حتّوشا؟».

«بإمكاني أنا إجابتك عن هذا السؤال. بعد عيد السنة الجديدة مباشرة».

«وعمّ إذا كان تانوا ما زال هناك عند ذلك، ومتى وإلى أين اضطرّ للسفر..».

«انسي الأمر يا أختي. أجابني بكل أدب بأنه غير قادر على الإجابة عن هذه الأسئلة، لأنه لا معلومات لديه، إلخ، إلخ».

انقبض قلب كيا. ما الذي حدث يا ترى، ليرسل تانوا رسالة من هذا القبيل؟ تبدو قد صيغت على عجل، وكأنه كان مرغماً على الإسراع إلى مكان ما. ما كانت كيا لتظن أن أفكارها كادت تطابق الحقيقة.

**

في أثناء السنة الماضية نجحت حتّوشا في تضييق الخناق بشدة حول ميتاني. وما أسهم إلى حد كبير في هذا النجاح، إضافة إلى النزاع الداخلي في البلاط الميتاني، هو حليف ميتاني البعيد، الفرعون أمينوفيس الرابع الذي يسمي نفسه منذ مدة قصيرة إخناتون، والذي ترك الساحة لحتّوشا. كان الملك الحتي العظيم قد تمكّن برويّة وتدريجياً من توحيد دول الجوار جميعها، بطريقة أو أخرى، ضد ميتاني. ولم يتبقّ سوى المنطقة على حدودها الجنوبية الشرقية بين النهرين الكبيرين پوراتّو (الفرات) وإيدِقلات (دجلة)، حيث لا نفوذ لحتّوشا من أي نوع كان. فكانت المهمّة الصعبة الأخيرة هي ربط حاكم بابل بالحلف ضد ميتاني.

ولكن كيف؟ ماذا يمكن لحتّوشا أن تقدم له للمساهمة في إسقاط ميتاني؟ أقضّ هذا السؤال مضجع اللابارنا لياليَ طويلة. توسيع رقعة أرضه طبعاً. فعرض شوپيلوليوما على بورنا – بورياش ملك بابل، وادي پوراتو الخصب حتى أرض أشتاتا شرق حلَبا، حيث سيصير لبابل حدود مشتركة مع المملكة الحتيّة. تمنّع ملك بابل طويلاً، بحجة أن مكسبه من ذلك لا يكافئ خطر تعرضه لغضب مصر، في حال وقوفه ضد حليفها توشراتا الميتاني، كما أنه سيخسر الذهب الجميل، الذي يهديه إياه الفرعون، بين الحين والآخر، فهما أولاً وآخراً أصهار. عندئذٍ أخبره شوپيلوليوما على لسان سفيره پامبا، بأن هذه أبسط المشاكل، إذ يمكن تمتين الحلف برابط زواج. وهو لا بنات لديه في سن الزواج، وأخواته تجاوزن السن المناسب للزواج بأخيه العزيز، أفلا يحتمل أن يخطب هو عروساً بابلية؟

هذا معقول جداً، أجاب بورنا بورياش. فمن محاسن المصادفات أن لديه ابنة بارعة الجمال، صحيحة الجسم وذكية حاذقة، وفي العمر المناسب. إنها لؤلؤة فريدة، قرة عينه وأثمن ما يملك. اسمها مالنيغال. وهو مستعد لتقديمها زوجة لأخيه العزيز.

«رائع، ما أسهل ما تتيسر الأمور!».

فرك الملك شوپيلوليوما يديه واحدة بأخرى والتفت إلى قرينته هنتي قائلاً: «يمكننا أن

نقبل بهذا، أليس كذلك؟ ما أكفأ مفاوضينا. إني في غاية الرضا عنكَ، پامبا. أخيراً شارفنا على الاقتراب من هدفنا. في الربيع القادم سنحسم الأمر. لن تتمكن ميتاني من الصمود ضد أربع جبهات».

التجاوب العام لأفراد العائلة الملكية وأعضاء مجلس الشيوخ الحاضرين دعم رأي الملك.

«لا تبدو متحمّساً للأمر يا عزيزي. هل ثمة شيء آخر؟».

كان وجه السفير پامبا متحجّراً. لم يسبق له أن استصعب الكلام كالآن: «يا شمسي!». قال جاداً عابساً: «ملك بابل العظيم يربط دعمه لخططنا بشرط: أن تصير ابنته زوجتك الرئيسية وسيدة حتّوشا الأولى!».

ساد القاعة صمت جليدي. شحبت الملكة هنتي، وكان على شوپيلوليوما أن يضبط نفسه، كي لا تفلت من لسانه شتيمة مقذعة. يا له من شرط قاس!

«اذهبوا يا أصدقائي، أرجوكم. سنجتمع في مرة أخرى. سأدعوكم!».

كان الملك يعاني كي يتماسك.

علم تانوا بضربة القدر هذه من هنوتي، الذي تابع قائلاً بمرارة: «كنت أعرف لماذا لم أتزوج قط، فالارتباط لا يولّد سوى الزعل والمضايقات. وفي معظم الحالات لا تسير الأمور على ما يرام. هل يمكنك أن تذكر لي مثالاً يثبت العكس؟».

«نوفرتيتي وإخناتون».

«في حالهما، الكلمة الأخيرة لم تُقل بعد»، أجاب هنوتي متنبّئاً.

«كيف تظن أن الأمر سيُحسم؟». سأل تانوا، رغم معرفته بالجواب مسبقاً.

«دون مساندة بابل لنا، ضد ميتاني وسوريا، وضد مصر أيضاً إنْ دعت الضرورة، بحماية ظهرنا، سيكون من الصعب، بل من المستحيل، السيطرة على ميتاني بصورة دائمة وكسر شوكتها نهائياً. وإن بقي هذا هدفنا الأعلى، فعلى ملكنا أن يُذعن. كل ما عدا ذلك سيكون إهانة من قبيل أننا قد خفنا من استفزاز بابل ضدنا».

«وعندئذٍ قد ينقلب الوضع، فتُجبَر حتّوشا على رفع يدها كلياً عن منطقة شمالي سوريا».

«هذا سيؤدي إلى قصّ جناحينا بصورة مؤلمة، وإلى إعاقة توسيع المملكة، بل إلى إيقافه. فنحن نعتمد باستمرار على محاصيل هذه المنطقة وموادها الخام ومنتوجاتها».

«ولكن لا يمكن لملكتنا أن تصبح فجأة زوجة ثانوية! إنها أم الأمراء الخمسة كلهم».

«ستضطر للأكل من هذه التفاحة. وإلا كيف ستسير الأمور؟ لا يمكن للمرأتين أن تتساويا مرتبةً. دستورنا يمنع ذلك، ثم ما جدوى ذلك! تصوّر أن تمثّل الزوجتان رأيين مختلفين!».

«هل سيفقد وليّ العهد وضعه القائم، في حال أنجبت الملكة الجديدة ذكوراً؟ هذا مستحيل!».

«لا أتصور ذلك. وأعتقد أن هذا يحتاج إلى قرار من مجلس الشيوخ».

«لا يمكن للملك أن يسيء إلى هنتي بهذه الصورة. فعلاقتهما أعمق وأمتن من ذلك بكثير. ثم إنها ستفقد جميع امتيازاتها. لا بدّ من أن نجد حلاً آخر لإغراء بابل».

«أنت تثير فضولي! شطارتك لا جدال فيها، وبحق، تانوا. أما في حالتنا هذه، فإني أشك في إمكانية توصلك إلى حل مناسب. فملك بابل المعظم يجدها فرصة لرفع ابنته إلى أعلى المراتب. ما حرمته منه مصر، لن يمنعه ملكنا عنه، إما لأن زميلك پامبا كان نائماً، وإما لأن الظن بأن اللقمة قد وصلت إلى الفم، قد أعمانا جميعاً عن فحص الملعقة. كان يجب منذ البداية التأكيد على زوجة ثانوية. ولكن مَن كان يتوقع مثل هذه الجسارة الوقحة؟ لا يتعلم الإنسان إلا من كيسه».

ليس تانوا فحسب، بل الجميع، كل بأسلوبه، كافحوا لإيجاد مخرج من هذه الورطة القاتلة. لقد وصف هنوتي الحالة بصورة بارعة: ليس بوسعنا حتى سحب طلب الزواج، من دون أن نهين الملك بورنا بورياش وعائلته وبلاطه إهانة قاتلة. موضوع توسيع مملكته سبق أن طرحناه، فلم يبق بين أيدينا ما نطرحه، فعلاً لا شيء. لقد رمينا بأحجار لعبتنا كلها دفعة واحدة وباستخفاف.

بعد بضعة أيام استدعي تانوا للمثول أمام الملك، وفي جناحه الخاص على غير العادة المرعية. والملك المقبل على الحياة عادة، بدا مريضاً: مكفهرّ الوجه، مضطرب الحركات وكأنه لم ينم منذ وقت طويل. ورغم دفء الغرفة المريح، كان يرتجف من البرد. لم يكن معه أيٌّ من كبار مستشاريه.

«تانوا، لقد أثبتَّ جدارتك حتى الآن في جميع المهمات التي أوكِلت إليك، فقدمتَ لي وللمملكة أفضل الخدمات. اليوم سأأتمنك على أثمن وأعز ما اختبرته في حياتي: زوجتي!». وكأن هذه المعلومة قد آلمته جسدياً، فاستند على كرسي. لبث دون حراك وكأنه يتمعن في تزيينات الحفر على الخشب. ثم شدّ قوامه وأضاف: «سترافقها بأمان وحرص ودون لفت نظر إلى موطنها. ستسافران بأسرع وقت ممكن. وأنت في حلٍّ من التزاماتك الأخرى حتى إشعار آخر. ثمة أمر آخر، تانوا، عليك أن تضمنها لي بحياتك!».

بدا الملك على شفا انهيار قواه. أشار إلى تانوا ليذهب. بدا تانوا كالمصعوق، ذاهلاً ومبهوتاً. وصل إلى مسكنه كالسائر في الضباب. كان هنوتي هناك في انتظاره.

«لا يمكنه أن يصرفها هكذا ببساطة!». قال جاهداً ليستعيد تماسكه. أما هنوتي فبدا وكأنه قد ارتضى الوقائع، فأجاب: «كانت هذه رغبة الملكة. صرّحت أمام مجلس الشيوخ أنها بذلك تخدم أرباب حتّوشا والمملكة وزوجها الحبيب على أفضل وجه. إنها امرأة فريدة. يا لهذه الشخصية! لا أتصور كيف ستسير الأمور في المستقبل من دونها».

ترك تانوا جسمه يهوي على كرسي منجّد، ومد يده إلى الجعة التي أحضرها خادم لهما. جرع كأسه دفعة واحدة وطلب من الخادم أن يملأه له ثانية. وحتى هنوتي التجأ إلى الراحة المهدئة التي يوفرها تأثير الكحول.

«والأمراء؟ ألا رأي لهم؟».

«ماذا عساهم يقولون؟ أمهم هي التي قررت، وعليهم احترام قرارها. كان واضحاً لي منذ البداية، أن هنتي لن تقبل مطلقاً بالمرتبة الثانية. ليس لأنها غير متسامحة. كزوجة ثانوية كان بمقدورها حتماً قبول البابلية، ما دامت موقنة من حب زوجها. لكن التخلي عن موقعها، كزوجة رئيسية، لامرأة أخرى، وعدم المشاركة في مشاورات مجلس الشيوخ، وعدم أداء الواجبات الدينية الكهنوتية إلى جانب شوبيلوليوما، إضافة إلى الواجبات المهمّة الأخرى، التي كانت تقوم بها بصورة مثالية، ليس بالأمر السهل أبداً. فالأمر يتعلق بكرامتها وبكرامة الملك».

«وقبِل الملك ذلك؟».

«هو مَن ورَّط نفسه أساساً. فليفرح إذاً بأنها تسهّل الأمور عليه».

«لكنه لم يبغِ ذلك مطلقاً، هنوتي».

«أعرف»، قال مزمجراً «ولكني أحياناً أشك حتى أنا، في ما إذا كان كل هذا الذي نفعله،

صائباً. في سبيل المملكة! ها هي ذي عائلة تتمزق. أتعرف ما سيقال عنها: إن الملك العظيم قد نبذها من أجل امرأة أخرى، أكثر شباباً وجمالاً وانصياعاً وإلخ! لن يطول الأمر كثيراً. ولن يسأل أحد عما حدث حقاً». والتفت هنوتي إلى قدحه بوجه ممرور، ثم أردف: «ما يعزّيني، هو أنها ستكون بعيدة، فلن تضطر لسماع هذا اللغو المسيء».

«بعيدة جداً، هذا ما ستكونه. سيستغرق الأمر أسابيع. ماذا ستقول عائلتها؟».

«سؤال جيد. يقال إن أباها رجل يميل إلى الشجار، هذا إن كان لا يزال حياً. هنا لا تصلنا أية أخبار من مِسينا، ما دمنا لم نبرم بعد اتفاقية سلام صامد مع أرزاوا. أتعرف تانوا، إني أحسدك ولا أحسدك».

نظر إليه تانوا متسائلاً والخادم يملأ قدحه.

«أحسدك على الوقت الذي ستمضيه مع هنتي. لكنك ستكون آخر من يجب أن يودعها». والتفت عنه، لكنه قال بعد قليل: «هيا، دعنا نشرب!».

جاء اليوم التالي محمّلاً بالصداع والصحو، مُقْصياً المواقف العاطفية.

كان لا بدّ من التحضير للرحلة بعناية. وعندما يغرق الإنسان في العمل، ينسى نفسه، وهذا جيد. طلب تانوا أن يرافقه صديقاه الضابطان مورسيلي وميتا وبعض أفضل رجالهما، فحصل على الموافقة دون تأخير. كان بحاجة إلى مجموعة صغيرة قوية ومتماسكة، لا سيّما في الحالات الحرجة عند المواجهات المباشرة، دفاعاً عن ملكتهم، ودون خشية من الموت. أي طريق يفترض أن يسلكوا؟ في إدارة شؤون الدولة ناقش تانوا مع ميتانَموا وهنوتي وصديقيه الطرق الممكنة.

«الطريق المباشر يتجه من حتّوشا غرباً، عبر مراسَنتا ثم على الهضبة باستمرار. لكن جزءاً منه سيمر في منطقة كشكية حتى نهر غورتيا على حدود مملكة حبّللا، ومن هناك جنوباً بموازاة غورتيا حتى لالاندا»، قال هنوتي وأضاف: «هذا هو الطريق الذي تعرِف بعض أجزائه».

«ولكن هنا يمكن للمرء أن يتابع غرباً ثانية، حتى يصل إلى نهر سيانتي، ويتابع بموازاته إلى قصر كواليا، حيث يمكن للأمير هناك مساعدتنا في ما تبقى. أنا كمراسل لم أصل إلى أبعد من كواليا. أيوجد أحد هنا ركبَ بحر إيجه؟».

ساد صمت مبهوت، كسره ميتانَموا مستطلعاً رُقم ملاحظاته: «بناء على هذه

الملاحظات يمكن للإنسان انطلاقاً من كواليا أن يسير بموازاة نهر سيانتي حتى اتحاده مع نهر أستاريا ليشكلا معاً نهر ميرا، الذي لا يبعدُ ميناء ميلاواندا كثيراً عن مصبه، إذا استخدم الإنسان سفينة لبقية الرحلة». ورفع نظره عن رُقمه.

«كم يوم سفر ستستغرق الرحلة؟».

«يصعب تحديد ذلك».

«لا يعجبني أن نعبر منطقة محتلة وأجنبية أيضاً. ففي هذا خطر، نحن بغنى عنه»، قال مورسيلي مقاطعاً.

أومأ تانوا برأسه وقال: «خطر هذا في بالي. نحن لسنا مستعجلين، بل نريد أن نصل إلى هدفنا في أفضل ظروف آمنة. أقترح أن نأخذ الطريق المعتاد عبر بوروشخندا نحو الغرب حتى بحيرات بيداسا».

«طيب، ولكن من هناك حتى كواليا سيكون الطريق متعباً، إلا إذا اخترتم التفافة طويلة».

«أخشى أنه سيتوجب علينا حسم هذا الأمر، عندما نصل إلى هناك».

«في كل الأحوال يجب أن نتزود بمؤونة جيدة، كي لا نكتفي بلحم الغنم والماء. فطوال الطريق لن نجد شيئاً سوى أرغفة الخبز»، قال مورسيلي والقلق يعلو وجهه.

«ما أخلى بالك!».

رغم جدية الموقف، ابتسم تانوا. كان مدركاً ضرورة وجود مورسيلي إلى جانبه.

«بأي صفة سنسافر؟ تجار؟ رعاة؟ حرفيون؟ جوالون؟». وأمسك مورسيلي طرف ردائه العسكري القصير ودار حول نفسه بحركة رشيقة وظريفة، ما دفع الجميع إلى الضحك شاكرين له تلطيف جو الاجتماع.

«لكن هذه اللفتة مفيدة. فعلينا التفكير بطريقة للتنكّر، معقولة ومقبولة، عندما نغادر منطقة النفوذ الحثي. عشائر البدو الرُّحل في منطقة الهضبة قد يُستثارون لمنظرنا، فالطفل المحروق يخشى النار، وهجمات أرزاوا حرقتهم، إذ إنهم لم يفقدوا مواشيهم فحسب، بل نساءهم أيضاً!».

«القرار صعب الآن. دعني أفكر فيه. أوَلا يفترض بنا أن نسأل الملكة عن رأيها في الأمر؟ ما رأيك هنوتي؟».

«فكرة جيدة».

«وماذا عن المتاع؟».

«لا فكرة لدي، وهذا ما يجب أن نطّلع عليه سريعاً».

«في حال كون المتاع كبيراً، فالأفضل هو تشكيل قافلة تجارية، رغم أنها تغري بالغزو دائماً».

«أنا أفضّل أن نستخدم الخيول»، قال تانوا وأردف: «فهي الأسهل حركة في حال الخطر. لكنكم جميعكم غير معتادين على الركوب الطويل، وخاصة الملكة».

«فلننتظر ما ستقوله الملكة!».

«متى سننطلق؟».

«ربما كان الأفضل مع خروج الجيش إلى الحرب. فإذا كان هناك جواسيس في حتّوشا.. وهم موجودون هناك.. فقد يشغلهم خروج الجيش ويموّه خروجكم. كلما كان خروجكم أقل لفتاً للنظر، كان أفضل».

«إذاً، لا وقت لدينا! دعونا نستغل ما تبقى منه لنحتفل مع زملائنا وحبيباتنا يا أصدقائي!».

كان هذا مورسيلي، ومن سواه؟! لكن مزاج تانوا لم يكن عندئذٍ ميالاً إلى الشرب والصخب. فرتّب أموره الرسمية والخاصة. كتب وأرسل عدّة رسائل مقتضبة، لا تغني ولا تسمن، إلى أهله في ترشا وأصدقائه في قطنا. ثم جهّز نفسه لمواجهة التحدي الجديد.

**

بعد أداء اللابارنا وقرينته الطقوس الرسمية التي تسبق كل حملة عسكرية، انطلق الجيش الحتي بقيادة شوبيلوليوما ووليّ العهد أرنوواندا وزيدا وهنوتي، لإعلاء مجد أرباب حتّوشا، باتجاه مشرق الشمس. تحرك نحو ساموحا في الأرض العليا، منطلق جميع الحملات العسكرية في الشرق، دون أن يتضح بعد للأعداء الهدف الحقيقي للحملة. بما أن الشعوب الكشكية قد التزمت بالاتفاقيات المبرمة معها، كان هدف الحملة في هذه السنة، إخماد الاضطرابات على الحدود بين كيزّواتنا وميتاني في الجزء الشمالي بموازاة نهر پوراتو، حيث تقع مملكة إشووا المهمّة والمتحالفة مع حتّوشا.

في خضم الفوضى العامة، ومن دون لفت نظر، غادرت المدينة عبر بوابة الأسود باتجاه الجنوب قافلةٌ عادية من حمير وبعض الجياد وبغال الحمل، إضافة إلى عربتي سفر

مغلقتين. بعد فترة قصيرة انطلقت في الاتجاه نفسه كوكبة من الفرسان، واتحدت مع القافلة والعربتين في تاوينيا، ثم تابعت القافلة مع المرافقة طريقها من دون مشاكل إلى مدينة نيسا، حيث انعطفت نحو الغرب ووصلت سالمة مرتاحة إلى مقر هنوتي في پوروشخاندا.

طوال الطريق لم يتحدث تانوا مع الملكة إلا في الضروريات الملحة. لقد احترم والسيدات المرافقات لها رغبتها في الاختلاء بنفسها من دون إزعاج. وكان تانوا مرهف الإحساس، فشعر بالعذابات التي تعانيها الملكة. فكر بأبنائها وبخسارتها المريعة إياهم. بالنسبة إلى تانوا كانت وستبقى هنتي الملكة دائماً، على الرغم من لفتها نظره في بداية الرحلة، إلى حقيقة أنها أم الأمراء، التي لا يمكن لأحد أن ينازعها عليها، إلا أنها منذ الآن أميرةٌ من المملكة الآخية على بحر إيجه.

أيّ سموٍّ تبدّى في جمال وقفتها إلى جانب الملك هذا الصباح، قبل الشروع في الرحلة، وهي تؤدي واجباتها الكهنوتية! وبينما تانوا، وآخرون معه، يقاومون دموعهم، رجع الملك والملكة إلى القصر ثانية. كان بوسع تانوا أن يتصور ما جرى هناك. أي أرباب هؤلاء؟ أي عالم هذا الذي يفرّق المحبّين أحدهم عن الآخر بسبب أهواء طقسية مفتعلة؟ استحضر تانوا في مخيلته كيا وأحس بانقباض حادٍّ في صدره.

أمام شهود، وعدد من الكتبة، صرح شوبيلوليوما وهنتي أن زواجهما قد انتهى. تنازلت هنتي عن صفتها كملكة وعن كل الامتيازات المرتبطة بها، لكنها لم تتخلّ عن حق أبنائها في العرش. وبغض النظر عمّن قد يتخذ الملكُ زوجةً مستقبلاً، فإن ذلك لن يطول تسلسل مراتبهم. كما نقلت هنتي جميع أملاكها وممتلكاتها التي ستتركها وراءها، إلى أبنائها بالتساوي. واتخذت ترتيبات تعويضية دقيقة لكل من عمل في خدمتها، بحيث لا يتضرر أحد بسبب رحيلها. وافق مجلس الشيوخ على إجراءاتها كافة. ثم سلّمت هنتي شارات سلطتها قطعة فقطعة ليد زوجها السابق: التاج، المعطف، ختم الملكة. واستلمت منه بالمقابل مهرها وما اختاراه معاً، مما يمكن أن ينتقل معها إلى وطنها: الحلي الثمينة، ثيابها، أسلحة صيدها وأشياء أخرى.

سُمح لهنتي بعد ذلك، بعيداً عن أعين أعضاء المجلس أن تودّع أبناءها ثم الملك. هل سيلتقون ثانية يا ترى؟ بوجوه متحجرة غادر الملك وأبناؤه الحصن الملكي والتحقوا بالجيش. وبعد وقت قصير توجه تانوا إلى باب مقر إقامة هنتي المؤقت، ليرافقها مع

سيدتين من حاشيتها إلى عربة السفر، وكانت ترتدي ما يحجب شخصيتها تماماً. ومن دون أن تلتفت إلى الوراء خطت نحو العربة وأعطت إشارة الانطلاق.

كل الأضحيات التي وزعها المتبقون في القصر، حول النار المقدسة لرب حماية الملك المعظم وفي الزوايا، وكل طقوس التبخير لم تفد شيئاً. عند منتصف الظهيرة خمدت النيران بعد أن فارقتها يدا الملكة، السيدة التي تشرف على توقّدها بعناية ودأب ويقظة. بات إبعاد الملكة معروفاً علناً، حتى قبل أن تغادر حدود المملكة، فامتلأ القصر الموحش بالنواح والأنين.

**

بمرور كل يوم كان يزداد التباعد بين هنتي وشوبيلوليوما، هي باتجاه مغرب الشمس وهو باتجاه مشرقها.

عند ساموحا انعطف الجيش جنوباً، ومر بالمدينة المقدسة العظيمة ساريسّا، وعبر مضيق تيغاراما ليبلغ مدينة العسل مالبِديّا، حيث أقام معسكراً. كان مزاج الملك يتراوح بين الحزن واليأس والشك والغضب. أحس ضباط جيشه بذلك، والعدو قبل الجميع.

وأخيراً تجرأ هنوتي على مفاتحة صديقه: «يا شمسي، أيمكنني أن أتكلم بصراحة؟».

كان شوبيلوليوما جالساً في خيمة معتمة، على كرسي واطئ، سانداً رأسه بيديه. ورغم العتمة تمكن هنوتي من ملاحظة الأخاديد العميقة في وجه الملك. آلمه أن يرى المحارب القوي بهذه الصورة.

«أظنني أعرف ما الموضوع، ولكن هاتِ ما عندك!». ذكّره صوت الملك بصوت طفل عنيد، يعرف أنه توّاً سينال عقابه الحق. «أنا جحش، هذا ما تريد أن تقوله. توصّلت إلى ذلك وحدي. ونتيجة شعوري بمحنتي أرسلت من ساريسا رسالة مستعجلة إلى هنتي في بوروشخاندا، رجوتها فيها أن تبقى. ما إن انطلق المراسل حتى أدركت أني بهذا إنما أزيد في عذابها وعذابي. لقد قضي الأمر. مفسّرو حركة الطيور توصلوا إلى النتيجة نفسها، مثل مفسّري أحشاء الحيوانات: إن لم تكن بابل إلى جانبنا، لن ننتصر على ميتاني. والثمن هو هنتي. أعترف أني كدت أكفر بالأرباب. إنها أم أبنائي! ولهذا سيكون عقابهم أشدّ. قد أجنّ. إني أفتقدها، الآن، وأنا أعرف أنها قد نأت عني إلى الأبد. كيف يمكن تحمّل ذلك؟».

بماذا يمكن للمرء أن يجيب على هذا الاعتراف؟ لقد تفهّم هنوتي آلام شوپيلوليوما، لكن تأييده في ذلك لن يساعده في الخروج من الحالة، فقال ما خطر في باله بصفته مقاتلاً حتياً. «شوپيلوليوما، يا صديقي. إني أتفهم وجعك. لكنك ملك حتّوشا العظيم، وهذا يتطلب تقديم تضحيات. سعادتك الشخصية يجب أن تُرجأ الآن. احمد أربابك على السنوات الطويلة التي أمضيتها مع قرينة مثل هنتي، على الأمراء الأصحاء، على ما حققته حتى الآن. يجب أن تتماسك وتغلق على حزنك في قلبك. هناك الكثير مما يجب عمله والتفكير فيه والقتال من أجل تحصيله. هذا واجبك الذي لا بدّ من أن تؤديه من أجل وطنك. وأنا، يا شمسي، نحن جميعنا من ورائك!».

عانق شوپيلوليوما هنوتي وقال: «أشكر لك صداقتك!».

«يا ملكي، أنا أعتبر نفسي سعيداً إنْ تمكنتُ من مواساتك والوقوف إلى جانبك. وأعتقد بأننا سنعيش مجدداً أيام فرح، سترى!».

لم يبدُ أن الملك قد اقتنع بعد، ومع ذلك فقد اعتبر هنوتي محاولة الابتسام إشارة خير.

**

قبل مغادرة پوروشخاندا بوقت قصير استلمت هنتي رسالة شوپيلوليوما المستعجلة. سلّمها إياها تانوا في مخدعها المتطرّف، إذ يُفترض ألا يعرف أحد بوجودها في پوروشخاندا. ولكن بعد أن تجتاز حدود المملكة وتقطع مسافة طويلة، سيعلم الجميع بمغادرتها وبخطوبة الملك أميرة بابلية. ارتاحت هنتي في پوروشخاندا التي تعرفها جيداً، فاسترخت نوعاً ما من توترها. وذات صباح حيّته بلغتها الأم، وابتسمت لأول مرة منذ مغادرة حتّوشا.

«أنا مسرورة للعودة إلى وطني»، قالت وتنهدت بعمق: «سأكون مثل طائر حرٍّ لا يحمل همّاً». لقد توقع تانوا مضمون الرسالة. لكن رد فعل هنتي فاجأه جداً. فالملكة المعروفة حتى اللحظة برباطة جأشها وتماسكها ودماثة خلقها، أصيبت بنوبة غضب جنوني، في حضور تانوا ووصيفتيها. ويبدو أن هذا الانفجار قد أفادها، فكان له تأثير العاصفة الرعدية وما يتلوها من صفاء. ففي اليوم التالي كانت منشرحة مسترخية وحثّت القافلة على الانطلاق. وعندما سُئلت عما إذا كان لديها جواب للساعي، أشارت بيدها فحسب، نافيةً.

أن تسير قافلة على الطريق غرباً برفقة مجموعة من المسلحين في أوقات مضطربة لم يكن أمراً لافتاً للنظر مطلقاً. أما وجود نساء مع القافلة فكان غير مألوف، لكنه قابل للتفسير في أي وقت كان، بأن بعض التجار ينوون الاستقرار في لالاندا، فحملوا معهم نساءهم وعفشهم. وقد تم توفير ثياب ملائمة لهذا التفسير للنساء. وفي صباح بدء الرحلة، عندما رأى تانوا الملكة في ثياب تنكرها، قال إنه لم ير سابقاً جدةً ذات جمال آسر كهذه. وكانوا يحملون معهم البضائع الضرورية لاستكمال التنكر. وبفضل ميتا الذي كان يتكلم اللهجة اللوفية لبوروشخاندا، لم تواجههم أية عراقيل مع الدليل والقرويين والبدو. وصلوا إلى منطقة البحيرات من دون مضايقات.

ومع ذلك فقد كانوا يقظين وحذرين مثل قطط متهيّبة. كانت المناطق المأهولة قليلة، لذلك كانوا وحدهم في مقاطع طويلة من الطريق، فالتمس تانوا من الملكة أن تركب جواداً. بعد تردد أولي تحمست وأخذت تزداد سروراً. وكان تانوا قد زوّدها بثياب ركوب، تخفي جيداً كون الراكب امرأة. بعد خببها الأول غمرتها نشوة جلية، فقالت لتانوا:

«لم أكن لأتصور أن الحياة يمكن أن تكون ممتعة بهذه الصورة. أشعر بنفسي حرة كنسر».

أثناء تمارين الفروسية تكررت الفرصة لتبادل حوارات قصيرة بين الملكة وتانوا، رسخت إعجابه بشخصيتها. حكت له عن حادثة مشاركتها، قبل سنوات طويلة، في الرحلة إلى حتّوشا: «ذات يوم جاء رسلٌ إلى قصر أبي الذي كان حينذاك (وَنَكس)، أي ملك الآخيين، قدِموا من أرزاوا حاملين رسالة غريبة تقول إن ملك حتّوشا العظيم مريض، وقد تنبأ له العرافون بالشفاء، إنْ وقف أرباب الغرب البعيد إلى جانبه. فسألهم أبي عن القصد. فقالوا إنهم يتوقعون منه أنْ يرسل إلى حتّوشا البعيدة تمثالاً لأعلى أربابنا أو لرب الشفاء مع كاهن أو كاهنة والحاشية الضرورية. طالت المشاورات عندنا إلى أن تقرر تلبية الطلب. فقام أشهر معلمي الخزف عندنا بصنع تمثال بديع من الصلصال للربة أثانا، ثم أُلبست وزينت وكرّست. منذ وصول الرسل توسلتُ إلى والدي كي يرسلني في الرحلة معهم. كنت أشعر بملل قاتل في ميسينا ورغبت في أن أرى شيئاً من الدنيا، أركب سفينة، أن أتعلم لغات أخرى. والرسل بدوا لي مثيرين جداً. طبعاً لم يسمح لي أبي بالسفر. فقررت أن أهرب معهم خفية. لم أفكر بالأخطار، ولا بالهموم التي سأسببها لأبي وأمي، إن تركتهما. لقد مضى وقت طويل على ذلك». وضحكت ثم تابعت: «دبرت لنفسي ثياب

شاب واختلطت مع الشباب المسافرين إلى ملك أرزاوا. لحسن الحظ. يجب أن أعترف اليوم.. أني قد كُشفت عند ركوبي السفينة. لكن والديَّ كانا قد توصّلا إلى قناعة أن من الأفضل تركي لأسافر. فغيّرت ثيابي ثانية وارتديت ثياباً نسائية كعضو معتزّ بنفسه ضمن وفد البعثة، إذ لم يعد هناك مجال لشك ملك حتّوشا في مصداقية أخيه ملك الأخيين. أمضينا أسابيع على الطريق، بحراً وبراً، إلى أن وصلنا إلى قصر حتّوشا. ندمت أكثر من مرة على جرأتي الجنونية، ولكن لم يعد هناك مجال للرجوع، فقد كان أبي قد حسم الأمر... ها أنت ترى، تانوا، إنك لست الوحيد الذي رفض الرضوخ لمصيره المقدَّر عليه». ترددت قليلاً ثم أردفت: «ومصيرك أنت ليس مقدَّراً مسبقاً، بل هو مفروض عليك. سيأتي يوم تعود فيه الأمور إلى نصابها، وسترى». وصمتت عند هذه الإشارات. ثم قالت مواسية تانوا: «قد نتابع حديثنا في مرة قادمة».

ماذا قصدت بأقوالها؟ لم يتمكن تانوا من الوصول إلى أي مغزى، لكن الجلي هو أنها تعرف عنه شيئاً ما. أيها الأرباب، هلا جعلتموها تبوح!

وحكت له في مرة أخرى عن وصولهم إلى حتّوشا واستقبالهم في قصر الملك تودهاليا وقرينته تادوهيبا، الملكة الأم حالياً، التي أخذتها تحت جناحها وبقيت محِبةً لها دائماً. وحدثته عن إعجاب شباب القصر بها، ثم عن خطبة الملك الحالي لها. وأنهما انتظرا طويلاً حتى وصول موافقة أبيها. كانت الصلات بين أرزاوا وحتّوشا دائماً غير مستقرة، تبعاً لصاحب الكلمة في أرزاوا، فخشيا عدم وصول الرسول إلى مملكة آخايا وإلى مدينة ميسينا الواقعة على الطرف الآخر من بحر الغرب، وبقيا كذلك حتى عودته أخيراً بجواب الخلاص. لكنه حمل معه أيضاً كثيراً من الهدايا النفيسة، وأخرى شخصية لهنتي من والديها وإخوتها وأقاربها وصديقاتها. عندما عادت هنتي بذاكرتها إلى تلك الأيام بات صوتها حنوناً. مَن ستقابلُ من هؤلاء حيّاً، إنْ وصلتْ إلى وطنها بسلام؟

«سيدتي، أتسمحين لي بسؤال؟ هل هنتي اسم آخائي؟».

انفجرت الملكة في ضحكة مدوية، فشد تانوا عنان جواده مرتبكاً. هل قال ما يُضحك؟

«أنت بالفعل أول إنسان في حتّوشا يسألني عن ذلك. هل ستحفظ السر؟ طبعاً ستحفظه يا عزيزي. اسمع إذاً: شوبيلوليوما ورفاقه كانوا ينادونني دائماً بلقب ما. سألت الملكة عن معناه، فقالت لي: (إوزة صغيرة). أتفهم؟ كانوا يلقبونني إوزة صغيرة. لم أكن حينذاك قد أتقنت الحثيّة، لكنني قلبتُ الكلمة لفظياً، وإذا بها تعني إوزة بالآخية، لغتي. وللتسهيل

لفظوا هنتي بدلاً من خِنتي، فبات اسمي الذي رافقني. إذاً، ملكة حتّوشا السابقة كانت تدعى (إوزة). أليس هذا مضحكاً جداً؟». وضحكت مجدداً، دون حنق أو مرارة.

«سيدتي، أتسمحين بأن أعرف اسمك في لغتك؟».

«أرَيمِنِه»، قالت ببطء وكان وقعه موسيقياً.

«وماذا عنك؟ أنا لم أرك مع فتاة قط. أما حان وقت زواجك بعد؟ وضعك جيد، ولم تعد شاباً صغيراً»، قالت مداعبة «تشغل منصباً رفيعاً وسترفع أكثر فأكثر، أنا متأكدة!».

وكمن فتح باب حجرة سرية، حكى أ... نوا دفعة واحدة، دون توقف، وبطريقة لم يمهدها في نفسه، كل شيء عن كيا.

«تمنيت لو كان عندي ابنة كهذه» قالت الملكة، ثم أضافت بصوت خافت: «لكن الأرباب لم يمنّوا علينا بابنة. المهم دائماً بالنسبة إلينا نحن النساء، أن نلد ذكوراً - لو كان عندي ابنة واحدة فقط، لكان كل شيء قد اختلف!».

«ألم يكن ممكناً يا سيدتي، أن تبقي عنده ببساطة؟».

«زوجة ثانوية، في المرتبة الثانية وراء صبيّة فتية قد تكون إوزة حقاً؟ لا، سيكون الأمر للثلاثة وللقصر كله فظيعاً وغير لائق. إذا كانت مالنيغال طموحةً فإنها لن تقبل طويلاً بأن يبحث الملك عن المشورة عندي أنا، بغض النظر طبعاً عن عواطفنا المتبادلة. وعندما تكون زوجة رئيسية، فعليها أن تملأ مكانها. ربما كانت تنقصني الشجاعة للموت، ربما كان ذلك هو الحلَ الأمثل والأكثر راحة! لا تقطّب وجهك هكذا! ألا ترى أني متعلقة بالحياة!». ثم أضافت بصوت خافت: «وبأمل غير معقول».

وغابت نظراتها في الأفق البعيد، ثم أضافت: «قراري، برأيي، يتعلق في المقام الأول بالإجلال والاحترام. احتراماً لنفسي وللملك، وبالعكس. صدّقني، ما كنت لأظن أبداً أن الاحترام قد يحتل ذات يوم مرتبةً أعلى من حب شخصين واحدهما الآخر. ولكن كم كان هذا الحب سيموت غمّاً وغضباً، فلا يبقى سوى الاحتقار! لا. نحن حفظنا حبنا بهذه الطريقة، أنقذناه، والثمن هو ألا يستيقظ أحدنا إلى جانب الآخر!».

غطّت وجهها، فترك تانوا جواده يتراجع قليلاً.

هذه الأحاديث، والاستراحات المسترخية بفعل ظهورات مورسيلي المرحة المبهجة، جعلت الرحلة حتى في هذه الأرض القفر تبدو قصيرة. وعلى الرغم من وعورة الدرب

أحياناً، تقدمت القافلة على نحو جيد. لم يكن الوقت قد اقترب بعد من قيظ الصيف الحارق، بل ما زال الطقس مقبولاً، ولكن مع هبوب رياح أحياناً. كانوا مزودين بما يكفي من الماء طوال الطريق. وقريباً سيصلون إلى بحيرات بِداسّا، حيث تنتهي منطقة نفوذ هنوتي. لم يكن هناك خط حدود ثابت، فكان لا بدّ من التوجه وفقاً لمواقع البحيرات والجبال. وإلى المدينة الحدودية لالاند في الشمال لم يتبقَّ سوى بضعة أيام سفر، وهي أكبر مكان مأهول في المنطقة طولاً وعرضاً. لكنهم لم يريدوا التوجه إليها، بل غرباً، حيث يمتد أمامهم الجزء الأشد وعورة من الطريق. كانوا يجهلون المنطقة، وقد انتهت الهضبة السهلية وتحولت إلى منطقة جبلية. لم يعرفوا ما إذا كانوا مراقبين، ومن الذي يراقبهم. لم يكن في المنطقة أيّ تجمعات سكنية، سوى بعض الأكواخ الفقيرة. كان مقصدهم التالي هو قصر كُواليا، الذي يجب أن يقع على خط مستقيم باتجاه الغرب. هناك سيلقون استقبالاً حسناً ويحصلون على دليل يقودهم إلى وادي نهر ميرا. ومن هناك يُفترض ألا يواجهوا صعوبات.

قرر تانوا وميتا ومورسيلي تعويض دليلهم بصورة سخية وصرفه ليعود إلى عشيرته. وما داموا يسيرون في منطقة بحيرات، كان هناك تنويع في طعامهم، فلم يصطادوا أسماكاً لذيذة فحسب، بل بطاً برياً أيضاً من بين أجمات القصب. وكان الطباخ يضيف نبات الجرجير ونعنع الماء والبصل. لما تبقى من الطريق، لم يكن أمامهم سوى التوجه بالشمس والسير في خط مستقيم ما أمكن ذلك. ساروا بمحاذاة السفوح الغربية لسلسلة الجبال، متجنّبين الشعاب والغابات التي استفادوا منها للصيد. الحطب كان وفيراً وكذلك ينابيع المياه. وعلى الرغم من ذلك وجدوا المنطقة موحشة لخلوّها من البشر. وحسب تقدير تانوا يُفترض أنهم قد دخلوا منطقة كُواليا، فقد قطعوا خمسة أيام سفر منذ البحيرات الغربية. وكان يتوقع أن يرى القصر بعد أي منعطف. هل تجاوزوه كثيراً؟ لقد مروا حتى الآن بعدة أنهار صغيرة، ويُفترض بهم أن يكونوا على مقربة من النهر الكبير سيانتي، فيسترشدون بمجراه. وكلما ارتفعت الشمس، ازداد توتر تانوا. لم يصادفوا حولهم أي إنسان يمكن أن يسألوه.

اقترب وقت الظهيرة، وبات التوتر محسوساً في القافلة، وعندئذ نبّه ميتا تانوا إلى عمود دخان يتصاعد أمامهم. كان هذا أمراً غير عادي. فما معناه؟ أمر تانوا بالتوقف. فعلى الرغم من تطلعه لرؤية أي إنسان، أقلقته إشارة الدخان هذه. قرر استطلاع الوضع مع ميتا.

اقتربا بحذر، وعندما التفا حول نتوء صخري، انحدرت الأرض أمامهم فجأة. ولو كان الوقت دغشةً، لسقطوا في الهاوية. أدركا سريعاً أنهما فوق مكسر حجارة، وعلى مسافة قريبة تجمّع بعض العمال حول نار، يأكلون ويشربون. ضحكا بارتياح ثم هتفا ولوّحا بأيديهما، لينبّها العمال إليهما. انتفض الرجال واقفين. حيّاهم ميتا باللغة اللوفية، فردوا التحية ولوحوا بأيديهم أيضاً.

«قل لهم إننا سنحضر الآخرين»، والتفت تانوا مغادراً. نزلت القافلة على منحدر يؤدي إلى أرض مكسر الحجارة. وكان نوع الحجر أبيض وأملس بشكل يلفت جماله النظر. لم يلاحظوا حجارة مقتلعة حديثاً، لأنهم لم ينتبهوا لذلك. وأخيراً وصلوا إلى حيث الرجال. كانوا ثمانية شباب أقوياء حول النار، يشوون، حسب الرائحة، نعجة. دعوا أفراد القافلة لمشاركتهم الطعام، ناظرين إلى النساء على استحياء في البداية، ثم بسرعة تلاشى الحياء.

بعد تبادل الخبز والملح، تبادل ميتا الحديث مع الرجال حول النار. أخبرهم أنهم تجار ضلّوا الطريق قليلاً: «أردنا الوصول إلى لالاندا، لكننا الآن سنزور سيد كواليا، فهو يهتم بالبضائع الجيدة». فوكزه تانوا في خاصرته خِفية. عندئذ انتبه ميتا إلى أنه ليس من الذكاء الحديث عن بضائع ثمينة أمام هؤلاء البؤساء الفقراء. فشمل المجموعة بنظرة مدققة. هل خدعته عيناه أم أنه قد رآهم يختلسون نظرات ذات معنى؟

«كواليا لم تعد بعيدة»، قال أحد الرجال الملتحين. واستدار بجسمه يساراً مشيراً إلى الجهة وقائلاً: «عليكم السير على هذا الدرب. وحالما تخرجون من الغابة سترون القصر».

بعينين برّاقتين سأل شابّ ثانٍ: «وما البضاعة التي تحملونها؟».

تابع تانوا الحوار بيقظة. وثمة ما أثار ارتيابه. صحيح أن الشباب بدوا أقوياء كالدببة، ولكن ليس كعمال مكسر حجارة. ثم إنه أثناء تلفّته بحذر في أرجاء المكان، لم يرَ دوابّ تحميل ولا خيمة حماية ولا حجارة مكسّرة، لا شيء من لوازم مكسر. الوضع هنا ليس طبيعياً. اقترب أحد الشبان من صغرى وصيفتي هنتي وأحاطها بذراعه. عندئذٍ طفح الكيل. وجّه تانوا أوامر سريعة بالحثيّة. اسرع إلى جواده وركبه بخفّة ثم انحنى ورفع إليه هنتي، ثم استدار بالجواد وانطلق. حدث كل ذلك بسرعة كبيرة أذهلت الشباب الذين بقوا واقفين في أماكنهم، مبحلقين بمن طار من بينهم.

لاحظ تانوا بسرعة أن ليس هناك من يلاحقهما، فكبح جواده عند وصوله إلى أرض منبسطة، والتفت إلى الوراء. لم ير أحداً، فقرر أن يتابع الطريق بالاتجاه نفسه. بعد تراجع

القلق انتبه إلى أنه يحيط بين ذراعيه بملكة حتّوشا مشدودة إلى صدره. وكان خده الأيمن مائلاً على رأسها، وأنفه ينهل من عبق شعرها الذي انسدل بكثافة من تحت غطاء رأسها المنحل. وكأنهما مع الجواد وحدة متكاملة. كانت الملكة جالسة على جواده باسترخاء أنيق، مستندة إلى صدر تانوا بشعور كامل بالثقة. أيمكنه أن يركب مع كيا هكذا! أيمكن تصوّر سعادة أعظم من هذه؟

كانا كلاهما غارقين في أفكارهما، صامتين. ومع ذلك لم يفقد تانوا يقظته لحظة واحدة. فكان أول من اكتشف القصر في الأفق. كانا قد اقتربا من بعض الأكواخ المحاطة بأراض مزروعة. فترجّل وساعد هتي في الترجّل.

«أنت شابّ أصيل، تانوا»، قالت هتي بحرارة وأردفت: «كنتَ حقاً على وشك أن تفديني بحياتك. أنا شاكرة لك ذلك. منبتك الأصيل وخُلقك النبيل يظهران في أفعالك!». ثم تابعت بلهجة تساؤل: «ألا يمكننا انتظار الآخرين هنا؟ لم يبدُ لي الرجال على هذه الدرجة من الخطورة. لا أشكّ في أن ميتا ومورسيلي والآخرين قد انتهوا منهم».

«حذري زاد عن الحد، فاعذريني يا سيدتي!».

«لا داعي للاعتذار. شدة الحذر أفضل من مغامرة خرقاء. إني أقدّر تدبّرك للأمور وحصافتك. ثم إن الركوب معك يسلّي!». وظهرت على وجهها ابتسامة ماكرة. «لقد أفرحتني حقاً. بودّي أن أتابع السفر بهذه الطريقة، بدل الجلوس طوال الوقت في العربة. لكن هذا للأسف لا يليق. آمل أن تكثر الأماكن المنعزلة على الطريق!».

انتظرا في ظل شجرة وهما يراقبان الدرب. وبعد مدة ليست طويلة رأيا غباراً يتصاعد.

كان ميتا ومورسيلي وبقية رجال المرافقة قد استلّوا أسلحتهم المستورة وسيطروا بسرعة على شبابِ المكسر، الذين دافعوا عن أنفسهم بشجاعة حسب قدراتهم، لكن فرصة نجاتهم كانت معدومة. لم يكن بحوزتهم من السلاح سوى الخناجر. لكنهم لم يكونوا سليمي النوايا تماماً. حدس تانوا لم يخُنْه.

«كل الأمور تمام!». قال مورسيلي عندما وصلت المجموعة إلى الملكة وتانوا، وأضاف: «ليتكما رأيتما الأسد ميتا وهو يسطّح العمالقة الواحد تلو الآخر. كان كلما رفع قبضته كالهراوة يهوي أحدهم أرضاً وهو يئنّ. وقفنا وراءه نعدّ له كم بقي ليقضي عليهم ونحن نصفق له. لهذا البطل كان الأمر كلعبة أولاد!».

ضحك الجميع، وضحك معهم ميتا، السريع الغضب عادة، لكثرة ما كان زملاؤه

يمازحونه. أما اليوم فقد كان واثقاً مما أنجز. وكان الجميع سعيداً بمرور المغامرة من دون أضرار.

«لا نريد التوقف هنا. فلنحاول الوصول إلى القصر بأسرع ما يمكن!».

بعد أن وصلوا إلى كواليا سالمين واستراحوا ثم جلسوا معاً، أخبرهم ميتا أن جماعة المكسر كانوا عصابة من البؤساء، جمعتهم الحاجة والشدة: أفنان هاربون، فلاحون مفلسون، فتيان لا يريدون أن يمضوا حياتهم رعاة في هذه المنطقة. والأرجح أنهم لم يخططوا لعملٍ سيّئ تجاه القافلة، فقد فوجئوا بوجودها واندهشوا. وهم يعرفون المنطقة شبراً شبراً. لذلك عقد معهم ميتا صفقة: إذا أرشدوهم إلى طريق كواليا، فسيتركهم الحتيون وشأنهم مع التكتّم على اللقاء بهم. فوضعوا القافلة التجارية المزعومة على الطريق إلى قصر كواليا، ثم ولّوا الأدبار واختفوا في الغابة بأسرع ما يمكن.

«أرجو أن يكون قرارنا صائباً، تانوا»، قال ميتا.

«أظن أني كنت سأتركهم أيضاً يذهبون، هؤلاء التعساء. لكني آمل ألا يوجد بينهم من يتميز بالذكاء. فأسلحتكم كشفت أننا لسنا تجاراً عاديين، وهذا قد يغريهم بالمطالبة بفدية. يجب أن نحترس جيداً. الأشقياء يعرفون أن كواليا ليست مقصدنا النهائي. فيحتمل أن يتسلّلوا ويتربصوا بنا».

«أنت تبالغ، تانوا. مؤكد أننا سنحصل على مرافقة إضافية عندما نغادر كواليا. ثم إننا سنتجه جنوباً وليس شمالاً».

«نعم، معك حق. ولكن تصور العبء الذي أحمله على كاهلي. الملكة لا تستحق مشاكل إضافية».

في القصر الذي عاش أمجاداً سابقة، استُقبلوا على الرحب والسعة. كان أمراً يسترعي الدهشة، أن يزور حتيون كواليا، بين حين وآخر، أما أن تزورهم أميرة آخية شخصياً، فهذا نادر جداً. كان الأمير زيالي بالغ التهذيب، بحيث أنه لم يطرح أية أسئلة محرجة، رغم استغرابه الأكيد لتوجه رحلة الأميرة من الشرق إلى الغرب وليس بالعكس. غير أن تانوا أراحه بأن أسرّ له، إن ضيفته الرفيعة بعد ترمّلها مؤخراً رغبت بالعودة من كيزواتنا العليا إلى وطنها، مع تجنّب ركوب البحر طويلاً. بدا زَيالي مقتنعاً بهذا الجواب. وقد قام مع زوجاته وحاشيته على ضيافة السيدات والضباط الثلاثة بأفضل صورة. أما بقية مسافري القافلة فقد هيأ لهم مطبخ القصر ما لذّ وطاب.

بعد أن اعتادت آذان تانوا وميتا على اللهجة اللوڤية الخاصة بمنطقة كواليا بات التفاهم سهلاً. أما هتتي ووصيفتاها فكنّ يتقن اللوڤية بطبيعة الحال، لكنهن حافظن على عزلتهن، كي لا يلفتن الانتباه إليهن، فالأمير سيعرف قريباً شخصية من كانت في ضيافته.

طرح تانوا أسئلة كثيرة تتعلق بأحداث السنوات الأخيرة، وعن العلاقات بين كواليا وأرزاوا، وعن موقف كواليا من حتّوشا، وعمن يحكم المنطقة فعلياً الآن، تلك التي عبروها منذ البحيرات الغربية في پيداسا، وعن أمور أخرى كثيرة. فهذه كلها معلومات مفيدة للمستقبل. فتبيّن أن كواليا إمارة تابعة لأرزاوا، وتعد نفسها منضوية تحت سيادة ملِكها. كانت مستقلة فيما سبق وبمساحة أكبر بكثير من الحالية، وقصرها الواسع الباهر الذي بني في الأيام الغابرة، على إحدى الهضبتين المأهولتين بالسكان، تعرّض للخراب مرات متعددة. والأمير يشغل حالياً قسماً فقط من بناء القصر الرئيسي، وقد جهّزه بمفروشات جديدة رائعة وبكثير من السجاد النفيس الذي غطى الجدران وأماكن الجلوس، إضافة إلى خزف جميل، بعضه من آخايا، حسبما لاحظت هتتي فوراً. وفي أثناء المأدبة الفاخرة استخدموا أدوات طعام معدنية ثمينة.

التمس الضيوف تقديم شكرهم للأرباب، فلبى زِپالي رجاءهم بكل سرور وقادهم إلى بناء مستطيل الشكل مبنيٍّ من الخشب والقرميد، هو معبدهم الذي يضم تمثالاً لرب وآخر لربة. جمعت أعطيات الضيوف على مذبحين لم ير أحد من المسافرين مثيلاً لهما سابقاً. من نهاية كل مذبح ينبثق قرنان كبيران يرتفعان ليلتقيا مثل مظلة صغيرة فوق حوض المذبح. حصل أفراد القافلة على غرف ممتازة للإقامة واستمتعوا بعد عناء الرحلة الطويلة بضيافة باذخة شاملة.

«في الماضي كانت كواليا تقع على طرق التجارة الرئيسية عبر البلاد. هنا كانت تلتقي الطرق من الشمال إلى الجنوب، وكنا صلة وصل بين الشرق والغرب، عبر وديان الأنهار المتعددة التي تصب كلها في نهاية المطاف في بحر الغرب»، قال الأمير وتابع: «واليوم نشعر وكأننا نعيش في آخر الدنيا. ونادراً ما نحظى بزيارة مثل زيارتكم، لذلك اعذروا أسئلتنا الفضولية، فنحن نلهث وراء ما هو جديد، وهذا طبيعي. ومن ناحية أخرى كنا سعيدين لتوجّه جيش أرزاوا في حملاته العسكرية نحو الشرق، فرحمنا بذلك. أجبرنا على تقديم مقاتلين وعربات قتالية له، لكن الجيش لم يغزُنا مثل الجراد فيأكل الأخضر واليابس. للعزلة ميزاتها أيضاً». وابتسم زِپالي راضياً.

بقلب حزين ودّع الأمير زِپالي ضيوفه. زوّدهم بمجموعة مرافقة وأرسلِ ساعياً سريعاً

إلى ميلاوانْدا ليعلم حاكمها أپتا بقدوم الأميرة، ولم يكن في وسعه أن يفعل أكثر من ذلك. حفاظاً على أمان القافلة أمر تانوا بالإبقاء على ملابس التنكر كتجار. فقد أراد تجنّب أي احتكاك مع الأرزاويين، لا سيّما أن أطول جزء من طريق الرحلة سيكون في منطقتهم. وكانت أرزاوا مرتبطة باتفاقية صداقة مع آخايا، ما يعني أن أميرة آخيّة باسم أرِيمنِه ستلاقي ترحيباً مؤكداً، أما الالتقاء بجنودِ حثيين؟

بفضل التنكر ومجموعة المرافقة سارت أمور القافلة لما تبقى من الرحلة على ما يرام. تحركت القافلة باتجاه الجنوب الغربي حتى نهر ميرا، حيث وجدت أمامها جنة، يجري النهر فيها بشكل متلوٍّ عبر وادٍ عريض، توجد فيه حقول وبساتين زيتون وفاكهة وكروم موزعة هنا وهناك. كان الدرب يسير بالتبادل موازياً ضفتي النهر، قريباً دائماً من سفوح المنحدرات؛ ففي الربيع بعد ذوبان الثلوج ترتفع مياه ميرنا فتتجاوز السرير وتفيض على المروج. وكان الانتقال من قرية إلى أخرى يستغرق غالباً أقل من نهار سفر، إذْ باتت حركة مسافري القافلة أسرع الآن، في العربات وعلى ظهور الدواب.

قبل الوصول إلى البحر أمضوا ليلة في مكان فردوسي، يمتد على سفوح شق جبلي عميق، تندفع المياه من أعلاه هائجة، لتصب نحو القعر في شلالات كثيفة. وقف تانوا على مسافة من الملكة، يغمره شعور بالحنين والأسى، وهو يراقب استغراقها، في تأمل هذا المشهد الطبيعي دون ارتواء، وهي تهلل بفرح ماسحة الرذاذ عن وجهها بين الحين والآخر. وواسى نفسه بأنه غالباً سيكون الوحيد من الجميع الذي قد تتاح له فرصة لقائها ثانية. فما إن تصبح العلاقات ودية مع أرزاوا، وعبرها بالتالي مع آخايا أيضاً، فسيكون هو الشخص المناسب للسفارة في هذه المنطقة، بحكم معرفته باللغتين اللوڤية والآخية.

شعر تانوا بالأسى لنفسه، فمراقبته الملكة جعلت أفكاره لا إرادياً تسرح إلى كيا. رغم فارق العمر، بما يعادل جيلاً، بين المرأتين، وجد تانوا كثيراً من نقاط التقارب في جوهرهما. لقد احتفظت كلتاهما بفرح عفوي غير متكلف. وحتى في المواقف الصعبة بدتا له كلتاهما بسيطتين بلا تعقيد. كانتا شديدتي الملاحظة، لديهما تصوراتهما عن تشكيل حياتيهما، كلتاهما تتمتعان بعزّة نفس عالية، وهما جديرتان جداً بالاحترام. فحمد الأرباب على كل يوم أمضاه بصحبة هذه المرأة. عندما التفتت رأت النظرة الجادة في عينيه، فتوجهت إليه، عانقته بصمت، أغمضت عينيها وطبعت قبلة خاطفة على جبينه، ثم قالت: «لن ننسى هذه اللحظة أبداً!». واستدارت لتمشي.

بعد بضعة أيام سفر بدأ النهر يتشعّب إلى عدّة فروع. أخذ الهواء يتشبّع برائحة الملح. كما أخذت تتناهى إليهم صيحات طيور البحر، وخاصة النوارس. وبات لا بدّ من حسم أمرهم الآن، فإما الانتقال إلى ضفة النهر الجنوبية والالتفاف من ثم حول الخليج كله للوصول إلى ميلاواندا، التي تقع على رأس لسان صخري، وإما ركوب القوارب إليها. قررت الملكة ترقّب القوارب المناسبة لإيصالهم على طول جسم النهر الرئيسي حتى مصبه الفعلي، ومن هناك يمكنهم الانتقال إلى ميلاواندا. وطوال هذه المدة لا بدّ من إيداع دوابّ الحمل في خانٍ ما.

غبّت هنتي الهواء بعمق وقالت: «أليس رائعاً أن نصل إلى البحر أخيراً. لم أدرِ أني مشتاقة إليه إلى هذا الحد.. حركة الموج وصوتها، وتبدّل فروق اللون من الأزرق إلى الأخضر إلى الرمادي بدرجات لا تحصى».

نقلت القوارب الركاب وحمولتهم عبر المياه، تحت أشعة شمس بديعة. جلسوا في حماية الأشرعة المشدودة مستمتعين بتغيير وسيلة النقل. أشرعت القوارب باتجاه اللسان البري، من حيث يرى المسافرون الطرف الآخر للخليج. هناك ينتصب جبل شاهق يمتد من البر الداخلي حتى البحر، وتليه مباشرة جزيرة مهيبة، أقيم عليها معبد شهير مكرّس للأم العظمى. ثم جذف البحارة بموازاة الشاطئ الغربي لشبه جزيرة ميلاواندا نحو الجنوب وألقوا المراسي في الميناء قبيل الظهر. لا بدّ أن خبر وصولهم قد بلغ القصر بسرعة النار في الهشيم، فما كادوا ينتهون من إنزال حمولتهم حتى جاء الحاكم أيتا مع بعض الوجهاء وكاهنة لاستقبال الأميرة أرَيمنِه وحاشيتها بما يليق بها، ورافقوها إلى القصر. أمضوا المساء على شرفة واسعة، تابعوا منها مشهد غروب الشمس البديع، معوّضين عناء الرحلة بمأدبة شهية مكونة من سمك طازج مشويّ، وحبّار مقلي بزيت الزيتون، وزيتون وجبنة ماعز طازجة ومعجنات بالعسل. لقد قطعوا أهم مرحلة من رحلتهم سالمين.

استيقظ تانوا في منتصف الليل. كان يقتسم غرفة في الطابق العلوي من القصر مع صديقيه ميتا ومورسيلي، اللذين كانا غارقين في النوم. ما الذي أيقظه فجأة؟ حلم. لقد حلم بقطنا - غالباً ما كان يحلم بها. غير أن من زاره هذه المرة لم تكن كيا. وفجأة خطر في باله الاسم: دونيو. لا بدّ أن الأمر كان يعتمل في نفسه منذ مدة طويلة، منذ أن ذكر الملك أمامه هذا المكان: ميلاواندا. كان تانوا قد صحا تماماً الآن. حاول جاهداً أن يتذكر ما أخبره به دونيو آنذاك عن عائلته. نهض تانوا وارتدى عباءته، وانسلّ من الغرفة بهدوء. نزل

الدرج باحثاً عن مخرج إلى الشرفة. كانت آلاف النجوم تتلألأ فوقه، وأصوات جنادب الليل تصل إلى أذنيه، والهواء مشبع بروائح البحر والأعشاب المألوفة: زعتر بري وحصى البان والمريمية. جلس على الدرج وركز أفكاره.

أول ما خطر في باله هو أن دونيو من مدينة ميسينا مثل هنتي، وأنه اضطرّ إلى الهروب مع عائلته، زوجته وأربعة أو خمسة أطفال، لماذا؟ هذا ما لم يفهمه آنذاك. ركبوا سفينة إلى ميلاواندا، ولكن قبل وصولهم بقليل هاجمهم قراصنة وفصلوا العائلة عن بعضها، أو أنه قد فقد عائلته. باعه القراصنة. وماذا عن بقية العائلة؟ لا بدّ من أن يسأل الملكة. في واقع الأمر، يُفترض من حيث عمرها أن تعرف دونيو، إذ كان خزّافاً شهيراً منذ ذلك الحين، بل لا بدّ من أن تعرفه. تاق نافذ الصبر إلى قدوم الصباح. وأخيراً مع تباشير الفجر، نزل باتجاه الميناء حيث كانت الحركة على قدم وساق. استفسر عما إذا كانت هناك سفينة ستقلع نحو ميسينا أو أي مكان على الجانب الآخر من البحر، وراء الجزر، وعلم أن سفينة قادمة من هناك يتوقع أن تصل اليوم. فهدأ قليلاً، إنها مهلة لا بأس بها.

أخذ يتجول عبر المنطقة الآخذة في الاستيقاظ، على السفوح أعلى الميناء. كانت دور الأثرياء والوجهاء تحتل أفضل المواقع بأجمل إطلالات. ما كان يراه المرء من تحت، هي الأروقة المفتوحة نحو الجنوب أو الجنوب الغربي أو الغرب. وكل رواق يبدأ بعمودين بديعين على طرفيه، أو بدعامتين في بعض الحالات. وأحياناً كانت تظهر فسحة جانبية موصولة أيضاً برواق معمَّد. وكانت هناك بين الدور مساحات كافية لحدائق. هنا تحلو الحياة. لم يلاحظ تانوا وجود معابد، وعرف لاحقاً من أپتا أنهم يستخدمون لعبادة الأرباب غالباً دوراً صغيرة أو زوايا تشبه المحاريب، تزين جدرانها لوحات ملونة، ويوجد فيها مقاعد ومذابح من أجل وضع الأضاحي. كما يحصل الأرباب طبعاً على قرابين من المأكولات والمشروبات والبخور. وعندما فكر بأبنية معابد حتّوشا الهائلة، ساورته شكوك في ما إذا كانت آخايا ستصير ذات يوم مملكة عظيمة.

عندما أشرقت الشمس عاد إلى القصر، ليجد الملكة ووصيفتيها ومورسيلي وميتا يتناولون الفطور، فيما بدأ أپتا على ما يبدو بشؤون عمله. انتهز تانوا الفرصة وحكى لهم حكاية دونيو، فنان الخزف الميسيني، وعن هروبه ومواجهة القراصنة. وصف لهم شكله الخارجي وطبيعته وطريقته في الكلام، كما وصف أعماله. أنصتت هنتي وأخذت تستعيد ذكرياتها. ثم قالت متفكرة: «لا أظن أني قابلته. لكنني أعرف شغله جيداً جداً. آخر ما وصلني من شغله كان من قطنا، أم تراني مخطئة؟».

أومأ تانوا برأسه موافقاً. أن تتذكر هذا الأمر!

«أنت تريد أن تستقصي ما إذا كانت زوجته تعيش هنا، أليس كذلك؟ ما اسمها؟».

«لا أعرف».

«إذاً ليس لدينا سوى اسمه. سأرجو أپتا أن يساعدنا. يحتمل أن نعثر عليها. ولكن لا تبنِ آمالاً كبيرة، فقد حدث الأمر قبل سنوات طويلة».

«أشكرك يا سيدتي!». لم يكن متوقعاً قط، من امرأة في مكانة هنتي، أن تهتم بشؤون حِرَفي.

«بالمناسبة، كنت اليوم في الميناء. إنهم يتوقعون في أي يوم وصول السفينة القادمة من ميسينا. الربان بحار يُعتمد عليه والسفينة نفسها في وضع جيد».

مزاج الملكة الودود تلاشى فوراً. هزت رأسها شاكرة تانوا، وتركت المجموعة. عضّ تانوا شفته. إن هنتي تواجه قدرها بسلوك يجعله ينسى أحياناً ما تعنيه هذه الرحلة لها.

مساء، على الشرفة، التقوا جميعهم ثانية.

«اسمها إريتا، وهي تعمل مدبرة منزل في مكان قريب من هنا»، قالت هنتي ذلك، ثم ابتسمت بمكر عندما رأت تعبير وجه تانوا، وأضافت: «نعم، نعم، هذا صحيح. وابنتان من بناتها ما زالتا عندها. إنها زوجة دونيو، لا لبس في ذلك». فهز أپتا برأسه مؤكداً. وتابعت هنتي: «وبعد ذلك، كيف ستسير الأمور؟ هل ستتوسط لدى الملك أكيزي في قطنا كي يعفيه من الخدمة عنده؟ لا شك في أن هذا سيكون ضربة ثقيلة بالنسبة إليه. لأنه فجأة سيضطر إلى دفع ثمن باهظ لشراء صحونه وأوانيه الفاخرة!». فضحك الجميع.

«لديّ خبر آخر، يتعلّق بكم جميعاً»، أضافت هنتي مركزة نظرها على تانوا ومورسيلي وميتا: «لم تعد هناك حاجة لمرافقتي من بعد. بإمكانكم بأسرع ما يمكن العودة إلى وطنكم. هم بحاجة إليكم هناك. لا. احتجاجكم لا معنى له. أپتا سيهتم بسفري بحراً إلى ميسينا بأفضل ما يمكنه. وأنتما أيضاً، يا عزيزتي»، والتفتت إلى وصيفتيها «عليكما التفكير بروية، في ما إذا كنتما تفضلان العودة إلى الوطن أيضاً. ما زالت هناك فرصة لتقررا».

فوراً هزت كل منهما رأسها نفياً، ما أثّر في هنتي بعمق. «حسناً، إذا كان هذا قراركما، الذي لا رجوع عنه، فأنا شاكرة لكما هذا الموقف. ولا بدّ إذاً من أن نفترق عن الآخرين. أظن أن بإمكانكم الانطلاق بعد غد. لقد رتب أپتا أمور الرحلة بالسفينة».

«فلنغتنم بسرعة إذاً فرصة التمتع بميزات مدينة بحرية، كي نستطيع أن نتباهى كما يجب في الوطن!». قال مورسيلي بمرح، وأضاف بسرعة رداً على نظرات تانوا المؤنبة: «أعرف، أعرف، لن تنسلّ كلمة واحدة من بين شفتي الحارتين، ومع ذلك بإمكاننا أن نتسلى قليلاً».

قبل الوداع بقليل، انفردت هنتي بتانوا وأعلنت له: «أنا سأبقى هنا!».

«هنا في ميلاواندا، في القصر؟».

«في ميلاواندا، ولكن في دار خاصة بي!».

«ألا تريدين العودة إلى أسرتك؟».

«لا»، قالت هنتي، بصورة مؤكدة وقطعية «سأدبّر كل الأمور، بحيث لا يعرف أحد مَن أنا، ومن كنت. حتى زبالي وأبتا بلعا قصتنا بكل سهولة، عن المسكينة المترملة حديثاً التي فضّلت الطريق البري من كيزواتنا، خشية رحلات طويلة في البحر. هنا لا يعرفني أحد، ولن يخطر ببال أحد أن يربط بين أرَيمنِه وهنتي. ولن أُسوِّد أبداً وجه مليكي!».

كادت دموعها تنهمر وهي تعترف لتانوا بأنها غير قادرة على مفارقة الأرض التي تربطها، بطريقة ما، بشوبيلوليوما والأبناء والأسرة كلها والأصدقاء والخدم، وبكل عزيز وغال بالنسبة إليها، ثم قالت: «هنا أضع رأسي على الأرض وأنصت إلى الريح التي تهب من الشرق حاملة إلي رسائل عن أحوال الجميع. ما رأيك؟ هل ستنجح الخطة؟».

عفوياً أمسك تانوا بيديها وهزّ برأسه.

«تانوا، هل سنجد طريقة ما، لتصلني أحياناً أخبار العائلة والمملكة؟ هل ستفعل ذلك من أجلي؟».

ركع تانوا عند قدمي الملكة ليعدها باستعداده غير المشروط لتلبية رجائها.

«يجب أن تكون حذراً، لا يجوز أن تكتب ما يمكن تفسيره كخيانة، يجب أن يكون عادياً جداً ولن يعرف أحد سواي ما تخبرني به».

هذا الكلام كان يمكن أن يصدر من كيا أيضاً، فكر تانوا. يا لهما من امرأتين أريبتين! ثم اتفقا معاً على تثبيت أهم المعاني: الملك هو الوعل العجوز، ومدينة حتّوشا هي مكان الاستراحة، وبسرعة كبيرة ابتكرا الكثير إلى درجة أن كادت الترميزات تتلخبط في رأس تانوا. ضحكا كثيراً أثناء ذلك، فبعض التعابير كانت حقاً فكِهة.

«هل ستتمكن من حفظ هذا كله؟».

«طبعاً! كما يمكنني أن أحزر الكثير، كما تعرف. على كل حال يجب أن تكون الرسائل قصيرة. ما إذا عدتَ إلى الوطن بالسلام، مثلاً. ما إذا كان الجميع قد عادوا من الحملة بخير. ما إذا كانت هناك ولادات جديدة».

«الأفضل هو توجيه الرسائل إلى أبتا. ستضطرين إلى إطلاعه على أنك تتوقعين رسائل سرية من عائلتك السابقة في كيزُواتنا. وأسرّي له بأنك اضطررتِ إلى الهرب لأن شقيق زوجك المتوفى أرادك زوجة له، لكنك تمقتينه. والرسائل هي الطريقة الوحيدة للبقاء على اتصال بأبنائك».

«ما هذا الخيال التآمري!». قالت هنتي وهي تهز سبابتها أمام وجهه، «لكني أوافقك الرأي بأن أبتا رجل ثقة. اكتب باللغة اللوڤية واستخدم الجلد، فهو هنا لا يلفت النظر مثل رُقم الطين».

«وهل ستجيبين؟».

«لا أظن، فهذا سيعرضك لخطر كبير. سنرى. لكني سأفكر فيك يا عزيزي. أثمة ما تريد قوله؟».

«نعم، يا سيدتي. أنت تعرفين عني شيئاً، لا تريدين إخباري به حتى الآن».

ترددت هنتي قليلاً، ثم قررت أن تعطيه جواباً، فقالت: «ثمة مبالغة في قولك (تعرفين)، تانوا. إنه أقرب إلى الحدس. أعتقد، أن عليك، عندما تسنح فرصة مناسبة، أن تسأل الملك، أو أن تنتظر بصبر حتى يفاتحك بنفسه. يبدو لي أنه الوحيد القادر على مساعدتك في هذا الأمر. ما أستطيع قوله لك، هو أن الأمر يتعلق بمنبتك، المحاط بسرٍّ ما». ورفعت ذراعيها آسفة «عدم اليقين يعذبك، أعرف، وهذا يؤسفني. لكنك على الدرب الأفضل، تانوا، ضع ثقتك بالأرباب! كل شيء سينكشف، هذا ما أشعر به. أفضل أمنياتي سترافقك دائماً. أشكرك لكل ما فعلته من أجلي، وما ستفعله، لولائك ومحبتك!».

ومثلما فعلت ذات مرة، طبعت على جبينه قبلة خاطفة. خرّ تانوا على ركبته وقبّل يديها.

عند الوداع الأخير أهدت هنتي كلاً من مرافقيها قطعة حلي صغيرة ولكن ثمينة. قدمت لتانوا قطعة لا زورد زرقاء قاتمة، دائرية الشكل، مزينة بنقاط ذهبية، لتلبس كخاتم. وقد حفرت عليها بشكل غير واضح صورة غزالة. وعدَتْها نظرته بأنه سيحملها منذ الآن كرابط أبديّ.

**

كانت لحظات الافتراق عن هتي ووصيفتيها مؤثرة، وكذلك عن المضيف الكريم. وطالما بقي قصر أپتا مرئياً من السفينة، هيمن صمت على الرجال. ثم فاجأ تانوا رفاقه بفكرةٍ مغامرة: ألا يُفترض بهم أن ينتهزوا هذه الفرصة السانحة ليزوروا أباسا عاصمة أرزاوا زيارة سريعة؟

«تقصد أن نتجسّس قليلاً، أليس كذلك؟ أنا أحبّذ ذلك!». قال مورسيلي موافقاً فوراً.

«وماذا إنْ كُشفنا؟ إذا عرفوا أننا حثّيون؟».

«ألسنا معلمي تنكر وتجاراً ناجحين؟ أنت تحكي اللوڤية بلهجة أرزاوية يا ميتا، بحيث لن يلاحظ أحد مِن أين أنت. وأنا أدبر أموري بالآخاوية، ومورسيلي سيغلق فمه. جدّياً الآن، ما رأيكما باقتراحي؟ حصولنا على معلومات عن أباسا سيكون بالغ الأهمّية لمملكتنا».

يبدو أن مورسيلي وحده، مَن لاحظ أن الحزن لا يلف تانوا كما هو متوقع، كما أن اندفاعه للمغامرة أدهشه. أفلا يخالفون بذلك الأمر الذي يُلزمهم بمغادرة أرض العدو بأقصى سرعة والعودة إلى الوطن؟ قرروا أن يسافروا ثلاثتهم فقط إلى أباسا، كي لا يلفتوا النظر، فيما يبقى بقية الرفاق في الخان، حيث تركوا الدواب.

إلى قلب عرين الأسد! بلغوا أباسا في أيام معدودة، ولكن على دروب وعرة. كان موقع المدينة على البحر مباشرة، ومراسي مينائها تلفت النظر. كانت هناك عدّة سفن وكثير من القوارب الراسية. وكان هناك أيضاً كثير من المطاعم وباعة الطعام الجوالين، وخليط من البشر، بعضهم من القبائل المحلية، إضافة إلى بعض الكريتيين ومن سكان الجزر الآخية. لم يجد الثلاثة صعوبة في الاختلاطِ. كانت القلعة مرئية من بعد، ومنحدراتها مكتظة بالبيوت الممتدة تقريباً حتى النهر، الذي يصب في البحر شمالي المنطقة المأهولة. وعلى الهضبة ينتصب القصر الملكي وقصور أعيان المدينة الفخمة.

حاولوا في النُّزل في منطقة الميناء أن يجمعوا بعض المعلومات، وأسعفهم الحظ بجلوس أفراد من حرس القصر الملكي إلى طاولتهم. ومن كلمة إلى أخرى، إضافة إلى ممازحات مورسيلي اندمجوا في الحوار وتبادلوا الأنخاب. وأبدى الثلاثة سخاءهم في توزيع الأقداح، حتى انطلقت ألسنة الحرس، فيما بقي تانوا ومورسيلي وميتا يقظين. فحصلوا بذلك على معلومات ثمينة عن المدينة والقلعة وحاكمها والعائلات المتنافسة والضباط الظالمين وأجمل العاهرات. وبفضل أصدقائهم الجدد تمكنوا من التعرف على

المدينة بحرّيّة، كما أخذوهم معهم إلى مقرّ الحاكم في القلعة، بعد أن مروا على الطريق بمعبد مهيب مكرّس لعبادة الأم العظمى.

إذا كان تانوا هو المحرك الفعلي لهذه المغامرة، فإن الفضل في نجاحها يعود إلى مورسيلي وإلى ميتا خاصة. وكان لا بدّ لتانوا أن يقرّ بذلك لنفسه قبيل نهاية الرحلة الطويلة، بعد أن كانوا قد قطعوا مسافة طويلة على هضاب أرض الوطن. ففي أباسا فقدَ تانوا عقله كلياً، فلم يعد هو نفسه.

بدأت القصة بصورة عادية. منذ المساء الأول لفتت ابنة صاحب النزل نظر تانوا. بدت له أنها تشبه كيا إلى حد التطابق، لدرجة أنه ظن نفسه في حلم، ولم يرفع نظره عنها. أخذ يكرر طلبها إلى الطاولة، كي تحضر له شراباً أو طعاماً، وهذا أمر مفهوم هنا بكل اللغات. لم يكن الوحيد الذي أثّر فيه مظهرها الفريد. كيف وصل مثل هذا الجمال السوري المصري إلى هنا؟ ثم تذكر أن حاكم أرزاوا الحالي أو السابق قد تزوج أميرة مصرية، وهي حتماً لم تأتِ من دون حاشية. ولم يعد تانوا قادراً على متابعة الحديث، المهم جداً بالنسبة إليه، مع الضيوف من أفراد الحرس، لدرجة أن اضطرّ مورسيلي إلى وكزه في خاصرته عدّة مرات. وأخيراً غادر تانوا الطاولة والنزل.

«لقد خلبت الفتاة لبّك، تانوا. أنت تحبها. أخيراً وقعت يا رجل!». مازحه الصديقان.

«هذا هراء. إنها حلوة، أعترف بذلك. ولكن أن أحبها؟ الحب يلزمه أكثر من هذا بكثير»، قال رادعاً الهجوم. لكنه انتبه خلال الليل وطوال النهار التالي، إلى أن أفكاره تدور حولها، لا، بل حول كيا. كانت قريبة منه يكاد يلمسها! كيف كانت تنظر إليه! كيف كانت تضحك! كيف كانت تتحرك بليونة بين الطاولات والمقاعد. إنها ابنة صاحب حانة، قال لنفسه، مذهولاً حيال المشاعر التي دهمته. ماذا يعطي لقاء أن يضم هذه الفتاة بين ذراعيه! لم يعد قادراً على التفكير بشيء آخر. كالمسَرْنَم سحب الصديقان عبر أباسا قائدهما الذي لطالما كان دائماً صاحياً ومؤدباً. وتوقفا عن ممازحته، عندما لاحظا فقدان التواصل معه، وكادا يشعران بالأسف لحالته.

مساءً بعد تناول وجبة العشاء المشتركة لجأ مباشرة إلى الخارج، إذ إنه لم يعد يحتمل الجو داخل النزل، فهذه الفتاة، التي لا يعرف حتى اسمها، كيا الأخرى، قد أسَرَتْه بشكل لم يعرفه في حياته سابقاً. مشى على طول الشاطئ، دون أن ينتبه إلى أين يتجه. كانت الريح

القوية رفيقته، حتى وصل إلى مخبأ فلجأ إليه منها وجلس. لم يعرف كيف عثروا عليه هناك، ولم يسألهما. كيا!

بقي طوال ثلاثة أيام على هذه الحال من الانجذاب، غير دارٍ بما يجري حوله. ثم استيقظ فجأة من حلمه. وكعادته أراد أن يمد يده إلى تميمته، لكنها لم تعد حول عنقه. كان الشريط ممزّقاً في موضع منه وقد سقطت التميمة منه إلى الأرض في مكان ما، دون أن يلاحظ ذلك. عندما وعى بما فقده، تصرّف كالمجنون. فتش الأصدقاء في جميع الأزقة والطرق التي مشوا فيها، دون جدوى. قلبوا النزل رأساً على عقب، دون جدوى. قارب الأمر أن يكون معجزة، حين عثروا عليها أخيراً بين حجارة الشاطئ الرملي، بصمت وضعتها كيا الأخرى في حضن تانوا. أراد أن يعانقها تعبيراً عن شكره، لكنها أبعدته عنها برفق.

«أنت لم تقصدني أنا قط، أليس كذلك؟». قالت بصوت خافت وقد ترقرق الدمع في عينيها.

غمر تانوا ندم حارق عندما تمكن أخيراً من النظر في عينيها. كيف يمكنه أن يشرح لها؟ إنه لم يعد قادراً على تحمّل هذا الوضع، على مطاردة صورة حلم.

«لا، أنت محقة!».

تابعها بنظره إلى أن اختفت. ثم غرق في عذابه وخزيه. وعلى هذه الحال وجده مورسيلي، فقال له: «تعال!».

جمع الأصدقاء حاجياتهم وجهزوا الجياد. كان كل شيء جاهزاً للانطلاق، وعندئذ اختفى تانوا. تبادل الصديقان النظر حائرين. ماذا يُفترض بهما أن يفعلا الآن؟ لا يمكنهما مغادرة أباسا من دون تانوا. أيعقل أنه قد عاد ثانية إلى ابنة صاحب الحانة؟ لحسن الحظ، كان قلقهما غير مبرر، فبعد مدة قصيرة عاد تانوا إليهما. لم يقل أي شيء عن مكان ذهابه وعمّا فعله. خبأ شيئاً ما في صرّة حملها على كتفه، ومن دون أن يلتفت ثانية عبر البوابة، خرج. كان صامتاً أثناء الطريق، ولكن يبدو أن المسير على الدروب الوعرة قد أفاده. فأثناء الاستراحة المسائية أكل بنهم لأول مرة منذ أيام. أخذ ميتا ومورسيلي يهزّان برأسيهما واحدهما للآخر خِفية: لقد انتهت اللوثة. وحتى وصولهم إلى رفاقهم في الخان، كانوا قد راجعوا وناقشوا كل ما رأوه في أباسا وعرفوه عنها واعتبروه مفيداً. ولم يأتوا على ذكر مواضيع أخرى، ولو بكلمة.

**

«ألا تفهم ما أقصد؟ لقد خنتُ كيا!».

«ولكنها لا تحبك أبداً!».

«وما علاقة هذا بالموضوع؟ أنا، أنا مَن يحبها. وقد خنتها مع ابنة صاحب حانة، لمجرد أنها تشبهها!».

«بصدق، أنا لا أفهمك. ما الذي جرى؟ من الطبيعي جداً أنك تتوق إلى ضم حبيبتك بين ذراعيك. ولكن بما أنها غير موجودة، فلا بدّ لك من أن تعانق أخرى. وهذا لا يعني أن حبك لكيا قد خفت».

«أنت فعلاً لا تفهمني. أنا أسأت إلى الفتاة الأخرى، التي لا أعرف حتى اسمها. توهمت أو أوهمت نفسي بأنها كيا. كنت قد قررت جازماً، أمام الأم العظمى، أن أتزوجها فوراً. كنت كالمجنون. وعندئذٍ لكنتُ قد خنت الاثنتين. لقد كانتْ صادقة. أحبتني، أنا تانوا، بقبلاتها وصدقت عاطفتي تجاهها. متى وكيف لاحظتْ أنها ليست سوى بديل لأخرى، لست أدري. فأشعرتني بالخزي لتركها إياي بحزن وحسب، دون مطالب ودون لوم».

مثل كلب مضروب وضع تانوا رأسه بين يديه، ولم يكن بمقدور هنوتي تحمل هذا المنظر البائس التعس. لا يجوز للرجال أن يشغلوا رؤوسهم حول هذه الأمور بمثل هذه الأفكار، ولا سيّما عندما يكون الوضع ميئوساً منه تماماً. «عليك بالزواج! انس الحمامة التي لن تطولها، واكتفِ بعصفورة!».

«أأنت من يقول هذا؟ أين هي عصفورتك؟».

ضحك هنوتي قائلاً: «أنت تعرف جيداً، إنها هنا وهناك... هيا، دعنا من وجع الرأس وخاصة إذا كان بسبب النساء! الدنيا مليئة بهن». وأحاط ابن أخته بذراعه برد.

بعد أن عمرت الطاولة باللحوم المشوية والمقبلات أقبل الرجلان على الطعام بنهم. ولكن بعد اللقمة الأولى التفت هنوتي إلى تانوا وقال: «بالمجمل، مغامرتك في الغرب كانت ناجحة تماماً. ما كنت لأظن بإمكانية وصولكم إلى ميلاواندا من دون مشاكل. ولأنكم، إضافة إلى ذلك، قد جمعتم هذه المعلومات الدقيقة عن أباسا، فإني أُكبر ذلك! كيف كان رأي ميتانموا بالأمر؟».

«طلب مني كتابة تقرير تفصيليّ، كالعادة، لا أكثر. لحسن الحظ، لم يبدِ أي اهتمام بالأمور الأخرى».

«الملك حالياً مشغول جداً للأسف، عن أن ينصت إلى أخبار بطولاتك. نأمل أن تعود الأمور إلى طبيعتها بعد أن تدخل النمرة الصغيرة القفص».

«ما معنى هذا؟ عمّن تتكلم؟».

«هذا الكلام يبقى حتماً بيننا، مفهوم؟ لقد ثرثرت قليلاً مع سفيرنا پامبا بعد عودته الأخيرة من بابل. أنت تعرفه، إنه حذر دائماً في كل ما ينطق به. ومع ذلك، يبدو أن مَن ستدخل إلى ديارنا شخصية واثقة من نفسها جداً وفائقة الحيوية. أمامنا شتاء مسلٍّ جداً».

لم يكن تانوا واثقاً، ما إذا كان هنوتي يمزح أم يسخر. وأضاف هنوتي: «وأنت المحظوظ ستكون أحد أوائل مَن سيتعرفونها من قرب!».

«ما الذي تقصده بذلك؟».

«سمعتُ أصواتاً تقول، إنك ستكون واحداً في بعثة الشرق التي سترافق الأميرة البابلية إلى حتّوشا. ستكون هذه العملية تحفة فريدة! لا مجرد إنجاز دبلوماسي بديع في مشارق الأرض ومغاربها، بل نوع خاص من المشي على الحافة، بين الحفاظ على السرية التامة، كي لا يتمكن أحد من أذية موكب العروس، والرسمية العلنية الباذخة لإشباع حاجة بابل إلى الجاه والشهرة. وطبعاً من دون استفزاز مصر. لا ريب في أن هذه العملية تحتاج إلى معلّم».

حدق تانوا في هنوتي مبهوتاً، ثم قال: «أنت تمزح لا شك؟ لا يمكن للملك أن يطلب مني ذلك. ليس بعد هذه الرحلة مع الملكة».

«يا عزيزي تانوا! ماذا أسمع؟ ما علاقة مشاعرك الشخصية بمهماتك الرسمية؟ أنت دبلوماسي حتّوشا الأبرز. هنا يمكنك أن تستخدم كل مهاراتك. ألم تكن هذه أمنيتك؟ وقد جرى تأهيلك من أجل ذلك. لا يسعك أن ترفض. هذه المرة يريد الملك تجنّب أي خطأ محتمل. أنا أعتقد أنك ستكلف بالمهمّة لا ريب في ذلك، لتضع خطة مع پامبا لتنفيذها وتحقيقها».

تلاطمت الأفكار في رأس تانوا. لا، لا، لا! كل جزء منه كان يقاوم طلب الملك. غير أن هنوتي كان محقّاً: لا يسعه أن يرفض.

«ليس عليك الآن سوى انتظار البت النهائي في المسألة. كان يُفترض ألا أخبرك بشيء بعد هذه الفترة القصيرة على عودتك من آخايا».

يا له من داهية، فكر هنوتي. يبدو أنه قد نجح في التملص من تلبية رغبات الملك، أو من معظمها، ومن دون التسبب في أية إساءة. يا لشطارتك يا رجل!

للتو انتهت مشاورات مجلس الشيوخ، الذي انعقد في حتّوشا على نحو مستعجل، رغم وجود الملك في الميدان. لكنه أسرع في الحضور. كان پامبا وتانوا قد وضعا خطة لإحضار الأميرة البابلية مالنيغال بصورة آمنة إلى حتّوشا. كانت الخطة تحمل بوضوح بصمة تانوا.

قال پامبا إن حركته غادياً وراجعاً بين حتّوشا وبابل باتت أمراً مألوفاً بالنسبة للإمارات السورية الشمالية. وفيما يتعلق برحلة الذهاب على الأقل، لن يوليه أحد كبير اهتمام، لكن عربات السفر والمحامل المترفة ستثير الاهتمام. لهذا فإنه يقترح تجهيز قافلة تجارية عادية، وتزويدها هذه المرة بهدايا العروس حصراً، إضافة إلى وسائل النقل الضرورية لرحلة العودة. ووسائل النقل هذه لن تُركّب إلا في بابل، إرضاء للملك البابلي. فإذا جُهزت القطع كلها في حتّوشا ووضع عليها الختم الملكي بالرصاص، فهذا سيؤدي إلى تفادي الرقابات الحدودية، والرقابة الجمركية تكتفي بلوائح الحمولة. وبذلك يمكن اتباع خط القوافل المعتاد عبر قطنا إلى الفرات. أما المرافقة المكثفة فيمكن تفسيرها بالأحوال المضطربة، هذا إذا التفت أحد إلى هذه الناحية.

الأصعب هو رحلة الرجوع إلى حتّوشا، من لحظة مغادرة منطقة النفوذ البابلي. عبور البادية سيكون المشكلة الأسهل، بشرط إعلام أكيزي ملك قطنا وضمان كتمانه الأمر.

«لن يصعب هذا الأمر على تانوا»، قال الملك.

هز تانوا رأسه موافقاً والتمس الكلام: «أكبر الأخطار في رأيي تتربص بنا في منطقة الشمال السوري. رغم كل الاحتياطات المسبقة، يجب ألا يغيب عن بالنا، احتمال العلم برحلة الأميرة. لذلك يفضل اللجوء إلى حيلة صغيرة: انطلاقاً من قطنا تأخذ القافلة الطريق المعتاد عبر أوغاريت إلى الشمال. ولكن من دون الأميرة. أنا أعتقد أنها ستكون في أفضل حماية على ظهر سفينة تنقلها إلى ترشا. في هذه الحال أيضاً، لا بدّ من مرافقة لتأمين حراستها. نحن نسمع دائماً عن هجمات القراصنة. ولكن ببعض الحيل يمكن الاحتياط للأمر. هنا لا بدّ من استخدام سفينة تجارية عادية، وليس بالضرورة سفينة فخمة. وفي أدانيا يلتقي الجميع ثانية».

هز الملك رأسه بإعجاب وقال: «إلى هناك ستتجه حاشية القصر لملاقاة الأميرة

والترحيب بها على الأرض الحثيّة ولمرافقتها بالشكل اللائق بها حتى حتّوشا، بحيث تكون هي ووالدها راضيين. ما رأيكم؟». والتفت إلى بقية مستشاريه قائلاً: «تبدو لي هذه الخطة جيدة».

وافق أعضاء مجلس الشيوخ بالإجماع على رأي الملك.

«تقرر إذاً أن يتولى پامبا وتانوا تنفيذ رحلة موكب العروس حسبما عرضت علينا».

بعد أن سكن اللغط في القاعة ثانية، التمس تانوا الكلام: «يبدو لي أن ما سأعرضه عليكم سيجنبنا كثيراً من الضوضاء. الملك أكيزي القطني لن يعرِّض خططنا للخطر. أنا أضمن ذلك شخصياً. ولكن ماذا، إذا علم الفرعون عن طريق شخص ثالث، أو حتى عن طريق ملك بابل، صهره؟ ألن يضرب أخماساً بأسداس حول مغزى العملية؟ ألن يشعر بنفسه مبعداً قسراً، إن لم تستبق حتّوشا الأمور وتُعلمه.. لنقل.. باعتباره صديقاً مؤتمناً، بل قريباً مستقبلياً؟ هناك معاهدة صداقة بيننا وبين مصر».

«إذاً، ماذا تقترح؟». سأله الملك.

«في الوقت نفسه لانطلاق القافلة، ابعثوا سفيراً إلى مصر ليخبر الفرعون تقريباً بما يلي: إن إحدى أماني بورنا بورياش ملك بابل وجلالتنا أيضاً، هي استكمال حلقة الأخوة وتوثيقها برابطة الزواج بيني وبين الأميرة الفاتنة مالنيغال في الخريف. إن أعداء الصديق والأخ إخناتون يصيرون عبر رابط القربى الإضافي هذا أعداء لحتّوشا وإلخ إلخ..».

«تانوا محق»، قال ميتانموا معلقاً «سيكون خطأ جسيماً جديداً أن نتجاوز إخناتون ونضعه أمام الوقائع المكتملة. صحيح أن الفرعون على ما يبدو لا يبدي اهتماماً بما يجري خارج مصر، لكن المظاهر تخدع. النتائج على أية حال ستكون خطيرة، فيما لو حصلت ميتاني على دعم مصر، بسبب سلوكنا غير اللائق. وكل أنواع الجهود التي بذلناها ستكون بلا جدوى، على الأقل للسنوات القادمة».

وأضاف أخو الملك: «إذا واجهتنا في شمالي سوريا مقاومة واسعة وجعلنا مصر عدواً لنا، فبإمكاننا دفن جميع مخططاتنا بهذا الشأن. يضاف إلى ذلك أن المناطق الحدودية الأخرى ما زالت غير آمنة إلى حد كبير».

فقال شوپيلوليوما كمن يصد هجوماً: «مهلاً. لا حاجة بكم لإقناعي، فأنا أشاطركم الرأي. طبعاً لا بدّ وبسرعة من أن نخبر أخي العزيز إخناتون. وطبعاً لا يوجد سوى شخص واحد، يمكن أن نأتمنه على هذه المهمّة الصعبة. تانوا، أترى نفسك قادراً على السفر إلى

مصر والعودة إلى قطنا مع موعد وصول موكب العروس من ترقا إليها؟ لأني أرغب أن ترافق أنت الأميرة في الجزء البحري من الرحلة».

انحنى تانوا للملك دلالة على موافقته.

«إذاً، حضّر مع پامبا وميتانموا كل شيء، حتى أصغر تفصيل. ثم انطلق دون تأخير إلى قطنا، لتشاور الملك أكيزي بما هو ضروري. وليرافقك نانينزي، وليبق في كل الأحوال في قصر قطنا، إلى أن يتم كل شيء. ومن هناك تتابع طريقك إلى مصر. ولترافقك صلواتنا جميعاً. وليكن الأرباب معك ومعنا!».

**

ثمة أمور كان يرغب تانوا في عرضها على أكيزي بكياسة ولباقة. وكان مسروراً لأن أيام الرحلة ستمنحه فرصة التفكير بكل أمر على حدة. يمكنه مناقشة بعضها مع نانينزي، أما دفع أكيزي إلى التعاون معهم، فهذا جوهرياً منوط به وحده. فتوجه قطنا رسمياً ما زال حتى الآن نحو مصر وبصورة واضحة. طوال السنوات الماضية لم ينجح تانوا في جذب أكيزي إلى جهة حتّوشا. لكنه ارتاح لمعرفته بأن أكيزي الآن يقاوم وسوسات بعض شيوخ القبائل وأمراء المدن الذين يطمحون لإقامة مملكة سورية مستقلة. كم مرة تناقشوا في مزايا المشروع ومثالبه! كانت الغواية كبيرة، لكن تانوا تمكن من تبيان كمية الدم التي ستراق سدى من أجل هذه المطامح. وقد اقتنع أكيزي أخيراً بوجهة نظره، وجنّب كيا أن تصبح الضمانة لهذا التحالف. كان يأمل في أن تبقى الأمور على حالها.

كان الأمر مفهوماً من زاوية نظر مجلس الشيوخ، أن يرافقه نانينزي في هذه الرحلة، لكن رفقته لن تسهّل مهمّة تانوا أبداً. فكيف سيشرح لأكيزي أن هذا الذي يرغب الملك شوپيلوليوما في بقائه في قطنا، ليس سوى مراسل حثّيّ؟! بإمكانه أن يقول لأكيزي إن مهمّة نانينزي تتركز في مراقبته هو، تانوا. وربما كان هذا حقاً جزءاً من مهمّة نانينزي. قبِل تانوا الأمر بكل واقعية وحصافة.

ماذا يفترض به أن يخبر أكيزي حول العملية كلها؟

أن يمر طريق پامبا بين الحين والآخر عبر قطنا، لم يكن مشكلة، حتى الآن، فهو يسافر كتاجر ويدفع الضريبة المترتبة عليه وعلى بضائعه. أما أن يُتم صفقاته بالسرعة القصوى في قطنا وتدمر، فقد ألصق به لقب الحمار الجامح، الأمر الذي لم يزعجه. ولكن في هذه

المرة سيكون عدد مرافقيه كبيراً نسبياً. لقد ألحّ تانوا على أن يكون معظمهم، ما أمكن، من غير الحتّيين، بل من كيزواتنا ومن الحوريين واللوفيين. لأن الدمج بين تجار حتيين ومرافقين لهم من هذه المناطق كان عادة مألوفة. وتذكّر أولى رحلات عودته التي كانت مع مجموعته مختلطة من هؤلاء بالتحديد.

إضافة إلى ذلك أثار تانوا فكرة الزعم بأن مالنيغال عروس پامبا أو زوجته التي يريد الآن نقلها إلى بلده. ولكن كيف سيكون ردّ فعل الشابة، التي وصِفت على أنها ذات نزوات، على هذا الطلب؟ وردّ فعل والدها الملك؟ وهل يجوز أن يخدع صديقه أكيزي؟ ماذا، إنْ تعرف شخص ما في قطنا شخصية الأميرة؟ وهذا محتمل جداً، بسبب الصلات المباشرة بين قطنا وبابل. سيكون ذلك فضيحة مجلجلة وموجعة. لا، إنه يريد أن يطلع أكيزي إلى الحد الممكن. ولكن هل يقدم الآن على ذكر مالينغال أم يؤجل الموضوع إلى ما بعد عودته من مصر؟ وماذا إنْ سأله عن سبب سفره إلى مصر؟ كان ليلاً ونهاراً يقلّب أفكاره، لكل مرحلة من المراحل على وجوهها.

إذا نجح، فإنه سيعرض نتائج هذه الزيجة أمام أكيزي، باعتبارها إيجابية بالنسبة إلى قطنا.

ألا تنطوي على منافع؟

إذا كان هذا التحالف المدبّر سيؤدي إلى كسر شوكة ميتاني، فليس لقطْنا ما تخشاه من هذه الناحية، إذْ ستسود الطمأنينة على طول الساحل السوري، وممالك المدن ستكون أكثر حرية في حركتها. ولكن حتى أكيزي يعرف، أن حتّوشا لن تظهر هنا باعتبارها محرّراً إيثارياً، بل لديها مصالحها المحددة تماماً في المنطقة. ويورنا بورياش البابلي لا يشارك في التحالف من باب التسلية. وفي مقابل ذلك، فإن قطنا تعتمد كلياً على حركة التجارة النشطة والآمنة مع بابل.

تنهّد تانوا. كان لا بدّ من أن يجازف. سيحاول تقديم طعم لأكيزي، بأن يوحي إليه بأنه الوحيد من ملوك المدن الذي يأتمنه على سرّ الرحلة، لأنهما صديقان. وعلى أكيزي أن يعتقد بأن تانوا قد فعلها من وراء ظهر سيده. يا لها من فعلةٍ وضيعة! لكنه بهذا يضمن أكيزي إلى صفّه! وعندئذٍ لا بدّ لأكيزي من أن يبدي اهتماماً كبيراً ببقاء رحلة الأميرة سراً، متظاهراً بأن اللعبة تجري من دون علمه، كي لا يتورط في نزاعِ ولاء مع إخناتون، ويكون لقاء ذلك قد سجّل بعض المكاسب عند بورنا بورياش. و سيعِدُ تانوا صديقه أكيزي بأنه،

بصفته سفيراً رسمياً حثياً، سيُعْلم إخناتون بأمر الزواج، بصيغة متكتّمة طبعاً، ويترك قطنا خارج اللعبة. وفي حال التطرّق في الحديث إلى خط الرحلة، يمكنه أن يتعلّل باضطراره ترك تخطيط ذلك إلى پامبا، لمعرفته بعلاقات پامبا الوثيقة مع قادش.

عموماً كانت الفكرة كالتالي: باسم شوپيلوليوما سيلتمسُ من إخناتون الإذن لمرور موكب العروس من قادش، أي عبر منطقة تابعة للسيادة المصرية. لماذا لم يخطر هذا في باله من قبل؟ طبعاً لن يُعلِم أيتاكما ملك قادش بأمر الموكب للحفاظ على السرية المطلقة، ولا سيّما أن إخناتون مطّلع على الحركة الانفصالية في المنطقة، التي ستصيب مصر بمرض عضال. نعم، هذا جيد. هكذا ستُدبَّر الأمور. وعندئذٍ لا بدّ من بقاءِ نانينزي في قطنا فعلياً كوسيط ينقل الأخبار المتعلقة بالموضوع بسرعة إلى بابل وإلى حتّوشا.

الأمر الشائك الآخر كان دونيو. فتانوا يحمل في جعبته رسالةً له من زوجته إريتا، التي كان العثور عليها بهذه السرعة في ميلاواندا يقارب المعجزة. والمعجزة الأكبر ستحدث إذا اتحد الزوجان ثانية. كلاهما يعيش عبداً. يحتمل التوصّل إلى شراء حرية إريتا وابنتيها. وماذا بعد؟ هل يأتون إلى قطنا؟ أليست آخايا وطنهم. وأي قصة على تانوا أن يختلق الآن، لتبرير رحلته إلى أقصى الغرب؟ ألإجراء مفاوضات من الجانب الحثي مع أرزاوا وآخايا؟ هذا موضوع لا يجوز التطرق إليه إطلاقاً. فماذا إنْ وصلَ الموضوع إلى مصر التي أعرضت عن أرزاوا بخيبة أمل شديدة، بسبب إخفاقها المشين في التصدي لحتّوشا؟ لا، مستحيل. هذا سيؤدي إلى فصم الروابط الطرية المعقودة مؤخراً بين شوپيلوليوما وإخناتون وسيولّد الشكوك. ماذا إذاً! على أكيزي القبول بأن ثمة أموراً لا يجوز لتانوا الخوض فيها. أم عليه التشاور في الأمر أولاً مع كيا؟

**

ككل مرة كان الفرح غامراً في قطنا لوصول تانوا، وإن لاستراحة قصيرة. بالنسبة إليه كان حاله كالعائد إلى الديار، إلى الأصدقاء والمعارف الكثيرين. وتبيّن له أن قلقه لم يكن مبرراً، فبسرعة مدهشة اتفق مع أكيزي حول الموضوع. يبدو أنه قد حضّر نفسه لهذا الحديث بأفضل مما كان يظن، أو أن ثقة الصديق فيه كانت عمياء. لم يأتِ تانوا على ذكر موضوع دونيو أمام أكيزي، كما لم يخبر دونيو بشيء، بل حيّاه بحرارة وحسب. لم يرغب في أن يثير في نفسه الآن آمالاً، قد تبقى معلّقة.

لكن غاب عن باله أنه لا يستطيع أن يوارب الأمور أمام كيا، ويلهيها بلقيمات لا تُسكت الجوع. التقاها تانوا كعادته غالباً عند بوابة بيت الربة. مشت إلى جانبه بخطوات خفيفة وطرحت أسئلتها دفعة واحدة: «ماذا حدث؟ لماذا كتبت أنك لا تستطيع المجيء؟ لماذا لم تكتب أن الأمر قد انتهى؟ أم أنه لم ينتهِ بعد؟». وكانت تنظر إليه بمزيج من القلق والارتياح والزعل.

ضحك تانوا وقال: «دعيني أحيّيك أولاً يا كيا. كم أنا سعيد برؤيتك ولكونك بخير!». أمسك يديها. لم يسمح لنفسه بمزيد من القرب. وإن حصل، فقد كانت هي التي تندفع نحوه وتعانقه كأخ.

«انظري، أحضرت لك شيئاً!». وأخرج من جيب ردائه حنجور مرهمٍ صغيراً له شكل رأس أسد، مصنوع من حجر كريم، كتيم أصفر اللون، لم يسبق لكيا أن رأت مثيلاً له. قطعة فريدة.

«ما هذا؟».

«يسمّونه حجر الكهرمان. قيل لي إن مصدره من بحرٍ عند حافة الدنيا الشمالية، من مكان بعيد لا يتصوره عقل».

«إنه رائع، شكراً لك. من أين حصلت عليه؟».

«هذه قصة طويلة».

«أله علاقة بالخاتم الذي تلبسه الآن؟».

كم كانت تدهشه دائماً بحدسها الصائب.

«كيا، لا أستطيع إخبارك بالتفصيل إلا بعد عودتي، فعليك التحلّي بالصبر. ولكن عندي أخبار لدونيو، وأرجو أن تسانديني في الموضوع».

أومأت كيا برأسها. كان واضحاً لها، إلى أين ستوصله بقية الرحلة. كان ثمة اتفاق ضمنيّ بينهما على عدم ذكر مصر وإخناتون ونوفرتيتي ما أمكن. وكان هو يخبرها بدقة عن جميع التطورات الكبيرة هناك، على طريق عودته إلى الوطن، لا هي فقط، بل أكيزي أيضاً والأعيان. كادت كيا أن تحمله رسالة أو تحية، مثلما كانت الأميرة إيست تفعل دائماً. غير أنها غيّرت رأيها بسرعة. لاحظ تانوا صراعها الداخلي السريع، الذي وشى له أكثر من أي كلام بحالها الذي لم يتبدّل. وقد آلمه ذلك.

«أية أخبار تحمل لدونيو؟». كانت قد تماسكت وهي تنظر إليه بتشوّق.

«لن تصدّقي..!». بدأ تانوا كلامه.

«أنك عثرت على زوجته!». أتمّت كيا الجملة.

«كيا، كيف لك أن تعرفي؟». وعلت وجهه دهشة تهيّب.

«لا يحتاج هذا إلى رجم بالغيب!». قالت ضاحكة «إذا أنت كدتَ تشهق كي تُعدّني لتلقي الخبر المثير، فماذا يمكن أن يكون سوى ذلك؟».

«أتعرفينني إلى هذا الحد؟».

«ربما أكثر بكثير مما تظن»، قالت بمكر.

كان على تانوا أن يضبط نفسه، كي لا يأخذها بين ذراعيه. كانت اللحظة غالية جداً. فكيف له بطرفة عين أن...؟

«هيّا، كفاك إثارة! هذا ما تجيدونه دائماً، إطالة انتظاري حتى العذاب. أنت تعرف كم أتشوق أنا لمثل هذه الأخبار الجديدة. أين هي؟ أين عثرت عليها؟».

«هذا كله جزء من الحكاية، التي لن أستطيع الآن أن أرويها لك. ولكن على الأقل: اسمها إريتا، وتعيش مع اثنتين من بناتها مدبّرة منزل عند أحد الأعيان في ميلاواندا، وهي مدينة على بحر إيجه. أحمل معي رسالة منها لدونيو، لكنني لم أجرؤ على تسليمها له».

«اعرفت السبب. كيف يفترض بالطرفين أن يلتقيا؟ لا أعتقد أن أكيزي سيعتق دونيو. ألا يمكن للنسوة القدوم إلى قطنا؟».

«إلى هنا؟ إلى حيث يصبحون جميعهم في الغربة؟ ألم يحن الوقت بعد لعودة دونيو إلى وطنه؟ لقد أنجز الكثير وبإخلاص. ألا تعرفين طريقة لدفع أكيزي إلى الموافقة على تسريحه؟».

«دعني أفكر في الأمر حتى عودتك!».

«طيب. سأترك رسالة دونيو أمانة عندك. تصرّفي حسبما ترينه مناسباً. أنا لم أذكر الأمر أمام أكيزي مطلقاً. وثمة أمر آخر: أنا مسافر بمهمّة سرّية. أكيزي يعرف، ولا أحد سواه. راقبيه كي لا يزل لسانه أمام أحد حول الموضوع. وعاملي نانينزي بلطف، يبدو أنه سيضرب جذوره في قطنا للأيام القادمة».

«هل ثمة شيء آخر، يا سيدي؟».

كان يحب هذه اللهجة الأليفة والمتخففة بينهما دائماً، هي بأجوبتها الجسورة التي تثيره، وهو بكلامه الذي يستفزّها.

«إنك تنافس الحمار الجامح. حتى أكيّا مراسلنا، لا يستطيع أن يقطع المسافة عبر سوريا وكنعان، ويحصل على إذنٍ بالمثول أمام فرعون، ويعود إلى قطنا بمثل سرعتك». عانق أكيزي صديقه تانوا وتوجها معاً إلى الغرف الخاصة في الجناح الغربي، حيث يمكنهما التشاور بلا إزعاج.

«ما الجديد في آخِت آتون وفي قادش؟». وضحك أكيزي ضحكة تآمرية.

على الرغم من السنوات التي أمضاها ملكاً، ما زال محافظاً حتى الآن على لا أُبالية الفتيان التي تبقيه لطيف المعشر، رغم ما يسببه للآخرين من إزعاج كبير بين الحين والآخر، نتيجة تصرفاته المتهورة. بات ميالاً للدعة وسمنَ بصورة ملحوظة، مثل زوجته الملكية إهلي نيكالو، أم أبنائه الذكور الأربعة، الذين يفتخر بهم جداً. ما عدا البكر الذي يشبه عمه كواري، فإن الثلاثة الأصغر نسخ من أبيهم، عندما كان صغيراً وظريفاً. كما اتخذ لنفسه زوجتين ثانويتين لتحلية لياليه، لكنهما كانتا تتلاسنان نهاراً بأصوات مرتفعة، ما دفع الملكة الأم إلى التدخل.

«ما ذكرته لي قبل سفري، رأيته بعيني. آخِت آتون صارت باهرة، لا يمكن مقارنتها بأي مدينة أخرى. كل ما فيها مدروس حتى التفاصيل الصغيرة. ورغم ذلك بدت لي مصطنعة، دون روح، أتفهم ما أعنيه؟ آتون حاضر في كل مكان. كان من العسير جداً المثول أمام الفرعون، واحتاج الأمر إلى كثير من الهدايا. ووقت الزيارة، بالمناسبة، تحدّده نوفرتيتي نفسها. ولا بدّ من إخبارها مسبقاً بما تريد أن تقوله أمام الفرعون. وبناء على ذلك تقرر هي، ما إذا كان الأمر يهم زوجها أم لا. فهي التي تحدد مراسم التشريفات. أنا لا أضمن شخصياً، ما إذا كان الفرعون قد تابع وفهم كل ما قلته له. بدا لي شارداً، كما أن مظهره لا يشي بصحة جيدة. بدا لي هرِماً، بحكم رؤيتي له من المسافة الفاصلة بيننا. لحسن الحظ صُرفتُ بسرعة. وقد آن الأوان، إذ أردنا للخطة أن تنجح. ما قلته للفرعون باسم اللابارنا، دوّنه كاتبا المحضر، وتمت الموافقة على جميع الرغبات. وبهذا بتنا آمني الجانب، ويمكن القول بأن الرحلة كانت مُرضية. هل وصلتكم أخبار عن پامبا؟».

«هذا خارج نطاق معرفتي. ألا يهتم زميلك نانينزي بالأمر؟ يا له من شخص في غاية اللطف!».

«ألا يلاحقه مخبرو قطنا على عقبيه؟». وضحك تانوا الذي كان قد تكلم مع نانينزي وعرف. رسم الملك على وجهه تعبير البراءة وقال: «إذا كنت تقصد القافلة القادمة من

تدمر، فيمكنني إخبارك بأن وصولها متوقع خلال بضعة أيام. أما زلت تذكر؟». وكان أكيزي يشير بذلك إلى أولى تجاربهما المشتركة.

«حتى اليوم لا تفسير للأحداث التي وقعت آنئذ. حتى الآن لم تعرض أي قطعة من المسروقات للبيع في أسواق قطنا، كما لم يُعرف أي من المسؤولين عن الغارة. إما أنهم قد صاروا عجائز أو ماتوا. ما الفائدة من الغارة كلها إذاً ؟».

لم يُجب تانوا عن السؤال. على أية أقدام تقف مملكة أكيزي؟ على أقدام طينية! فليبقَ الأرباب معه. أما خبر اقتراب وصول القافلة فقد دفعه إلى العجلة.

«لم يبقَ سوى وقت قليل للراحة. ما زال هناك الكثير لإنجازه. وقد أجّلت عدّة زيارات إلى حين عودتي، فاسمح لي بالانسحاب».

**

يبدو أن كيا لم تفاتح أكيزي بموضوع دونيو. لم يخطر الأمر ببال تانوا إلا بعد انسحابه من مجلس الملك. حسناً، قريباً سيعرف. غير أنه مضطر الآن للاهتمام شخصياً بموضوع السفينة، التي استأجرها نانيتزي، أثناء غيابه، مع أحد وسطاء الملك أكيزي، من أجل متابعة رحلة الأميرة. وهذا سيؤدي إلى تأجيل لقائه مع كيا، الأمر الذي أزعجه.. كان لكيا في بيت الربة غرف خاصة فرشتها ببساطة وذوق رفيع. وهناك استقبلته قبيل وصول القافلة إلى قطنا.

«يا خسارة أننا لم نعد نلتقي خفية! كان الأمر يسلّيني جداً. أليس مدهشاً ألا يتعرف علينا أحد، رغم خراقة تنكركَ أحياناً. آه تانوا، ما أغرب الأفعال التي نقدِم عليها في حياتنا! ولكن الآن، حدّثني عن مغامراتك. أكيزي رفض رفضاً قاطعاً أن يخبرني بشيء. كتمان كامل. ما الذي يدور في الخفاء؟».

«كما في معظم الأحيان، كيا، أجدك قد وصلت إلى لب الموضوع فوراً. كل ما سأُسِرُّ به إليك الآن، يجب أن يبقى بيننا. إني أضع حياتي بين يديك. أتريدينني أن أتابع؟». فأومأت موافقة من دون تردد. وهكذا حكى لها تانوا عن خطوبة مالنيغال وعن مصير هنتي المؤلم.

صمتت كيا بعض الوقت، ثم سألته: «هذا الخاتم منها، صحيح؟».

«صحيح، أعطتني إياه تعبيراً عن الشكر».

أربكت لهجة صوتها تانوا، فنظر في وجهها مدقّقاً. لماذا يغضبها هذا؟

اسودّت عيناها غضباً وصار صوتها كهدير الرعد. كوّرت قبضتيها وهي تقول: «الشكر؟ لأي سبب؟ لأنك نجحت في مرافقتها إلى خارج المملكة بتكليف من سيدك المتسلط الذي سيدمر كل شيء؟ ستهاجموننا مثل جيوش القمل وتسحقوننا. لقد خدعت الجميع بتخطيطك الرائع، حتى إخناتون غششته بكلامك. إخناتون الذي لا يخدم سوى ربه سيُداس وهو لا يدري بشيء. طمع ملكك لن يتوقف عند حدود مصر، فهو يريد فرض سيطرته في كل مكان، وأنتَ أداته. لكني لن أسمح بسقوط مصر. سأفعل كل ما بوسعي لتحذير إخناتون، ولو كلفني هذا حياتي. أنت دائماً تتقن عملك، تنصح أخي بإخلاص، وتلمّ شمل عائلات مشتتة. هذا كله تمويه لتغطي أفعالك المشينة، يا لك من وصوليّ..!».

انتفضت كيا ناهضة وهجمت مثل ربة الانتقام على تانوا الذاهل. كانت قد فقدت زمام السيطرة على نفسها كلياً. في لحظة واحدة انفجرت جميع المشاعر المتراكمة، وأخذت كالمجنونة تضرب تانوا بقبضتيها وهي تشتمه. وفي الوقت نفسه كان جسمها يرتجف من تشنجات البكاء، التي جعلت كثيراً من كلامها غير مفهوم. حاول تانوا، دون جدوى، أن يهدّئها، أن يمسك يديها ويشرح لها. فكانت كل محاولة من محاولاته تزيدها غضباً، ولم تتماسك إلا عند دخول عدّة خادمات مرعوبات ومهرولات، لإعادة الهدوء إلى بيت الربة. عندئذٍ توقفت منهكة.

«سأحافظ على وعدي. أما أنت فاذهب! اغرب من وجهي. إنك تدمر سعادتي!».

بدا الأمر لتانوا وكأنه في كابوس. لقد جرحته كلمات كيا في العمق. لم يعد الأمر متعلقاً بكونها أساءت فهمه، بل فقط بكرهها إياه وحبها لفرعون إلى درجة التضحية بالنفس من أجله. هرول عبر الأزقة دون وجهة محددة، لم يأبه بشيء سوى الابتعاد عنها! انعطف في حارة ضيقة وفرك وجهه بكفيه. كم كان مجنوناً. لقد تصرف مثل تلميذ يتعرض صامتاً لتعنيف معلمه. ما الذي تفهمه هي في طمأنينة معبدها من مشاكل العالم؟ كيف تتجاسر على حاكم حتّوشا بالكلام وتدينه؟ ضجّ غضباً. فلتسمّه وصولياً! إنه على كل حال يبذل كل جهده لتجنّب إراقة الدماء، دماء آلاف من الرجال الذين يتقاتلون جميعهم في سبيل الأرباب والقضية العادلة. وصل إلى الدرج المؤدي إلى القصر. توقف برهة وحاول أن يهدئ نفسه. يجب عليه أن ينسى كيا نهائياً! يجب أن يدفنها في قلبه. ثم فار

فجأة وغمرته سخونة. كيف يأتمنها على أسرار الدولة بهذا الاستخفاف؟ وأمل تانوا على الأقل أن تكون أميرة قطنا وكاهنتها على درجة من التماسك لتدرك مدى الضرر الذي قد يسببه الحنث بالوعد.

عندما دخل القصر، كان على درجة من السيطرة على نفسه بحيث طلب بوجه متحجّر المثول أمام الملك. أخبره باختصار بعثوره على عائلة دونيو ورجاه أن يعتقه.

«ماذا جرى؟». لم يسبق لأكيزي أن رأى صديقه في مثل هذا المزاج.

«لا شيء. الأمور كلها بخير. خطتنا ستنفذ حسبما اتفقنا. حالما تصل القافلة، سأتوجه بسرعة مع السيدة ومرافقاتها لركوب السفينة في نهر أرانتو، وأحبذ بهذه المناسبة أن آخذ دونيو معي. حذّ سعره! وسيقوم پامبا هنا بإتمام كل شيء بكتمان، بحيث لا يشك أحد بأي دور لقطنا. بسرعة الريح ستخلص من عبثنا».

«يا صديقي، لا أدري ما الذي قلب مزاجك على هذا النحو، ولن ألحّ في الاستفسار. ولكن كدليل على صداقتنا، أنا مستعد لتلبية طلبك، ولو خسرت قطنا بذلك أعظم معلم حرفةٍ فيها».

وفعلاً، استدعى أكيزي دونيو، وأجزل له العطاء، وأعتقه. بعد بضعة أيام أدرك أكيزي سبب انزعاج تانوا، فقد رفضت كيا حضور مأدبة الوداع المعتادة. وعلى نقيض عادته، بألا يبالي بنزوات النساء المفاجئة، أحس أكيزي بأن أمراً جوهرياً قد وقع بين الاثنين. وعند افتراقهما سأل أكيزي تانوا بلهجة عاطفية مؤثرة: «ولكن نحن سنبقى أصدقاء، أليس كذلك، تانوا؟».

«نعم، سنبقى!». أجاب، وعانق أكيزي بودٌ عميق. لكنه لم يستطع رسم ابتسامة على وجهه.

**

انتهت الرحلة البحرية دون حوادث. ومع ذلك كان تانوا على شفا الإنهاك في أدانيا، حيث تمكن أخيراً من تسليم الأميرة. كان دونيو ممتناً وبالغ السعادة ولا يزال غير مصدق ما حدث، وفي ميناء ترشا ركب أول سفينة نحو الغرب. ولولا تبادل الحديث معه لفكّر تانوا عدّة مرات بإلقاء نفسه في البحر. وإذا كان الشجار مع كيّا قد تطلب منه كل تهذيبه، فإن

الأميرة البابلية – سيدته المستقبلية – قد اختبرته من جميع النواحي حتى الرمق الأخير. لم يحسد الملك، حتى وإنْ كانت مالنيغال جميلة حقاً. كان عزاؤه الوحيد، أن الأميرة أرَيمِة – ملكته السابقة – لم تكن مضطرة إلى معايشة هذا كله. تمنى من كل قلبه أن يصل دونيو إلى هدفه بسلام، ليس فقط من أجله وأجل عائلته، بل أيضاً لأنه كان ساعياً ممتازاً. لم يتمكن تانوا من كتابة أخبار طويلة، فمالينغال لم تترك له وقتاً لذلك، لكنه كتب المهم الذي سيطمئنها للوقت الحالي.

أهمّية اللجوء إلى استخدام الطريقين، البري والمائي معاً بانت، عندما وصل إلى أدانيا خبر أن پامبا ما زال متأخراً في مدينة ألالاخ، التي لجأت إليها القافلة، على أثر تعرضها لهجوم قطاع طرق ميتانيين. خسرت القافلة جزءاً من حمولتها. وما إذا كان هدف الهجوم هو الأميرة مالنيغال، أم كان غزوة عادية، فالأمر لن يتضح إلى حين وصول پامبا. وهذا يعني في أية حال أن حذر تانوا قد آتى أُكله. كما أنه حقق إنجازاً مهماً بتوصيل الأميرة في وقت مناسب، قبل عيد الخريف، الذي ستتعرف في إطاره على البلد وتتعرف البلدُ عليها.

في أدانيا وفي كيزواتنا كلها احتُفل بوصول الأميرة البابلية بكل أبّهة وفخامة، إذ لا يجوز بأي حال من الأحوال أن تخبر أهلها بأنها ستعاشر فلاحين بلا ذوق. ففي حضور الحاشية كلها استقبلت الملكة الأم، توانانّا، كنّتها الجديدة وقادتْها إلى ابنها ملك حتّوشا مع مراعاة جميع قواعد المراسم. مثل معظم الحضور، بدا شوپيلوليوما أيضاً متأثراً جداً بشباب مالنيغال وجمالها اللافت. وعندما مدّت يدها لأول مرة إلى الملك، لكي يقودها إلى كرسيها، بدت فاتنة، وحييّة نوعاً ما.

**

لم يخفَ تغيُّر تانوا على أصدقائه، ولا على هنوتي، لكنهم احترموا صمته. بات منهمكاً في العمل إلى درجة الغرق فيه، الأمر الذي تلاءم جيداً مع متطلبات الامبراطورية.

بزواج شوپيلوليوما ومالنيغال كانت آخر وسائل عزل ميتاني دبلوماسياً قد استخدمت. باتت ميتاني وحدها، ويمكن للفخ أن ينطبق عليها. كانت حتّوشا قد حضّرت لضربة عسكرية لا مثيل لها. لكن الواضح هو أن ربّ الحرب شخصياً قد تدخّل في اللعبة. فحتى أكثر المخططين حنكةً، على الأرجح، ما كانوا ليتوصلوا إلى الحل الذي سيُسقط ميتاني عسكرياً، لولا دعم زبابا الفعلي لهم.

في بادئ الأمر بدا الوضع سيئاً. في حتّوشا ظنوا أنهم أخيراً قد بلغوا هدفهم، واعتقدوا بأنهم قد حققوا حصار ميتاني من جميع الجهات. وإذا بالمخبرين يبلغونهم بأن مملكة إشووا في الشرق التابعة لحتّوشا منذ بعض الوقت قد تحالفت مع ميتاني. وبذلك دُعم ظهرُ الملك توشراتا، الذي تحرك قبيل استراحة الشتاء القتالية نحو الغرب، بهجوم مفاجئ أسقط به ملك نوحاسة وقتل عائلته، وأعاد ضمّ الإمارة إلى ميتاني.

لم يسبق لتانوا أن رأى الملك في مثل هذه الحالة من الغضب، فقد اتهم مخبريه في إشووا ولامهم أمام مجلس الشيوخ. كيف كان ممكناً لهذه الاتفاقية بين ميتاني وإشووا أن تُبرم دون أن يعلموا بذلك؟ وإذا كانوا غير قادرين على رؤية ما يجري أمام أنوفهم وسماعه، فيجب أن تُسمل أعينهم وتقطع آذانهم.

«عند ذلك انفجر يأسه وقنوطه»، أخبر هنوتي تانوا لاحقاً، عندما جلسا في شرفة داره ليقتنصا دفء أواخر أيام الخريف. «تصور أن تضيع جميع جهودنا سدى، وأن تكون مسألة هنتي ومالنيغال بلا جدوى! بالمناسبة للأسف، تقييمك للسيدة الجديدة كان صائباً. ليس الخدم وحدهم من يشتكي، فمنذ فترة رفضت الملكة الأم استقبالها، إلى أن قدمت اعتذارها لها».

«ما الذي جرى؟».

«لقد أبلغت مالنيغال السيدة الكبيرة بأن الأوان قد آن لتتنازل عن منصبها وتسلّمها الختم.. ثم إنها مدللة بلا حدود. يا للمصيبة إن لم يكن حليبها المسائي بالسخونة المطلوبة. على كل حال، دعنا من هذا الحديث، فهناك ما هو أكثر أهمّية لنناقشه».

هز تانوا برأسه موافقاً. لم يكن ينصت إلا بنصف أذن، فقد كان ذهنه منشغلاً بالوضع الجديد. وكان لا بدّ من إيجاد حل له.

«إذا كنت أرى الوضع بصورة صحيحة»، قال تانوا «فإن حصارنا المدروس بعناية، قد أصيب بثغرتين. واحدة في الشمال والثانية في الجنوب الغربي». وتناول عصا، رسم بها على الأرض الرملية خارطة تقريبية، وأردف: «ولكن ما رأيك بأن نحوّل هذه الواقعة لمصلحتنا؟».

«هات ما عندك! بماذا تفكر؟».

«بأن نرسل قوات دعم لملك نوحاسة وبسرعة».

«الآن، والشتاء على الأبواب؟».

«لا ضرورة لتحريك القوات من حتّوشا. بعض القوات متمركزة في أدانيا، وهناك بعض الوقت إلى أن تصبح المعابر بين كيزواتنا وموكيش غير سالكة. هذا قابل للتحقيق. وإلى أن تصل إلى توشراتا أخبار أن نوحاسة قد تحررت من نير ميتاني بمساعدة مقاتلين حتيين، يكون الوقت قد فاته لهجوم جديد هذه السنة. سيعتقد الجميع - ونحن سنعمل ببراعة على ترسيخ هذا الاعتقاد - بأننا من خلال هذا التدخل، نجهز بحمّية لهجومٍ واسع في الجنوب الغربي، يتوقعون حدوثه في الربيع. في أثناء ذلك سيكون خبر انضمام ملك بابل إلى الحلف ضد ميتاني قد وصل حتى إلى أقاصي البلاد».

نظر هنوتي إلى تانوا بشيء من عدم الفهم وقال: «ولكن هذا هو ما نفعله تماماً. نحن نجهز لهجوم واسع في الجنوب الغربي».

«هذا ما يجب أن ننشره ونعلنه بالطول والعرض. مبدئياً سنترك هذا الأمر لقواتنا في نوحاسة، إذ بوسعهم حتماً توفير بعض المناوشات للدعاية. أما الجيش الرئيسي فيفترض به أن يتحرك، في أبكر وقت ممكن في السنة الجديدة، من الغرب والشمال في الوقت نفسه، ليهاجم إشووا على نحو مفاجئ، فيخمد التمرد بلا رحمة، ويحرق المدن إذا دعت الضرورة، ويضع الملك في الأغلال أو يلبسه النير، وما شابه ذلك».

ما الذي ولّد هذه القسوة في داخله، فكر هنوتي وهو ينظر إلى ابن أخيه بتفكر. وفي الوقت نفسه كان مبهوراً بذكاء الخطة التي يضعها.

«قبل أن يسرع الميتانيون في طلب النجدة، نندفع نحن في حركة سريعة إلى وسط المملكة»، وحرك تانوا العصا بخط مستقيم تقريباً نحو الجنوب، «ونحتل العاصمة واشوكاني. وقد ننجح في أخذ توشراتا أسيراً. بعد تحقيق ذلك، سيكون من السهل التقدم غرباً، للالتقاء بقواتنا في نوحاسة، ومن ثم نضم إلينا ممالك المدن السورية الواحدة تلو الأخرى، حتى نصل إلى حدود النفوذ المصري، التي لا بدّ لنا من احترامها طبعاً. كما لا بدّ لأوغاريت حتماً من أن تقدم دعماً عسكرياً. والقوات المتبقية في كيزواتنا يجب تحريكها في الوقت المناسب. هذا كله يتعلق طبعاً بدقة الروابط والاتصالات». اعتدل تانوا في جلسته واستند على العصا. التفت إلى هنوتي وسأله: «ما رأيك؟ هذه الخطة يمكن أن تنجح؟».

«بل إنها رائعة. سيركز الجميع أنظارهم على موكيش، ولن يتوقعنا أحد في الشمال. إنها خطة ذكية جداً. سيتحمس لها الملك وجميع أركان قيادة الجيش. المهم هو أن يبقى

مقصدنا سرّياً تماماً. لا يجوز أن يطلع على التفاصيل سوى قلة في القيادة. والتحضيرات يجب أن تتوزع، بحيث لن يتمكن أحد أن يخمن مسبقاً المسار الحقيقي للحملة. دعني أعانقك! يبدو لي أنك قد وجدت الحل لهذه المشكلة العويصة. الحمد للأرباب، وخاصة لزبابا!».

وكأن أرباب حتّوشا الألف قد اتحدوا لنصرة المملكة، فتحقق ما أعلنه الكهنة بعد معاينتهم الدقيقة وتأويلهم للعرافة، ولا سيّما علامات الكبد: دخل الربيع أرض المملكة مبكراً شهراً كاملاً عن عادته، ومع ذلك تمكن الزوج الملكي بعناء كبير من أداء مراسم (عيد كروكوشّه) حسب التعاليم الموروثة بدقة. هللت الجماهير في كل مكان مفتونة بجمال الملكة، مثلما تمتعت مالنيغال بتكريمها شعبياً.

بعد العيد، وبسرعة كبيرة، جُمِّعت التحضيرات الكثيرة الموزعة في أنحاء المملكة في حتّوشا: أعداد لا تحصى من العربات القتالية القابلة للفك والتركيب، أسلحة متنوعة، جرابات الجنود التي يضعون فيها ممتلكاتهم الشخصية، والكثير غيرها. وحسب الخطط المرسومة بدقة، جرى تجنيد المقاتلين وتشكيل القطعات منهم، وتجهيز الخيول ودواب الحمل والمؤونة الغذائية والخيام، وتوزيعها على الوحدات. كما تلقّت كل فرقة أوامر المسير الخاصة بها.

حسب اقتراح تانوا، أُرسلت في أواخر الخريف قوات حتية ضاربة إلى نوحاسة، وأخذت قوة الاحتلال الميتانية على حين غرة، وأسرت أفرادها في العاصمة أوغولزات، أما من قاوم فقد قُتل، وتمكن البعض من الهرب. أعيد تنصيب سَرّوبسي ملكاً، وجن جنون توشراتا في ميتاني، لكنه لم يعد قادراً على اتخاذ أي إجراء، لأن أمطار الشتاء وثلوجه جعلت الطرق غير سالكة تقريباً. في الربيع تلقت القوات الحتيّة في نوحاسة دعماً عسكرياً، بناءً على الخطة. وتحرك الجيش الرئيسي مغادراً حتّوشا كعادته، على مرأى من جميع الجواسيس الأجانب. لكنه بدل أن ينعطف جنوبياً، توجه شرقاً نحو ساموحا. ترى هل سيخوض معارك جديدة ضد الكشكيين؟

في ساموحا بدأت حملة عسكرية، غيرت مجرى التاريخ. فخلال شهور قليلة احتل الحتيون بقيادة اللابارنا شوپيلوليوما، ورئيس أركانه هنوتي، والقائدين لوپاكي وكَنتوزيلي جميع البلدان من إشووا إلى بحر الغرب العظيم حيث تبدأ منطقة النفوذ المصري.

في ساريسّا انقسم الجيش قسمين. توجهت الفرقة الكبيرة بسرعة عبر الجبال إلى

ماليديا، وعبرت نهر بوراتو نحو إشووا. أما الفرقة الأصغر بقيادة هنوتي فقد شقّت طريقها عبر الأراضي الحثيّة إلى بوراتو وتبعت سلسلة الجبال الموازية له جنوباً حتى مصب نهر إشووا، وتابعت طريقها شرقاً بموازاة النهر حتى مخاضة أنزيتا. ومن هناك انقضّت كالنسر على أرض إشووا الخصبة في الجنوب، وبلغت العاصمة في الوقت نفسه مع الفرقة الكبيرة. لم تكن إشووا مستعدة إطلاقاً لهذا الهجوم من جهتين، فسقطت. وقبل أن تُدَمَّر وتحرَق المناطق الأخرى، استسلم الملك لرحمة شوپيلوليوما وأقسم ألّا يتحالف مع ميتاني ثانية، وأن يبقى إلى الأبد تابعاً لحتّوشا. فُرض على المهزوم مباشرة تقديم مساعدة عسكرية من جياد ودواب وأغنام وماعز. وعقاباً له على خيانته فرضت عليه إتاوة من النحاس الذي يستخرج من الجبال المجاورة. ولقاء ذلك سلِمت البلد وسكانها.

أما القوات الميتانية المتقدمة من الجنوب فقد استقبلها الحثيون على الطرف الآخر من المعبر المؤدي إلى منبع نهر إيدقلات (دجلة) وصدّوها، فتقهقرت. طاردها الحثيون على طول النهر عبر مسالك جبلية وعرة، متعقّبين توشراتا الهارب جنوباً. لكنه تمكّن من الانسلال والهروب، في حين احتلت القوات الحثيّة عاصمة الميتانيين واشوكاني ونهبوها، ونصبوا على عرشها رجلاً موالياً لهم. وقد وفى ملك بابل بعهده: فعندما توجه ابن توشراتا مع متّي عربة قتالية إلى الحليف المزعوم في الجنوب، طالباً الحماية والدعم، رفض بورنا بورياش طلبه، لكنه لم يتدخل في القتال بصورة مباشرة.

دفع شوپيلوليوما قواته نحو الغرب الآن، بلا هوادة، عبر المدينة المقدسة حرّان، عائداً نحو نهر پوراتو. ولتجنّب كركميش المتمردة والجيدة التحصين، اختارت الجيوش الحثيّة المعبر الجنوبي عند إيمار في أرض أشتاتا، التي استسلمت للغزاة، حتى وصلت نوحاسة، حيث التقت بالقوات المعسكرة هناك. تبع ذلك احتلال جميع ممالك مدن شمالي سوريا، التي كانت تابعة للنفوذ الميتاني: بركا، حلپا، موكيش، نيّا، وتونيپ المجاورة لقطنا مباشرة من جهة الشمال، أو استسلامها. وأُبرمت اتفاقيات تبعية مع جميع الملوك المحليين، الذين حافظ كل منهم على سيادته داخل حدود مملكته، فباتوا الآن خاضعين لحماية حتّوشا. أما نيقمدو ملك أوغاريت فقد توجه مع حاشيته حتى ألالاخ في مملكة موكيش، للالتقاء بالملك العظيم شوپيلوليوما ومبايعته. وهناك أعلن شوپيلوليوما إعادة تنظيم المنطقة: تُحلّ مملكتا موكيش ونيّا، ويلحق القسم الأكبر من أراضيهما بمملكة أوغاريت. تبقى ألالاخ مملكةَ مدينةٍ بإدارة حثية مباشرة. يُعيَّن تِليپينو ابن شوپيلوليوما وممثل الإدارة

الحتيّة في أدانيا، نائباً للملك العظيم، ويكون مقرّه الجديد مدينة حلبا. كان تليبينو سابقاً يقوم بمهمّة القاضي في النزاعات بين الممالك التابعة لحتّوشا، وصار الآن مخوّلاً بإخماد الفتن وصدّ الهجمات.

لقد حقق شوبيلوليوما هدفه، فشمالي سوريا حتى حدود النفوذ المصري بات في يده. «من جبل لبنان حتى شاطئ بوراتو البعيد صارت المنطقة ملكي»، دوّن لاحقاً في تقريره المرفوع إلى أرباب حتّوشا. وحسبما أكد سابقاً لإخناتون، احترم شوبيلوليوما حدود منطقة النفوذ المصري. ولكن ماذا عن قطنا، ذات الولاء المعلن لمصر؟ كيف سيحسم الملك العظيم الأمر؟ هل يتوجب احتلال قطنا أيضاً؟ فيما تردّد شوبيلوليوما مستجيباً لرجاء تانوا بإعطاء الملك أكيزي فرصة أخرى - وقد أخذ تانوا على عاتقه مهمّة مخاطبة أكيزي ومجلس الأعيان - سُحب زمام المبادرة من يد شوبيلوليوما. فقد أعلن ملكان تابعان لمنطقة النفوذ المصري، وهما عزيرا الأموري وأيتاكما القادشي الحرب على الحتّيين.

**

على الرغم من الخطر المهدِّد، تنفس الجميع الصعداء. لا بدّ أخيراً من مبادرة ما، من أن يحدث شيء ما، من أن ينتهي هذا الانتظار لمجهول ما. لسنوات طويلة بقي الصراع معلقاً، وعلى وشك أن ينفجر، ما أرهق أعصاب الجميع. كان الوضع يتراوح بين استرخاء مفتعل واستعداد متوتر للهجوم فوراً إن اقتضى الأمر.

كان البادئ هو عزيرا الأموري، الذي يقود عدداً كبيراً من شيوخ العشائر الموزعة بين جبال لبنان وساحل البحر. فقد رأى ساعة مجده آتية، ولا سيّما أنه قد سار على خطا أبيه وترأس الائتلاف الطامح إلى إقامة مملكةٍ سوريةٍ مستقلة. وبقي طوال سنوات يلعب بمهارة على الحبلين. كان يطمئن إخناتون باستمرار، رغم عقده الأحلاف ضد مصر مع حكام جنوبي سوريا وكنعان، زاعماً أنهم إنما يتحدون خشية هجوم حتيّ متوقع. وكتب لإخناتون مخادعاً: «فقط كي لا يدخل شوبيلوليوما إلى أرض أمورو، أرض سيدي. نعم، إني خائف على أرض سيدي». وعلى إخناتون أن يدعمه بقواته. وهذا ما لم يفعله إخناتون، لعلمه بأن عزيراً يعقد الأحلاف ضد مصالح مصر، وكتب له مهدداً: «أنتم تأكلون معاً وتحتسون مشروبات ثقيلة معاً. لماذا تفعل ذلك؟ لماذا تصادق حكاماً يحاربهم الفرعون؟ أتريد أن تموت مع عائلتك كلها تحت البلطة؟». ولكن لم يصدر

عن مصر أكثر من تعبير الاستياء هذا، ما جعل عزيرا يعلق ساخراً: «زئير هادر لأسدٍ بلا أنياب!».

أما الآن فقد كان الحثيون موجودين بجيوشهم في شمال سوريا. وهذا ما لم يحسب حسابه عزيرا، رغم كل التحذيرات. كل الأخبار تتتالى من مناطق القتال منبئة بنصرٍ حتيٍّ تلو الآخر، أو باستسلامٍ بعد الآخر. وكانت القوات الحثيّة تتحرك بلا هوادة نحو الجنوب، فصار لا بدّ من توقّع الأسوأ.

أوفد عزيرا سفراء رسميين إلى ملوك قادش وقطنا والآخرين جميعهم، مطالباً بالتحالف معاً لطرد الحثّيين. وفي الوقت نفسه أرسل رسائل سرية إلى المتآمرين مُعه، أيتاكما وتيرو والشيخ پوسور، يخبرهم فيها بأن اللحظة المناسبة لبدء التحرك قد أتت أخيراً، وأن عليهم استخدام كل نفوذهم، وتهيئة المرتزقة المأجورين، وإسكات المعارضات الداخلية تحت ستار ضرورة صدّ الحثّيين. إلا أن مخططات عزيرا لم تنجح. فأيتاكما ملك قادش، الذي شكك منذ البداية بجدوى خطة الحركة الانفصالية، تردد، لأنه لم ير أمامه فرصة حقيقية في مواجهة القوات الحثّيّة الجبارة، هذا من جهة، ولم يقتنع، من جهة أخرى، بسكوت المصريين المريب حيال إقامة مملكة سورية مستقلة. كما رفض احتمال أن يصبح عزيرا البدين سيداً على الجميع، فهو أحقّ بذلك.

ومن دون أن يجيب أيتاكما عزيرا، توجّه إلى الملك أكيزي بالسؤال، عمّا إذا لم يكن من الأجدى الاستسلام للحثيين، ما دام الفرعون قد تخلى عنه.

**

تنهّد ملك قطنا وقال: «أشعر أن الجميع يلحّون عليّ من جميع الجهات. المعلومات التي تصلنا متناقضة. فكيف لي أن أحسم أمري؟».

«كنت أعتقد أنك قد حسمت أمرك بوضوح إلى جانب إخناتون» أجابته كيا. كانت بالغة القلق، فزارت أخاها في جناحه الخاص لتتبادل معه المشورة في الوضع الراهن، ولتطمئن إلى أنه يحيط الفرعون علماً بالمستجدات، إذ لا بدّ من أن يتحرك الفرعون أخيراً ويسرع بإرسال النجدة.

«ما معنى حسمتُ أمري، يا أختي العزيزة؟ أنا لست وحدي. هناك مجلس في قطنا. وإضافة إلى ذلك علينا في المقام الأول أن نهتم بأمورنا الخاصة. وهذا كله بالغ التعقيد».

«أوضحي لي! يحتمل أن نصل معاً إلى حل».

كان قد مضى وقت طويل منذ أن سعت كيا بنفسها للحوار مع أكيزي، الذي كان يقدرها عالياً، لذكاء أسئلتها وأفكارها. وفي الوقت نفسه كان يخشاها للسبب عينه. لكنه اليوم كان شاكراً لها قدومها، فقد بدت له الأحوال مضطربة جداً.

«من أين أبدأ؟ بما يهمك بالتأكيد أكثر من غيره. لقد أرسلت عدّة سعاة إلى إخناتون، وكذلك إلى حكام الممالك المجاورة، فإما أنهم لم يجيبوا، وإما لم يقولوا شيئاً مفيداً في جواباتهم. وإخناتون، كما يقال، كرّس نفسه لربّه كلياً. إنه غير مهتمّ بنا».

«ولكن ألا يدرك أن الحثّيين لن يتوقفوا حتى يحتلوا الأرض كلها، وربما مصر أيضاً؟ لا بدّ من أن تلحّ في توضيح ذلك له».

«يا أختي، اهدئي! سأئتمنك الآن على أمر، لا يجوز أن تذكريه لأحد، إطلاقاً. هناك اتفاق بين الفرعون وملك الحثّيين العظيم على كل شيء. مصر ستترك ميتاني لتسقط، وحتّوشا ستحترم منطقة النفوذ المصري. وهذا ما يجعل حسمنا لموقفنا عسيراً، فنحن نجلس بين كرسيين».

«هل أخبرك تانوا بذلك؟». فأومأ أكيزي.

«وأنت تصدقه؟».

«ولماذا يكذب عليّ؟ ما مصلحته في ذلك؟».

«كي يعمينا عن الحقيقة، فيتمكن الحثيون بضمير مرتاح من انتزاع قطنا إلى جانبهم».

نظر أكيزي إلى أخته مبهوتاً، ثم قال: «كنت أظن أن تانوا صديقك أنت أيضاً. لقد بذل جهده دائماً ليكون إلى جانبنا. ما الذي وقع بينكما؟».

هزت كيا يدها بإشارة فظّة، فتابع قائلاً: «طيب. هذا ما يتعلق بمصر. ليس ثمة ما نتوقعه منها حالياً. ولكنْ، ثمة أمران جديدان، قد يفاجئانك، إن لم تكن شالا قد سبقتني بخطوة! وهما يربكاني جداً. عزيرا الأموري دعانا جميعنا إلى ائتلاف ضد الحثّيين..».

«أعرف ذلك».

فقال أكيزي متبرماً: «دعيني أتمّ كلامي! وفي الوقت نفسه أرسل سعاة إلى المتآمرين معه بأن الوقت قد آن لتوجيه الضربة».

فقاطعته كيا ثانية: «كيف عرفت ذلك؟».

فأجاب مسروراً بمعرفته أكثر من كيا: «بفضل يقظة مخبرينا، تمكنّا من الإمساك بالساعي الذي أرسله عزيرا إلى تيرو. وبممارسة بعض الضغط عليه اعترف بكل ما يستحق أن نعرفه».

«أتعني أن بوسعنا الآن كشف كل شيء؟ جريمة قتل أبي؟ جميع المكائد والغزوات والسرقات؟ هذا لا يصدق، بعد كل هذه السنين».

«مهلاً، مهلاً. أنت تعرفين جيداً، أن ليس بوسعنا كشف كل شيء. نحن على الأقل صرنا متأكدين الآن من صحة ظنوننا تلك. أما بالنسبة لمجلس الأعيان فلا بدّ من أن نوازن بدقة بين ما يُكشف له عنه وبين ما نبقيه لنا فقط. وهنا تكمن مشكلتي. ولكنْ، ثمة أمر آخر. تقريباً في الوقت نفسه وصلتني رسالة من أحد المتآمرين».

«من أيتاكما ملك قادش؟».

«منتهى الذكاء!». قال ذلك معترفاً بحدة ذكائها. فربطها بين الأمور كان رائعاً. وأضاف: «منه بالذات. وهل تعلمين أيضاً، ما يقترحه علي؟».

هزت كيا رأسها نفياً.

«ما يقترحه هو أن علينا التفكير بالاستسلام لحتّوشا. ما رأيك بهذا؟».

«هل تأكدت من أن الرسالة منه بالذات؟».

«عليها ختمه».

«هل هذا فخ؟».

«كيف لي أن أعرف؟! إما أنه يخشى حقاً قوة الحتّيين، مع إدراكه لعدم مجيء نجدة من مصر، أو أنه لا يحب عزيرا، أو أو أو. ماذا يفترض بنا أن نفعل؟ لا شيء؟ ننتظر؟ هل ثمة ما نخشاه؟ ألن يُحترم استقلالنا؟ الأمر الواضح هو أننا لن نصمد الآن في معركة، ولا سيّما وحدنا. نحن لسنا مجهزين كفاية. ثم ماذا بمقدورنا في مواجهة السلاح الحتي العجيب؟».

«ما هو هذا السلاح؟».

«الشائعات عنه كثيرة. حتى أنا لا أعرف ما هو تماماً. يجب أن أسأل تانوا في المرة القادمة. لكن هذا ليس مهماً الآن. المهم هو أن أكون على بينةٍ من الموقف الذي يجب أن أتخذه في المجلس، وبأسرع ما يمكن».

نادراً ما شعرت كيا بالحيرة كالآن. لماذا خان إخناتون ميتاني؟ هل هذه هي الحقيقة؟

يبدو كذلك، وإلا لأرسل قواته كحد أدنى. كما يبدو أنه موافق أيضاً على تبعية أوغاريت لحتّوشا. هل ينسحب من شمالي سوريا. إذاً هناك احتمال لوجود هذه الاتفاقية مع شوبيلوليوما. تماماً مثلما أسرّ لها تانوا. ولكن أيمكن الثقة بكلمة الملك الحتي؟ هل سيحترم الحدود؟ وهل سيحترم مملكة مستقلة مثل قطنا؟ أتراها كانت مخطئة عندما شتمت تانوا؟ اعتملت في داخلها مشاعر متضاربة. ما هو الأفضل لقطنا؟ لا بدّ لها من التماس نصيحة الربة.

قبل انعقاد مجلس الأعيان وصل تانوا إلى قطنا، والتمس مقابلة الملك فوراً، بحضور شالا وكيا، ومن دون أية مراسم.

«أنت ببساطة رجل يعتمد عليه. أهلاً بك يا صديقي تانوا! لقد جئت في الوقت المناسب. ماذا تحمل من أخبار جديدة؟».

وصف تانوا باختصار وضع ممالك مدن شمالي سوريا في ظل النظام الجديد الذي وضعه شوبيلوليوما، ثم انتقل للحديث عن قطنا، وعن أن الملك العظيم بانتظار إشارة واضحة منها. أشار تانوا إلى الاتفاق بين شوبيلوليوما وإخناتون، ووعْدِه باحترام منطقة النفوذ المصري. وأن الأمر الوحيد الذي يطلبه الملك العظيم هو اتخاذ قطنا موقفاً صريحاً إلى جانب الحتّيين، وفي المقام الأول، المساواة مع المصريين على صعيد الامتيازات التجارية. إنه لا ينوي أبداً احتلال قطنا وضمّها إلى المملكة الحتيّة. ولا ضرورة حتى لإبرام اتفاقية تبعية. تكفيه اتفاقية تجارية لكي تصبح حركة البضائع مع بابل آمنة تماماً وملائمة من حيث الأكلاف، ولا سيّما بعد التوصل إلى تحالف معلن وإلى رباط مصاهرة. ولن يكون في هذا أي استفزاز لإخناتون.

«يا كبيرة كهنة قطنا ويا ملكي!». قال تانوا، وشمل كيا الواقفة معهما بنظرة خاطفة، مسّتها على نحو غريب «تعرفون جميعكم اهتمامي بهذه المدينة. فأرجوكم من القلب أن تبدوا اهتماماً جدياً باقتراح الملك العظيم. إنه عرض استثنائي، ولا داعي لتأكيد ذلك. الملك ما زال مع الجيش في ألالاخ. إني أوصيكم بإرسال سفيركم إليه هناك بسرعة!».

«يجب أن نطرح هذا كله للنقاش في المجلس!».

«أعرف، ولكن لا تترددوا طويلاً!».

انحنى تانوا وانسحب فوراً من القصر والمدينة وانطلق على طريق العودة. لم يتبادل مع كيا شخصياً أي كلمة.

«كان جاداً تماماً فيما قاله. أعتقِد أنه أراد حقاً تحذيرنا. وإن لم نستجب، فسيهاجم الحتيون قطنا أيضاً».

أومأت شالا برأسها موافقة.

«ما هذا الذي أسمعه؟ أختي مترددة؟ وأنت أيضاً شالا؟ أما أنا فأرى أنها دلالة ضعف، أن يلتمس الملك العظيم المحترم وبأدب اتفاقية تجارية. ربما كان يخشى قطنا أكثر مما نتصور». وأمعن أكيزي التفكير قليلاً في هذا الاحتمال، ثم قال: «خطرت ببالي فكرة الآن، يحتمل أن تقلب الوضع رأساً على عقب». أشرق وجهه بشكل ملحوظ، إذ كان على ما يبدو راضياً عن نفسه. نظرت إليه المرأتان متسائلتين، لكنه صدّهما قائلاً: «لا، ليس الآن. يجب أن نتباحث في هذه الأمور كلها في المجلس»، ثم وبلهجة شبه آمرة أضاف: «اذهبا الآن واستشيرا عرّافة الربة».

غادرت كيا جناحه من دون تحية.

«ألن تخبرني أنا عما تنوي فعله أيها الملك أكيزي؟!». وأضافت في محاولة ثانية «قد يسهّل هذا تساؤلاتي لدى الربة».

تردد الملك برهة، ثم قرر أن يطلع شالا على خطته. سيكون من المفيد أن تكون هذه المرأة القوية إلى جانبه. إذا تمكنت على الأقل من أن تشكُم حركة كيا، فهذا في حد ذاته مكسب كبير.

بعد بضعة أيام انعقد اجتماع مجلس الأعيان في قاعة القصر الكبرى. هيمن على الجو إحساس بالريبة والخوف. وقف الأعضاء في مجموعات صغيرة وهم يتبادلون الأحاديث بقلق. كان الجميع يعرف أن الأمر يتعلق بمصير المدينة.

عاودت كبيرة الكاهنات طرح أسئلتها على ربة المدينة: هل ستنجح خطة الملك؟ كيف سيتصرف الحتيون؟ والمصريون؟ وبقية ملوك الممالك؟ لكن الربة امتنعت عن إعطائها أجوبة واضحة، كما أنها لم ترسل رؤاها إلى كيا أو إلى كاهنات أخريات. بقيت المرايا الداخلية سوداء. أما كهنة الرب بعل وبقية الأرباب فقد كانوا في حالة مشابهة من الاضطراب بسبب عدم وضوح البشارات. ماذا ينتظر قطنا؟ لم يبدُ أن لهذا الغموض أي تأثير في الملك، فغياب عرافات سيئة يمكن أن يفسّر على نحو إيجابي. كيا تملكها الخوف. ماذا يخبئ لهم أخوها؟ أي لعبة يلعب يا ترى؟ يا ربتي أين عونك؟

افتتح الزوج الملكي الجلسة، وقال الملك أكيزي: «ستكون هذه إحدى أصعب جلساتنا. فدعونا نطلب العون من ربة مدينتنا ومن بقية الأرباب ومن أسلافنا الأحبة!». ثم قدّم توصيفاً للوضع الراهن: مدينة تونيب المجاورة شمالاً باتت في يد الحتّيين. الجيش الحتي ما زال في الشمال مستعداً للتقدم نحو قطنا. عزيرا الأموري دعا المنطقة كلها إلى التصدي تحت إمرته للحتيين. لكن الملك أيتاكما القادشي راغب في الاستسلام لحتّوشا.

هنا قاطعه تيرو غاضباً وزاعماً بأن هذا يستحيل، فالملك لا يمكن أن يستسلم للحتيين من دون قتال.

«ما الذي يدعوك إلى هذا الكلام يا شيخ تيرو؟ ها هي ذي رسالته!».

«إنها مزيفة. إنها إحدى حيل الملك ليشلّ المجلس عن الفعل»، قال تيرو ملتفتاً إلى عامة الحضور، وأضاف: «فأنت وسفير الملك الحتي متفقان معاً!».

«أتقصد تانوا؟». تساءل أكيزي مندهشاً حقاً، وأردف: «كلكم تعرفون تانوا أو تالزو، منذ أن كان فتى في زيارته الأولى للمدينة مع أبيه. إنه صديقنا!».

«ومع ذلك هو سفير الملك العظيم».

«لقد خرجت عن الموضوع، يا شيخ تيرو. ما الفائدة من هذا؟».

«الأمر واضح جليّ: أنت تريد لقطنا أيضاً أن تستسلم!».

«أظن أن جميع مَن في القاعة يعرفون، أني كنت دائماً أدعو إلى موالاة مصر كقوة حامية لنا. فما الغرض من تجنّيك هذا الذي لا أساس له؟». وبقي أكيزي هادئاً مسترخياً، فها هو ذا خاله يكشف نفسه بنفسه! وأردف: «غير أن اعتراضك مفيد جداً لنا، فما أدراك أنت برغبات الملك أيتاكما الحقيقية؟ من أين لك هذا الاطّلاع الدقيق؟».

شاب الشك نظرة تيرو. إلامَ يهدف الملك؟

فتابع أكيزي: «أنا سأعطيكم الجواب أيها الأعيان». ونهض واقفاً ليجذب إليه انتباه الجميع، «وهو جواب سيّئ يا أصدقاء، سيّئ لأن ما سأقوله يتعلق بأحد أفراد عائلتي. ولكن لا مجال للسكوت عليه. الحقيقة يجب أن تخرج إلى النور. هنا، هنا يقف الخائن! لقد تآمر تيرو مع عزيرا الأموري، وأيتاكما القادشي، والشيخ پوسمور قائد البدو في منطقة قادش. هؤلاء الأربعة أرادوا إخضاع ملوك وأمراء سوريا وكنعان. كنتَ دائماً تطالب في المجلس بمملكة سورية مستقلة، يا تيرو. ما زال طلبك يرنّ في آذان الجميع. وهدفك الحقيقي هو أن تصبح أنت ملكاً مثل عزيرا وأيتاكما. فمن كان سيلغي الآخر؟ لكن الأمور لن تصل إلى

هذا الحد! كفى مؤامرات! أيتاكما أدرك أخيراً دلالات العصر، وأنه من الجنون التصدي لقوتين أو ثلاث قوى عظمى!».

توقف أكيزي قليلاً كي يسري مفعول كلماته. نظر إلى وجوه مرتاعة وإلى تيرو المتجمد في مكانه بلا حراك، ثم تابع: «لقد خدعتم رعاياكم. طالبتم بالاتحاد لمواجهة الحثّيين في المعركة، وهدفكم الحقيقي هو إخضاع الجيران الذين رفضوا دعوتكم. وبعض الحكام الميالين نوعاً ما اشتريتموهم بالكنوز التي نهبتموها من القوافل. كنوز نهبتها أنت من عائلتك بالذات. حتى أملاك إخناتون لم تردعكم عن النهب. اشتريتم مرتزقة. تريدون التضحية بزهرة شبابنا. وكل هذا بسبب الطمع بالسلطة. لقد خدعت مدينتك بالذات بصورة مشينة، يا تيرو! أيها الأرباب!».

عاود الملك الجلوس على عرشه وغطّى وجهه بيده برهة، ليؤكد انزعاجه.

نهض أوبيا الناطق باسم المجلس مرتاعاً، وقال: «ما ردّك يا تيرو بن نابليما؟».

جلس تيرو على كرسيه منكسراً، وبدا كمن أُخذ مباغتة، صامتاً، غارقاً في أفكاره.

«وأنت، أكيزي، من أين عرفت كل هذا؟ ألديك أدلّة على مزاعمك؟». سأل أوبيا الملك، بعدما تبين أن تيرو لا يريد الدفاع عن نفسه.

«يمكنني تقديم شهود!». وأخبر أعضاء المجلس عن الساعي الموقوف، الآتي من أمورو. وأضاف: «كما أقترح تفتيش دار تيرو ومخازنه في دار البلد، حيث سنعثر بالتأكيد على بعض القطع المنهوبة». هذه الفكرة خطرت في بال أكيزي آنياً. وبدا أن رميته قد أصابت الهدف، إذ لم يعلّق تيرو بكلمة، ما اعتبره المجلس اعترافاً.

«يا أعيان قطنا»، قال أوبيا بعد مداولة قصيرة مع أعضاء الدائرة الداخلية في المجلس: «يفترض بنا الآن في ظني اتخاذ القرارات المهمّة. لهذا نقضي بفصل تيرو بن نابليما من المجلس وبوضعه مبدئياً تحت الإقامة الجبرية المشددة، إلى أن نلتفت إلى قضيته».

من دون أدنى مقاومة ترك تيرو الحرس يقودونه خارجاً.

مثل تمثال معدني بوجه مكفهرّ تابعت الملكة الأم بلتوم فضيحة أخيها، وتحديداً على يد بكرها الحبيب. وأخيراً نهضت بعناء واقفة وغادرت القاعة مستندة على وصيفتيها. كادت كيا أن تأسف لها، ثم التفتت نحو أخيها. يا لها من ضربة معلم، لم تتوقع صدورها من أخيها. لم يترك لأحد من الحضور – سواها وشالا – أن يحدس بمعرفته بتورّط تيرو في جريمة قتل أبيه. ليس بوسع أحد أن يقدم الدليل على معرفته بالأمر. وهكذا تمكّن أكيزي

بنجاح أخيراً من استبعاد الخطر المتوقع من تيرو، وأن يستقر مرتاحاً على عرش نظيف.. على الأقل بالنسبة للبشر. أما الأرباب فلا يخفاهم شيء! ولكن ألا يعني هذا استمراره في بناء ملكه على أكاذيب؟ لا، ليس أكاذيب، بل كتمان! صحيح، فهو لم يتطرق إلى الأمر بتاتاً، لكنه زعم أن الحثّيين يتقدمون باتجاه قطنا. انتهزت كيا فرصة الاضطراب العام في القاعة، كي تصل إلى شالا وتسألها عن الأمر. فأجابتها هذه بلهجة تقارب التعنيف: «لا تذكري الأمر، إطلاقاً».

أظلمت عينا كيا وترنّحت. ولو لمْ تسندها شالا لسقطت على الأرض. أشارت شالا إلى أمينايه، فهرعت هذه لنجدتها، وقادت كيا إلى كرسيها وقدمت لها ماء لتشرب. بقيت الغشاوة على عينيها. خطرت في بالها كلمات غير مترابطة ومبهمة. لم يغادرها الشعور بالدوخة. أرادت أن تتكلم، ولكن لم يخرج أي صوت من بين شفتيها. أحسّت بغثيان، وأخذت ترتجف. حاولت أن تنهض متلمسة طريقها كالعمياء. أدركتها أمينايه فوراً وقادتها إلى خارج القاعة. وبعناء شديد ترنّحت كيا خارجة من باب جانبي إلى الباحة.

«كيف سارت الأمور بعد خروجي؟».

كانت كيا مستلقية على مضجع في غرفة معيشة أمها. لم يكن بمقدورها أن ترجع مع أمينايه إلى بيت الربة في حالتها تلك. بعد أن استراحت قليلاً، وتراجع الشعور بالغثيان والدوخة، وزالت الغشاوة عن عينيها، رجت صديقتها باكية أن ترافقها إلى جناح أمها، حيث أرادت أن ترتاح وحدها. كانت هاربة، لاجئة إلى مطارح طفولتها.

ناجت ربتها، التي أرسلت إليها الإشارة. ثمة عمل باطل يُفترض ألا تراه أو لا يجوز أن تراه. بصبر نافد انتظرت عودة أمها من الاجتماع. وإيست لم تستغرب وجودها عندها. أحاطت ابنتها بذراعيها بحب، مثلما كانت تُنيمها أيامَ الطفولة، فتدللها بعصير الفواكه المبرد وترطب لها الجو بالمروحة.

«لقد ثبّت أكيزي مركزه»، أجابت إيست «لا أدري ما إذا كان هذا لمصلحته أو لمصلحة المدينة. هو على أية حال يفعل ما بوسعه من أجل قطنا. لكن لا تسأليني عما إذا كانَ يختار الوسائل المناسبة لذلك». وتنهّدت.

«أمي، رجاء، أخبريني، ماذا قرروا؟».

«أرى يا بنتي، أنك سريعاً ما ستتحسنين». رغم جدية حالة ابنتها لم تستطع إيست أن

تكبت ابتسامتها. ثم قالت: «اتفقوا على عدم التعاطي مع عزيرا بعد اليوم. إما أنه بات على علم بأن ساعيه إلى تيرو قد وقع في المصيدة، وأن الخطة قد فُضحت علناً، أو أنه سرعان ما سيعرف. أنا متشوقة لمعرفة كيف سيتصرف».

«أرجّح بوقاحة، كعادته دائماً!».

«هذا مدعاة للخشية، فهو رجل بدائيّ. طيب، لنتابع.. وقرروا تنبيه الفرعون إخناتون مجدداً إلى خداع عزيرا. أخوك سيكتب الرسالة فوراً وسيصوغها تعبيراً عن الولاء لفرعون».

«هذا يعني أن قطنا ترفض طلب حتّوشا!».

«ترفض، كيف؟».

عضّت كيا على شفتها، ثم قالت: «قصدتُ، أن قطنا لن تستسلم لحتّوشا».

«لا. ما دامت الضرورة لذلك غير ملحة. ويبدو أنها غير موجودة».

«هل سيحدث قتال إذاً، في حال هاجمنا الحتيون؟ هذا جنون. نحن غير مستعدين لهذا إطلاقاً!».

«الأرجح أن القتال سيحدث، ولكن من دون قطنا، التي ستبقى على الحياد. من الواضح أن أيتاكما قد غيّر رأيه مؤخراً ثانية، ويريد فعلياً مع عزيرا مهاجمة الحتّيين بدلاً من الاستسلام لهم. هذا هو على الأقل ما يقوله الملك أكيزي».

يا له من ابن آوى، فكّرت كيا. إنه لم يذكر كلمة واحدة مما نصحه به تانوا بإلحاح. لماذا لا؟ أخذت تقلب الأمور على وجوهها وتعيد التفكير، إلى أن اعتقدت بأنها قد فهمت خطة أكيزي. سينجح أكيزي بطريقة ما بدفع عزيرا، إلى التبعية للحتيين. سيقول لأيتاكما مثلاً، إن قطنا تفضّل القتال إلى جانبه وجانب عزيرا، على التبعية للحتيين. أو أنه سيرسل ساعياً إلى تانوا، ليخبره بأنه قد علم من رجال استطلاعه أن الاثنين سيهاجمان الحتّيين - هناك خدعة ما قيد التحضير الآن. وفي حال وقوع هذا القتال، فهذا سيؤدي إلى نقض اتفاق شوبيلوليوما مع إخناتون، لأنه يقاتل حلفاء مصر، بل رعايا مصر، وعلى أرض مصرية. عندئذٍ لا بدّ لإخناتون من أن يتحرك، لأنه لن يقبل بهذا. وتبقى قطنا خارج المعمعة، إذ يرجَّح ألا يقترب الطرفان من المدينة بنيّة سوء. فيكون القرار الحاسم بذلك قد تأجّل. كيف تمكّن من التلاعب بأعضاء المجلس بهذه البساطة؟ وماذا عن شالا؟ سيدتها المحبوبة الفاضلة. أي دور تلعبه، وما هو هدفها؟ لماذا منعتها من الكلام؟ ما هذه

القضية الوسخة؟ آه لو أن تانوا إلى جانبها ثانية! فهو الوحيد الذي يمكن للإنسان محاورته بعقلانية. مدت يدها إلى تميمتها، لكنها سرعان ما طردت من داخلها هذه الخواطر. فهو لا يقلّ عنهم تعطُّشاً إلى السلطة. ألم يدعم ملكه بخططه البارعة، وبكل إمكاناته؟ وهو أولاً وأخيراً ليس سوى منفّذٍ للأوامر. ولكنْ بعد مرور وقت طويل، أقرّت لنفسها: أنا مثله، أتلقّى أوامر وأنفّذها. إنّي أنفّذ مشيئة كبيرة الكاهنات، لا أكثر. وهي تزعم أنها تنفذ مشيئة الربة، لا أكثر، أم مشيئة الملك؟ أية حرية تصرّف أمتلك أنا؟

**

أكد الجواسيس ما أشار إليه تانوا، بعد عودته من قطنا إلى ألالاخ، للملك وهنوتي ولهيئة الأركان عن احتمال انتهاز عزيرا الأموري الظروف المؤاتية له لتحقيق خططه الخاصة. إنه يحشد القوات حول إرقاتا، وهي تتحرك الآن باتجاه شرق نهر أرانتو. وقد رُصدت تحركات مشابهة حول قادش. أما قطنا فهي هادئة، لا خوف من جهتها. فانسحب شوبيلوليوما أخيراً مع هنوتي فقط للتشاور. ومن ثم خضع الملك للضرُورة، مضطراً، وتحرك جنوباً، إذ لا يجوز التخلي بسهولة عما تحقق حتى الآن. صحيح أنه لا بدّ من محاولة التفاوض مع عزيرا وأيتاكما، ولكن إنْ دعت الضرورة، فلا بدّ من كسر شوكة المهاجمين بقوة السلاح.

«يخامرني شعور غير مريح بشأن قطنا»، صرح شوبيلوليوما لهنوتي، وأردف: «يبدو أن تانوا لم يتوصل إلى شيء لدى الملك أكيزي، فحتى الآن لم يأتِ سفيره إلينا. أتعتقد أننا يمكن أن نثق بتانوا حقاً في هذه المسألة؟ المستغرب في الأمر هو زياراته المتكررة لقطنا طوال هذه السنين من دون أن يتوصل إلى إبعاد الملك عن مصر. هل أخبرك بشيء ما؟ أريدك أن ترسل إلى قطنا رجالاً موثوقين، أتفهم هنوتي، وليس من طاقم تانوا. نحن بحاجة إلى وضوح الرؤية بشأن ما يجري هناك».

«أعتقد أن الأمر لا يتعلق بتانوا، فقد بذل بالتأكيد جهده هناك، بل يتعلق بعناد ملك قطنا والأعيان. إنهم يريدون لتجارتهم حرية الحركة دون ارتباطات. وهناك مصاهرة بينهم وبين مصر».

«لكن طلَبنا لم يزعج الملك السابق».

«يحتمل أن الابن يريد الخروج من ظل والده. لكن التكهنات لا تفيدنا شيئاً. سأنفّذ

ما قلتَه. سأرسل أفضل رجال الاستطلاع عندي. إذا كانت قطنا تدبّر أمراً ما، فسنعرفه في الوقت المناسب. وفي حال الشك، سنهاجمها».

فيما تحرك الجيش بسرعة بموازاة أرانتو، فوصل بعد بضعة أيام إلى السهل في جنوب تونيپ، حيث أقيم المعسكر، هرع المفاوضون إلى أمورو وقادش لتجنّب المعركة المرتقبة. كانت خاتمة الجهود المبذولة كارثية. ما فعله الملكان بقي مجهولاً، لكن واحداً من المفاوضين فقط، أعيد إلى شوپيلوليوما، وفي حالة يرثى لها من التعذيب، وكان معه كيس يحتوي الرؤوس المقطوعة لبقية المفاوضين. كان هذا جواب الملكين.

لم يقبل الملك العظيم هذا الاستفزاز من جانب ملكي أمورو وقادش، حتى وإنْ كان في ذلك تعريض أمن العلاقة مع مصر لهزة قوية، فأعلن الاستعداد لخوض المعركة. في السهل غربي أرانتو هاجم مقاتلو أمورو وقادش والبدو القوات الحثيّة. وسرعان ما تبيّن أنهم قد استهانوا جداً بالحثّيين. فاضطرّوا إلى التقهقر جنوباً بتسارع ملحوظ، إلى أن هُزموا وسحقوا. قُتل منهم الكثير، وحلّ الخراب في البلاد. ولم يتوقف الفتك إلا عندما التمسوا الرحمة. تمكّن عزيرا من الهرب، لكن الحثّيين أسروا أيتاكما وعدداً من أعيان الإمارات والعائلات الكبيرة وشيوخ البدو المشاركين في القتال، وقرروا أخذهم إلى حتّوشا. وفوراً أرسل شوپيلوليوما إلى إخناتون رسالة تشرح له أن تابعيه عزيرا وأيتاكما لم يتركا له خياراً سوى خرق الاتفاقية. كان واضحاً للجميع أن إخناتون سيعتبر الحلف منتهكاً، وأنه سيهاجمهم.

في هذه الحال التفت شوپيلوليوما إلى قطنا. فإذا كانت الأمور ستصل إلى درجة النزاع مع مصر، فبإمكان المرء أن يضم قطنا أيضاً إلى منطقة نفوذ الحثّيين. وحسب أخبار رجال استطلاع هنوتي، كانت المدينة حقاً غير مجهزة للقتال.

أرسل الملك العظيم في طلب تانوا، وسأله ما إذا كان ملك قطنا مقامراً يراهن على بقاء مدينته سالمة؟ أو ما إذا كان يظن أن سوراً عالياً يشكل حماية كافية؟ فالسور العالي قد يكفي لمواجهة العدو الخارجي، ولكن ماذا عن العدو المتربص داخل المدينة؟ ضحك الملك وهو يقول كلماته الأخيرة، لكن وقعها كان مهدِّداً. ثم تابع قائلاً: لربما كان أكيزي ببساطة غبياً، يعتقد كالنعامة أنه في مأمن، ما دام رأسه مطموراً. ومثل هذا الشخص لا يرقى إلى مستوى صديق لتانوا.

شعر تانوا بأن الأرض تكاد تبتلعه خجلاً من هذا الاستهزاء. ولم يستوعب لماذا لم يرسل أكيزي حتى الآن سفيراً رسمياً إلى شوبيلوليوما، حسبما نصحه. ما الذي يجري في قطنا؟ وازداد قلقه بعد أن أكّد له هنوتي، أن الملك في مزاجه الحالي لن يقبل بهذا السلوك الآبق، لاسيما بعد توصّلنا إلى أن البوابات المغلقة لن تشكل عائقاً أمامنا.

قضى تانوا ليلة تمزّقه المشاعر بين موقفين. ما باله لا يتخلى عن قطنا وأكيزي وكيا؟ لقد بذل كل ما في وسعه لتحذيرهم، وهم لا يصغون، فماذا يفعل؟ بل بالعكس! ربما أصرت كيا على رأيها ثانية، بأنه قد خانهم، وأن كل ما يفعله ليس سوى فخّ. أيعقل أن تسيء فهمه إلى هذا الحد! لا شك في أنها تحب إخناتون هذا بجنون، وإلا لاحتفظت بتفكيرها السليم. لم يعد يهمّه أمرها، فهذه التهم التي رمته بها، لا حاجة له لأن يتقبلها منها، ولا سيّما من أميرة واهمة، معجبة بنفسها. ثم تسلّلت الشكوك إلى نفسه. كيف يتخلّى عنها ببساطة في حال الهجوم! صحيح أن شوبيلوليوما يشتعل غضباً، لأن كلاباً عُصاة مهووسين بالقتال ومغرورين بأنفسهم قد اعترضوا خططه فحرفوها عن هدفها، ما اضطرّه لتعريض علاقته غير المستقرة بعد مع إخناتون للخطر. وبما أن العملية كلها لم تكن ضرورية، فإن قطنا هي التي ستدفع الثمن. خرّ تانوا على ركبتيه وأخذ يتوسل للأرباب. لا بدّ من إيجاد حل! ولشدة إرهاقه كان نومه مضطرباً.

كيا! ها هي ذي ماثلة أمامه. برقت عيناها غضباً وأخذت تشتمه، ثم انهارت فجأة بين ذراعيه وقبّلته بعاطفة لم يعهدها فيها ولم يتوقعها منها. تهاوت صورة الحلم وانتفض تانوا مستيقظاً. لقد اقترب الصباح، ولا فكرة لديه بعد، عما يجب أن يفعل. إن أي تحذير سرّي لقطنا سيُعدّ الآن خيانة عظمى. وأخيراً قرر أن يلتمس من الملك منحه فرصة أخيرة لتغيير موقف قطنا. وإذا دعت الحاجة سيحكي له عن كيا، فقد يليّن هذا موقفه. كان يعرف أن الأمل ليس كبيراً. بل كان من المضحك أن يثقل على الملك بقصة حبٍّ تعس: ابن تاجر متولّهٍ في حبّ أميرة، لكنها تحب الفرعون، الذي تزوج امرأة أخرى.. لا شك في أن قصته ستضحك شوبيلوليوما حتى الموت.

«كانت تلك فعلاً اللحظة الأخيرة!».

كان الارتياح جلياً على هنوتي، عندما أخبر تانوا بأن وفداً من قطنا قد وصل أخيراً. «ما أبرد دمهم يا رجل، تحجّجوا بأن كثيراً من التحضيرات الواسعة كانت ضرورية لاستقبال

الملك الحتي وحاشيته. على أية حال، سبق أن سمعتُ أعذاراً أفضل. لكن ملكنا قبل عذرهم. فلنزر إذاً محبوبتك قطنا و... طيّب»، قال مهدّئاً ابن أخته الذي عبس في وجهه. لقد فهم، لا يجوز ذكر كيا. لكنه كان متلهّفاً لتعرّفها.

كانت المدينة والقصر مزدانين احتفالياً لاستقبال الموكب. وكانت هناك جموع غفيرة على أقدامها تهلّل للملك الغريب. عند البوابة الغربية استقبلت العائلةُ المالكة كلها وكثير من الأعيان والوجهاء وأصحاب المناصب والكاهنات والكهان الوفدَ الحتيَّ ورافقوه إلى القصر، الذي أدهش الضيوف باتساعه وفخامة فرشه ورياشه. كانت العروض الفنية والمأكولات جيدة جداً. لقد فكروا حقاً بكل شيء لجعل إقامة الوفد مريحة وطيبة ما أمكن. وبعد أسابيع كثيرة من القتال ها هم أولاء الحتيون يستمتعون ببيئة متحضّرة.

في أثناء المأدبة الاحتفالية الكبيرة استدعى شوبيلوليوما إليه كلاً من تانوا وهنوتي كي يسرّب إليهما معلومات عن الأشخاص المشاركين في المأدبة. وهكذا حتى العودة إلى المعسكر الحتي لم تسنح الفرصة لتانوا لتبادل الكلام مع أكيزي، سوى تحيات الاستقبال. وحتى هذه لم تسنح له مع كيا، فقد كانت مع شالا مشرفتين على تنفيذ الشعائر. حاول تبادل النظرات معها، فاستجابت ولكن بسرعة ودون أي عاطفة. إذاً لم يتغير أي شيء في موقفها. لكنه لاحظ أن الملك وهنوتي كانا يراقبانها بانتباه.

في اليوم التالي زار وفد من قطنا، برئاسة الملك أكيزي، الحتيّين في الخيمة الملكية الكبيرة، وبرفقته عدد من أبناء أعيان قطنا، الذين سيرافقون الحتيّين إلى بلاط حتّوشا حسب العرف المتبع. وكان الغرض من الدعوة في المقام الأول أن يتطرق اللابارنا إلى الاتفاقية. ولدهشته الشديدة قدم الوسيط القطني لووايا الذي يمثل تجارها، مسودة اتفاقية شاملة، تنظم العلاقات التجارية بين مملكة حتّوشا وقطنا، ومرّرها عبر موظف حتي إلى تانوا الذي يمثل بلاط حتّوشا في المفاوضات ويقوم بالترجمة. وفسّر لووايا هذه المبادرة غير المعتادة بأن قطنا استناداً إلى نشاطها التجاري المديد قد توصلت إلى توحيد معايير الاتفاقات، وهذا يسهّل العمل على السفير تانوا وزملائه في العمل.

ترك هذا أثراً عميقاً في نفس شوبيلوليوما، ولا سيّما الثقة بالنفس غير العادية لدى شريكه الجديد، الذي لم ينتظر بخنوعٍ ما قد يُقدَّم إليه. لا، بل هناك بعض الجسارة، عندما يمنح هو الميزات. ولكن كاستثناء، أُعجب الملك بالأمر. فألمح لتانوا بإشارة منه أن

يقدم من طرفه النصّ المجهّز للاتفاقية. يمكن للمفاوضات أن تنتظر. كان نهماً لمعرفة ما بمقدور قطنا أن تقدم. وهذا هو ما عُرض الآن بالتفصيل. وبالنسبة للملك الحتي العظيم كانت الأردية المقدمة إليه كضيف مغرية جداً. كانت مرصّعة بأشكال رائعة ذات لون أحمر قاتم، لم يسبق له أن رأى مثلها. هذا اللون الأحمر يسمّيه القطنيون أرجواني. ولم يسبق لشوپيلوليوما أن رآه إلا على ثوب تانوا المزين بشريط عريض من هذا اللون. ومنه عرف أيضاً أن المواد المستخدمة وطريقة تحضير اللون وطريقة الصباغة تعد أحد أسرار قطنا. فأقسم الملك في نفسه على أن هذا الحال لا بدّ أن يتغير.

ومن جانبه قدم لووايا أيضاً لائحة بالبضائع الحتيّة التي يحتمل نجاح التجارة بها في قطنا. فهمس شوپيلوليوما لهنوتي بأن هذا سيسعد قلب ميتانموا. افترق الطرفان على أفضل ما يرام، وبمناسبة الوداع أهدى شوپيلوليوما صديقه الجديد الملك أكيزي خنجراً من هبة السماء تأكيداً لتقديره العالي له. أن تلمس بيديك السلاح الحتي العجيب! ومن شدة الإثارة اهتز أكيزي. ألم يرتكب الملك العظيم خطأ بوضع هذا السلاح بين يديه؟

قبل عيد الحصاد كانت الاتفاقية بين حتّوشا وقطنا قد أبرمت. منحتِ المفاوضات تانوا الفرصة للبقاء بضعة أيام في قطنا قبل أن يسافر عائداً إلى حتّوشا. ثمة ما تغيّر. بصفته سفيراً رسمياً لم يعدْ يقيم في القصر كالسابق، بل في دار، أعلى المدينة قريبة من دار البلد، حيث جرت معظم اللقاءات. حتماً لم يكن وضعه الرسمي فحسب، ما سمح بتسلّل شيء من الغربة إلى العلاقة بينه وبين أكيزي. أخيراً عندما سنحت الفرصة لحديث شخصي في جناح أكيزي الخاص كانت التحية رسمية، خالية من الود السابق.

«لم يتضح لي إلا الآن، أنك حتّي يخدم الملك العظيم. أليس هذا مستغرباً؟ كنت أتجاهل ذلك طوال تلك السنوات. كنتَ صديقي ومستشاري. لم أراجع نفسي ولا مرة واحدة في ما ائتمنتك عليه، أنت بصفتك عدواً محتملاً!».

«وأنا لم أخن ثقتك أبداً، يا ملكي!».

«أنت ربما لا...». ونظر إليه أكيزي متفكراً، ثم سأله: «هل كنتم ستهجمون؟».

هز تانوا رأسه إيجاباً.

«وما كنت لتحذّرنا؟».

«لقد حذّرتكم! بل ورفعت صوتي وأنا أحاول إقناعك!».

«طبعاً حذّرتنا، بل عدّة مرات حتى. وربما إلى حدود المسموح به!».

التفت الرجلان نحو الباب. كيا. كعادتها في ثوب الكاهنة البسيط، الذي يبرز قوام الصبية اليافعة فيها. ومع ذلك بدت امرأة ناضجة وشخصية وقورة، وشى حبُّها التعس سماتِها بمسحة كآبة، ما جعلها في عيني تانوا أكثر جاذبية. كان بوده الاستجابة لحافزه بأن يعانقها. لكنه بقي جامداً على كرسيه. فمن ناحيتها تحديداً لم يكن يتوقع أية مساعدة. ولكن عندما اتجهت نحوه، نهض واقفاً. وضعت يمناها على كتفه وقالت: «أحيّيك، تالزو الترشيّ!».

هزّته التحية كلياً. لماذا استخدمت اسمه القديم؟

«ليكن الأرباب معكِ، كيّا القطْنية!». أجاب تحيّتها.

فصحّحت كلامه بصوت لطيف، قائلة: «الربّة.. لتكن الربّة معي!».

«شاركينا الجلسة يا أختي!».

«هل تتصافيان؟».

«أنا مسافر غداً. الاتفاقية أبرمت. إنها زيارة الوداع». يا للّهجة الرسمية!

«يا للسرعة التي انقضى بها الأمر! هل الاتفاقية فكرتك أنت؟ حسب علمي، كان على ممالك المدن الأخرى توقيع اتفاقيات تبعية، أم يفترض أن أقول إنها قد خُيّرت؟».

انزعج تانوا. ما الخطأ في هذا؟

«يبدو أن الأميرة مطّلعة جيداً كعادتها»، أجابها وأضاف: «ربما كان ما تعيبينه هذه المرة، أن لحتّوشا الآن الشروط التجارية نفسها، مثل مصر. أفي هذا ضرر لقطنا؟».

«للتجار، هذا حتماً مناسب. أما من الناحية السياسية فإن قطنا متضررة طبعاً. إخناتون لن يفسّر هذه العملية لمصلحتنا».

«حسب علمي، إخناتون غير مهتم بقطنا».

«مدى اهتمامه بقطنا، سنعرفه في الربيع القادم كحد أقصى، عندما تظهر قواته لمراجعة الحساب».

«وهل أعلنت قطنا تبعيتها لمصر؟ كنت أظن المدينة مستقلة. يبدو أن القرارات الحاسمة قد فاتتني».

«لا يمكنني تصور ذلك. فرجلكم، القائم بالأعمال التجارية، والذي يقوم عملياً بمهمّة الاستطلاع، يزوّدكم على الدوام بآخر الأخبار. يقال إن خبرته بالأقمشة والأحجار الكريمة والعطور لا يعتمد عليها».

صامتاً، تابع أكيزي الجدل المتصاعد حدّةً بين الاثنين، ثم تدخّل مهدّئاً من توتّر الطرفين: «أنا متأكّد أنك قد بذلت جهدك من أجلنا، تانوا. لنقل إن الاتفاقية هي الأفضل بين أسوأ الحلول. كنتَ تعرف دائماً، أني أميل أكثر إلى جانب مصر، التي نقيم معها منذ القديم صلات جيدة. فما الذي يستدعي التغيير، ما دمتَ قد أسررتَ إليّ أن حتّوشا ومصر قد تآخيا، وإنْ لم يكن أحد على علم بالأمر رسمياً؟ في حين أن التفات أبينا إيداندا إلى حتّوشا، قد جلب له الموت، كما تذكر. وبالمناسبة، لقد كشفنا مؤخراً كل شيء، الغزوات على القوافل وجريمة القتل. تيرو موجود الآن في الإقامة الجبرية المشددة».

«نحن كشفنا كل شيء؟». كان في سؤال كيا المبالغ في لهجة اندهاشه، أكثر مما يحتمل أكيزي. «عليك بمراجعتنا بسرعة في دار الشفاء، يا أخي العزيز. يبدو أن الأمور ليست على ما يرام فيما يتعلق بذاكرتك، بل ثمة ما ليس على ما يرام بك كلّك. لاحظت ذلك منذ مدة قريبة. أن يفكر المرء بقدرته على الإيقاع بين قوتين عظميين، وعلى حساب آخرين، فهذا يشير إلى وجود حالة مرضية. لكني أرى أني أزعج حديثكما الحميم، لذلك أفضّل ترككما وحدكما!».

نهضت كيا من مجلسها، ونظرت من عليائها إلى الرجلين اللذين تعرّضا لزجرها وتعنيفها، ثم قالت: «بالسلامة يا تالزو الترشي، فلتحمك الربة وتقودك إلى سبل الخير! ليلتك سعيدة، يا أخي!».

وقبل أن يتسنّى لتانوا وأكيزي أن يردّا، كانت قد غادرت الغرفة، تاركة لتانوا أسئلة أكثر من الأجوبة.

«ما بالها؟».

«لست أدري. حقاً لا أدري. يبدو أنها تعيسة. حتى أنها قد تركت بيت الربة وانسحبت إلى جناح أمها! وكبيرة الكاهنات منعتني أن أسألها عن السبب. أتعرف بماذا أفكر أحياناً؟ كان عليها أن تتزوج. انظر إلى إهلي نيكالو مثلاً. إنها امرأة رائعة، ممتلئة ومكتنزة، وولداً بعد الآخر، وهي راضية هانئة. كيا، على العكس، عجفاء تقريباً ومكروبة. وهذا ليس جميلاً، أليس كذلك؟». ونفخ أكيزي وهو يدلّك كرشه الصغير متفكراً. «ربما ما زالت تندب حبها الكبير. لن يدهشني هذا منها، مع عنادها الدائم».

**

أهمل تانوا أن يسأل أكيزي، عما عنته كيا باتهاماتها. ففي نهاية الحديث كان مسروراً لعودة شيء من اللهجة الحميمة بينهما، والفضل في ذلك يرجع لسلوك كيا. ولم يشأ تانوا تعريض ذلك للخطر مجدداً. ولكن بعد أن ودّع الملك، اعتمل الأمر في رأسه. كاد أن يزور الملحق التجاري الحتي ليعطيه تعليمات بهذا الشأن، إلا أنه غيّر رأيه وقرر أن يفكر ويستقصي بنفسه. فالوضع العام في المناطق الحتيّة الجديدة في سوريا، حتى حدود المناطق المصرية المزاحة، بدا له غير مستقرّ مطلقاً.

وطريق العودة الطويل إلى حتّوشا منحه فرصة التفكير بكيا وباللقاء الأخير معها. لا، لا يمكن أن يوافق أكيزي الرأيَ، فكيا ذات جمال نادر، بقوامها الرشيق، وعينيها اليقظتين ذات النظرات المبهمة، ويديها البديعتي التكوين. إن مقارنتها مع إهلي نيكالو ليس وارداً إطلاقاً. ولسانها الحاد دائماً. لولا هذه الغمامة المكفهرة بينهما لاستمتع بالجدل معها، فقد كان ملهماً، كالتقاء نصل سيفك بنصل عدو بالغ البراعة. إنها لم تتردد، ولو لحظة، بل كانت تردّ فوراً، لكنها كانت تفضل الهجوم على الصدّ. ثم إنها كانت جيدة الاطّلاع، حتى تفوقت عليه. ما الذي قصدته بتلميحاتها إلى ذاكرة أكيزي؟ وماذا عن الإيقاع بين القوى العظمى؟ لا شك أنها كانت تعني مصر والمملكة الحتيّة. ولكن ماذا بوسع أكيزي أن يؤثر على هذا الصعيد؟ هل انكشفت جريمة قتل الملك إيداندا أم لا؟ كيف نجحوا في ذلك؟

عندما وقفت كيا فجأة أمامه، كان يكفيه إشارة أو ابتسامة أو كلمة لطيفة، ليسقط أسيرها ثانية. في بداية اللقاء لم يكن قادراً على إبداء رأي فيها. لقد استخدمت اسمه القديم. ماذا قصدت من وراء ذلك. ثم هذا التأكيد على الربة. طبعاً كانت كاهنة الربة، لكن هذا لا يعني عادة عدم إبداء الاحترام تجاه الأرباب الآخرين كافة. لكنها صحّحت كلامه، لقد أصرّت على إقصاء سائر الأرباب الآخرين عندما حيّاها، وعندما باركت طريقه. هل تسير على خطا إخناتون؟ فتعبد هي الربة الوحيدة ويعبد هو الرب الوحيد؟ لا، لا معنى لهذا، بل إنه متناقض. لكن فكرته عن وحدانية الرب وجدت عندها تربة خصبة. ربُّه ذكر وربّتُها أنثى. هل تعارضه يا ترى؟ كيا ولا شيء سوى كيا. لماذا لا تتركه وشأنه صورة هذه المرأة! في البداية دافعت عنه ضد أكيزي، هكذا بدا الأمر، لتطعنه في الختام. لا بدّ أخيراً من أن يحذفها من حياته. فمن الجلي الواضح أن قلبها ملك لإخناتون وأحلامه الغريبة عن الواقع. ماذا يفتنها في هذا الإنسان الغريب العجيب؟ إنه لم يتعرف الفرعون إلا رسمياً، ولكن ليس

كإنسان، كرجل. ورغم كل استعراضه العائليّ العلني، كان دائماً يرتدي قناع الملك الرب، الذي يبدو عطوفاً من ناحية، وجباراً قاسياً كهبة السماء من ناحية أخرى. إنه مصرّ على فرض ربّه قسراً، رغم كل المقاومة. هل يستحق الأمر ذلك؟ وفي الوقت نفسه كان على تانوا أن يقرّ بإعجابه بهذا المصري، لإيمانه العميق بصواب سلوكه، ولإيمانه المطلق بربّه، وبأن واجبه المقدس يقوده إلى تقريب هذا الرب من فهم البشر قاطبة وهدايتهم إليه! وهذا بمشاركة قرينته الجميلة. أية قوى تكمن فيها يا ترى! إذا حدث أن خارت قوى إخناتون، فإن قواها لن تخونها، أبداً. هل تمتلك طيبة قلبٍ وشفقة يا ترى؟ هذا ما لا يعلمه. لكنه يعرف جيداً، أن الأفضل، هو ألا تكون نوفرتيتي عدوّته.

**

الهجوم المصري، الذي كانت حتّوشا تخشاه، لم يقع، لكن الأخ العزيز إخناتون أرعد وأزبد: لا يكفي انزعاجه المستمر بسبب نزاعات الإمارات الواقعة تحت النفوذ المصري، ليصل إلى علمه الآن، أن الملك شوبيلوليوما، على الرغم من تأكيداته، قد احتل مناطق في الجزء المصري من سوريا، فبات مسؤولاً عن سقوط أتباع مصر لصالح حتّوشا. والمقصود بكلام إخناتون هو أيتاكما ملك قادش. وقد استدعى الفرعون السفير الحثي (لورما) إلى قصر آخِت آتون ليقدم تفسيراً لما حدث. برر لورما سلوك سيده الملك، الذي اضطرّ للرد على استفزاز وقح من جانب رعايا مصريين، وأحال إلى ما ورد في الرسائل. أشار إخناتون بيده ليوقفه عن المتابعة، وقال إن ما حدث يعتبر ظلماً كبيراً وهو مستاء جداً من أخيه، ولكن ثمة الآن ما هو أكثر أهمّية للالتفات إليه. وصرف السفير.

لخّص تانوا الحالة كالتالي: «مصر وميتاني، التي سأعود للحديث عنها، ستبقيان مصدر الخطر الأكبر. من الناحية السياسية يعد الفرعون إخناتون حاكماً ضعيفاً، غير أنه يمارس تأثيراً هائلاً بدعوته إلى رب واحد، يتحدث إلى الناس عبره هو، وربما أيضاً عبر نوفرتيتي. لقد منع عبادة جميع الأرباب الآخرين، وأمر بهدم معابدهم أو إغلاقها. وإذا كان هو وعائلته في البداية محبوبين من قبل الشعب، يبدو الآن أن صلاته بالناس قد فُقدت إلى حدّ كبير. إنه لا يرى سوى أتباعه في إيمانه، وكثير من هؤلاء يتظاهرون بذلك فحسب. وقد حشدهم من حوله في عاصمته الجديدة آخِت آتون التي بناها في الصحراء. وهي بالمناسبة نموذج فريد على صعيد تخطيط المدن».

كان إعجاب تانوا بالمدينة مسموعاً عبر كلماته.

«هل توصلت إلى معرفة ما يبغيه الفرعون بهذا الرب آتون؟ لا بدّ بالتأكيد من وجود أسباب لاستعدائه جميع الأرباب الآخرين ضده؟».

«يصعب الحكم في هذه المسألة من خلال زياراتي القليلة. ما يمكنني هو فقط التعبير عن انطباعي، وبكلمات قاصرة. عبادة آتون كانت مفضلة عند والديّ إخناتون، وقد نشأ عليها. في بداية حكمه ترك إخناتون بقية الأرباب وشأنهم، ولم يلغ منهم سوى رب العالم الآخر أوزيريس. كان هذا بالتأكيد انعطافةً مهمّة لجميع المصريين، أي إنهاء محكمة الموتى. وبدلاً من أوزيريس صار الملك نفسه هو الذي يحدد من يصلح للانتقال إلى العالم الآخر. وبمرور السنوات تنامت ثقة الفرعون بنفسه، من حيث إدراكه آتون رباً أوحد، وأنه المبشِّر به ورسول إيمانه الحق. أنا أعتقد أن إخناتون مؤمن كامل الإيمان بهذا الدين».

«ولكن من هو آتون؟ هذا ما لم تقله بعد».

«الأصح هو أن نسأل ما هو آتون؟ حسبما فهمت، آتون هو نورٌ وحياة، أب وأم في الوقت نفسه. يجسدونه بقرص الشمس الذي تنطلق منه أشعة تنتهي في أيدي البشر، رمزاً لارتباط الرب بالأرض. آتون يتجلى عبر النور وبالنور. وعلى نقيض رب الشمس المعروف حتى الآن، هو نور الشمس الذي يتغلغل في الدنيا ويمنح الحياة. ولهذا فإن آتون سيد العوالم وكلي القدرة، لا يحتاج إلى زوجة، ولا عدو له. الناطق باسمه هو الفرعون، الرسول، النبي».

«الشمس والنور هما طبعاً الأكثر أهمّية. ولكن ماذا عن رب الطقس ورب الحرب وربة الحب و و و؟ أيفترض أن تكون كلها في رب واحد؟ هذا لا يعقل!».

«بل خارق لا مثيل له في رأيي. والحياة بعد الموت التي كانت الجوهر الأساسي في حياة المصريين، باتت بحركة ماهرة مرتبطة بيدي الملك، ينظمها كما يشاء! هذه هي السلطة المطلقة. فعلى الجميع أن يرتجف خشية ألا يلاقي قبولاً في عيني الملك. لا يجوز لأحد بعد الآن أن يقترف سوءاً».

غمرت الجميع دهشة لا تصدق.

«لست متأكداً»، قال تانوا متفكراً: «الانطباع الذي تولّد لديّ، كان أقرب إلى أن الفرعون يهمّه أن يؤكد في رسالته أن حياة الدنيا أهم من حياة الآخرة. يجوز أن أكون مخطئاً».

«دعونا لا نتعمق الآن في هذه الأفكار، كي لا نتوه عما اجتمعنا لنتحدث فيه»، نبّههم ميتانموا، وأضاف: «تانوا، تابع تقريرك!».

«حيثما توجهنا في البلد، كنا نحس بارتياب كبير بين الناس، كانوا يخافون المخبرين والوشاة. كثيرون يحكون وأكفّهم على أفواههم، والبعض يتذمرون علناً. ثمة ما يعتمل في نفوس العامة والسادة. إذا تكرر القحط بضع سنين، فأُرجّح أن ينتفض الناس بسرعة على طول نهر النيل. أحد دواعي التبرم والغيظ سببته قرينة الفرعون العظيمة. تأثيرها فيه عميق جداً، فقد توصلت إلى أن يتعامل معها الآخرون وكأنها شريكة في الحكم. وبأمر من إخناتون بُني لها معبد خاص، بصفتها كاهنة آتون الكبرى، لا يُسمح له بدخوله. كما حصَلت مثله على اسم ولادةٍ جديد: نَفرنِفرو – آتون، ومعناه: آتون هو الأكثر كمالاً. وهذا لم يعجب كثيرين، ولا سيّما كهنة آمون في طيبة (مركز عرش العالم) الذين استاؤوا إلى أقصى حد. وعقوبةً لهم أرسل إخناتون كاهنهم الأكبر، بلا تردد، إلى الصحراء الشرقية، رئيساً لمقلع حجارة. ولكن يبدو لي أن هذا كان بمثابة صبٍّ زيتٍ على النار.

بعد زيارتي الأخيرة ثبت لي شيء آخر، يمكن للورما أن يؤكده أيضاً، وهو أن إخناتون في سبيل نشر دين آتون خارج مصر، لا يغلو عنده شيء. إنه يعمّم فكرة دعوته على البشر أجمعين، وإرشادِهم إلى النور الحق الوحيد، آتون، لينالوا نصيبهم من هذه السعادة. في بلاد كوش، جنوب مصر، يبدو أن الأمر قد نجح إلى حد بعيد. لكن هدفه الثاني الآن، سيكون بالتأكيد إمارات الساحل السوري، وبعضها ميّال إلى قبول الرب الجديد، صعوداً حتى ميتاني، حيث يُعبد رب الشمس أساساً بصفته رب الأرباب. وعلى سبيل التذكير، هناك مصاهرة بين إخناتون والملك توشراتا الهارب، الذي يراهن بكل شيء لاستعادة عرشه وبلده!».

ساد لغط اجتماع مجلس الشيوخ الحثي، ومن وسط فوضى الأصوات سُمعت هتافات غاضبة: «بحق السماء، إخناتون سيلخبط كل شيء».

«من دون أن يضع حتى قدمه خارج مصر، سينشر الاضطراب في كل مكان».

«إنه حقاً مجنون!».

«متعصب!».

«سيعاقبه الأرباب ويعاقبون بلده وسيشملنا العقاب جميعنا بسبب كفره! كيف له أن يوقف عبادتهم؟».

«لا بدّ من كبح جماحه».

«فلننتظر قدوم الشتاء، لنرى ما يأتي معه من تطورات»، قال شوبيلوليوما في محاولة لتهدئة الخواطر، وأضاف: «علينا ربط خيوط شبكة مخبرينا بعناية، من ميتاني إلى مصر»، والتفت إلى ميتانموا رئيس إدارة شؤون الدولة.

أومأ هذا برأسه موافقاً وقال: «رجالنا، يا شمسي، موجودون في كل مكان، أو هم في طريقهم إلى مناطق عملهم. وحتى داخل أرض المملكة أكثرْنا من المحطات على الطرق الرئيسية، بحيث تصلنا الأخبار بسرعة، مهما كان الطقس سيئاً. يجب دائماً أن نسبق الأحداث بخطوة!».

هزّ الملك رأسه باستحسان.

فعلّق هنوتي مذكراً: «إضافة إلى ذلك، يجب ألا نقع في خطأ تركيز أعيننا على الجنوب فقط. الحدود الأخرى يجب مراقبتها بالدرجة نفسها من الاهتمام. أصدقاؤنا الكشكيون هادئون على نحو مريب، ما يولّد القلق في نفسي».

«مخبرونا موجودون هناك أيضاً، والأوضاع عندهم هادئة. ربما، لأن قسماً منهم بات مرتبطاً بجيشنا، ولأن التبادل التجاري معهم ناجح حالياً. سياستنا الاقتصادية الذكية المعتمدة على تجميع المؤونة في مخازن الحبوب أثبتت جدواها وآتت أُكلها. لولا شحنات المساعدات في الشتاء الماضي، لكان الحال في الشمال مزرياً، أليس كذلك؟».

«لا أحد يشك في ذكائك، ميتانموا. أطعم الأفواه، فتستحي العيون!».

تذكر تانوا هذا المثَل وفكر فيه بعد شهور، وهو خارج من الاجتماع الموسع الثاني لمجلس الشيوخ. فإخناتون لم يرسل قوات عسكرية، ولا أي نوع آخر من المساعدة إلى رعاياه الأحبة في كنعان وأمكي وأوبِه وغيرها من الإمارات، لردع الأعداء الخارجيين أو الداخليين. ولم يفكر حتى في التصدي عسكرياً لحتّوشا، بغية استعادة المناطق السليبة. لكنه عوضاً عن ذلك أرسل إليهم كهنة آتون لنشر الدين الجديد. ولتسهيل تقبّل الأمر على هذا أو ذاك، أرسل الفرعون مع بعثته الدينية هدايا وذهباً! واستثنى من هذه النِّعمَ مملكتي أمورو وقادش، إذ اعتبرهما خائنتين وجاحدتين، وقد استحقّتا العقوبة. أما قطنا فقد كافأها.. أم عاقبها.. بالصمت.

يبدو أن الملك توشراتا قد حصل على دعم ما، إذ ظهر ثانية في ميتاني – أو ما تبقى

منها - وأخذ يزرع الفتنة ضد الملك الذي نصّبه شوبيلوليوما، ملقباً إياه عبد الحثّيين. ومن يوم إلى آخر تصاعد خطر اللجوء إلى السلاح، وإذا لم تلجأ حتّوشا إلى الفعل، فستضيع فتوحاتها التي أنجزتها العام الماضي. والأكثر من ذلك: في منطقة الساحل السوري كلها، اندلعت حروب صغيرة لا تحمد عقباها بين جميع الأمراء والملوك، ولم يعد يعرف أحد أسباب هجوم هذا على ذاك، فكيف يمكن إيقافها؟ وفي ختام الاجتماع لم يتوصل الشيوخ إلى الإجماع على رأي. قسم منهم أيد حملة عسكرية جديدة، لكن غالبيتهم عارضت ذلك، بحجة أنه لا يمكن كسب رعايا راضين بتدمير بلادهم سنوياً. كما أن تخريب ميتاني لن يجلب سوى مدن مهدمة وحقول محروقة لا جدوى منها لسنوات طويلة. هذا إضافة إلى احتمال استفزاز آشور. وهذا كله لا يفيد شيئاً في حل مشكلة إخناتون، فالجهود ستهدر في ميدان ثانوي. ثم إنه لا جدوى من التفكير بمواجهة إخناتون عسكرياً، لأن حتّوشا أساساً لا تبغي فتح مصر، ولأن إخناتون يتهرب من أي نزاع حربي. إنه يحارب بسلاح آخر. فكيف سيكون الرد عليه؟ أرجىء الاجتماع إلى الغد.

عاد هنوتي وتانوا من أحد اللقاءات العائليّة النادرة في دار الجدّة شوميري. كانت أمسية سارة، أنستهما لبضع ساعات كل همومهما. لقد احتلّ الحفيد تانوا مكانة خاصة في قلب شوميري، مثلما أَنِس هو إلى جدته وقدَّر حكمتها في الحياة. ولكن رغم كل هذه العاطفة، فإنه لم يجرؤ مرة على طرح الأسئلة التي تؤرقه عليها. وإذا جاءت سيرة أمه في الحديث، كان يرهف أذنيه و ينصت دون أن يلتقط أكثر من بضع تنويهات. بدا له من المؤكد أن إحِيّا ليس أباه. فمن إذاً؟ ولم يستطع أن يواري شكّه في أن هنوتي يعرف شيئاً عن الموضوع ويتحاشاه دائماً بطريقة أو أخرى. لم يبقَ سوى الملك، حسبما نصحته هتي في العام الماضي. ولكن بماذا يتعلل لمفاتحة الملك بمثل هذه القصة؟ اعذرني، يا شمسي، أتعرف بالمصادفة من هو أبي؟ يستحيل. همومه تكفيه. الملكة مالنيغال حامل للمرة الثانية وأكثر مزاجية وأشد عنداً من عادتها، مع أنها فاتنة أحياناً. لكن صوت هنوتي انتزعه من أفكاره.

«إنه لأمر لا يصدق، أن يفكر كل هؤلاء الأذكياء بمشكلة إخناتون، ولا يقدم أي منهم اقتراحاً مقبولاً. أين أفكارك النيرة؟ لطالما كنت دائماً صاحب المبادرة في حل المسائل الشائكة».

بدا على وجه تانوا إحساسه بالذنب.

«ما معنى هذا الآن؟ ألا تعرف أم أنك تخبئ خطّة ما؟». أصرّ هنوتي.

أحس تانوا كمن سُكبت عليه طاسة حارة وطاسة باردة. ففي واقع الأمر، خطرت في باله فكرة خارقة، خارقة إلى درجة أن جاهد يائساً لطردها من رأسه.

«أعطني بعض الوقت، هنوتي. لا بدّ من أن أستشير الأرباب. إذا كانت فكرتي ذات جدوى فلا يمكنني أن أبوح بها إلا لك وللملك».

سكت هنوتي على غير عادته، لكنه سأل وهو على وشك المغادرة: «هل أُطمئن الملك؟».

«رجاء يا خال، تريّث قليلاً!».

«لا تدعنا ننتظر طويلاً! ولا تنادني يا خال!».

كما لو أن جميع الأفكار الأخرى قد امّحت. هنوتي على حق. الوقت يمضي ولا يُمهِل. القرارات بصدد السنة الجديدة يجب أن تُتّخذ الآن. ولكن أيحقّ له التدخّل في حياة إنسان مصيريّاً؟

قدم تانوا أضحياته في المعبد الكبير، متوسّلاً نصيحة الأرباب. بلا جدوى. لا شك في أنهم قد فكّروا بأنهم قدموا كفاية. ألم يوحوا إليه بالفكرة؟ قضى تانوا ليلة سهاد، ناجى فيها نفسه والأرباب. استعرض ثانية في مخيلته كل ما مرَّ به من تجارب، وعندما جاء الصباح كان قد حسم أمره، فأبلغ هنوتي برغبته في حديث مع الملك، لا يحضره سوى ثلاثتهم، فالموضوع يتعلق بالفرعون إخناتون.

في اليوم التالي استدعاهما الملك إلى جناحه الخاص، في الساعة الأولى بعد المغيب. أُدخل تانوا إلى غرفة صغيرة، وجد فيها الملك وتانوا بانتظاره. ومن دون أية مقدمات رسمية طالبه الملك بالدخول في الموضوع فوراً.

«مسألة ميتاني سنحلّها. المشكلة ليست هناك، بل في مشروع إخناتون، الذي يهدّدنا بخسارة نفوذنا الجديد في منطقة الساحل السوري. صحيح؟».

هزّ الرجلان رأسيهما موافقين.

«كيف سنعالج مشروع إخناتون؟ ليس بقوة السلاح، إلا إذ كنا سنهاجم أرض النيل نفسها، وهذا ما لا يفكر فيه أحد هنا. وليس بالهدايا، إذ لديه ما يكفي من الذهب والفضة والحجارة الكريمة!».

«ربما يمكننا إغواؤه بهبة السماء، لولا أننا نريد الاحتفاظ بها لأنفسنا فقط، للمرحلة الحالية على الأقل»، قال شوبيلوليوما مع ابتسامة ماكرة.

رفع تانوا نظره متفاجئاً. إذ لم يسبق في حضوره أن ذكر هذا السر علناً بهذه الطريقة. لاحظ الملك دهشته، فربّت على كتفه قائلاً: «هنوتي أعلمك بالأمر، أعرف ذلك وأعرف أيضاً أنك سوف تكتمه في نفسك حتى الموت. تابع الآن وهات اللبّ!». لقد كان متشوقاً حقاً.

«قد تثيره فعلاً هبة السماء. أقرّ بأني لم أفكر بالأمر أبداً. لكني فكّرت بهبة من نوع آخر. الفرعون إخناتون سيحتفل هذه السنة احتفالاً عظيماً بعيد جلوسه، بمناسبة مرور اثنتي عشرة سنة على اعتلائه العرش. ستحضر الاحتفال في آخِت آتون وفود من جميع بلدان الدنيا».

«ونحن طبعاً سنرسل وفداً أيضاً»، قاطعه الملك.

«هذا بديهي.. وكذلك قطنا، ولكن عليها هذه المرة، إضافة إلى الأقمشة الأرجوانية والعاج والعطور، أن ترسل شيئاً آخر: عروساً».

جالت نظرات الملك خائبة بين هنوتي وتانوا. «وما هو الخاص في هذا؟ حريم الفرعون متخم، كما يقال. السيدات ذوات الحسب والنسب يعشن هناك في أجمل سجن، مسلوبات ملذّات الحياة. يبدو أن إخناتون لا يهتم إلا بزوجته نوفرتيتي. رب واحد، زوجة واحدة».

أشار هنوتي وتانوا بيديهما مرعوبين، وكأنهما يقولان: ما هذا التجديف بحق الأرباب!؟

«لكنها عروس خاصة جداً، سبق أن احتلت المكان الأول في قلب إخناتون، وهو في قلبها». وأخبر تانوا شوبيلوليوما عن علاقة الحب السعيد التي ربطت آنذاك بين وليّ العهد أمونحوتب وكيا، التي تعرّفها شوبيلوليوما مؤخراً كاهنة للربة حارسة قطنا. واقترح استخدام كيا سلاحاً ضد إخناتون. فمجرد وجودها سيخفّف من غلواء الفرعون، وسيلتفت إليها بدلاً من الساحل السوري.

«وأنت متأكد من حبها له؟». سأله الملك.

«نعم، إنها تحبه، وتتحرق شوقاً إليه، وتكرهه في الوقت نفسه لنسيانه إياها».

«وهل نسيها؟».

«لا أعرف»، أجاب تانوا «لكنني متأكد من أمر واحد: إذا كان لامرأة أن تجذب اهتمام الفرعون، فهي أميرة قطنا».

«سنفكّر في الأمر». وصرف الملك تانوا.

لجأ تانوا إلى مقرّه شاكراً وغرق في أفكاره المؤلمة. هل خان كيا، أم أهداها بذلك السعادة التي اتهمته بسلبه إياها؟ بالنسبة إليه الآن مات أي أمل. قد لا يسعه في المستقبل رؤيتها، فضلاً عن التحدث معها. اشتد عليه العذاب، إلى حد أن اشتهى الموت. لكن الأمر يتعلق بسعادتها وليس بسعادتك أنت، وبمصلحة حتّوشا وسلامتها.. هذا ما كان يقرع به رأسه بلا هوادة.

«كلما تمعّنت في الفكرة، ازداد إعجابي بها»، قال شوبيلوليوما لهنوتي الذي تابع تقرير تانوا مذهولاً. ماذا يعتمل في نفس الشاب الآن؟ هل يبيع الآن، وبسعر باهظ، المرأة التي يحبها أكثر من حياته، إلى رجل آخر، ولو كان الفرعون؟ وفي لحظة ما توضحت الفكرة لهنوتي: إن سلوك تانوا نابع من حبه الإيثاري لها. يجب أن تصبح كيا سعيدة.

«ما رأيك؟ هنوتي؟». انتزع الملك قائد جيشه من تفكيره، وأردف: «فكرة معقولة، أليس كذلك؟ إنه يحبها، صحيح؟».

هز هنوتي رأسه موافقاً، رغماً عنه، وقال: «نعم، إنه يحبها. منذ إقامته الأولى في قطنا، ورغم أنه ليس من طبقتها».

«وماذا عنها؟ ما موقفها منه؟».

«إنها تقدّره عالياً وتحترمه. حتماً مرت أوقات أظهرت فيها تجاهه عاطفة أخوّة صريحة. وقد ائتمنته، حسب علمي، على كثير من همومها. نعم، إنها تودّه جداً. ولكن ما نفع ذلك؟ أنا أرى أن السؤال الأكثر أهمّية هو: كيف سنحملها على تبنّي قضيتنا؟».

«بناء على تصوّر تانوا، يُفترض بها أنها ستفيض سعادةً، بحصولها أخيراً على الفرصة غير المنتظرة لتكون قرب الحبيب. لكنني أشاركك شكوكك يا صديقي. فالحب من بعيد يمكن أن يكون جميلاً جداً، لكن التخلي عن الحياة الحالية والمكانة الرفيعة التي تحتلها بصفتها أميرة وكاهنة في قطنا، وألفتها مع كل ما يحيط بها، هذا شيء آخر. ثم إنها ستتساءل: ماذا ينتظرها في مصر؟ هناك مثلاً قرينة الفرعون. نوفرتيتي لن تستقبلها بذراعين مفتوحتين. وقد لا تسمح لها بالمثول أمام الفرعون إطلاقاً».

«يجب أن يكون لدينا ما يغوي الأميرة، إلى حد ألا يكون أمامها من خيار، سوى الذهاب إلى إخناتون، لتأسر قلبه، وتخفّف من غلوائه، على الأقل فيما يخص نشاطاته في الساحل السوري».

«أو ما يجبرها على الانصياع لمخطّطاتنا».

نظر هنوتي إلى الملك متسائلاً: «بماذا تفكّر، يا شمسي؟».

«ألا يخطر في بالك شيء حقاً، هنوتي؟». وبعد صمت قصير، ليدع هنوتي يفكر، أضاف: «أنت وتانوا قدمتما للمملكة خدمات جليلة وكثيرة، ولهذا فقد استحققتما مهلة أخرى».

بعد محاولة تخمين قصير، انعكست على وجه هنوتي دلالات فهم، ثم انزعاج، ثم ارتياح، ثم انزعاج جديد. الملك يعرف السر! لقد خمّن ذلك طوال الوقت. لكن شوپيلوليوما لم يُشر على الإطلاق إلى أنه على علم بالأمر، ما جعل هنوتي مطمئناً. ولكن ها هو ذا يسهم بنفسه الآن في توريط تانوا أيضاً. يا أرباب السماء! أهذا هو المصير المقدر؟ ألا نجاة من القدر؟ ماذا سيحدث بعد؟ ما مدى عاطفة كيا تجاه تانوا؟ كل هذه الأفكار تدافعت معاً إلى رأس هنوتي. أخيراً نهض شوپيلوليوما واقترب من هنوتي.

«أنا آسف، يا صديقي العزيز، بكل صدق. لن أرفع حمايتي عنكما، ما دمت قادراً على ذلك، مع متابعة البحث عن حلول. ولكن الأمر الآن، قد يكون المنقذ الوحيد، من الفوضى التي تهدد بلداناً كثيرة، إذا استمر إخناتون في متابعة طريقه بعناد. دعنا إذاً نحمد الأرباب ولا نعترض على أحكامهم. سوف نحضّر وندبر كل شيء، ونوفد تانوا إلى قطنا رسمياً. نانينزي سيكون ساعيَّ الخاص إلى الأميرة. أنت ترى يا عزيزي أني أطلعك على كل شيء. لن يحدث شيء من وراء ظهرك. أما تانوا فكلانا يرغب في مراعاته، أليس كذلك؟».

صعُب على الملك أن يبيّن لرئيس أركان جيشه وصديقه الحميم أنه ممسك بمصيره. لكن الأرباب يطالبون بذلك لمصلحة البلد، لذلك عليه أن يذعن لهم كالآخرين كافة.

قبل أن ينطلق تانوا في منتصف الشتاء نحو قطنا، لأداء أصعب مهمّة في حياته، وصل إلى حتّوشا نبأ موت ابنتي الفرعون: (نفرنفروري) و(سِتيِنْري)، أولاهما في الرابعة، وثانيتهما لم تتجاوز الثانية من عمرها.

**

كانت الدهشة كبيرة، عندما وصل تانوا وأتباعه إلى قطنا قبل عيد الربيع بوقت طويل.. كانت الرحلة مرهقة جداً، لكنها وفرت في أثنائها لتانوا على الأقل لقاء جديداً مع والديه في ترشا. أمه كالي المتماسكة عاطفياً عادة، لم تردْ أن تفلت ابنها من بين ذراعيها. كان جلياً لتانوا أن أمه قد هرمت، في حين وجد إحيا بديناً ككرة ومسروراً على نحو يتناقض مع صورة أمه. وفي هذه المرة أيضاً أحضر تانوا معه كثيراً من الهدايا، ورسالتين من العائلة، إحداهما من هنوتي الذي ائتمنه عليها على نحو خاص وطلب منه إتلافها، في حال تعرضت لأي خطر قبل وصوله إلى ترشا. وجعله يقسم على ذلك. وقد أمل تانوا بأن تخبره أمه بهذا الأمر المهم الذي أراد هنوتي إبلاغها به. لكن أمله ضاع هباء. فما إن انتهت من قراءة الرسالة، حتى تلاشت بهجتها بوصوله. انسحبت للصلاة دون أن تنبس بكلمة، ولم تسمح له برؤيتها إلا عند الوداع. ولم تجب على أسئلته الملحة، إلا بنظراتها المتألمة، إلى درجة أن ضمّها إلى صدره بحبّ وهمس لها ببعض كلمات المواساة. ثم قبّل يديها وغادر بقلب مثقل بالحزن. أما إحيا فهزّ كتفيه محتاراً، كعادته في مثل هذه المواقف. قاد المجموعة إلى الميناء، حيث وجد لهم سفينة رغم العواصف الشتائية، ستوصلهم إما إلى أروادا و إما إلى سومورا المجاورة.

لو لم يكن تانوا مضطراً لتحضير نفسه لمهمّته، لأمضى الوقت كله خلال الرحلة البحرية المزعجة ممعناً التفكير بمضمون رسالة هنوتي. أهي مشكلة بين هنوتي وكالي؟ بسبب هنوتي وكالي؟ من أجل هنوتي وكالي؟ ألها علاقة بالأسرة؟ أم أنها على صلة بطريقة ما بمهمته؟ ولكن ماذا؟ كل قدراته على التفكير والربط والتحليل والتخيل لم تسعفه في شيء. هل ثمة ما يهدد هنوتي فأربك أمه؟ قبيل الرحلة كان هنوتي هادئاً ومنطوياً على نفسه. وتانوا لم يعِ ذلك حينذاك، فقد كان منشغلاً بألمه الخاص. وها هو ذا الآن، ناقل الخبر السعيد إلى قطنا، الذي سيهوي به إلى غياهب التعاسة. ولكن ما كان للملك أن يعرف مدى قرب كيا إليه. كيا!.. كانت الشكوك المرعبة تداهمه طوال الوقت، عما إذا كان تصرّفه صائباً. يحتمل أنه يؤدي بذلك خدمة كبيرة لكيا. ولكن ماذا ستواجه في مصر؟ ما المتوقع من إخناتون، وما الذي قد يخشى منه؟ ومن نوفرتيتي؟ ألم يرتكب خطأً مريعاً؟ الفقدان المرتقب جعله ينسى كل ما وقع بينهما، وكل ما يقف عائقاً بينهما. لماذا قدَّر عليه الأرباب هذا المصير؟ لماذا لا يستطيع ببساطة أن يحب امرأة من طبقته؟ لماذا أميرة بالتحديد؟ لو كان من مقامها، هل كانت العلاقة بينهما ستنجح؟ ألهذا لم تشعر بنفسها حتى الآن مندفعة إلى حبه؟ لو أنه من مقامها، لكان بمقدوره أن يطلب يدها، منذ زيارته الأولى لقطنا. كم

مضى على ذلك، وحبه لها ما يزال على ما هو عليه! حبه لها لن ينتهي أبداً. بغض النظر عما قد يحدث، سيبقى محافظاً على وعده لها، بالوقوف إلى جانبها دائماً. عليه حتى في مصر أن يحافظ على عين ساهرة عليها دائماً. فما أكثر ما يمكن أن تتعرض له هناك! دفعته الفكرة إلى التفكير بعناية بخطة لمساعدة كيا في مصر، لا بنفسه مباشرة، ولكن عبر ذراعه الطويلة: شخص موثوق من حلقة كيا الخاصة. أخذ يفكر. طبعاً، أمينايا! مؤكد أنها لن تتخلى عن صديقتها، بل سترافقها إلى الغربة. عليه أن يبحث الأمر كله مع أمينايا. وفي سومورا غادر السفينة إلى البر مرتاح النفس.

**

لحسن الحظ سار اللقاء مع أكيزي من دون توترات، فأكيزي لم يكن حقوداً. وقد سُرّ هذه المرة فعلاً بقدوم صديقه، كما في الماضي، رغم علمه بأنه لن يقوم بهذه الرحلة الخطيرة في الشتاء، إلا لسبب بالغ الأهمّية. أمر بسرعة بتجهيز مأدبة استقبال، دعا إليها أفراد العائلة المصغّرة وكبار وجهاء البلد. رأى تانوا كثيراً من الوجوه المألوفة وافتقد بعض من ماتوا في الشتاء. وفي المقابل كان حشد الأطفال حول إهلي نيكالو قد توسع، أما هي نفسها فقد تحولت نهائياً إلى دور الأم، وزالت دلالات السخط من وجهها وباتت تغض الطرف بكرم عن غراميات زوجها. كانت المأدبة مرحة.

وكما قبل سنوات وأيام تصدّر تانوا المائدة إلى جانب الملك أكيزي في صالة الطعام، وعيناه تكادان لا تفارقان وجه كيا، التي جلست إلى جانب شالا. كان استقبالها له ودوداً، ولكن ليس قلبياً، ربما لوجود كبيرة الكاهنات إلى جانبها. كانت كيا قد عادت إلى بيت الربة. حسناً، سيجد فرصة للحديث معها، فالأمر من طبيعة مهمته هذه المرة. ماذا ركبه الآن، لم يجد له تفسيراً لاحقاً، سوى باستحضاره الشعور الذي انتابه أثناء أول مأدبة على هذه المائدة، فعندما التقت نظراته مع نظرات كيا، لعَّب عينيه بهياج. آنذاك أدت هذه الحركة إلى إضحاكها، لكنها في هذه المرة لم تحرك في وجهها الجاد سوى ابتسامة. الرابطة بينهما لم تتمزق كلياً إذاً.

«ما وراءك هذه المرة؟». سأله أكيزي «لا بدّ من وجود أمر بالغ الخصوصية، دفعك إلى السفر هذه المسافة البعيدة في هذا الطقس».

كانا قد انسحبا إلى ملجأ أكيزي في الجناح الغربي من القصر وجلسا يحتسيان نبيذاً حلواً منكّهاً. في الخارج ساد طقس بارد مثلج وريح تعول.

«أحمل لك رسالة من ملك حتّوشا العظيم»، وأخرج تانوا من كيسه الصغير المعلق بحزامه لوحاً طينياً مختوماً.

«أتعرف مضمونها؟». سأله أكيزي، فأومأ تانوا برأسه، فتابع أكيزي: «إذاً يمكنك أن تقرأها لي. ادخل في الموضوع مباشرة ودعك من ثرثرة الديباجة».

«لكن الملك العظيم يخاطبك فيها بلقب يا صديقي. أتريد أن تفوّت ذلك على نفسك؟».

«عرفت. إنه أمر يُذهِبُ السَكْرة»، اشتكى أكيزي بجدية مفتعلة، ثم قال: «هيا، هات. إنه لعذاب».

«نعم يا صديقي، أنت محق، الأمر جاد، بل جاد جداً. ويؤسفني أني لست قادراً على إعفائك منه. أرجوك، اقرأها بنفسك».

«طيب، هاتها. إنها على الأقل بالأكدية».

قرأ: «الملك الشمس، الملك العظيم، لابارنا حتّوشا، شوبيلوليوما يحيّي صديقه أكيزي، ملك قطنا.. صحبتك وذويك السلامة.

إنك تدرك حتماً، أنه لا يجوز حدوث أية اضطرابات في منطقتك، لأنها ستزعج أخي العزيز، الفرعون إخناتون. يجب العمل على تهدئة خاطره، وإسعاد قلبه بعروس جديدة، بمناسبة عيد جلوسه. ليس عندي بنات، ولا يمكننا إرسال فتاة حتية أخرى إلى آخِت أتون، مهما كانت ذات حسب ونسب، لأنها لن تناسب مقامه. لكن أختك الفاتنة تحقق جميع الشروط. إنها ستحتل قلب الفرعون. ستنجب له أبناء وتواسيه لفقدان ابنتيه المحبوبتين. ستهدئ خاطره وتشفي جراحه».

بحلق أكيزي في وجه تانوا مذهولاً.

«هل فهمتُ كل شيء على نحو صحيح؟ عليّ أن أعرض كيا على الفرعون عروساً؟ ما الخيرُ في الأمر؟ لن يحدث هذا من دون موافقتها! أنت تعرفها حق المعرفة. وفي حال موافقتها، يجب أن نجهزها في أيام قليلة، للسفر إلى مصر، لتظهر أمام صاحب الجلالة في الموعد المناسب تماماً.. كيف ستدبر ذلك؟».

سؤال وجيه. ولكن لا بدّ لها من أن تنجح. فحتّوشا تراهن على ذلك بالكثير. لا خيار أمام كيا. ما بدا في بداية الأمر حلاً مثالياً، لتحقيق اللقاء بين إنسانين، قدّر الأرباب مصيرهما معاً، قد تراجع الآن نتيجة الضرورة السياسية القاسية والعنيفة. حتّوشا تصرّ على ذهاب كيا، وليس على هذا فحسب، وإنما على تحقيق كيا هدفاً وحيداً: أن تكسب إخناتون إلى جانبها. يجب أن تصبح قرينة الملك الرئيسية العظيمة. بتحقيقها ذلك، لا يتراجع نفوذ نوفرتيتي فحسب، بل ستتمكن كيا في المستقبل من إيقاف إخناتون عن زرع الفتن في الساحل السوري، الأمر الذي يلحق الضرر بمصالح حتّوشا. وكل ما عدا ذلك سيّان بالنسبة للحثيين.

«ها أنت ذا تكرّر ثانية، أن حتّوشا تصر على ذهاب كيا إلى مصر. ما هذه اللهجة؟ كيف ستُجبر على تنفيذ هذه الخطوة؟ أليس بيننا اتفاقية مشتركة متبادلة؟!».

«أكيزي، ما هو الأكثر أهمّية برأيك، على المدى الطويل، فرعون مسالماً أم قطنا راضية؟».

شحب أكيزي. «شوبيلوليوما يبرز مخالبه إذاً. هل هذا تهديد؟ إن لم تذهب كيا، تكون قطنا هي الثمن، أليس كذلك؟».

وافقه تانوا بهزة من رأسه، ثم قال ملحّاً: «يفضّل أن يبقى ما تحدثنا فيه، بيننا فقط، إلى الأبد. من المحتمل أن تسعد كيا بفرصة الذهاب إلى إخناتون. ألم تقل لي بلسانك، في اللقاء الأخير، إنها تحبه رغم كل ما أذنبه بحقها؟ تحدّث إليها!».

«غداً»، قال أكيزي باقتضاب. «في أمور حاسمة من هذا القبيل لا أستطيع ولا أريد أن أقضي فيها وحدي».

«الآراء في مجلس الأعيان كانت متباينة، ولكن لدهشتي، رحبت غالبية الأعضاء باقتراح ملكك العظيم. من ناحية أمي الملكة، لا أستغرب ذلك»، قال أكيزي ضاحكاً بمرارة، وأضاف: «لكنني توقعت من بعض الآخرين أسئلة تحفر عميقاً، من شالا مثلاً. غير أني لم أسمع شيئاً. اكتفوا بالتبرير الوارد في الرسالة اكتفاء تاماً».

«وما رأي كيا بهذا كله؟».

«لم تحضر اجتماع المجلس، وأنا لم أتكلم معها بعد. أريد حضورك أثناء ذلك».

«أتقصد أن لا فكرة لديها حتى الآن؟».

«ولنفترض أنها تعرف. كيا تعرف منذ طفولتها، أن زواجها باعتبارها ضمانة محتمل وممكن. والفضل في بقائها هنا في قطنا حتى الآن يعود إلى تدليل أبي لها ولصبري الطويل».

ها هي لهجة التعالي تجاه المرأة، التي يمقتها تانوا في أكيزي وأمثاله.

عندما ظهرت كيا، رأى تانوا في عينيها نظرات العارف بالأمر. وببساطة لم يكن معقولاً، أن شالا، سيدتها وأمها تربوياً، لم تُحِطها فوراً علماً بالأمر. لكنه لم يقرأ في وجهها رد فعلها على الخبر. أنصتت من دون أي ردة فعل إلى أكيزي وهو يقرأ لها رسالة الملك العظيم. ثم قالت: «يجب أن أفكر في الأمر. تالزو، أنت أتوقع حضورك بأسرع ما يمكن إلى بيت الربة، لنتكلم!».

صلّب تانوا ذراعيه وانحنى لها.

«هذا هو أسلوبها كالعادة!». قال أكيزي لصديقه بلهجة شاكية، بعد أن غادرت كيا الغرفة، وأضاف: «لا يمكنك أن تحدثها بحكمة. ماذا يمكنك إخبارها، ولا أستطيع أنا قوله لها؟ على أية حال، لنبدأ بالتحضيرات».

**

منذ وقت طويل لم تكن كيا مضطربة بهذا الشكل. عندما فاتحتها شالا بأن مجلس الأعيان قد اصطفاها - وكذلك لابارنا حتّوشا - عروساً لإخناتون، غلبتها الدهشة. لم ترسل إليها الربة أي نذير بهذا الشأن. أبعدَ كل هذه السنوات، وبعد كل هذا الانتظار العبثي، وبعد كل الدموع، ثمة مستقبل لهما؟ كان هذا لا يصدَّق. دهمتها سخونة شديدة. كيف يبدو الآن يا ترى؟ نظرته، صوته، يداه الرقيقتان الناعمتان، كل ما في مظهره تبدى أمام عينيها فجأة. هل يمكن لعجلة الزمن أن تدور إلى الوراء؟

ثم هيمنت عليها الأصوات المحذِّرة. هل يعلم إخناتون بالأمر؟ ماذا، إن لم يتذكرها إطلاقاً؟ أو لم يعد يريدها؟ هي حتماً لن تفرض نفسها. وماذا عن نوفرتيتي؟ ألم تعد في القصر؟ حسب آخر أخبار السفير أكيا، هناك إشارات إلى جفاء في جو العائلة المالكة. ثلاث بنات من ست مُتنَ خلال سنة واحدة. لم يكن هذا مروعاً فحسب بالنسبة للعائلة، بل هو نذير سوء مرعب للبلد ككل. هل الرب غاضب؟ هل نوفرتيتي هي السبب؟

والآن عليها أن تنوب عنها، بديلاً، نخباً ثانياً؟ وربما مساعدة مؤقتة وأقل شأناً؟ لا يحق لأحد أن يتصرف بها وكأنها كرة، يرميها إلى هنا أو هناك، كما يشاء. مجلس الأعيان رغب، والملك العظيم أمر، لا، ما هكذا تعالج الأمور. لقد تصالحت مع حياتها بصفتها مستقبلاً كبيرة كاهنات الربة. كما تجاوزت الأزمة الصعبة التي سببت الشقاق بينها وبين شالا مدة من الزمن، لأن كيا رفضت القبول بضرورة التضحية في سبيل البلد، حتى من جانب الأرباب. بدا لها الأمر عبثياً. ولكن بعد أن تجلّت لها الربة عدّة مرات وأوحت إليها، انصاعت قانعة بأنها تبشّر بسلطان الربة وقوتها، وتنطق بحمدها. فعاودت ممارسة جميع أعمالها السابقة، فأدارت دار الشفاء، وكرّست نفسها لتشريح القرابين الحيوانية بغية قراءة الكهانة، وساعدت كبيرة الكاهنات حيثما استطاعت. فهل على هذا أن يصبح جزءاً من الماضي؟ في بلاط آخت آتون ستنتظرها حياة مختلفة كلياً. عليها أن تترك وراءها كل ما ألفته، مع احتمال خطر ألا يتعطّف عليها إخناتون ولو بنظرة، وأن ينفيها إلى حريمه فوراً. لا، هذا غير مقبول. فمن خططهما المشتركة لم يتبقّ أي شيء. لقد حققها وانتهى مع تلك المرأة الأخرى. فماذا تبقّى لها؟

تحدّثت مع شالا مطولاً. وشالا في نهاية المطاف ستخسر خليفتها، لكنها رأت أن عليها القبول برغبة المجلس. وكان هذا رأي صديقتها العزيزة أمينابة وأمها إيست أيضاً. وأخيراً كان لا بدّ من أن تلجأ إلى ربّتها. وبعد التهجُّد صائمة طوال ليلة في المعبد، فسّرت صمت الربة على أنه رفض للحظة، فأرسلت إلى أكيزي مَن يخبره بأنها تفضّل البقاء في قطنا.

لكن الأمر كان قد حُسم وانتهى. تبين لها ذلك عقب الحديث مع تانوا. تُركت وحدها معه، حسب رغبتها، فأسئلتها له لا يجوز أن تسمعها آذان غريبة. وحسبما خشيت وتوقعت، كان وراء الأمر أكثر بكثير من مجرد تهنئة الفرعون بعيد جلوسه.

«أنا إذاً أداتكم، سلاحكم السري، لتفادي الحرب. يجب تهدئة الفرعون. يجب أن أحول دون نشره دين ربه في الساحل السوري. ما السوء في ربه.. سوى أنه ليس ربة؟». وأتبعت الملاحظة الأخيرة بابتسامة ناعمة، لم يستجب لها تانوا، بل قال متماسكاً: «ظننتُ أننا نؤدي خدمة لك بذلك، أن نجعلك أخيراً سعيدة بالوجود قربه. ألم تكن هذه رغبتك الحميمة؟».

صمتت كيا. هو إذاً هو صاحب الفكرة. كان بإمكانها أن تتصور، أنه حقاً أحد القلائل

القادرين على كبت رغباتهم وأحلامهم، من أجل تحقيق سعادتها. أن يمحو نفسه، ليمكّنها من العيش مع حبيبها، من دون تلك النيات السيئة الغادرة، التي يربطها الآخرون بها. إنه روحُ محبة نقية. ووعيها المفاجئ بهذا جعلها ترتجف. ثم تماسكت.

«وماذا إنْ أخفقت؟ إن لم أعجبه؟ أنا لم أعد في الخامسة عشرة. كما أنني لم أعد عذراء، كما تعرف».

كان وقع ذلك مريراً. فالجرح الذي سببه لها أكيزي، ما زالت ندبته حية.

«كيا، أنت لن تخفقي! ثم إنكن في دار الشفاء تعرفن كل الأسرار التي يستخدمها الضالعون في العلم، لفتنة الرجل وإسعاده، أليس هذا صحيحاً؟ الفرعون يحتاج إلى ابن، لن تنجبه له نوفرتيتي على ما يبدو. ولهذا السبب الملك غاضب، حسبما نسمع».

ركزت كيا نظرها في عينيه طويلاً، صامتة، إلى أن لم يعد تانوا قادراً على الاحتمال. هل قرأت كل ما في نفسه؟ وما حاول أن يخفيه عنها؟ سألها بصوت خافت: «لماذا عدتِ إلى اسمي القديم تالزو؟».

«هذا ما أمرتني به الربة» أجابته مندهشة، وأردفت: «ألم أخبرك بذلك؟».

«الربة ذكرتني أنا؟».

«باستمرار، ولكن لا يحق لي الخوض في الموضوع. ولكن أخبرني أنت تالزو، ما الذي قد يحدث، إذا رفضتُ تنفيذ المهمّة، إذ إني لا أجد تسمية أخرى لطلبكم؟».

«ماذا تعتقدين؟». وأخبرها التعبير الذي كسا وجهه بأكثر من ألف كلمة.

«أعتقد أن الحتّيين، جماعتك، سيُخضِعون المدينة. وإن دعت الضرورة، يدمرونها». وأضافت متسائلة: «ألهذا الحد تبلغ أهمّية حفظ السلام بالنسبة إلى الملك العظيم؟ وإضافة بعض الأرباب إلى أربابه الذي يتجاوزون الألف؟ أعليّ أن أضحك أم أبكي؟ أليس ملككم ببساطة طمّاع ونهم إلى السلطة؟ ذئب بفروة خروف؟ وأنت تبيعني إياه بصفته مخلّصاً ونصيراً للسلام. لا بدّ أن أهضم هذا أولاً. إذاً، لماذا لا يعيد قادش وأمورو إلى إخناتون؟».

لم يمتلك تانوا جواباً جاهزاً لهذا السؤال.

«هل أنت متأكد، يا تالزو الترشي، أنهم يطلعونك على كلِ ما يُدبَّر في حتّوشا؟ ألست أيضاً مجرد كرة في لعبة الكبار الأقوياء، يرميها صاحبها حيثما شاء؟ حتى ولو ارتفع شأنك جداً في حتّوشا وبتّ قادراً على فعل الكثير، إلى أي مدى تصل ذراعك حقاً؟».

كانت كيا جادة جداً في طرح أسئلتها، بعيداً عن سخريتها الهازئة المعهودة. من الواضح أنها كانت قلقة. قلقة بشأنه. والشكوك التي كانت تعذبه منذ أسابيع، انفلتت من داخله: «كيا، لا أستطيع إجابتك عن كل هذه الأسئلة. لم أعد أعرف ما هو خير وصائب، ما هو مهم ومفيد، وما لا بدّ منه. ما أعرفه هو أني أحبك وأريد حمايتك من أي أذى. اهربي معي، الوقت ما زال لصالحنا. سنجد مكاناً نعيش فيه، ثقي بي!».

يا أرباب السماء جميعكم! هل قال هذا بصوت عال، أم أنه فكر فيه فقط؟ لم يظهر على وجهها أي رد فعل موضحٍ لموقفها. نظرت إليه متسائلة دون أي تبدّل في عينيها، ثم نهضت واقفة بوقار، وقالت له: «أنا شاكرة لك إيضاحاتك يا صديقي. أعتقد أنه لم يعد بوسعك أن تفعل أكثر من هذا من أجلي».

فنهض تانوا بدوره وقال: «كيفما جاء قرارك، يا كيا القطنية، سأبقى معك بأفكاري وأفعالي. إذا حدث أن تعرّضت لأزمة، ناديني، وسأسمعك. أرسلي إلي تميمتك. لقد أحضرت شيئاً آخر. خذي هذا الخاتم. أرجو منك شيئاً واحداً فقط: ضعيه دائماً في اصبعك. إذا طرأت ظروف قصوى، حماك الأرباب منها، يمكنك استخدامه منقذاً. إنه يحتوي مادة لها تأثير كالموت يدوم عدّة أيام. عليك أن تضغطي عليه. كوني حذرة! سأصلّي إلى الأرباب راجياً ألا تضطرّي للجوء إلى هذا الإجراء الوقائي. رافقتك السلامة، كيا!».

وضع تانوا الخاتم على طاولة صغيرة.

انحنى لكيا انحناءة احترام عميقة وغادر بيت الربة.

بدا وكأن دقائق قليلة فقط قد مرت على مغادرة تالزو، وكيا تحاول ترتيب أفكارها للوصول إلى قرار، عندما سمعت اسمها بصوت خافت. ظنت باديءَ الأمر أن تالزو قد عاد، لكنها تعرفت من ثم صوت أمينابة. فتحت كيا الباب ورأت بصحبة أمينابة امرأة بحجاب كامل.

«رفضت الانصراف بأي شكل، وهي تلجلج اسمك باستمرار». أوضحت أمينابة.

أومأت كيا برأسها وطلبت من الغريبة الدخول. بقيت أمينابة واقفة بتردد، فأشارت لها كيا، كي تتركهما وحدهما. بسرعة الريح انسلّت أمينابة عبر الدَّرج السري عائدة إلى جناح كيا، واختبأت في حجرة مجاورة، حيث يمكنها عبر فتحة في الجدار مراقبة كل

ما يجري بصورة جيدة. هذه الترتيبات المعمارية موجودة في عدّة أمكنة في بيت الربة، لحماية الكاهنات من زوّار طارئين فضوليين.

حدس كيا لم يخب. لم يُخفِ الحجاب وراءه وجهاً نسائياً. بدت ملامح الوجه غير غريبة لكيا. وعندما حيّاها الصوت هامساً، تعرفت صوت نانيزي، السفير الحتي بلكنته الواضحة. قطّبت جبينها مستاءة وقالت: «ما سبب هذا السلوك المتستر؟ لماذا تأتي إلى هذا المكان متنكراً بهذا الشكل؟ هذا مكان يحظر عليك دخوله! إنك تخرق سلام الربة. أتعرف معنى هذا؟».

نزل نانيزي على ركبته قائلاً: «عفوك يا سيدتي، لكنني لم أجد طريقة أخرى للوصول إليكِ! أحمل لك رسالة من اللابارنا، موجّهة إليك وحدك. وحياتي كفالة ذلك».

«يبدو أنني موضع اهتمام خاص حالياً. حسناً، انهض! ما هو مضمون الرسالة؟».

تعثّر نانيزي بعناءٍ في النهوض. لو كانت الظروف مختلفة لوجدت كيا تسلية في ذلك. لكن مزاجها كان مختلفاً تماماً الآن. ناولها نانيزي لوحاً طينياً صغيراً يحمل خاتم الملك، يثبت هويته كرسول، وفقط، من دون نص آخر. فأشارت له كي يقترب منها ويتكلم. انحنى لها وأغمض عينيه، وردّد بصوت خافت كلمات الملك العظيم. بقيت كيا بضع دقائق صامتة، كمن ضربتها صاعقة، ثم هوت على كرسيّ واطئ. تسارعت أفكارها، وخفق قلبها بشدة حتى أحست بالنبض في عنقها. كان لا بدّ أن تكسب بعض الوقت. أجّلت جوابها حتى الغد، ووعدت نانيزي بلقائه في دار مربّيتها عند المغيب. هناك ستخبره بكل ما يرغب الملك في سماعه. بذلت جهداً لتنادي كاهنةً مستجدةً لترافق ضيفها، الذي أعاد تنكّره، إلى خارج بيت الربة، ثم انهارت.

استعادت وعيها بين يدي أمينابة الحنونتين، التي كانت تنشّقها محلولاً منعشاً. كان جسم كيا كله يرتجف.

«هل عرفتِ الذي كان عندي؟». فأومأت أمينابة.

«وهل فهمت ما قاله؟».

«لا! كان صوته خافتاً جداً. ما الأمر؟».

«لا يجوز لي أن أطلعك عليه»، قالت ذلك بلهجة اليائس. «وعليك أن تكتمي أمر هذه الزيارة. أقسمي لي على ذلك الآن! لا يجوز لأحد أن يعرف بأمرها، لا أحد، أسمعت!».

وبعد أن وعدتها أمينابة بالكتمان التام استلقت كيا على سريرها قائلة: «سأرتاح قليلاً الآن. بعد ذلك سأذهب إلى شالا. سأرجوها وأرجوكِ يا صديقتي العزيزة أن ترافقاني إلى الملك!».

هزت أمينابة رأسها موافقة. فردت غطاءً دافئاً من اللباد على كتفي كيا، حرّكت الفحم في المجمر، وغادرت المخدع بهدوء.

ولكن من أين ستأتي الراحة!؟ كانت الأفكار تتلاطم في رأس كيا. لقد هدّدها اللابارنا وهدد المدينة. يجب أن تخضع لإرادته خضوعاً غير مشروط. وإضافة إلى ذلك طالبها بكل قحة أن تبوح له بسر قطنا. ما سبب نهم العالم كله إلى هذا الأرجوان؟ ألا توجد ألوان أخرى جميلة؟ على مرّ السنين حاول كثيرون سرقة السر، فكان الموت مصيرهم. ضحكت كيا بمرارة. فليطّلع على السر. في حتّوشا لن يستفيدوا منه بشيء، إطلاقاً.

وهو يهدّدها لا بتدمير المدينة ومحو عائلتها كلها فحسب، بل ابتزّها شخصياً. من الواضح أنه يخشى خشية حقيقية احتمال أن يكون مصير قطنا بالنسبة إليها سيّان. ولتكون خطوته التالية مضمونة العواقب، فقد أكرهها على الخضوع بتهديدها بحياة شخص يعزّ عليها فقده. أيصعب التكهن بمن يقصد، ما دام المعنيّ لا يمكن إلا أن يكون حيّاً! حتى نانينزي عرف لا شك مَن المقصود، لكن هذا سيان، فإن فتح فمه فسيفقد لسانه أو يديه أو يُقتل فوراً.

يا ربتي، ما هذا الجنون!؟ ما كان يُعتبر في مصر أقرب إلى الضرورة، يعاقبُ عليه بالموت في حتّوشا! كيف يطالب الأرباب البشر بشيء هنا، وبآخر مختلف هناك؟ غالباً ما تكون مشيئة الأرباب عصيّة على الإدراك. والآن تُطالب هي بتقديم العون. هي! على أي أساس بنى الملك قناعته بأنها ستتأثر بشروحاته؟ لكنها اعترفت لنفسها بأن تقييمه لها كان صائباً تماماً: فهي لا يمكن أن تخذل صديقاً. لذلك لا بدّ لها من أن تنفذ إرادة الملك. ولكن، ألا تصير بذلك مذنبة أيضاً؟ ليس تجاه ربتها. بيليت إكاليم لا تطالب بالموت لقاء ذلك. أم تُراها تطالب به؟ فكّرت كيا بطفلها الذي فقدته. أبعدت هذه الأفكار عن رأسها. لقد مضى وقت طويل على ذلك. والواجب الآن هو التحكم بالحاضر. مذنبة.. إنها متورطة على كل حال. كل هذا الخداع والتضليل بشأن اعتلاء أكيزي العرش. كم يثقل هذا روحها! هل يمكن للبشر أن يبقوا أنقياء بلا ذنوب؟ هذا أمر ستقرره الربة! هي التي ستقودني على الدرب وتحميني.

نهضت مصمّمة. سأسافر إلى مصر وأنفذ المهمّة. لا يجوز بسببي أنا، أن يلحق الأذى بعائلتي وبقطنا وبأي عزيز عليّ. ويحتمل أن يصير الأمر واقعاً، ويسود السلام بجهدي. سيكون ذلك مكافأة كبيرة. كل ما عدا ذلك سيهون، الربة ستسهل ذلك.

**

إعلان كيا أمام شهود كُثر في القصر، عن قبولها بالانتقال إلى بلاط الفرعون في آخِت آتون، وبكل النتائج المترتبة على ذلك، جلب ارتياحاً كبيراً في جميع الأوساط.

«ألم ترغب في ذلك منذ سنوات طويلة؟». همست الملكة بلتوم لكنّتها إهلي نيكالو، لكنها عندما رأت وجهها المبلّل بالدموع هزّت كتفيها مستغربة.

تلقّى أكيزي قبول كيا، من دون أي استفسار، مسروراً برفع هذا العبء عن كاهله، وشاكراً لأخته توفيرها عليه اللجوء إلى إجراءات الضغط. كان أكيزي واعياً بوجود كثير مما يحول دون التقارب بينه وبينها، ولكن كان أمراً مقيتاً بالنسبة إليه أن تسافر وهما على شقاق. فقد كان لديه ما يكفيه من المنغصات التي لا بدّ من التعامل معها. فأبلغ تانوا بسرعة بالانعطافة الجيدة.

بعد ذلك دبّت حتى حركة قلقة في قطنا. كان لا بدّ قبل الرحلة من تحضير أمور كثيرة وترتيبها. وبينما كانت كيا تستعلم في دار الشفاء ولدى أمها إيست عن كل ما بدا لها مفيداً لمهمّتها، وتُجري حوارات طويلة مع أخويها أكيزي وكواري، بُدئ بتحضير مهرها بإشراف الملكة بلتوم ومساعدة إيست. وكان هذا بمثابة معجزة صغيرة، أن تلتقي المرأتان بسبب كيا. ولكن لا الأم ولا الابنة توهّمتا بأن بلتوم تتصرف انطلاقاً من شعور مفاجئ بالصداقة. كانت فرحة ببساطة لاختفاء كيا على الأقل من قطنا. وبصراحة فظّة سألت ابنها، ما إذا كان بمستطاع إيست الآن أن ترافق ابنتها، لحنينها الأكيد إلى وطنها. علماً بأنها خير من يعرف أن الأرملة تنتمي إلى العائلة المالكة في قطنا برباط لا ينفصم.

شيئاً فشيئاً بدئ بجمع جهاز كيا، وترتيبه بكلّ عناية، في صناديق وعلب: ثياب، أحذية، زنانير، حجابات وخمارات وأشياء أخرى كثيرة. أقمشة مختلفة الصنع، سجّاد وبسط، وتزيينات جدارية ثمينة، أصواف ملونة وغير ملونة، ومن بينها الصوف الأزرق المرغوب جداً. إضافة إلى مئات المثاقيل من الذهب الأصفر والأحمر والحلي الثمينة وأشياء أخرى كثيرة.

أما الهدايا المخصصة للفرعون فقد اهتم بأمرها أكيزي شخصياً، إلى درجة أن راجع بشأنها كواري وأكالينا في دار البلد. ستكون قطنا كريمة وسخية. كما أرسل إلى مصر سعاة ووفداً لتهيئة كل ما يتعلق بوصول الأميرة إلى مصر.

سيرافق كيا عددٌ من النساء، من وصيفات وخادمات للإشراف على شؤونها في الطريق. إلا أن الأهم بالنسبة إلى كيا كان موافقة أمينابة على مرافقتها.

عانقتا إحداهما الأخرى في تفاهم حميمي، عندما أخبرتها أمينابة بموافقة شالا على فقدان كاهنة ثانية. لكن شالا أخفت عن كيا الدور الذي كان لتانوا في اتخاذها هذا القرار، لكنها استدعت إليها أمينابة عدّة مرات قبل الرحلة، وطالبتها بمنتهى الكتمان بشأن التعليمات التي ستتلقاها هناك سواء منها أو من تانوا. وعند ذلك فقط اتضح لأمينابة أن رحلة كيا إلى مصر والمهمّة المرتبطة بها لن تكونا لعقّ عسل، بل بالعكس. ولهذا يُفضّل أن تهيّئ نفسها للأسوأ. وقد أسعدتها جداً كل هذه العناية المحِبّة، ولا سيّما التي أبداها تانوا تجاه كيا. ليته كان أميراً ابن ملك! لكان كل شيء بسيطاً.

**

«حلزونات؟ أتجرؤ على أن تحضر لي حلزونات ميتة؟ رائحتها مقرفة. أتسخر أميرة قطنا من ملك حتّوشا؟».

ارتمى نانيزي أرضاً كي يهدئ من غضب الملك، وقال: «لا، يا شمسي، الأمر ليس كما تظن. ما أبعد الأميرة عن محاولة إهانتك. إنها ترسل إليك الحيوانات، التي ينمو في داخلها اللون الأرجواني. وهي بهذا تنفذ أمرك!».

«انهض!». قال الملك نافد الصبر «اشرح لي الأمر بدقة!».

نهض المراسل بسرعة وقال: «يحتاج المرء إلى حلزونات من نوع محدد. هناك مختصّون يعرفون النوع المطلوب. الحيوانات تفرز مخاطاً أصفر اللون، يتحول بتأثير نور الشمس إلى أخضر ثم إلى أزرق، وأخيراً إلى قرمزي وأرجواني، لكنها تبثّ أثناء ذلك رائحة تبعث على الإقياء وتبقى لمدة طويلة. هناك خطوات شغل عديدة ضرورية، حتى يستخرج منها المرء المادة الملونة الفعلية. من الحلزونات الكبيرة الحجم التي ما زالت حيّة يقطع المرء جزءاً محدداً، أسمته الأميرة الغدة. هذه الغدد والحلزونات الصغيرة تخزن

في الملح طوال أيام، وأخيراً تُغلى بالبول على النار. ويحتاج المرء إلى آلافٍ وآلافٍ من هذه الحيوانات ليحصل على كمية بسيطة من المادة الملونة».

بدت الدهشة جليّة على الملك، وسأل: «وهذه الحيوانات الصغيرة تزحف على أرض قطنا؟».

«لا، بل تعيش في البحر، وتسمى قواقع».

«هذا لا يصدق!».

كان تانوا على الطريق لمقابلة الملك، فصار عن غير قصد شاهداً على الحديث القصير. تجمّد في مكانه وراء عمود جداري، حيث لم يلحظه أحد بعد. التقط فوراً موضوع الحديث، فانسحبَ بحذر إلى الباب، وحثّ الخطا كالمطارد عبر الباحة العليا عائداً إلى مقر إقامته. وعندما أحس بالأمان بين جدرانه الأربعة جرؤ على تحليل ما سمعه. نانيتزي كان في قطنا، وهو لا علم له بذلك مطلقاً. لقد قابل الأميرة وحصل منها على سرّ الأرجوان. بحق أرباب السماء، ما معنى هذا؟ كيف تبوح كيا بسر، وعقوبة ذلك الموت في قطنا؟ انتقاماً؟ لا، هذا لا يعقل. انتقاماً لأي شيء؟ لسعادة كبيرة يُتوقع أن تكون بانتظارها.. لا معنى لهذا. لا، لا يمكن أن تقدم على ذلك أبداً بملء إرادتها. ولكن بماذا أجبرها الملك شوبيلوليوما على ذلك؟ اضطرب تانوا. هل يسأل هنوتي؟ تردد. لماذا كُتمت عنه رحلة نانيتزي إلى قطنا؟ لا شك في أنه كان هناك في الوقت نفسه تقريباً. هل هناك ما يدبّر ضده؟ ولكن ما الذي يدبّر، والأهم، لماذا؟ أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً محتاراً، هل يشكّون فيه؟ ليس لديه سوى سرّ واحد، غير حبّه لكيا. لا أحد يعرف الحديث بينه وبين هنتي، ولا أحد يعرف أنها لم تتابع سفرها إلى ميسينا. ما عدا ذلك؟ لقد كان يطلع هنوتي دائماً على كل شيء. أكان مخطئاً في ذلك؟ ألا يقف هنوتي إلى صفّه؟

إني لا أرى سوى عفاريت شريرة، قال لنفسه. حتماً يمكنه الثقة بخاله. ثمة كثير مما يحتفظ به لنفسه أساساً، فالكتمان هو واجبه الأعلى في عمله.

هل يخاطب الملك مباشرة بمهمّة نانيتزي؟ فهو مرؤوسه على أي حال. أي دور يلعب نانيتزي؟ أيستطيع سؤاله عن القواقع؟ لا، هذا كله غير وارد، لأنه سيكشف تنصّته، ولو عن غير قصد. من كان سيصدّقه؟ وهذا لا يليق به.

قواقع! هذا لا يصدق. أمن القواقع يستخرج هذا اللون، الذي لا يزول مهما غسل

بالماء؟ وشيئاً فشيئاً نتج عن التلميحات الكثيرة التي سمعها، وعن ملاحظاته على مرّ السنين في قطنا، صورة متكاملة. أفخاذ قطنا الصغيرة كانت قواقع إذن! منها كانت تتصاعد تلك الرائحة الوحشية البغيضة التي تجثم في الجو فوق المنطقة المحظورة في قطنا في بعض الأيام. في الزيارة القادمة يمكنه أن يواجه أكيزي بمعرفته بالأمر ببساطة. وسيتعجب. لكنه سيتساءل أيضاً عن سبب علم حتّوشا بالأمر، أم أنه هو وراء كشف السر؟ هل أُجبر أكيزي على كشفه؟ قطع قدوم ساعي القصر سلسلة أفكار تانوا. لماذا تأخّر عن مقابلة الملك؟!

7

1339 - 1337 ق. م

من جميع أنحاء الدنيا جاءت الوفود إلى بلاط آخت آتون، للاحتفال بعيد جلوس الفرعون، ولتقدّم له الهدايا بهذه المناسبة أو الضرائب المستحقة. عاهلا حتّوشا وبابل أكّدا تهانيهما بإرسال هدايا ثمينة. آشور وأرزاوا وألاشيا وحتى ميتاني بعثت رسلها، وكذلك الإمارات الأصغر الكثيرة العدد أوفدت من يعبّر عن إجلالها لشمس مصر. منذ وقت قريب قُضي بنجاح على تمرّد في أرض كوش الجنوبية البعيدة. من لم يُقتل في المعركة وقع في الأسر. خوزق قادة التمرد أو قيّدوا إلى العربات القتالية التي سحلتهم حتى الموت. أما الذين اقتيدوا إلى آخت آتون، فقد ربطوا إلى النير، ليجروا العربات المحملة بالذهب والحجارة الكريمة والعاج وخشب الأبنوس وشجيرات المرّ والتوابل وفراء الفهود، أمام فرعون المتربع على عرشه.

كانت قوة آتون تتنامى من يوم إلى آخر. حتى الملكة الأم تِيّـة، ذات السلوك المحافظ حتى الآن، والتي كانت تظهر ولاءها لكهنة الأرباب المحظورين، عبّرت عن احترامها لابنها وربه وقامت بزيارة خاصة له في عاصمته الجديدة. لكنها لم تجد ابنها إخناتون على ما يرام، لا صحياً ولا مزاجياً. كما افتقدت قرينته نوفرتيتي والبنات الثلاث (ميريت أتون) و(أنخ سِنْبا آتون) و(نفرنفرو آتون تَشْريت). فهل ابتعدن عن الاحتفالات حزناً على الموت المبكر جداً للثلاث الأخريات، المدفونات في المقابر العائليّة المنشأة حديثاً في الجبال الشرقية؟

**

في أثناء الرحلة إلى آخِت آتون البعيدة، تبيّن لكيا تدريجياً أنها لا بدّ من أن تعتمد على نفسها فحسب. يُحتمل أن يتعلق كل شيء باللقاء الأول، فإن لم تفلح في جذب انتباه الفرعون إليها، فسيكون من العسير جداً بالنسبة إليها أن تتقرّب منه لاحقاً. فأخذت في مخيّلتها تكرّر استعراض كل الاحتمالات.

لا شك في أن الوفود ستُستقبل في القصر، في قاعة استقبال واسعة، يتصدّرها الزوج الملكي على العرش مع بناته. لإخناتون ونوفرتيتي ست بنات، ثلاث منهم دُفنّ في قبورهنّ مؤخراً. يا لقسوة ذلك! طفلها هي، كان لا يزال جنيناً ضئيلاً، وهي لا تزال صبية صغيرة، ومع ذلك فإنها غالباً ما تتذكر موته بحزن.

غريب، عدم المساواة هذا في توزيع كل شيء. بلتوم لم تلد إلا ذكوراً ونوفرتيتي بناتاً فقط. للذكور في قطنا مكانة أكبر بكثير من البنات. حتى ولو كان للمرأة والبنات في مصر مكانة عالية، فإن العائلات ترحّب بولادة صبي على الأقل، وتفضّل كثرة من الصبيان. زينة أمهاتهم وعكّاز آبائهم. كيف كان الأمر بالنسبة لنوفرتيتي يا ترى؟ ذكرَ لها تالزو أن إخناتون كان ينتظر صبياً بفارغ الصبر. رحماكِ يا ربتي! أبدو لنفسي مثل نعجةٍ ولود.

عند وداعها قطنا فاض الألم. هل سترى شالا ثانية، وأخواتها العزيزات في بيت الربة، وأمها، وأخويها، وصديقاتها وأولاهنّ إهلي نيكالو، وأبناء وبنات أعمامها وأخوالها، ومربّيتها، وجميع مَن أمضت حياتها معهم حتى الآن، هل ستراهم ذات يوم مرة ثانية؟ مرّت بمطارح طفولتها ومخابئها الكثيرة، وبأماكنها المفضلة، وتجولت عبر المدينة وحولها، حيث جالت مع تالزو آخر مرة. ما كانت لتحلم أن تالزو هذا سيلعب مثل هذا الدور في حياتها. يا لسخرية القدر! وضحكت كيا. كم مرة ذكّرته بأصله؟ كلما كانت تشعر بأنها دونه ذكاءً، لم تكن تجد حلاً أفضل من جعله يشعر بأنه لا يليق بأميرة من قطنا. كم كانت حمقاء آنذاك! والآن؟ المرتبة والأصل لا دور لهما. لقد كان أبلغ تأثيراً في حسمها قرارها، من تهديد شوبيلوليوما بتدمير قطنا وحرقها.

تدمير المدينة وحرقها.. اضطربت كيا وخفق قلبها بشدة. إنه حلمها ثانية، الذي يعاود الظهور منذ سنوات. تجلّت واضحة صور الحلم بالقصر المحترق والجثث والدماء والأدخنة الكاوية والصراخ من شدة الألم. هل سينتهي الآن؟ هل رُفع الخطر عن قطنا الآن، بخضوعها لإرادة الملك الحثي؟ غمرتها نشوة لا توصف. هي، هي وحدها، كيا

أميرة قطنا، أمسكت بيديها مصير المدينة كلها، ولم تتخاذل، بل استجابت للمصير الذي قُدِّر عليها. والآن سينجح كل شيء. أحست بأنها تنفض عن نفسها التبلّد المتنامي في داخلها منذ السنوات الأخيرة. أحست بنفسها تنبض بالحياة، بشعور افتقدته منذ مدة طويلة. كان كل شيء قابلاً للتصور، يكفي أن تمد يدها نحوه، ستستعيد الحبيب في خضم العاصفة. سنوات الفراق، أيّ دور لها الآن؟ لقد أنضَجَتها له وبسخاء. آنذاك لم تكن بحال من الأحوال بمستوى أداء الواجبات الكثيرة لزوجة الفرعون، لكنها ما عادت تتهيّب منها الآن. ومع كل مسافةٍ تمخرها السفينة المتأرجحة في البحر بعيداً عن قطنا، كانت ترمي الكآبة وراءها وتستعيد مع النسيم العليل خفّة روحها وبشرها. وبفرح ماجن عانقت أمينابة وأرجحتها حولها بقوة فجائية لا تصدق، وقالت: «لا بدّ أن يكون مشهداً باهراً!».

«ما هو، عزيزتي كيا؟».

«ظهوري أمام فرعون طبعاً. لا بدّ أن يندهش ويفاجأ. لا بدّ من أن أفتنه وأستأثر به وبأفكاره! إلى درجة أن يفقد الاهتمام بجميع حاملي الهدايا الآخرين»، وضحكت «ولربما كانت عندي الفكرة لتحقيق ذلك، وقد أبوح لك بها يا صديقتي الوفية».

في مدينة سومورا ركبت المجموعة السفينة، تقودهم كيا بصفتها السفيرة الرسمية. بقيت معهم المرافقةُ حتى الميناء، ثم أقلعت السفينة وغابت وجوه الأحباب. نظرت كيا نحو الجنوب وعرضت وجهها للريح. لم يكن السفر على ظهر السفينة مريحاً، ومع ذلك استمتعت كيا بالمغامرة. لم يؤثر عليها دوار البحر كما أمينابة، بل كانت شهيتها إلى الطعام جيدة وأحست بصحة جيدة. ورغم ضيق المكان شعرت بنفسها حرة. ما عرفته حتى الآن عن طريق الحكايات فقط، عاشته الآن بنفسها ورأته بعينيها. كيف احتملت العيش في قطنا الصغيرة طوال الوقت، والعالم على هذا الاتساع والتنوّع؟

كانت المحطات على طول الساحل جنوباً تمريناً جيّداً لكيا، لتعوّد نفسها على كونها الشخصية الرئيسية. (ريب عدّي) ملك جبيل وقريبته أبديا لها احتراماً خاصاً. لو لم يكن (أكيا) إلى جانبها لأحسّت في مواقف عديدة بالضيق، غير أن سفير قطنا كان عليماً بجميع الأعراف المتبعة، فكان يرشدها مواربة بحيث باتت أقل توتراً عند لقاء مضيفيها مع تشوق للاستراحات البرية. ساد على السفينة نوع من رفع الكلفة بصدد التمسك بآداب القصور مع تحوّل تدريجي نحو الأعراف المصرية.

في جبيل نُقلت أغراض كيا إلى سفينة أكبر وأمتن، ذات هيكل مسطّح نسبياً، ساعد في

تخزين أخشاب مختلفة من الجبال، جذوع أرز ضخمة، إضافة إلى تنوب وصنوبر وبلوط وعرعر. إلى جانب ذلك حُمّلت السفينة بالنحاس والقصدير وبضائع متنوعة أخرى. كان هدف الشحنة كلّها مصر.

«ستوقف أيضاً في بيروتا، صيدونو، صور وعكا، كلها مدن جميلة جمعت ثروات عن طريق التجارة»، شرح لها أكيا، وأضاف: «إنهم يشحنون بضائعهم على سفينتنا إلى مصر. ستشعرين بنفسك وكأنك في الدار، فلا حديث لهم هنا سوى الربح والخسارة ولوائح الطلبات الطويلة وأفضل الطرق التجارية وأسرع الحمير، إضافة إلى القيل والقال والفضائح الجديدة».

ضحكت كيا وقالت: «ومع ذلك، الحياة على الساحل مختلفة تماماً. الإطلالة على هذا المدى المائي الذي لا نهاية له أجدها مريحة ومثيرة معاً! البحر يغيّر على الدوام لونه وشكله، وهذا رائع».

«فلنرفع صلواتنا إلى بعل كي يمنحنا طقساً جيداً، وإلى رب البحر (ياو) أيضاً. كم أود أن أوفر عليكِ التعرف على غضب البحر!».

كلما اندفعوا جنوباً، ازداد دفء الجو. لقد غادروا قطنا في جو قارس، غير معتاد بالنسبة لتلك الأيام من الشتاء. صار بوسعهم الآن التحرك على سطح السفينة من دون المعاطف اللبادية السميكة. عندما بلغوا عكّا كان الطقس جيداً جداً. كان بود كيا النزول إلى البر هنا أيضاً. لكن الربان حث على السرعة، آمراً بتفريغ شحنة عكا وتحميل شحنة مصر وتوفير ماء للشرب ومأكولات.

«ما باله متعجّلاً بهذه الصورة؟ هل يتوقع طقساً رديئاً؟».

هز أكيا رأسه نافياً وقال: «المسافة القادمة لا يحبها البحارة، لعدم وجود موانئ ذات مراسٍ صالحة للسفن الكبيرة، ولذلك فإنهم يتجهون نحو العمق قليلاً، عن غير رغبة، بسبب التيار المائي المعاكس وتبدّل الرياح الساحلية. إنهم يفضّلون إبقاء البر في مرمى النظر».

«هذا رائع! سنرى الدلافين من جديد».

«الدلافين ربما سنراها، لكن المؤكد أكثر، هم القراصنة»، أجاب أكيا بصوت جافّ، «فكلما طال رسوّ السفينة هنا، انتشرت أخبارها بسرعة، وكل الراغبين في غنيمة دسمة سيتنادون ويجتمعون بأقصى سرعة. هذه أسباب عجلة الربان. ولكن بإمكاننا أن نقرر الآن متابعة طريقنا براً. بعد أن نتجاوز الجبال يكون الدرب موازياً للشاطئ باتجاه الجنوب حتى

نصل إلى غزة، وهي مركز مراقبة أمامي مصري. من بعدها لا يمكن أن يحدث شيء، لأن الأرض المصرية آمنة».

«كم ستطول الرحلة؟».

«أطول بعدة أيام، مما لو تابعنا بحراً مع ريح شمالية مناسبة. حتى الآن قطعنا نصف المسافة. بقي أمامنا سبعة أو ثمانية أيام في البحر العظيم ونصل إلى دلتا النيل. برّاً قد تستغرق الرحلة ضعف المدة، لست أدري تماماً. هذا يتعلق بأمور كثيرة».

لم تُطل كيا التفكير، ثم قالت: «السفينة مليئة ببضائع ثمينة، ويوجد على متنها بعض المسلحين، إضافة إلى البحارة المقاتلين. هذا يعني أن الجميع ينطلق من فكرة أن الرحلة ستمرّ بسلام. إذاً، سنبقى في السفينة!».

انحنى لها أكيا دلالة على الموافقة.

أرباب البحر والريح والطقس جميعهم كانوا رحماء كرماء، فوصلت السفينة إلى مصب النيل من دون مشاكل، إلا فلوكة صغيرة اعترضت السفينة وراء اللسان الجبلي بعد عكا. لم تشكّل خطراً، بل استقبلها البحارة بالضحك الساخر، ورموا لقراصنتها المساكين بعض التوافه بسخاء. بعد سبعة أيام في البحر، ناورت السفينة بجهود المجذّفين الماهرين نحو قناة شاطئية مخفيّة. وكان هذا في رأي أكيا إنجازاً كبيراً من جانب القبطان، لأن عبور منطقة مصب النيل تتطلب مهارة كبيرة جداً. فخطر الجنوح يكمن في كل مكان بسبب الرمال تحت المائية أو ضحالة عمق الممرات. وغالباً ما تضطرّ السفن إلى تفريغ شحناتها في عرض البحر في قوارب صغيرة. وهي عملية بالغة الخطورة.

قبل المغيب وصلت السفينة إلى قلعة تارو ذات الأسوار السميكة وأبراج المراقبة المتعددة، على الضفة الشرقية من الخليج البحري، حيث أمكن للسفينة أن ترسو. بعد أن راقب حارس مسلح كل ما على السفينة ومَن عليها، سمح للركاب بالنزول. ظهر قائد القلعة بنفسه لدعوة الضيفة وحاشيتها إلى مأدبة احتفالية.

كيا أميرة قطنا تدخل أرضاً مصرية.

إذا كانت تتوقع أن تمتلئ غبطة بذلك، فقد حدث العكس. ربما كان السبب هو جو القلعة المقبض مع وجود كثير من الجنود، أو ربما هو تعب الرحلة الشاقة. مساءً على كل حال وتحت ناموسية السرير وجدت أمينابة أمامها كتلة من التعاسة، إضافة إلى أن نسيم البحر لم يخفّف كثيراً من حرارة الجو الخانق.

«هذا كله لا يحتمل»، قالت كيا «ماذا نفعل في هذه الأرض الغريبة؟ هل رأيت هؤلاء العفاريت السود المخيفين؟ إنهم يخدمون في جيش الفرعون. وكلهم يتكلمون المصرية بسرعة، بحيث لا أفهم الكثير مما يقولون. في هذه الرطوبة لن تصمد أي زينة وجه، ولا تسريحة الشعر المستعار. سأبدو مخيفة!».

لم تدر أمينابة، بسبب هذه الشكوى المطولة، هل تضحك أم تبكي تعاطفاً. لكنها حاولت أن تهدّئ كيا وتواسيها، وقالت: «لم يبق أمامنا سوى بضعة أيام حتى نصل إلى آخت آتون. لنحاول أن ننام الآن. غداً ستبدو الدنيا مختلفة». وانسلّت إلى جانب كيا تحت الناموسية.

في تارو لم يكن هناك وقت كاف للراحة، فالزمن يركض. وهكذا أقلعت السفينة من المرسى في الخليج، واتجهت غرباً نحو مدخل أحد فروع النيل الذي سيوصلهم إلى ممفيس. في أول محطة على الطريق جنوباً وجدت كيا أمراً مألوفاً لديها، أيقظ في نفسها الحنين إلى الوطن. حصلوا على مكان للمبيت في أحد قصور (پِرونِفر)، وهي ميناء وقاعدة عسكرية على الضفة الشرقية لفرع النيل. في قاعة المدخل استقبلت كيا لوحاتٌ فنيّة جدارية تمثّل مناظر طبيعية للنيل وحشائش (ألايشا) متهاوية مع الريح، وبطّاً وحيوانات مائية أخرى وقوارب. لا مجال للمقارنة بينها وبين جداريات قطنا التي بدت أمامها فقيرة، ومع ذلك فاليد هي نفسها: مينوس! نعم، مينوس. أكّد لها سيّد القصر، وسألها عن أحواله. يا له من مادة رائعة للحديث! ومع ذلك كادت كيا ألا تستطيع حبس دموعها، إلى أن انهمرت أخيراً في مخدعها وبغزارة. وخلال هذه الليلة الموحشة أدركت كيا أن ما دفعها إلى البكاء لم يكن الحنين إلى طمأنينة البيت، بل لأن الخوف قد ملأها. خوف من مهمتها، من احتمال الإخفاق، من أن تختفي إلى الأبد في حريم مصري، من رجل اعتقدت أنها أحبته كما لم تحب رجلاً غيره، وأهانها كما لم يُهِنْها رجل غيره حتى الآن. كيف سيلتقيان الآن بعد كل تلك السنين.. هي، أميرة قطنا الصغيرة الواهمة، وهو، أحد أقوى ملوك العالم، إن لم يكن الأقوى أو الرب؟

وكأن أمينابة قد أحست بمحنة صديقتها، فتقلّبت بادئ الأمر في سريرها أرقاً، ثم نهضت وانسلّت إلى غرفة كيا المجاورة.

«كيا! ستنجحين. ألم تتوصّلي دائماً إلى مقاصدك؟ يجب أن نفكر ونحضّر لكل شيء بذكاء. كل الدلائل تبدو مناسبة. الملكة فقدت حُظوتها عند إخناتون. حُمِّلت مسؤولية

موت البنات. والملك يتوق إلى ابن. صدّقيني، هو أيضاً رجل لا أكثر! ستزيّنك يا حماتي ونبهرجك، أنت جميلة وغامضة، وأنت تعرفين ما يريده. اعتمدي على الربة، دعيها ترشدك. إنها لن تخذلك، سترين!».

متعبةً انطوت كيا بين ذراعي أمينابة، قائلة: «معك حق، وقد جئت في الوقت المناسب يا عزيزتي. لنبدأ المعركة إذاً، بعون الربة!».

وصلوا إلى الموضع الذي تتفرّع عنده أذرع النيل الجليل المتعددة. هنا وبنظرة نحو الجنوب يتبدّى النيل بعرضه الكامل، محاطاً يميناً ويساراً بشريط من التربة الخصبة. شهور إنتاش الزرع ونموّه الأربعة قد مضت، وجاء فصل الحر الذي يبدأ فيه الحصاد. وفي نهايته يقام عيد رأس السنة ويبدأ موسم الفيضان. ما زال النهر يدفق ما يكفي من المياه لتقدُّم المواكب الشراعية من دون صعوبة. قبيل وصول المجموعة إلى ممفيس شهدت منظراً لا يصدق. كان أكيا منذ فترة قصيرة يذرع سطح القارب جيئة وذهاباً بتوقع، وهو يتلفت مراراً نحو الغرب. فجأة أشار إلى كيا مستثاراً وأشار بيده نحو مغيب الشمس. بجلال راسخ وبياض وقور جميل انتصبت على خلفية سماء المغيب الحمراء المتأججة أجسام هندسية، وكأنها تلامس السماء.

«إنها قبور فراعنةٍ رحلوا نحو الغرب منذ زمن بعيد»، شرح أكيا بخشوع جليّ «بسبب أشكالها نطلق عليها اسم أهرامات. سنرى غيرها على طريقنا، ولكن ليس بهذه الضخامة الهائلة والشكل المتكامل المجيد كهذه الثلاثة. ذُراها مطليّة بطبقة هي مزيج من الفضة والذهب، ولهذا تشعّ في نور الشمس».

تشبه ممفيس قرية نمل أو خلية نحل. إنها مدينة نشيطة الحركة، يُنجَز فيها كلُّ ما لا مكان له في مدينة الرب آخت آتون. ولربما كانت هي العاصمة السرية، قال أكيا وأضاف: «هنا تمسك الملكة الأم تِيّه بالخيوط بيديها. بعضهم يقول إن إخناتون قد ترك لها إدارة الحكم الفعلية. اعتماداً على ما لاحظته أنا، لا يسعني تأكيد هذا الزعم، ولكن حتماً لها تأثير معين. هي حالياً في آخت آتون بمناسبة الاحتفالات. ستتعرفين عليها هناك إذاً، يا سيدتي!».

ما رأته كيا في ممفيس أعجبها. هنا توجد حركة تجارة نشطة، ومنشآت عسكرية متنوعة. وهي في الوقت نفسه مركز إدارة الدولة الفعال للبلد كلها، ومقرّ خادم آتون الأول،

ومقرّ وزير مصر العليا (أبِر إيل) الآسيوي الأصل. لم يمض عليه وقت طويل في هذا المنصب. الفرعون في سنة حكمه الرابعة، ونتيجة نقد واسع من طبقة الموظفين، أجرى فجأة تغييراً جذرياً لجميع الرؤوس المتنفّذة واستبدل بها في المناصب المفتاحية كفاءات ممتازة، حتى من الفئات الشعبية ومن الأجانب. ولم يبقِ إلا على قلة من الوجهاء، من الذين خدموا في عهد أبيه، منهم أمين سرّه الأول وكبير موظفيه، والأمين العام لشؤون الدولة، وقائد الجيوش، وقائد فرقة العربات القتالية، وعرّابه وزوج أمّه (أيا).

في ممفيس نُقلت كل أغراض كيا وحاجياتها إلى أحد مراكب النيل الضخمة الفخمة. وعندما ركبته كيا، عاد إلى ذاكرتها حلم من الماضي. آنذاك صور لها إخناتون مشهد ركوبهما كعروسين أحد قوارب النيل المزينة والجماهير على الشاطئين تستقبلهما بحفاوة. لكنها الآن وحدها لا يبالي بها أحد. إلا أنها مسافرة إليه، وسيأتي اليوم الذي يتحقق فيه الحلم! استمتعت بالرحلة أثناء النهار، وبالليالي المريحة عندما يرسو المركب على الشاطئ. كانت ريح الشمال تهبّ خفيفة بلا توقف. وكانت كيا تنصت إلى مختلف الأصوات الجديدة التي يحملها النهر معه. رائحة الهواء كانت مختلفة. بعد أيام قليلة رسا المركب في آخت آتون (أفق آتون). أقيمت المدينة في منبسط صحراوي رملي على ضفة النيل الشرقية، محاطة بنصف دائرة من الجبال الصخرية.

لم تفت أكيا نظرات كيا المدققة في ما حولها، فقال: «يحكى أن إخناتون، بحثاً عن المكان الملائم للمدينة الجديدة، قد ركب عربته القتالية مدة طويلة بعكس مجرى النهر. وتقريباً في منتصف المسافة بين طيبة في الجنوب وممفيس في الشمال، اعتقدَ أنه قد قرأ في أحد التشكيلات الصخرية رمز آخِت كتابةً، فاعتبر ذلك إشارة من ربه للاستقرار في هذا المكان الطاهر غير الملموس».

من دون ضجّة أقامت كيا وجماعتها جنوبي المدينة في بناء أبيض كالثلج يشبه القصر، ذي مفروشات ممتازة ونوافذ في الطابق العلوي قابلة للفتح والإغلاق، بحيث تسود الغرف درجة حرارة مريحة. أعجبها المكان من النظرة الأولى. في الخارج كان الجو قائظاً، ولكن بفضل هواء الصحراء الجاف كانت الحرارة محتملة، وخاصة في الحديقة الرائعة التي يوجد فيها بركة اصطناعية. لحسن حظهم وصلوا في وقت مبكر، ما أتاح لهم الفرصة للراحة، ومن ثم لإجراء جميع التحضيرات الضرورية ليوم الاحتفال الفعلي. لم تر كيّا أيّ شيء من المدينة ومعابدها وقصورها. فهذا سيأتي وقته. لكنها أمضت

وقتاً طويلاً في الإصغاء إلى أخبار العائلة المالكة والبلاط وأعرافه على نحو تفصيلي. إذ تمكّن أكيا من استمالة (توتو)، للإجابة على تساؤلات الأميرة الكثيرة. وتوتو هذا هو وصيف النبيّ الأول، السوري الأصل، لسيّد مصر العليا والسفلى، ومدير مراسمه، وكبير مهندسيه، والناطق الأول باسم البلاد كلها. ومن خلال هذا اللقاء تزوّدت الأميرة بكثير من المعلومات المفيدة ومرّنت لغتها المصرية بشكل جيد.

**

أقيم الاحتفال بعيد التجديد (عيد سِدْ) في اليوم السابع والعشرين من الشهر الثاني (شيمو) من فصل الصيف الحار. شاركت في الاحتفال جميع شعوب البلد، من كوش في الجنوب إلى مصب النيل في الشمال، كما في المناطق المصرية من سيناء وكنعان وسوريا.

في عهد أمينوفيس والد إخناتون كان الهدف من احتفال العيد، بعد ثلاثين سنة في الحكم، تقديم البرهان على السلطة الجسدية والسحرية للحاكم وتجديدها برضا الأرباب كافة. أما في عهد إخناتون فهو عيد التهليل لآتون الذي يقيمه مع إخناتون كل ثلاث سنوات احتفالاً بتجديد الحكم، وذلك بموكبين نهري وبرّي ورقصات وتراتيل وغناء.. الآن، بمناسبة السنة الثانية عشرة في الحكم أضيفت إلى الاحتفال ألعاب قتالية. والمسؤول عن إعداد العيد هو مدير شؤون العرشين، الذي كُلِّف بمهام تحضير احتفالات سِد. ومنها توفير المواد الغذائية للأعداد الغفيرة من المحليين والضيوف، وكان لا بدّ من تأمينها وتوزيعها بأفضل صورة، فجلبت قطعان الماشية والخمور والجعة من جميع أنحاء البلد، وحتى من سوريا.

بدأ يوم العيد الرئيس للناس المحتفلين، بموكب الملك والملكة وهما يغادران القصر الكبير، فاستقبله الجمهور بوجوه منكسة وأذرع مرفوعة مهلّلين له بالبيعة:

«آتون العظيم الحي،
سيد احتفال الجلوس،
سيد العالم بأسره،
سيد السماء،
سيد الأرض،
الجالس في بيت آتون في آخت آتون»

ركب الزوج الملكي قارباً مزيّناً، وركب معه بعض أهم الوجهاء، ووزيرا مصر العليا ومصر السفلى، ونائب الملك في كوش. سُحب القارب بالحبال على طول الضفة حتى الموضع الذي يرتدي فيه الملك زيّه الاحتفالي الخاص ويعتلي عرشه في قصر عيد سِد. وضعَ على رأسه التاج الأبيض والأحمر رمزاً لجزأي البلد مع الصولجان المعقوف والمنشّة وجلَس، فمثلَ أمامه موظفو البلاط وطاقم خدمته مع زوجاتهم، فكوفئوا لخدماتهم المخلصة بهدايا رمزية من يد الملك أو الملكة، هي قلائد عريضة من الذهب والأحجار الكريمة والخزف الفني الفاخر. ثم أُطعموا من خبز فطور الملك مع لحم ضأن وطيور وجعة. هؤلاء المكرمون هم الذين، بعد الاحتفال، جدَّفوا قارب الملك على طريق العودة، ثم حملوا الزوج الملكي على كرسيين فاخرين إلى محطة الاحتفال الثانية في دار عيد الجلوس عند السور الشمالي لمعبد آتون العظيم، حيث جلس الملك على عرشه تحت مظلة وإلى جانبه الملكة. ثم أُحضرت الأميرات بنات الفرعون. كن يحملن بأيديهن أباريق وجرار ماءٍ من الذهب والفضة. جلسن عند أقدام العرش وردّدن:

«طاهرة أباريق مائك الذهبية وجرار مائك الفضية. بناتك يسقينك ماءً بارداً، أيها الملك الذي يحيا سليماً معافى!».

بعد أن شرب الملك وانتعش، جاء موعد استقبال الوفود الكثيرة من جميع البلدان، لتلقّي أمنياتهم وهداياهم، وفي مقابل ذلك كانوا يتلقّون نفحةَ حياةِ آتون. كان توتو يعلن عن كل وفد على حدة، فيقترب أعضاؤه من العرش بخشوع. مرت الساعات، وبدا أن الملك لم يعد ينتبه إلى من يُعلن عنهم. وظهر التعب على المحيطين بالعرش أيضاً، مثل الملك، وبدا أن لا نهاية لسيل الوفود. وحتى الألبسة الغريبة ذات الطابع المحلّي اللافت لبعض حاملي الهدايا، أو الهدايا غير المألوفة نفسها - فهود ونمور مخيفة - ما عادت تسترعي الانتباه. الملكة الأم تيه وحدها بقيت متابعة الحدث بكل يقظة. أما نوفرتيتي فقد انسحبت مع ابنتيها الأصغر، في حين بقيت الكبرى مريت آتون عند أبيها.

فجأة دبّت حركة في جمهور الاحتفال وانتشر لغط. ارتفعت أصوات أبواق مؤثرة. وكأن ثمة شعاعاً من آتون قد سقط على وجه كاهنه الأعلى المتربع على العرش، فأضاءه بنور ذهبي. حاول الملك أن يرى ما يجري أمامه، لكن بصره كان مخطوفاً. وتدريجياً تعرّف صورة رشيقة تتقدم باتجاهه وحدها ببطء وإصرار. الجمهور المحيط بالممر على الجانبين تراجع بخشوع مفسحاً المجال لتقدُّم الصورة. ولم يكن من الممكن تعرُّف مَن المتقدّم: أبشر أم ربّ؟

ميّز الفرعون من علياء عرشه كائناً بلا وجه ملتفاً بقماشة أرجوانية مضيئة، وكأنه يسبح في محيط غارق بالنور. ومن الناس تحت، لم يعد يرى الفرعونُ أو يسمع شيئاً. بمنتهى الرشاقة ارتفعت ذراعٌ، وتعرَّت من الحجاب يدٌ صغيرة، تتحرك مؤشرةً، مؤشرة للفرعون كي يتقدم إليها. كالمأخوذ، لم يستطع إخناتون رفع نظره عنها. نهض عن عرشه ليلبي نداءها. نزل الدرجات وخطا كالمذهول وعيناه مسمّرتان على الصورة، كي لا تضيع منه. وكلما اقترب، صار العطر المحيط بالصورة أشد غواية وسحراً. في ذاكرته انفتح باب صغير. أين شمَّ هذا العطر الغريب سابقاً؟ ليس في مصر. لكنه لم يتمكن من متابعة الفكرة، فمع كل خطوة إلى الأمام كان الحجاب الفوّاح بالعطر يكشف عن المزيد من الأسرار. رأى الملك قوام امرأة رشيق، وأحس بنهديها غير المستورين. لكنه لم يتعرف وجهها.

شجّعته حركة من اليد على إزالة العباءة. لكنه أراد أن يمنح نفسه وقتاً، فهو لم يلعب منذ زمن بعيد. دار ببطء حول العفريتة الأرجوانية، ترك يده تداعب ظهرها نزولاً، ثم أخذ بحذر ينزع القماشة عنها، إلى أن انزلقت أرضاً.

أولئك الواقفون على المنصة إلى جانب العرش هم فقط من رأوا ما رآه الملك. ومجدداً عاد اللغط، إذْ تجلّت أمامهم ظاهرة ساحرة عجيبة. تحت شعر مستعار أسود ذي تأثير غريب رأوا وجهاً مبتسماً مغلفاً بطبقة ذهبية رقيقة جداً كقناع. العينان المكحّلتان والفم الممتلئ شكّلوا مع القناع سيماء مُحيّا كاملة. وثوبها الأبيض الطويل حتى الأرض، ذو حمالتي الكتفين، المزينة أطرافه بخيوط ذهبية، كان يكشف نهديها اللذين لوِّنت حلماتهما بحمرة مثيرة. والحلية الوحيدة التي كانت تزينه هي زهرة لوتس ناعمة منبثقة من بين نهديها. كانت المرأة تحمل بيدها اليسرى وعاءً صغيراً يتشر منه العبق الآسر. وبينما كان الملك مستغرقاً في تأمّل هذا الجمال الأخاذ صامتاً، بدأت هي بترتيل نشيد يعرفه جيداً، بصوت خافت أولاً لا تسمعه سوى أذني الفرعون، ثم بارتفاع تدريجي، إلى أن شاركها الجمع غير المرئي في الترتيل، فهدرت مئات الحناجر بنشيد تسبيحِ وحمدِ آتون، النور:

«بهياً تسطع في أفق السماء،
أنت الشمس الحية منذ البدء الأول!
عندما تبزغ من الشرق،
تملأ البلدان كلها بجمالك.

أنت نور عظيم وضّاء،
في الأعالي فوق البلاد.
شعاعك يحيط بالأرض،
حتى نهايات ما خلقت.
أنت رع عندما تبلغ حدّها الأقصى،
عندما تجعلها تنقاد لابنك الحبيب.
ولو كنتَ نائياً، فأشعّتك تصل الأرض،
أنت تضيء وجوههم،
لكن مسارك لا يُدرَك.
وعندما تنزل في الغرب،
تعتم الدنيا، كأنها في حالة موات.
النيام في مخادعهم،
رؤوسهم مغطاة، لا ترى عينٌ الأخرى.
إذا نشل امرؤ كل ما يملكون من تحت رؤوسهم،
لن يلاحظوا شيئاً.
من أوكارها تخرج الحيوانات المفترسة كلها،
والأفاعي كلها تعضّ،
الظلمة قبر.
الأرض صامتة ساكنة،
فخالقها قد نزل في أفقه ليرتاح.
لكنها تصبح منيرة عندما تبزغ من الأفق،
فتنيرها نهاراً بصفتك شمساً،
ترسلُ أشعتها لتطرد الظلمة.

البلَدان كلاهما معاً في عيد يومي.
كل ما يقف على قدمين استيقظ، فأنت من أنهضهم.
أجسامهم طاهرة وقد لبسوا الثياب،
رفعوا أذرعهم يُصلّون لسطوعك.
ثم يذهب كل منهم إلى عمله في البلد كلها.

كل الدواب راضية بأعشابها وحشائشها،
الأشجار والورود تنمو.
الطيور تغادر أعشاشها،
أجنحتُها تمدح طاقة الحياة فيك.
جميع الحيوانات البرية تقفز على قوائمها،
وكل ما يطير ويرف ينضح حياةً،
منذ أن أشرقت من أجلها.
السفن تمخر الماء صعوداً ونزولاً،
الدروب كلها سالكة، بضيائك.
الأسماك تتقافز في المياه أمام نظرك،
وأشعّتك تتغلغل إلى أعماق البحر»[1].

تأثر إخناتون عميقاً، فرفع كفّيه ببهجة غامرة نحو الشمس الآفلة في الغرب. ارتفعت التهاليل وصدحت الأبواق. يا له من نصر مؤزّرٍ له ولآتون. وهذا كله بفضل هذا الكائن العجيب الواقف أمامه وقد تلألأت الدموع في عينيه. مع تلاشي الصوت الأخير استدارت المرأة / الظاهرة وانسحبت، وكأنها قد تلاشت في حمرة المغيب.

تابع الملك ما تبقى من المراسم بنفاد صبر. تقديم الحيوانات إلى الرب، زيارات معابد آتون في المدينة، المأدبة الاحتفالية الكبرى. لم تتوقف عيناه عن البحث عن تلك الجميلة. لا بدّ من أن تكون بين الضيوف. وما إن سنحت الفرصة حتى استدعى إليه توتو، المشرف على تنفيذ الاحتفال. كان توتو في دخيلته منزعجاً مستاءً. لقد وافق على مشهد مثول سفيرة قطنا، لكنه أخطأ في تقديره كلياً. لقد أخبره أكيا بأنهم يبغون تقديم عروس لفرعون، وهذا ليس استثنائياً في مثل هذه المناسبات، ولكن في هذه المرة لم تراع القواعد، لا، بل خُرقت كلها. كيف سيكون رد فعل الفرعون يا ترى؟ هيّأ توتو نفسه للأسوأ، لكن ما أراحه هو أن الفرعون لم ينتقد ما جرى ولو بكلمة، ولم يكن لديه سوى سؤال واحد: أين الجميلة الغامضة؟ وأن عليه أن يحضرها إليه فور انسحابه إلى جناحه دون تأخير.

كانت كيا في غاية الإرهاق عندما تركت أمينابة تقودها إلى سريرها. حتى أنها لم تعد تذكر كيف عادت إلى مقر إقامتها.

«كان المشهد رائعاً»، قالت لها أمينايه، وأردفت: «أعتقد أن الربة قد حلّت في جسدك، يا سيدتي كيا. لو لم أر بعيني هاتين ما جرى، لما صدقت ما قد يُحكى لي. لا بدّ من أن يكون الفرعون قُدَّ من حجر، إنْ لم يتأثر بك». وركعت إلى جانب كيا وأخذت تهوّي لها بالمروحة، ثم أضافت: «يجب ألا نتأخر في تبديل ثيابك، إذ يجب أن تكوني جاهزة عندما يأتي الرسول في طلبك».

«أخ، أمينايه، يا لك من واثقة! وأنا كلّي شكوك. هل لاحظت كم بدا أمونحوتب ذاوياً ومريضاً؟ مثل عجوز، رغم أنه ما زال في زهرة شبابه! كدت لا أتعرفه، إلا عندما وقف قريباً مني.. نعم، ما زالت عيناه حالمتين وفمه شهوانياً، وذاك الأنف الأصيل الرشيق. ويداه الرقيقتان الناعمتان!».

فقاطعتها أمينايه قائلة: «الخطوة الأولى، على أية حال، كانت مباركة، ولهذا يجب أن نكون مسرورين وشاكرين. ولا يجوز لك الآن أن تتراخي. تذكّري كم مضى على رؤيتك له آخر مرة، في حين أن صورته في قلبك لم تكبر بمرور الوقت. يجب أن تتعرّفا واحدكما الآخر من جديد. وسترين أنكما سرعان ما ستأتلفان، كما في قطنا حينذاك. والآن هيا، دعيني أحمّمك!».

ثمة حفيف خافت أنبأ إخناتون بوصول المنتظَرة بشوق ولهفة.

بعد انتهاء الاحتفال انسحب الفرعون إلى قصره الخاص في الجهة الشرقية من القصر الكبير، حيث تقيم العائلة الملكية غالباً. لقد أثّرت فيه هذه المرأة تأثيراً عميقاً. من كانت؟ لقد التقيا سابقاً، ولكن أين ومتى؟

اختارت كيا لزيارتها الليلية هذه، ثوباً بسيطاً أبيض طويلاً ذا ثنيات خفيفة، يثبَّت على الكتفين ببكلتين، إضافة إلى حزام جميل كان إخناتون قد أهداها إياه في قطنا عند الوداع. وكان لا بدّ من أن تضع على رأسها الشعر المستعار الإلزامي في مصر. كما علقت في أذنيها قرطي إخناتون. كان محيط عينيها مكحلاً بالأسود، فبدتا في الإنارة الخافتة مضيئتين بغموض، وثمة عطر مغوٍ يفوح منها. بقيت واقفة في إطار الباب، تاركة لإخناتون الفرصة كي يملأ عينيه منها وليبحث في ذاكرته عن معرفته بها. وأخيراً قالت بصوت خافت، ولكن بلهجة ساخرة جليّة: «جميلتك أتت أخيراً يا أمونحوتب – إخناتون، وإن كنتَ لم ترسل في طلبها!».

بدا واضحاً على إخناتون أن ثمة ما يعتمل في داخله. ما معنى الإشارة إلى اسم نوفرتيتي؟ نهض إخناتون من السرير الذي كان مضطجعاً عليه وتوجّه نحوها. أمسك بيدها وقادها عبر الغرفة إلى مصدر الضوء. تلمّس وجهها بعينيه، ثم رفع يديه، برهبة تقريباً، ونزع بمهارة الشعر المستعار عن رأسها، فانسدلت خصل شعرها الأسود الكثيف.

«كيا»، همس إخناتون وقد تعرّفها فجأة، «صغيرتي كيا من قطنا البعيدة! كم صرت جميلة!». أخذت أنامله تلاعب خصلات شعرها الأجعد وهو غارق في أفكاره يجمع شتات الذكريات العائدة من زمن بعيد. بقيا برهة طويلة واقفين صامتين أحدهما تجاه الآخر، ثم تحرك إخناتون إلى ورائها ودفعها بنعومة بيده إلى مقعد منجّد وجلسا. على طاولة صغيرة أمامهما كانت هناك صحون مملوءة بقطع مأكولات شهية، لكنهما كلاهما لم يلتفتا إليها. كان كل منهما ينظر عميقاً في عيني الآخر بحثاً بصمتٍ عن روح الآخر، علّه يعثر على أجوبة لأسئلة لم تطرح بعد. وأخيراً كسر إخناتون الصمت.

«لقد ذبتِ، أتفهمين ما أعنيه؟ لقد ذبتِ في الملكة إلى جانبي!».

نظر إلى كيا متفحصاً، ليرى ما إذا كانت قادرة على متابعته، ما إذا أبدت تفهّماً لكلماته. بقي وجه كيا بلا تعبير، منتظرة مزيداً من الشرح. لكن انفعالها تصاعد داخلياً. إذاً، هو يعرف تماماً ما يعذّبها.

«آنذاك عندما عدت إلى الوطن وجدت والديَّ يتنازعهما الارتياح والغضب. لم يصل إليهما أيٌّ من السعاة الذين أرسلتهم، فباتا يجهلان سبب عدم رجوعي. وبعد فقدهما أخي الأكبر فاض بهما القلق، إذْ ليس عندهما ابن ثالث، يمكن أن يحتل مكاني ورثياً للعرش في حال غيابي. عندما وصلتُ أخيراً إلى طيبه، كان بانتظاري عمل كثير جداً وعروس. عروس اختارها والداي لي. رغم أنها لا تشبهك كثيراً، شكلاً، لكني وجدت في شخصيتها صفات، كنت قد عرفتها وأحببتها فيك. وهي مثلك، تعينني في وضع خطط الإرشاد إلى آتون. وأنا أكرّس كل جهدي لهذه المهمّة، التي تملؤني، بل تأسرني كلياً». نظر إلى كيا لحظات وهو غارق في أفكاره، ثم تابع: «رأيتك فيها. ومرة أو مرتين ناديتها باسمك كيا. لكن أغرب ما في الأمر، هو أن اسمها هو اسم التدليل الذي أطلقته عليك آنذاك: الجميلة أتت! أيمكنك تصور كيف أثر هذا في نفسي؟ في أي وقت من الأوقات كانت هي أنت، وأنت هي، إلى هذا الحد كنتِ قريبة مني. ولكن لا بدّ من أن أعترف لك بأن صورتك في وقت من الأوقات بدأت تبهت؛ لأن نوفرتيتي طورت شخصيتها الخاصة. إنها امرأة قوية وعنيدة، وهي في هذا تقارن بك، الأمر المهم جداً لمصر. إنها لا تتوانى عن بذل

كل جهدها من أجل خططنا المشتركة، وهي تتبعني على دربي بلا شروط وبكل قناعة. ويوماً فيوماً أحسست بها كنصفي الآخر. نحن معاً، كنا مخلوقي النور وتجلّيه الأرضي. وكنا في الوقت نفسه عائلة سعيدة. هذا على الأقل ما أعتقده، فقد منحني آتون ست بنات سليمات. بعد ذلك بدأت نوفرتيتي بالسير في دروبها الخاصة. في البداية وجدتُ الأمر جيداً، فنحن كنا أيدي آتون الأربع المتكافئة. لكنها صارت بازدياد تصدر أوامر وتعليمات دون مراجعتي، بحيث بتُّ لا أدري أحياناً، مَن يحكم مصر، هي أم أنا».

تناول إخناتون كأساً، وفيما هو يرتشف الشراب ببطء، تأمله كيا، فتأكد لها انطباعها الأول. إخناتون كان شاحباً ومريضاً. الجسم الرياضي المشدود الذي في ذاكرتها بدا هرماً وجلده ذابلاً ومترهلاً بالدهون، ولا سيّما حول بطنه، الذي بدت طيّاته جليّة عند الجلوس، وبصورة منفّرة تقريباً. أين بقي سحره الآسر؟ ما قاله بدا موضوعياً وحصيفاً. وكلما استرسل في الكلام ازدادت هدوءاً. تابعت الإصغاء إليه، إلى كلامه وتأملاته، وهي تفكر فيما إذا كانت قادرة حقاً على أن تعشق هذا الرجل، أو أن تحبه. لكن الأمر لم يعد بيدها لتقرر! كان لا بدّ! لا بدّ من أن تفتن هذا الرجل.

«هل تصغين إلي؟».

احمرّ وجه كيا، وأومأت برأسها.

«كم تبدين أليفة يا صغيرتي الجميلة. وكأن السنوات الكثيرة لم تباعد بيننا. فجأة تبدو لي إقامتي في قطنا وكأنها بالأمس. أتذكرين كيف استقبلنا شروق الشمس على سطح قصركم؟ ليتني أخذتك معي مباشرة حينذاك، بدلاً من التمسك بالعادات والتقاليد!».

أحست كيا بدفء في قلبها. أتراه حقاً لم ينسها؟ دهمتها فجأة وسوسة غامضة بأن تغمض عينيها وتدع نفسها تهوي. لكنها سرعان ما استبعدت هذه الغواية. إنها لن تسهّل الأمر له بهذه الصورة.

ابتسم إخناتون وقال: «أرى أنك تتزيّنين بما أهديتك آنذاك!».

مدّ يده إلى ورائه وتناول صندوقاً صغيراً محفور الغطاء بفنية عالية، وأعطاها إياه: «هذا سيناسب ما تلبسين!».

على قماشة صفراء فاخرة داخل الصندوق كان هناك حجر لازوردي بيضاوي الشكل، وقد حفرت فيه عينٌ تتلألأ بخطوط ذهبية وفضية. حلية استثنائية بالنسبة إلى حجمها.

«اشبكيها!».

في خضمّ هذا الجو الحميميّ الدافئ، وفجأة، غيّر إخناتون مجرى الحديث، وهاجمها بأسئلة لم تتوقع أن يطرحها الآن، بل لاحقاً جداً. هل أحسّ بتحفظها؟ هل أحس يا ترى بأنها لم تأتِ بملء حريتها، هي كيا الأبية؟ فجأة انقلب مزاجه، وصار قاسياً وحاداً، كما في استجوابه لها آنذاك.

«لماذا جئت، يا أميرة قطنا؟».

نظر في عينيها نظرة حادة، فنهضت كيا واقفة. كم عدد الذين يبخسون هذا الملك قدره يا ترى؟

«أن يكون أخوك قد أرسلك هدية لتدخلي حريمي، هذا ما لا أصدقه، يا أميرة قطنا. إلا في حال أنك قد تغيرت جذرياً. لا أظنك ملزمة تجاه هذا المتقلّب المتلوّن الخرع! أو أن عليّ أن أصدق حقاً، بأن ضميره يعذبه تجاهي، أو أنه يتوقع خدمة استثنائية لقاء إرسالك. فما الأمر؟».

تصاعد الغضب في نفس كيا. كانت تعرف نقاط ضعف أخيها المتعددة حق المعرفة، ولكن لا يحق حتى لفرعون مصر أن يحطّ من شأنه بهذه الصورة وفي حضورها. اكفهرّ وجهها. ولكن قبل أن تقول كلمة، نهض إخناتون وأمسك بيديها وجذبها إليه: «هكذا أعرفك يا نَمِرتي المقاتلة».. قال بحنان، وقد انقلب مزاجه ثانية، وأردف: «آه كيا، كيف استطعتُ تحمّل كل هذه المدة من دونك؟».

رفع ذقنها بيده، فلم تستطع تجنّب نظرته. «وأنتِ؟ كرهتِني، ألستُ محقاً؟ لكنك لم تنسيني. لم تقدري على ذلك، لأنك أحسست بأننا ننتمي واحدنا إلى الآخر». ثم تركها من بين يديه فجأة أيضاً وجلس على المقعد. تناول حبة فاكهة، وأخذ يديرها بين أصابعه شارداً، وعيناه مثبّتان على كيا. وهمس بصوت كادت ألا تفهمه: «ربما كنتِ أنتِ المختارة. ربما كان آتون يريد إخباري بذلك منذ مدة طويلة. يمنحني البنات، ثم يتركهن ليمتن. ماذا تريد أن تخبرني أيها القادر القدير؟ أهذه هي المؤهّلة لأن تنجب لي ابناً؟».

اخترقت نظراته كيا وتجاوزتها. وعندما انتبه إلى وجودها ثانية كان وجهه يوحي بالانكسار. «إني متعب بشكل لا يوصف كيا. ساعديني!».

لامست هذه الكلمات قلبها أكثر من كل أيمان الحب، التي ببساطة ما كانت لتصدقها. كان الفرعون متعباً، لقد رأت ذلك. لم يكن ذاك التعب الناتج عن القيام بعمل ما، بل عن كثرة الأعباء والأماني غير المتحققة والنزاعات المزعجة وأشياء أخرى كثيرة، تضغط عليه

وتجعل رغبته في النوم لا تقاوم، وتحديداً عند الخادم الأعلى للنور. نهضت كيا ثم كوّرت نفسها على الأرض إلى جانبه وألصقت خدها بخصره، ثم قالت: «لماذا لا ترتاح قليلاً بعد هذا النهار الطويل؟ سأسهر على نومك، إذا رغبت!».

انطوت الأيام والأسابيع التالية على شيء كالسحر. برعاية كيا، التي وضع إخناتون ثقته الكاملة فيها، تعافى بعد وقت قصير وتورّد خداه. أول ما كانت تمارسه معه يومياً هو تمارين التنفس، التي تعلّمتها من شالا، وقد أثبتت جدواها فوراً. فاسترخى الفرعون تدريجياً وصار ينام جيداً. كما كان للعقاقير التي أحضرتها كيا معها، مفعولها أيضاً. وعملاً بنصيحة أمها، طلبت كيا في جميع إجراءاتها حضور أطباء مصريين مشهورين في الدنيا كلها بمعارفهم الطبية. ولم يطل الوقت حتى استعاد الفرعون بهجته بالحياة على نحو جليّ، فبات فائض الحيوية. ولدهشة حاشيته، وزوجته نوفرتيتي خاصة، أخذ مقاليد الحكم بيده ثانية، فتنفّس كثير من الموظفين الصعداء، وعزوا هذا التحول الإيجابي في شخص الفرعون إلى السيدة الجديدة إلى جانبه.

لكن الأهم، هكذا أكد إخناتون، هو أنه قد بات قادراً على الالتفات إلى ربه بكليته ومن أعماق قلبه. لقد اعترف لكيا بأنه كان نهباً للشكوك قبل مدة، بل لليأس، لاعتقاده بأن آتون قد أعرض عنه. «كيف خطر له ذلك»، سألته كيا؟ فنظر إليها نظرة غريبة، ثم أمسك بيديها وهمس: «لماذا لا يمنحني ابناً؟ أم أنه كان أيضاً في انتظارك؟».

لم تجب كيا.

سرعان ما صار واضحاً أن نوفرتيتي باتت عدوّ كيا اللدود، الذي لن يتنازل عن موقعه بسهولة. لقد حسبت كيا حساب ذلك، لكن هذه الكراهية الصريحة المعلنة أصابتها بقسوة أكبر مما توقعت. على الرغم من أن إخناتون قد أعرضَ عن نوفرتيتي قبل وصول كيا إلى مصر بمدة طويلة، لكن نوفرتيتي حمّلت كيا المسؤولية كلها. وفي أحد الشجارات الغاضبة مع إخناتون لقّبتها بـ: «الدمية الجديدة» أو «قطة ينبوع الشباب»، وقالت بأنه سرعان ما سيملّها حتماً، بعد أن يجرب مفاتنها، كما فعل حينذاك في قطنا، غير أن نوفرتيتي أدركت أن كيا ليست إوزة غبية ولا محظية سرير، بل امرأة ذكية قوية الإرادة، وليس مستبعداً أن تنجب صبياً. وقد قالت ذلك لكيا في أحد الأيام مع ابتسامة صفراء شامتة. للوهلة الأولى دُهشت كيا من أسلوب تعبيرها الغريب، لكنها لم تفهم قصدها إلا بعد مدة.

لكنها عاشت في البداية أياماً سعيدة، فقد استبعد إخناتون نوفرتيتي والبنات من محيطه القريب. وعلى الرغم من توصية كيا، بضرورة محاولة التعايش، لم يغير إخناتون قراره، بل أكد عليه. وفي هذا الموضوع أخذت كيا بنصيحة أمها الذكية. لقد ألحّت عليها بعدم ذكر نوفرتيتي أو البنات بالسوء أبداً أمام إخناتون، بل يُفضل أن تبرز محاسنهن، فبهذا الأسلوب فقط يمكنها أن تجذب إخناتون إلى صفّها. رضخت نوفرتيتي للوضع القائم، على أمل أن هذا العشق سيذبل بسرعة أكبر بهذا الأسلوب.

إن ما أدهش كيا، هو سرعة تمكّنها من ربط الملك بها، وسرورها ذاتياً باستعادته ضحكته الشبابية وميله إلى المزاح. فذات يوم ركبا معاً عربته القتالية الذهبية، المضيئة مثل آتون، وقادها في الشارع الرئيسي لجزيرة آتون عبر أخِت آتون. اتجه بادئ الأمر شمالاً حتى القصر على ضفة النهر. كانت رغبة إخناتون أن يريها بيوت آتون ومدينته التي خطّط لبنائها مع معلم البناء (مانخوئف) بكل تفاصيلها. لكن سرورهما بسرعة العربة، دفع إخناتون إلى حثّ جواديه أكثر فأكثر على السرعة، إلى حد أن هلّلت كيا من البهجة ورجته أن يطير بالسرعة نفسها وأكثر جنوناً. وصلا تقريباً إلى مؤشّر الحدود الجنوبية، وهو واحد من أربعة عشر مؤشّراً حجرياً، لها شكل شاهدة قبر، موزعة على سفوح الجبال المحيطة بالمدينة، لتحديد منطقتها. وهنا على مقربة من النيل كان يوجد مكان رائع.

«في هذا المكان، بعيداً بما يكفي عن ضجّة مركز المدينة وزحامه، سنبني لك قصراً»، قال إخناتون برضا، وأضاف: «وسنسمّيه مَرو آتون / دار بهجة آتون، فالحياة معك بهجة يا حبيبتي كيا!». وركض مثل شابٌ عاشق عبر الأرض المنبسطة، وقال: «هنا سننشيد عدّة أبنية، داراً للسكن وداراً للخدمة. لن تكون دار السكن واسعة جداً، رغم حبّي الشديد للعبة الغمّيضة معك، إذ لا بدّ من أن أجدك أخيراً!». التفت إلى كيا، لكنها انفلتت راكضة ضاحكة، ولم تتركه يمسك بها إلا بعد مسافة لا بأس بها. وهو لا يزال يلهث. تابعَ التخطيط: «ولكن لا بدّ من وجود قاعة مدخل واسعة! ومنها يصل المرء إلى صالونات الاستقبال والحمامات والأدراج إلى الطابق العلوي. وهناك في الجانب الآخر، أجد الموضع مثالياً لمعبدنا الصغير الظليل».

رسم بخطواته حول المساحة أساسَ البناء، لتتمكن كيا من تصور حجمه بدقة، وهو يقول: «هنا تبدأ فسحة المذبح، هنا توضع التماثيل وعلى الطرف المقابل أيضاً، أتتصورين معي تقريباً؟ وهنا يبدأ الدرج إلى مذبح القرابين متجهاً نحو الشرق تماماً،

فنحن بحاجة إلى بركات آتون». لم يكن بوسع كيا إلا أن تعانقه. حلّ نفسه من عناقها ممتلئاً نشاطاً وبهجة بمخططاته، وأضاف: «ثم لا بدّ طبعاً من زراعة حديقة واسعة وبركة، وأنت تحتاجين إلى بئر».

«أيحقّ لي أن أطلب شيئاً؟».

«ما تشائين يا ضياء شمسي!».

«أتمنى وجود لوحات جدارية رائعة مليئة بحيوانات ونباتات ومناظر طبيعية. أريد أن أكون محاطة دوماً بحديقة، في الداخل والخارج». ضحكت كيا بشيء من التردد ثم أضافت: «ثمة شيء آخر: بودي أن أتعلم قيادة عربة قتالية».

فيما كان القصر الجديد قيد البناء بإشراف أفضل معلّمي العمارة، تعرّفت كيا أنحاء المدينة. كانت الزيارة الأولى مكرّسة لآتون. أخذها إخناتون معه إلى مجمع المعابد الممتد طويلاً، المسمى بيت آتون في أخِت آتون، مركز عالم الدين الجديد، المشيد على الحدود الشمالية لمركز المدينة مباشرة. لقد قام الفرعون بتخطيط المنطقة كلها وفق مسار الشمس بمحور شرقي – غربي. وأحاطها بسور ذي بوابة ضخمة للدخول إلى معبدين حجريين: اسم الأول: غمپا آتون (آتون موجود)، واسم الثاني: هوت بِنْبِن (مسكن بنبن).

دخلا غمپا آتون عبر قاعة معمدة واسعة مسقوفة إلى بيت الغبطة، ثم عبرا ستّ باحات مفصولة فيما بينها بما يشبه بوابات ضخمة مزدانة بحفر نافر ومزينة بالرايات. كان في الباحات صفوف طويلة من المذابح يستخدمها الأعيان كطاولات للأضاحي. أما مذابح عامة الناس فموجودة خارج البناء. إذ يحظر على العامة دخول الحرم المقدس.

خرج إخناتون وكيا من معبد غمپا آتون، ومرّا بمسلخ حيوانات الأضاحي والقرابين وشاهدة بنبن، إلى المعبد الثاني، حيث كانت الأضاحي الملكية تُقدّم حتى الآن بيدي نوفرتيتي لمسكن بنبن. وقفت كيا مندهشة في مدخل معمّد نصبت فيه تماثيل هائلة لفرعون. ووراءه مباشرة تأتي بوابة مواكب عالية ثانية تؤدي إلى باحة. لاحقاً تذكرت كيا المرة الأولى التي شهدت فيها تقديم قربان. خطا إخناتون برفقة الوجهاء المجتمعين في موكب إلى المذبح العالي في مركز الفسحة المضاءة جيداً. وبمرافقة موسيقا سماوية تصدح من قيثارات وجنوك وأعواد صعد الدرجات إلى قدس الأقداس وقدّم أضحية لآتون. فتذكرت تجربتهما المشتركة على سطح القصر في قطنا بانتظار شروق الشمس.

حتى حينذاك شعرت بنفسها تنتقل إلى أجواء مغايرة. لا يمكن للإنسان أن يكون أقرب إلى ما هو ربّاني كما في تلك اللحظات.

«ما حكاية بنبن؟».

«هو اسم النصب المقدس في معبد ناي - تي، الذي سطع عليه الرب رع بصفته الرب الأول. وأنا رغبت بوجوده هنا أيضاً، في المركز الجديد».

«هو ربٌّ ذكرٌ إذاً!».

لم تكن هذه المرة الأولى التي يتطرقان فيها إلى هذا الموضوع. إذ حكت كيا لإخناتون عن مدى تأثرها بعد سفره بفكرته عن ربّ واحد كليّ القدرة. ولكن بالنسبة إليها كانت هذه المكانة أولى بربة أنثى مانحة للحياة، فلقد احتلّت الربة عندها معنى حاسماً، بحيث لم تعد قادرة على تصور أن تتخلى عنها.

«أتعرفين يا قلبي، في تصوّري، لا رع ولا آتون أرباب ذكور. نحن ننشد قائلين: «حيّي رع، حاكم الآفاق، الذي يهلل في أرض النور، باسم أبيه، الذي يتجلى في آتون. لكن آتون نور يظهر علينا في قرص الشمس، أي المكان الذي يقيم فيه آتون. النور الإلهي بصفته مانح الحياة، ليس ذكراً ولا أنثى، بل كلاهما، إنه أب وأم، رجل وامرأة. عندنا نحن البشر فقط، لا بدّ من وجود جنسين، يتحدان في الربوبية. لذلك ليس الملك ككاهن أعلى هو من يخدم آتون، بل وبصورة متكافئة، الملكة ككاهنة عليا أيضاً. وكذلك هو الأمر في البلد كله، أي كل البشر، حتى الرجل العادي والمرأة العادية. وهم يقومون بذلك بحرية وعلناً. لم يعد الإنسان يتنقل من النور إلى أعماق الظلمة، كي يصل إلى قدس الأقداس المخبوء، بل النور الآن في كل مكان! كذلك لم نعد بحاجة إلى صنم يمثل الربوبة، لأن أشعة الشمس موجودة في كل مكان، أتفهمين؟».

نعم، لقد فهمت كيا، ولكن أن تحيا وفق هذا الفهم؟ هذا النور الربوبي، كان نائياً جداً، وغير ملموس مطلقاً، ثم إنه صامت. فإلى أين يذهب المرء عندما تثقله الهموم أو عندما يفيض صدره بالسعادة؟ ثم هناك القلق الدائم من عدم معرفة ما إذا كانت أعمال المرء صائبة، وما إذا كان آتون راضياً عن الأضاحي والقرابين.

ترك لها إخناتون وقتاً للتفكير. لكنه عرّفها في الوقت نفسه على أهم الشخصيات في إدارة حكومته، مِمّن لم تلتقِ سابقاً لحديث مطول، إلا توتو النبي الأول، وبِنتو الطبيب الملكي الخاص. فكان منهم (إيبي) ناظر القصر في آخت آتون، (بِرين نفر) ناظر الأعمال

اليدوية للملك وكبير مشرفي أشغال معبد آتون، و(مِريرة) كبير كهنة آتون بلقب كبير فاحصي القربان، ثم (پانِهيسي) النبي الثاني وناظر قطعان أبقار آتون، وهو أكبر موظف في شؤون المعبد الاقتصادية. يضاف إليهم (نَخت) المسؤول عن المدينة آخت آتون، و(مايا) القائد العسكري وحامل المنشّة إلى يمين العرش، والذي ما زال يحمل لقب كاتب المجندين الجدد، ثم (رَنفير) ناظر الاصطبلات والعربات، و(باهو) قائد الشرطة. كانت كيا قد التقت في ممفيس بوزير مصر السفلى، وها هي ذي تستقبل الآن زميله (نختپا آتو) وزير مصر العليا، إضافة إلى (تحوتمُس) رئيس الإدارة العسكرية في كوش، وناظر البلدان الأجنبية الجنوبية. أما مَن نقص، فكان أقرب أمناء الملك: آيا، والد نوفرتيتي. كانت كيا تقدره تقديراً عالياً وتكاد تخافه، غير أنها لم تُظهر ذلك قط.

«من نَال أكبر قسط من إعجابك من خلصائي؟». سأل إخناتون كيا مساءً. فأجابت دون تردد: «تحوتمُس». وعندما لاحظت دهشة إخناتون المتوقعة – كان تحوتمس داكن البشرة بصورة غير مألوفة وذا شفتين غليظتين مقلوبتين، ويبدو منفّراً، لكنه يوحي بشخصية عسكرية بالغة التنظيم والانضباط – ضحكت بمكر وقالت: «أقصد النحات طبعاً!».

كانا البارحة قد زارا ورشة عمل النحات الشهير تحوتمس، لرغبة إخناتون بمناقشة عدد من الأعمال النحتية معه ومع زميله (يوتي) كبير نحاتي الورشة وناظر أشغالها والنحات (بَك). تقع أملاك تحوتمس في جنوبي المدينة قرب البناء الذي نزلت فيه كيا عند وصولها، والذي ما زال خدمها وقسم من حاشيتها يقيم فيه. على هذه الأرض الواسعة الجميلة أقيم بناء الورشة ومستودع الأحجار وفسحة الشغل، ثم مسكنه الفخم وثماني وحدات سكنية صغيرة متشابهة الشكل لمساعديه والمتدربين. أُعجبت كيا بالمكان أيّما إعجاب، إذْ ذكّرها الجو السائد هنا بورشة خزف دونيو في القصر الملكي. ولكن بدلاً من فحيح قرص الخزّاف، كان يُسمع هنا صوت النقر الدائب الناتج عن طرق الإزميل بالمطرقة لمعالجة سطوح الحجارة. رأيا تماثيل جاهزة، بعضها ضخماً جداً، ومنتصبة قبل معالجتها بطبقة التغليف الملونة، لكنها لم تكن متماثلة الحجم والشكل إطلاقاً. دفع الفضول كيا للاستفسار، فعرفت أنها مركبة من أنواع حجارة مختلفة. وقد بلغت مهارتهم الفنية حدَّ استخدام مواد كالتي تستخدم في تغليف الفخار لمعالجة سطوح التماثيل. على الرفوف صُفّت نماذج من الجبس، كما علقت على الجدران قطع حفْر نافر ونماذج أخرى من الجبس وأعداد لا تحصى من أدوات الشغل. وكانت مهمّة أحد العمال الوحيدة هي سن الأزاميل. ثم وقع نظر كيا على تمثال خزفي نصفي رائع، يشتغل النحات بنفسه على

صنع مثيله من الحجر: نوفرتيتي. حتى في وضعه الحالي كان التمثال يشي بمهارة النحات العالية الرائعة، فقد تمكن من التقاط كل السمات المميزة لزوجة الفرعون في اتساق متكامل. كان التمثال موضع إعجاب كيا.

«في الواقع، من الممكن أن أحبه ثانية»، أسرّت كيا لأمينابة قبل فترة، «أتعرفين لماذا؟ لا أعرف أحداً يغمره السرور والفرح عندما يراني مثله.. ما عداك أنت طبعاً»، أضافت بسرعة عندما رأت وجه أمينابة المحبَط، وعانقت صديقتها بحب. كان هذا بعد نزهتها الرائعة مع إخناتون إلى الجبال الشرقية. وكيا هي التي اقترحت تسلّق الجبل من دون الحاشية، على الرغم من طول المسافة التي وجب عليهما قطعها. لم ترغب في زيارة المقبرة الملكية، لتبدي احترامها للموتى المباركين فحسب، بل أرادت التسلق إلى أعلى نقطة ممكنة، لتطل على المدينة فتستوعبها في كامل أبعادها. ووقفا معاً يمسك كل منهما بيدَي الآخر، عندما أرسلت الشمس أشعتها من فوق الأفق فأنارت مدينة آتون بلمعان أبيض وذهبي: في الشمال بناء الإدارة الضخم وقصر الضفة والحي الشمالي، ثم القصر الشمالي الذي تتصل به الضاحية الشمالية، والذي ينتصب معبد آتون العظيم إلى الجنوب الغربي من سوره الخارجي، مع مخازنه الممتدة بشكل مواز للسور. وإلى الجنوب مباشرة، على الجانب الأيسر من شارع المواكب العريض، شاهدا دار الملك ودار المحفوظات ومشفى الحياة ومعبد آتون الصغير إضافة إلى أبنية إدارة الجيش والشرطة. أما على الجانب الأيمن من الشارع فتوجد تتمة دار الملك المرتبطة مع الأصل بجسر مقنطر فوق الشارع باتجاه النيل، حيث ينتصب القصر الكبير المبني بالحجر الكلسي الأبيض على امتداد سبعمئة متر، والمزين بروائع نحتية من الرخام الأبيض والأسود، والغرانيت المختلف الألوان والمتلألئ في أشعة الشمس.

نعم، هذه الأسابيع الأولى السعيدة كانت لهما وحدهما. فكلما سنحت لإخناتون الفرصة في زحمة الواجبات، كان يمضي وقته مع كيا وحدها. وخلال ذلك التقت بصورة عابرة فقط، ببعض أفراد العائلة المالكة الكثيرة التشعّب، والتي تعد إلى حدٍّ ما عائلتها أيضاً، إضافة إلى أعيان آخرين وبعض سيدات الحريم الملكي. فقد قرر الملك أن هذا كله يمكن أن ينتظر، مقصياً الدنيا من وجودهما الثنائي. ولم تعرف كيا ما إذا كان يرى بناته أو نوفرتيتي أو يزورهن، كما أنها لم تسأله عن ذلك.

لقد أمضيا أوقاتاً طويلة في حوارات عميقة، لا سيّما في قضايا الدين والسياسة. وكانت تلك فرصة سانحة لكيا لتوجه الحوار نحو الشؤون السورية. وقد وجد إخناتون

الأمر طبيعياً، أن تبدي كيا اهتماماً بوطنها، وشاركها هذا الاهتمام بحيوية لافتة. فطلب منها عدّة مرات أن تصف له مجريات الأحداث في قطنا وسوريا خلال الخمسة عشر حتى العشرين شهراً الأخيرة. سألها عن العلاقات بين أكيزي وعزيرا الأموري وأيتاكما القادشي ونيقمدو الأوغاريتي، الذين تعرّفهم جميعهم شخصياً في أثناء زيارته آنذاك، حينما كانوا مثله أولياء عهد. لكن أسئلته تركزت على شوپيلوليوما. ما الانطباع الذي خلفه العاهل الحتي في نفسها؟ ما هي برأيها مخططاته المستقبلية الحقيقية، التي يبغي تنفيذها مع قادة جيشه؟ فالهجوم على أمورو وقادش قد أثبت أن غرض الحتّيين هو احتلال مناطق تابعة لمصر. أولم يضمّوا إليهم أوغاريت، فضلاً عن ميتاني؟ ومع ذلك يُفترض أن نثق بوعد شوپيلوليوما، حسب تطمينات سفيره تانوا، بأنه سيحترم الحدود المشتركة بيننا. عند ذكر اسم تانوا، جفلت كيا فجأة. لا لتذكّرها الشجار مع إخناتون بسببه فحسب، بل لشعورها فجأة بقرب الصديق منها، لمجرد ذكر اسمه.

«لا يمكنكِ تصوّر مدى سعادتي بسماع أخبار الأحداث أخيراً من إنسان جدير بالثقة. لو تعلمين بما يصل إلى سمعي وبما يقدم إلي لقراءته». ولتأكيد كلامه أرسل في طلب جميع المراسلات الأخيرة التي وصلت من الشمال إلى آخت آتون أو أُرسلت منها إلى هناك. وكانت كلها مرتبة بعناية في صناديق خشبية مخزنة في دار المحفوظات ومزوّدة بعناوين مكتوبة على قطع من المرمر. مصدر معظم هذه الرسائل هو الملك ريب عدّي الجبيلي، إضافة إلى أسماء كثيرة تعرفها كيا جيداً، وكان مثيراً لها أن تطّلع على ما يكتبه الملوك.

«يا له من مداهن قذر!». صاحت كيا منزعجة وهي تشير إلى رسالة من ألاشيا.

«ما أروع، يا كيا، أن نتداول في هذه الأمور! ثم قدرتك على قراءة الرسائل وفهمها، سواء كانت بالأكدية أم غيرها، أمر مدهش.. ماذا حشوتِ في رأسك الصغير الجميل هذا؟».

كم كانت كيا سعيدة كل مرة باستعدادها المسبق لمواجهة مثل هذه المواقف. كانت تدرك أن عليها وزن كل كلمة تنطقها بميزان الذهب، كي لا ترتكب أي خطأ. لكن جهدها آتى أُكله. تأثيرها المهدّئ للأوضاع تبدّى بسرعة، إذْ اقترحت على إخناتون أن يطالب شوپيلوليوما بدليل ملموس على جدّيّته، فيما يتعلق بمسألة الحدود في سوريا. فإذا كان إخناتون سيقبل بحجة شوپيلوليوما أنه لم يهاجم المناطق المصرية إلا بسبب استفزاز عزيرا وأيتاكما، فعلى شوپيلوليوما تعبيراً عن حسن النية أن يعيد أراضي أمورو وقادش إلى

السيادة المصرية ثانية. وبذلك ينحلّ النزاع برأي كيا. وعدها إخناتون بمناقشة الأمر مع أيا وتوتو وبقية المسؤولين عن هذا الموضوع. وفعلاً، بعد فترة قصيرة انطلق مراسل مصري من أخِت آتون باتجاه حتّوشا، حاملاً معه رسالة الفرعون «إلى أخيه العزيز شوبيلوليوما».

وفي الآن نفسه كرّس إخناتون وكيا قسطاً من وقتهما للمداعبات الغزلية، التي غالباً ما تجاوزت هذا الحد. في بعض الأيام كان إخناتون يدفن نفسه في حضن كيا كالغريق، وقد أفرغ قواه كلياً. كما ذاقت دموعه أكثر من مرة، عندما كان يستلقي إلى جانبها منهكاً، محيطاً إياها بذراعيه، وكأنه لا يريد أن يتركها إطلاقاً. وقد دعمت أمينايه وسابو كيا في جعل الملك يزداد افتتاناً بها كلما رآها مساءً. كان يُفترض به أن يكون دائماً في حالة تشوّق لمعرفة ما ينتظره. غالباً ما كانت كيا تنجح من النظرة الأولى في معرفة مزاجه، فتتصرف بما يتلاءم معه. فإذا كان راغباً في تغيير مثير، أو استرخاء، أو حتى مواساة، أو ألعاب مسلية، كانت كيا تحاول تلبية رغبته. ودُهشت لاكتشافها قدراتها الكامنة في نفسها للتأقلم مع أهواء رجل. لكنها لم تكن راضية. صحيح أنها باتت أكثر تقبّلاً لاستقبال الملك في لقاءات حميمة كلما ازدادت معرفة به وفهماً له، لكنها كانت في بادئ الأمر تقهر نفسها حرفياً لتحمُّل ما هي فيه، شاكرة لأمينايه بعض نصائحها المساعدة. فقد كانت تنظر إلى جميع ما يتصل بالحب ويتجاوز مداعبات غزلية معينة، باعتباره واجباً ملزماً. أما شعورها بالحب العميق تجاهه فلم يتفتّح مجدداً، رغم كل ما بذله إخناتون لإسعادها. بل العكس هو ما حصل، فكلّما أبدى لها حبه وأكّده، تراجع إحساسها به، في حين أنه لم يلحظ شيئاً من ذلك، ومنحها ثقته الكاملة. لماذا لم تكن قادرة على لقياه بحرّية؟ أيعود ذلك إلى أنها لم تصارحه بالحقيقة، بمن أرسلها ولأي غرض؟ أهي سخرية القدر؟ كم كانت طوال تلك السنوات تتوق إليه، وها هي ذي الآن عنده، بين ذراعيه، ويُفترض بها أن تهلّل فرحاً لتحقيقها أكثر أحلامها جرأة. لكنها لم تحسّ بذلك. فكلما راجعت قلبها، كان الشعور، الذي تحسه في أفكارها تجاه إخناتون، هو العطف المطلق عليه في الدرجة الأولى، ثم الميل إليه في الدرجة الثانية، ولكن ليس الحب قط. ومهما ابتهلت إلى الربة وتوسّلت، بقي وضعها على حاله.. أهذا هو عقابها؟ أم أنها نافدة الصبر، شديدة اللهفة؟ فالحب لا بدّ من أن ينمو تدريجياً، ولم يمضِ على وجودها عنده سوى وقت قصير.

ذات يوم، عندما رغبت في أن تشكو همّها لأمينايه، قاطعتها هذه فوراً وأومأت لها بأن تصمت، ثم استغرقت في تسريح شعرها بحب. وبعد فترة خاطبتها بلهجتها المحلية قائلة:

«سيدتي، يجب أن نكون في منتهى الحذر. يؤلمني جداً أن أخبرك بأني بتّ متأكدة خلال هذه المدة، بأنك مراقبة دائماً، وأن كل ما يجري هنا يُنقل إلى زوجة الملك العظيمة. لا، لا تلفظي أي اسم. وأريد أن أرجوك ألا تثقي بأحد هنا. يجب أن نعتمد على أنفسنا فقط. إياك أن تفلت من لسانك كلمة قد تكشفك. يجب على الجميع أن يعتقدوا بأنك غارقة في حب الملك، وأنك رفيقته التي يحب أن يركن إليها، لا أكثر... وذات يوم قد تحبينه حقاً، من يدري؟». ثم أضافت بعد صمت قصير: «كيا، الأمر يتعلق بحياتك!».

هما إذاً سابو ومِمي، الزوجان اللذان يديران شؤون الخدمة، وإلا فمن قصدت أمينابة؟ كان متاحاً لسابو الدخول إلى جميع الغرف. هذه المرأة الأربعينية الخفيفة الروح كانت كيا تستلطفها، ولم توجه إليها أي لوم. من يدري بالضغوط الممارسة عليها؟ من كان ضدها أيضاً؟ نوفرتيتي طبعاً! وهذه بإمكانها استعداء الكثيرين ضدها! منهم والدها أيا، الرجل الثاني في الدولة، وتيّه الملكة الأم. وما أكثر إمكانيات إلحاق الأذى بها. فمنذ مدة قصيرة رأت بنفسها، كيف سقط ذائق الطعام ميتاً أمامها. كما حكت لها سابو عن حالات تسمم أخرى، وعن تعرض كثيرين – ليس مصادفة – لعضّات الكوبرا. وإدراك كيا الجديد بأن عليها وحدها إنجاز المهمّة، إضافة إلى أخطار مهددة كثيرة أخرى، ملأ نفسها بالخوف. ازداد لجوءها إلى ربّتها بحثاً عن السلوان، ولكن هل بإمكانها سماع شكواها وهي في مصر البعيدة؟ لا شك في أن إخناتون سيفعل كل شيء لحمايتها، ولكن إلى أي مدى تصل ذراعه؟

لماذا لم تحبه؟ أم أنها لم تدرك الحب؟ كانت تحب أن تكون معه، وأحاديثه كانت مثيرة، وما أراها إياه كان فيه الكثير من الجدة. لربما كانت تصوراتها عن الحب مغلوطة تماماً، ولربما كان ما تتصوره عن الحب غير موجود إطلاقاً. هناك كثير من الأميرات اللواتي يحسدنها. لربما يلزمها بذل مجهود أكبر.. ربما، ربما، ربما. طردت كيا من رأسها كل هذه الأفكار المؤرقة. المهم هو فقط، أن يكون الفرعون سعيداً.

أسبوعاً فأسبوعاً أخذت كيا تراقب ما يجري حولها وسلوك إخناتون تجاهها. لم يمر لقاء بينهما دون أن يقدم لها هدية ما. لكنه لم يعد ينظر إليها بعينين جائعتين كالسابق. وأخيراً عزت ذلك إلى الوجود المهيمن لعائلته، وإلى المنحوتات والصور الكثيرة الموجودة في مسكن الملك وفي القصور الأخرى والأماكن العامة الكثيرة، مجسدةً في مشاهد مختلفة حياة العائلة السعيدة، ما أدى على نحو هادئ إلى شيء من تعكير الأجواء بينهما. الغرض

من هذه المنحوتات والصور هو أن تري الرعية، التي لا يمكنها أن تتكلم مع آتون، أنها محاطة بحبه، كحال العائلة المالكة. هنا تجلس البنات عاريات عند أقدام الأبوين، وفي صورة أخرى تجلس نوفرتيتي في حضن الملك، أو هو يقبلها.

هذا كله كان حتى الآن صحيحاً.

لكن الفرعون لم يعد يظهر مع نوفرتيتي والبنات إلا عندما تستدعي الضرورة وجود قرينة الملك، كما في عيد السنة الجديدة الذي يحتفل به مع بدء فيضان النيل. وهو لم يشكل عائلة جديدة بعْدُ مع كيا، ليس بعدا! ومن يوم إلى يوم كان يزداد توق كيا إلى الانتهاء من بناء قصرها ماروآتون. هناك ستكون أكثر منعة، في وجه الهجمات المتوقعة، من القصور الأخرى. والأهم هو أنه سيكون لها هناك مع إخناتون ملكوتها الصغير الخاص بها، حيث ستنطلق مشاعرها تجاهه بحرية أكبر، وستتمكن من ثم من ربطه إليها بصورة دائمة. ولكن ما زالت هناك عدّة شهور، حتى تنتقل للإقامة في ماروآتون. ماذا عن ابن؟! ابن للملك ولآتون.. هذا هو الحل. غير أنها لم تشعر ببوادر حمل، من أي نوع كان.

وهنا تدخل القدر مجدداً. بعد فترة قصيرة من عيد السنة، الذي يقام بعد ثلاثة أو أربعة شهور من مثيله في قطنا، أصيبت نفرنفروآتون – تشريت، ابنة الزوج الملكي الرابعة ذات الست سنوات بحمى شديدة، ولم تنفعها كل الصلوات والرقى والعقاقير. كان شفاؤها متعذراً، وماتت بين ذراعي أبيها الذي هرع إليها.

إذا كان الحزن والألم العميق لفقدان البنات الأخريات قد وحّد الأبوين، فإن موت هذه الطفلة قد تسبب في ردود فعل متباينة. نوفرتيتي فقدت السيطرة على نفسها، فعيّرت إخناتون بسلوكه ورمت كيا أخيراً بتهمة ممارسة السحر، وبأنها أنزلت بالطفلة حمى قاتلة.

كان لفقدان الطفلة تأثير كارثي في إخناتون. فلم يعد ملكوت الموت موجوداً كما في عهد أبيه. لقد محته أشعة آتون. الحياة قائمة هنا والآن، ومَن يقترف الآثام يلقى عقوبته هنا والآن. والقاضي في الدنيا هو الفرعون باسم آتون. رحمته فحسب هي ما يمنح الفرد حياة أخرى بعد الموت. هو مَن يمنّ على الفرد بتجاوز الموت، وحياة من يتسامى إلى الآخرة تصير مكرسة فحسب لمرأى آتون، ولا شيء سوى ذلك. ولكن لماذا أراد آتون أخذ البنات البريئات إليه، في هذه السن المبكرة، بدلاً من أن يسبغ رضاه عليهن في هذه الحياة الدنيا؟ ما الذي يريد الرب أن يقوله له بذلك، وللمرة الرابعة؟ لم يفهم إخناتون. لا يمكن أن يتعلق الأمر به، هوِ الابن البار والخادم المطيع؟ أترى نوفرتيتي هي المذنبة؟

ألهذا أرسل آتون إليه، كيا تحديداً، في عيد تجديد البيعة؟ لقد أعادت إليه شبابه حقاً خلال أسابيع قليلة، وملأته بطاقات جديدة. لكنه استغرب ألا تحمل منه بعد.

حتى في ما عدا ذلك كان لكيا تأثير منعش ممتع. لو يتم التوصل بمساعدتها إلى خاتمة جيدة للنزاعات الممضّة مع الحثّيين من دون أن يُستلّ سيف من غمده. يُرجَّح أن إخناتون في تلك اللحظة قد اتخذ قراره بجعل كيا زوجته رسمياً، وبأسرع وقت، بعد انتهاء مدة الحداد الملزمة. لم يبغ رفعها إلى مرتبة أعلى من نوفرتيتي، تجنّباً لاضطرابات جديدة في البلاد، لكنها ستصبح (زوجة الملك المحبوبة).

أما الآن فإن ندب الميتة، الذي يمزق نياط القلوب، قد ملأ البلاد. تحت أشعة آتون، التي لا تفرق بين سعيد وتعيس، حُمل الجثمان الصغير من غرفة الموت، بعد أن نقل من النعش إلى تابوت حجري صغير، ووضع على عربة جرها جاموس إلى مدفن العائلة الملكية في الجبال. عند مدخل القبر حُطمت تماثيل موتى صغيرة تحمل اسم المتسامية المباركة، ثم وضعت الطفلة الميتة في مستقرها الأخير إلى جوانب أخواتها وزودت بكل ما هو ضروري: حلي وثياب وأوانٍ وأدوات تجميل وأطعمة ودمى للعب.

**

«يا للأسف، كنتما ستشكلان زوجاً نموذجياً»، قال هنوتي لتانوا وأضاف: «حكمك على كيا كان صائباً تماماً. الملك راض عنك كل الرضا ثانية، وأملاكك ستتوسع مجدداً! قبل قليل مثَل سفيرنا في مصر أمام شوبيلوليوما. يبدو أن الفرعون يمدّ يده إلينا بعد أشهر الصمت الطويلة. سيعذرُ شوبيلوليوما على اقتحامه أمورو، لأن بعض رعايا مصر قد استفزّوه حقاً، حسبما أخبره أخوه العزيز على لسان سفيره حينذاك. والآن لن يحتاج أخوه العزيز في الشمال البعيد إلا إلى إعادة الأراضي المحتلة إلى الأيدي المصرية، وبذلك تصبح القضية كلها نسياً منسياً. هذا الحل كان يمكن أن يأتي منك!». وضرب هنوتي بيده على فخذه وضحك ضحكة صافية.

«أيحتمل أن تكون هذه الفكرة فكرتك أنت؟». سأله هنوتي بعد أن هدأ من الضحك، «أم أنك تتوقع هذه الشطارة من كيا؟». ولم ينتظر جواباً، بل تابع قائلاً: «بهذا يمكننا لهذه السنة على الأقل استبعاد هجوم جديد على شمالي سوريا. الملك وميتانّموا لا يريان في الرسالة فخاً، وإلا للوحظت تحركات عسكرية على الحدود منذ مدة. لكن الهدوء يسود

كل مكان، سوى أن كهنة آتون يعملون بدأب في كل مكان. نانينزي وصل من قطنا قبل قليل وهو يؤكد الأمر، وكذلك رجال استطلاعنا الآخرون».

كان تانوا يغلي داخلياً، لكنه تمكن من ضبط نفسه أخيراً. فيمَن يضع ثقته، إن لم يكن في خاله؟ فقال: «يبدو لي أني مستبعد من الجنوب. ألم يلفت الأمر نظرك أيضاً. من الواضح أن نانينزي قد ظفر بوظيفتي». حاول قول ذلك بلهجة مازحة، لكن هنوتي سمع جيداً، أن تانوا ليس راضياً عن هذا التطور في وضعه، فأجاب: «بصراحة، أنا أيضاً استغربت ذلك. عادة يتم التداول في مثل هذه الأمور في مجلس الشيوخ ويتخذ قرار بشأن تغيير مسؤوليات سفير ما. اعذرني لعدم إخبارك بالأمر، لكنني سألت الملك حول وضعك، فأجابني مندهشاً بأنك أنت أيضاً تستحق استراحة قصيرة. ولم يكن بوسعي سوى أن أثني على ذلك».

هز تانوا كتفيه، إذ إنه لم يعتبر هذا التبرير وجيهاً. فحاول هنوتي أن يخفف عنه بتغيير دفة الحديث: «ما رأيك أن تهتم قليلاً بآنّا خلال هذه الاستراحة؟». وكانت (آنّا) إحدى قريباته من طرف أمه، وهي صبية جميلة، نشيطة وخفيفة الروح، يلتقيها في دار جدته شوميري كلما زارها مع خاله، فتبدي اهتماماً خاصاً به. وتانوا كان يستلطفها، ويتمادى أحياناً في ممازحتها، فتمدّ له لسانها متبرمة، دون أن تتراجع عن إسباغ عنايتِها عليه. لكنها ما كانت لتلعب دوراً في حياة تانوا، فهناك تلك الأخرى التي لم يسبق أن نأت عنه كالآن. وكانت كل كلمة بشأنها تؤلمه، فأجاب بحدة أكثر من اللازم: «لستُ أبحث عن زوجة، إذا كان هذا قصدك».

دون أن يأبه هنوتي بملاحظة تانوا، عاد إلى موضوع الحديث الأول قائلاً: «لا يبدو الأمر لأحد من قبيل المصادفة، أن ينشط إخناتون فجأة، بل الجميع يعزو هذا الحدث المثير إلى كيا. علماً بأنه لم يمضِ على وجود الأميرة في القصر سوى أسابيع قليلة. إنه حقاً لإنجاز».

تجلّد تانوا وقال: «كيا، أميرة قطنا تمتاز بقدرات كثيرة لافتة. وأنا سعيد لكونها على ما يبدو قد ثبّتت قدميها في مصر بهذه السرعة. سأتكلم مع السفير بنفسي لأحصل على التفاصيل».

«من المرجح أن يوفدك الملك العظيم إلى مصر هذه المرة لتساعد في إبرام الاتفاقية». تعلق تانوا بهذا الأمل. وتلبية لانفعال داخلي مفاجئ عانق هنوتي ابن أخته، ثم نظر إليه ملياً وقال: «آمل أن يتحقق لك ذلك من كل قلبي. لا تظن أني لا أعرف كم تتألم يا عزيزي!».

لكن أمل كليهما خاب، إذْ كلف شوبيلوليوما نانيتزي بالمهمّة، دون استشارة أحد. فكان تانوا كمن تلقى خبطة على رأسه. ولم يستطع التفكير إلا بأمر واحد، وهو أنه لن يرى كيا. كما أنه لن يتمكن من إرسال أي خبر لها، لأنه لم يعد يثق بنانيتزي. لا بدّ أنه قد ارتكب خطأً ما، يوماً ما، في مكان ما. ولكن ما هو؟ هل افترى عليه نانيتزي كذباً، نتيجة حسده له، لأنه الأصغر المفضل؟ أم أن الملك لم يصفح عنه بعد، لانسحابه جزئياً من مرافقة الأميرة مالْنيغال في حينها؟ أم كشف أمر اتصاله السري بالملكة السابقة هنتي؟ لماذا لم يُستجوب إذاً، ويُعطى الفرصة للدفاع عن نفسه؟

لقد جانب تانوا الصواب في تخميناته كافة. فقد أخبره الملك بنفسه بأنه، بناء على رغبة ميتانموا، سيعينه نائباً لمدير شؤون الدولة، حالما يجتمع مجلس الشيوخ. لم يستوعب تانوا بادئ الأمر ما عرضه عليه الملك. فأن يُسلَّم مثل هذا المنصب المهم في الدولة، وهو لا يزال شاباً، لهو دليل ثقة ومكافأة وتقدير على نحو يفوق التصور. فركع عند قدمي الملك الشمس. وفجأة لمعت في ذهنه فكرة أنه قد يكون بمقدوره – وهو الآن في مركز سلطة الدولة – أن يفك العقدة التي تلف بكيا من حيث المرتبة الاجتماعية، وليس هذا فحسب، بل أن يحل لغز أصله.

لم يمض وقت طويل على استلامه منصبه الجديد، عندما وصل إلى حتّوشا خبر رفع كيا إلى مرتبة زوجة ملكية.

**

في الليلة التي عرض إخناتون على كيا أن تصبح زوجته، بكت، ولم تعرف، أمن سعادتها أم لشقائها!.. منذ وجودها في مصر بقيت الربة صامتة. على الرغم من كثرة أحلامها المقلقة، فإنها لم تتذكر منها شيئاً عند الاستيقاظ. ولكن في الليلة التي عرفت فيها أنها ستصبح زوجة الفرعون، فكّرت بمشهد تكرر في أحلامها في قطنا: أمونحوتب يغازلها ويسقط فجأة على الأرض ميتاً. ما المقدَّر له ولها؟

لقد تعززت مكانة كيا بقرار الملك، الذي أعلنه رسمياً بسرعة، بأن أخبر به الملكة الأم تيـّة، والزوجة الملكية العظيمة نوفرتيتي، وجميع أعضاء حكومته والمستشارين المهمين. فبات على المرء أن يحسب حسابها الآن، بما يتجاوز تأثيرها القوي في إخناتون. ولهذا لم يعد مستغرباً أن يلتمس أيا زيارتها. ولدهشة كيا، التي كانت تخشى جانبه، كونه والد

نوفرتيتي، تفاهما مباشرة. وأيا الذي تجاوز الأربعين من عمره، كان رشيق القوام، طويل القامة، له وجه بيضوي بحاجبين كثّين موازيين لرموش عينيه. وما يؤكد مظهره الوقور هي جبهته العريضة ذات التجاعيد التي تدل على تفكير عميق، وعظمتا خديه المتباعدتين بحيث تُبرزان أنفه. أما فمه فكان كخط مستقيم مزيّن بشاربين مهذبين. وقد أدركت كيا بسرعة أنها أمام شخصية واقعية عملية. كان أيا مخلصاً كل الإخلاص لملكه وصهره، لا شك في ذلك، ولكن من دون حماسة زائدة. كان يسمي الأشياء بأسمائها مباشرة ويحاول في نطاق الإمكانات المتاحة تحصيل الأفضل، للملك والبلد. وعلى هذا الأساس لا شك، صنّف علاقة إخناتون بكيا، فهي حالياً الزوجة المناسبة إلى جانب الملك، ولا سيّما إذا كانت ستنجب وريثاً للعرش. وقد أكد لها أن إدارة الدولة مستقرة بين يديه، ما دام الملك لا يُقدِم على اتخاذ قرارات فردية. قال ذلك مع شبح ابتسامة. وهذا الموقف لاءم كيا جداً، لأن مطلبها يتماشى مع هدف أيا: لا بدّ لمصر من أن تنمو وتزدهر في طمأنينة، بعيداً عن مؤثرات الحروب في الشمال والجنوب. وفي أثناء الحديث سرّبت كيا فكرة أن فكرة النمو والازدهار يجب أن تشمل البلاد المجاورة أيضاً. ومن نظرة أيا إليها تولّد لديها الانطباع بأنه قد فهمها. ومع ذلك قررت أن تكون على حذر، تجاهه أيضاً. صحيح أنهما يرتبطان بصلات القربى، فهو ابن خال أمها، ولكن ما معنى ذلك في مصر؟!

تلقت كيا دعوة من الملكة الأم تيـّة فلبّتها. وكانت تتوقع أن يجري اللقاء في جو رسمي متشدّد، إلا أنها فوجئت على نحو لطيف بنقيض توقعها تماماً، إذ رأت أن هذه السيدة القصيرة القامة، الرقيقة القوام والنشيطة الحركة، تصرف جميع الخادمات بعد الاستقبال الرسمي، ثم تقود كيا إلى مكان ظليل وواسع على الشرفة الأرضية لتجلسا بصورة مريحة، وأمامهما طاولة صغيرة مُدّت عليها صحاف مأكولات وفواكه.

«مدّي يدكِ! ستحتاجين إلى كثير من الطاقة». قالت لكيا، ونظرت إليها مبتسمة وهي تأكل. أما هي فإنها لم تتناول أثناء ذلك سوى بعض اللقيمات مع رشفات من العصير.

«كيف حال أمك؟ أسمع أنها تعيش حياة فاضلة في الشمال، ما يشرّف مصر».

كانت تيـّة أول شخص يسألها عن أحوال أمها. وأحست بقلبها ينكمش من شدة الحنين. فأجابتها بصوت خافت: «أنا سعيدة لكونها لم تُنسَ هنا. إنها تحب وطنها جداً، وأنا مدينة لها بالكثير. إنها امرأة عاقلة».

«يبدو لي أنك عاقلة مثلها، ومن الواضح أنك تحذين حذوها».

نظرت إليها كيا مندهشة.

ابتسمت تيـة ثانية وقالت: «قد تظنين أنّي عجوز لا يُعتد بعقلي. لكني على اطّلاع جيد على كل شيء». صمتت برهة ثم قالت: «يسعدني أن نتعارف أخيراً بعد كل هذه السنين».

لم تحتج كيا إلى وقت طويل لتدرك مغزى هذه الكلمات. إذاً، هي على اطّلاع على قصة حب ابنها في قطنا. فهل هي مطلعة يا ترى على ما يجري الآن؟

لم يتغير تعبير وجه تيـة. أطلت بنظرها بتأمل من الشرفة إلى النيل، الذي يتماوج سطحه الشاسع متلألئاً في أشعة الشمس بلون بني مشوب بالأخضر. ثم قالت: «ابني لا يتمتع بدعم رعاياه كلهم. كثير من أفراد الشعب يرفضون الدين الجديد، الذي يضطهد كل ما هو قديم. وروح الشعب تبحث عن متنفس لحالها. إنهم يعبدون الآن في الخفاء رباً شاباً جديداً، يسمونه (شِـد) المنقذ. ويسخرون من العائلة المالكة. قبل فترة عُثر على ألواح حجرية صغيرة رسمت عليها مشاهد من حياة العائلة، ولكن عوضاً عن الأميرات كان هناك قردات يتعانقن، وأزواج من القرود يمسك أحدها بيد الآخر، وقرد يسوق العربة القتالية الملكية!».

هزّت كيا رأسها.

«أنا لست واثقة إطلاقاً، ما إذا كان ابني يعي ذلك كله، أو يريد أن يعي به. لقد تحصّن في مدينة ربه. أتعرفين أنه أقسم على ألا يغادر المدينة ثانية، كي يبقى قرب آتون؟ ألا تنتشر أشعة الشمس في كل مكان؟». هزت الملكة تيـة برأسها وأردفت: «عدم ظهور الملك في أنحاء البلد يترك انطباعاً سيئاً عند الشعب. والشعب لا يعجبه أن يقدم الملك بسرعة على تغيير عادات وتقاليد عمرها مئات السنين. الشعب كسول والكهنة ماكرون. ثمة تشابك وتضافر كبير بين المصالح الاقتصادية والتصورات الدينية السائدة. كبار الكهنة كانوا في الوقت نفسه حتى الآن مموّلين وحكّام مقاطعات، يتبعهم عشرات الآلاف من صغار الكهنة وخدم المعابد والتجار والمرابين والحرس. ثم هناك الأخطار الخارجية! قبل فترة قصيرة أُخمد تمرّد كبير في الجنوب. وأنت تعرفين جيداً أن الأوضاع تغلي في كنعان وسوريا. وهذا كله يصبّ على نحو غير مباشر في مصلحة الملك الحتي. يقال إنه رجل جذاب وأن زوجته فتية جداً وبارعة الجمال».

هزت كيا كتفيها قليلاً، فشوبيلوليوما في اللقاءين معه في قطنا، لم يترك لديها مثل

هذا الانطباع، على نقيض تهديداته البالغة التأثير. حسبته بادئ الأمر ينفّذ مخططاً سياسياً، حفاظاً على الحدود، حسبما شرح لها تالزو العلاقات القائمة حينذاك. لكنها لم تعد واثقة، إنْ لم يكن هناك طموحات توسعية كامنة وراء العملية كلها. أم تراهم في بلد الألف ربٍّ يخشون آتون؟ لم تنتبه كيا إلا الآن أن تيـّة تتفحّصها بتمعّن.

«ربما كان مَن لفت نظرك أكثر من الملك هو سفيره، الذي زارنا أيضاً عدّة مرات. يقال إنه صديق أخيك».

«طبعاً، هذا أعرفه من أيام الطفولة»، أكدت كيا بما استطاعت من عفوية، فالملكة مطلعة حقاً بصورة شاملة. إلامَ تريد أن تصل؟

بدا وكأن الملكة قد قرأت أفكارها، فقالت: «قد تسألين نفسك يا بنتي العزيزة، ماذا أريد أن أقول. أريد أن أهيئك لزمن صعب بانتظارك، باعتبارك ملكة. في المقام الأول سينتظر الجميع منك صبياً. ستلاحقك العيون المدقّقة كل يوم، لترى ما إذا كنت تشعرين بالإقياء عند تناولك الطعام. وبعد كل فترة خصب سيفحصك الطبيب الشخصي، بحثاً عن دلائل الحمل الأكيدة، ليرى ما إذا آن الأوان. وحتى إخناتون ينتظر هذا الصبي كإشارة من آتون. أنت كنت كاهنة يا كيا، فلا حاجة بي لأن أخبرك، كم يطول الوقت بالإنسان أحياناً انتظاراً لجواب من الرب، وأنه خلال الانتظار قد يشارف اليأس. أنت تعرفين أن صحة ابني ليست جيدة. أخبروني عن الجهود التي بذلتِها من أجل شفائه، وبطرق مهمّة أثارت اهتمام أطباء معبدنا. حالياً يبدو كل شيء على ما يرام. إنه مبتهج بك، وهذا يطغى على السوداوية في مزاجه. لكن موت الطفلة أوضح تماماً هشاشة وضعه. أنا آمل وأصلي لتمنحيه ما يحتاج إليه. وهذا ما لم تكن نوفرتيتي قادرة عليه في الآونة الأخيرة. ولهذا يرزح العبء كله الآن على كاهلك أنت. مهمّة صعبة، وأنت هنا وحدك. أنا سأغادر آخِت آتون بعد احتفالات العرس. لكنك صبية، سليمة، ذكية وقوية الإرادة. لذلك يُفترض بك أن تنجحي. وقد تحدث معجزة فتأسرين قلوب الشعب.. ولكن خطوة فخطوة، أنت محقّة»، وأضافت بسرعة: «ففي المقام الأول يأتي الفرعون».

**

وصل نأنينزي مع زميله المصري إلى آخِت آتون، والاستعدادات لاحتفالات العرس تجري على قدم وساق، ما جعل إخناتون في مزاج أريحي. والاتفاق مع الحتّيين، الذي

يماثل معاهدة سلام، كان أجمل برهان على صحة قراره. وقد خُطِّط لعقد القران في أثناء فترة الفيضان، حين تتوقف كل الأعمال الزراعية، مع احتفال يعم البلاد كلها. في داخل البلد وخارجها وزعت جُعران العرس الحجرية التي نُقش عليها اسما إخناتون وكيا.

ويبدو أن نوفرتيتي قد أقلمت نفسها مع الوضع الجديد. فتوقفت عن الطعن في الفرعون، وتموضعت في موقعها بخضوع على ما يبدو، كي لا تفقد أيضاً مكانتها العالية بعد الملكة الأم. فهل كان هذا وفقاً لنصيحة من أبيها يا ترى؟ وباتت تتجنّب البلاط هي وابنتاها. أما وراء الستائر فقد بُدئ بحياكة شبكة للإيقاع بالغريمة. فنوفرتيتي كانت موقنة بأنها ستفلح عندما يقترب اليوم المناسب. لقد كانت تعرف زوجها حق المعرفة.

حتى كيا نفسها لم تصدق أن تصبح زوجة إخناتون، وبعد خمسة شهور فقط. فالأمر في نهاية المطاف لا يتعلق بزيجة مبرمجة منذ سنوات طويلة، بل يتعلق بهما وحدهما، كلٌّ حسب شخصيته. وكانت تنظر إلى إخناتون بشيء من الحسد، لكونه واثقاً تماماً من عواطفه. إذْ قال لها مساءً، مساءَ يوم الاحتفال الرئيسي، إنه لم يكن بحاجة إلى كل هذه المراسم ليبتهج، فهو أسعد إنسان منذ أول ساعة لوجودها بقربه.

وقد أثرت هذه المراسم عميقاً في نفس كيا. فهي في حياتها حتى الآن لم ترتبط سوى مرة واحدة، عندما صارت كاهنة الربة بيليت إكاليم. وها هي قد ربطت نفسها الآن وحياتها برجل. لقد صارت زوجة الفرعون الملكية، والحبيبة الأولى، وملكة مصر العليا ومصر السفلى وكوش التي تحمل تاجها، وسيدة بلاد وشعوب كثيرة من عمق الجنوب إلى أقصى الشمال. لقد تحققت نبوءة مولدها.

ظهرا على متن القارب الملكي المزيّن بأبهة وفخامة، يداً بيد، فهلّل الشعب لملكته الجديدة الجميلة، تماماً مثلما حلمت قبل سنوات كثيرة. وقد أوحى لها فيض المشاعر السعيدة في تلك اللحظات ببعض الكلمات، التي دونتها على البردي، وقدمتها بخجل لإخناتون، عندما باتا أخيراً وحدهما، هامسة: «إنها مجرد محاولة صغيرة»:

«إني أتنشق أنفاسك المنعشة،
المنبعثة من فمك.
وجمالك يتراءى يومياً في عيني.
أرغب في سماع صوتك اللطيف مع ريح الشمال،
فتدبّ الحيوية في جسدي، حباً لك.

مدَّ لي يديك اللتين تمسكان طاقة حياتك،
لأتلقفها وأحيا بها.
نادني دوماً باسمي،
لا تدعه يموت في فمك.
سيّدي إخناتون،
أنت فيَّ إلى أبد الأبدين،
ما دمتَ حياً كالشمس».

«أتعرفين أنها المرة الأولى التي تذكرين فيها الحب تجاهي؟». سألها إخناتون متأثراً وضمها إليه مضيفاً: «كدت أخشى..»، فلم تدعه كيا يتم كلامه.

**

بالنسبة إلى إخناتون كان اليوم التالي موعدَ تحقُّق الفرح الأكبر. قبل شروق الشمس وصل مع ملكته الجديدة إلى معبد آتون الكبير، وهما في ثياب المراسم الاحتفالية، وعلى رأسيهما الشعر المستعار النوبي الذي يترك الرقبة مكشوفة، وقد ارتديا من الحلي أقراطاً ذهبية كقرص الشمس، وحول صدر كل منهما وكتفيه قلادة عريضة نفيسة متلألئة. كان الملك يرتدي تنّورة قصيرة فحسب، والملكة ثوباً بسيطاً ناصع البياض. صعدا الدرجات معاً إلى المذبح العالي بمرافقة موسيقا بديعة. ومع بلوغهما الدرجة الأخيرة انبعثت أشعة الشمس من الأفق الشرقي فأسبغت نورها على الزوج الملكي الجاهز لتقديم القربان، وقد رفع كل منهما ذراعيه تمجيداً للرب، والأيدي ممسكة بزهور اللوتس ورمز الحياة.

استعرضت كيا القوات العسكرية بسرور وهي تحمل الشارات الملكية، وتضع على رأسها التاج المزين عند الجبهة بأفعى الكوبرا. رغم أن البلد آنئذ كانت تنعم بالسلام، ولكن الحدود وطرق القوافل تحتاج إلى حماية دائمة، ولذلك لا بدّ من إيلاء الجيش اهتماماً كبيراً. إلى جانب وحدات المشاة المسلحة بسيوف متجلية الشكل وخناجر وأقواس وسهام، مرت أمام ضيوف الاحتفال وحدات العربات القتالية. لكن هذا كله لم ينهِ الجانب الرسمي من الاحتفال، فقبل مأدبة العشاء الاحتفالية كان لا بدّ من استقبال الوفود القادمة من جميع أنحاء البلد، وتلقّي تهاني السفراء الأجانب وهدايا ملوكهم. ألم تكن كيا بالأمس فحسب جزءاً من وفد سفارة مثل هذه الوفود؟ انتبهت كيا إلى توترها الداخلي عندما نودي

على ممثلي إخوة الفرعون الأعزاء: من بابل وميتاني وحتّوشا. ولكن من ظهر أمامهما لم يكن تانوا، حسبما توقعت، بل نانينزي. ولم يكن يجوز لها الآن أن تخاطبه، فقررت استدعاءه بأسرع ما يمكن لاحقاً، وكذلك أكيّا، الذي أسعدها أن تراه بين حاملي الهدايا: فلا شك في أنه يحمل أخباراً من الوطن.

كانت المأدبة احتفالاً عامراً باذخاً، بصورة لم تر كيا مثيلاً له سابقاً. كان كل شيء موجوداً بوفرة. أنواع اللحوم المختلفة، التي لم تعرف كيا بعضها إلا في مصر، كالدجاج الطري الشهي القادم من الهند النائية. جلس إخناتون وكيا إلى طاولات عامرة، ومقابلهما تماماً جلست الملكة الأم تيـة وبعض كبار أفراد العائلة. إضافة إلى أعداد لا تحصى من الضيوف، الذين سرّتهم وسلّتهم عروض فرق البلاط الراقصة المشكلة من صبايا رشيقات فاتنات، وعازفات الجنك، والألعاب البهلوانية والتنافسية. أثناء الاستراحات بين الفقرات الغنية يظهر الرواة ليحكوا قصصهم المثيرة بأسلوب مشوق يجذب اهتمام جميع الحضور. والذي اختار منهم حكاية الأمير المسحور، ظهر معه تمساح ناطق ليجسد مصير الأمير. كانت جموع الحاضرين مشدودة وممتلئة حماسة، عبّرت عن نفسها بتصفيق حار طويل. استمرت مباهج الاحتفال حتى ساعات الصباح. وكان الختام بنشيد تمجيد آتون الذي أرسل إليهم أشعته مجدداً من الأفق الشرقي.

قدم إخناتون لكيا هدايا سخية، فحصلت على عدّة قطاعات من الأراضي، يعود ريعها إليها وإلى حاشيتها فقط، إضافة إلى دورٍ وبساتين وطاقم الخدمة الضروري. وكبرهان على قوة لا تصدق أُنجز القصر المكرس لها جنوبي المدينة، في موعد أبكر بكثير مما توقعت كيا، فصار فوراً مكان إقامتها المفضل.

وإلى هذا القصر استدعت محبوبة الملك المفضلة السفير الحتي الذي لم يحمل معه من ملكه إليها سوى أطيب الأماني.. لا رسالة شفهية ولا مكتوبة، فشكرته كيا وصرفته، ولكن بخيبة أمل عميقة. كانت متشوقة إلى خبر من تالزو. وحتى من أكيا لم تحصل على أخبار جديدة، كما لم يملك جواباً لسؤالها، لماذا لم ترسل حتّوشا سفيرها المعتاد إلى مصر. لكنه أخبرها الكثير عن قطنا، منه أن أكيزي وإهلي نيكالو قد رزقا بطفل جديد، وأن الملكة الأم مصابة بداء النقرس. وأن وباء قد أصاب القطعان وقتل كثيراً من المواشي، لكن المحاصيل الزراعية تبشّر بالخير.

**

بينما احتفل الناس في قطنا بعيد الحصاد، وفي الوقت نفسه بعيد الأسلاف، وتوقفت الأعمال في الحقول، قام الناس في مصر، كحالهم سنوياً بعد انحسار الفيضان، بمسح الحقول وبذر الحبوب. وكانت كيا قد تأقلمت مع واجباتها الجديدة. كانت تستمتع بمضيّ الساعات في قصرها، رغم رغبتها في رؤية المزيد من مصر، لكن كل اقتراحاتها بهذا الشأن لاقت رفضاً قاطعاً من طرف إخناتون. وإذا كان قد أصرّ بادئ الأمر على وجودها إلى جانبه في المدينة، بات يفضل الآن بقاءها في مارو آتون، حيث كان يزورها يومياً تقريباً.

أمضيا معاً أياماً سعيدة، في تبادل الأحاديث وفي اللعب أيضاً، فقد علّمها إخناتون لعبة (الكلاب وبنات آوى). تماثل رقعة اللعب الخشبية شكل نعلٍ، ثُقبت فيه حفرٌ عميقة. وقد رُسمت في وسطه طولانياً شجرة نخيل تتفرع أغصانها أعلى الرقعة. وفي مركز الأغصان تقع الحفرة الهدف الموسومة بإشارة الأبدية. لكلٍ من اللاعبَين خمسة أحجار كعصيّ قصيرة، تتمايز برؤوس كلاب أو بنات آوى، وتوضع في الحفر حسب رميات النرد. والرابح هو من يوصل أحجاره الخمسة بحسن استخدام طريق الحفر والحظ الجيد لبلوغ الهدف. وكان إخناتون يكسب كل مرة دون استثناء، بتمريرات حاذقة لأحجاره من بنات آوى عبر حفر الرقعة إلى الهدف، إلى حدّ أن ظنت كيا، أن المرات القليلة التي فازت فيها، كانت نتيجة تساهله معها. غير أنه نفى ذلك بشدة، عازياً فوزه إلى محاباة الحظ له.

كما أمضيا أيضاً أياماً غريبة، بل سيئة. لم تنتبه كيا بادئ الأمر، إلى أن لفتت نظرها أمينابة إلى أن عيني الملك تكونان أحياناً غير طبيعيتين. وذات مساء عندما ترنّح وهو ينهض، شكّت كيا في الأمر. قادته إلى غرفة النوم، حيث غرق فوراً في نوم مضطرب، تخلّلته هلوسات متداخلة وغير مفهومة، مع تحوّلات من الضحك إلى البكاء، فحاولت إيقاظه. لكنها لم تفلح، فقد التصق بها، بين ذراعيها، وبدأت حاله تهدأ تدريجياً. في اليوم التالي استدعت كيا پنتو، الطبيب الخاص، وسألته بحذر، دون ذكر الملك، بماذا يربط الأعراض التي وصفتها له؟

«أعتقد أن هذه الأعراض ناتجة عن تعاطٍ مستمر لسموم مخدّرة»، قال پنتو. وقد تطابق هذا مع افتراضها الخاص.

ضاعفت كيا جهودها. اقترحت العودة للعيش معه في القصر الكبير، أو حيثما يوجد. غير أن الملك أكّد لها سعادته، بترك مشاغل المدينة وراء ظهره، والتوجّه إلى جنّتها المسالمة. فعملت على جعل الأماكن في قصرها، التي يفضّلان الجلوس فيها، أكثر جاذبية

وراحة، مع روائح تدعو للاسترخاء. وزيّنت الحمامات بطرق مختلفة، رابطة وجودهما هناك بحكايات إيروسية خفيفة. أو كانت تقوده إلى الحديقة ذات الأجنحة والزوايا المنعزلة، والتي كانت تغيّر من زيناتها باستمرار حسب أجواء مناطق مصر المختلفة، فيجلسون تارة وكأنهما في كوش، وتارة أخرى في خيمة صحراوية. كما كانت ترتدي من الأزياء ما يناسب هذا الجو أو ذاك. وغالباً ما كانت تنجح في إدخال السرور إلى قلب الفرعون، فيسترخي وينسى همومه.. لكنها لم تحمل.

احتفل الناس في قطنا بعيد السنة الجديدة، ولم تنقطع دورة كيا الشهرية. بات الفرعون خلال زياراته لها أكثر تبرّماً. صار يطلب جعة ومشروبات مخدرة أخرى، وحتى عصير الخشخاش، الذي جلبته معها من قطنا ليساعدها على النوم. ورفض أن يخبرها بالأشياء الأخرى التي كان يتعاطاها. إلا أن تأثيرها كان وبيلاً. صحيح أنه كان صاحياً ومدركاً، ولا تُلاحظ عليه أية تبدّلات في التعامل اليومي معه، لكن كل محاولات كيا لإثارته لم تعد ناجعة. لا الأغاني المثيرة جنسياً ولا وجود صبايا فاتنات. مزجت كيا مع نبيذه توابل ونباتات فواحة ومهيجة جنسياً، دونما فائدة. وإذا كانت بادئ الأمر قد اعتبرت نفسها المسؤولة عن عدم الحمل، إلا أنها توصلت تدريجياً إلى الاقتناع بأن إخناتون لم يعد قادراً على الإخصاب، أو أن قدرته هذه متضرّرة بشدة. لكنها لم تجرؤ على مصارحته بذلك، فقد أدركت مدى عذابه، وتعرّفت على جوانب جديدة من شخصيته. بات انفعالياً وسريع الهيجان والغضب. وحتى في عمله اليومي لاحظ عمّاله ومستشاروه ومرؤوسوه تقلّبات مزاجه الفجائية وبدؤوا يخشونه. وكان في بعض الأيام يتأرجح بين اللامبالاة الكلية واليأس. لماذا خذله آتون؟

بينما أهمل إخناتون بكل بساطة أخبار تذمّر الشعب، التي نُقلت إليه من جميع أنحاء مصر، فإنه لم يستطع أن يتعامل بالطريقة نفسها مع مشاكل المناطق التابعة للسيادة المصرية في كنعان وسوريا. بعد موافقة الحثّيين على احترام الحدود القديمة، عيّن إخناتون كلاً من (أملو) الصوري الموالي له والأمير (أبي ميلكي) مفوّضين باسم مصر لإدارة المنطقة كلها ومنحهما الصلاحيات اللازمة لذلك، وطلب منهما تعميم التجديدات في كنعان وسوريا. فتمرّد أمراء مدن آخرون ضد القرار. فما مبرّر أن يتحكّم بهم واحد مثلهم؟ و(زيمريدا) الصيدوني وعزيرا الأموري المتحالفين سابقاً مع أبي ميلكي نقضا الحلف واحتلّا مناطق حول صور. ثم قام عزيرا باحتلال جميع المدن الساحلية من حوله، عدا جبيل وسومورا.

كتب أبي ميلكي لإخناتون عدّة رسائل، أخبره فيها عن خطورة الوضع وحذره من المتمردين: «انتبه، لقد نفد ماء الشرب والأخشاب من الحصن البحري. سأرسل إليك الساعي (إيلو ميلكو). لقد انسحبت القوات الحثيّة من المنطقة، لكن أيتاكما القادشي قد ضمّ قواته إلى قوات عزيرا في الحرب ضد (بيريا وازا) ملك دِمَشْقا. وخلال ذلك قام زيمريدا مدعوماً بقوات برية وبحرية من عزيرا بمحاصرتي في صور. الوضع خطير جداً».

في الوقت نفسه ناشد ريب عدّي الجبيلي الفرعونَ عدّة مرات لينجده ضد قوات عزيرا. وكذلك أمير مدينة غَزِر (غزة)، فتمرّد قبائل (هابيرو) هناك يهدّد غَزِر ومِقيدّو. وبدا أن السلام الثمين يضيع بسرعة، مثلما كُسب بسرعة. فحاول أيا وتوتو وآيْرإل جهدهم لدفع الفرعون إلى التدخل عملياً، لكنه رفض قائلاً:

«المهم هو أن نعيش بسلام مع القوى العظمى. ما الذي يسوّغ تدخّلنا في النزاعات المحلية الصغيرة بين أمراء مدن متبرّمين بأوضاعهم؟ لأي غرض أعيّن حاكماً وأجهزه بأفضل ما يمكن، إنْ لم يكن قادراً على تحقيق الأمن؟ بدلاً من المطالبة المستمرة بإرسال قوات إلى معارك تهرق فيها الدماء بلا جدوى، كنت أنتظر منكم إجراءات لنشر السلام في المنطقة. ألم أصدر تعليماتي منذ مدة لنشر دين آتون في المناطق الشمالية التابعة لنا؟ والآن، كيف كان تقبّل عزيرا الأموري وزيمريدا السوري وغيرهم هناك للأمر؟ هذا الدين هو الرباط الذي سيوحدهم! هذا ما عليهم وما علينا إدراكه! إليَّ إذاً بأخبار أخرى، وغير ذلك لا أريد أن أسمع شيئاً».

وفي المساء نفسه، عند كيا، شتم مستشاريه العاجزين.. وهكذا علمت كيا بالاضطرابات المستجدة. وكان واضحاً لها فوراً أن شوبيلوليوما سيعاود التدخل عسكرياً، في حال انتقال الشرارة إلى الشمال. ولا شك في أن عزيرا الأموري لن يقصِّر في ذلك، إذ يبدو أنه لم يتّعظ بعد من الدرس السابق. ماذا سيعني هذا لقطنا ولسوريا ولها؟ أحست فجأة بأنها مهددة من جميع الجوانب. حاولت بحذر أن تبيّن لإخناتون العواقب المحتملة وأن تشرح له مخاوفها، فكانت النتيجة انفجاره في حالة غضب جديدة، متّهماً إيّاها بالتواطؤ مع الآخرين. ولأول مرة غادر إخناتون قصرها في المساء نفسه. وفي الليلة نفسها وصل الخبر إلى نوفرتيتي.

**

وصل إلى كيا خبر وفاة الملكة بلتوم، في الوقت نفسه الذي بلغت آخِت آتون أنباء صراع الملكة تية مع الموت. لم تذرف كيا دمعة واحدة على بلتوم، لكن تصوّر أن الملكة الأم ستموت أثّر فيها بعمق. صحيح أن لقاءاتهما كانت نادرة، لكنها أحبّتها بصدق ووثقت بها. إنها الآن بعيدة في طيبة، في القصر الذي شيّده لها زوجها أمينوفيس الثالث على ضفة النيل الغربية، محاطة بأحبائها، عدا إخناتون. ضربة القدر الجديدة هذه أوصلته إلى مشارف الجنون، فصار يلجأ إلى كيا، التي بذلت كل ما بوسعها لتسرّي عنه وتواسيه. إلا أن كثرة الأخبار السيئة، إضافة إلى يأسه الذاتي، أدّيا إلى انهيار صحته، فأصابته الحمّى. خشي الأطباء والشُّفاة الأسوأ. أحاطته كيا بعنايتها بحدب وحب، فكانت تغسله وتدهنه بالمراهم، وتعالجه بكمادات مسكنة وأعشاب شافية. ولم يُسمح له أن يشرب سوى ماء طازج. كانت تبدّل بياضات السرير ثلاث مرات يومياً وتطهّر غرفة المريض بالبخور، كما راعت وجود الفرعون باستمرار في هواء نقي، تضيف إليه روائح زهور ذات عبق مهدّئ. وخلال ذلك كانت كيا الشخص الوحيد المؤمن بأن الحمى ستكون للفرعون بمثابة تطهير وشفاء مما كان فيه، وكانت محقّة. فبعد ليلة مروّعة، وعند الفجر غرق الفرعون في نوم عميق. ولما استيقظ شعر بنفسه صافياً. وبعينين رائقتين التفت إلى كيا المستلقية إلى جانبه وقد صحت أيضاً لتوها، وكلها اهتمام. تمتمت صلاة شكر قصيرة لربتها، أمّ المخلوقات جميعها، قبل أن تبكي على صدره بكاء ارتياح.

تقدّمت نقاهة الفرعون بخطوات حثيثة، وتولّد لدى كيا انطباع بأنه قد استمدّ قوة من الحمى، فبدا هادئاً متزناً وحصيفاً أثناء مشاوراته مع وزرائه ومستشاريه. وسادت بينه وبين كيا لهجة ودودة جداً. وصار محور حياتهما خدمة الكهنوت اليومية لآتون، التي صارت تدريجياً تشغل حيّزاً أكبر فأكبر مما يتبقّى لهما معاً. استمر هذا الحال مدة من الزمن، إلى أن بدأت كيا تشعر بالإلزام الضاغط الذي يتغلغل إلى أدقّ المشاعر الشخصية. ومع تنامي تعاليم إخناتون باستمرار، أدركت كيا سبب رفض كثير من الناس الدين الجديد. ربما كانت التماثيل ولوحات النحت النافر، التي تجسّدها مع الفرعون، والتي كُلّف بها الفنان تحوتمس وزملاؤه، ربما كانت انعكاساً لحبّه لها، ولكن كلما أمعنت كيا التفكير في الأمر، ترسخ لديها الانطباع بأن الفرعون يقدم للناس بهذه الأعمال قدوة حسنة، يجب على الجميع أن يحذوا حذوها، هكذا عليهم أن يحيوا تحت أشعة شمس آتون، وليس بشكل آخر. هذه هي عقيدة الخلاص عنده إذاً. لكنها ليست اختيارية، بل إلزامية، قسرية على الجميع. كاد هذا الإدراك أن يخنقها، تماماً كإدراكها أن أيامها باتت معدودة، إن لم

تلد صبياً. ولم تستطع التفكير في العواقب. مؤكّد أنها لن تُنقل ببساطة إلى حريم القصر الشمالي.

«يا ربتي، أتعاقبينني؟ ألم أعد جديرة بحمل ولد، لأني أثمت في فتوّتي؟ سأحبّه وأبجّله وأحميه كعيني. يا ربّتي، امنحيني هذا الطفل، بركة منك لأهل مصر، للبشر أجمعين!».

تباحثت كيا في الأمر مرات مع أمينابة. وأخيراً أرسلت سراً إحدى وصيفاتها الموثوقات برفقة ساع إلى قطنا، بمهمّة جمع معلومات ومواد تزيد قدرتها على الخصب، وعلى وسائل أخرى من أجل الفرعون. رغم معرفتها بخطورة الأمر، انتهزت الفرصة لتطلع أكيزي باختصار على الوضع وترجوه أن يطلع بدوره تالزو عليه. ثم كان لا بدّ من الصبر. جرجرت الأسابيع ثقلها في جو من القلق. كانت كيا تلمّح لإخناتون بتلميحات عابرة لتثير فضوله، لكن قدرتها على فتنه وأسره أخذت تزداد صعوبة.

أخيراً عاد الساعي وحده مع التعليمات الضرورية. فاندفعت كيا بلهفة كبيرة لتهيّئ كل ما يلزم. ولم تأبه بتحذيرات أمينابة من صعوبة كسب الملك لخوض هذه الطقوس. بقلوب واجفة ساعدت أمينابة وخادمتان من قطنا سيدتهن، فهيأن مستحضراً من مَحالٍ مجفّفة ومطحونة يضاف إلى شراب مهيّج مثل عصير الرمان، إضافة إلى مراهم من نباتات ذات خواص طبّية لتدهن بها منطقة العانة حول القضيب، وزيت زيتون مخلوط بذرور معدنية لهما معاً. كانت كيا تشتغل كالمجنونة لتهيّئ كلّ شيء بأفضل ما يكون. زيّنت التعريشة المختارة في الحديقة بكمّ كبير من الزهور والورود الفواحة، واختارت بكل عناية المأكولات والمشروبات ذات المفعول المهيّج. وعندما بات كل شيء جاهزاً، دعت الفرعون إليها.

استقبلته عند مدخل الحديقة وقادته إلى التعريشة، التي تتخلّل أغصانها نسائمُ المساء اللطيفة. كانت ترتدي ثوباً خفيفاً برقبة عالية وقد غرزت زهوراً مختلفة في شعرها الأسود، مع لمسات تجميل بسيطة على وجهها. تناولا الطعام صامتين تقريباً. عرضت كيا الشراب على إخناتون بإغراء، وشربا معاً عصيراً مبرّداً لذيذاً، ظنّ إخناتون أنه عصير رمان. من وراء حاجز تناهى إليهما غناء جوقة صبايا بأغنية لم يعرفها إخناتون، فقطّب جبينه، لكن كيا لفتت انتباهه إليها قائلة بشبه توسّل: «أرجوك حبيبي، امنحني هذا المساء وهذه الليلة. دع الأمور تأخذ مجراها ببساطة. هلّا فعلت؟!».

بتردّد، هز إخناتون رأسه موافقاً، فلطالما كانت كيا تفاجئه بأفكار تسعده، سابقاً. هكذا فكر إخناتون، ولكن من دون أن يوضح لنفسه، أن سابقاً، لا تعني سوى قبل بضعة شهور أو بضعة أسابيع.

نهضت كيا وحلّت ثوبها الخارجي وهي ترتّل، إلا أن إخناتون لم يفهم شيئاً من كلامها. غرقت عيناه بين نهديها المزدانين باللوتس والأرجوان، فهذه أول مرة تظهر فيها أمامه بهذا الشكل. وفيما هي تتابع ترتيلها رشّته بيدها برذاذ من طاس، والجوقة تشاركها بأصوات وإيقاعات غريبة على أذنيه. ثم قادته إلى المضجع المجهّز كسرير عرس: شراشف من أفخر أنواع الكتّان بشراشيب ذهبية، تفوح منها روائح عطرة. خلعت رداءها التحتيّ وساعدته في نزع تنّورته. أشارت له أن يتمدّد على السرير، مع بدء غناء جديد، ولامست بيدها عينيه كي يغمضهما. أحسّ بها وهي تضع شيئاً على منطقة عانته وتفركها بعناية. وخلال ذلك كانت ترتّل أشعاراً، بصوت عالٍ رتيب. حاول أن يعتدل، لكنها استبقت الأمر وضغطت عليه بلطف. وأحسّ في الوقت نفسه أنه لم يعد قادراً على فتح عينيه، وشعر بشيء من الغثيان، رغم انتقال كيا الآن لتمسيد قضيبه بسائل أو معجون ما، وبمرافقة أنغام جديدة مريحة من آلات الجنك. انتابه فجأة ألم حاد اخترق جسده وجعل قضيبه ينتصب ويتضخّم. ركبته كيا واتحدت به بسهولة لا سابقة لها، لكن الألم لم يفارقه، بل ازداد. وفيما هو يفكر بالألم وصلت إلى سمعه الكلمات الأولى التي فهمها. بغناء رتيب الإيقاع مرافق لرهز جسدها أخذت كيا وكأنها في ذروة النشوة تكرّر الكلمات:

«فلتبقَ كنانتي عامرة دائماً،
وليبقَ قوسي صلباً مشدوداً،
وليُصبْ سهم حبي هدفه في المعركة.
فلنستلقِ معاً ليلاً».

اعتدل الفرعون مع صرخة عالية. دفع عنه كيا بفظاظة، وصاح بغضب: «ماذا تفعلين؟ يا لك من زوجة فاجرة. تلجئين إلى السحر! هل جننت؟ ألم تفهمي شيئاً؟ أتريدين موتي أو موتك أو موتنا كلينا؟!».

تكوّمت كيا على الأرض مذلولة، وفجأة وعت أن كل جهدها قد ضاع هباء. كل ما فعلته جانَب الصواب. ماذا دفعها إلى ذلك؟

القنوط! وهذا هو ما قالته لإخناتون بعد أن هدأ قليلاً: «أنا يائسة، أتفهم؟ أنا يائسة،

وقد ضاقت بي السبل». وانفجرت كيا وجسمها يختلج، ما دفع إخناتون إلى الهدوء فعلاً. أحاطها بذراعه بأخوّة وقال بصوت عميق الحزن: «ربما كنتُ أنا السبب، يا حبيبتي. ربما لم أفهم إرادة آتون حق الفهم. كنتُ موقناً أنك أنت المختارة، فنسيت كل الأمور الأخرى. كان هذا خطأً كبيراً، أواجه عقوبته الآن». ونظر إلى كيا محبطاً وأضاف: «وأنا أيضاً ضاقت بي السبل. لنضع كل شيء بين يدَيْ آتون!».

فيما كان إخناتون مستعداً للتسليم بواقع حاله، رفضت كيا الاستسلام. بعد إحدى الليالي الكثيرة، التي لم تعرف فيها النوم، جاءتها حالة كشف: على آتون نفسه أن يبشّر الفرعون بقدوم ابن الرب، إما عن طريق حلم أو نبوءة. فقد يؤدي هذا إلى إزالة التشنج. اعتمدت كيا على مخيلة الفرعون الواسعة، كما اعتمدت على علاقته الداخلية بآتون. فاستدعت إليها أيا، كبير مستشاري الفرعون، لحديث خاص، وعرضت عليه أفكارها، بعد أن أخذت منه عهداً بأن يتكتّم على الموضوع تكتّماً مطلقاً.

**

احتُفل بعيد السنة الجديدة في آخِت آتون بأبهة وفخامة. وأدى إخناتون مع كيا المراسم كافة غير مبال بحالات التمرد، مانعاً الانتفاضات الداخلية والخارجية من التأثير على العيد. لكن تذمّر الشعب كان قد بلغ أوجه. وأفادت تقارير المخبرين بوجود خطط لاغتيال الفرعون، يضعها في الخفاء كهنة آمون في طيبة. كما تعرض موظفون موالون للفرعون للشتم أو للاعتداء المباشر في الشوارع. وحتى في آخِت آتون ظهرت رسومات ساخرة، كالتي وصفتها الملكة الأم تيـّة لكيا: الزوج الملكي بالزيّ الرسمي برأسي قردين. ولم يتمكن المخبرون من معرفة الفاعل.

لم يعد خافياً على كيا أنها لم تعد تحتل المكانة الأولى في قلب الفرعون، فقد نُقل إليها أنه يزور بعض سيدات حريمه، كما عاود التقرب إلى نوفرتيتي. ومابو، رئيسة خدمها، لم تفوّت فرصة دون ذكر هذا الموضوع، إلى حد أن خمّنت كيا أنها تفعل ذلك بأمر من سيدتها الفعلية. وقد آلمها ذلك جداً، ولا سيّما أن أيا لم يعمل وفق خطتها.

لكنها جانبت الصواب. بعد عيد السنة الجديدة بأسابيع قليلة، أي في الشهر الثاني للفيضان أعلن إخناتون رسمياً – ولدهشتها، من دون أن يفاتحها في الموضوع – أنه قد أُوحي إليه في الحلم بأن كيا هي المختارة لتحمل بطفل رباني، مِنّة من آتون نفسه، وصورة

حيّة له، باسم (توت عنخ آتون). أي أن الفرعون يراهن بكل شيء على رمية نرد واحدة. كما قيّد نفسه بموعد محدد، فمن تسعة إلى عشرة أشهر يجب أن يصير أباً لمولود ذكر. وبالتالي لا يجوز التخاذل الآن، لا من طرفه ولا من طرفها.

في آخِت آتون استُقبل الإعلان عن ابن الرب بدهشة بالغة. هل سمع أحد سابقاً بمثل هذا؟ ومع ذلك سبّح الجميع بحمد الرب ورحمته الواسعة.

لم يكن لدى كيا أي تصور عن كيفية تنفيذ الأمر. ولكن سرعان ما وصلها النذير الأول. ففي اليوم التالي مباشرة ظهر في مارو آتون الطبيب الشخصي پِنْتو، وكبير كهنة آتون مِريرِه بصحبة قائد الشرطة (ماهو) وبعض رجاله وطلبوا مقابلة كيا، التي استقبلتهم مدهوشة في قاعة استقبالها الخاصة. وبكلمات مفخمة نقل إليها ما هو أمر الفرعون: رفقاً بكيا وحماية لها يُحظر عليها منذ الآن مغادرة مارو آتون، إلا إذا استدعاها الفرعون مع مرافقة. وقد اتخذت كافة الاجراءات لتنفيذ ذلك بأفضل صورة. تحجّرت قسمات كيا، إذ إن التفخيم والمفردات المواربة المهذّبة لم تُجدِ نفعاً. لقد فهمت جيداً أنها منذ الآن رهن الإقامة الجبرية.

إلا أن هذا لم يكن كل شيء، فقد طلب منها پنتو أن تصرف وصيفاتها من القاعة، ومن ثم رجاها بحضور مريرة أن تزوده بمعلومات دقيقة حول وضعها الصحي وعاداتها في الأكل والشرب، وكذلك عن دورتها الشهرية. وقد تم تدوين كل ما قالته بدقة في محضر اللقاء. ثم ودّعها الوجيهان الكبيران بأدب ووعداها بإخبارها بالتواريخ الملائمة للإخصاب، حال تحديدها.

بردِّ فعلٍ عفويّ كلّفت كيا مدير شؤون قصرها مِمي إيصال رسالة إلى الفرعون، لكنه عاد بسرعة ليخبرها بأن حظر الخروج يسري على جميع المقيمين في مارو آتون، أي على الخدم أيضاً. كان على وشك أن يأتمن أحد رجال ماهو على الرسالة، إلا أن الرجل أبى القيام بالمهمّة. لجأت كيا إلى مخدعها الخاص وهي في حالة ذعر وانزعاج، وانفلتت تبكي. هكذا وجدت أمينابة سيدتها، التي باحت لها بألمها: «أهكذا؟ دون أن يقول لي ولو كلمة، أنا زوجته الحبيبة! إنه يعاملني كأي عبدة. لا يتنازل ويأتي بنفسه، بل يرسل إليّ خدمه. ما الذي يدفعه إلى حجزي هنا؟ هل صدر عني أي إشارة إلى أني أبغي تركه؟».

«لا يا سيدتي، لم يحصل. ولكنه يخشى لربما أن تخطر ببالك هذه الفكرة الآن. نحن لا نعرف كيف ستتالى الأمور». لم ترغب أمينابة أن تُقلق كيا، لكن الدلائل الأولى لا تبشّر بخير قادم.

«سترين يا عزيزتي، أن كل شيء سيتغير، حالما تحبلين. فهذا هو المهم الآن، ولا شيء سواه. هيا تعالي، سأهيئ لك حماماً منعشاً وأنظفك. عندئذ ستشعرين بتحسّن. قد يأتي الفرعون مساء اليوم».

لكن الفرعون لم يأت مساءً، ولا في المساء الثاني، ولا في أيٍّ من الأماسي التي تلت. كما أنه لم يبعث أية رسالة. لقد قُطعت كيا عن العالم الخارجي. حتى سابو، التي لا تفرغ جعبتُها عادة من أخبار المدينة والقيل والقال، لم تعد تجد ما تقوله. هل الحال فعلاً على ما هو عليه، أم تراها تنفّذ أوامر نوفرتيتي؟ هذا ما لم تستطع كيا معرفته.

غلب الاضطراب أمينابة من القلق. صحيح أن تانوا قد زودها بتعليمات حتى لواقع فقدانهم حرية الحركة، لكنها اعتبرتها إجراءً أخيراً في حال لم تنجح الخطط الأخرى. لو تدري كيا مدى اهتمامه بشؤونها. لقد فكر بكل شيء مسبقاً وخطّط له. وقد امتلأت أمينابة إعجاباً، ما منحها قوة وجرأة. المهم الآن هو ضبط النفس، قالت لنفسها مراراً. لا يمكن أن يحدث شيء لكيا. ألا يتوقعون منها أن تلد طفلاً؟! إذاً، الشهور القادمة آمنة. ولكن عليها انتهاز أول فرصة سانحة لترسل خبراً إلى تانوا.

انقضى شهر الفيضان الثاني. وفي أول أيام الشهر الثالث ظهر پنتو مجدداً وتحدّث مع كيا وجهاً لوجه فقط. الأيام التي قضتها في حالة انتظار وعدم يقين عرّضتها لحالات من تناوب المشاعر، بين الاستسلام الساكن وثورات الغضب. لكنها أثناء اللقاء مع پنتو كانت خاضعة، وتضرّعت إليه أن يتكلم مع الفرعون ويؤكد له، أنها ستنفذ كل ما يطلبه منها، وأنها تلتمس منه أن يتعطّف عليها بحضوره، وأن يسمح لها بين الحين والآخر بالخروج من قصرها البديع. فواساها پنتو قائلاً، إن السبب الوحيد لقدومه، تصديقاً للوعد، هو إخبارها بالأيام الملائمة. فعليها أن تهيّئ نفسها لذلك بين الثالث عشر والسابع عشر من هذا الشهر. وأن الفرعون يؤكّد لها عاطفته اللا محدودة تجاهها.

«لماذا لا يأتي بنفسه؟». ورمت كيا بنفسها بين ذراعي أمينابة وهي تنتحب وتختلج بشدة.

«كيا، عليك أن تكوني قوية وشجاعة. قد تكون أفكارك عنه خاطئة. قد يكون معتزلاً مثلك. ألا يعقل أن يكون في أحد معابد ربّه يهيّئ نفسه للقائكما؟ عليك أنت أيضاً أن تقومي بذلك! ابتهلي إلى الربة لتبارك جسدك، ابتهلي إليها!».

ضحكت كيا بارتياح والدموع لا زالت تنهمر من عينيها، وقالت: «أمينابة، يا أحب

الناس، ويا صديقة قلبي! لماذا لم تشرحي لي ذلك من قبل؟ فعلاً، هكذا هو الأمر! وأنا الإوزة الغبية، عدت للتشكيك في سلوكه وضيّعت أياماً ثمينة في الحزن والكرب». ثم وضعت يديها على كتفي أمينابة ونظرت في عينيها راجية وقالت: «هل ستهيّئينني كآنذاك، للعرس المقدس؟ هل ستؤدّين معي كل الشعائر الضرورية؟ هل ستهجُدين معي للصلاة لها ليلاً، لربّتنا؟».

فكان جواب أمينابة أن عانقت صديقتها الحبيبة.

انتظرت كيا اليوم الثالث عشر. لم تنم في الليل إلا لماماً؟ أمضت فترة الصباح حتى الظهر مع أمينابة وخادماتها المخلصات من قطنا، اللواتي هيّأنها للقاء المساء، ثم استلقين منهكات لاستراحة الظهر. اضطجعت كيا في تعريشة يتخلّلها النسيم المنعش، وكانت على وشك أن تغفو عندما سمعت أصواتاً. ففتحت عينيها وتولّد لديها انطباع بأنها تنظر في عين الشمس. فأرخت رموشها من الغشاوة. أحسّت بيدي امرأة رشيقتي الحركة تغطّيان عينيها بعصابة، ثم أزيح ثوبها عن جسدها. مرعوبة ضمّت ساقيها إلى بعضهما. من الواضح أن اثنتين من خادمات الحب قد جلسن إلى يمين مضجعها ويساره، إذ أحسّت كيا بهما تداعبان جسدها. تدفقت الدموع من عينيها. ألا يجوز لها أن ترى حبيبها؟».

«إخناتون!». همست.

«إخناتون!».

لكنها بقيت دونما جواب، فاستسلمت لقدرها. فليأتِ ما ترسله الربة إليها. حاولت، حسبما تعلّمت، أن تسترخي وتتنفّس بهدوء، وهكذا كادت ألا تحسّ بزيارة الرب. بقيت مستلقية مغمضة العينين حتى بعد أن رفعت العصابة عن عينيها، ولم يعد يوجد في التعريشة سواها.

في الأيام الأربعة التالية تكرر الطقس نفسه دونما تغيير. تركت كيا الأمور تجري حسبما طُلب منها. لكنّ ما كان متبقّياً في قلبها من حب لإخناتون، فقد مات، يوماً وراء يوم.

بدأ شهر الفيضان الرابع وانقطع دم الحيض عند كيا، فأبدى پنتو سروره الفائق لهذا الخبر. لكنه نصح بالانتظار شهراً آخر حتى يصير الأمر مؤكداً تماماً، على الرغم من أن الوضع منذ الآن يبشر بالخير، حسب رأيه.

«بناء على حساباتي سيولد الطفل في الشهر الرابع من فصل الحر، قبيل عيد السنة الجديدة»، قال پنتو وأضاف، إن الفرعون راضٍ عنها كل الرّضا حتماً، وتعبيراً عن كرمه فقد منحها مزيداً من الأراضي لتستثمرها بنفسها.

فأجابت كيا بلهجة لا حياة فيها: «الشكر لسيدي». وأنها ستزور الأرض بسرور قريباً.

عندما بات حمل كيا مؤكداً، استقبلت آخِت آتون الخبر باحتفال عاصف. وأدّى الفرعون مع كيا طقوس تقديم القربان لآتون، وكأن شيئاً لم يقع بينهما، ثم قدمها للشعب من نافذة الظهور، فمجَّدها بصفتها الأم المستقبلية لابن الرب. بعد المراسم عادت وحدها إلى قصر مارو آتون.

لم تعانِ كيا الغثيان بشدة، كما في حملها الأول، لذلك خشيت طوال الوقت من نزيف يطيح بكل شيء. ما الذي سينتظرها عندذاك؟ نتيجة للخوف، عوّدت نفسها على وضع خاتم تالزو في أصبعها، ليلاً ونهاراً، بما أنه يحتوي وسيلة إنقاذها الأخيرة. فتالزو لم يخذلها قط، بل كان ينصت إليها ويشاورها دائماً. وصارت بين الحين والآخر تهمس لنفسها قائلة: «ليتك كنت هنا، لوجدتَ مخرجاً بالتأكيد. ولكن قد تكون محتجزاً مثلي، كعصفور صغير بلا جناحين، يا صديقي المسكين. صدّقني، لقد فعلتُ كل ما طُلب مني لأنقذ حياتك. هل سيصلك خبر ذلك ذات يوم، يا صديقي العزيز؟».

وأخيراً تأكدت كيا أن ثمة طفلاً ينمو في داخلها. كان إحساسها بذلك رائعاً، وحاولت تجاهل الظروف المريرة المحيطة بها. وتدريجياً بدأ جسمها يمتلئ، كما كبر نهداها. وعندما قسا بطنها أول مرة ارتعبت. أما عندما أحسّت بالطفل يتحرك في بطنها لأول مرة، فقد ابتهجت ورفعت الغطاء عن بطنها بمرح ظاهر. كانت قد نسيت كل هذا، أو أنها لم تعِ به آنذاك. بدأت تكلّم صغيرها توت عنخ آتون وتروي له الحكايات. وصارت تغنّي له أيضاً، أغنية تلو الأخرى، أحياناً وهي تعزف على القيثارة، وأحياناً تعزف البنات مع غنائها ليروّحن عن أنفسهن. ويوماً فيوماً تنامت سعادتها بصغيرها الحبيب.

أخذ إخناتون يزورها بانتظام، ليطمئنّ على خطوات تطوّر الحمل. وكان يستخفّه الفرح عندما يلمس بطنها. وجدت مرات عديدة أنه كاد يغرقها بعبارات التدليل والحب، ويقسم لها على أنها أغلى ما في حياته، بل هي كل حياته. ولكنها غالباً ما كانت تشعر بأنها ليست سوى الوعاء الذي ينمو فيه ابنه، وهو محور اهتمامه.

المهم في كل الأحوال هو أن الحراسة المشددة عليها قد تراجعت. فسُمح لها باستقبال زوّار، وبالخروج أيضاً من مارو آتون، لكنها ويملء حريتها تخلّت عن ذلك، إذ كانت تشعر بالأمان بين جدرانها الأربعة. إلا أن أمينابة انتهزت فرصة حرية الحركة النسبية لتكتب رسالة مشفّرة تصف فيها الوضع، وتعمل على تهريبها إلى خارج البلد. كما أنها لم تبقَ مقيدة اليدين منذ أن ساءت الأحوال حول كيا بصورة ملحوظة، فاختارت بحذر وعناية بعض الخدم والخادمات وجعلتهم موضع سرّها. ولم يدرِ أحد بكيفية توصّلها إلى ذلك. فكانوا مطيعين لها بلا شروط. كما تقصّت على نحو واسع، عن المكان الذي ستلد فيه كيا ابن الرب. فالقصر نفسه كان وارداً في الحسبان، أو معبد الولادة في منطقة معابد آتون الصغيرة والكبيرة. كما سألت عن عادة التعامل مع الأم الولّادة في آخِت آتون، منذ بدء المخاض حتى انتهاء مدة النِفاس. وقد جمعت كل هذه المعلومات كي تتمكن في أسوأ الحالات من التصرّف بسرعة. وما أدهشها هي نفسها هو جلدَها ورزانتها في تنفيذ هذه الأعمال كلها.

**

لم تعش الملكة الأم تيـّة حتى ولادة حفيدها. لقد مضت بهدوء وسلام، فعمّ الحزن البلد كله. سُجّي جسدها المحنّط في تابوت ملبّس بالذهب اللمّاع، وزُيّن بالورود والزهور على طريق رحلته الأخيرة. حُمل في قارب رافقته سفن عديدة من طيبة إلى آخِت آتون ليوارى هناك في المقبرة الملكية. فلقد تشبّث إخناتون بموقفه وأتى بأمه إليه، على الرغم من رغبتها الأساسية بأن تدفن إلى جانب زوجها الحبيب لتتّحد معه مجدداً. رافق التابوتَ إلى الجبال الشرقية موكبٌ تألف من الزوج الملكي وأفراد العائلة وكبار الوجهاء والكهنة. أقيمت جميع الشعائر، ثم أنزل التابوت الذهبي في تابوت حجري في الموضع المخصص له في المقبرة. تابع إخناتون جامد الوجه الأعمال المقدّسة كافّة إلى أن وضِع غطاء التابوت في مكانه، ثم رفع الصولجانَ المعقوف باتجاه الشمس وهتف: «ليس ثمة موت! في الدنيا يجري كل شيء بحسب مشيئتك، فأنت مَن خلق البشر. نحيا عندما تشرق، ونموت عندما تغيب. أنتَ هدف الحياة. إليك تذهب أرواح الموتى، إليك طار قلب تيـّة، أمي. السلام على هذا القبر!».

بكت كيا تيـّة من أعماق قلبها. رغم ندرة لقاءاتهما، شكّلت تية بالنسبة إليها قطعةً

وطنٍ ربطتها بأمها وبقطنا. وبفضل المحمل المغطى بالستائر، الذي تجرّه بغال بيضاء، تمكّنت كيا على طريق العودة من ترك العنان لأحزانها، بعيداً عن العيون.

جاء كيا المخاضُ في وقت مبكر جداً وبشدة لا مثيل لها، وكأن سكيناً تقطع في جسمها. صرخت مرعوبة، فهرعت أمينابة إليها، وأدركت أن نقلها إلى معبد الولادة لم يعد وارداً. وبكل رويّة اتخذت جميع الإجراءات اللازمة. تعاونت مع سابو على نقل كيا، التي تتنفس بصعوبة، إلى تعريشة الولادة المجهزة حيطة. نزفت كيا بعض الدم. وهذا قد يحدث ولا يشكل خطراً بالضرورة، ولكن لا بدّ من الحذر الشديد.

صدق حدس أمينابة، فما كاد الخبر ينتشر حتى تدفّق الزوّار على قصر مارو آتون. فحاولت ما أمكنها تجنيب كيا الإزعاجات، ولكن كان لا بدّ من السماح لپنتو على الأقل بالدخول. وتكاثر السعاة الذين كان عليهم أن ينقلوا لأسيادهم أخبار تطور الوضع. ولم تعرف أمينابة كل المهتمين بالأخبار بهذه الطريقة، ولكن لا شك في أن نوفرتيتي كانت واحدة منهم. فخلال مدة الحمل، ولدهشة كيا، فاجأتها نوفرتيتي بعدة زيارات، دون خبرٍ مسبق، لتطمئن بنفسها على حال كيا. لم يحدث أي تعاطف ما بين المرأتينِ، ولم يرد ذكر الملك خلال تبادلهما الحديث، رغم علم كيا بتردد نوفرتيتي وابنتيها على القصر الكبير أو بزيارات إخناتون لهن. كانت كيا منشغلة جداً بنفسها وبطفلها، فلم تفكر بمعنى هذه الزيارات من ملكةٍ لملكة. أما أمينابة فلم يداخلها أي وهم بشأن ما كانت نوفرتيتي تدبّره. وكانت بعد كلٍّ من تلك الزيارات تقول لنفسها: «مسكينة كيا، متى ستنتهي آلامك؟».

بداية خروج ابن الرب إلى الدنيا كانت عسيرة جداً. كانت كيا تكافح ساعة فساعة، إلى أن أُنهكت فسقطت في نوم عميق، إلى حدّ أنها لم تشعر بأن النساء قد غسّلنها ودهنّها بالمراهم. وخلال هذه الاستراحة استدار الكائن الصغير واتخذ الوضعية الصحيحة للنزول، وبذلك تم تجاوز هذا المانع من الخروج. وبعد أن سال ماء الرأس تراجعت طلقات المخاض، وذهبت كل الجهود سدى لضغط الطفل إلى خارج الرحم. صار الوقت عصراً، ومن بعده جاء المغيب. وأخيراً قررت أمينابة أن تسقي كيا شراباً يسرّع طلقات المخاض، ولم تتوان في الابتهال إلى ربتها رجاءَ العون، عارفة بأن النساء الأخريات معها يفعلن الشيء نفسه. المصريات منهن حللن جميع العُقد الموجودة في القصر توخياً لولادة سهلة. سرعان ما ظهر مفعول الشراب، وصارت الآلام لا تحتمل، وأخذت كيا تتصبب عرقاً من جسمها كله وهي تصرخ تارة وتلهث تارة أخرى. أقعدتها

النساء على كرسي الولادة وأخذن يجفّفن عرقها بحبٍّ ويمسّدنها بزيت مريح ويسقينها ماء، محاولاتٍ بكافة الوسائل تسهيل ولادتها. وأخيراً أتى أولُ الغيث، إذْ ظهر الرأس مغطّى بشعر قصير أسود. فأخذت النسوة يحثثن كيا على الضغط، وهن يغنّين ويصفّقن بإيقاع موحد، كي تتمكّن كيا عبر تنفّس منتظم من تحمّل الضغط، ما أدّى إلى انهيار المقاومة الداخلية. وبجهد ضغط هائل دفعت كيا الطفل من داخلها: الرأس أولاً، فالكتفين ثم بقية الجسم الصغير كله. لكنها لم تسمع التهليل العالي ولا أغاني الفرح بولادة ابن الرب ولا صلوات الكاهنات والكهّان. كانت على وشك أن يُغمى عليها. فتهاوت بين أيدي النسوة مكدودة منهكة. سحبت النسوة كيا مع الطفل بحذر إلى المضجع، كي تتمكّن من التنفس، وما إن استلقت حتى غشي عليها. ولم تستعد وعيها إلا عندما سمعت صرخة الطفل الأولى. انهمرت دموعها على خدّيها، عندما وضعت أمينابة الابن الباكي على بطنها، حيث هدأ وسكن.

«الفظي اسمه!»، ألحّت أمينابة.

أطاعت كيا وهمست: «توت عنخ آتون.. يا صورة آتون الحية!».

وبكل حنان ربّتت على فروة رأسه المبلولة، وتلمّست الوجه الصغير، ووضعت يديها على الظهر الثقيل إلى أن خذلتها قواها، فلم تعِ عملية قطع حبل السرة وغسيل الطفل. لُفَّ ابنها بقماشة ناعمة وهدهدته أمينابة بين ذراعيها. لم يبكِ، بل نظر في اتجاه ما من التعريشة الخفيفة الإضاءة. أنهضت النساء كيا ثانية لتسريع نزول الخلاص. لم تكن قد أفاقت بعد، عندما وجدت نفسها في الوضعية نفسها ثانية. كان كل شيء يؤلمها، وعيناها تدمعان. عندئذٍ ظهرت نوفرتيتي، فارتعبت كيا. بلهجة آمرة صرفت الملكة الجميع من التعريشة عدا سابو وأمينابة اللتين ساعدتا كيا على الجلوس في وضعية محتملة، وغطتاها بشرشف كتاني نظيف، لأنها ما زالت تتعرّق، في حين كانت الريح الليلية تتخلخل عبر أغصان التعريشة.

«أحسنت يا حبيبة الفرعون المفضّلة!»، قالت نوفرتيتي مادحة في لهجة مبطنة بالسخرية، وأضافت: «سيدنا سيكون راضياً عنك وسيكافئك بسخاء!».

لم تقوَ كيا على إبقاء عينيها مفتوحتين، لكنها تماسكت. لم ترغب في أن تبدي أي ضعف تجاه نوفرتيتي. بحثت نظراتها عن الصبي الذي أخذته نوفرتيتي في تلك اللحظة إليها.

«أعيديه إلى مكانه»، أرادت كيا أن تصيح، ولكن لم يخرج من حنجرتها الجافة سوى حشرجة. اقتربت نوفرتيتي من مضجعها وأرتها ابنها، وكأنها تقول لها: انظري إليه ملياً. ثم انحنت فوقها وهمست: «الفرعون سيهديك أجمل قبر، وسيجهّزه ببذخٍ بكل ما تحتاجين إليه. أعدك بذلك». ثم اعتدلت واقفة، ضغطت الصبي إلى صدرها ونظرت في عيني كيا المتسعتين خوفاً، وقالت بنعومة: «الفرعون ينتظر ابنه بشوق وبفارغ الصبر، ليناديه باسمه. أنت ضعيفة جداً، كيا، يا زوجة الفرعون المحبوبة. أنا سأحمل عنك هذا العبء، وآخذ الصبي إلى المعبد. مربّيته سترافقه. أترين، لقد تم الاهتمام بكل شيء. استريحي!». ثم غادرت مكان الولادة.

كان لكلماتها تأثير طعنة سكين في قلب كيا. وكابدت بعجزٍ مصادرة نوفرتيتي ابنها منها، وهي مدركة بكل وضوح أنها قد فقدته إلى الأبد. في تلك اللحظات انفلت الخلاص وتدفّق الدم. نادت أمينابة الخادمات، فجعلن كيا تستلقي في مضجعها، فيما حاولت أمينابة جاهدة إيقاف النزيف.

«سابو. أرجوك، اهتمي أنت بالخلاص، إذْ لا بدّ من نقله إلى المعبد بالطريقة المنصوص عليها، وسيرافقك أحد الكهّان».

أومأت سابو برأسها وسألتها: «وأنت ماذا ستفعلين؟».

«سأدهن لها هذا المرهم المعجون من ذرور الأرحام وعشبة إيزيس والبابونج والصعتر وأعشاب أخرى. لكني ما زلت بحاجة إلى زيت الأبسينْت. أحضريه لي بسرعة!». والتفتت إلى إحدى الخادمات قائلة: «أشعلي البخور!».

ما إن غادرت سابو التعريشة حتى أشارت أمينابة إلى خدمها الخلَّص قائلة: «ضعوا الحنجور تحت أنفها. يجب أن تستعيد رشدها».

بعد بضع لحظات صارت كيا قادرة على الفهم.

«كيا، حبيبتي، اسمعيني جيداً! تماسكي، يجب أن تفهمي ما أقوله لك».

هزّت كيا رأسها بضعف. بصوت خافت ولكن مُلِحٌ كلّمتها أمينابة لحظات، وختمت كلامها قائلة: «ثقي بي!». والدموع تنهمر من عينيها. هزت كيا رأسها ثانية، وبصوت مخنوق يكاد لا يفهم قالت: «سأموت لأحيا». فصرخت النسوة معاً.

وضعت كيا يديها إحداهما فوق الأخرى، ومن دون أن ينتبه أحد سوى أمينابة، حلّت

حركة الخاتم السرية وأغمضت عينيها. تباطأ تنفّسها وسكنت. فغسلنها ودهنّها بالمرهم. توقف النزيف. لففن جسمها بمناشف نظيفة منعشة ومدّدنها لتستريح.

«اذهبن أنتن أيضاً للنوم!». قالت لهن أمينابة «سنسهر نحن على نوم كيا».

لفظت كيا نفسَها الأخير في لحظة عودة سابو إلى تعريشة الولادة. فحصت أمينابة تنفّسها عدّة مرات، ثم أخذت تهز رأسها بارتباك وانفلتت تبكي وتعول وتندب. وهكذا اضطرت سابو بنفسها أن تُعلم المنتظرين بموت كيا. فتقدّم كاهن وفحصها، ثم أكّد أن كيا منذ اللحظة ستقابل وجه آتون، وأمر الخدم المسرعين بنقل الجثة بأسرع ما يمكن إلى دار التحنيط، ثم هرع إلى المعبد لينقل الخبر المروّع إلى سيده. وحتى سابو انسلّت بسرعة، غير أن أمينابة انتبهت لخروجها، وكانت متأكدة من المكان الذي ستتجه إليه الخادمة المخلصة.

**

أصرّ إخناتون على البقاء في دار بنبن، وأمضى ساعات طويلة هناك. فمنذ أن وصل إليه خبر بداية المخاض عند زوجته الملكية المحبوبة كيا، تفرّغ لمناجاة آتون. بقي الرب صامتاً، لكنه كان رحيماً وأرسل أشعته. مضى الوقت واستغرق إخناتون في الصلاة، رافضاً تناول أي طعام. قدم قرابين لنزول ابن الرب في ولادة سعيدة، وأخذ يكرر أداء الشعائر، لكن كيا لم تأتِ إلى المعبد. كان قد هبط الظلام عندما أبلغه رسول بأن كيا على درجة من الوهن لا تسمح بنقلها. فأصيب إخناتون بالجمود. أهو فأل سوء؟ آتون، هذا ابنك، يجب أن يولد سليماً معافى! وبصوت خافت رتّل الفرعون:

«أنت، يا مَن تُنضج المَني في أرحام النساء، فتجعل من السائل بشراً، يا مَن تُبقي الولد حياً في بطن أمه، وتهدّئه كيلا يبكي، يا مرضعةً في رحم الأم، يا مانح الأنفاس كي تبقى جميع مخلوقاتك حية. وما إن يخرج الولد من بطن أمه، حتى تفتح له فمه كي يتنفس، وتوفر له ما يحتاج إليه!».

وأخيراً وصل خبر الخلاص من مارو آتون: لقد ولد الابن. فخفّ الفرعون طرباً. لقد كان واثقاً! فكيف له، ولو للحظة، أن يشكّ. اغفر لي، يا آتون!

وكل الموجودين في المعبد شاركوا الفرعون في إنشاد نشيد آتون مع موسيقا الجنك

والقيثارة، كما رقصت النساء. وفيما كانت الأضاحي تُذبح وتُهيأ في المسلخ أشعل إخناتون البخور في المعبد شكراً لربه على ما أنعم به عليه.

ثم ظهر ابن الرب نفسه في المعبد، بعد أن صدحت الأبواق معلنة قدومه. فتشكّل عند المدخل موكب تتقدّمه زوجة الفرعون الأولى نوفرتيتي، حاملة بين ذراعيها الطفل النائم. صعدت الدرجات إلى المذبح العالي حتى بلغت الفرعون، فقالت:

«انظر الابن!».

وضع إخناتون يمناه على الطفل، وعيناه مغرورقتان بالدموع وهتف بسعادة بالغة:

«أيها الرب آتون العظيم الحي، الذي نحتفل به،
يا سيد كل ما يحيط به قرص الشمس،
سيد السماء وسيد الأرض
في معبد الشمس الصغير
معبد ابن الفرعون في آخِت آتون:
ها هو ذا ابني الحبيب: توت عنخ آتون!».

وانطلق عيد البهجة، لا بين المحتشدين في المعبد الذين التقوا مساءً في دار الاحتفالات الملكية، بل في آخِت آتون بأسرها، بعد أن نام الوليد الجديد في رعاية مرضعته. كان الجميع في كل مكان يرقصون، وقد أمر الفرعون بتوزيع الهدايا على الجميع، فعلى كل فرد في شعبه أن يشاركه فرحته. وكان لا يني عن عناق زوجته نوفرتيتي وابنتيه مريت آتون وأنخ سِنبا آتون.. وكان بودّه لو يعانق الدنيا كلها.

**

«يجب أن تستعجلوا. فأعوان نوفرتيتي قد يأتون في أية لحظة!». حثّت أمينابة جماعتها من الخدم.

.كانوا قد لفّوا كيا بكل عناية بأقمشة كتانية، ووضعوها على نعشٍ وثبّتوها بالحبال وغطّوها بالورود والتمائم، ثم غادروا بها قصر مارو آتون العزيز على قلبها. رافقها سكان القصر في عتمة الليل حتى حدود حدائق القصر. ومن ثم بقي حاملو النعش وحاملو المشاعل مع الجثمان وحدهم على الطريق إلى دار التحنيط. وبعيداً عن العيون

المتلصّصة لفّوا أنفسهم والنعش بأقمشة صوفية داكنة اللون. تركوا الطريق الرسمي وغابوا في عتمة الليل.

**

في خضمّ نشوة الاحتفال كان لخبر موت كيا وقع الصاعقة. كيا ماتت!

في نشوة فرحه نسي إخناتون الأم والزوجة، حبيبته وجميلته كيا. ولكن لماذا؟، لماذا كان عليها أن تضحّي بحياتها الشابة، بعد أن منحت الحياة للابن المنتظر بحرقة؟ كان عليه أن يزورها فوراً. كان عليه أن يرسل أطباءه. ما كان يجب أن يعتمد على نوفرتيتي، التي وعدته بأن تتكفّل بكل شيء. كان يجب.. كان يجب. غطى اليأس والحزن فرحته. هي، التي كانت تمثّل كل شيء في حياته، تركته. هي، الوحيدة التي عرفت كيف تفتنه، والتي احتفلت معه بشروق الشمس كما لا أحد قبلها. لن يتكرّر أبداً ما كان يحسّه معها، مع أم ابنه، مع حبيبته الأولى. فتهاوى على كرسيه غارقاً في الألم، وأحسّ أنه سيموت.

وقفت نوفرتيتي وقد ركبها الفزع. ما الذي جرى؟ إنها لم تعطِ أمراً بهذا. حاولت أن تتكلّم مع الكاهن الذي جاء بالنبأ. وفيما كانت خادمة تشقّ للكاهن طريقاً في الزحام لتوصله إلى نوفرتيتي، ارتمت سابو عند قدمي ملكتها، التي عرفت منها ما جرى في مارو آتون، تفاصيل صراع كيا مع الموت حتى لفظت النفس الأخير بهدوء. هكذا أفضل! هذا ما فكّرت فيه نوفرتيتي، من دون خبث أو لؤم، بل إنها أسفت لمصير قرينتها. لكن القدر لم يترك لهما أي خيار، إما كيا وإما هي لمصر! وخيار آتون وقع عليها.

تركت نوفرتيتي لإخناتون الوقت ليستوعب جرعة الألم الأولى، ثم تقدّمت منه لتواسيه، فقالت: «إنها رغبة آتون، أن يستعيد إليه بأسرع ما يمكن، تلك المرأة الاستثنائية التي منحت الحياة لصورة آتون. عليك أن تقبل مشيئته، إخناتون، كما كنت تفعل دائماً. عليك الاستمرار في حمل رسالته إلى الدنيا كلها. أنت وابنه الذي سنرعاه معاً، أنت وأنا!».

جلس الفرعون في دار الاحتفالات بلا حراك وبلا انفعال. أمسكت نوفرتيتي يده. وأخذت تكرر تأكيدها على أنها رغبة آتون لا شكّ، أن يستعيد كيا إليه. وأخيراً انتصب واقفاً وقال: «سنأمر بدفنها بكل ما يليق بزوجة الفرعون من تكريم وتشريف. ستُدفن في المقبرة الملكية وسيكون قبرها إلى جانب قبري. سنعمل على ألا ينقصها شيء. وسيقوم تحوتمس بنفسه بإعداد المكان ورسم جدرانه. عليه أن يجسّدها حية وهي تضحّي لآتون،

عليه أن يظهرها ملكةً وهي تقبّل ابنها تحت أشعة شمس آتون، ويداه ممدودتان نحوهما بإشارة الحياة. وعليه أن يخلّدها في الموت وهي مستلقية في تعريشة الولادة!».

أثنت نوفرتيتي على كل ما قاله، وأضافت أنها ستهتمّ بكل شيء حالما تشرق الشمس.

وهكذا جرت الأمور. منذ الصباح أعطت نوفرتيتي أوامرها، بأن يهيّأ جثمان كيا لجنازة ملكية. ولكن قبل الظهر بقليل تبيّن أن الميتة قد غادرت مارو آتون، لكنها لم تصل قط إلى دار التحنيط. لقد اختفت. وليس وحدها فحسب، بل أميناية أيضاً لا أثر لها.

صدرت أوامر نوفرتيتي بالتفتيش مبدئياً في جميع أماكن آخِت آتون عن الجثمان، من دون لفت نظر. وفي الوقت نفسه استدعت إلى القصر الكبير كافة خدم مارو آتون وكل مَن كان هناك بالأمس. لكن استجوابهم لم يأت بأية نتيجة: لقد حُمل جثمان كيا من القصر من قبل ستة خدم موثوقين، وبإشراف كهنة وبعض الوجهاء. ومنذئذ اختفى الجميع.

أمرتهم نوفرتيتي بالتكتّم على الأمر وصرفتهم بفظاظة. كان عليها أن تمعن التفكير بمعنى هذا كله، وبالخطوات التي عليها اتخاذها. إذ لا يجوز بأي حال من الأحوال أن يدري إخناتون باختفاء الجثمان، وإلا لجُنّ. كانت نوفرتيتي تعرف أعداءها الكثيرين في آخِت آتون، الذين سيسعدهم إبلاغ الفرعون بأنها هي مَن دبَّر موت كيا، وهي من عملت على اختفاء الجثة، أو حتى إتلافها. وعندئذٍ سيضيع هباء كل ما عملت جاهدة لتحقيقه من أجلها ومن أجل ابنتيها.

بأسرع ما يمكن استدعت نوفرتيتي كبير المشرفين في دار التحنيط إليها. وتوصّلت بعد تقليب الأمر على وجوهه كافة، إلى أنها لا بدّ من أن تصارحه بواقع الحال. فإن لم يتم العثور سريعاً على جثمان كيا، فلا بدّ من تحنيط جثة امرأة بديلة، وحسب الشروط المرعية. ولكن لا بدّ عندئذ من تجنّب أن يرى الفرعون زوجته مرة أخرى، مهما كانت الظروف.

في خطوة تالية أعطت نوفرتيتي تعليماتها في إدارة شؤون الدولة، لإرسال سعاة إلى كل أنحاء مصر، لإعلان موت زوجة الفرعون الحبيبة نتيجة لولادتها ابن آتون.

أما إخناتون فتولى بنفسه إصدار التعليمات بشأن تجهيز التابوتين الخشبي والحجري والقبر وجميع خطوات الجنازة والدفن. كما أُعلن الحداد في كل أنحاء مصر. وفي آخِت آتون، حيث عمّت بالأمس الاحتفالات البهيجة، ساد اليوم الندب والنحيب. كيا كانت

محبوبة جداً في أوساط الشعب. وبدأ كثير من الناس يتساءلون: كيف ستسير الأمور من بعد؟ وبدا مؤكداً أن نوفرتيتي ستعود إلى القصر، ولربما كان هذا هو الحل الأفضل. فقد اعتزل الفرعون في مقر إقامته وتفرّغ للنزاع مجدّداً مع ربّه.

في أثناء ذلك استمر البحث عن كيا وأميناية والخدم بصورة حثيثة. كما كلفت نوفرتيتي مجموعة من المساعدين الموثوقين خارج آخِت آتون للاستقصاء في مراسي المراكب على النيل شمالاً، عما إذا لاحظ أحد ما أمراً يلفت النظر. لكنها لم تعلق أملاً كبيراً على ذلك، فبإمكانيات التنكر الكثيرة ومع الحركة الدائبة على النيل، حتى وإن كان في أدنى مستوياته قبل موسم الفيضان، سيكون الأمر عسيراً، ولا سيّما أن نقل جثمان من مكان إلى آخر كان شأناً مألوفاً، والناس عادة يبدون احترامهم لقوارب الموتى ويتجنّبون طرح أسئلة محرجة.

**

شقّ الخدم مع النعش أقصر الدروب إلى النيل، حيث كان بانتظارهم قارب صغير خفيف الحركة. ما أن صاروا جميعهم فيه حتى انطلق بهم، رغم الأخطار الليلية، وحمله التيار معه من دون تجديف بادئ الأمر، مروراً بآخِت آتون نحو الشمال. وبعد أن تجاوزوا شمالي المدينة التي تبدّت كأطياف في ضوء القمر، حتى توجهوا ثانية للرسو على الضفة الشرقية. حمل أحد الرجال كيا بحذر إلى البر، وفيما هو يحملها على ذراعيه كمريضة، كشف زميله الأقمشة عن وجهها. خبأ خادمان القارب بين قصب الشاطئ، ثم هرعوا جميعهم إلى مركب راسٍ ومزوّد بفواكه وخضار وبعض منتجات السوق. سجّوا كيا ما أمكن بين السلال واندفعوا من الشاطئ مجدّفين بمهارة وسط التيار من دون معوقات متجهين شمالاً.

عندما لاح نور الفجر رفعوا شراع الشمس كي يمنح كيا ظلّاً من حرارة الشمس لاحقاً. تدريجياً امتلأ النهر بالزوارق والقوارب والسفن. إذ بدأ صيادو السمك عملهم، فيما توجّه آخرون إلى الأسواق شمالاً وجنوباً. ويبدو أن طراوة الطقس في هذا الوقت المبكر قد دفعت حتى أحد قوارب الموظفين للانطلاق إلى العمل. تناوب الرجال على التجديف بهمّة، فالمهم هو الاستفادة من الفاصل الزمني المكتسب، من دون لفت الأنظار إليهم، وكان هدفهم ممفيس. كان عليهم بلوغها بحملهم الثمين بأسرع وقت ممكن، وإلا لضاع

كل الجهد هباء. وحالما وصلوا، بحثوا بسرعة عن دار الطبيب (مِرْتي). كان حشد الناس يفسح الطريق فوراً للموكب الصغير مع المرأة المريضة، وهم يشدّون الحُجب على وجوههم خشية العدوى. وسوى ذلك لم يهتم بهم أحد.

وبعد أن أدّى الرجال مهمتهم وكوفئوا، انطلقوا في اتجاهات مختلفة وضاعوا في زحمة المدينة. أوعز الطبيب مِرْتي بنقل المريضة الخامدة كجثة إلى غرفة جانبية. ثم حمل عقاقير ومراهم وأدوات وانسحب إلى تلك الغرفة آمراً مساعديه بعدم الإزعاج، فالحالة خطيرة ويحتمل أن تكون معدية.

**

زفرت نوفرتيتي.. كل هذا النكَد. لحسن الحظ أن الصبي ينمو بصورة ممتازة. ألِف المرضعة دون مشاكل. وابنتاها مأخوذتان به وتحميانه كعيونهما. رغماً عنها عادت للتفكير بمسألة كيا. من يمكن أن يهتم بأمر جثتها، ومَن الذي يجب أن يُؤذى بذلك؟ هذان هما السؤالان الرئيسيان. استدعت سابو ثانية.

«سابو، تذكّري! يجب أن تعودي بتفكيرك إلى الوراء. مفتاح المسألة قد لا يوجد في أحداث الأيام والأسابيع القليلة الماضية، بل أبكر من ذلك بكثير. منذ بدء خدمتك عند كيا هل لاحظت شيئاً بدا لك مستغرباً؟ هل استقبلت الملكة زواراً غرباء؟ ربما من وطنها؟ هل جاءها مراسلون؟ هل استلمت رسائل؟ أو لمرافقتها المخلصة أمينابة؟ فكّري!».

«فقط سفيرٍ قطنا قابلها. نقل لها أخباراً من أمها وأخويها، على ما أذكر. إحدى الخادمات القطنيات سافرت مع ساعٍ إلى قطنا. لكن الساعي عاد وحده، وأحضر معه أعشاباً وأشياء أخرى لا أعرف ما هي، ولا استخداماتها. ولكن لا بدّ أنها كانت مهمّة، فقد تعاملوا معها بسرّية تامة. كان هذا بعد أن تراجعت زيارات شمسنا للملكة».

«وماذا بعد؟».

عصرت سابو ذاكرتها ثم قالت: «ذات مرة دار حديث بين الملكة وأمينابة وفهمت ما كانتا تقولان، إذ يبدو أنهما لم ترغبا أن تفهم النساء القطنيات موضوع الحديث».

«وما كان موضوع الحديث؟». سألتها نوفرتيتي نافذة الصبر.

«لم أسمعهما جيداً، لكن الملكة ذكرت سفراء حتيين، اثنين، أحدهما يدعى تالزو أو ما شابه ذلك. والثاني كان بالتأكيد هنا. نعم، في عيد الجلوس».

«نانينزي؟».

«نعم، يمكن. يبدو أن الملكة كانت مضطرّة إلى إفشاء سرّ اللون الأرجواني للملك الحتي، بسبب تالزو هذا، أو ما شابه ذلك، وإلا لكان مصيره الموت. بدا لي الأمر معقداً، ثم إن حديثهما لم يستغرق وقتاً طويلاً. وأكثر من هذا، لا أعرف».

«طيب. أتعتقدين أن أمينابة قادرة على اختطاف الملكة؟».

رفعت سابو نظرها إليها مرعوبة وتساءلت: «لأي هدف؟ إنها شديدة الطاعة لها، وكانت مستعدّة لأن تفعل أيّ شيء من أجلها، فعلاً أيّ شيء!».

«هل لفت نظرك، ما إذا كانت أمينابة أو إحدى نساء الحاشية القطنية على صلة خاصة بالخدم الذين اختفوا مع النعش؟».

هزت سابو كتفيها حائرة وقالت: «هناك إمكانيات كثيرة لمثل هذا في أبنية مارو آتون المختلفة.. لا أعرف. يفترض بنا أن نسأل مِمي؟».

«لا، دعينا من زوجك. يمكنك الذهاب الآن!».

أقوال سابو لم تلقِ ما يكفي من الضوء على المسألة، ومع ذلك أحسّت نوفرتيتي بأنها قد تقدّمت خطوة، هذا إذا كانت سابو قد فهمت بصورة صحيحة. الملك الحتي ابتز كيا، مقابل إنقاذ حياة سفير حتي. إنه لأمر مثير. إذاً لا بدّ من وجود علاقة خاصة بينها وبين تالزو هذا، وإلا ما كانت لتفشي سرّ قطنا المصون، أي استخراج اللون الأرجواني لصبغ القماش. وكانت نوفرتيتي على يقين من هذا. وكم هو مغيظ الآن، أن يصبح السر بين أيدي هذا الشمالي. أما كان بوسع الحمامة أن تفشيه لحبيبها إخناتون أيضاً! لكن هذا بات ثانوياً الآن. من المحتمل أن تالزو هذا، بغض النظر عمن يكون، يرغب كحد أدنى بالحصول على كيا، ولو كانت ميتة. لا بدّ، وبأقصى سرعة، أن تتوصل إلى معرفة من يكون. سيكون واحداً من حاشية الملك العظيم، أو شخصية ذات مكانة عالية. ولا بدّ أنه يعرف أمينابة أيضاً، فهي الوحيدة، حسبما تبيّن لنوفرتيتي من أقوال سابو، الراغبة والقادرة على إخراج الجثمان من مصر. فلديها معارف وخبرة طبية لتعالج الجثمان، بحيث يمكن نقله في هذا الحر الشديد هذه المسافة الطويلة. ومن المحتمل أنها قد حصلت على مواد لذلك من قطنا سراً.

هذا إذا كانت كيا ميتة حقاً!

كالبرق التمعت هذه الفكرة في رأس نوفرتيتي. وفوراً استدعت الكاهن، الذي أكّد لها أن كل الفحوصات أثبتت وفاة كيا. فعملية التنفس كانت متوقفة، وكذلك نبض القلب. وحتى الوخز بقي بلا ردّ فعل.

فكّرت نوفرتيتي باستدعاء الطبيب الشخصي پتو للتباحث معه، لكنها سرعان ما غيّرت رأيها، وقرّرت استدعاء إحدى المقربات من دار الشفاء. سألتها عن مواد تنتج وضعاً يشبه الموت السريري. فجاءها الجواب بأنها موجودة، ولكن لا يعرفها سوى الضالعين في العلم. والشخص المعنيّ الذي سيتعرض لتناول هذه المادة يجب أن تكون حالته الصحية ممتازة كي يتحمّلها وينجو.

استمدت نوفرتيتي أملاً. أن يكون الجثمان قد اختفى، هذا في حدّ ذاته كارثة، ولكن أن تكون كيا حيّة، فهذا... ولم تُكمل الفكرة. حتى لو كان بوسعها الأمل، بأن كيا بالحالة الصحية التي كانت عليها، لن تنجو، فإنها لن تأمن جانبها، إلا بدليل على موتها. لن توقف نوفرتيتي المطاردة بأي حال من الأحوال. كانت واثقة بأن الرحلة تتجه شمالاً. ما زال هناك وقت، لمنع وصولها إلى حتّوشا.

**

صبغت أمينابة وجهها ويديها وذراعيها وساقيها بلون داكن، بسائلٍ مغلي الفستق. جعلت من ثيابها حزمة، وضعت فيها بعض حلي كيا، ولا سيّما أختامها، وأشياء صغيرة محببة أخرى. رغم أن في الأمر خطراً، ولكن لا بدّ من ذلك، فلا بدّ من وجود شيء ما يساعد في التعرف على كيا، أميرة قطنا. وهذا البلد البالغ الثراء ستغادرانه فقيرتين تقريباً. لم يزعج الأمر أمينابة، فالمهم الآن هو النجاة من هذا البلد بصحّة سليمة. وبهدوء غادرت القصر وحدائقه وهربت نحو النيل.

قضت ليلتها قرب الشاطئ، وكانت من أشدّ الليالي رعباً في حياتها. أصوات النهر وطقطقة القصب، وكل تلك الكائنات الليلية الصغيرة والكبيرة، التي لا تحصى، أوصلتها إلى شفا حدود الاحتمال. وأخيراً انبلج الصباح، فأسرعت أمينابة من مخبئها إلى النهر. امتدّت إليها الأيدي لمساعدتها في الصعود إلى المركب. كان ينقل منحوتة ضخمة من ورشة تحوتمس إلى مدينة (نِنْ - نِسو) في الشمال. حشرت أمينابة حزمة ثيابها في زاوية وقرفصت في المكان المخصص لها في مؤخرة المركب وبدأت العمل فوراً: كان عليها

تحضير الوجبات للرجال أثناء رحلتهم النهرية. وهم لم يأبهوا بالعجوز المزعومة. وهكذا عبر القارب عدّة مراكز رقابة دون مشاكل.

إن الحفاظ على مظهرها الهادئ اللا مبالي تطلّب منها جهداً هائلاً. أخذ قلقها يزداد يوماً فيوماً. ألن يصلوا أبداً إلى نِن - نِسو؟ وهم حتى الآن لم يقطعوا سوى ثلثي المسافة. لكن الأقدار كانت رحيمة بها. ففي نِن - نِسو كلّف الرجال بنقل شحنة من أشجار الدفلي إلى ممفيس، وبذلك أمكن لأمينابة متابعة رحلتها معهم. ولكن كلما اقترب القارب من المدينة، ازداد صبرها نفاداً ونفسها قلقاً. ماذا سينتظرها في دار الطبيب مِرتي؟

كان الظلام قد هبط، عندما وقفت أمينابة أخيراً أمام دار الطبيب مرتي، وكانت مثل عجوز رثّة الثياب متشبثة بحزمة ثيابها. قرعت الباب ففتحه لها خادم، وكاد أن يغلقه فوراً حالما رآها، لكنها حسبت حساب ذلك، ورمت حزمتها بسرعة البرق في الشق المفتوح ووضعت إحدى قدميها عليها. وضعت في يد الخادم جعراناً حجرياً وأشارت له كي يعطيه لسيده. وفوراً ظهر مرتي، عانقها ودعاها إلى الدخول. حاولت أمينابة بخوف أن تقرأ في وجهه، فطالعتها ابتسامة دافئة مرحبة. قدّم لها شراباً ثم اغتسلت على ضوء سراج، وعندما خرجت وجدت بانتظارها ثوباً جديداً نظيفاً وأدوات زينة لتجمّل نفسها. حالما انتهت قادتها خادمة إلى غرفة الطعام ذات الإضاءة الخفيفة، حيث وجدت سيد الدار وزوجته وعدداً من بناته، في ثياب احتفالية مع الشعر المستعار الطويل ذي الفرق النصفي، وقد جلسن على وسائد حول مائدة مستديرة. أشار لها مرتي بودّ إلى المكان الشاغر المتبقي قبالته.

«أهلاً بك!». قال وأردف: «نأمل أن رحلتك كانت محتملة». أومأت أمينابة برأسها شاكرة. كانت متلهّفة لطرح سؤالها المتحرّق، لكن مرتي تقيّد بتقاليد المائدة حرفياً، فوجّه صلاة قصيرة إلى آتون وجاد ببعض الماء والحبوب، ثم أمر خادمة بإشعال البخور، ثم أعطى إشارته للبدء بالطعام.

«إن أسعفتني ذاكرتي، فأظنك تعرفين زوجتي الحبيبة، أما بناتي فلا»، قال مرتي بفم ملآن، وأردف: «هذه كبراهن مرتِمويا، وإلى جانبها تيه، وإلى يساري تجلس سَتامون. أما الجميلة إيسِت التي تجلس إلى جانبك، فأظنّك قد التقيتها في مكان ما!».

كان على أمينابة أن تضبط نفسها كي لا تفلت صيحة عالية أمام الأسرة والخادمات.

إنها كيا التي صعب عليها تعرّفها ثانية من شحوبها ونحولها، ولكن ها هي ذي حيّة أمامها تبتسم لها بوهن. مدّت كيا يدها خفية إلى يد أمينابة وبفرح صامت شكرتا الربة للقائهما. ونذر أن كان الطعام على لسانيهما ألذّ مما أكلتا الآن.

عندما صارتا في غرفة النوم المشتركة صار بوسعهما أن تحكيا كلٌّ منهما للأخرى همساً ما مرّ بها، علماً بأن كيا لم تتذكّر أيّ شيء من رحلة النيل ولا من وصولها إلى دار مرتي. لكنها حكت عن إحيائها: «قال لي مرتي إنه اضطرّ لاستخدام خبراته كلها كي يستعيدني. ونجاح العملية قارب المعجزة. فقد قضيت عدّة أيام وليال في القارب على النيل، ولم أكن في حالة صحية جيدة عندما دخلت المادة المنومة إلى جسمي. فلنحمد الربة على حمايتها لنا ثانية!».

«أتجدين نفسك قادرة على متابعة السفر؟».

«كيفما كان حالي يا عزيزتي، يجب أن نرحل بأسرع ما يمكن، كي لا نطيل في تعريض مرتي وعائلته للخطر. سفينة (إشبالي) بانتظارنا في الميناء، هو تاجر من كيزواتنا، ومستعدّ للإقلاع حالما نركب. لن أحتاج إلى جهد كبير لأقوم بدور زوجته المريضة (آنا). وأنت ستكونين خادمتي. مرتي يرى أن علينا المبالغة قليلاً عند نقاط التفتيش، فالمصريون يخافون من الأمراض المعدية أكثر من عضّة الكوبرا. قبل مدة قصيرة وصل خبر من عزيرا عن وباء يجتاح أمورو. في حال عزيرا لا يمكن أبداً معرفة ما إذا كان يقول الحقيقة، لكننا نستطيع أن نستفيد من خبر الوباء، رغم أنني بهذا سألحق الضرر بإشبالي. فهل سيسمح له المصريون بعد ذلك أن يرسو في موانئهم؟».

**

بعد موت الملكة الأم تية بوقت قصير، تحرّك مجدداً موكب الجنازة الطويل على الطريق إلى المقبرة الملكية البعيدة. بقي عامة الناس واقفة عند حدود المدينة، ولم يمشِ سوى النخبة وراء التابوت المزيّن ببذخ، والذي سجّيت فيه حبيبة الفرعون المفضّلة. ترك إخناتون للخدم أن يحملوه في محفّته. بدا غير قادر على المشي، بل أيقظ مرآه في الذاكرة منظر شيخ كسرته ضربات القدر. أدّى الشعائر بجهد، وفي حال أمكن ذلك، ترك الأمر للكهان. وأخيراً عندما أُنزل التابوت الخشبي في التابوت الحجري، في الغلاف الخارجي الأخير للحبيبة، وأُقفل بالغطاء الحجري، أخذت دموعه تنهمر بلا انقطاع.

قبِل الفرعون راغباً، بعودة نوفرتيتي وابنتيه بصورة نهائية إلى القصر الكبير، وبرعايتها للصغير توت عنخ آتون، وتولّيها مجدّداً شؤون الحكم، فيما استغرق هو في عبادة ربه آتون. وتركها، غير مبالٍ، تتصرف بقصر مارو آتون، فصرفت عمّاله وخدمه، ووزعت كل ما كان يخصّ كيا فيه، ورحّلت الحاشية القطنية إلى بلدها. لم تكتف بذلك بل تصرّفت بكل ما تملكه كيا من دورٍ وأراضٍ ومزارع وغير ذلك، فقسمته على ابنتيها، وأمرت بمحو جميع الكتابات والصور والمنحوتات التي تجسّد كيا أو تعديلها. وبعد وقت قصير بدا الأمر في آخِت آتون وكأن الملكة كيا لم توجد قط. ولاحقاً انتشرت في أوساط الكهنة شائعة أن نوفرتيتي قد أمرت بنقل رفات كيا من المقبرة الملكية إلى وادي الملوك، لكن المومياء، وبطريقة غريبة، فُقدت على الطريق.

**

قبيل عيد السنة الجديدة في مصر وصل المراسل المصري إلى قطنا، حاملاً معه النبأ السعيد والمحزن معاً: إن كيا، أميرة قطنا والحبيبة المفضلة للفرعون أمينوفيس الرابع الملقب إخناتون، قد أهدت مصر الابن توت عنخ آتون الذي طال انتظار مصر له. لكن الأم قضت في اليوم نفسه بحمّى النفاس. إيست، شالا، إهلي نيكالو، كواري وأكيزي وجميع المقرّبين من كيا أصيبوا بيأس وحزن عميق. أعلن أكيزي الحداد العام في المدينة. وما كادت مدته تنتهي حتى وصلت حاشية كيا من مصر، وكانت قد غادرتها قبل بدء الفيضان. وصل جميع أفرادها، عدا أمينابة، فقد اختفت في الليلة نفسها التي ماتت فيها كيا.

بسرعة طلب أكيزي حضور كبيرة الكاهنات إليه. استقبلها في غرفته الخاصة في الجناح الغربي، فموضوع حديثهما لا يجوز أن تسمعه آذان غريبة.

«ما معنى هذا، شالا؟ هل استنتجت منه شيئاً مفهوماً؟ أين يمكن لأمينابة أن تكون؟ أيعقل أنها لحقت بكيا إلى الموت؟».

«ماذا تقول النساء الأخريات؟ بودّي أن أعرف ما جرى تماماً، قبل الولادة وبعدها. ثمة ما يدعو للريبة. لم تصل إليّ أية أخبار من أمينابة منذ أن تأكّد حمل كيا. حينذاك أخبرتني بأن وضع الملكة الصحي ممتاز، وشهيتها للطعام جيدة، وجسمها قوي وسليم. من المحتم أن العناية بها لم ترها امرأة أخرى في مصر كلها، بل في العالم كله. فكيف تموت إذاً عقب الولادة؟».

«يقال إن نوفرتيتي تصول وتجول في البلاط كسابق عهدها. أهي وراء الأمر يا ترى؟».

«لن تكون أول مرة يتم فيها التخلص من الغريمة بهذه الطريقة. حمّى النفاس يمكن أن تصيب أي امرأة فتموت، ولن يرتاب أحد في الأمر. ولكن ما سبب اختفاء أمينابة؟».

«ربما ارتابت، فسُجنت أو قُتلت».

«ولربما هربت، بعد أن لاحظت أنها لن يمكنها تقديم شيء لكيا، وهي تشقّ طريقها الآن إلينا. الأسئلة كثيرة، أيها الملك.. دعني أتحدث إلى النساء الأخريات.. أرسلهن إلي في بيت الربة!».

بعد أيام قليلة فقط اجتمع الاثنان مجدداً.

«لقد تمكنتُ من معرفة بعض الأمور، ما ساعدني في تشكيل صورة». وحكت شالا عن الأوقات السعيدة في البداية، ثم عن مدة عزلة كيا، ومن ثم عن الآمال المرتبطة بالحمل، وعن زيارات نوفرتيتي لكيا، وعن يوم الولادة.

«الواضح هو أن بداية الطلق عند كيا كانت قوية جداً، بحيث قررت أمينابة، بموافقة مدبرة القصر المصرية، إبقاء كيا للولادة في مارو آتون. المرأة التي أخبرتني بذلك مرعوبة جداً وخائفة. واضح أنها قلقت جداً على سيدتها بعد علمها بالطلق الشديد المفاجئ، بحيث نقلتها فوراً إلى تعريشة الولادة. لكن المرأة لم تخدم سيدتها هناك طويلاً، لأنها ليست قابلة، لكنها كانت تطلّ على التعريشة بين الحين والآخر، حسبما يتيح لها عملها ذلك. رأت كثيراً من الغرباء، رجالاً ونساءً، كهنة وسعاة. سمعت أن الطفل قد ولد، ورأت كثيراً من المنتظرين يغادرون لإبلاغ الخبر. بعد وقت قصير جاءت نوفرتيتي. المرأة عرفت محفّتها. ولم يمضِ وقت طويل حتى خرجت نوفرتيتي من تعريشة الولادة وغادرت حاملة الطفل. بعد ذلك بفترة قصيرة ماتت الملكة كيا ونُقل جثمانها من القصر. وبرأي المرأة، نوفرتيتي هي مَن قتلها. المرأة الثانية لم تدرِ بكل ما جرى، لكنها سمعت فيما بعد أن جثمان كيا قد اختفى. ومع ذلك خرجت الجنازة وأقيم الدفن. وهناك امرأتان أخريان اعترفتا بمعاناتهما خوفاً شديداً بعد اختفاء أمينابة، خشية أن يُقتلن جميعهن. وحتى عندما ركبت النساء السفينة، كنّ مقتنعات بأنهن لن يرين قطنا ثانية».

«ماذا يعني هذا كله الآن؟ المسألة تثير تساؤلات كثيرة، ولا دليل بين أيدينا».

«معك حق. المؤكد هو أن في المسألة ما يريب. فكّرتُ أن بوسعك توجيه خطابٍ

إلى آخِت آتون، بأنك في غاية الحزن لفقدان أختك، وأن أمها إيست لا تكف عن النواح. فما الذي جرى تماماً؟ وألا يمكن إعادة الميتة العزيزة إلى قطنا؟ عندها لا بدّ لهم من أن يتخذوا موقفاً».

«هذا إذا أجابونا»، وزفر أكيزي.

لكن المستغرب كان وصول الجواب بسرعة، وعليه الختم الشخصي للزوجة الملكية الكبيرة. أما مضمون الجواب فقد خطف أنفاس أكيزي.

كتبت نوفرتيتي، إنها قد أوعزت بإعلامه أن كيا ماتت بحمّى النفاس، للأسف. وأن البديهي، هو أن زوجة الفرعون تبقى في مصر، فهناك مكانها وليس في أي أرض أخرى. ثم ماذا يريد أكيزي من خائنة، باحت لملك حتّوشا العظيم بأعظم سرٍّ في قطنا، من أجل شخص يدعى تالزو. إنهم في مصر متشوقون لاستقبال الأقمشة الأرجوانية من حتّوشا، التي لا شك في أن أخا زوجها الحثي العزيز سيرسلها إليهم.

**

إلى حتّوشا أيضاً جاء الساعي بنبأ ولادة توت عنخ آتون العسيرة، ووفاة الزوجة الملكية الحبيبة كيا سريعاً عقب الوضع. غير أن شوبيلوليوما كان على رأس جيشه في المعركة على الحدود الغربية. لذلك مثَل المراسل المصري أمام توانانا والملكة مالنيغال، ومنهما وصلت الأنباء الجديدة إلى إدارة شؤون الدولة.

كاد تانوا يموت من شدة الألم. أرسل ساعياً إلى الملك بالنبأ، ففي مثل هذه الحالات لا يجوز التصرف دون استشارته. ثم طلب إجازة من العمل. هنوتي ومورسيلي وميتا كانوا في الجبهة، لم يكن أحد من الأصدقاء إلى جانبه، ولم يرغب بحمل أحزانه إلى جدته العجوز. فكر بإيست وشالا في قطنا البعيدة، وبكل الأصدقاء هناك. إنه المذنب في فقدانهم هذه الإنسانة الرائعة. أيّ شيطان لعين دفعه إلى تلك الفعلة آنذاك! لقد أوقع كيا بنفسه بين مخالب نوفرتيتي التي لم تحتمل وجود الغريمة دون أن تنقضّ عليها. أقضّت مضجعه إدانة النفس والآلام والأحزان. وأخيراً جاءه ميتانموا بنفسه وأمره بالعودة إلى مكان عمله. وكان تانوا شاكراً له، فالواجبات الكثيرة شغلته عن نفسه وخفّفت ساعات العذاب.

ذات مساء، بينما كان جالساً في مسكنه داخل القصر، قصده رجل، تعرّفه تانوا، فقد كان يشتغل لدى إحيًا في ترشا. وقبل أن يبادره بالسؤال، ناوله الرجل كيساً جلدياً ضئيلاً. أوعز تانوا بتقديم الطعام والشراب للرجل، ثم انسحب إلى غرفة أخرى، والأفكار تتضارب في رأسه. إن كان ثمة ما حدث لأحد الوالدين، لأخبره الرجل فوراً. فتح بحذر رباط الكيس الصغير وقلبه على كفه، فسقطت منه تميمة كيا.

في اللحظات الأولى أصيب تانوا بالذهول، ثم غمر قلبَه فرحٌ بهيج: إنها حية! نعم حية، الشكر كله لكم أيها الأرباب. هذا كل ما تبادر إلى ذهنه في لحظتها. ولكن بعد فترة قصيرة دهمته الشكوك. فالتميمة تخبره فقط أنها في شدة، ويحتمل أن تكون أمينابة، لا أكثر. فهذه هي الإشارة المتفق عليها، لتخبره كيا أو أمينابة، إن كانتا بحاجة ماسّة إلى مساعدته. ما الذي مرّتا به يا ترى منذ أن افترقوا؟ فاستدعى الرجل إليه، وسأله:

«من أعطاك هذا الكيس؟».

«أحضرته امرأة إلى سيدتي والدتك. وقالت ثلاث كلمات فقط، فأرسلتني سيدتي إليك. وأضافت بأن عليّ أن أسرع. وهكذا حثت الحمار إلى أن تهالك تحتي، فأخذت حماراً جديداً لأتابع..».

«يكفي يا صاحبي. ستكون مكافأتك سخية، اطمئن، وستعوّض خسارتك. والآن قل لي بسرعة الكلمات الثلاث التي اتُمنت عليها، ثم انسَها إلى الأبد!».

«الكلمة الأولى كانت اسمك يا سيدي، ولكن اسمك السابق. والثانية هي ألاشيا، والثالثة ترشا. وليس لديّ ما أقوله لك سواها».

«أشكرك!».

كان بودّ تانوا أن ينطلق مسافراً في الليل مباشرة.

أبدى تانوا امتنانه لميتانموا، لعدم طرحه أسئلة محرجة لتفسير سبب رغبته المفاجئة بالسفر إلى والديه في كيزواتنا. دبّر شؤونه الأكثر إلحاحاً وانطلق على جواده في صبيحة اليوم التالي لتلقّيه التميمة والكلمات. واستمتع بالركوب بعد الجلوس الدائم في مكتب الإدارة. أحسّ بنفسه مجنّحاً، يطير على أمل الالتقاء بكيا مجدداً. كان هذا منطلقه، أما الاحتمالات الأخرى فلم يسمح لها بالتغلغل إلى رأسه. وكلما اقترب تانوا من ترشا، سيطرت عليه أفكار محددة.

أول ما شغله هو فقر المعلومات المكانية التي وصلت إليه، علماً بأن ترشا على الأقل كانت واضحة، فكيا تبغي التوجه إليها، هذا هو ما فهمه. لكنها هي أو أمينايه التي أرسلت التميمة على الأغلب من ألاشيا، حيث توجدان الآن.. أم أنهما في الطريق إليها؟ هل المقصود هو جزيرة النحاس أم عاصمتها في جنوبي الجزيرة، التي تحمل الاسم نفسه؟ لم يستطع تانوا تصور أنهما قد هربتا إلى ألاشيا صديقة مصر، وأنهما مقيمتان في قصر الملك (كوشْمِه شوشا) سيد النحاس والخشب. ربما جاءتا على متن سفينة تجارية مصرية من أجل مقايضة الفضة والزيت بالنحاس المرغوب. لكن لا شك في أن الملك سيعلِم أخاه بذلك في رسالة مستعجلة إلى آخِت آتون. هذا إذا عرف أن المرأتين قيد البحث عنهما. وإذا كان ثمة بحث عنهما، فأقرب الاحتمالات ستكون قطنا. ألهذا السبب توجهتا إلى ألاشيا؟ ولكن إلى أي ميناء فيها؟ أين عليه أن يبحث إذا ما زالتا في الجزيرة؟ تمنى تانوا من كل قلبه أن تكون كل هذه التكهنات في غير محلها، وأن تكون المرأتان قد وصلتا إلى ترشا. حثّ جواده على الإسراع، كأن الأمر مسألةَ حياة أو موت.

8

1337 - 1333 ق. م

«كي نصل إلى ألاشيا، لا بدّ من أن نتوجه أولاً إلى جبيل! حتى ولو أردتُ، لما تمكنت من تحقيق رغبتكِ والتوجه نحو ألاشيا مباشرة، لأن التيارات لا تسمح بذلك».

شكرت آنّا زوجها لنواياه الطيبة وعادت إلى مضجعها على متن السفينة، حيث كانت خادمتها تنفض الوسائد، وقالت لها: «لا يمكن! لا بدّ من التوقف في جبيل. تصوري أن نكون على هذا القرب من قطنا، وفي الوقت نفسه في آخر الدنيا!».

«ألن يكونوا في جبيل على علم بالأمر؟».

«ليس أمامنا سوى التضرع إلى الربة، أن نكون قد سبقناهم، رغم خسارتنا بعض الأيام بسبب العاصفة».

«وماذا في حال دُعي إشپالي، مثلما دُعي القبطان ورب السفينة آنذاك؟».

«سيعتذر عن الدعوة. سيتوقف فقط للتفريغ والتحميل، ثم سيتابع الإبحار فوراً. وفي أثناء ذلك لا يسعنا سوى الحفاظ على الهدوء التام وعدم لفت الأنظار إلينا. لن يأبه بنا أحد من الحمالين. سترين».

سارت الأمور كلها دون مشاكل. ومع هبوب ريح طيبة من الشرق وصلت السفينة إلى جزيرة النحاس بأسرع مما توقعوا. بكل فخر انتصبت أمامهم في البعيد جبال ألاشيا المهيبة التي تكتنز في داخلها المعدن المرغوب جداً. رست السفينة في ميناء العاصمة ألاشيا المسمى ماري. وبما أن أعمال إشپالي هنا كثيرة، فسيطول رسو السفينة أكثر من جبيل، لذلك غادرها الركاب إلى النزل الذي يقيم فيه إشپالي عادة. وبعد وقت قصير عاد إشپالي بنبأ يسرّ قلب آنّا، التي زعم هنا أنها ابنة خاله: غداً ستقلع سفينة، لتتوقف في

عدّة موانئ في الجزيرة، ولتتابع طريقها من ثم نحو هدفها وهو ترشا. كانت الغواية كبيرة بركوبها، لكن كيا فضلت التريث، فالأمان يأتي في المقام الأول، وهي تثق بإشبالي. هل استلم تالزو رسالتها يا ترى؟ هل سيقدّر لها أن تصل إليه؟

الرحلة الطويلة في السفينة لم تُعد إليها صحتها فحسب، بفضل رعاية أمينابة الدائبة وحنانها، بل منحتها وقتاً كافياً لإعادة التفكير. استعرضت في ذاكرتها المدة التي أمضتها في مصر، وكل ما سبقها من أحداث. وغاصت في أعماق نفسها لتعرف ما ستفعل في المستقبل بنفسها وبحياتها.

كان الوضع دقيقاً. إذا عادت إلى قطنا، فستعرّض الجميع للخطر، لأن نوفرتيتي لن تقبل بهروبها. ومن المرجح أنها قد زعمت أن توت عنخ آتون ابنها هي. انهمرت دموع كيا عندما تذكرت صغيرها، الذي لم تُمنح ما يكفي من الوقت لتحمله بين ذراعيها وتستطلع ملامحه. تذكرت عينيه السوداوين الصغيرتين اللتين لم تتوقفا عن الحركة في جميع الاتجاهات، ويديه وقدميه، كل شيء فيه صغير ولطيف. سوى الرأس الذي بدا ضخماً، مقارنة بالجسم. والشعر الأسود القصير! هل كُتب عليها أن تفقد أولادها؟ أم أنه عقاب الربة، كفّارة عن البنت التي لم تحمل بها عن حب، وكفّارة عن الصبي الذي أيضاً لم تحمل به عن حب؟ تكهنت طويلاً حول الموضوع. ذات ليلة، تحت نجوم السماء المتلألئة، في السفينة الراسية في أحد الخلجان، ودّعت ابنها الغالي.. نثرت في البحر زهوراً كانت مشكوكة في شعرها، ونفختها نحو الجنوب، إلى مصر، تحيةً محملة بأمنياتها العامرة بالسعادة والبركة لوليّ العهد ولفرعون والعائلة وللبلد كلها. سيكون بخير، حتى دون رعاية أمه، التي حملت به ومنحته الحياة.

حمدت ربتها، وشكرت الأرباب كافة، في جميع أنحاء الدنيا، على الهدية، على الحياة الجديدة التي مُنحت إياها، عبر هذا الطفل. فهي في واقع الأمر مسجّاة في القصر الملكي الذي تفقدته بنفسها قبل وقت غير بعيد. لكنها الآن حية ومستعدة لمهمتها القادمة.

وما هي يا ترى؟ إلى أين يسوقها قدرها الآن؟ كونها في البحر إلى ألاشيا، مع احتمال أن تتوجه من هناك إلى مملكة شوبيلوليوما، فهذا بفضل شخصين يحبانها بلا شروط، وغامرا من أجلها بكل شيء، حتى بحياتيهما: أمينابة وتالزو.

تدريجياً عرفت كيا من أمينابة بأمر الحماية الواسعة التي بسطها تالزو مسبقاً حولها. اعترفت لها أمينابة بأنه قد زارها عدّة مرات في قطنا، كي يتداول معها ومع شالا في

احتمالات أحداث قد تواجهها وعواقبها وكيفية الخروج منها. كما ربطها تالزو بشبكة خلصائه الواسعة من الساحل السوري حتى أعماق مصر. كما لم ينقطع عنها مراسلوه ومراسِلاتِه، فكانت تزودهم بكل ما يتعلق بكيا ووضعها.

لم تتوقف دهشة كيا من كثرة ما كان يجري من وراء ظهرها. هل كانت عمياء وطرشاء؟ أرادت أن تعرف، كيف كانت أميناية تتأكد من الشخص المعني حقاً، فالخونة كانوا متربصين في كل مكان. حتى سابو الودودة! فابتسمت أميناية ابتسامة متعددة التفسيرات، ثم أخرجت من صدرها تميمة من خزف لازوردي فاخر وأرتها إياها. فنظرت إليها كيا منزعجة وقالت بصوت مرتفع: «هذه أكثر التمائم عادية مما قد يخطر في البال. فكل إنسان، فعلاً كل إنسان من حتّوشا إلى كوش يضع حول عنقه تميمة العين!».

«تماماً، وهنا تكمن الحيلة. إذ إنها لن تلفت نظر أحد، ولكن تمائم تالزو تحمل خاصية صغيرة، هي أن البؤبؤ محاط بخط إضافي. إضافة إلى ذلك، لن تجدي بين تمائم جماعتنا تميمة سليمة. كلها للأسف مكسورة! لكنها مكسورة بحيث تتطابق الأجزاء بين الأشخاص، مما يسهّل تعارفنا. وهناك إمكانية تعارف أخرى. يبدأ واحدنا حديثه بـ «أنْ» و«أنا»، أي بصوت لا يلفت الانتباه، حسب البلد، وقد يكون اسماً. ظننتك تعرفين ذلك، فلا شك أن مرتي هو مَن أطلق عليك اسم آنّا للتمويه، أليس كذلك؟».

لم يكن بوسع كيا سوى أن تهز رأسها دهشة. كم فكر تالزو بكل شيء! من الواضح أنه طوال الوقت لم يفكر إلا بها! أحست كيا بحرارة تغمرها. إنه يفعل ذلك منذ سنوات طويلة، منذ لقائهما الأول. آنذاك قدّم لها قلبه، سواء أرادته أم لا، ولا شك في أن هديته كانت إلى الأبد. ورغم ذلك كان سلوكه تجاهها دائماً محترماً، لم يطلب ولم يلح. مرة أو مرتين باح بعاطفته، عندما فاض قلبه بها، لكنه كان دائماً متماسكاً، حتى عندما كانت تشتمه أو تطرده. كل الأمل أن يكون الملك شوبيلوليوما قد حافظ على كلمته! ومجدّداً غمرت الحرارة كيا، ولكن لسبب آخر هذه المرة. فماذا إن لم يعد تالزو حياً؟ هل كانتا ستسمعان بموته في مصر؟ هذا مستبعد. ولكن ربما في قطنا؟ أكيزي أو شالا كانا سيكتبان لهما بذلك. كما إن إشپالي لم يشر إلى الأمر إطلاقاً. غير أنها لم تسأله مباشرة. أثناء كلامهما لم يُذكر اسم تالزو أو تانوا قط. يا ربتي، ما هذا الغموض المقلق! أرسلت كيا توسلاتها مناجية ربتها وأقسمت لها على أن تقبل بكل خضوع ما تشاؤه لها!

لاحقاً، في طمأنينة معبد شاوشغا في لَوازَنْتيا، عندما كانت تتذكر هذه المرحلة من

حياتها، كان يصعب عليها تصور أنه لم يمض على ذلك سوى ثلاث سنوات، ستكتمل قبل عيد الربيع المقبل. كثير من الأحداث المبهجة وقعت، وكثير من المرعبة كذلك.

كم كانت راغبة في الرحيل عن ألاشيا، التي سلبتها صديقتها الأكثر محبة والأكثر إخلاصاً لها. حتى الآن ما زال وجه أمينابة المستَنكِر يتراءى لها وهي تحتضر بين ذراعيها. استيقظت الصديقة في الصباح الباكر لسماعها هسيساً. ومن دون أن تفكر بالخطر الذي يهددها، رمت نفسها على الأفعى الكبيرة التي وصلت إلى سرير كيا. انتفضت كيا صارخة ومضطربة بين النوم والفزع. صاحت بصوت عالٍ. وإلى أن ظهرت إحدى خادمات النزل كان الأوان قد فات: عضّت الأفعى أمينابة، وانسلّت هاربة. حاولت كيا أن تشرح للخادمة بالإشارات ما وقع، لكن النجدة لم تأت إلا بعد ظهور إشپالي وترجمته. كانت الأفعى من النوع السام الخطير، إذ أن الأفاعي الخجولة بطبعها لا تدخل البيوت إلا نادراً جداً، كان رأي صاحب النزل. ولكن بماذا يفيد هذا الآن؟

«أمينابة، حبيبتي، ابقِي معي!». توسّلت كيا.

كان جرح العضّة واضحاً قرب العنق، فوضعت عليه أوراق نباتٍ يمتصّ السمّ، كما دُهن بمرهم من جذور الشمرة المنقوعة بالنبيذ.

لم يكن هناك ثمة فائدة. أخذت أمينابة تذبل وتشحب تدريجياً، ثم دهمتها سخونة وتقيأت.

«يا صغيرتي، يا حبيبتي كيا، يجب أن تهربي. كانت هذه إحدى ضربات الملكة! يقال إن المصريين يستخدمون أفاعٍ قاتلة!». هزّت كيا رأسها وهي تذرف الدمع.

«لا يجوز أن نفترق على هذا النحو»، قالت أمينابة بعد قليل والحمّى تكويها.

هزت كيا رأسها ثانية، قالت: «لا، لن نفترق أبداً، أبداً!».

«صحيح» همست أمينابة بصوت يكاد لا يفهم، ولكن مع ابتسامة «فأنت في قلبي دائماً!».

«وأنت في قلبي أيضاً!». همست كيا، ونظرت إلى الوجه الذي تغطيه دهشة مستنكِرة. ثم أغمضت عينيها ورحلت.

اضطرّت كيا أن تترك وراءها في الجزيرة جثمان الصديقة التي أنقذت حياتها أكثر من مرة. ربتي. أهذا جوابك على قَسَمي؟ أعليَّ البدء من جديد، وحيدة دون سند؟ تابعت

كيا طريقها إلى ترشا، وحيدة، غارقة في الألم والحزن، وقد ضمّت حزمة أمينايه إلى أغراضها القليلة.

ما إن بلغت السفينة الشاطئ حتى أرسل إشبالي ساعياً إلى دار إحيا. وحيطته هذه أنقذت حياة كيا ثانية، ففي صباح اليوم التالي، عندما رست السفينة في ميناء ترشا، وجد في انتظاره إحيا بنفسه وقد تحمّل عناء النزول إلى الميناء. رحّب بإشبالي بصوت عالٍ وعبارات ظريفة مازحة، وقبل دعوته إلى متن السفينة لشرب قدح الوصول بالسلامة، وهمس له أثناء صعوده، أنّ آنا (كيا) لا يجوز أن تظهر الآن. ثم شربا نخب الوصول بالسلامة شاكرين الأرباب. ثم استفسر إحيا عن الأوضاع التجارية في ألاشيا، وتبادلا المزاح بصوت عالٍ، ما ولّد في جو الميناء المكتظ شعوراً بالفرح المتبادل لنجاح رحلة العودة إلى الوطن. في أثناء ذلك كان البحارة قد بدؤوا بتفريغ حمولة السفينة. وفي أول فرصة سنحت، نوّه إحيّا بصوت خافت إلى أنّ داره مراقبة من قبل أشخاص أجانب بصورة تثير الريبة، وحتى الآن لم يُعرف أصلهم. وكانوا قبل ذلك قد سألوا عن جميع السفن القادمة من الجنوب، وعلى نحو يلفت النظر. قُبض على اثنين منهم، فيما هرب الآخرون. ولذلك لا بدّ من الحذر الشديد.

كادت كيا تموت رعباً. لماذا يبحثون عنها هنا؟ ماذا جرى لتالزو؟ لماذا جاء أبوه؟ كيف ستسير الأمور من بعد؟ كل شيء يدعو لليأس.

كان لا بدّ لكيا من مغادرة السفينة، في وضعية غير لائقة أبداً. حُشرت في سلة كبيرة مع حزمتها، وفوقها أوانٍ خزفية من ألاشيا إضافة إلى بضائع أخرى. حمل السلة عاملان قويان من الميناء ووضعاها على عربة يجرها ثوران. بعد وقت قصير تحركت العربة مغادرة منطقة الميناء، ومن الأصوات التي كانت تصل إلى أذني كيا، قدّرت أنها تدخل المدينة. لكنها لم تتوقف هناك، بل تابعت طريقها وهي تهتزّ وتتأرجح مع دبيب الثورين. وحسب مرور الوقت، لا بدّ أن العربة قد غادرت مدينة ترشا، مهما كانت واسعة، فمنذ مدة انقطعت ضجة المدينة. لا شك في أن العربة على درب ريفي غير ممهد جيداً، فالأواني الخزفية كانت تقرقع فوقها. وكانت الشمس تبث دفأها في سجنها، لكنها لم تجرؤ على تغيير وضعيتها، ثم إنها لم تعد تحسّ بأعضائها منذ فترة.

سمعت فجأة صوت خبب جواد. صاح الحوذي: «هوووو» فتوقفت العربة. هناك من يحرك البضائع المحمولة ويجرّها إلى هذه وتلك الجهة، إلى أن جُرّت سلتها نحو الخلف، وبسرعة رُفعت الأواني من فوقها، فغشيت عيناها من الشمس الساطعة. ثم حُملت السلة

من العربة ووضعت على جانب الطريق. كانت تشعر بنفسها عاجزة مثل جُعَل مقلوبٍ على ظهره، عندما أحسّت بمن يرفعها بحذر من السلة. سمعت صوت العربة مغادرةً، وهي مستلقية على جانب الدرب تحاول أن تمدّد أعضاءها.

سقط ظلّ عليها. هناك من ركع إلى جانبها. نظرت فرأت عينين زرقاوين مشرقتين.

«أتستطيعين الركوب؟».

أخ، يا لهذا العذاب اللذيذ!

تسلّقت كيا أحد الجبال الشديدة الانحدار، التي ترتفع في الشرق فوق المدينة ومعبد لوازنتيا، وأطلت على سهل پورونا في الجنوب. ومن موقعها كان يمكن الإحساس بالبحر وبسلسلة الجبال العظيمة في الشمال. هنا يلتقي طريق الشرق التجاري الذي يؤدي إلى الفرات وميتاني، مع طريق الجنوب الذي يؤدي عبر أوغاريت حتى إلى مصر في أقصى الجنوب. هنا يتحد الطريقان فيشكلان شارعاً يوازي النهر لمسافة محددة ثم ينعطف غرباً ليوصل المسافرين عبر سهل كيزواتنا إلى العاصمة أدانيا، وإلى البحر وترشا، أو إلى الشمال، إلى أرض حتّوشا.

إلى هنا إذاً، جنحت بها سفينة القدر. هنا وجدت مأوى، في معبد شاوشَغا، المسماة إشتار أيضاً.. ربة الحب، التي تستقبل في معبدها كثيراً من الزائرين. وهي في الوقت نفسه الربة التي ترعى نعيم العائلة المالكة وتضمن انتصارات الحاكم الحتي وكبار ضباطه في الحرب. هنا تجلس إذاً، حيث تتعلم اللغة الحتيّة بدأب مع صديقة جديدة اكتسبتها مؤخراً، وتحاول جهدها أيضاً لتعلم هذه الكتابة الفظيعة، وتنتظر، آملة وخائفة، قدوم تالزو، الذي أحضرها إلى هنا قبل أسابيع قليلة.

لم يسبق لها في حياتها قط أن ركبت حصاناً. ولكن إثر خروجها محطّمة مكسرة من السلة، لم تجد أمامها خياراً آخر سوى أن تضيف إلى آلامها ألماً جديداً. وبعد أن تمكّنت، نوعاً ما، من الوقوف على قدميها، حملها تالزو وأجلسها على ظهر هذا الحيوان الهائل. ومن وضعية الوقوف قفز تالزو وجلس خلفها، ثم قال لها: «استرخِ ما أمكنك في الجلوس واسندي ظهرك عليّ. لا تخافي، أنا أمسك بك!». ولم يضف شيئاً آخر. تحرك الجواد، وسرعان ما خبّ بهما على درب موازٍ للطريق الفعلي. اشتاقت كيا إلى السلة واهتزازاتها الرتيبة على عربة الثيران، ومع ذلك، فإنها ما كانت لتبدل مكانها مع أي شخص كان:

بين ذراعي تالزو، على ظهر هذا الوحش الهائل الذي لا يني يختفر ويشخر، تحسّ بأمان وبهجة افتقدتهما منذ وقت طويل، مع علمها بأن عظامها بعد وقت قصير ستتساقط في كل الاتجاهات. لو سُئلت لاحقاً عن الدروب التي مرّا بها، لاستحالت عليها الإجابة. كان تالزو يعرف المنطقة حق المعرفة، ولهذا فإنهما لم يصادفا أي إنسان. بين الحين والآخر كان يحثّ الجواد على الخبب سريعاً. ثم يناولها زمزمية لتشرب ماء، ويعود بجواده إلى الخبب السريع. وعند إحدى المخاضات عبرا نهر سامرا العريض، وبعده توقفا للاستراحة. على مسافة قريبة منهما كانت هناك مجموعة من الدور الصغيرة البائسة. قفز تالزو عن الجواد ثم رفع كيا، فأطلقت صرخة متقطعة. لم تتمكّن من الوقوف، حاولت الجلوس، لكنها أقلعت عن الفكرة فوراً. أثناء ذلك عقد تالزو رباط جواده، ثم أخذ يستطلع بتمعّن في الاتجاه الذي جاؤوا منه. لم يكتشف ما يثير الاهتمام، لا ملاحِقين ولا عجاج غبار، لا شيء. عندئذٍ فقط التفت إليها.

«أهلاً بك!». قال، وكان صوته في غاية الدفء وأردف: «أهلاً بك في بيتك، يا (مَلْمادا)! أرجو أن يعجبك اسمك الجديد؟ علينا بسرعة أن نختلق لك تاريخاً: من أين أنت، ولماذا جئت إلى هنا؟ من أين نعرف أحدنا الآخر وما هي العلاقة بيننا؟ ولكن لا حاجة اليوم لأن تفكّري بكل هذا!».

حملها دون كلفة ونقلها إلى مخبأ مزوّد بتبن وقش ووضعها هناك بحذر.

«استريحي. سأجلب لنا طعاماً!».

عندما عاد بعد قليل، وجدها نائمة. تجاوزت اليوم الثاني وكأنها كومة من البؤس. اعتذر منها تالزو عن كل هذه المزعجات، وأخبرها بأنه سيأخذها إلى معبد الربة شاوشَغا، حيث ستكون في مأمن من أية مطاردات. استقبلتهما هناك كاهنة قادتهما عبر ممرات طويلة وباحات وحدائق وممرات ثانية. كانت كيا تتألم مع كل خطوة تمشيها، وتأمل عند كل باب أن يُفتح لها. وأخيراً وصلوا إلى قاعة نيّرة، متصلة بغرفة نوم، تفصل بينهما ستارة. كان في الغرفة جرار ماء وطسوت مهيأة للاغتسال. وقد ألحق بالقاعة الرئيسية شرفة صغيرة، تشبه نتوءاً معمارياً، وتطل على الجنوب الغربي. هنا سيكون مسكن ملْمادا الجديد. كانت الشمس تشارف على المغيب بعد نهار قائظ. بدأت تتناهى إليهم أصوات الجداجد وصراصير الحقول، وكان الهدوء إلهياً. أحضرت لهم خادمة ماء ونبيذاً وفواكه وخبزاً وجبناً، ثم تركتهما وحدهما. أحضر تالزو طبقاً مملوءاً بالماء، وأخذ بكل عناية

ينظف لها بقطعة قماش وجهها وعنقها وذراعيها ويديها وقدميها. ثم ناولها حنجور مرهم قائلاً وهو يبتسم: «ضد مرض ركوب الخيل. في بداياتي استهلكت الكثير منه!».

لم تصدّق كيا كلامه، لكنها قبِلت مسكن الآلام شاكرة. والمستغرب هو أن أقل الآلام كانت في ظهرها، فعلّق قائلاً: «عندك استعداد فطريّ للركوب. لاحظتُ ذلك فوراً، فقد اتخذتِ مباشرة الوضعية المناسبة للركوب. سنستمتع بهذا كثيراً فيما بعد». وناولها قدح نبيذ قائلاً: «لنشكر الأرباب!». وأعطى الأرباب حصتهم من كل ما صُفَّ على الطاولة الصغيرة. قطّع الفاكهة حزوزاً، أما الخبز والجبن فكانا مقطّعين مسبقاً بحجم لقيمات. جلس إلى جانبها وأخذ يلقمها القطعة تلو الأخرى.

«لست طفلاً صغيراً!». احتجّت كيا بفتور، لكنها كانت سعيدة جداً برعايته. غير أنها كانت على درجة من الإرهاق، بحيث نامت لا إرادياً وهي تأكل.

كان يحتمل أن تكون أياماً رائعة لتالزو وكيا، والأفضل لتانوا وملمادا، ولربما لتالزو وملمادا، أو كيا وتانوا. هكذا فكّرت كيا زافرة بحرقة. أليس عجيباً أن يكون لكليهما الآن اسمان جديدان؟ رغم أنهما ما زالا الإنسانين نفسيهما، أليس كذلك؟ واسترسلت في ذهنها متابعة فكرة علاقة الاسم بالإنسان. اسم ‹كيا› يجعلها بالنسبة إلى نفسها وإلى الآخرين شخصاً محدداً. ومَلمادا؟ هل ستعتاده يا ترى؟ اسم ‹آنا› أعجبها أكثر. ولكن ما يؤسف له أنه بات معروفاً من قبل الأعداء. آه، لو كانت الأيام معدودة، إلى أن تستعيد اسمها كيا! بعد هذا الدعاء الحار، عادت إلى تالزو وإلى إجازته المقطوعة في لوازنتيا.

كانت تلك، على أية حال، أياماً ثمينة صافية، فوقتُ تالزو كان محدوداً. لقد غاب طويلاً عن حتّوشا، لأنه اضطرّ للبقاء في ترشا بانتظارها مع أمينابة. علماً بأنهم في حتّوشا بأمسّ الحاجة إليه. لكنه لا يستطيع أخذها معه إلى هناك، لأن في ذلك خطراً كبيراً. كان واضحاً أن الجواسيس في ترشا كانوا يتربصون بكيا وأمينابة، لكن ما لا تفسير له هو ربطهم بين تالزو ابن إحيا وكيا. وإلا ما تفسير اقتحامهم دار إحيا؟ لا يمكن أن يكون من أرسلهم سوى نوفرتيتي، وبمهمّة محددة واضحة. ولم يتبقَّ الآن سوى الأمل، بأنهم قد فقدوا أثر كيا، أو أن حيلة إشبالي قد انطلت عليهم، عندما همس سرّه لإحيا بصوت عالٍ كفاية ليسمعه المخبرون، بأنه كان يحمل على متن سفينته منذ مصر سيدتين من المقام الرفيع، لكنهما للأسف ماتتا مريضتين في ألاشيا.

كيا، لا، ملمادا لا بدّ من أن تبقى في لوازنتيا، وبكل امتنان، مقيمة في مكان آمن وجميل، حتى.. حتى ماذا؟

«لا يمكنك العودة إلى قطنا. إذ لا يجوز لهم هناك حتى أن يخمنوا أنك ما زلت حية، لأنك بهذا ستعرّضينهم للخطر. فالكبيرة.. هكذا كانا يدعوان نوفرتيتي في حديثهما، لن تستريح، إلى أن تمسك بك. وغضبها لن يتوقف عند حدود المدينة، إن تجرّأتْ وآوتك».

«هل سأبقى هنا منتظرة، إلى أن تموت؟».

«لا، ما هكذا. ولكن لندع العشب ينمو قليلاً ليغطي كل شيء. ثم تظهر، من حيث لا أدري، امرأة اسمها ملمادا، تغزو قلب تانوا وتحتلّه بطرفة عين، فيعيشان سعيدين معاً، حتى آخر أيامهما!». قال ذلك مقلداً رواة الحكايات. ثم انقلب جادّاً فجأة، وأمسك بيدها وقال: «أيمكنك تصوّر ذلك، ملمادا؟».

«هل هذا عرض زواج؟». سألت كيا محاولةً تقليد لهجته المازحة.

«إذا كانت هذه رغبتك!».

«نعم!». قالت كيا.

وتبادلا القبلات.

في ما بعد قال تانوا: «كان هذا سيعجب أمينابة»، وابتسم راضياً وأردف: «كانت دائماً إلى صفّي!».

«لقد حبكْتما الأمر بمنتهى البراعة. يا لكما من شقيّين. كل ما تحدّثتما فيه واتفقتما عليه، من وراء ظهري، إنه لأمر لا يصدق!». ثم تملّكها الألم لفقدان صديقتها العزيزة.

«هيّا، لنفكّر معاً»، قال تانوا محاولاً أن يلفت انتباهها، «يجب أن نختلق لك تاريخاً قابلاً للتصديق. إذ لا يمكنك أن تبقي هنا طويلاً. فأنا ما عدت قادراً أبداً على أن أبتعد عنك!».

التصقت كيا به. ما عادت تطيق فراقه، ولو ليوم واحد. ألم يلتقيا حقيقة الآن، بعد كل تلك السنين؟ تالزو وجد طريقه إليها منذ زمن بعيد. وهي أيضاً بمعنى ما كصديق، منذ أول لقاء. كونه منذئذ قريباً جداً منها، ربما شعرت بذلك أحياناً، لكنها لم تعرف، أو لم ترد أن تعرف. وأن يؤلمها بعده عنها على نحو يصعب التعبير عنه، فما كانت لتعتقد أن بإمكان ذلك أن يحدث لها.

كيف انقلبا بهذه السرعة إلى الموضوع الذي غيّر كل شيء مجدداً؟ في اليوم الثاني

مباشرة، في سلام بقعة الأرض الرائعة هذه، في عالمهما الصغير الجديد، سألها تالزو فجأة، لماذا أفشت لشوبيلوليوما بسرّ قواقع الأرجوان.

«كيف عرفت ذلك؟».

«بمحض المصادفة وصل إلى سمعي ما قاله نانينزي للملك عن القواقع».

«وبعد؟».

«لا شيء. كان واضحاً أن هذا الموضوع لا يجوز أن تسمعه أذناي، لذلك انسللت خارجاً وأنا مرتبك محتار. لم أجد تفسيراً لما دفعك لهذا الفعل».

نظرت كيا إليه طويلاً وبعمق. وأخيراً أمسكت بيديه وقالت: «أنت!».

«أنا؟».

«نعم، أنت! أنت السبب الذي جعلني أرحل إلى إخناتون في مصر».

«كلامك كله ألغاز، وأنا لم أفهم كلمة واحدة منه».

«اسمع إذاً. بعد حديثك معي في بيت الربة، جاءني نانينزي متنكراً كامرأة! حاملاً معه رسالة لي فقط من ملككم».

«من شوبيلوليوما؟».

«نعم، منه. من الجلي أنه كان يخشى ألا أطيعكما أكيزي وأنت. سأحاول الآن أن أعيد على سمعك نص الرسالة. للخبر أهمّية كبيرة بالنسبة لك، حبيبي تالزو».

ركزت كيا تفكيرها ثم بدأت الكلام بصوت خافت: «شوبيلوليوما، الملك العظيم، لابارنا حتّوشا يحييكِ، يا كيا القطنية. افعلي ما يُتوقع منك. فأنت بذلك لن تساعدي عائلتك فحسب، ولا المدينة، ولا المنطقة كلها، بل ستساعدين أيضاً شخصاً عزيزاً عليك. إنه في الواقع ثمرة حب الإخوة المحرم. وعقوبة ذلك الموت لجميع الأطراف، الذين ما زلتُ حتى الآن أحميهم. ولكن حتى متى؟ هذا متعلق بك وحدك. إذا لم تؤدّي مهمتكِ كما يجب، فسيموتون. ولكن ليس هم وحدهم. حتى قطنا سيحكم عليها بالدمار. قواتي جاهزة في حلبا. وكدليل على خضوعك، بوحي لمراسلي بسرّ أرجوانكم. ستكتمين أمر زيارته لك بصمت القبور، وإلا فإن غضبي سيصيبك والآخرين معاً، في كل مكان!».

هيمن السكون على القاعة.

هذا هو السر إذاً، الذي لا يريد أحد أن يأتي على ذكره. كان مصيباً إذاً في حدسه أن إحيا ليس أباه. من يكون أبوه إذاً؟ ما زال الأمر مكتوماً عنه حتى اليوم.

«ما كان يجوز لي أن أخبرك بشيء، أتفهم ما أقصد؟». قالت كيا كاسرة الصمت، «كما لم تسنح لذلك فرصة أخرى، لأنك لم ترجع، لا إلى قطنا ولا إلى آخِت آتون. حتى أني استدعيت نانينزي إلى قصري مرة، على أمل أن يخبرني شيئاً عنك. لكنه على ما يبدو لا يقف إلى جانبنا. لماذا لم تأتِ أنت؟ فأنت كنت سفير حتّوشا إلى مصر».

«لأني تلقيت ترفيعاً، ناتجاً عن الأمر نفسه، لكي أضطرّ إلى البقاء في حتّوشا. ولكن، من هو أبي الآن؟ اعذريني، فأنا..». التوتر الدائم بينه وبين إحيا، أمّه التي قضت حياتها في الكفّارة منذ بدأ يعي ما حوله، كل هذا وجد تفسيره الآن.

«لا يمكن أن يكون إلا أخاً لأمك، أحد أخوالك! لا بدّ من وجود سبب يدفع الملك الذي يعرف السر، إلى بسط حمايته عليك. وعلى أمك وأبيك. ألا تخمنه؟ أعتقد، لأن أباك مقرَّب جداً إلى الملك. إنه ليس أفضل قواده فحسب، بل هو فوق ذلك صديقه الحميم!».

«هنوتي؟».

«ومَن المقصود غيره؟».

«هنوتي! إذا صدق هذا، فإنه يفسّر أموراً كثيرة. تلميحات الملكة هنتي وتلميحات جدّتي، كما يفسّر سبب رفع أقاربي أيديهم بإشارة درء الشر، خفية، بعد زيارتي لهم مع هنوتي».

جلس تانوا صامتاً وأفكاره تتضارب.

أخذت كيا تراقبه، ولا إرادياً سرح ذهنها وتذكرت العرس المقدس مع أخيها أكيزي. بعد برهة قالت: «يا ربتي! مهما كان سبب اتحاد الإخوة، فلا شك في أن الأرباب قد باركوا حبهما وأهدوهما طفلاً. فكيف يدانان ويقتلان؟ ماذا يكمن وراء هذا القانون الوحشي؟ في مصر لا حدود لدرجة القربى بين الملك والملكة، عندما يتعلق الأمر بالحفاظ على نقاء الدم الملكي ما أمكن. وفي قطنا..». صمتت كيا فجأة، لكنها حكت لتالزو من ثم بالتفصيل، عن العرس المقدس، وعن حملها بطفل أكيزي من دون علمه أنها هي التي مثلت الربة. ثم عن سقوط الطفل بعد بضعة شهور، وفرحها بذلك، دون أن تجد تفسيراً لسبب مطالبة الربة بالطفل. كما حكت عن شعورها بأن الربة تعاقبها الآن لهذا السبب، فجعلتها تفقد ابنها الصغير أيضاً. فالربة لا تجدها أهلاً لأن تكون أماً. حكت كيا كماء

متدفق. وفقط بعدما أفرغت ما في روحها، جفلت. فبدلاً من أن تفسح المجال لتالزو كي يستوعب المستجدات المتعلقة به، استرسلت في الحديث عن نفسها فحسب.

«أرجوك، أرجوك، اعذرني. لقد انفلت الكلام من داخلي فجأة. سامحني أرجوك!».

«اهدئي حبيبتي. جيد أنك أطلعتني. لن يكون بيننا أسرار بعد اليوم، ولا هموم يخفيها واحدنا عن الآخر، أتعدينني بذلك؟».

جفّف دموعها بحب، ثم قال سارحاً مع أفكاره: «لا أعرف سبب العقاب الشديد عندنا لعلاقة الحب بين الإخوة، لكنه أمر واقع. وأمي المسكينة كادت تتحطّم نهائياً تحت هذا العبء. يا لتعاسة حياتها! معاناتها من الشعور بالذنب لا تنتهي، ولا خوفها من العقاب المسلط عليها. لا يمكنني أن أتوجه بالسؤال إليها. يُفضل أن أسأل هنوتي، ما إذا كان تخمينك في محله. حتى الآن، لم يكن لدي انطباع بأن الاثنين متقاربين إلى هذه الدرجة. لي خالة تعيش في حتّوشا، وهنوتي يحادثها ويمازحها أكثر بكثير، أما عن علاقته بأمي فعلى النقيض، كأنما ثمة حاجزاً بينهما. من ناحية أخرى، هو الذي زوّجها لإحيّا. الأمر مشوش جداً ومعقد، كيا. لماذا يعرف الملك بالأمر؟ هل فهمتِ رسالة الملك على نحو صحيح؟ آه، يا أعز الأحباب، كم تحملتِ بسببي! وأنا لم أكن على علم بشيء. كنت مقتنعاً تماماً بأنك لا تحبين إلا إخناتون، كيا!». كادت كلماته الأخيرة أن تكون صرخة. ثم قال: «الذنب ذنبي أنا. أنا الذي أخبر شوپيلوليوما بأنك وإخناتون.. أيمكنك أن تغفري لي ذلك؟ أنا قلت له، بأن أعظم خدمة يمكن أن تُقدّم لك، هي في جمعكما معاً. فعليه أن يرسلك إليه.. أنا المجنون. سامحيني أرجوك!».

ومن كلمة إلى أخرى، ازداد يأس تانوا، إذ تكشَّف أمامه مدى تورّطهما معاً. لم تتمكّن كيا من تهدئته، رغم تأكيدها له مراراً، بأن هذا كله من مشيئة الأرباب. وفجأة شحب تانوا وهو يقول: «كيا، أنت معرّضة لخطر الموت على نحو مزدوج الآن! ليس من خلال نوفرتيتي فحسب، بل من خلالي أنا! من خلالي أنا، ألا تفهمين! ما الذي جنيتُه حتى ينتقم الأرباب مني بهذه الصورة؟ بغض النظر عمَّن من أخوالي هو أبي، نحن ثلاثتنا معرّضون للموت في أية لحظة، حسب رغبة الملك، أو إن وشى بنا شخص آخر مطّلع على السر. ولكن أنت أيضاً، أحب إنسان إلى قلبي تحت الشمس، الوحيدة التي أحببت وسأحب، والتي سأضحي بحياتي من أجلها بسعادة، أنت ستصبحين مستهدفة بالعقاب الذي لا يرحم، إذا أصبحت زوجتي. يا له من قدر قاس!».

نهض تانوا. لملم أغراضه القليلة، فيما كانت كيا تنظر إليه بذهول، وقد أدركت أن لا شيء يحول دون انطلاقه الآن. ثم التفت إليها وقال: «ستبقين هنا في حماية جيدة، يا شمسي الوحيدة. أعدك بجميع الأرباب بأني سأجد حلاً. هل ستنتظرينني؟».

أومأت كيا برأسها قائلة: «وأنت، هل ستنتبه إلى نفسك؟».

تعانقا، ولم يكونا قادرين على ترك واحدهما الآخر.

أخيراً اتجه تانوا إلى الباب وهو يقول: «لن نستسلم. الأرباب هم الذين جمعوا بيننا. ستكون الأمور كلها على ما يرام، صدقيني!». واختفى. ولم تعد كيا قادرة على متابعة رؤيته من شرفتها، مهما بذلت من جهد.

تأقلمت كيا/ ملمادا سريعاً مع الحياة في معبد لوازنيتا. وبناء على طلبها كُلفت القيام بأعمال بسيطة إلى جانب تعلّمها اللغة الحثيّة، لجعل أيام الانتظار أقصر. راودها شعور بأن الربة قد عاودت الحلول فيها والتجلي لها في أحلامها. أسعدها الأمر، لكنها في الوقت نفسه خشيت الأحلام، التي أرتها فيما مضى أموراً مرعبة غالباً. والساعات الكثيرة التي كانت تمضيها وحدها، استغلّتها في اختراع تاريخ لملمادا، آملة أن يعجب تالزو، وأن يمكّنهما من العيش معاً، بأسرع ما يمكن.

على سبيل المساعدة، اعتمدت على مصير مربّيتها تايا، وحبكت تاريخها على أن ملمادا كانت ابنة عائلة من الأشراف في ترقا، أودت بها الأحداث إلى قطنا وهي صغيرة، حيث أمضت سنوات طويلة. اتخذها أحد أشراف قطنا زوجة له، لكنها ترمّلت باكراً جداً. والأرملة الصبية لفتت أنظار الشريف تالزو أثناء زياراته المتكررة لقطنا. ولكن ما تفسير سماتها المصرية الجلية في هذه السيرة؟ لنقل إن أحد أسلافها قد جاء من مصر إلى ترقا. لا، ثمة خطأ أساسي في بناء الحكاية: لا شك في أن نانيزي والمبعوثين الحثّيين الآخرين الذين مرّوا بقطنا سيتعرّفون عليها. لا، لا يمكن. لا خيار أمامها إلا أن تعيش في الخفاء، إلى أن تبعث حية مجدّداً بجسدها وروحها، باعتبارها كيا.

**

فيما كانت كيا تحاول بناء حياة جديدة لها في حماية المعبد، ما كان بوسعها أن تقدّر التأثير الذي خلّفه موتها وخيانتها لسرّ الأرجوان في أخيها أكيزي في سياق علاقته

مع تالزو، صديق الملك. لقد أحس أن الجميع قد خانه وتخلّى عنه. وبناءً على قناعته بمسؤولية نوفرتيتي عن موت كيا، وسكوت إخناتون على ذلك، مسلوب الإرادة، وبعد أن اكتفى استمتاعاً بكيا، صبّ أكيزي غضبه على مصر. فهذه الإهانة الشخصية لا يمكن القبول بها. كما أن غطرسة القوة العظمى بإرسال بعض الكهنة لفرض ديانة جديدة، كان أيضاً غير مقبول. هل يظن الفرعون في آخِت آتون بأن الناس على استعداد للتخلي فوراً عن معتقدات آبائهم المتوارثة من قديم الزمان؟ أما نداءات طلب النجدة ضد الهجمات الأجنبية فقد صمتت القوة العظمى حيالها، بل تجاهلت معاناة الأتباع. علماً أن بوسعها أن تحميهم بسهولة، بحيث توفر لهم حياة دائمة في هدوء وسلام.

وبما أن الاتفاقية مع حتّوشا كانت نتيجة لممارسة ضغط مباشر، فقد رفضها أكيزي. منذ شبابه لم يثق بالحتّيين، سواء كان ذلك نتيجة معارضتِه الصريحة لأبيه إيداندا، أو نتيجة علمه بأن حتّوشا تنوي ضم شمالي سوريا إلى مملكتها، وهذا تحديداً لم يتغيّر فيه شيء.

وفوق ذلك كله، تالزو! صديقه العزيز والحميم، الذي وثق به كما لم يثق بإنسان آخر. لقد استغل الأحاديث مع كيا إذاً، ليدفعها إلى الخيانة! لم يكن يهمّه سوى مصلحته. يا له من منافق! إنه حقاً لا أكثر من ابن تاجر، كما كانت كيا دائماً تقول.

دعا الملك أكيزي مجلس الشيوخ إلى اجتماع. ونجح في خطبة نارية بإقناع الأعضاء، على الرغم من تخوّفات قلّة قليلة متبقية، بأنه بات ضرورياً، نظراً للوضع العام القائم، الاتحاد مع ملوك الممالك السورية الراغبين في الوحدة، واستغلال لا مبالاة مصر، وقيادة هذا الاتحاد للوقوف في وجه تغلغل حتّوشا في المنطقة. ولقد أرسل مبعوثيه ليس إلى الممالك المجاورة فحسب، بل إلى توشراتا الميتاني وإلى ملك آشور البعيدة. فأبدى الجميع استعدادهم للدفاع عن أنفسهم في وجه تجاسر شوپيلوليوما عليهم. وفي الربيع القادم سيندفع جيش جرار نحو الحدود القديمة بين ميتاني وكيزواتنا لطرد الحتّيين الذين استوطنوا في شمالي سوريا وميتاني.

«صنّاع أسلحتنا سيتصبّبون عرقاً منذ الآن». بهذه الجملة أنهى الملك خطبته التي لاقت تصفيقاً حاراً. وفي غمرة الحماسة العامة، لم تسنح الفرصة للمتشككين، مثل أكالينا ولوايا وكواري، لإبداء آرائهم.

**

كان تانوا يعرف أن هنوتي بعد انتهاء الحملة العسكرية يعود إلى مقره في پوروشخاندا، ككل سنة. فانطلق إليها من لوازانيتا مباشرة، ولم يفُته على الطريق، إرسال خبر بذلك إلى ميتانموا. بدا له الأمر كرحلة إلى الماضي، فقبل عشرين سنة تقريباً سار على الدرب نفسه، الذي يستخدمه الآن، هارباً حينذاك إلى الحياة الجديدة التي يريدها هو لنفسه. مَن سينتظره هناك الآن؟ خاله أم.. أبوه؟

«تانوا، يا لها من مفاجأة!». وعانق هنوتي تانوا بحب وقال: «أين الحريق هذه المرة؟». فأشار تانوا إلى صدره إشارة تحتمل معاني متعددة، وطلب محادثته على انفراد.

«سرّي للغاية؟ إنك تثير فضولي! هات ما عندك!».

«كالي هي أمي، لكن إحيًا ليس أبي. أنا على يقين من ذلك الآن. إذاً، من هو أبي؟ هذا ما أريد معرفته منك، هنوتي!».

نهض هنوتي واقفاً وأخذ يذرع المكان جيئة وذهاباً في صراع داخلي. جلس أخيراً قبالة تانوا وقال مع ضحكة بدت مفتعلة: «أظن أني قد أكونه!».

ارتسمت على وجه تانوا دهشة عميقة: «ما معنى هذا؟ أتتهم أمي..!».

رفع هنوتي يده نافياً بانزعاج وقال: «لا، لم أقصد هذا. لكنني رغم السنوات الكثيرة ما زلت مندهشاً. وأنت تعرف أني لا يمكن أن أحلم بابن لي، أفضل منك. أعطني لحظة لأجمع شتات نفسي. أنا أريد أن أشرح لك كل شيء بأفضل صورة ممكنة. ولكن مبدئياً أيها الشاب العزيز، دعني أعانقك، وأعتذر منك، اصفح عني! آنذاك عندما ظهرت فجأة عندي. لم يكن لدي أي فكرة، أنك يمكن أن تتألم وتتعذب. ويُفضَّل أن أقول إن الأقدار المسلطة علينا من قبل الأرباب لا تسمح لنا نحن البشر بتسييرها بأنفسنا!».

بقي تانوا منتظراً. فكلمات هنوتي ما زالت بالنسبة إليه أقرب إلى الإبهام منها إلى الإيضاح.

«قبل نحو خمس وثلاثين سنة مرّت بالبلاد فترة جفاف، شحّ فيها المطر، فأقيم طقس الاستسقاء (كيلَمّار) الذي يشتمل على شعائر متعددة، تؤدّى بغية إرضاء الأرباب الغاضبين ولطلب المطر منهم لإخصاب الأرض. فجُمعت ذكورُ مختلف الحيوانات وإناثها معاً، كي تتجامع وتنجب. أما على صعيد البشر فكان النصيب حسب القرعة. ومن جميع الشباب والشابات من طبقة الأشراف الذين أدوا شعائر دخول مرحلة الرجولة، اختارت قرعة الأرباب مَن سيشارك في الطقس، وكان منهم كالي وأنا. كالي كانت في الثالثة عشرة وقد

جاءتها الدورة الشهرية أول مرة، وكنتُ أكبرُها بسنة وبضعة شهور، ولكن قد لا تصدقني اليوم» وضحك هنوتي مرتبكاً «لم أكن قد خضت أي تجربة مع الفتيات ولم أعرف الحب. وعندما أستعيد المشهد في ذاكرتي أقول أنه بيني وبين كالي لم يحصل أي اتحاد فعلي. ومع ذلك فقد حملت!».

وفيما كان هنوتي مستغرقاً في التفكير بالأمر، تابع تانوا فكرة أخرى، فقال: «إذا كانت القرعة هي الحكم، فلا يجوز أن تتّهما باقتراف إثم معاً!».

«يا عزيزي، صرتَ عارفاً بقوانين حتّوشا أكثر مني الآن. أحدها ينصّ على أن الحب بين الإخوة محظور وعقوبته الموت».

«واضح أن صياغة هذا القانون لم تراع وجود نصوص سابقة كانت تشجّع لقاء الإخوة، كما في حالكما آنذاك. لذلك يجب على الملك أن يبرّئكما من الذنب! وكيف عرف بالأمر؟».

«تانوا، أعليّ أن أذكرك بأن الملك هو الكاهن الأعلى؟ إنه مطّلع على كلّ ما في المعبد. لا أدري، متى وكيف اكتشف الأمر، لكنه عارف به! لقد أخبرني بذلك. وبمعنى ما، ابتزّني به. مثلاً، منعني من أن أذكر أمامك أن نانيزي قد بُعث في مهمّة خاصة إلى كيا في قطنا. أعتقد أن حفاظه على حياتينا وحياتك كان الطُعم، الذي ضغط به عليها كي تذهب إلى مصر فعلياً. أن تموت بهذه الطريقة المأساوية! صدّقني تانوا، إني أشعر بألمك. أنا أعرف، كم كنت تحبها. ما يطلبه الأرباب منا، لخير البلد، غالباً ما يكون قاسياً. حتى الملك والملكة قدّما تضحيات. أرجو أن تتغلب على حزنك وتتجاوزه، يا عزيزي!». ووضع يده بتعاطف على ذراع ابنه، الذي بقي صامتاً.

بعد برهة تابع هنوتي: «ولكن قل لي، كيف توصّلت أنت إلى معرفة الأمر؟ وممّن؟».

كان تانوا يتوقع هذا السؤال. لم يرد الكذب على هنوتي، وفي الوقت نفسه لم يكن بوسعه ائتمانه على الحقيقة، حفاظاً على أمنه هو، وكيا أيضاً. فأجاب بما رتّبه في ذهنه مسبقاً: «إحدى الكاهنات تنصّتت من حجرة سرّية على حديث نانيزي، عندما نقل لكيا رسالة ملكنا، وأخبرتني بالأمر».

«أنت تعرف إذاً منذ مدة طويلة، وبقيت صامتاً حتى اليوم؟». لكن تانوا لم يحر جواباً. فتابع هنوتي: «أتعرف ما هو الأشد غرابة في الأمر كله؟ أنا الذي أحضر كالي لصديقنا إحيا. آنذاك لم تكن كيزواتنا تابعة لمملكتنا بعد. كالي كانت مضطربة جداً. أعترف أني

في ذلك الحين لم أفكر بالأمر كما يجب، ولكن فيما بعد. أثناء استراحة في ترشا أخبرتني كالي أنها إن ولدت صبياً فستسمّيه تانوا. عدت إلى حتّوشا وأخبرت أمي التي كانت مطلعة على كل شيء. بيد أني لا أعرف ما إذا كانت قد أسرّت بالأمر لفرد آخر من العائلة. ثم جئت أنت إلى الدنيا. فأرسل إحيا إلينا رسولاً لينبئنا بولادة ابنه تالزو من كالي. جيد، قلت لنفسي، ليكن تالزو. ثم تأتيني أنت ذات يوم، وقد اخترت لنفسك اسم تانوا، للتمويه! أتتصوّر كيف اقشعرّ بدني؟ عندئذٍ اعتقدت أن الأرباب يكلّمونني!».

**

قبيل أن ينطلق تانوا إلى حتّوشا ليسهم بنصيبه في «عيد العجلة»، كان هنوتي قد اتخذ قراره، بأن يطلب مع كالي الغفران من الملك، في إطار عيد الخريف في أدانيا. كان موقناً في نفسه من أن الملك لن يأبى ضراعتهما.

بيد أن كالي، هي مَن أبى! إذْ رفضت بإصرار أن ترافق أخاها إلى الملك. كلّمها هنوتي بكل صبر، محاولاً إقناعها، ومستعرضاً أمامها بتأنٍّ جميع الحجج التي تبرّر براءتهما من الإثم، وأن هذا واجبها تجاه تانوا ومستقبله.. بلا أدنى فائدة. وكل ما توصّل إليه، عندما هدّدها بالذهاب وحده إلى الملك، هو أنها أخذت تنشج بالبكاء ثم تمترست في حرم الدار. لكن هذا تحديداً هو ما فعله هنوتي، وليقضِ الأرباب بما شاؤوا، إن كانا قد أذنبا.

التمس هنوتي المثول رسمياً أمام الملك، في مسألة تخصّ عائلته. هل حدس شوپيلوليوما بالموضوع؟ عندما دخل هنوتي وتانوا إلى القاعة في قصر حاكم أدانيا الحثي، لم يكن هناك سوى: الملك، الملكة الأم (تَوانانّا) وقد تقدمت في السن، وكاتب. بعد حمد الأرباب واستعطافهم سأل الملك قائدَ المنطقة الجنوبية هنوتي عن مراده. بتلعثم في البداية، ثم بانطلاق، كرّر هنوتي أمام الملك وأمه ما حكاه لتانوا في پوروشخاندا. ثم ركع عند قدمي الملك وتابع قائلاً: أنا أرى أننا لم نقترف إثماً في سلوكنا، لأن قرعة الأرباب هي التي جمعت بيننا. فأقلّه من أجل ابننا تانوا ألتمس من رب الطقس العظيم في حتّوشا، ومن ربة الشمس في أرينّا، ومن جميع الأرباب، أن يمنحونا الغفران عن طريق كاهنهم الأعلى!».

«ما رأي أختك كالي بالأمر؟ ما سبب غيابها؟». سأله الملك.

بعد لحظات دخلت القاعة بمرافقة حرس الملك الشخصي سيّدة، رئي الجميع

لحالها. كانت أحزان السنين الطويلة بادية على كالي بجلاء، وحتى الحجاب الشفيف على وجهها لم يستطع أن يخفي مدى ألمها. عرض عليها شوپيلوليوما كرسياً، وسألها عما إذا كانت تعرف موضوع الجلسة. وعندما أجابت موافقة، طالبها بأن تبدي له رأيها في الأمر. ولدهشة الجميع التمست توانانا الكلام.

«لقد عانت هذه المرأة ما يكفي»، مشيرة إلى كالي المرتجفة، وأضافت: «أنا سأتكلّم باسمها. سمعنا من القائد هنوتي أنه يشكّ في أبوته لتانوا، لكنه يلتزم بها. وهذا يشرّفه. بيد أني وابني الملك نشاركه ظنّه. حتى وإن كنا غير قادرين على تقديم دليل قطعي، إلا إذا وفّره لنا الأرباب، فقد توصلنا إلى القناعة بأن أبا تانوا ليس هنوتي، بل هو شخص آخر!».

نظر هنوتي وتانوا إلى الملكة الأم تادوهِپا بدهشة. عمَ تتكلّم يا ترى؟

«اسمعوا هذا السر الرهيب، ثم أوصدوا عليه أبواب قلوبكم إلى الأبد. تهمة زنا المحارم لا تنطبق على كالي وهنوتي، فالتقاؤهما كان نتيجة خطأ مرعب. يجب على الكهنة مراجعة شروط الطقس، كي لا يقع خطأ مماثل في المستقبل. لن يسمح في المستقبل باشتراك إخوة وأخوات في قرعة الشعيرة!». أخذت الملكة الأم نفَساً عميقاً، ثم تابعت بصوتها الواضح الصافي: «كان ابني البكر يعشق أخته زيپلانتوي حبّاً يستحقّ اللعن، وهي صديقة كالي الحميمة. كان مأخوذاً بهذا العشق، بحيث أنه فقد السيطرة على نفسه، رغم أنها لم تُكِنّ له أكثر من المحبةِ الأخوية، إلى أن كانت تلك الليلة المروّعة. تسلّل وليّ العهد، حينذاك، إلى غرفة الفتيات. ربما لم يتجاوز الأمر في البداية حدود اللعب من وجهة نظره، وربما تجاوبت معه الفتاتان في البداية أيضاً. لكن اللعب تحول إلى جدٍّ مرّ. عندما دخل عليهم شوپيلوليوما مصادفة، كان تودهاليا لحظتها يضاجع كالي التي حاولت الدفاع عن نفسها، دون جدوى. زيپلانتوي كانت تجلس مرتجفة في إحدى الزوايا. في صباح اليوم التالي شنقت نفسها!».

بدا واضحاً أن الملكة الأم تجد صعوبة في متابعة الكلام.

«بجهد كبير تمكنّا من منع كالي من الإقدام على فعل مشابه، فتصبح بذلك هي المذنبة. بعد وقت قصير جداً سمعنا أنها ستسافر إلى كيزواتنا لتتزوج هناك، فارتحنا جداً لهذا الحل. وحينذاك لم نكن نعرف شيئاً عن اللقاء التعس بينها وبين هنوتي. كان «عيد العجلة» قد أقيم قبل ذلك بقليل. كما أننا لم ندرِ بحمل كالي إلا لاحقاً. ولكن كان واضحاً لنا أننا لا يمكن أن نستبعد أبوة تودهاليا. وقد قُدِّم الدليل عليها اليوم بعدما سمعنا قول

هنوتي. شوبيلوليوما وأنا اتفقنا آنذاك على التزام الصمت. قدّمنا كثيراً من قرابين الغفران للأرباب آملين الصفح.. بعد أن صار زوجي العزيز بوفاته ربّاً، وبناء على وصيّته، اعتلى بكره تودهاليا العرش.. بيد أن السنين والذنوب لم تطهّره، ولربما ابتلاه الأرباب بشهوته الخاطئة، مَنذا الذي يعلم؟!.. وإذا به يمدّ يديه نحو هتي، زوجة أخيه الأصغر!».

تيبّست ملامح وجه شوبيلوليوما، لكن محيط فمه كان يشي بمدى ألمه.

سكتت الملكة الأم. خطت نحو كالي، التي غطّت وجهها بيديها وقد دهمتها الذكرى. ربّتت بحنان على رأسها وهمهمت: «يا لغموض أساليب الأرباب!». ثم التفتت إلى الملك وقالت: «أنت قادر يا بني على منح هؤلاء الثلاثة الغفران، فهم بلا ذنب. حرِّرهم من أعبائهم. أما تانوا فضُمّه إلى العائلة المالكة!».

**

«أتفهمين معنى هذا؟».

بعد عيد الخريف مباشرة انطلق تانوا لزيارة كيا في لوازّنتيا، وأخبرها بكل ما جرى.

«صرت قادراً على التحرك بحرية، ولم أعد أخشى أن أُجر للعقاب، وكذلك الأمر بالنسبة إلى هنوتي وأمي. بالنسبة إليها جاء الغفران متأخراً جداً للأسف. إنها امرأة محطمة الآن، عذّبت نفسها طوال سنوات بحادثتين مرعبتين. إني مدين لإحيّا باحترام كبير، لتعايشه مع مأساتها والقبول بها».

أمسك تانوا بيدي كيا وأنهضها عن كرسيها بمجون وقال: «في المستقبل، عندما أعود إلى البيت يمكنك أن تستقبليني قائلة: «أهلاً بالأمير تانوا». سيعاملونني كابن أخ الملك، وقد بتُّ واحداً من الحلقة الصغرى في العائلة الملكية. أليس هذا كله لا يُصدَّق؟! ما عدت أفهم الدنيا، لكنني سعيد، كما لم أكن في حياتي كلها!». وأخذ يراقصها ببهجة وحماسة عبر الغرفة، إلى أن سقطا متعبَين على مقعد.

« وكيف سنجد حلاً لنا، يا أميري الحبيب؟». سألته كيا بعد فترة «لقد فكّرت في الأمر طويلاً، ولم أتوصّل إلى مخرج. ولكن لا يمكن أن تكون أنت في حتّوشا وأنا هنا في الجنوب. سيودي بي هذا إلى الشيب والعجز والموت».

تركها تانوا تتخبّط بقلق، وعقد ما بين حاجبيه كمن يمعن التفكير. لكنه لم يتحمل

الوضع طويلاً، وانفجر ضاحكاً بانطلاق ساحباً معه كيا من استغراقها. وبنظرة واحدة إلى وجهه أدركت أن حيلته قد جازت عليها، فانهالت عليه بقبضتيها.

«أنت تعرف شيئاً، أيها الغول المهول، ولا تريد أن تخبرني. لديك فكرة حل وتتركني أقنط إلى جانبك!».

«إني أستسلم! منذ الآن يجب علينا أن يكون سلوكنا في غاية اللياقة، يا حبيبتي. لقد نُقلت. الملك جعلني نائبه في كيزواتنا. أليست هذه معجزة جديدة؟ منذ أن عيّن تليبينو حاكماً على حلبا، بقي المنصب هنا شاغراً، ينتظر قدومي. سأعود إلى وطني، إلى مقر الحكم في أدانيا في أعلى مرتبة. أرجو أن يرضيكِ هذا!». وقال الجملة الأخيرة ممازحاً، ما استدعى هجوماً جديداً بقبضتي كيا وهي تقول بأنه سيستمر إلى الأبد في ممازحتها على هذا النحو، من نصب الفخاخ لها، وأنها تستحقّ ذلك، ولكن من حقّها الدفاع عن نفسها في وجه مثل هذه التطاولات.

«وكيف ستهرّبني إلى المقر؟ يمكنني أن أتنكر كل يوم بشكل مختلف، كعجوز مثلاً، أتذكر؟».

«في هذا الدور كنتِ رائعة! ولكن بجدٍّ الآن: هذه المشكلة لم أحلّها بعد. على كل حال ستقيمين أيضاً في أدانيا أو بقربها جداً، هذا مؤكّد يا ملمادا. ومن المقرّ سأمرّ إليك دائماً عبر نفق سرّي. لا، لندع المزاح جانباً، سنجد حلاً. ألم أحاول دائماً أن أفي بوعودي؟».

**

بشاشة تانوا الطارئة لفتت الأنظار. وكان أول مَن مازحه بشأنها، صديقاه مورسيلي وميتا، اللذين طلبهما تانوا لحرسه في أدانيا. فعلّق مورسيلي قائلاً: «لو لم أكن أعرف الطنجرة وغطاءها لقلت إن صاحب السموّ مغرم!». فوكزه ميتا قائلاً: «يا لك من دابّة! ألم تسمع أن الملكة ماتت بحمّى النفاس؟».

«طبعاً، أعرف ذلك. ولكن لربما انتهت بذلك حكايته القديمة، وصار قلبه حرّاً أخيراً. دعني أقل لك ميتا، إن إبهام قدمي اليسرى يرتجف، وهذا يعني: إنه مغرم. أليس في وجهك عينان، يا مغفّل؟ هل سبق أن رأيت زعيمنا الرصين المكتئب يمشي على السحاب كالآن؟ صدقني يا عزيزي، الأمر لا يرتبط فقط بالمنصب الجديد وبهواء الوطن العليل وبأطايب كيزواتنا! بل يرتبط أكثر من ذلك بتسريحة شعر جميلة وعينين جميلتين وذراعين ناعمين

وأم م م»، ورسم في الهواء شكلاً يتناسب مع وصفه «وبطن ممتلئ قليلاً مع الوزن المضاد في المؤخرة، وإلى ما هنالك. وبشرفي، إنه يستحقّها. حان وقته يا رجل، وإلا فإنه سيسقط بين أيدينا مريضاً!».

«قد تكون قريبته آنّا من حتّوشا»، خمّن ميتا.

«أتراها في أي مكان هنا؟ أتكون أنت مَن حوّلَك جمالها، يا زير النساء العجوز. فلننتظر، وسرعان ما سنعرف اسم هذا الترياق».

لو سمعهم تانوا يتكلمون، لابتسم ابتسامة رضا، لا شك. ولكن بأسرع مما توقع، شغلته وشغلت المملكة هموم ثقيلة.

فنشاطات أكيزي التحريضية بعد موت كيا، بقيت خافية عن الحثّيين، الذين ما عادوا يولون قطنا أي اهتمام، وهذا إهمال كانت له عواقبه. فلاحقاً اتُّهم تليپينو، في المقام الأول، بهذا الإهمال، لا سيّما وأنه يحكم حلپا، أي أنه على أبواب قطنا. وكان من المحتمل ألا تصل أخبار التحركات الخطيرة في الزاوية الجنوبية الشرقية، إلى حتّوشا حتى أواسط الشتاء، بل ولمدة أطول من ذلك، لو لم يتكلم سفير آشور أمام الحاكم الحثي في إيشُوا، الذي بلّغ بسرعة وشخصياً ملكه العظيم في حتّوشا. وبأقصى سرعة استدعيَ نوّابُ الملك والمسؤولون الآخرون من المناطق المعنية إلى حتّوشا قبل موسم العواصف الشتائية الخطيرة.

**

لم يجرؤ تانوا على إرسال ساعٍ إلى لوازنتيا، ليخبر ملمادا برحلته الطارئة. انتظر وصول تليپينو إلى أدانيا، ثم انطلقا معاً دون تأخير نحو العاصمة. التأمت مجموعة صغيرة هناك للتشاور في المستجدات. وقد ارتأت القيادة تضييق حلقة المطّلعين على الأمر ما أمكن. فإضافة إلى الملك تشكّلت المجموعة من وليّ العهد ونائب الملك في حلپا، وحكام كيزواتنا وإيشوا، وأهمّ القادة العسكريين وسفيرَي شؤون الجنوب والجنوب الشرقي ومدير إدارة شؤون الدولة.

«كيف استطاع هذا النكرة أن يحرّض الساحل السوري كله، إضافة إلى ميتاني وآشور، دون أن نعرف شيئاً، على الإطلاق! المحرج والمزعج هو أن نسمع من الآشوريين،

المنافقين المتعطّشين إلى السلطة، عما يجري على مرأى من أعيننا»، هدر شوبيلوليوما في وجه ابنه تليبنو. ولم يسمح له بالدفاع عن نفسه، فالمهم الآن وبسرعة، هو التوصل إلى احتمالات حلول للصراع القادم، أما استقصاء أسبابه فيمكن أن ينتظر.

«هل نعرف ما الذي دفع الملك أكيزي إلى ترك الخط السياسي الذي انتهجه منذ سنوات طويلة؟». سأل وليّ العهد أرنُواندا وأضاف: «فقد كان دائماً صاحب موقف صريح ضد سوريا مستقلة، ومتعاطفاً تعاطفاً لافتاً مع مصر، إلى حدّ أنه فرض أخته على الفرعون زوجةً، رغم تحالفه معنا آنذاك».

«حسب معلوماتنا، ينطلق أكيزي من كون نوفرتيتي قد أوعزت بقتل أخته، لتأخذ ابنها، وليّ العهد وتزعمه لنفسها»، أجاب نانينزي، خليفة تانوا، السفير للجنوب.

«حسناً، قد يفسّر هذا سبب انصرافه عن مصر. ولكن ماذا عنا نحن؟».

انتظر هنوتي وتانوا جواب الملك. هل سيكشف أنه مذنب في ابتزاز كيا مقابل حياة تانوا؟ وفي الوقت نفسه استرق تانوا نظراتٍ مراقبة نحو نانينزي، الذي لم يفضح وجهه أي شيء.

«لربما أخطأت أنا أيضاً»، قال الملك بصوت خافت يشوبه شيء من الاستسلام. فنظر الجميع مندهشين إلى ملكهم، الذي تابع: «لنقل إنني لم أحصل بأسلوب نظيف على سرّ الأرجوان، الذي شهر قطنا وجعلها ثرية. وقد عرف الملك أكيزي بالأمر، للأسف!».

وفي خضمّ الأصوات المتعالية والمختلطة، تدخّل الملك فوراً قائلاً: «اهدؤوا يا أصدقائي. هذا لا يساعدنا في شيء، ويكفيكم علماً به. ولكن لا بدّ أن الملك أكيزي يعرف أيضاً أننا غير قادرين على استخراج اللون والاستفادة منه. لذلك أعتقد أنه قد أصيب أيضاً بالتعطّش للسلطة. كما أنه، حسبما نعرف، يميل إلى ردود أفعال مبالغ فيها ومتسرّعة. لذلك يجب أخذها على محمل الجد، ولا سيّما في اتحاده مع الحكام الذين لم يخفوا مطلقاً حنينهم إلى سلطان سوريا القديمة، الذي لا يعرفونه إلا سماعاً. توشراتا سيتحمّس للأمر، ومريدوه في ميتاني كثيرون جداً. أما من يصعب تقييم موقفه، فهو (آشور أوباليت)، ملك آشور، لأن مطلبه أولاً وآخراً هو السلطان. إنه جاهز للتحالف مع الجميع، إذا كان في ذلك فائدة له. لذلك يجب أن نحذر منه. وحسبما أخبرنا نانينزي، فقد تلقى الفرعون قبل مدة قصيرة رسالة من أخيه الآشوري، وإخناتون قبِل به في مجموعة الكبار. مثلما فعل سابقاً مع صهره البابلي بورنا بورياش وخليفته (كرا حرداش). حسناً، ربما لم يكن أمامه

مخرج آخر، المسكين! ولكن، أن يعلمنا الآشوري بأفعال أكيزي التحريضية، يعني شيئاً واحداً، وهو تذكيرنا بحصّته من كعكة ميتاني، التي لن تكون صغيرة! لو رجع الأمر له لكان نهر بوراتو هو الحدود بيننا مستقبلاً. لا يهمّني أبداً أن أعرف مضمون جوابه لأكيزي. فلا شك في أنه قد أكد له مطلق الدعم. وسيحاول أن يبيعنا هذه الحركة على رقعة سياسة المنطقة باعتبارها عبقرية، توهم السوري الأحمق بالأمان».

عندئذٍ بادر إلى الكلام زيدا شقيق الملك: «حسب عرضك للأمر، يا شمسي، يتضح أن هناك الكثير من ممالك المدن وحكامها المرتبطين بالنزاع، بحيث تعجز الوسائل الدبلوماسية عن تحقيق شيء. يجب أن نُغلّب المواجهة. وعلينا في المقام الأول أن نثبّت سلطتنا في شمالي سوريا، بحيث لا نتعرّض كل سنة للخطر مجدّداً. هذا يعني تحويل ميتاني بصورة نهائية إلى حلقة موالية في سلسلة البلدان التابعة لنا. وهذا يعني بالنسبة لي: إزالة توشراتا ومريديه. وهذا يسري أيضاً على قطنا، بؤرة الاضطرابات. لا بدّ من تلقينهم درساً لا ينسى!».

«في تقديري، ما زال الأمر بيد الملك أكيزي ليتراجع عما حاكه خفية»، علّق تانوا.

نظر إليه نانيزي نظرة استخفاف ثم قال: «وددتُ ألا أعارض وجهة نظر الحاكم تانوا المحترم، بيد أن الأحوال في قطنا قد تغيرت إلى حد كبير. وهل يمكن تصورُ حاكمٍ يحلم بذروة السلطة، ثم يتراجع عن طموحه معترفاً بأنه قد أخطأ في تقدير الوضع؟».

معظم الحضور وافقوه الرأي.

«يمكن طبعاً، إذا كان حاكماً واعياً بمسؤوليته وبعيد النظر ويفكّر برعيّته»، قال تانوا في محاولة للتأثير في رأي الحاضرين.

«لا مانع عندي أن تحاول مع أكيزي مرة أخرى»، قال الملك وتساءل: «أليس هذا ما تريد أن تصل إليه تانوا؟ ولكن دعني أقول لك، إني أنا أيضاً متشكّك، فيما إذا كنت ستتمكن من التأثير في موقفه. وهذه ستكون آخر مهلة لك وله، ليكن هذا واضحاً. فإن لم يرتدع وبأسرع ما يمكن، مع تقديم براهين واضحة، فسنحشد قواتنا في كيزواتنا في أقرب وقت ممكن من الربيع القادم للقضاء على توشراتا. وخلال ذلك سيقوم تليبينو مدعوماً بجزء من قواتنا بتمهيد الطريق أمامنا إلى قطنا».

**

عاد تانوا إلى أدانيا مباشرة دونما تأخير. رتّب هناك جميع الأمور المهمّة، بعد أن أعلم أركان حربه بوجوب تجهيز كل الضروريات كي تتمكن القوات من التحرك من أدانيا في الربيع من دون معوقات. جزء من القوات سيركب البحر من ترشا إلى سومورا لدعم هجوم تليپينو على قطنا. كان هناك ما لا بدّ من التفكير فيه وتدبّره، فكلّف تانوا بذلك قادة التخطيط العسكري. وبعد أيام قليلة رحل إلى قطنا. منح نفسه مع كيا ليلة واحدة، وناقش الوضع معها، فقد أراد الوصول إلى قطنا في أسرع وقت ممكن.

في الفجر، قبيل الوداع، طلب من كيا أن تعطيه شيئاً يخصّها وحدها، دون أي مجال للشك. فأعطته بصمت ختمها الملكي المصري الذي أنقذته أمينابة مع أشياء صغيرة أخرى.

**

«أتجرؤ حقاً على الظهور ثانية أمامي؟ كيف أصف هذا، أهو غباء أم جسارة؟ ماذا تريد؟».

لم يسبق أن استُقبل تانوا في قطنا بمثل هذا البرود.

«يا مليكي!». قال «جئتك بصفتي صديقك كي أحذّرك. ما تخطّط له لا يدلّ على ذكاء. ثم إنك تراهن على حلفاء مزيّفين!».

«وهل سأراهن عليك أنت، أيها الخائن؟ منذ البداية لم يكن يهمّك سوى الغنى والنفوذ! وبكل مهارة تسلّلت إلى عائلتنا وإلى قلوبنا، إلى أن اطمأنّنا جميعنا إليك. ماذا عرضت على أختي المسكينة، أم يُفضّل أن أقول، بماذا أجبرتها، فلم تجد لنفسها مخرجاً سوى أن تفشي لك سرّ الأرجوان؟ لا تحكِ لي، فلا أريد أن أعرف. دفعتها دفعاً للذهاب إلى مصر، وأنت تعرف مسبقاً بأنك تدفعها إلى حتفها. واحدة من ضحايا نفاقك الكثر. ألم يكن منتظراً أن نوفرتيتي لن تسمح بصعود زوجة ملكية ثانية! لكنني سأنتقم لكيا! وأنت لن تقف في طريقي. لقد استمعت إلى كلامك أكثر مما ينبغي!».

حاول تانوا أن يفهم شيئاً من كيل التهم الغاضبة، وفي الوقت نفسه تصاعد غضبه.

«لو أنك أصغيت إلي من حين لآخر، لوفّرت على نفسك والآخرين الكثير! وها أنت ذا على وشك أن تضيّع كل شيء! قل لي، ماذا ستفعل في مواجهة قوات حتّوشا المندفعة نحوك؟ هل ستواجهها ببدو الصحراء السورية وأمورو؟ ألا تدرك أن نوفرتيتي قد رمت

العبء عليك؟ لا حاجة لمصر إلى أن تحرّك أصبعاً! وماذا تتوقع من توشراتا؟ هل هو الحاكم في واشوكاني؟ لا. ومن آشور أوباليت؟ هذا الذي لا شغل له الآن سوى أن يضحك من وراء ظهرك!».

امتقع وجه أكيزي وقال: «يا لك من كاذب. أنت تختلق هذا كله. فأنت سيد الماكرين. يقولون إن ملكك قد أجزل لك العطاء فأغناك، لخدماتك المتفانية المخلصة في سبيل المملكة وعيّنك حاكماً على كيزواتنا. وبما أنك قد اقتربت منا إلى حدّ ملامستنا، فلا أظنّنا سنتوقّع منك الخير لنا هنا!».

«أكيزي، أرجوك، أتوسل إليك، فكر بعقل!».

«بعقل! أهذا هو بلسمك الشافي لكل شيء؟ كيا أرسلناها إلى إخناتون، بعقلانية، وأبرمنا اتفاقية تجارية مع حتّوشا، بعقلانية. لقد شبعت من عقلانيتك حتى التخمة. وهي لن تعيد كيا إلى الحياة!».

قام تانوا بمحاولته الأخيرة. فتناول ختم كيا وأراه للملك قائلاً بصوت خافت: «إنها حية! لكنها في مكان سرّي كي تنجو من انتقام نوفرتيتي!».

ألقى أكيزي نظرة على الختم، ثم نظر إلى تانوا عابساً مكفهراً وقال: «أنت لا ترتدع عن شيء، أليس كذلك، ولا حتى أمام حرمة الموت. أي إنسان أنت؟ كيف خُدعت بك إلى هذا الحد؟».

يئس تانوا من كل هذا العناد، فقال: «دعني أقول لك إذاً من أجل صداقتنا القديمة: ما عدتُ قادراً على فعل أي شيء من أجلك. فليرحم الأرباب قطنا. تسلّح جيداً!».

«وأنا أقول لك: اغرب من وجهي»، فحّ أكيزي «لولا الأيام السعيدة الماضية لأمرت بشنقك مثل أي كلب أجرب. وأخبر ملكك بالتالي: 'لقد تحالفنا معك كأناس أحرار، وها نحن ننقض الحلف الآن'!».

**

بنفس ممرورة توقّف تانوا ثانية في لوازنتيا. أعاد الختم إلى كيا قائلاً: «لم أستطع التأثير فيه بأي طريقة. لا حدود لكرهه لي، ولا أعرف لذلك سبباً. إنه مقتنع بأني قد أجبرتك على كشف سرّ أرجوانكم، وبسبب الجشع. تصوري! حتى بعد أن كسرتُ كلمتي وكشفت

له أنك حيّة، شتمني واتهمني بأني لا أتورع عن اللجوء إلى أية حيلة، كيا! إنْ لم يرتدع أكيزي، ويبدو أنه لن يرتدع، لا سيّما بعد الرسالة التي كلفني تبليغها لملكنا، أتعرفين ما الذي سيحدث؟».

أومأت كيا برأسها وقالت: «لقد فعلتَ ما بوسعك يا حبيبي. أنت تعرف عناد أكيزي ونقطة ضعفه في الإصغاء إلى ناصحين مرائين، أو في اتخاذ قرارات خاطئة دون استشارة أحد. وكم سبّب هذا من الكرب لأبي. أثناء غيابك فكّرت فيما إذا كان من المفيد أن أسافر إلى قطنا؟ لن يسع أكيزي نفيَ أني حية. ولكن هل أنا سببه الوحيد لاختيار سبيل الحرب؟ ثم إن ظهوري في قطنا سيستدعي تدخل نوفرتيتي، فيضيع كل شيء». فقال تانوا :«لا، بناء على الوضع القائم، لا يمكننا كلانا أن نفعل شيئاً. لو أن الملك أكيزي وحده المعني في الصراع! لكنّ قطنا كلها ستصاب معه. مدينتك كيا، بلدك! لا يعقل أن نكون عاجزين عن منع ذلك. لا بدّ من أن نُمعن التفكير ونتوسل إلى الأرباب. لا يجوز أن تقع هذه الحرب!».

«نعم» همست كيا «لا يجوز أن تقع. ماذا سيحدث لأمي ولإهلي نيكالو والأولاد وشالا والكاهنات والكهنة الآخرين. ولكواري وبقية الإخوة والأقارب والصديقات؟ ألا يمكننا على الأقل أن نحذّرهم؟».

هز تانوا رأسه نافياً. هل قرّر الأرباب دمار قطنا؟ فكّرت كيا بحلمها المرعب، الذي لم يعاودها منذ إقامتها في مصر. وقد أمِلت حينذاك، أن يكون القدر غيَّر مجراه. أما الآن فيبدو الأمر أشدّ تهديداً وخطراً من أي وقت مضى. وقفا هناك متعانقين متشبّثين أحدهما بالآخر ككائنين بشريّين عاجزين ومنكودين.

**

في غمار التوقعات الكارثية باتت أوقات الفراق أشدّ وطأة على كيا وتانوا. كانا يتعذّبان، ولكن لم تطلع في بال أي منهما فكرة منيرة. وأدانيا كانت المكان المعقول الوحيد لحياةٍ مشتركة. فالمدينة تتيح لكيا إمكانية السكن على نحو متكتّم لا يلفت الأنظار. وما فاجأ الجميع هو أنّ مَن وجد الحل كان إحيّا، وعمل بنفسه على تحقيقه.

كان إحيا واحداً من قلةٍ قليلة في مملكة حتّوشا، عدا زوجته كالي وتانوا، ممن يعرفون بعلاقة الحب بين تانوا وكيا. فقد كانت له اليد الطولى في نجاح تهريب كيا من السفينة، بالاشتراك طبعاً مع إشبالي الطيب، وفي إقناع مصر بأن كيا قد ماتت في ألاشيا. وتانوا

من جهته، حمايةً لإحيّا وكالي من هجمات الجواسيس، لم يخبر إحيا بمكان إقامة كيا ولا باسمها الجديد. صحيح أن الأشقياء الذين كانوا آنذاك وراء كيا وأمينابة قد اختفوا، وكذلك اللذين اعتقلا منهم، ولم يعودوا للظهور مجدداً، لكن هذا ليس ضمانة أمان.

لقد تابع إحيا بدقة تحوّل نفسية تانوا منذ وصول السيدة الشابة. وليس هذا فحسب، بل فكر بعمق بوسيلة لمساعدة الحبيبين، وتوصل أخيراً إلى خطة. اشترى في أدانيا داراً جميلة تطل على نهر سامرا، محاطة بسور عال حول حديقة غنية بالأشجار والنباتات، حيث يمكن الاستمتاع بغروب الشمس بعيداً عن الأنظار. فأوعز بتجهيزها وفرشها بكل ما هو ضروري لحياة مريحة. واختار لخدمتها مجموعة من الموثوقات والموثوقين من عائلات خدمت في داره منذ ثلاثة أجيال.

بعد رجوع تانوا من قطنا مباشرة، طلب إحيا لقاء ربيبه، فوجده في مزاج مكتئب جداً، وعلى طاولته أكوام من الرُّقم الطينية وأوراق البردي والرقوق. تبادلا التحيات بحب ظاهر.

«مشغول جداً، هم..؟». علّق إحيا «من المستحسن أن يتوفر لك أيضاً شيء من التغيير المفيد، هم..؟». وضحك ضحكته المجلجلة وهو يربّت على كرشه.

إذا كانت الزيارة في حد ذاتها قد حيّرت تانوا، فإنه لم يجد تفسيراً لمرح إحيا وانبساطه. إلا أن إحيا لم يطل عليه، فبادر إلى الموضوع قائلاً، إنه خلال آخر رحلاته إلى أوغاريت، وفي دار أحد عملائه في التجارة، من كبار القوم هناك، والاسم لا يغيّر في الأمر شيئاً، لفت نظره بمحض المصادفة وجود فتاة يرثى لحالها. وتبيّن له بعد تقصي الموضوع، أن الفتاة هي إحدى بنات التاجر، وقد ابتليت قبل سنوات بمرض لعين، لكن برئت منه كلياً، سوى أن وجهها قد تشوّه، بحيث لا يمكن تزويجها. فصارت عبئاً ثقيلاً على أبيها، يجلب النحس ولا يرضي الأرباب، حسبما قيل له. ولم ينقذها من النبذ والطرد سوى توسّلات أمها.

«والآن، أسألك تانوا، ألا يجب مساعدة هذه الإنسانة المسكينة؟ هل تستحق هذه الصبية أن يعاملها أبوها بهذه الصورة؟».

لم يستوعب تانوا في خضمّ انهماكه في زحمة العمل، لماذا يروي له أبوه الربوب هذه الحكايات العادية، لكنه فجأة أدرك القصد، في الختام، عندما أخبره إحيا بأمر الدار الجديدة، فلم تعد تسعه الدنيا من الفرح. ولكن كان لا بدّ من أن يمسك نفسه، كي لا

تفضحه سعادته أمام الخدم والموظفين والحرس بشكل يسترعي الانتباه. وبلهجة موضوعية ما أمكن سأل إحيا: «ماذا تنتظر مني في هذه المسألة؟».

«أعتقد أن من الممكن أن يعرض المرء على أبيها شراءها منه، تحريره من عبثها. وبإذنك، سأقوم أنا بكل شيء. فإذا زوّدتني بالتصريحات الضرورية والمذيّلة بالأختام، فسأحضرها بسرعة إلى أدانيا، وأشرف هنا على شؤونها. طبعاً لن يمكنها الظهور أمام الناس إلا محجّبة، لكنها ستعيش هنا حياة لائقة كريمة، كحد أدنى!».

«إن طلبك يا سيد إحيا الترشي يشرّفك إلى أبعد الحدود. أتريد حقاً أن تتحمّل عناء السفر الآن؟ جزء كبير من الخريف بات وراءنا!».

«ما دام الطقس جيداً، فإن عظامي لا تؤلمني، لحسن الحظ. كل يوم تأخير من قبلنا، يطيل عذاب المسكينة. لا، لا، إذا وجب، فإني أفضّل أن أنهي الأمر فوراً!».

هكذا كان إحيا! لم يسبق لتانوا في حياته أن كان سعيداً، كما الآن، بهمّة ونشاط أبيه الربوب، التي لطالما عذّبته فيما مضى.

قبيل الانقلاب الشتوي كانت مَلْمادا الأوغاريتية المنكودة الحظ قد وجدت في أدانيا مسكناً جديداً جميلاً لائقاً وقريباً جداً من دار راعيها ومنقذها إحيا، التي تقع أيضاً على النهر. وكانت بأعلى صوت شاكرة لقدرها الرحيم. خلال الفترة الأولى كانت كالي إلى جانبها، ما أمكنها ذلك، لتسهِّل عليها التأقلم مع الوضع الجديد. وقبل أن يعود الزوجان إحيا وكالي إلى ترشا، دعت ملمادا العائلة كلها إلى دارها لتحتفل بتدشين مقامها الجديد بمأدبة. كانت جميع الغرف مزينة بأزهار أواخر الخريف وبأغصان عاطرة. وبكل هدوء، في عزلة عن الضيوف مد تانوا وكيا أيديهما واحدهما للآخر، ووعدا كل منهما الآخر أن يمضيا عبر الحياة معاً منذ الآن، «كيفما تجلّت هذه الحياة!». أضافت كيا ضاحكة.

ذاعت حكاية ملْمادا المشوّهة بسرعة طبعاً في أدانيا، وذاع معها أنها تمتلك يدين شافيتين، وأنها ضالعة في العلم. وتدريجياً ازداد زوار دارها، وخاصة من النساء اللواتي امتدحن مهارتها في التوليد. خصّصت بعض الغرف في القسم الأمامي لعملها. وبعد مدة أخذت تدرب بعض المساعدات من معبد المدينة وبموافقة كهانه. ولم تحجم قط عن مساعدة البسطاء الذين يطرقون بابها. وهكذا انتشرت سمعتها، وباتت موضع محبة وتقدير واحترام. أما وجهها فلم يره أحد قط.

«هل أنت غاضب مني تالزو؟». سألت عندما أعدّت أولى مراهمها، لأن إحدى

خادماتها كانت بحاجة إليها، وأردفت: «لا يمكنني أن أجلس هنا عاطلة، ولا شغل لي سوى انتظارك».

«على النقيض يا حبيبتي، إني فخور بك. إلا أني أتساءل، كيف سيفسّر الناس بطنك المنفوخ، والذي من المؤكد أن انتفاخه سيتكرر؟!».

قال تانوا ذلك بكل بساطة. لكن عيني كيا اغرورقتا بالدموع.

«هل تعتقد أن الربة ستمنحنا طفلاً؟ في المرتين السابقتين..». وغار صوت كيا.

«بل أنا متأكد من ذلك!».

كان جيداً أن كيا قد وجدت في الطب ما يسلوها عن هموم قطنا وعن فترات الانتظار الطويلة وحدها، فقد انهمك تانوا في عمله بكل تفانٍ. والتحضيرات للحملة العسكرية استغرقت كل انتباهه. كان لا بدّ من توفير المؤونة لكل هذه الحشود، وتأمين السفن لنقل الجنود من ميناء ترشا، وصناعة الأسلحة.

انقضى الشتاء بسرعة، وما زال تانوا يأمل بمعجزة أن يعود أكيزي إلى رشده. كما أرسل له سراً رسالة يناشده فيها ذلك، رغم ما في هذا الفعل من عدم وفاء تجاه ملكه. وبقيت الرسالة بلا جواب.

وبدلاً من ذلك كانت تصل من تليبينو بشكل منتظم تقارير، يتابع تانوا إرسالها إلى حتّوشا. وحالما أتاح الربيع إمكانية استخدام الطرق والدروب، امتلأ سهل كيزواتنا بالجنود. بالتحالف مع آشور في الشرق استعدّ الحثيون المسلحون جيداً للهجوم على ميتاني لضرب توشراتا وأتباعه.

بحضور الملك العظيم شوبيلوليوما، أحضر تمثال الربة شاوشْغا من معبد لوازنتيا إلى الحقل، حيث غُسل ومُسّح وأُلبس رداءً خمري اللون، كي تساند الملك في حربه. وأقسم لها الجنود أن يكونوا شجعاناً في النضال من أجل القضية الحثيّة. وفي حال حنثوا بقسمهم فستبتليهم الربة بالمرض والموت انتقاماً لإهانتها. ثم تحرّك الجيش باتجاه الجنوب الشرقي.

في الوقت نفسه أقلعت السفن من ترشا، حاملة جنود المشاة والعربات القتالية إلى سومورا. لقد حسب الخبراء العسكريون بدقة، متى يجب أن ينطلقوا من سومورا ليصلوا في الوقت نفسه مع تليبينو، نائب الملك الحثي المتجه بسرعة نحو الجنوب بمشاته وعرباته القتالية، كي يبدأ المعركة ويحقق التأثير الأكبر.

أما تانوا فكان يفكر مكروباً بأكيزي وجميع أصدقائه في قطنا. ترى هل هيؤوا أنفسهم لهذه الضربة؟

**

لا، لم يكونوا مهيئين. صحيح أن أكيزي قد أرسل رجال استطلاعه نحو الشمال، لمراقبة التحركات العسكرية هناك، إلا أنه لم يعرف شيئاً إطلاقاً عن الهجوم عليه من جهتين. فالسهل الممتد من قطنا إلى الساحل بقيت حراسته عادية كالسابق.

في قطنا نفسها كانت التحضيرات كافة قد انتهت في وقتها. في السهل عسْكَر عدد لا بأس به من المقاتلين، ولكن دون وجود أية وحدات عسكرية أخرى. أرسل أكيزي سعاته إلى عزيرا الأموري، وحذّره من التقدم السريع المخيف للحتيين، وحضّه على تحريك قواته فوراً. كما أرسل إلى نوحاسّة، زِنجار، تونيپ، نيّا، أوغُلْزات، بازْغا وإلى شيوخ البدو في البادية، مذكّراً إياهم بموافقتهم على الإسهام في القتال في إطار الحلف، وأمل بخبر شافٍ من توشراتا من ميتاني، ولم يصله أيّ ردّ.

لكن فارساً وحيداً ظهر عند بوابة المدينة الغربية. كان نانيتزي، سفير شوبيلوليوما الحتي.

«أتأتيني بعرض السلام من ملكك؟». قال الملك لنانيتزي عندما أدخله الحرس إلى قاعة الاستقبال الصغيرة في القصر.

فاجأب نانيتزي، مهملاً سخرية الملك: «لا، بالتأكيد لا. بل يرسل إليك على لساني تحذيراً أخيراً. قوات تليبينو لم تصل بعد إلى بوابات مدينتك، لكن أيام قطنا باتت معدودة، إن لم تقدّم أنت الطاعة بأسرع ما يمكن، وتتوسل السلام. وهذه النصيحة قد تسمعها من حلفائك المزعومين».

ماذا يتخيل هذا القزم؟ ينفخ نفسه عبر وظيفته المهمّة. وما الذي يعرفه عن حلفائه؟ تصاعد الغضب داخل أكيزي وكاد يفقد زمام السيطرة على نفسه. لكنه لن يكشف نقطة ضعفه أمام رسول.

«انصرف من المدينة!». قال الملك وغادر قاعة الاستقبال.

وانصرف نانيتزي، لكنه لم يغادر المدينة.

في اليوم التالي اكفهرّت السماء الشمالية من تصاعد غبار الحتّيين المتقدّمين.

هجمت القوات الحثيّة بقيادة تليبينو من جهة الشمال في الصباح الباكر، بعرباتها القتالية السريعة. ومن ورائها تقدمت وحدات المشاة المؤلفة من: رماة السهام، حملة الرماح، حملة الحراب والسيوف. حسب القطنيون هذا الحساب فاتخذوا التشكيل المناسب في الوقت المناسب، يتقدمهم أكيزي في عربته في الصف الأول. سرعان ما التحم الطرفان وحمي وطيس المعركة. لم يطل الوقت، قبل الظهيرة، عندما أخبر منادِ الملكَ بأن ثمة جيشاً آخر يتقدم من الشرق. أخيراً! تنفس أكيزي الصعداء. يبدو أن عزيرا قد غيّر رأيه. صحيح أنه قد تأخر، لكن الأوان لم يفت بعد. إذا أنجدتهم قوات أمورو، فسيتمكنون من حسم هذا اليوم لصالحهم. ومن ثم سيهيّئ المرء نفسه للآتي. فحمّس أكيزي رجاله هاتفاً: «النجدة تقترب!». هذا التوقع شحن الجميع بالشجاعة. غير أن هذه الشجاعة انقلبت إلى ارتياع جلي عندما تبيّن أن من ينهبون الأرض إليهم ليسوا الأموريين، بل جيش حثيٌّ ثانٍ، وعلى رأسه القائد لوپاكي الشهير بدمويته.

يا لي من مجنون! فكر أكيزي بمرارة. لقد حذّرني تالزو وكرّر تحذيره. لماذا لم يفكر بإمكانية قدوم الأعداء من جهة البحر. لا جدوى من الاستمرار. ولكي لا يخسر جميع المقاتلين، لا بدّ من الانسحاب سريعاً وإعادة التجمع. لم تعد ثمة حاجة لإطلاق إشارة الانسحاب، لأن القوات الحثيّة المتحدة لاحقت القطنيين عبر نهر أرانتو (العاصي). ولم يبقَ في ساحة المعركة سوى قلة من المشاة المشتبكين مع العدو. ومن لم يتمكن من النجاة بنفسه سقط قتيلاً. والمعسكر وخيام التموين، كل هذا كان لا بدّ من تركه ليبقى لقمة سائغة للحثيين. ولم يعد هناك من مهرب إلا إلى داخل المدينة، إلى التمترس في حماية الأسوار.

«افتحوا البوابة!».

بسرعة امتلأت المدينة الغربية، في المنطقة ما بين القصر ومعبد الربة، بالعربات القتالية المنسحبة. وكثير منها التف حول الأسوار باتجاه الشرق حتى سفح الهضبة، على أمل أن لا يطاردهم العدو بعد. وفعلاً، عند الأسوار الغربية المتينة وبوابة المدينة المنيعة توقف الحثيون، وعادوا أدراجهم نحو السهل قبل أن يهطل عليهم وابل سهام القطنيين. وقبيل أن تبلغ الشمس قبّة السماء كان اليوم الأول من المعركة قد انتهى. وأخذ القطنيون من وراء الأسوار يراقبون الحثّيين وهم ينصبون خيام معسكرهم في السهل. أما ما حدث للقتلى والجرحى الكثيرين في أرض المعركة فلم يتبيّنه أحد.

أقصى درجات اليقظة باتت الآن ضرورة. أمر أكيزي بتوزيع الحرس على نحو دائم على جهات السور الأربع وعلى الأبراج، لمراقبة تسلّل بعض الحثّيين، أو للإعلان عن قدوم نجدة غير منتظرة إما من الجنوب أو من الشرق. أما الطرق نحو الشمال والغرب فقد قُطعت.

دهِم أكيزي شعور قوي بالاستسلام للأقدار. فمن المستحيل الصمود في وجه هذه القوة العسكرية المحتشدة على الجانب الآخر من نهر أرانتو قبالة البوابة الغربية، على الرغم من الأسلحة الكثيرة وعديد المقاتلين الذين جمعتهم قطنا. ومن دون نجدة من الحلفاء القريبين أو البعيدين، ستضيع قطنا، وسيكون من العبث التضحية بأرواح الناس. كم كان محقّاً تالزو، الصديق الصدوق الوحيد! لماذا لم يصغِ إليه؟ لماذا لم يصغ لنفسه في المقام الأول ولم يبقَ وفيّاً لنهجه السياسي القديم؟ هل هو الانتقام لكيا.. ربما. لكن ما أراده بالدرجة الأولى هو أن يرضي غروره. وماذا إذاً، في حال كان تالزو حتى في هذه النقطة محقاً، وكيا لا تزال حية؟ عندئذٍ لن يكون هناك تعبير كافٍ لوصف شدة غبائه. على ما يذكر، قالت إحدى العائدات من الخدمة عند كيا في مصر، إن البحث جار في آخِت آتون عن جثمان كيا! أفكار لا طائل منها، ومتأخرة.

أيتوسّل هدنة؟ يا للسخرية، فقوة عظمى مثل حتّوشا لا تفاوض من أجل هدنة. إذا كان لا بد، فعلى قطنا أن تستسلم، ودون شروط. هذا ما قاله نانينزي بكل جلاء. أيدعو مجلس الشيوخ لاجتماع؟ فالاستسلام يجب أن يقرروه معاً. يا للمذلّة! بعد نصف يوم من القتال، اكتفت قطنا الثرية تباهياً وأعلنت استسلامها. سيموتون ضحكاً في البلاطات المجاورة. يا لهم من كلابٍ جُرب! كلهم تخلّوا عنه. كيف أمِل بالاعتماد على حقراءٍ مثل عزيرا؟

ما الذي سيحدث لقطنا إنْ استمروا في القتال وخسروا؟ هل سيرحم المتصرون المدينة؟ ماذا سيحدث له هو، إنْ نجا من المعركة؟ وماذا سيحدث لعائلته. كان معروفاً تماماً، كيف تصرّف المتصرون مع الملوك المعادين العصاة وذويهم. أرحم أنواع العقوبات كانت الشد إلى النير. لا بدّ فوراً من اتخاذ إجراءات الحماية. كانت العشيرة في أثناء المعركة قد لجأت إلى القصر، إضافة إلى من يعيش هناك أساساً، فأوعز الملك باستدعائهم جميعهم: زوجته إهلي نيكالو والأولاد الستة؛ أكبرهم في السادسة عشرة وأصغرهم ما زال يرضع؛ أربعة صبيان وفتاتان. امرأتاه الجانبيتان مع أولادهما، أقرباء زوجته الرئيسية، إخوة الملك وعائلاتهم، الأعمام والأخوال والعمات والخالات الأحياء

من طرف والديه، أبناء وبنات الأعمام والأخوال، فاحتشد عدد كبير حقاً، فخاطبهم قائلاً: «الوضع للأسف جدّيّ وخطير، لا أريد أن أخفي هذا عنكم ولا يجوز لي ذلك. لا أجرؤ على الأمل بالصمود طويلاً أمام الحتّيين، من دون نجدة. ولكن بإمكاننا أن نحتمي داخل الأسوار ونتركهم ليحاصرونا. ولكن إلى متى؟».

حدّق أكيزي في وجوه الأحباء الحزينة. لم يتصور أن المعركة ضد الحتّيين ستكون بهذه الصورة! رأى نفسه بطلاً لامعاً ومنتصراً، فإذا به يضطرّ للبحث عن ملجأ لأسرته من العار والموت.

«هنا في القصر يوجد مكان آمن، يوفّر لكم الحماية، إذا وصلت الأمور إلى أسوأ حال. إنه مقبرتنا. قلّةٌ فقط هم الذين يعرفون طريقة فتح الباب السري. سنخزّن فيها كثيراً من المواد الغذائية، والماء كذلك إلى الأسفل، بحيث ستتمكن بسهولة من تحمّل بعض الأيام. أنا أعتبر إجراءات الحيطة ضرورية جداً. فانتبهوا في المقام الأول إلى لجوء النساء والأطفال إلى مقبرتنا. والآن دعونا نقدّم القرابين لأسلافنا، ونضع مدينتنا بين يدي الربة بيليت إكالّيم والأرباب كافة!».

بعد ذلك اجتمع الملك مع كبار ممثلي المجلس وقادة الجيش ليتشاور معهم في الخطوة القادمة. واتّفق على محاولة خوض معركة غداً بالعربات القتالية، حسبما سيكون عليه حال الغد، على أمل وصول القوات الحليفة المعلن عنها. ووجّهت النصيحة لسكان المدينة بتجهيز أنفسهم ما أمكن لحالة حصار.

صعد الملك وحده عبر الدَرج السري إلى سطح القصر. وفي الليل المدلهمّ بسرعة، تلألأت نيران مخيم العدو. ما الذي يضمرونه يا ترى؟ هل سينتظرون صابرين إلى أن يخرج القطنيون من حمى أسوارهم للالتحام في معركة؟

كان الرجال جميعهم في أماكنهم، والمقاتلون مستعدّين، متربّصين في كل مكان متاح. حتى في القصر الملكي امتلأت القاعات الكبرى الثلاث بالمقاتلين المستلقين مؤقتاً وأيديهم على أسلحتهم، بانتظار انبلاج الصبح.

لم يكن الفجر قد لاح بعد عندما اصطخبت المدينة فجأة، وثمة مشاعل أخذت تتحرك كالأشباح في الليل على مسافة غير بعيدة من البوابة الغربية. امتزج الصراخ المروّع عند البوابة بصيحات الإنذار من الجهة الداخلية. وكل من كان قرب البوابة أو في محيطها من

الداخل شهر سلاحه وهجم على ضوء بعض المشاعل نحو البوابة للدفاع عنها. وجاءت النجدة من الحي الغربي في المدينة السفلى، فقد سُمع الصياح وشوهدت المشاعل قادمة من هناك. في القصر نهض الرجال مثقلين بالنعاس. لم يكن واضحاً ما الذي جرى أو يجري. وفجأة، من جانبي القصر الغربي والجنوبي، اندفع رجال وراء بعضهم بلا توقف وهم يصيحون.

«الحتيون في المدينة. إنهم في كل مكان، يندفعون داخلين من البوابة الغربية. نانينزي الحتيّ وأزلام تيرو الخائن فتحوا لهم البوابة. دافعوا عن حياتكم!».

حلّت فوضى عارمة، وصرخ البعض: «أشعلوا المزيد من المشاعل!». وصاح آخرون: «يجب أن نوصد أبواب القصر فوراً!».

تراكض الجميع هنا وهناك كالمجانين. حاول قادة المجموعات تنظيم رجالهم، ولكن سدى. تدفّق الأعداء ووقعت المعركة، المجزرة، وجهاً لوجه، والعدو مهيمن.

قعقعة السلاح تُسمع من قاعة الاستقبال الكبيرة فقط، فاندفع الرجال من القاعتين الأخريين نحو البوابة الكبرى التي تفصلها عن قاعة العرش وقاعة الاستقبال الصغيرة، لنجدة الرفاق هناك ولإنقاذ أنفسهم. وبسرعة كبيرة أغلقت بوابات القصر الأخرى وأرتجت. ومن تمكّن هرب إلى الخارج، ليكون هناك هدفاً لرمح حتيّ.

أمضت العائلة الملكية ليلتها في مخادعها في الجناح الغربي، حيث توجد أيضاً المطابخ وأقبية المؤونة، أو في الغرف المجاورة لبئر القصر الكبيرة. التقوا جميعهم فزعين في قاعة الاستقبال الصغيرة. وتولّت إهلي نيكالو وحدها الإشراف. وبصوت هادئ أوعزت بتعليماتها ليصطفّوا في رتل ثنائي، في المقدمة الأطفال مع مرضعاتهم ثم البقية. كان على كل منهم أن يحمل شيئاً: غطاءً، بساطاً، مأكولات أو قربة ماء. وأخيراً وصل أولئك غير القادرين بعد على المشي. خطت عبر الردهة إلى قاعة المكتب، أشارت لخادمين تقدّما بصمت وأفرغا الرفّ الكبير. وراءه كان الباب السرّي مركّباً في الجدار. وبحركات واثقة شغّلت إهلي نيكالو الآلية، فانفتح الباب الثقيل مفسحاً الطريق إلى الأعماق المنقذة. تقدم الرتل حاملاً مشاعل لنشر النور في الممر. قام الخدم بمساعدة الأطفال على نزول الدرجات، وكذلك فعلت إهلي نيكالو، وائتمنت بكرها أمّوت پان على أولادها. كان قد مرّ بطقس الأسرار منذ مدة، وكان يعرف الطريق، فتمكّن من مساعدة الأطفال الخائفين

من عبور الأبواب المختلفة والنزول بهم على السلالم إلى العمق. طفلاً وراء طفل نزلوا أو أُنزلوا إلى ردهة المقبرة.

كان الأخيرون في الأعلى قد تجاوزوا الباب، وأحضر الخدم سلالاً، وضعوا فيها كل ما طالت أيديهم في هذه العجالة من مأكولات، فيما قام آخرون بإنزالها إلى القاع. كما اهتموا بنقل ما يكفي من الماء. لكن الطريق إلى بئر القصر كان طويلاً. وأخيراً أعطت إهلي نيكالو الإشارة لإغلاق الباب. عانقت الخدم المخلصين وضغطت على أيديهم بحبّ ثم اختفت في العتمة. وفيما كانت المجزرة المتبادلة على قدم وساق في قاعات القصر الأخرى وفي المدينة كلها، كان أفراد العائلة الملكية قد لجؤوا إلى حمى أسلافهم، وقد ابتلعتهم الأرض. لا ينقص منهم سوى الملك.

تحرّك الباب إلى وضعيته السابقة، فاختفى مدخل المقبرة. أثناء ذلك كان ضجيج المعركة يقترب أكثر فأكثر. بسرعة البرق هرب الخدم والعبيد إلى جناح المطابخ. ولمّا لم يعد هناك مهرب إلى خارج القصر، لسقوطه في أيدي الحثّيين، تراجعوا إلى مستودعات المؤونة وإلى حفرة البئر، في انتظار مصائرهم.

وأخيراً عندما انبلج الصباح ثم أشرقت الشمس مرسلة أشعتها عبر الأفق، بدت المدينة أشبه ما تكون بمعسكر، أما القصر الملكي فمثل قبرٍ عملاقٍ فريد في نوعه. القتلى والمحتضرون في عناق مرعب. من فوق الجثث البائسة كان الجنود الحثيون ينقلون من القصر كل ما له قيمة. كان القصر قيد النهب والسلب من أعلى طابق إلى الأقبية. لقد اكتشفوا مؤونة المواد الغذائية ومخزن البضائع الملكية ومستودعات المواد الخام، فلم يتركوا شيئاً. حتى الأقمشة الثمينة على الجدران انتُزعت ولُفّت ونقلت. وحُطِّم ما لا يمكن نقله. أما البشر، ومعظمهم من الخدم والعبيد، فقد سيقوا من مخابئهم وحُملوا مع النفائس على العربات التي غادرت قطنا. وبالدقة نفسها كما في القصر الملكي، فرّغت دار البلد العزيزة في الحي الشمالي من المدينة السفلى. بعد سقوط المدينة أخذت العربات المتتالية تنقل ثروة قطنا إلى سومورا، وتفرغها في السفن هناك.

حلّ الصمت على المدينة. بين الحين والآخر كانت تُسمع صيحات أوامر. قام جزء من الحثّيين بتمشيط المدينة على نحو منتظم وئيد، بدءاً من الأكواخ البائسة إلى القصور، ولم ينجُ حتى الحي الشمالي النتن المحظور من نبشهم. فكانوا يعتقلون الرجال ويسوقونهم إلى البوابة الغربية، حيث يحشدونهم معاً تحت حراسة مشددة. لكنهم لم

يلمسوا النساء والأطفال، وكذلك المعابد وطواقمها من الكهنة والخدم. كان الجنود الحتيون ينفّذون الأوامر بكل دقة ونظام. أما سكان المدينة الصامتون فزعاً، فكانوا يتابعون هذه الإجراءات، متوقّعين في أية لحظة انفجار العاصفة ثانية وعودة التخريب والتدمير إلى ما كانا عليه. ولكن لا شيء من هذا حدث، إلا في القصر الملكي. حتى حيّ الحرفيّين نجا من ذلك.

عندما لم يعد هناك ما يؤخذ بعدُ من القصر، وبعد أن سكتت آخر صرخات المحتضرين، أوعز تليبينو بتوزيع الحطب والأغصان الجافة والفحم وكل ما يحترق في جميع غرف القصر، طابقاً فطابقاً. ثم صُبّ فوق الأكوام زيت وقطران وشحم وراتينج، وأوقدت. هبّت الريح عبر الأبواب والنوافذ، حاملة معها النار بسرعة عبر جميع المخادع والغرف والأركان. وعندما تصاعدت ألسنة النيران وصارت مرئية من بُعد، انكسر جمود البشر وامتزج عويل الريح مع ندب الناجين اليائسين. لم يترك الحتيون قطنا إلا بعد أن التهمت النيران القصر الملكي، إلى درجة أن كانت الأحجار تتشقّق وتنفجر من شدة الحرارة، وإلى أن تساقط قطعة قطعة. دفن القصر تحته ما لا يحصى من الجثث التي شويت في دروعها الجلدية وتشوّهت كلياً. امتلأت السماء بأدخنة متصاعدة، وفاحت المدينة بروائح الموت والتعفن.

لقد تحقّقت رؤيا كيا.

لم يعد ثمة مجال للتفكير بإطفاء الحريق. وجهد الجميع، نساءً وأطفالاً وعجائز ومرضى وكاهنات وكهّان لمنع انتقال النار إلى ما حولها. وكان بيت الربة هو الأشد تعرضاً للخطر، في موقعه جنوب القصر المتأجّج مباشرة. فأيّ لفحة ريح من الشمال يمكن أن تنقل الشرار إليه. أوعزت شالا بتحضير أقمشة مغرّقة بالماء وتوزيعها على السطح وفي الباحة وعند النوافذ. وفي حال وقوع الحريق كان الجميع يعرفون إلى أين يلتجئون للحماية، وبضمنهم أم كيا، إيست التي أقامت في بيت الربة بعد موت الملكة بلتّوم.

في أثناء ذلك أقيمت أمام بوابة المدينة محكمة ميدانية. وعلى سبيل الردع، ومن دون أي رحمة أمر تليبينو بقتل عدد من الأسرى. والأقوى ممّن تبقّى منهم أمرهم بالاهتمام بجثث القتلى التي ما زالت في ساحة المعركة. أما جرحى الحتّيين فقد نقلهم رفاقهم إلى الخيام، حيث تمت معالجتهم، في حين أن جميع الجرحى القطنيين المرميين بين الجثث، قد تلقّوا طعنات الرحمة.

لم يُعثر على أثر لملك قطنا بين الأموات ولا بين الأحياء. والعائلة الملكية كلها اختفت. إلى أين تمكّنت من الهرب؟ كل المنافذ كانت مسدودة. أرسل تليپينو قادة جيشه (نوانزا) و(كورونتا) و(غَسّو) وبعض رجالهم مجدداً إلى المدينة الحبلى بالأدخنة. كما افتُقِد نانينزي الذي تمكّن ليلاً مع أتباعه المخلصين من السيطرة على البوابة ثم فتحها، ومنذئذ لم يره أحد. إذاً لا بدّ من أن يكون بعد في المدينة.

أمر تليپينو رجاله بالبحث عنه، سواء في الدار التي كان تانوا يشغلها أثناء مهماته الدبلوماسية في قطنا، أو في قصر الشيخ تيرو، الذي ما زال تحت الإقامة الجبرية. فعثروا عليهما في قصر تيرو، حيث واجهوا مشهداً فظيعاً قاسياً، اضطرّهم، وهم المحاربون العتاة، أن يلتفتوا عنه وهم يقاومون الشعور بالغثيان.

في غرفة قبو تشبه السجن أقام الشيخ المشحون بالحقد تيرو، مع أخيه في الميول نانينزي، حفلة تعذيب إجرامية. لم يكن بمقدور أحد لاحقاً أن يسمّي الربَ الذي أسعده هذا القربان. لا، لم يكن قرباناً، بل عملية قتل. كان على أكيزي ملك قطنا أن يكفّر تحت تعذيب مروّع، مربوطاً إلى كرسي واطئ، دون أية إمكانية للنجاة، أن يكفّر عن العار الذي لم ينسه خاله تيرو قط، والذي لحق بالعائلة نتيجة إخفاق أبيه في واجبه كملك، ما جعل مجلس المدينة يسحب منه منصب الملكية. وإعطاء أخته بلتوم زوجة للملك الجديد إيداندا بقي بالنسبة إليها امتهاناً وسخرية. لقد دمروا حياته جزءاً فجزءاً، وفي مقدمتهم صهره وسلالته. وها هو ينتقم لنفسه الآن.

جزءاً فجزءاً سحبَ الحياةَ من أكيزي، بعون نصيره نانينزي. وحقدُ نانينزي على أكيزي لا تفسير له، فهو لم يكن موجهاً ضد الملك تحديداً، بل إنه تعبير عن نفسٍ مريضة مشحونة بالحقد على الجميع الذين أذلّوه باعتباره نكرة ابن نكرة. ألم يهزأ به الملك أكيزي حتى اللحظة الأخيرة ويأسف لأن قواقع الأرجوان، التي حملها معه حتى حتّوشا، لم تفترسه على الطريق، وأن نتانة آلاف القواقع الميتة لا توازي نتانة نانينزي الوحشية، بل إن الأخيرة تفوقها. وضحكُ الملكِ وهو يقول ذلك كلَّفه حياته. لم يكن تيرو راضياً عن تسرّع نانينزي في إنهاء حياة أكيزي، فقد كان يودّه لو يطول عذابه حتى يسمعه وهو يطلب الرحمة.

بانزعاج شديد ساق نوانزا وكورونتا نانينزي إلى المعسكر الحتي، بعد أن مرّا بالمعبد وطلبا كاهناً كي يقوم على دفن بقايا الملك ويؤدي على القبر الشعائر اللائقة الضرورية، كي يطهّر المكان من الدنس الذي لحق به. أما غَسو فبقي لحراسة الشيخ تيرو.

بسرعة الريح انتشر في المدينة خبر القتل المشين للملك أكيزي بيدَي خاله. وبدلاً من انفلات الناس بالندب هيمن عليهم ارتياع قاتل. لا ريب في أن الربة قد تخلّت عن مدينتها! شيئاً فشيئاً تزايد عدد النساء أمام قصر تيرو، صامتات ذاهلات. اقتحم عدد منهن القصر، ثم ارتفع عددهن. دفعن غسّو ورجاله الحثّيين إلى الطريق. وكان هؤلاء في غاية الارتياح لخلاصهم من الرعب الآتي، فتظاهروا بالنجاة من النسوة دون شعور بالخجل، تاركين تيرو وحده مع الحشد.

**

على الرغم من شعور تليبينو بفظاعة ما فعله نانينزي، قرّر استجوابه. أين وكيف قبض على الملك؟ لماذا لم يحضره إلى تليبينو حسبما يملي عليه واجبه؟ غير أن كل ما توصل إليه منه، هو أن ملك قطنا يستحق الميتة التي لاقاها. وأن مملكة حتّوشا يجب أن تفخر بخادمها المخلص نانينزي. فهو وحده الذي كسر شوكة المتمرد. وأن على اللابارنا أن يرقّيه إلى مصافّ الكبار، ويمنحه إقطاعات ويزوّجه.

كان واضحاً أن العفاريت قد ركبته وصار مجنوناً. ومع ذلك وبحذر استفسر منه تليبينو عن العائلة الملكية، وارتاح لسماعه أن نانينزي لا يعرف عنها شيئاً، لكنها كانت بالتأكيد في القصر، فلقد رأى الملكة البدينة ومعها الفتى وليّ العهد. فليتركوه يعود إلى المدينة كي لا تفلت العائلة الملكية من عقابها العادل. أوعز تليبينو بتقييد نانينزي، ثم وُضع في عربة ذات قضبان تحت حراسة مشددة.

سُئل أسرى الحرب عن المكان المحتمل لوجود العائلة المالكة، ولكن بلا جدوى. كان الجميع يظن أنها على الأرجح في القصر. إلا أنها لم تكن هناك، وهذا يعرفه تليبينو، فقد فُتّشت جميع الأمكنة فيه. حتى أن الجنود قد صعدوا إلى السطح من مخدع الملك في جناحه الخاص. لم تبق زاوية في القصر خافية عليهم.

أخيراً أرسل تليبينو مجموعة مرافقةٍ إلى المدينة ملتمساً حضور كبيرة الكاهنات إليه. فإن لم تكن العائلة المالكة في القصر، ولا في أحد قصور الأعيان أو في أحقر كوخ في المدينة، فلم يتبقّ سوى المعابد، التي تصرفوا حيالها باحترام، فلم تفتّش بناء على تعليمات شوبيلوليوما. لقد أمر بتسوية القصر الملكي بالأرض، وأن تصادر نفائس المدينة كافة، تعويضاً عن كلفة الحملة العسكرية. وأن توهَن المدينة وتُضعَف بحيث لا تستطيع استعادة

مجدها القديم أبداً. وفيما عدا ذلك فلتستمرّ الحياة في المدينة، لتعيش مستقبلاً بسلام في نطاق حلف المملكة. ولهذا وجب على تليبينو أن يؤكد على الطاعة والانضباط في نطاق جنوده وضباطه، بحيث لا تقع عمليات نهب خاصة ولا اغتصابات ولا تدنيس للمقدسات. ولا بدّ في المقام الأول من الحفاظ على الأرباب، إذ إن تماثيلهم ستحتلّ مكاناً محترماً في حتّوشا. وسيُحتفل بأعيادهم بانتظام وتؤدى شعائر عبادتهم مع سائر الأرباب، ولن ينقصهم شيء. لكن هذا الاحترام والتوقير الذي تقابل به حتّوشا أرباب قطنا يتطلب ما يقابله.

استقبل تليبينو الكاهنة الكبرى شالا في خيمته. دخلت عليه شخصية وقورة مُهابة ذات شعر أشيب. ورغم عمرها المتقدم وقفت مستقيمة الظهر قبالته -هو المنتصر- بهدوء، ونظرت إليه بعينين ذكيتين ورازّته من دون خجل، إلى أن ابتعد تليبيو بنظره عنها. وبعد تبادل عبارات المجاملة طرق الموضوع مباشرة. إنه لا يبغي أبداً تعكير سلام المعابد، ولكن لا بدّ من وجود العائلة الملكية في مكان ما. أم أن الكاهنة الكبرى تتصور إمكانية هروب هذا العدد الكبير من الأشخاص؟ وإذا كان جوابها بنعم، فمتى هربوا وكيف وإلى أين؟

أنصتت شالا إلى تليبينو ثم قالت بصوت ثابت: «أقسم بكل مقدساتي أن المعبد لا يؤوي من العشيرة الملكية أحداً، سوى الزوجة الثانية لملكنا السابق، إلا إذا كان هذا الشخص، ذكراً أم أنثى، أحد أفراد المعبد في بيوت الأرباب في المدينة». وتابعت قائلة إن التفسير الوحيد في تصورها هو احتمال وجود العائلة بكاملها بين الجثث التي لا يحصى عددها في القصر الملكي. «لقد أفنيت العائلة الملكية، مثلما تنبأت به الربة قبل وقت طويل».

تولّد لدى تليبينو الانطباع بأنها ترتعد تأثراً بتحقّق النبوءة الإلهية. صدّقها وتركها تذهب. وودّعها بكل آيات الاحترام.

انسحب الجيش الحثّي بعد تسوية جميع المسائل، ومنها أن يختار القطنيون ملكاً جديداً من صفوفهم. وسُمح لغالبية أسرى الحرب بالبقاء في قطنا للمساهمة في أشغال رفع الأنقاض، وجمع ما تبقّى من الحصاد، والاستمرار في أعمالهم المعتادة.

لمدة من الزمن شكلت حملة معاقبة قطنا خاتمةً لأعمال التمرّد في منطقة الساحل

السوري. فقد ارتدع جميع الحكام السوريين، كما تم توطيد السلام في ميتاني. وقبيل عيد الخريف انتهت المفاوضات بين حتّوشا ومصر إلى إرضاء الطرفين، ومجدّداً رُسمت الحدود في سوريا بين القوتين العظميين.

**

«هل كنت على علم بالأمر؟». سألت كيا تالزو، عندما أخبرها، بما أمكن من رفق، القصة المؤسية التي نقلها إليه أحد مراسلي تلييينو في مقر الحاكم. بداية، فرحت بسماعها أن شالا والكاهنات وأمها قد نجون من المعركة في بيت الربة، وأن الدمار والهلاك لم يصب سوى القصر الملكي.

«ماذا تقصدين بالتحديد؟».

«أن تفاصيل تنفيذ الحرب سيعتمد على خيانة. هذا ما أقصده. أم تُراك تسمي الهجوم ليلاً وفتح البوابة عن طريق الخيانة وذبح من يقف في وجهك، حرباً شريفة؟ لم أكن أدري أن حتّوشا العظيمة بحاجة إلى اتّباع هذا الأسلوب لضمّ مدن مهزومة أساساً. هذا عمل آثم، أقول لك».

نكّس تانوا رأسه. ماذا بوسعه أن يجيب على ذلك؟ أن الحصار لا معنى له لجميع الأطراف؟ أنه كان لا بدّ من ضرب مثال رادع للآخرين؟ أن الهدف كان ضرب المسبب الرئيسي ومعاملة الآخرين برفق ما أمكن؟ على الأقل كان بمقدوره أن يؤكّد لها بصدق، أنه لم يشارك في التخطيط للهجوم الليلي، وأنه لم يعرف شيئاً من أعمال نانينزي الشنيعة والمريضة، ولا عن انتقام تيرو المروّع. لقد أبعدوه عن معركة قطنا كلياً. وهذا بالتأكيد بفضل هنوتي، إن لم يكن بفضل الملك نفسه. وتذكّر، برعب، الحملة الأولى ضد قطنا.

سرح كل منهما مع أفكاره. وحتى استوعبت كيا الحدث في أبعاده الكاملة، استغرق الأمر وقتاً غير قصير. ومن شدّة الألم غطّت رأسها. هكذا إذاً تحققت رؤياها التي رافقتها منذ أيام الطفولة.

ترى هل كان ممكناً تفاديها، لو تصرّف الملك على نحو مختلف، أم أن الأرباب قد كتبوا في كتاب القدر بشكل لا محيد عنه، ما كان يجب أن يحدث؟ كم مرة عاودت التفكير في الأمر. للحظات شاهدت الصور المرعبة، وتراءى لها أنها تتنفّس رائحة الجثث المتفحّمة ببطء، وتحسّ بحرارة النار، وتسمع آخر صرخات الألم. ولكن ليس بالأحمر

الدموي كالسابق، بل بالرمادي والأسود عادت هذه الصور لتطفو في ذاكرتها. فكانت ترتعد هلعاً بين الآونة والأخرى، لكنها لم تستطع أن تبكي.

«ولا أحد يعرف شيئاً عن العائلة الملكية؟». عاودت تكرار السؤال. فهز تانوا رأسه وقال: «كان تليبينو يشكّ في أنها قد اختبأت في المعابد، لكن الكاهنة الكبرى أقسمت أنهم فقدوا حياتهم في القصر المحترق. أتظنّين أنها قد أقسمت كذباً؟».

تذكّرت كيا حكم الرب، الذي نجا أكيزي من اختباره بسلام، والتكتّم على معلومات مرتبطة بمقتل الملك إيداندا. إنْ كان في ذلك مصلحة قطنا، فشالا كانت تذهب بعيداً. لقد أدركت كيا ذلك منذ زمن بعيد. كان يُفترض عندها أن لا خيار آخر أمامها. ولكن في هذه الحال؟ إخفاؤها هي عن العالم، وهي شخصٍ واحد لا غير، كان أمراً عسيراً، فكيف ستنجح العملية بوجود أطفال وعجائز وعشيرة بأكملها؟

«لا»، قالت كيا «أعتقد أنها قالت الحقيقة».

اكتفى تانوا بجوابها، وبقلب مثقل ترك كيا وحدها بضع ساعات ليقوم بمهام عمله.

انسحبت كيا إلى محرابها المنزلي وأخذت ترتّل الصلوات لأرواح الموتى والناجين. ثم استلقت وحاولت أن تنام، لكن الأفكار لم تتركها لتهدأ. لم يسبق لها في رؤياها قط أن رأت العائلة المالكة، بل كانت ترى جثثاً بلا أسماء. كان بوسعها أن تفهم عقاب الأرباب لأكيزي، رغم مرور سنوات طوال، بل كانت تأمل أحياناً، فيما مضى، أن يرسل الأرباب إشارة، ليبيّنوا عبرها أن البشر لا يمكن أن يخدعوهم، لكن هذا الموت المريع؟! أحسّت بإشفاق لا محدود على أخيها. ولكن لماذا ابتلى الأرباب زوجته وأطفاله وإخوته وكل أقربائه بهذا المصير القاسي؟ أليس معقولاً أن يكونوا قد هربوا قبل الهجوم؟ حسب تقرير تالزو، كان الأمر مستحيلاً. اتّفقت أقوال كل من سُئلوا على أن العائلة المالكة قد تنادت إلى القصر واجتمعت هناك. هذا مفهوم، لأن المكان يوفّر لهم الحماية المنشودة.

ثم بدأ القتل في القصر ليلاً. ولكن ألم يكن بوسع ضابط حتّي، أن يتعرّف على بعض أفراد أسرة الملك، من ثيابهم وحدها، ثم يأخذهم رهائن إلى رئيسه تليبيو؟ هل أفلت زمام الأمور تماماً في خضمّ القتل الليلي، بحيث طُعن كل من يتحرك، أكان طفلاً أم رضيعاً أم عجوزاً؟ لماذا غادر الجميع غرفهم، حيث كانوا سيبقون بأمان لفترة أطول؟ هل ليهربوا إلى خارج القصر؟ لكن هذا الطريق كان مسدوداً في وجوههم. وفجأة أدركَ كيا اليقينُ المفزعُ، لقد عرفت إلى أين لجأت العائلة: إلى أسلافها.

جمدت كيا في مكانها، وأخذت تقاوم نفسها، كي لا تصرخ كالمجنونة. إنها الناجية الأخيرة من سلالة إيداندا القطنيّ.

**

لم يسبق قطّ أن احتُفل بعيد الخريف في حتّوشا بمثل انشراح هذه السنة. فالمحصول كان جيداً، والكشكيون في المناطق الشمالية وفي أرض أرزاوا في الغرب كانوا مسالمين. والملكة مالنيغال كانت تتوقع طفلها الثالث، الذي لا شك في أنه سيكون أيضاً بنتاً. لحسن الحظ أنها ستكون مشغولة تماماً بتربية ثلاث بنات، فلن تتمكن من التدخل في كل شيء بتعليقاتها الجارحة. كما مر الشتاء بهدوء، على غير العادة، دون قسوة السنوات الماضية.

وعندما بلغ الخريف نهايته تأكدت كيا من أنها حامل، فلم تسعها الدنيا من السعادة. وفي غمرة فرحها رفعت إلى الربة صلوات ابتهال، كي تترك لها طفل الحب هذا. وكم كان بودها أن تذهب فوراً إلى تانوا لتبشره بالنبأ السعيد الرائع. لكن هذا كان محظوراً عليها كالسابق. لقد عاشا حبهما في السر، وكانت دائماً رهينة انتظار عودة تانوا إليها.

«يحتمل قبل تعادل الليل والنهار في الشتاء القادم أن نكون ثلاثة»، همست لتانوا عندما جاءها مساء، وأضافت: «إني متشوّقة لمعرفة أي نوع من الآباء ستكون!». كم كانت تحبّ ممازحته.

«رائعاً وفريداً في نوعه طبعاً!».

«على كل حال، لن تتمكّن من إفساد طفلك دلالاً، لطول وجودك في البيت، ما دمت مشغولاً دائماً إلى هذا الحد».

كان تانوا يُقدِّر في كيا هذا الأسلوب الراقي. إنها لا تشكو، بل تنبّه بلطف إلى أسفها الشديد لعدم تمكّنهما حتى الآن من أن يعيشا حياة عائلية كزوجين. ويبدو أن هذه الأمنية ما زالت بعيدة المنال. في أثناء المفاوضات مع مصر بصدد رسم الحدود، كان واضحاً أن نوفرتيتي تنطلق من واقعة موت كيا في ألاشيا، لذلك سيكون من العسير جداً إحياؤها فجأة. إلى متى سيبقون مجبرين على الاختباء؟

أسرّ تانوا لصديقيه مورسيلي وميتا بأنه مغرم بملْمادا. كان لا بدّ من ذلك، فهما في نهاية المطاف حارساه الشخصيان. وكان يتصوّر شفقتهما عليه، لكونه، بعد كيا ذات الجمال الأسطوري، قد اختار بشِعةَ أدانيا المشوهة إلى درجةٍ ألا يجوز لأحد أن يرى

وجهها. وكان يتشوّق إلى ذلك اليوم، الذي سينجح فيه أخيراً من إسكات لسان مورسيلي اللاسع كالسوط.

وتدريجياً أخذ يتنامى شعوره بصعوبة إخفاء سعادته عن أحبائه وأعزائه، وأن يتسلّل كلما سنح له الوقت إلى دار كيا وكأنها عشيقة سرية.. وإنْ سارت كل الأمور على ما يرام، فإنه سيضطرّ إلى إنكار علاقته بحبيبته كيا، بل وبطفلهما المشترك أيضاً.. ولكن ماذا تساوي «كل الأمور» مقابل حياة هذين الإنسانين! سلامتهما تأتي في المقام الأول. وعليهما أن يشكرا للأرباب منّة حياتهما المشتركة. ما أسرع ما نسيا هذا! ما أسرع ما يصاب الإنسان بالنهم فيطالب الأرباب بالمزيد والمزيد! عليهما حتماً ألا يبالغا في الطلب. فما أسرع ما تتلاشى السعادة في الهواء!

لكن تانوا لم يقدِّر فضول الناس من حوله حقّ قدره. فبمرور الوقت في مكان مثل أدانيا يستحيل أن يبقى الأمر مخفياً. فما إن انتبه الناس مرّةً، حتى أخذوا يراقبون ويتناقلون الكلام، لا سيّما أن قدَر المسكينة ملْمادا كان يحرّك الأفئدة. لكنها الآن حامل.

ذات يوم دخل هنوتي على تانوا في مقر عمله، ففرح تانوا جداً برؤيته. وبدلاً من الاستقبال الرسمي المألوف قال له وهو يعانقه إنه قد افتقده جداً.

«ألست مشغولاً؟». وجفل تانوا من نفسه قليلاً، فأضاف بسرعة: «أهناك خطب ما؟ كيف العائلة؟ كيف شومّيري؟».

فطمأنه هنوتي قائلاً: «السيدة العجوز في أحسن حال. لا، في حتّوشا كل شيء على ما يرام، إلا..»، ورسم على وجهه تعبيراً يحتمل الكثير من المعاني، «أنت تعرف».

نعم، إنه يعرف: الملكة. فبقدر ما هي جميلة، هي صعبة المراس، وتورّط الملك دائماً في مواقف محرجة. لكنه يحتملها باسترخاء ملوكي. هل كانت أفكاره تسرح نحو هنتي أحياناً يا ترى؟

«عفواً، هل تصغي إلي؟». انتزع هنوتي تانوا من شروده: «كنت أقول إن الأمور في حتّوشا، كلها على ما يرام، ولكن هنا على ما يبدو، لا».

«أليس الملك راضياً عن عملي؟».

«بل أكثر، إذْ لا يمرّ يوم دون أن يزعج مساعديه بالتنويه بنموذجيّتك».

«أنت تبالغ!».

«النقل قليلاً فحسب. لا، الملك والجميع في حتّوشا راضون عن عملك جداً. أنت تتقن عملك. وخبرة السنوات الطويلة تثمر الآن. من كان ذاك الذي أدخلك آنذاك لأول مرة إلى مكتب الملك؟ دعني أتذكر!».

«حسناً، خالي، أنا أعرف أفضالك علي!».

«ولا تنادني، خالي!». قالا معاً وضحكا.

«إذاً، ما سبب مجيئك؟».

جلسا يشربان عصير رمّان بارداً. وأوعز تانوا بألا يزعجهما أحد. وكعادته دخل هنوتي في الموضوع مباشرة.

«وصل إلى سمع الملك أنك قد ارتبطت بامرأة لا تليق بمكانتك». ونظر إلى تانوا بتوقع. لكن هذا صمت، فعلى هنوتي أن يكشف أولاً ما تظن حتّوشا أنها تعرف.

«الملك استفسر مني طبعاً حول الأمر»، تابع هنوتي فوراً: «لكنني لم أكن أعرف شيئاً، غير أني أضفت بأن هذا لا يعقل، لأنك تعرف حق المعرفة أن زواجاً غير متكافئ لا يتماشى مع منصب رفيع. ليس فقط لمعرفتك بداهة، أنك كممثل للملك، يجب أن تكون نموذجياً في سلوكك، وإنما أيضاً لأن الأمر لا يتلاءم مع شخصيتك. لا تُسِئ فهمي، تانوا، فالأمر ليس كالسابق عندما كنتَ بين الحين والآخر تبحث عن متعة عابرة مع مورسيلي وميتا!». وغمزه هنوتي وهو يربّت على كتفه. «لكن ما تتناقله الألسن في حتّوشا يشير إلى رباط ثابت، بل ثابت جداً، وسيُمهر بخلفةٍ أيضاً. فماذا تقول؟ أهو كلام فارغ؟ شائعات؟ حقيقة؟».

«كل ما قلته حتى الآن، تقريباً صحيح».

«تانوا! المسألة في غاية الجد. لقد أجريت استقصاءات. صلاتنا مع نيقْمدّو الأوغاريتي ممتازة، كما تعرف. في أوغاريت لا أحد يعرف أميرة اسمها ملْمادا. لكن هناك قرية جنوب شرقي أوغاريت اسمها ملْمادا. ولم يعثروا على ما يثبت وجود عائلة من الأشراف طردَت إحدى بناتها بسبب تشوّه وجهها».

هذا فعلاً عمل متقن ومؤثر، فكر تانوا، ثم قال: «أرى أسفل التقرير ختم ميتانموا. تحقيق نظيف، خطوة فخطوة، وبكل سرية».

«هذا ليس جواباً، وبالأحرى ليس تفسيراً!».

«هنوتي! أنا شاكر لك قدومك من كل قلبي، فلربما يكون الحل المنقذ عندك! سنكون،

أنا وملمادا في غاية الارتياح، عندما ننتهي من لعبة الاختباء غير اللائقة هذه. تقريباً، كما قلت لك، كل ما ذكرته صحيح. صحيح أنها ليست من أوغاريت. أما تهمة أن السيدة ليست ذات حسب ونسب فهي غير مبررة بالتأكيد. بالعكس. يحتمل أن أكون أنا غير لائق بها تماماً. حتى وإن تحسّن وضعي كثيراً مقارنة بمرحلة يفاعتي». قال الجملة الأخيرة مبتسماً.

«هل ستريحني أخيراً، أكاد أجن!». نفد صبر هنوتي: «ما هذه الحكاية المجنونة؟ بالأحرى: من هي هذه التي امتلكت قلبك؟ بالنسبة لك لم يكن هناك في العالم الواسع كله سوى واحدة، وعلى نحو غير مفهوم».

اقترب تانوا من هنوتي وهمس في أذنه: «وما زال الأمر على حاله!».

نظر هنوتي إلى ابن أخته، كمن ينظر إلى مختلّ عقلياً. ثم أخذ يحلّل ما سمع: «أتريد أن تخبرني أن ثياب ملْمادا تخفي تحتها..».

في اللحظة المناسبة منع تانوا هنوتي من لفظ الاسم، قائلاً: «هيا تعال. لنتمشَّ قليلاً!».

لاحقاً، حكى هنوتي أن تانوا أصرّ على صعود الطريق الجبلي مشياً ثانية. وأنه أثناء كلام تانوا بقي غالباً صامتاً، لكنه كان يهز رأسه باستمرار مستغرباً أو يهمهم بتعليقات من قبيل: «لا بدّ أن الحب جميل!». أو «هذا الشيطان، من أين له ذلك؟!». أو «يا للعجب، يبدو أن العجوز إحيا ينفع في شيء ما!». لكن عقله لم يسعفه بحلّ للمشكلة.

«لا يمكن للإنسان أن يأمن جانب نوفرتيتي»، قال بعد عشاء لذيذ، تعرّف خلاله عن قرب على كيا/ ملْمادا، وأضاف: «أنا من موقعها، أفهم حذرها. باعتبارها ملكة مصر، فهي تتمتع بسلطة واسعة، لكنها معرّضة دائماً للدسائس. وهي تحمل مسؤولية كبيرة. أعتقد أن إخناتون لم يستردّ وعيه بعد، بل هو أسير نفسه وتصوراته. إنه رجل يستحق الرثاء». وتابع مخاطباً كيا: «أما أن لا تحملي في قلبك أيّ حقدٍ، كيا، بعد كل ما عانيته هناك، فهذا يدهشني ويثير إعجابي بك». رفع هنوتي نخبها وأضاف: «لكن التفهّم أمرٌ والحيطة أمر آخر تماماً. لا بدّ من أن تبقيا على حذر. أنا أعتقد أن حتّوشا قادرة جداً على حمايتك، كيا. لكن جميع الأسلحة مثلّمة أمام خداع البشر. تانوا محقّ تماماً في تصرّفه، بإخفائك عن العيون ما أمكن. وهذا العبء سيشارككم فيه بعض الآخرين الآن! في حتّوشا لن يسمع تقريري سوى الخُلّص من المؤتمنين، الذين هم أيضاً سيتحرّقون شوقاً للتعرّف شخصياً على ملْمادا العجيبة. وعليك تحمّل ذلك يا جميلتي!».

بعد مرور سنتين على الموت المأسوي لعائلة قطنا الملكية، مات إخناتون ممروراً ومعزولاً، حتى أن آتون قد تخلّى عنه. وبعد دفنه في المقبرة الملكية في آخِت آتون، كمُن الأمل، لا في مصر وحدها، بل حتى في أدانيا، بتغيّرٍ ما نحو الأفضل. ثم أُعلن اسم الفرعون الجديد: كانت نوفرتيتي هي مَن خلفَ إخناتون على عرش مصر باسم (سِمِنخ كارِيه).. قُبل الأمر على مضض.

غير أن نوفرتيتي/ سمنخ كارِيه ارتكبت غلطة، بإعلانها أن ابنتها البكر مريت آتون، التي رفعها إخناتون إلى رتبة زوجة ملكية، ستكون وريثة العرش، طامحة إلى استمرار السلالة. لكنها أبخست قدر المقاومة المريرة المشتدّة لكهنة آمون في طيبة. كما أن كثيراً من الأعيان والأشراف، ولا سيّما من الشعب، تخلّوا عنها. وبعد أقل من سنة قُتلت المرأتان.

عندما انتشر هذا الخبر بالبريد المستعجل، من كوش جنوباً حتى حتّوشا شمالاً وإلى الشرق والغرب، أُقيم في أدانيا أعظم «عيد للفرحة»، لم ترَ المدينة مثيلاً له. أخيراً، أخيراً صار ممكناً الكشف عن هوية كيا الحقيقية. وهذا الخبر: حقيقة أن ملمادا كانت تخفي وراء حجابها كيا القطنية، ملكة مصر الحبيبة، وطريقة إنقاذها العجيبة، أرسل بالبريد إلى جميع أركان الأرض، ولكن إلى أركان مختارة منها. وأحدها كان قطنا، حيث استقبله كلٌّ من إيست وشالا وآخرين كُثُر بذهولٍ، ثم بفرح.

أما كيا وتانوا فقد استُدعيا إلى حتّوشا على وجه السرعة، حيث دخلت كيا القصر الملكي الكبير واستُقبلت في احتفال رسميّ عظيم. عند الوداع انفرد شوبيلوليوما بتانوا لحديث قصير معه. ثم انصرفا معاً بتكريم.

«ما الجديد المهم؟». سألته كيا على الطريق بأسلوب بدا عابراً ما أمكن، رغم أنها كانت تكبح فضولها بصعوبة. فقد لاحظت بوضوح أن الملك أثناء الحديث قد أومأ نحوها بلفتة سريعة.

«يرى الملك أن علينا بأقصى سرعة ترتيب أمور زواجنا!». جاءها الجواب المقتضب. وعندما لاحظ تانوا قسمات وجهها المتسائلة، ضحك قائلاً: «كيا، حبيبتي، اسمحي لي بتذكيرك بأننا لم نعقد رباط زواج بيننا علناً بعدا وفي مكانتنا هذا لا يجوز. سنجد اللحظة المناسبة لذلك. أما الآن فسأستغلّ طريق العودة وأبذل جهدي في خطب ودّك وقبولك. ما رأيك؟».

خلال الرحلة البهيجة تمكّن تانوا من أن يري كيا كثيراً من المحطات التي لعبت دوراً في حياته. ولكن، عندما وصلوا إلى أدانيا فوجئا بخبر محزن. فبعد سنوات حكم مديدة توفي ملك كيزواتنا المحبوب طاعناً في السن ومن دون وريث للعرش. بعد ضمّ بلده إلى رابطة مملكة حتّوشا، أدار الملك شؤون بلده بما ينسجم مع سياسة حتّوشا، وتابع أداء مهامه الكهنوتية بالاتفاق معها على نحو نموذجي. وقد عمَّ البلدَ حزنٌ عميق لوفاته.

عقب انتهاء الحداد الرسمي اجتمع مجلس كيزواتنا لاختيار ملك جديد. وما أثار الدهشة هو إجماع أعضائه بسرعة على اختيار تانوا لهذا المنصب، فهو الابن الربيب لإحيّا الترشي، الذي حسبما ارتأوا، سيمثل مصالح كيزواتنا على أفضل وجه، رغم منصبه الرسمي كحاكمٍ ملكي ممثّلاً لرابطة مملكة حتّوشا.

مساءً ومباشرة أخبر تانوا كيا بالنبأ الجديد: لقد اجتمع المجلس وأجمع على نحو حاسم على اسم رجل جيد، لكنه ليس من أعيان أدانيا. ولم يضف إلى ذلك شيئاً. أحسّت كيا أن تانوا راضٍ عن الاختيار، فلم تستزد في السؤال. ولكن في صباح اليوم التالي وصل ساعٍ وسلَّم كيا دعوة الملك الجديد، ورجاها باسمه أن تتبعه إلى القصر. ذهِلت كيا.

«لا يمكنكِ يا حبيبتي أن ترفضي مثل هذا العرض!». قال تانوا.

كانت كيا مرتبكة إلى درجة أنها لم تستوعب هذه الملاحظة المنكرة.

«على أية حال، علينا أن نزور الملك الجديد لنتعرّف عليه ونُبارك له»، قال تانوا حاسماً الموقف.

في القصر، رجاهما مسؤول المراسم الانتظار لحظة.

«سأعود فوراً!». قال تانوا. لكن بوّابة قاعة الاستقبال فُتحت قبل أن يعود. تلفّتت كيا حولها بقلق. لا أثر لتانوا. لم يكن بوسعها ترك الملك ينتظر أكثر، بعد أن طلب منها رجل المراسم للمرة الثانية أن تتبعه. اضطرّت أخيراً أن تدخل وحدها. وكادت لا تصدق عينيها: «أنت!؟».

برداء الملك وزينته الرسمية وقف أمامها تانوا، الذي سيتوّج ملكاً على كيزواتنا باسم تالزو.

«نبوءة الربة!». خرّت كيا على ركبتيها بخشوع، قائلة: «وهذه تحققت أيضاً!».

ساعدها تانوا/ تالزو على النهوض. أمسك بيديها ونظر إليها بحبٍّ عميق، وقال: «كيا أميرة قطنا، أتقبلين أن تكوني ملكتي؟».

فأجابت ووجهها يشرق بالسعادة: «سأفكّر بالأمر بعين الرضا يا مليكي. إلا أني أعتقد أن الوضع يبشر بالخير!».

في وقت متأخر من مساء ذلك اليوم تمكّنا من الانسحاب من الحفل البهيج الذي أقيم في القصر، على شرف الملك الجديد.

«ماذا نفعل الآن؟ أنت صاحبة الحق الشرعي للمُلك في قطنا، أو بكرُنا على الأقل. هنا، أنت أيضاً ملكة، ولكن عليك دائماً أن تمشي بفارق خطوة ورائي»، قال تالزو مازحاً، وأردف: «أخشى أن عليك الاختيار ثانية».

«لن أختار بعد الآن؟! في قطنا تصرّف الشعب حسبما يليق بمدينة تجارية مرموقة، رغم أن قصرهم العزيز قد تحوّل إلى رماد. اختاروا الأفضل من صفوفهم ليكون حاكماً جديداً. لكني سأكون سعيدة برؤيتهم جميعهم ثانية، وهذا الآن لحسن الحظ متاح، دون خوف ورعب ويأس. ولك يعود الفضل في ذلك يا حبيبي. كم أنا فخورة بك!».

شردت كيا برهة، مستغرقة في أفكارها.

«بماذا تفكرين؟».

«حلمت بأننا لن نسافر إلى قطنا فحسب، بل بأننا سنلتقي أيضاً بابني توت عنخ آتون. لكن هذا مجرد حلم لا أكثر، وليبق حلماً!».

عندما دخلت كيا في تلك الليلة إلى مخدع نومهما المشترك، وجدت بانتظارها غرفة أجمل من أي حلم، فقد كان المكان أشبه بجنان الفردوس، بإنارة ناعمة تشيعها بعض سُرج الزيت، مضيئة الطريق إلى السرير، الذي كان مفروشاً بالكتان الأبيض الناعم، وقد أخذ يتلألأ في هذه الإنارة المنتشرة والمختلطة بعبق زهور مغوٍ. وكانت الوسائد محاطة بإكليل من الدفلى الحمراء بالتناوب مع الليلك والزعتر. لم يسبق لكيا أن رأت أجمل من سرير العرسان هذا.

آه يا ربتي، يا لها من هدية!

بعد كل أيام التيه واليأس، حين كانت تفكر بالموت أكثر من الحياة، أهدتها الربة أروع

رجل، وباركت حبّها: في سرير صغير مجاور كان ينام صبي ينشر الفرح بخدّيه الورديّين.

«تعالي»، قال لها تانوا «تعالي!».

**

أحد أقرب الناس إلى نوفرتيتي، وهو أبوها أيا، أدرك روح العصر مبكّراً. فتقرّب إلى رجال الكهنوت الأقوياء في طيبة، ونجح، مع إشارته إلى رغبته في تجنّب أي تمرد أو أعمال شغب لا طائل منها، بأن ينصّب تحت إشرافه وأثناء حكمه، حفيده توت عنخ آتون، ابن كيا، التي نسيها الجميع، فرعوناً على مصر العليا والسفلى وعلى بلاد كوش. وأنيطت الشؤون العسكرية بالقائد (حارِنْحَب). وآخر بنات إخناتون ونوفرتيتي، الناجية الوحيدة، (أنخ سِنْبا آتون)، صارت زوجة الطفل توت عنخ آتون الملكية، وهي أخته من أبيه.

تحت ضغط رجال كهنوت طيبة وبتأثير وليّ أمره أيا، غادر توت عنخ آتون بعد بضع سنين مدينة آخِت آتون إلى ممفيس، التي باتت عاصمته الجديدة. كما عاد إلى الدين القديم وأعاد الأرباب الأولين، وسمّى نفسه منذئذ توت عنخ آمون، وزوجته أنخ سنبا آمون. فرضي الشعب.

لفترة محدودة من الزمن ساد السلام في العالم المعروف آنئذ. وذرت رمال الصحراء آثار إخناتون من آخت آتون. إلا أن بعض حبات الرمل من آخت آتون تغلغلت إلى نفس رجل يدعى موسى، فشقّ لنفسه طريقاً وعرة خارجاً من مصر إلى أرض كنعان.

هل انتهت؟

بداية!

خاتمة

تعتمد هذه الرواية على نتائج أعمال التنقيب الدولية في قطْنا (سوريا). في عام 2002 اكتُشف في القصر الملكي هناك مدفن العائلات الملكية. بعيداً عن لصوص المقابر وجشع الآثاريين بقي المدفن وما يحتويه من لُقى ناهزت الألفين، غير ملموس منذ دمار القصر نحو عام 1340 ق. م. يُعد اكتشاف المدفن حدثاً آثارياً مثيراً، لا سيّما على صعيد الكسب العلمي، الذي يجب أن يُذكر في وقتٍ واحد مع اكتشاف قبر توت عنخ آمون وقبور ملوك السكيثيين في جبال آلطاي، ولفائف قمران. إضافة إلى ذلك اعتُمِد على تقارير أعمال تنقيب آثارية في حتّوشا عاصمة الحثّيين (تركيا) وفي آخت آتون/ تل العمارنة (مصر)، مقر حكم إخناتون، الذي أُخرج من تحت الرمال. إن اللقى الآثارية، وفي الدرجة الأولى الكتابات الشرقية القديمة، تقدّم كمّاً هائلاً من المعلومات بأشكال متنوعة: رسائل، كتابات تحمل صبغة سيرة ذاتية، حكايات، كتابات كهنوتية، إلى وثائق عادية من الحياة التجارية مثل (عقود الشراء، فواتير، لوائح طلبيات). وهذه كلها تشكل القاعدة التاريخية لهذه الرواية. وهناك مصادر أولية صحيحة مثل نصوص الصلوات، ومقاطع من نشيد شمس إخناتون، وابتهالات وأدعية حثية، ورسائل - ولا سيّما من ذخيرة تل العمارنة الشهيرة -، وتقارير وكتابات أخرى، وجدت طريقها مترجمة إلى الرواية، وقد وضعتها بين «علامات ترقيم».

على الرغم من هذه الأسانيد التاريخية، فإن هذا الكتاب مليء بالخيال الأدبي الحر. إن الشخصيات الرئيسية مثل كيا مذكورة في الكتابات المصرية بصفتها زوجة الفرعون الملكية، غير أن الجدل ما زال قائماً بين علماء الآثار والتاريخ حول ما إذا كانت أجنبية أم أنها من أحد فروع العائلة المالكة من الأسرة الثامنة عشرة. حتى الآن لا يوجد ما يدل على أنها من قطنا. كما أن رحلة إخناتون التفتيشية في شبابه وهو ولي عهد إلى الساحل

السوري، ليس ثمة ما يثبتها تاريخياً. وإذا كان مبدأ العمل الأول هو الالتزام ما أمكن بوثائق القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كرسائل تل العمارنة الشهيرة، فقد استقيت أيضاً من تراث ثقافات أخرى، ولا سيّما ثقافات الساحل السوري. أما الباقي فهو من نتاج الخيال الحر.

عند كتابة التسميات الجغرافية مثل الأماكن والبلدان والأنهار والبحار والجبال وأسماء الأغراض والأشخاص اتبع الأسلوب العملي، وكان دليلي في ذلك الأسماء والتسميات المتداولة. وفي أحيان كثيرة كنت أعود إلى لغة المكان. وفي الشرق القديم سادت أنظمة تقاويم مختلفة (بداية السنة، ثلاثة أو أربعة فصول سنوياً، إلخ). فوحدّتها في الرواية لتسهيل الاستخدام. وأبقيت على نظام مصر (ثلاثة فصول، يتألف كل منها من أربعة شهور ولكل شهر ثلاثون يوماً). وسوى ذلك استخدمتُ تسميات: موسم البذار، النضج، الحصاد، والشتاء يتألف من ثلاثة شهور، لكل منها ثلاثون يوماً. بداية السنة في وادي الرافدين والساحل السوري وحتّوشا تقع غالباً في الربيع، وفي مصر نحو منتصف شهر تموز/ يوليو. وقد تجنّبتُ التسميات الصعبة لفظاً وكذلك مقاييس المسافة والوزن والكيل ما أمكن.

ماريا كورانت

أسماء الأشخاص والأرباب

- كتبت الأسماء بالحروف اللاتينية أيضاً حسب لفظها في لغاتها الأصلية.
- كتبت الأسماء بالعربية مع التشكيل تسهيلاً للفظها على نحو صحيح.

العربية	Latin
أَبْتا	Apta
أَبر إل	Apar Il
أبي ميلكي	Abi Milki
آتارسيّا	Attarsija
إحِيّا	Eheja
إخناتون	Echnaṭun
أرتاتَمّا	Artatamma
أَرْنُواندا	Arnuwanda
أَرَيْمِنِه	Areimene
أَزّي هياسّا	Azzi Hiassa
إشْهارا	Ishhara
أشور أوباليت	Ašur Ubalit
إشپالّي	Ishpalli
أكالّينا	Akallina
أكيزّي	Akizzi
أكّيا	Akkija
أللاني	Allani
أَمِلو	Amelu
أمونحوتِب	Amunhuteb
أمينايَة	Aminaje
أمينوفيس	Amenuphis
آنا	Anna
أنخ سِنپا آتون	Anch senpa Atun
أنيتّا	Anitta
إهلي نيكالو	Ehli Nikalu
أوپيّا	Upija
إيانا	Iana
أيتاكمّا	Aitakamma
إيداندا	Idanda
إيذريمي	Idrimi
أيا	Aja
إيل	El
پاما	Pama
بعلوم (بعل)	Baálum
بِلْتوم	Beltum
پِنْتو	Pentu

بورنا بورياش	Burna Buriash
پوسّور	Pussur
بيرياوازا	Biriawaza
پيهونيا	Pihunia
بيليت إكالّيم (عشتار)	Belet Ekallim
تالْزو	Talzu
تانُوا	Tanuwa
تحوتْمُس	Thutmus
تِليپينو	Telipinu
تَرهونّا	Tarhunna
تَرْهونْرادو	Tarhunradu
تُوانوا	Tuwanuwa
تودْهاليا	Tudhalija
تودْهيپا	Tudhepa
توشْراتّا	Tushratta
توت عنخ آمون	Tut Anch Amun
توتو	Tutu
توهيتْرا	Tuhitra
تيرو	Tiru
تِيّـه	Teje
خونْس	Khons
دونيو	Dunijo
ريب عَدّي	Rib Addi
زابابا	Zababa
زاماما	Zamama
زپّالي	Zappali
زيپلانتاوي	Ziplantawi
زيمْريدا	Zimrida
سِتپِنْري	Setepenri
سروپْسي	Srupsi
سين	Sin
شاوشَغا (عشتار)	Shaushaga
شالا	Shala
شَنْغَرا	Shangara
شوپيلوليوما	Shupiluliuma
شوميري	Shumiri
عبدي عشيرتا	Åbdi Åshirt
عزيرا	Åzira
عشتار – إشتار	Åshtar – Ishtar
غابوللي	Gabulli
غسّو	Gassu
غولا	Gula
فرعون	Pharao
كالي	Kali
كواري	Kuwari
كورونتا	Kurunta
كوزيا	Kuzija
كنتوزيللي	Kantuzilli
كيا	Kija
كرا حرداش	Kara Hardash
لابارنا	Labarna
لُوايا	Luwaja
لوپاكي	Lupaki
لواني	Luwani

Malnigal	مالْنيغال
Manchuef	مانْخوئف
Merit Atun	مِريت آتون
Merire	مِريرِه
Malmada	مَلْمادا
Mut	موت
Mitanamuwa	ميتانَموا
Minos	مينوس
Naninzi	نانينْزي
Nofretete	نوفرتيتي
Nofre Nofru re	نُفْرِنُفرو رع
Nuwanza	نوانْزا
Niqmaddu	نيقْمدّو
Himuili	هيمويلي
Iau	ياو

أسماء البلدان والأنهار والشعوب وغيرها

وردت التسميات حسب لفظها في لغات بلدانها في القرن 14 ق. م.

أبَسا	Abasa
أخايا	Achaija
أخِت آتون	Achet Atun
أدانيا	Adanija
أرانتو (العاصي)	Arantu
أرزاوا	Arzawa
إرقاتا	Irqata
إريتّه	Eritte
أروادا	Arwada
آشور	Ašur
أشْتاتا	Ashtata
ألالاخ أو موكيش	Alalach
ألاشيا	Alashija
أريبي	Aribi
إكُوانيا	Ikuwanija
أمورو	Ammuru
أمانوس	Amanus
أنزيتا	Anzita
أوغاريت	Ugarit
أوغُلزات	Ugulzat
أهياوا	Ahijawa
إيدِقلات (دجلة)	Ideqlat
إيشوا	Ishuwa
إيمار	Imar
بابيلي (بابل)	Babili
پانكو (مجلس الشيوخ)	Panku
پِداسا	Pedassa
پَلا	Pala
پوراليا	Puralija
بوراتو (الفرات)	Puratu
بوروشْخَنْدا	Purushchanda
پورونا	Puruna
بيروتا	Biruta
تاغاسْتا	Tagasta
تاتّا	Tatta
تارو	Taru
تدمر	Tadmur
ترشا	Tarsha

تَوانّانا	Tawannana
تُوانُوا	Tuwanuwa
تَاوروس	Taurus
تورميتا	Turmitta
تيپُوا	Tippuwa
تيواتّسا	Tiwatassa
حتّوشا	Hattusha
حِتّي	Hetti
حَبَلّلا	Haballa
حلْپا (حلب)	Halpa
حوري	Hurriti
جُبْلا (جبيل)	Gubla
جِبولا (جبلة)	Gibula
دِمَشْقا	Dimashqa
رابيسو	Rabisu
زالْپا	Zalpa
زينزار	Zinzar
سامْرا	Samra
ساموحا	Samuha
ساريسّا	Sarissa
سور (صور)	Sur
سومورا (تل كزل)	Sumura
سيدونو (صيدا)	Sidunu
سيريسّا	Sirissa
طِرْقا	Terqa
طيبة (واسط)	Thebai
غِزر	Gezer
غزّا	Gazza
قادِش	Qadesh
قطْنا (تل المشرفة)	Qatna
كُپيريو (قبرص)	Kupirijo
كارزي	Karzi
كستاما	Kastama
كركميش	Karkamish
كروكوس	Krukus
كشكيونكشكا	Kashka
كَفْتو (كريت)	Keftu
كمّاما	Kammama
كنعان	Kanåan
كنوسُس	Knosos
كواليا	Kuwalija
كوسّورا	Kussura
كوش	Kush
كيدنوس	Kidnos
كيزُواتْنا	Kizuwatna
كيلَمّار	Kilammar
لوازَنْتيا	Lawazantija
لُوي (اللوڤية)	Luwi
مالا (الفرات- بالحثيّة)	Mala
ماليديا	Malidija
مصر (كِمِت)	Misir
مَرَسَنْتا	Marasanta
مِسّينا	Mycenai
مِغيدّو	Megiddu

Mukish	موكيش
Mittani	ميتّاني
Milawanda	ميلاواندا
Habantali	هَبَانْتالي
Hursama	هورساما
Himuwa	هيموول
Nablini	نابليني
Nai Ti	ناي تي
Nerika	نِريكا
Nesa	نِسا
Nen Nesu	نِن نِسو
Nuhasse	نوحاسّه
Nashala	نَشَلا
Nija	نيا
Nil (Îtru)	نيل
Nenassa	نيناسا
Wanax	وانكس
Washukani	واشوكاني

المترجم

نبيل الحفار، من مواليد دمشق - سورية 1945. بعد حصوله على الثانوية العامة 1964 درس الأدب الألماني في جامعة لايبزيغ حتى حصل على الدبلوم 1971، ثم تابع دراسته بعد انقطاع سنوات حتى حصل على الدكتوراه في الفنون المسرحية من جامعة هومبولت في برلين 1989.

كان رئيس قسم الدراسات المسرحية في المعهد العالي للفنون المسرحية في دمشق، ورئيس تحرير مجلة «الحياة المسرحية»، ورئيس لجنة تحكيم مسابقة سامي الدروبي للترجمة في الهيئة العامة السورية للكتاب، وأمين تحرير مجلة «الآداب الأجنبية» الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب في دمشق، ورئيس قسم اللغات والآداب الأجنبية في هيئة الموسوعة العربية في دمشق.

نشر كثيراً من المقالات والبحوث في المسرح والأدب، وترجم العديد من الأعمال المسرحية والروائية والنظرية من الألمانية، داخل سورية وخارجها.

حاز عام 1983 على «جائزة الأخوين غريم للترجمة» من وزارة الثقافة الألمانية، وعلى «جائزة غوته للترجمة» على مستوى البلاد العربية عام 2010، وعلى «جائزة الدولة التقديرية في مجال الترجمة والمسرح» عام 2014.



كانت مملكة قطنا، الممتدة على أراضي سوريا الطبيعية في الألف الثانية قبل الميلاد، دولة مزدهرة حضارياً وأحد أهم المراكز التجارية في العالم القديم، فباتت بالتالي بؤرة أطماع الحضارات المجاورة في الأناضول وما بين النهرين ووادي النيل.

تتحالف المملكة مع القوة الفرعونية العظمى في ذلك الوقت، وترسل أميرتها «كيا» زوجةً ثانية لوريث عرش مصر «إخناتون»، أول الموحّدين، والذي سيبلبل عقل «كيا» ويغرس فيه بذور الشك في الآلهة التي تعبدها، فتدخل في دوامة من الأسئلة الكبيرة، وفي دوامة أخرى من الدسائس الداخلية التي تحيكها «نوفرتيتي»، الزوجة الأولى للفرعون، لتحافظ على مكانتها.

ومن خلال قصة أميرة قطنا «كيا» والنبوءة الغامضة التي تراها، تضيء الكاتبة على أحداث ذاك العصر المضطرب، المشحون بالدسائس الداخلية والخارجية والحروب الاقتصادية التوسعية.


ISBN 978-9953-583-88-4



